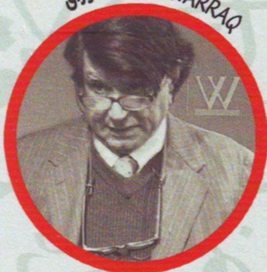
الإسلام بعيون غربية

IBN WARRAQ ابن الورّاق



ARTHUR JEFFERY آرثر جيفري



GERD PUIN جيرد بوين



PATRICIA CRONE باتريشيا كرون



ترجمة:
إبراهيم جركس

LIBERAL LIBRARY

الإسلامُ بعيونٍ غربيّة

Islam Through Western Eyes

نخبة من الباحثين

ترجمة: إبراهيم قيس جركس

الناشر: الدار الليبرالية/برلين

Liberal Library - Berlin

الطبعة الأولى، 2022

Deutschland _ Berlin _ Schlachthofstrasse 20

+4917621419894 / +963968334411

lllliberallabrary@gmail.com



إن الدار الليبرالية غير مسؤولة بشكل مباشر عن آراء الكاتب إنما تنشر ثقافة مقترحة بحيادية، وكل كاتب يعبر عن آراء مؤلفه وإن كنا لا ننشر إلا ما نحن مقتنعون بأهميته ثقافياً سواء وافقنا الكاتب أم لا، ونحن ملتزمون بقيم الحرية الفكرية بأعلى مستوياتها والاختلاف حالة طبيعية فلا نلزم أحد بقراءة منشوراتنا.

شعارنا

حرية الاختيار تعني اختيار الحرية، فالحرية لا تختار إلا ذاتها.

نخبة من الباحثين

الإسلامُ بعيونٍ غربيّة

ترجمة: إبراهيم قيس جركس



2022

معلوماتٌ تمهيديّة بأقلامٍ متعدّدة

أقدمُ المخطوطاتِ القرآنيّة - مخطوطةُ صنعاءَ وسمرقند

اكتشاف قرآن صنعاء

جيرد آر بوين [1]

كانَ جيرد بوين رئيساً لمشروعِ ترميم، موكّلاً من قبلِ الحكومةِ اليمنيّة، وقد قضى وقتاً طويلاً في فحصِ المخطوطاتِ القرآنيّةِ القديمةِ المكتشفةِ في صنعاءَ في اليمن عام 1972.

وقد كشفَ فحصهُ عن تسلسلٍ غيرِ شرعيٍّ للآياتِ القرآنيّةِ واختلافاتٍ في النصّ، ونمطٍ نادرٍ من الإملاء يفترقُ عن النسخِ الشّرعيّةِ اللاّحقة، وهذا ينفي التأكيدَ على أنَّ القرآنَ هوَ كلامُ اللهِ الأصليُّ غيرُ المحرَّف.

كُتِبت الآياتُ بخطٍّ عربيٍّ حجازيٍّ مبكر، وهذا ما يطابقُ النسخَ الأقدمَ المعروفةَ منَ الأجزاءِ منَ القرآن، وهنالكَ أيضاً -في المخطوطة- وبشكلٍ واضحٍ صورٌ للنصِّ كُتِبَت فوقَ صورٍ ممحيّةٍ أقدم، وما أكّدهُ القرآنُ اليمني هوَ وجودُ نصٍّ متطوّرٍ (للقرآن) بدلاً من نصٍّ ثابت، وذلكَ منذُ وفاةِ محمّد عامَ 632 للميلاد.

لقد نُظِّفَت وعُومِلَت وصُنِّفت وصوّرت بصورةٍ مضنيةٍ أكثرَ من 15000 رقٍّ منَ القرآنِ اليمني، كما أنَّ 3500 صورةٍ ميكروفلميّة قد استُنسِخَت منَ المخطوطة. توجدُ بعضُ ملاحظاتِ بوين الابتدائيّة عن اكتشافاتهِ في مقالهِ المعنون «نتائجُ فحصٍ لمخطوطاتٍ قرآنيّةٍ مبكرةٍ في صنعاء» والتي كانت قد نُشِرَت في كتاب «ماذا يقولُ القرآنُ حقيقةً» لابنِ الورّاق.

(1) جيرد روديجر بوين (ولد عام 1940) هوَ متخصّصٌ ألمانيٌّ والمستشارُ الأهمُّ في العالم في مجالِ المخطوطاتِ القرآنيّةِ القديمة qur'anic paleontology، وهوَ علمُ دراسةِ وتفسيرِ المخطوطاتِ القديمة، وهو أيضاً اختصاصيٌّ في فنِّ الخطِّ العربي. وقد كانَ محاضراً ثابتاً في جامعةِ السّار Saarland في ساربروكن Saarbrucken في ألمانيا.

تقويم القرآن:

يدعمُ بحثُ بوين استنتاجَ جون وانسبرو وتلاميذهُ؛ أنَّ القرآنَ الذي نعرفهُ لا يعودُ إلى زمنِ محمّد.

في عام 1999 تقتبسُ مقالةٌ في شهريّةِ أتلانتيك عن جيرد بوين أنّهُ قال:

«فكرتي هيَ أنَّ القرآنَ هوَ نوعٌ منَ الكوكتيلِ المصنوعِ من خلطِ النصوص، والتي لم تكن كلّها مفهومةً حتّى في زمنِ محمّد، العديدُ منها ربّما كانت أقدمَ بمائةِ عام منَ الإسلامِ نفسه.

حتّى ضمنَ التقاليدِ الإسلاميّة، هنالكَ كمٌّ ضخمٌ منَ المعلوماتِ المتناقضة، المتضمّنةِ طبقةً مسيحيّةً مهمّة، ومنَ الممكنِ للمرءِ أن يكوّنَ تاريخاً مناظراً للإسلامِ منها —المعلومات— إذا شاء.

يدّعي القرآنُ لنفسهِ أنّهُ مبين؛ أي واضح، ولكنّكَ إن نظرتَ إليه، ستجدُ أنَّ بعدَ كلِّ عبارةٍ رابعةٍ تقريباً، عبارةً خامسةً لا معنى لها، بالتأكيد، العديدُ منَ المسلمينَ قد يخبرونكَ العكس، ولكنَّ الحقيقة هيَ أنَّ خُمسَ القرآنِ هوَ في الواقعِ غيرُ مفهوم، فإذا كانَ لا يُفهَمُ بالعربيّة، فهوَ إذن غيرُ قابلٍ للترجمة، وهذا ما يجعلُ المسلمينَ خائفين، فبما أنَّ القرآنَ يدّعي تكراراً أنّهُ مبين ولكنّهُ ليسَ كذلك؛ إذن هنالكَ تعارضٌ واضحٌ وجدّيّ، فهنالكَ شيءٌ ما مُشكِلٌ في المسألة».

وفي مقالةٍ اختصاصيّةٍ سابقة (بوين، عام 1996)، يصفُ بوين الاختلافاتِ التي وجدها، وعادةً ما كانت في تسلسلِ النصّ، ويقارنها مع الاختلافاتِ المذكورةِ سلفاً من قبلِ فقهاءِ المسلمين.

من وجهةِ نظرٍ إسلاميّةٍ دينيّة، منَ الممكنِ للمرءِ أن يعترضَ بأنَّ المصادرَ الإسلاميّةَ قد ذكرت أنَّ عدداً من صحابةِ محمّد الأوّلين قد امتلكوا نصوصاً قرآنيّةً مختلفةً عن تلكَ المفروضةِ منَ الخليفةِ عثمانَ بنِ عفّان (656–650)، وأنَّ هؤلاءِ الصّحابةَ كانوا ممانعينَ في التخلّي عن نسخهم.

وبينما يقالُ أنَّ بوين هوَ الآنَ يعملُ على تأليفِ كتابٍ عن مخطوطاتِ صنعاء، فهوَ قد وضّحَ

سلفاً الفجوةَ الظاهريّةَ بينَ تصريحاتِهِ إلى شهريّةِ اتلانتيك وأبحاثِهِ الأكاديميّةِ المنشورةِ في مجموعةِ دي دنكلين انفانج Die dunklen Anfänge (برلين 2005)، وفي هذا المجلّد يناقشُ عددٌ منَ الباحثينَ الإسلاميّين بصورةٍ أكاديميّةٍ نقاطاً غيرَ واضحةٍ في الإسلام.

مخطوطةُ سمرقنّد/ مصحفُ سمرقنّد:

القرآنُ العثمانيّ (ويسمّى أيضاً المصحفَ العثمانيَّ، والقراءةَ العثمانيّةَ، ومصحفَ سمرقنّد، ومخطوطةَ سمرقنّد، وقرآنَ طشقند)، أُطلِقَ عليهِ هذا الاسمُ نسبةً إلى الخليفةِ الثّالثِ عثمانَ بنِ عفّان، وهوَ نسخةٌ مخطوطةٌ منَ القرآن، محفوظةٌ في مكتبةِ هاست إمام. برفقةِ مخطوطاتِ صنعاء، يعدُّ المصحفَ الأقدمَ على وجهِ الأرض.

تحديدُ تاريخِ كتابةِ المخطوطة:

لا يُمكنُ أن يكونَ مصحفُ سمرقنّد قد كُتِبَ قبلَ 150 عاماً من -ما يُفترض أنّهُ كانَ- استكمالَ القراءةِ العثمانيّة، على أقلِّ تقدير؛ أي خلالَ أواخرِ القرنِ الثّامنِ الميلادي أو أوائلِ القرنِ التّاسع، وذلكَ لكونهِ مكتوباً بالخطِّ الكوفي. يدّعي بعضُ المسلمين أنَّ هنالكَ قراءتينِ عثمانيّتين، أو نسختينِ من مصحفِ عثمانَ القرآنيّة: مخطوطةُ سمرقنّد في مكتبةِ طشقند في أوزبكستان ومخطوطةُ طوب كابي في متحف طوب كابي في اسطنبول في تركيا. يدّعي القليلونَ أنَّ البقعَ الحمراءَ على إحدى صفحاتِ المخطوطةِ تشيرُ إلى بقعِ دم تركتها جريمةُ قتلِ عثمان. إنَّ الإشكالَ في هذا الادّعاء هوَ أنَّ هاتينِ الوثيقتينِ مكتوبتانِ بالخطِّ العثمانيِّ الذي لم يظهر- طبقاً لما يقولهُ العالمانِ بالدراساتِ القرآنيّة مارتن لنكز وياسين حامد صفدي- إلّا في أواخرِ القرنِ الثّامن. إنَّ ممّا يثيرُ المعضلات عدمُ إمكانيّةِ إرجاعِ أيِّ مخطوطةٍ قرآنيّةٍ إلى فترةٍ تسبقُ الربعَ الأوّلَ منَ القرنِ الثّامنِ الميلادي، فيما عدا بعضِ المخطوطاتِ المكتشفةِ في عليّةٍ في الجامعِ الكبيرِ بصنعاء في عام 1972، إنَّ الفترةَ بينَ وفاةِ محمّد أوّلُ قرآنٍ (نمتلكه) هيَ 150 عاماً، يرافقُ ذلك إمكانيّةٌ لوجودِ تغييرات، أو حتّى تطوّرٍ لنصِّ القرآن قبلَ الفترةِ الأمويّة.

المصاحفُ القديمةُ كُتِبَت بلا نقط:

تاريخها:

تُنسبُ هذهِ المخطوطةُ إلى الخليفةِ الثّالثِ عثمان، في عام 615، بعدَ 19 عاماً على وفاةِ محمّد، ندبَ عثمانُ هيئةً لغرضِ إخراجِ نسخةٍ قياسيّةٍ لنصِّ القرآن، أُرسِلَت خمسٌ من هذهِ المصاحفِ القرآنيّةِ إلى المدنِ الإسلاميّةِ الرئيسةِ في تلكَ الحقبة، واحتفظَ عثمانُ بواحدةٍ لاستخدامهِ الشخصيِّ في المدينة، يقالُ أنَّ النسخةَ الأخرى الوحيدة يُحتفظُ بها في قصرِ طوب كابي في تركيا.

خلفَ عثمانَ عليٌّ الذي أخذَ قرآنَ عثمانَ إلى الكوفة، في العراقِ حاليّاً، عندما دمّرَ تيمورلنك المنطقة، أخذَ القرآنَ إلى عاصمتهِ سمرقنْد، باعتبارهِ كنزاً، وبقيَ هناكَ طوالَ أربعةِ قرونٍ حتّى عام 1868، عندما غزا الروسُ واستولوا على القرآن، وجلبوهُ إلى المكتبةِ الإمبراطوريّةِ في سانت بطرسبرج (التي تدعى اليوم بالمكتبةِ الوطنيّةِ الروسيّة).

بعدَ ثورةِ أكتوبر، أهدى فلاديمير لينين القرآنَ إلى شعبِ أوفا في بشكورستان -جمهوريّةٌ روسيّةٌ في حوضِ الفولغا في روسيا حاليّاً- وبعدَ التماساتٍ متكرّرةٍ من شعبِ جمهوريّةِ تركستانِ السوفيتيّةِ الاشتراكيّة، أُعِيدَ القرآنُ إلى آسيا الوسطى، إلى طشقند، حيثُ بقيَ هناكَ إلى اليوم.

حالتها اليوم:

إنَّ المخطوطةَ المكتوبةَ على الرقِّ محفوظةٌ اليومَ في مكتبةِ مسجدِ تليا شيخ في منطقةِ هاست إمام (حضرتِ إمام) في طشقند في أوزبكستان، بقربِ مرقدِ كفل شاشي، وهوَ فقيهٌ مسلمٌ منَ القرنِ العاشر.

إنَّ المخطوطةَ منقوصةٌ نوعاً ما، فلم يتبقَّ فيها إلّا ثلثُ القرآن، وهيَ تبدأُ من منتصفِ الآيةِ السّابعةِ من سورةِ البقرة وتنتهي فجأةً في سورةِ الزخرف: 10.

إنّها تحتوي على ثمانٍ إلى اثني عشرَ سطراً في كلِّ صفحة، وهيَ خاليةٌ من علاماتِ التنقيط، لذلكَ فهيَ قديمةٌ للغاية.[1]

(1) المصدر بوين آر جيرد: «نتائجُ فحصٍ لمخطوطاتٍ قرآنيّةٍ مبكرةٍ في صنعاء» في «القرآنِ كنصّ» تأليف وجمع ستيفان وايلد وأي جاي بريل 1996 الصفحات من 107 إلى 111. معادُ طباعتها في كتاب «ماذا يقولُ

لمحةٌ تاريخيّة:

اكتُشِفَت أقدمُ اقتباساتٍ قرآنيّة على عملاتٍ أثريّةٍ قديمةٍ كانت متداولةً في عام 685 م، وفي المسجدِ الأقصى الذي بناهُ عبدُ الملكِ بنُ مروان في القدْس في 691 م (Crone-Cook, 1977, p. 18). تختلفُ هذهِ الاقتباساتُ القرآنيّةُ كثيراً عن النصِّ القرآنيِّ المتداول في العصرِ الحاليّ. استنتجَ فان برشم وجرومان بعدَ دراساتٍ تفصيليّةٍ لأقدمِ النقوشِ والكتاباتِ في المسجدِ الأقصى أنّها تختلفُ كثيراً عن القرآنِ الحاليِّ في تصريفِ الأفعال وفي تركيبِ الجُملِ ومعانيها، كما أنّها تحذفُ بعضَ ما يحتويهِ قرآنُ اليوم.(1)

أقدمُ شاهدٍ غيرِ إسلاميٍّ لكتابٍ يُدعى القرآن، يرجعُ إلى منتصفِ القرنِ الثّامنِ للميلاد، بينَ رجلٍ عربيٍ وراهبٍ من بيت هيل (Nau 1915, pp. 6, f.)، لكنَّ هذا الشّاهدَ لا يصفُ محتوياتِ الكتاب، ليست لدينا أيّةُ مخطوطاتٍ قرآنيّةٍ كاملةٍ منَ القرنِ السّابع.(2)

في الواقع، معظمُ المخطوطاتِ لأجزاءٍ منَ القرآن قد كُتِبَت بعدَ موتِ محمّد بأكثرِ من مئةِ سنة، لا يوجدُ أيُّ دليلٍ في الآثارِ القديمةِ على وجودِ النسخةِ القرآنيّةِ التي نقّحها وأصدرها الخليفةُ عثمانُ بنُ عفّان.(3)

أقدمُ المخطوطاتِ القرآنيّةِ هيَ الآتي:

1. مخطوطةُ سمرقنْد (في مكتبةِ طشقند، أوزبكستان). تحتوي هذهِ المخطوطةُ فقط على أجزاءٍ غيرِ كاملةٍ من 42 سورة - من سورةِ البقرة 2 إلى سورة الزخرف 43- تحتوي على آياتٍ قرآنيّةٍ تختلفُ عن النصوصِ القرآنيّةِ الحاليّة.(4)

القرآنُ حقيقةً؛ تأليف وجمع ابن الورّاق، دار بروميثوس للكتب، 2002.

(1) Cook, Muhammad, 1983, p. 74; Crone-Cook 1977, pp. 167-168; see Van Berchem, part two, vol. ii, 1927, pp. 215-217 and Grohmann's Arabic Papyri form Khirbet el-Mird, no. 72.

(2) A. Schimmel, Calligraphy and Islamic Culture, 1984, p. 4.

(3) Gilchrist, Jam' al-Qur'an, 1989, pp. 140-154; Martin Lings and Yasin Hamid Safadi, The Qur'an, 1976, pp. 11-17

(4) Brother Mark, A Perfect Qur'an, p. 67.

2. مخطوطة طوب كابي (في متحف طوب كابي باستانبول، تركيا)، غيرُ مسموحٍ للخبراءِ بتصويرِ ودراسةِ هذهِ المخطوطة.

هاتانِ المخطوطتانِ مكتوبتانِ بالخطِّ الكوفيِّ الذي أستُخدِمَ في أواخرِ القرنِ الثّامنِ الميلادي، ولم يكن مستخدماً في مكّةَ والمدينة في القرنِ السّابع.[1]

كُتِبَت هاتانِ المخطوطتانِ في أواخرِ القرنِ الثّامنِ أو أوائلِ القرنِ التّاسعِ الميلادي؛ أي أكثرَ من 150 سنةً بعدَ إصدارِ النسخةِ العثمانيّةِ المزعومةِ للقرآن.[2]

مخطوطةٌ قرآنيّةٌ مكتوبةٌ بالخطِّ المائلِ الذي كانَ مستخدماً في الحجاز (في المتحفِ البريطانيِّ بلندن، بريطانيا)، بحسبِ د. مارتن لنجز، كُتِبَت هذهِ المخطوطةُ في أواخرِ القرنِ الثّامنِ للميلاد.

مخطوطاتُ صنعاءَ (اليمن)، هذهِ المخطوطاتُ المتناثرة، تحتوي على بعضِ أجزاءٍ منَ القرآن، وتعودُ إلى الفترةِ من أواخرِ القرنِ السّابعِ للميلاد إلى القرنِ الثّامنِ الميلادي، القرآنُ الذي تحتويه يختلفُ عن النصِّ القرآنيِّ الحاليِّ، يتّضحُ عندَ فحصِ هذهِ المخطوطات، أنَّ النصَّ القرآنيَّ بها قد تغيّر، فالقرآنُ الذي بها مكتوبٌ فوقَ نصٍّ قرآنيٍّ أقدمَ منهُ قد تمَّ محوه، غيرَ أنَّ آثاراً منهُ ما زالت باقية.[3]

•

(1) Martin Lings and Yasin Hamid Safadi, The Qur'an, 1976, pp. 12-13, 17.

(2) Gilchrist, Jam' al-Qur'an, 1989, pp. 144-147.

(3) Toby Lester, What Is the Koran, The Atlantic Monthly, Jan. 1999.

القسم الأول

القرآنُ في الإسلام

(بحثٌ في معصوميّةِ القرآنِ وموثوقيّته)

وليم غولدساك 1906

The Quran In Islam An Inquiry Into The Integrity Of The Quran By The Rev. W. Goldsack The Christian Literature Society London، Madras And Colombo 1906.

مقدّمة:

القرآنُ أساسُ الإسلامِ وأسّهُ، حيثُ أنَّ المحمّديّينَ يعاملونَ هذا الكتابَ باحترامٍ وإجلالٍ كبيرين، كما يطلقونَ عليهِ الكثيرَ منَ الألقابِ والتسمياتِ المبجّلة. أهمُّ تسميةٍ من بينِ تلكَ التسمياتِ الكثيرة قد تكونُ «الفرقان»، «القرآنُ المجيد»، «القرآنُ الشّريف»، «الكتاب»، [والقرآنُ الكريم]، والاعتقادُ الشائعُ عندَ المسلمينَ أنَّ القرآنَ كلمةُ اللهِ غيرُ المخلوقةِ والمعصومةُ، والتي أنزلها على نبيّهِ محمّد عن طريقِ الملاكِ جبريل. يزعمُ الكثيرونَ أنَّ القرآنَ العربيَّ لا يمكنُ مجاراتهُ أو الإتيانُ بمثلهِ في تاريخِ الأدب، حتّى أنَّ محمّداً نفسهُ تحدّى الكفّارَ أن يأتوا بمثلهِ من خلالِ هذهِ الآية: {وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [البقرة 2: 23] لاشكَّ أنَّ لغةَ القرآنِ تبدو جميلةً وأخّاذةً في أماكنَ معيّنة، إلّا أنّنا يمكننا ملاحظةُ أنَّ هناكَ الكثيرَ منَ المفاهيمِ والمعتقداتِ الدينيّةِ اليهوديّةِ والمسيحيّةِ التي تشغلُ مساحةً ليست بالقليلةِ ضمنَ النصِّ القرآني، وهذهِ الإشاراتُ الكثيرةُ إلى هذهِ الأديانِ السّالفة قد تكونُ مفيدةً، وتظهرُ لنا أنَّ محمّداً لم يقدّم نفسهُ كمؤسّسٍ لمنظومةٍ دينيّةٍ جديدة كمشرّعٍ لذلكَ الدينِ الإبراهيميِّ الذي كانَ منتشراً في المنطقةِ منذُ البداية. الإشاراتُ التي تضمّنها كتابُ محمّد إلى الكتاباتِ المقدّسةِ اليهوديّةِ والمسيحيّةِ أيضاً تبيّنُ لنا أنَّ القرآنَ لا يزعمُ أنّهُ يُبطِلُ هذهِ الكتبَ أو يحلُّ محلّها كأن يثبتها مثلاً أو يؤكّدها،

آياتٌ من هذا النوعِ يمكنُ إيجادها في جميعِ سورِ القرآن، طبعاً معظمُ التبجيلِ ينصبُّ على كلٍّ من التوراةِ والإنجيل، وكثيراً ما يشارُ إلى أنَّ هذهِ الكتبَ تستحقُّ الإيمانَ والطّاعة.

لذلكَ منَ المستغربِ أنَّ _بالرّغمِ من هذهِ الحقيقة_ المسلمينَ اليوم كثيراً ما يتحدّثونَ عن أنَّ كتبَ اليهودِ والمسيحيّينَ هيَ كتبٌ «محرّفة»، وبذلكَ فهيَ غيرُ جديرةٍ بالاهتمامِ والنظرِ فيها اليوم، أمّا السببُ وراءَ هذا الموقفِ فواضحٌ جدّاً، إذ أنَّ مقارنةً عادلةً بينَ الكتابِ المقدّسِ المسيحيِّ والإسلاميِّ تبيّنُ أنَّ القرآن، والذي يزعمُ أنّهُ يثبتُ الكتبَ السّابقةَ ويكمّلها، يختلفُ عنها اختلافاً كبيراً.

لذلك لطالما حاولَ المحمّديونَ إيجادَ الوسائلِ والأساليبِ المناسبةِ لإنكارِ صلاحيّةِ ومصداقيّةِ التوراةِ والإنجيل، لتبريرِ هذا التناقض. والسؤالُ هنا: إلى أيِّ مدى حُرِّفَ القرآنُ منذُ أن قامَ نبيُّ الإسلامِ بأسرِ عربِ الجزيرةِ بفصاحتِهِ، إذ يبدو أنَّ هذهِ المسألةَ لم يُنظر إليها بشكلٍ جدّيٍّ من قبلِ علماءِ المسلمينَ المحدثين، ومع ذلك فمعرفةٌ طفيفةٌ في التّاريخِ والأدبِ العربيّين تظهرُ لنا حقيقةَ أنَّ القرآنَ الحاليَّ بعيدٌ كلَّ البعدِ عن كونهِ الكتابَ الكاملَ والنسخةَ الأصليّةَ عن ذلكَ المصحفِ الذي لقّنهُ محمّدٌ لأتباعه.

في الصفحاتِ التّالية سنكملُ تأسيسنا لحقيقةٍ أخذناها من أوثقِ المصادرِ الإسلاميّةِ وأكثرها اعتماداً، وسنبيّنُ الحقيقةَ التي مفادها أنَّ القرآنَ الحاليَّ الذي بينَ أيدينا الآن، تمَّ تحريفهُ وتشويههُ والتلاعبُ بهِ إلى حدٍّ كبيرٍ منذُ زمنِ محمّد، لدرجةِ أنّهُ لم يعد موثوقاً، وباتَ مشكوكاً بهِ وبأصالتِهِ كونهُ ذلكَ الكتابَ الذي لقّنهُ محمّدٌ لأصحابه.

القراءاتُ السّبعة:

لم يقدّم محمّدٌ القرآنَ دفعةً واحدة، بل طرحهُ تدريجيّاً حسبما تطلّبتهُ الظروفُ الزمانيّةُ والمكانيّة، خلالَ مدّةٍ منَ الزّمنِ تبلغُ حوالي 23 عاماً. وحتّى خلالَ تلكَ الفترة، لم يكن أصحابهُ المقرّبونَ قد جمعوا كاملَ المادّةِ القرآنيّةِ ودوّنوها، إذ أنّهم حفظوا قسماً منها، ودوِّنَت أخرى على موادٍ مثلَ سعفِ النخيل، الجلود، الأحجارِ المسطّحة، وإلى ما هنالك، لكن سرعانَ ما ظهرت الاختلافاتُ والتباينات، حيثُ يخبرنا التّراثُ أنّهُ خلالَ فترةٍ زمنيّةٍ قصيرة ظهرت اختلافاتٌ جذريّةٌ وجوهريّةٌ في قراءةِ القرآن، اختلافاتٌ لا تنحصرُ فقط على اللفظ كما يحاولُ البعضُ

إقناعنا.

إذ أنّنا نقرأُ في كتابٍ تراثيٍّ معروفٍ على نطاقٍ واسع بعنوانِ «مشكاةِ المصابيح»، ضمنَ فصلِ عنوانُهُ «فضائلُ القرآن» ما يلي: ((عن عمرَ بنِ الخطّاب قال: سمعتُ هشامَ بنَ حكيم بن حزامٍ يقرأُ سورةَ الفرقان على غيرِ ما أقرأها وكانَ رسولُ اللهِ صلّى الله عليهِ وسلّم أقرأَ فيها، فكدّت أن أعجلَ عليه ثمَّ أمهلته حتّى انصرف ثمَّ لببتهُ بردائهِ فجئتُ بهِ رسولَ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم فقلت: يا رسولَ الله، إنّي سمعتُ هذا يقرأُ سورةَ الفرقانِ على غيرِ ما أقرأتَ فيها. فقال رسولُ الله صلعم: أرسلهُ يقرأ، فقرأ القراءةَ التي سمعتهُ يقرأ.

فقالَ رسولُ اللهِ صلعم: هكذا أُنزِلت، ثمَّ قالَ لي: اقرأ، فقرأت، فقال: هكذا أُنزِلت، إنَّ هذا القرآنَ أُنزِلَ على سبعةِ أحرفٍ فاقرؤوها ما تيسّرَ منه. [متّفق عليه واللفظُ لمسلم])) وهنالكَ الكثيرُ منَ التقاليدِ والأحاديثِ التي تتعلّقُ بهذهِ القراءاتِ السّبعةِ للقرآن، حيثُ حاولَ الباحثونَ المحمّديونَ بطرقٍ مختلفةٍ تفسيرَ أهمّيّتها، لكن من دونِ جدوى، فالاختلافاتُ التي تخلّلت هذهِ القراءاتِ السّبعةَ للقرآن كانت كبيرةً وجوهريّة. إذ يُوردُ النسائيُّ خبراً يؤكّدُ لنا فيهِ أنَّ عمراً قد اتّهمَ هِشاماً بالكفرِ والبهتان، وأكّدَ بأنّهُ قرأَ الكثيرَ منَ الكلماتِ في نسختهِ منَ القرآن لم يسبق لهُ أن سمعها منَ النبيّ. في حديثٍ آخر، أوردهُ مسلم، نلاحظُ أنَّ ابنَ كعب، أحدَ أشهرِ وأهمِّ كتبةِ القرآن، سمعَ رجلينِ كلُّ واحدٍ منهما قرأَ قراءةً مختلفة، فاختلفَ معهما، وعندما رجعَ بهما إلى النبيّ، قرأَ كلٌّ منَ الرجلينِ أمامَ النبيِّ ما كانَ قد حفظهُ، فاستحسنَ محمّدٌ كلا القراءتين، ممّا دفعَ أُبيَّ بنَ كعب إلى التصريحِ التّالي: ((فسقطَ في نفسي منَ التكذيبِ ولا إذ كنتُ في الجاهليّة)). من هذهِ المصادرِ التراثيّةِ المختلفةِ والمتنوّعة يصبحُ منَ الواضحِ أنّهُ حتّى خلالَ فترةِ حياةِ النبيّ كانَ القرآنُ يُقرَأُ بقراءاتٍ مختلفةٍ ومتضاربةٍ بشكلٍ كبير، تلكَ الاختلافاتُ كانت كبيرةً جدّاً وبارزة إذ سرعانَ ما برزت وأصبحت واضحةً للعيان، حيثُ أنَّ أهلَ حمصَ اعتمدوا قراءةَ المقدادِ بنِ الأسود، أمّا أهلُ الكوفةِ فقد اعتمدوا قراءةَ ابنِ مسعود، وأهلُ البصرةِ اتّبعوا أبا موسى في قراءتِه، وهكذا. لم سيكونُ منَ الخطأِ الافتراضُ بأنَّ هذهِ الاختلافاتِ والتبايناتِ قد دخلت ببساطةٍ أثناءَ جمعِ القرآنِ وتنقيحهِ وقراءتِهِ باللهجاتِ العربيّةِ المختلفة، كما يريدوننا أن نعتقد، إذ أنَّ هناكَ دليلاً قاطعاً يبيّنُ أنَّ هذهِ الاختلافاتِ والتفاوتاتِ تعاظمت لتصبحَ أعمقَ بكثيرٍ ممّا كانَ يُعتَقَد. طبعاً يُخبرنا السيوطي في كتابهِ «الإتقان» أنَّ الرجلينِ اللذينِ ذكرناهما سابقاً (عمر

وهشام)، كانا من نفسِ القبيلة؛ أي قرشيّين، لذا فالقولُ أنَّ الاختلافاتِ هيَ مجرّدُ اختلافاتٍ لهجويّةٍ أو لسانيّةٍ قولٌ غيرُ دقيقٍ وغيرُ منطقيٍّ ليفسّرَ لنا الاختلافاتِ التي ذكرناها. في الفصولِ اللاحقة سنبيّنُ مدى جدّيّةِ هذهِ الاختلافات، وسنقرأُ عن بعضِ الوسائلِ والأساليبِ التي اعتُمِدَت لقمعها والتخلّصِ منها.

تنقيحُ أبي بكرٍ وعثمانَ للقرآن:

في الفصلِ الثّالثِ من كتابِ المشكاة ندركُ أنّهُ بعدَ فترةٍ قصيرةٍ من وفاةِ النبيّ، بقيَ القرآنُ محفوظاً في صدورِ البشرِ [أو ذاكرتهم]، وكانَ ما زالَ يُقرَأُ بطرقٍ وأساليبَ مختلفةٍ ومتضاربة، لكن خلالَ المعركةِ الشهيرةِ التي دارت بينَ المسلمينَ وأتباعِ مسلمةَ الحنفيِّ والتي سمّيت بمعركةِ اليمامة سقطَ العديدُ من حفظةِ القرآنِ وقُتِلوا. عندئذٍ _وخوفاً من سقوطِ حفظةِ القرآنِ في معاركَ قادمة ممّا قد يجعلُ القرآنَ المحفوظَ في صدورهم عرضةً للفقدِ إلى الأبد، إذ سيضيعُ منهُ جزءٌ كبير_ قدِمَ عمرُ إلى أبي بكرٍ وطلبَ منهُ أن يجمعَ الصّحفَ والأجزاءَ المحفوظةَ منَ القرآن ووضعها في كتابٍ موحّد، لكنَّ أبا بكر واجههُ بالاعتراض. ((أنَّ زيدَ بنَ ثابت رضيَ الله عنه قال: أرسلَ إليَّ أبو بكرٍ يومَ مقتلِ أهلِ اليمامة فإذا عمرُ بنُ الخطّاب عندهُ قالَ أبو بكر رضيَ اللهمَّ عنهم: إنَّ عمراً أتاني فقال إنَّ القتلَ قد استحرَّ يومَ اليمامةِ بقرّاءِ القرآن، وإني أخشى أن يستحرَّ القتلُ بالقرّاءِ بالمواطن فيذهبُ كثيرٌ من القرآن، وإنّي أرى أن تأمرَ بجمعِ القرآن، قلتُ لعمر: كيفَ تفعلُ شيئاً لم يفعلهُ رسولُ اللهِ صلّى اللهمَّ عليهِ وسلّم، قالَ عمر: هذا واللهِ خير فلم يزل عمر يراجعني حتّى شرحَ اللهُ صدري لذلك ورأيتُ في ذلكَ الذي رأى عمر)) . إذن أخيراً ونزولاً عندَ رغبةِ عمرٍ وتشجيعهِ له، وكّلَ الخليفةُ أبو بكرٍ لزيدِ بنِ ثابتٍ [الأنصاري] _الذي كانَ بمثابةِ الشّاعرِ الرسميِّ للنبيّ_ مهمّةَ جمعِ القرآنِ وتنقيحهِ، وقد قامَ هذا الأخيرُ بجمعهِ من سعفِ النخيل، الحجارةِ البيضاء، ومن صدورِ الرجال. قُدِّمت هذهِ النسخةُ إلى الخليفةِ أبي بكر، والذي مرّرها بدورهِ بعدَ وفاتهِ إلى خليفتهِ عمر [بن الخطّاب]، والذي بدورهِ أورثها إلى ابنتهِ حفصة، إحدى زوجاتِ النبيّ. هذا التقليدُ القيّمُ والثمين الذي يوردهُ لنا البخاريّ يوضّحُ لنا أنَّ أبا بكرٍ، ولأوّلِ مرّة، هوَ الذي جمعَ القرآنَ في كتابٍ موحّد، لكن منَ الواضحِ أنّهُ لم يقم بأيّةِ دراسةٍ نقديّةٍ للنصّ من أجلِ إلغاءِ أو تقليلِ عددِ القراءاتِ المختلفةِ ليخرجَ بنصٍّ نموذجيٍّ موحّد. بالمقابل يخبرنا البخاريُّ أنّهُ وخلالَ فترةٍ زمنيّةٍ قصيرة

تعاظمت الاختلافاتُ والفروقاتُ والتعارضاتُ التي كانت تتخلّلُ القراءاتِ المتنوّعةِ للقرآنِ وأصبحت ذاتَ طبيعةٍ راديكاليّةٍ متطرّفة، حتّى قامَ الخليفةُ عثمان في النهاية بالخطوةِ الحاسمةِ لتهدئةِ الشكوكِ التي بدأت تساورُ عقولَ النّاس. أمّا الوسائلُ التي اعتمدها عثمان فكانت صارمةً إلى أقصى حدٍّ ممكن، إذ تلخّصت ببساطة في إخراجِ نسخةٍ كاملةٍ وموحّدةٍ منَ القرآن، ثمَّ إحراقِ كافّةِ النسخِ الأخرى وإتلافها، ولهذا الغرض عيّنَ الخليفةُ لجنةً برئاسة زيد لإتمامِ العمل، وفي حالِ وجودِ أيِّ تعارضٍ في الرأي، كانَ على زيد _الذي كانَ من أهلِ المدينة_ أن يفسحَ المجالَ لآراءٍ أخرى، حيثُ أنَّ القرارَ النهائيَّ كانَ بينَ أيدي أهلِ قريشٍ في اللجنة، أو بينَ يديّ الخليفةِ نفسه، وهناكَ تقديمٌ بالغُ الأهمّيّةِ لهذهِ الحالةِ منَ التداخل يمكنُ ملاحظتها في أحدِ الأحاديث، فحيثُ أنَّ الخليفةَ قد أبدى رغبتهُ لإبقاءِ القرآنِ بلسانِ قريش، لسانِ النبيِّ نفسه. وقد قيلَ أنَّ علياً أرادَ كتابةَ «تابوة» بتاءٍ مربوطة، في حينِ أنَّ هناكَ من قالَ أنّهُ يجبُ كتابتها «تابوت» بتاءٍ مبسوطة، لكن قرّرَ عثمان تفضيلَ الأخيرةِ كونها توافقُ لهجةَ قريش، ولكن حدثَ أيضاً أنَّ كلمةَ «تابوت» ليست عربيّةً إطلاقاً، بل كلمةٌ استعارها محمّدٌ كغيرها من الكلماتِ الأخرى من الكتاباتِ العبريّةِ الحاخاميّة! وهيَ تعني ببساطةٍ «الفُلك»، وقُدِّمت ضمنَ قصّةِ موسى في السّورةِ رقم 20، هذهِ الحادثةُ الصغيرة ستبيّنُ إلى أيِّ مدى نجحَ جامعو القرآنِ في حفظِ الكتابِ باللهجةِ المكيّة، لغةِ كلٍّ من جبريلَ ومحمّد. والآن نوردُ الحديثَ المتعلّقَ بجمعِ عثمانَ للقرآن كما سجّلهُ البخاريّ، وذلكَ ليرى القارئُ بنفسهِ الحالةَ الفعليّةَ والجدّيّةَ للنصِّ القرآنيِّ في ذلكَ الوقت، ويحكمَ بنفسهِ على الأساليبِ المتطرّفةِ والطرقِ الاعتباطيّةِ التي تبنّاها عثمانُ خلالَ تنقيحه، ((وعن أنسٍ بنِ مالك أنَّ حذيفةَ بنَ اليمان قَدِمَ على عثمان وكانَ يغازي أهلَ الشّامِ في فتحِ أرمينية وأذربيجان مع أهلِ العراق فأفزعَ حذيفةَ اختلافهم في القراءة، فقالَ حذيفةُ لعثمان: يا أميرَ المؤمنين أدركْ هذهِ الأمّةَ قبلَ أن يختلفوا في الكتابِ اختلافَ اليهودِ والنصارى.

فأرسلَ عثمانُ إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصّحفِ ننسخها في المصاحف ثمَّ نردّها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمرَ زيدَ بنَ ثابت وعبدَ اللهِ بنَ الزبير وسعيدَ بنَ العاص وعبدَ بنَ الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف، وقالَ عثمانُ للقرشيّينَ الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيدُ بن ثابت في شيءٍ منَ القرآن فاكتبوهُ بلسانِ قريش فإنّما نزلَ بلسانهم، ففعلوا حتّى إذا

نسخوا الصّحفَ في المصاحف ردَّ عثمانُ الصّحفَ إلى حفصة وأرسلَ إلى كلِّ أفقٍ بمصحفٍ ممّا نسخوا وأمرَ بما سواهُ من القرآنِ في كلِّ صحيفةٍ أو مصحفٍ أن يُحرَق. قالَ شهاب فأخبرني خارجةُ بنُ زيد بن ثابت أنّهُ سمعَ زيدَ بن ثابت قال: فقدتُ آيةً منَ الأحزاب حينَ نسخنا المصحف. قد كنتُ أسمع رسولَ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم يقرأُ بها فالتمسناها فوجدناها مع خزيمةَ بن ثابتٍ الأنصاري _فألحقناها في سورتها في الصّحف [رواه البخاريّ]») من هذا الحديث، الذي سجّلهُ لنا البخاريّ، تظهرُ لنا مجموعةٌ منَ الحقائقِ الهامّة، إذ منَ الواضحِ أنّهُ عندما شعرَ عثمانُ بالفزعِ من أن تصبحَ هذهِ القراءاتُ العديدةُ والمختلفةُ للقرآن أكثرَ جذريّةً يوماً بعدَ يوم، أمرَ زيداً وثلاثةً آخرين بجمعِ القرآنِ مرّةً أخرى وتنقيحه، لإخراجِ نسخةٍ رسميّةٍ موحدّةٍ منه. إنَّ حقيقةَ أنَّ هؤلاءِ الرجالِ الأربعةَ كانَ عليهم أن يأخذوا بالحسبانِ تنوّعَ القراءات، لتقويمِ مرجعيّتها، و_إذا لزمَ الأمر_ التخلّصَ منها لصالحِ القراءاتِ المكيّة، تظهرُ إلى أيِّ مدى بلغت درجةُ التحريفِ والتلاعبِ في النصِّ القرآني، وبعدَ أن أنهى عثمانُ جمعَ وتنقيحَ نسختِهِ، قامَ بجمعِ كلِّ المصاحفِ القديمةِ التي تمكّنَ منَ العثورِ عليها، وأحرقها.

ثمَّ بعدَ ذلك أمرَ بصنعِ عدّةِ نسخٍ من هذهِ النسخةِ الجديدة، ونشرها في أرجاءِ العالمِ المحمّدي. يتبيّنُ لنا من خلالِ هذهِ القصّة أنَّ القرآنَ قد جُمِعَ بأمرٍ من عثمان، ومع ذلك، اختلفَ بشكلٍ ماديٍّ كبير عن القراءاتِ التي كانت سائدةً في أصقاعٍ مختلفةٍ من بلادِ العربِ في ذلكَ الوقت، وإلّا فما تفسيرُ أن يأخذَ الخليفةُ على عاتقهِ مسألةَ جمعها وحرقها بهذا الأسلوبِ الذي سجّلهُ لنا البخاريّ. والنتيجةُ أنَّ المسلمينَ حتّى هذا اليوم ما زالوا متكتّمينَ على الطريقةِ الاستبداديّةِ والاعتباطيّةِ التي جرى من خلالها جمعُ النسخةِ الرسميّةِ للقرآن، وهم غيرُ قادرينَ _بدراسةٍ نقديّة_ على التوصّلِ إلى أيِّ قرارٍ مُرضٍ حولَ مسألة؛ إلى أيِّ مدى كانَ مصحفُ عثمان متوافقاً مع ذلكَ المصحفِ الذي جمعهُ أبو بكر، أو مع القراءاتِ القرآنيّةِ المختلفةِ التي كانت تسودُ جزيرةَ العرب؟ هنا على الأقل نحنُ نعلمُ أنَّ الشّيعةَ لطالما اتّهموا عثمانَ بإلغاءِ وقمعِ وتعديلِ الآياتِ القرآنيّةِ التي تشيرُ إلى فضلِ عليٍّ وعائلته، فكتبُ الشّيعةِ توردُ عدّةَ آياتٍ يزعمونَ أنّها غُيّرت أو حُرِّفَت بهذا الشّكل، لكنَّ هذا الكتاب لا يسعهُ البحثُ في هذا الموضوع. ويمكنُ للقارئِ أن يطّلعَ عليها في كتابات: عليّ بن إبراهيم القُمّيّ، محمّد يعقوبُ الكلّيني، الشيخ أحمد بن عليّ الطبرسي، والشيخ أبو علي الطبرسي، فجميعُ هؤلاءِ منَ الشّيعةِ من جهة، والبخاريُّ

من جهةٍ أخرى، لا يتركونَ أيَّ مجالٍ للشكّ أنَّ القرآنَ الذي بينَ أيدينا اليوم ليسَ القرآنَ الأصليَّ، ويعيدٌ كلَّ البعدِ عن النصِّ المعصومِ الذي لا يتغيّرُ ولا يتبدّلُ ولا تدخلهُ التحريفاتُ والتعديلات. إضافةً إلى ذلك، نستنتجُ من حقيقةِ حرقِ عثمان لجميعِ المصاحفِ الأخرى التي استطاعَ أن يضعَ يدهُ عليها، وتوزيعَ نسخةٍ واحدةٍ فقط أشرفَ هوَ بنفسهِ على جمعها وتنقيحها، أنّهُ لم يكن يقبلُ بروايةِ القراءاتِ السّبعة، ولم يصدّق النبيَّ الذي قالَ بوجودِ سبعِ قراءاتٍ مختلفةٍ متعارضة وكلّها صحيحةٌ على حدٍّ سواء. والحقيقةُ هيَ أنَّ أيَّ دراسةٍ موضوعيّةٍ وغيرِ متحيّزةٍ لهذهِ الرّواية تبيّنُ لنا أنّهُ ليسَ محمّد، بل أصحابهُ المباشرونَ وأتباعهُ المقرّبون هم الذينَ قاموا بتلفيقِ القصّةِ ونسبها إليهِ كتصريحٍ أخرق، لكي لا يتخبّطَ المسلمونَ بالمشهدِ المذهلِ لقرآنٍ مُنْزَلٍ من عندِ الله، يظهرُ بنصوصٍ مختلفةٍ ومتضاربة. بقعةُ ضوءٍ أخرى يمكنُ تسليطها على هذا الموضوع من خلالِ حديثٍ عن عليّ يقولُ فيه: ((رأيتُ كتابَ اللهِ يُزادُ فيهِ فحدّثتُ نفسي ألّا ألبسَ ردائي إلّا لصلاةٍ حتّى أجمعه)).

هذهِ التقاليدُ المتنوّعةُ تبيّنُ لنا أنَّ الاختلافاتِ في قراءةِ القرآن لم تكن محصورةً في مسألةِ اللفظِ فحسب، بل كانَ هناكَ أشخاصٌ معيّنونَ يزيدونَ في الكتابِ كما يحلو لهم خلالَ فترةِ جمعِ القرآنِ وتنقيحه، ويتضّحُ لنا من خلالِ التّاريخِ الإسلاميِّ أنَّ عليّاً كانت لديهِ النيّةُ لجمعِ القرآن وقد شرعَ بذلك، ومن المؤسفِ جدّاً أنَّ مصحفَ عليٍّ لم يعد موجوداً اليوم، حيثُ أنّهُ بالتأكيد سيكونُ مختلفاً تماماً من الناحيةِ المادّيّةِ عن القرآنِ الحاليّ، إذ يقالُ أنّهُ عندما طلبَ منهُ عمر أن يسلّمَ نسختهُ من أجلِ مقارنتها مع النسخِ الأخرى، رفضَ، متعلّلاً أنَّ القرآنَ الذي بحوزتهِ كانَ النسخةَ الأدقَّ والأكمل، ولا يمكنُ أن يُذعِنَ لأيّةِ تغييراتٍ وتعديلاتٍ قد تبدو ضروريّةً في النسخِ الأخرى، كما أنّهُ قالَ أنَّ في نيّتهِ توريثَ النسخةِ التي في حوزتهِ لأبنائهِ من بعده، ليحافظوا عليها حتّى موعد قدومِ الإمامِ المهديّ.

قراءةُ ابنِ مسعود:

من بينِ الأدلّةِ والإثباتاتِ الكثيرةِ على تحريفِ المصحفِ العثمانيِّ التي يمكنُ ذكرها، هيَ الحقائقُ المتعلّقةُ بمصحفِ ابنِ مسعود. ففي الفصلِ العشرينَ من الجزءِ الرابعِ والعشرين من كتابِ «مشكاةِ المصابيح» نرى حديثاً مسجّلاً عن النبيِّ، حيثُ يذكرُ عشرةً من أهمِّ وأتقى

أتباعه، ويؤكّدُ للسّامعينَ أنَّ هؤلاءِ العشرةَ هم منَ المبشّرينَ بالجنّة، أمّا أسماءُ هؤلاءِ المبشّرين فمعروفةٌ ومشهورةٌ في التّاريخِ الإسلاميّ، ومن بينهم عبدُ اللهِ بنُ مسعود، فقد كانَ هذا الشخصُ أحدَ القرّاءِ والحفظةِ الكبار، وكانَ صديقَ النبيِّ المقرّب. وهناكَ حديثٌ عن محمّد يقولُ فيه: ((عن عبدِ اللهِ بنِ عمر أنَّ رسولَ اللهِ صلعم قال: استقرئوا القرآنَ من أربعة: من عبدِ اللهِ بنِ مسعود، سالمٍ مولى بني حذيفة، وأُبيِّ بن كعب، ومعاذ بن جبل)) يتّضحُ من هذا الحديث، ومن عدّةِ أحاديثَ أخرى عن نفسِ الموضوع، أنَّ ابنَ مسعود كانَ من الصّحابةِ المقرّبينَ لمحمّد، وقد استمَعَ إليهِ وأخذَ منهُ القرآنَ بحذرٍ وإخلاص.

وهناكَ حديثٌ آخر في كتابِ مسلم عن ابنِ مسعود يقولُ فيه: ((والذي لا إلهَ غيرهُ ما من كتابِ اللهِ سورةٌ إلّا أنا أعلمُ حيثُ نزلت وما من آيةٍ إلّا أنا أعلمُ فيما أُنزِلَت ولو أعلمُ أحداً هو أعلمُ بكتابِ اللهِ منّي تبلغهُ الإبل لركبتُ إليه)) في حديثٍ آخر يقولُ محمّد: ((ولقد عَلِمَ أصحابُ رسولِ اللهِ صلّى الله عليهِ وسلّم إنّي أعلمهم بكتابِ اللهِ ولو أعلمُ أنَّ أحداً أعلمُ منّي لرحلتُ إليه)) وهناكَ حديثٌ آخرُ منقولٌ عن عمر يقولُ فيه: ((عن رسولِ اللهِ صلعم قال: من أحبَّ أن يقرأَ القرآنَ غضاً كما أُنزِلَ فليقرأهُ على قراءةِ بنِ أمِّ عبد [أي عبدَ اللهِ بنِ مسعود])) منَ الدليلِ المتراكمِ عن ثلاثةِ تقاليدَ مختلفة يصبحُ منَ الواضحِ أنَّ القرآنَ بقراءةِ عبدِ الله بنِ مسعود هوَ القرآنُ الصحيح، وأنّهُ لم يرفض فقط عمليّةَ تنقيحهِ وتحريره، بل أيضاً رفَضَ فكرةَ تسليمِ نسختهِ إلى الخليفةِ في الأساس. ليسَ هذا فحسب، بل عندما أصدرَ الأخيرُ أمرهُ بجمعِ وإحراقِ جميعِ النسخِ المخالفةِ منَ القرآن ما عدا نسختهِ هوَ، على الفورِ نصحَ ابنُ مسعود أتباعهُ من أهلِ العراق، أن يخفوا نسخهم منَ القرآن، وألّا يسلّموها للمحرقة، وعبّر عن ذلكَ بكلماته: (يا أهلَ العراقِ اكتموا المصاحفَ التي عندكم وغلقها)) يسجّلُ لنا التّراثُ أنَّ الخليفةَ استولى بالقوّةِ على مصحفِ ابنِ مسعودٍ وأحرقهُ، وعاقبَ هذا الصحابيَّ بلا رحمةٍ حتّى ماتَ بعدَ عدّةِ أيّامٍ من شدّةِ الضربِ الذي تلقّاه، لكنَّ الحقيقةَ الأهمّ تبقى أنَّ ابنَ مسعود لم يرفض فقط تسليمَ نسختهِ الكاملةِ منَ القرآن من أجلِ عمليّةِ تجميعٍ اعتباطيّةٍ واستبداديّةٍ بإشرافِ عثمان، بل أيضاً حثَّ أتباعهُ على الاستمرارِ في قراءةِ نسختهِ هوَ.

القصّةُ بأكملها ترينا أنَّ مصحفَ عثمان يختلفُ بشكلٍ كبيرٍ جدّاً عن القراءةِ التي أخذها ابنُ مسعودٍ عن النبيّ، إذ ليسَ هناكَ فرضيّةٌ أخرى يمكنُ أن تفسّرَ لنا هذهِ المعاملةَ الجائرةَ

والمنعدمةَ الرّحمة من قبلِ المؤسّسِ تجاهَ مسألةٍ ذاتِ أهمّيّةٍ ثيولوجيّةٍ كهذه. ستكونُ هناكَ مناسبةٌ أخرى لاحقاً، في مكانٍ آخرَ ضمنَ هذا الكتابِ الصّغير، للإشارةِ إلى بعضِ الفروقاتِ الكبيرةِ والعظيمةِ بينَ قراءاتِ ابنِ مسعود ومصحفِ عثمان، ونكتفي هنا بتذكيرِ القارئِ أنَّ قرآنَ ابن مسعود لا يحتوي السورَ التّالية: الفاتحة، الطلاق، والنّاس، ولا نستطيعُ هنا سوى التعجّبِ من تهوّرِ الخليفةِ في إحراقِ المصحفِ الذي لقّنهُ النبيُّ نفسهُ لأتباعه، وبإحلالِ قرآنٍ آخرَ محلّهُ مختلفٍ عنهُ تماماً.

بالرّغمِ منَ المعاييرِ القاسيةِ والمتطرّفةِ التي تبنّاها الخليفةُ الراشديُّ عثمان لقمعِ كلِّ النسخِ والقراءاتِ الأخرى منَ القرآن باستثناءِ قراءتِهِ هوَ، فإنَّ قراءةَ ابنِ مسعود استمرّت لسنواتٍ طويلةٍ محفوظةً مُصانةً بينَ أتباعه، أهلِ العراق، وهكذا في سنةِ 378 هجريّة اكتُشِفَت نسخةٌ من مصحفِ ابنِ مسعودَ ببغداد، والتي أثبتت أثناءَ تقييمها على أنّها تختلفُ جذريّاً عن جميعِ النسخِ الشّائعةِ منَ القرآن، وقد تمَّ إتلافها وإحراقها والتخلّصُ منها فوراً وسطَ احتفالاتٍ أقامها البشرُ المخدوعونَ أصلاً بمناسبةِ إحراقِ المصحفِ المخالف. لا يقتصرُ الأمرُ على أنَّ مصحفَ عثمانَ يختلفُ بشكلٍ جذريٍّ عن مصحفِ ابنِ مسعود [الذي أوصى النبيُّ أن نأخذَ القرآنَ عنه]، بل يختلفُ أيضاً عن النسخةِ المنقّحةِ السّالفةِ منه والتي صنعها أبو بكر، حيثُ يردُ في التّراثِ أحاديثُ وتقاليدُ تنصُّ على أنَّ مصحفَ أبي بكر بقيَ بعدَ وفاتِهِ في رعايةِ حفصة، ابنته، لكن بعدَ وفاةِ هذهِ الأخيرة، طالبَ بها مروان _والي المدينة_ من أخيها، ابن عمر، وأحرقها على الفور، متذرّعاً بأنّهُ كانَ يخشى أنّهُ إذا كانت هنالكَ مجموعةٌ كبيرةٌ منَ القراءاتِ المختلفةِ التي رغبَ عثمانُ بقمعها أن تعاودَ الظهور. [يوضّحُ ابن شُبّة في تاريخِهِ المسألةَ على نحوٍ أكثرَ تفصيلاً؛ حينَ يقول: «لمّا تُوُفِّيَت حفصةُ أرسلَ مَرْوَانُ إلى ابنِ عمرَ (رض) بعزيمةٍ ليُرْسِلَنَّ بها، فساعةَ رجعوا من جنازةِ حفصة أرسلَ بها ابنُ عمر (رض)، فشَقَّقَها ومزّقها مخافةَ أن يكونَ في شيءٍ من ذلكَ خلافٌ لما نَسَخَ عثمانُ (رض)»] ومن هنا نستنتج أنَّ القرآنَ الذي يعمُّ الآنَ جميعَ أرجاءِ العالمِ المحمّديِّ [الإسلاميِّ] اليوم لا يتطابقُ لا مع المصحفِ الذي جمعهُ أبو بكر، ولا مصحفِ ابنِ مسعود، ولا المصحفِ الذي جمعهُ عليّ والذي باتَ مفقوداً في يومنا هذا. القرآنُ الحاليُّ هوَ في الحقيقةِ كتابٌ تمَّ التلاعبُ بِهِ وتحريفهُ وتشويههُ إلى أبعدِ حدّ، وكما سنرى لاحقاً، ونثبته، أنّهُ من غيرِ المجدي الإيمانُ والاعتقادُ بفكرةِ القرآنِ الكاملِ والمحفوظِ الذي

يقالُ أنّهُ نزلَ على محمّدٍ ولقّنهُ لأتباعهِ بنفسه.

شهادةُ الإمامِ حسين حولَ القراءاتِ المختلفةِ للقرآن:

رأينا في الفصولِ السّابقةِ كيفَ أنَّ الخليفةَ عثمان صُدِمَ منَ الاختلافاتِ الهائلةِ التي وجدت طريقها إلى قراءةِ القرآن، وكيفَ أنّهُ طبّقَ معاييراً وإجراءاتٍ صارمةً لإخراجِ نسخةٍ رسميّةٍ واحدةٍ منَ القرآن، ثمَّ أحرقَ كلَّ النسخِ المخالفةِ الأخرى، لكن حتّى هذهِ المعاييرُ والإجراءاتُ الصّارمة كانت عقيمةً وغيرَ مُجدية، وبالرّغمِ من عمليّةِ التنقيحِ التي قامَ بها عثمان، بقيت القراءاتُ السّبعةُ موجودةً، على الأقلِّ بشكلها المعدّل. هذهِ القراءاتُ المتنوّعةُ تعرفُ باسم «هفتِ القراءات»، وهناكَ «القرّاء =[م] قارئ» هم الذينَ تناقلت عبرهم هذهِ القراءات، بعضهم كانَ من أهلِ مكّة، وبعضهم منَ المدينة، بعضهم منَ الكوفة، والبعضُ الآخرُ من أهلِ الشّام، وقد ظلّت التسمياتُ تطلقُ على القراءاتِ المختلفةِ للقرآنِ تيمّناً بأسماءِ أولئكَ الذينَ طرحوها للتداولِ بينَ النّاس، فالقراءةُ الشّائعةُ في الهندِ اليوم هيَ التي تعرفُ بقراءةِ عاصم، أو حفصٍ، تلميذهُ، في حينِ أنَّ القراءاتِ الدارجةَ في المنطقةِ العربيّةِ هيَ قراءةُ نافع، من أهلِ المدينة، جلالُ الدين من جهةٍ أخرى في عملهِ التفسيريِّ الضخم، فإنّهُ يتّبعُ قراءةَ القارئِ الإمامِ أبو عمر. أغلبُ التفاوتاتِ والاختلافاتِ هيَ في اللفظ، لكن في الكثيرِ منَ الحالات ما زالت هناكَ تبايناتٌ وفروقاتٌ عظيمةٌ وهائلة. إذ أنّنا نلاحظُ أنّهُ في سورةِ الفاتحةِ يوافقُ كلٌّ منَ القرّاء: يعقوب، عاصم، الكسائي، وخلف الكوفي على قراءةِ (مَالِكِ mālik) في حينِ أنَّ جميعَ القرّاءِ الآخرينَ يقرؤونَ (مَلِكِ malik). الآن سنفي بوعدنا بتقديمِ أمثلةٍ محدّدةٍ للاختلافاتِ الكثيرةِ الموجودةِ حتّى في النصِّ الحاليِّ للقرآن، إلّا أنَّ القارئَ ينبغي عليهِ أن يحملَ في عقلهِ حقيقةَ أنّهُ حتّى وإن كانَ كاملاً الآن، فذلكَ لن يفيدنا بشيء، إذ نلاحظُ أنَّ تنقيحَ عثمانَ نفسهِ أثبتَ أنّهُ غيرُ جديرٍ بالثّقة. وقبلَ الدخولِ في أمثلةٍ تفصيليّةٍ عن التحريفِ الحاليِّ للنصِّ القرآنيّ، سنوردُ هنا بعضَ الاقتباساتِ الغنيّةِ حولَ هذا الموضوعِ نستمدّها منَ العملِ التفسيريِّ الشهيرِ للإمامِ حسين، إذ يكتبُ هذا المفسّرُ العظيمُ قائلاً: ((وحينَ تمّت إجازةُ التلاوةِ بقراءاتٍ مختلفة، وكانت اختلافاتها في حروفها وألفاظها لا تعدُّ ولا تحصى، أصبحت القراءاتُ الموثوقةُ طبقاً لقراءةِ بكر، وبموافقةِ الإمامِ عاصم، سائدةً في البلادِ ومعتمدة، وهيَ مدرجةٌ ضمنَ هذهِ الصفحات [أي تفسيره]. وبعضُ هذهِ الكلماتِ التي -بسببِ الاختلاف- غيّرت بشكلٍ كلّي

معنى القرآن، وقُمِعَت من قبلِ الحفظة، وهيَ أيضاً مدرجةٌ هنا)) من خلالِ هذهِ الإشاراتِ الصريحةِ والنزيهةِ من المفسّرِ الكبيرِ كمال الدين حسين يتّضحُ أنَّ عدداً منَ القراءاتِ المختلفةِ ما زالت موجودةً في القرآن، وأنَّ في الكلماتِ والحروفِ تحريفاتٍ «لا تُعدُّ ولا تحصى» قد وجدت طريقها إلى النصّ، ليسَ هذا فقط، بل إنَّ هذا العالمَ الكبيرَ يعترفُ بلسانهِ أنّهُ في العديدِ منَ الحالات، تغيّرَ معنى القرآن بشكلٍ جذري، ويخبرنا الإمامُ أنَّ هناكَ عدّةَ قراءاتٍ مختلفةٍ منتشرةٍ في مناطقَ مختلفة، بعضها يستحقُّ الثّقة، في حينِ أنَّ بعضها الآخر غيرُ موثوق. القراءاتُ الأخرى التي أشارَ إليها، يخبرنا هوَ، أنّها كانت متعارضةً مع قراءاتِ القرّاءِ أو الحَفَظَة، ومنها القراءةُ المعتمدةُ في الهندِ في يومنا هذا، والتي قراءتها _من بينِ جميعِ النسخِ المتضاربة_ تمثّلُ القرآنَ الأصليَّ الذي جمعهُ عثمانُ ونقّحهُ، ولسنا نتحدّثُ عن القرآنِ الذي علّمهُ محمّدٌ ولقّنهُ لأتباعهِ بنفسه، إذ لا يمكنُ لا للإمامِ حسين ولا لأيِّ عالمٍ مسلمٍ آخر أن يخبرنا بشيءٍ عنه. الشيءُ الوحيدُ والأكيد هوَ أنَّ هذهِ التعارضاتِ والاختلافاتِ موجودة، وذلكَ يثبتُ بما لا يدعُ أيَّ مجالٍ للشكّ أنَّ الحمايةَ والحفظَ الإلهيّينِ المزعومينِ للقرآن لا وجودَ لهما في الواقع. أيُّ دراسةٍ جادّةٍ للتّراثِ والتقاليدِ كافيةٌ بأن تسلّطَ الضوءَ على هذهِ الإشكاليّةِ المربكة، وتبيّنُ لنا كيفيّةَ ظهورِ هذهِ الاختلافاتِ وإلى أيِّ مدى، في حينِ أنَّ الاختفاءَ التّامّ والكلّيَّ لآياتٍ وسورٍ بأكملها أيضاً موثّقٌ في رواياتٍ وأخبارٍ موثوقةٍ وعظيمة تعودُ لنفسِ المرجعيّات. إذ نقرأُ في حديثٍ عن عمرَ يقولُ فيه: ((سمعتُ هشامَ بنَ حكيم يقرأُ سورةَ الفرقانِ في حياةِ رسولِ الله صلّى اللهُ عليهِ وسلّم وساقَ الحديثَ بمثلهِ وزاد فكدتُ أساورهُ في الصّلاةِ فتصبّرتُ حتّى سلّم)) في واقعِ الأمر نلاحظُ أنَّ التّاريخَ الإسلاميَّ مليءٌ بالإشاراتِ إلى القراءاتِ المختلفةِ للقرآن، إذ أنّنا نقرأُ عن أحدِ القرّاءِ المشهورين، «ابن سنابد»، حيثُ كانَ يقرأُ القرآنَ في المسجدِ الكبيرِ ببغداد، لكنَّ قراءتهُ لم تكن متوافقةً مع القراءةِ التي كانت شائعةً في ذلكَ المكان، فتعرّضَ للضرّبِ الشديد، ثمَّ أُلقِيَ بهِ في السجن، ولم يُفرَج عنهُ إلّا بعدما غيّرَ قراءتهِ وقرأَ القراءةَ التي كانت مألوفةً في ذلكَ المكان، هذهِ القراءاتُ المختلفةُ لم تختلف فقط في اللفظ، بل في عددٍ منَ الحالات، اختلفَ المعنى الكاملُ للآيةِ القرآنيّة. والآن نتابعُ في تقديمِ المزيدِ منَ الأمثلةِ على هذهِ الآيات، والتي أشارَ إليها الإمامُ حسين، البيضاويّ، وعلماءُ آخرون ضمنَ كتاباتهم. في التفسيرِ الشهيرِ للإمامِ حسين نقرأُ أنّهُ في الرُّقَعِ من سورةِ الأنبياء 21 في القرآنِ الحاليّ وردت الآيةُ رقم 4 في الشّكل

التّالي {قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ} [أي= قالَ محمّدٌ أنَّ ربّي يعلم]، لكن حسبَ قراءةِ بكر نلاحظُ أنّنا يجبُ أن نقرأَ الآيةَ على النحوِ التّالي {قُلْ رَبِّي يَعْلَمُ} [أي= قُل (أمر) يا محمّد أنَّ ربّي يعلم]، ولدينا مثالٌ واضحٌ وصارخ عن مدى جدّيّةِ الاختلافاتِ في نصِّ القرآن، والتي تغيّر معنى الآيةِ بشكلٍ كلّيّ، ففي القراءةِ الأخيرة نرى أنَّ اللهَ أمرَ نبيَّهُ أن يقولَ «ربّي يعلم»، في حينِ أنَّ في الآيةِ الأولى والدارجةِ حالياً نرى أنَّ النبيَّ هنا يقدّمُ تأكيداً في ردِّهِ على الكفّارِ بأنَّ «ربَّهُ يعلم». ويمكن أن نقتبسَ مثالاً آخرَ من نفسِ المرجعيّة، ففي الرُّقَعِ الأولى من سورةِ الأحزاب 33 نقرأ: {النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ} [آية 6]، لكنَّ هنالكَ مرجعاً يخبرنا أنّهُ حسبَ نسخةِ أُبيّ [بن كعب] وقراءةِ عبدِ اللهِ بنِ مسعود ينبغي علينا أن نقرأَ عدّةَ كلماتٍ إضافيّةٍ في هذهِ الآية؛ أي {وَهُوَ [محمّد] أَبٌ لَهُمْ}. سيتساءلُ القارئ الآن، لماذا رفضَ ابنُ مسعود تسليمَ نسختِهِ منَ القرآنِ للخليفةِ عثمان، ويغذّي الثناءاتِ العاليةَ والمديحَ الكبيرَ الذي أسبغهُ النبيُّ نفسهُ على ابنِ مسعودٍ كاتبِ القرآن، وسيتوصّلُ على الفورِ إلى نتيجةٍ مفادها أنَّ هذهِ الكلماتِ قد أُزيلَت وحُذِفَت منَ القرآنِ الحالي. إذن؛ إذا كانَ إخواننا المحمّديون، بالرّغمِ من جميعِ هذهِ العيوبِ التي تتخلّلُ كتابهم المقدّس، ما زالوا مستمرّينَ في قراءتهِ والإيمانِ به، وبنفسِ المنهجِ في التفكير، أطرحُ عليهم السؤالَ التّالي: هل يرفضونَ قراءةَ الإنجيلِ لأنّهم يظنّونَ _كما يعتقدونَ هم_ أنّهُ كتابٌ محرّف؟!!!

شهادةُ القاضي البيضاويّ حولَ القراءاتِ المختلفةِ للقرآن:

كلُّ من قرأَ شروحَ وتفسيراتِ العالمِ المحمّديِّ الكبير القاضي البيضاويّ يعرفُ جيّداً أنّهُ أيضاً أشارَ إلى وجودِ الكثيرِ منَ الاختلافاتِ والتباينات ضمنَ نسخٍ مختلفةٍ منَ القرآن، وسنوردُ هنا بضعةَ أمثلةٍ من كتاباتِ هذا العالمِ المشهور. منَ المثيرِ للتعجّبِ أنّهُ في أوّلِ سورةٍ منَ القرآن [الفاتحة]، تلكَ السورةُ التي برعَ علماءُ المسلمينَ في تفسيرها وتنافسوا على تأويلها، والتي على كلِّ مؤمنٍ محمّديٍّ تقيٍّ وملتزم أن يكرّرها في صلواتهِ اليوميّةِ الكثيرة، فهناكَ عددٌ منَ القراءاتِ المختلفةِ والمتباينةِ لها، ولم تسبّب لديهم أقلَّ قدرٍ منَ الحيرةِ ليتفكّروا فيها ويدرسوها، وانطلاقاً من هنا يخبرنا القاضي أنّهُ في الآيةِ رقم 5، كلمةُ «صراط» كُتِبَت في الكثيرِ منَ النسخ، في حينِ أنّها وردت «سراط» في عددٍ منَ النسخِ الأخرى، ومع ذلك نحنُ غيرُ متأكّدينَ من صحّةِ ودقّةِ أيٍّ من هاتينِ القراءتين. مرّةً أخرى، في الآيةِ رقم 6 من نفسِ السّورة، يخبرنا

البيضاويُّ أنَّ عبارةَ {صراطَ الذينَ أنعمتَ عليهم} قد اختلفت في بعضِ النسخِ وتقرأ {صراطَ من أنعمتَ عليهم}، ماذا إذن عن خلوِّ القرآنِ المفترضِ منَ التحريف، في ضوءِ هذهِ الحقائق، ولنا أن نتساءلَ هنا، أينَ هيَ تلكَ الحمايةُ الإلهيّةُ المزعومةُ للقرآن، أليسَ منَ الواضحِ أنّهُ في بعضِ النسخِ وردت كلمةُ «مَن» بدلَ «الذين»، أم أنَّ الحالةَ معاكسةٌ هنا فالكلمةُ الأصليّةُ هيَ «من» لكنّها حُرِّفت لتصبحَ «الذين»؟ مرّةً أخرى يخبرنا البيضاويُّ، أنّهُ في الآيةِ الثّامنةِ من نفسِ السّورة يحدثُ تغييرٌ جذريٌّ وجدّيٌّ في القراءة، فحسبَ البيضاويّ يقولُ أنَّ القراءةَ الحاليّةَ هيَ {ولا الضّالين}، إلّا أنّها حُوِّرَت وحُرِّفَت في بعضِ النسخِ لتصبح {وغيرِ الضّالّين}، في هذهِ الأمثلةِ نلاحظُ أنَّ المعنى لم يتغيّر بشكلٍ جذريّ ولا حتّى إلى أيِّ مدى، لكنَّ الحقيقةَ ما زالت واضحةً كعينِ الشّمسِ تصرخُ أنَّ هناكَ كلماتٍ معيّنةً استُبدِلَت بكلماتٍ أخرى في هذهِ السّورةِ الهامّةِ في القرآن، وكلا النوعينِ منَ الكلماتِ لم تكن موجودةً في النسخِ الأصليّة.

في الآيةِ رقم 23 من سورةِ البقرة يشيرُ البيضاويُّ إلى قراءةٍ مخالفةٍ أخرى على درجةٍ كبيرةٍ منَ الأهمّيّة، فالقرآنُ الحاليُّ جاءت فيهِ السّورةُ على الشّكل التّالي {وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا} [بصيغةِ المفرد]، لكنّهُ يخبرنا أنّهُ في بعضِ النسخِ الأخرى منَ القرآن تظهرُ هذهِ الكلمةُ بصيغةِ الجمع {مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عِبَادِنَا}، في الحالةِ الأخيرة، وإذا صحّت هذهِ القراءة، نلاحظُ أنَّ هذهِ الآيةَ تجعلُ جميعَ أتباعِ محمّدٍ وصحابتِهِ ومن معهُ متلقّينَ للوحيِ القرآني.

في الآيةِ السادسةِ من سورةِ النّساء نلاحظُ وجودَ تحريفٍ كبيرٍ ومتعمّد للنصِّ القرآنيّ، إذ يخبرنا البيضاوي أنّهُ في هذهِ الآيةِ قد وردت عبارةُ {فَإِنْ آنَسْتُمْ} [بمعنى إن رأيتم أو أبصرتم]، وقرأت في بعضِ النسخِ الأخرى {فإن أحستم} [بمعنى شعرتم أو أحسستم]، مثلُ هذهِ التحريفاتِ والتغييراتِ في النصِّ القرآنيِّ كثيرة، وأكثرُ من أن تُعدَّ أو تحصى، وذلكَ يثبتُ بما لا يدعُ مجالاً للشكّ أنَّ نصَّ القرآنِ بعيدٌ كلَّ البعدِ عن العصمةِ والكمال. طبعاً، كما ستثبتُ لاحقاً، فقد كانَ النصُّ القرآنيُّ مشوّهاً ومحرّفاً لدرجةِ أنَّ النسخةَ الحاليّةَ منهُ باتت غيرَ موثوقةٍ ولا يمكنُ اعتمادها كنسخةٍ كاملةٍ منَ القرآنِ الذي لقّنهُ النبيُّ العربيُّ لأتباعه.

في الآيةِ 12 من سورةِ النّساء، يشيرُ البيضاويُّ إلى وجودِ تحريفٍ كبيرٍ آخر في نسخٍ أخرى منَ القرآن، والتي تستحقُّ منّا أن نقفَ عندها وننعمُ النظرَ فيها، جاءَ في الآيةِ ما يلي {وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ}، لكن يخبرنا القاضي أنّهُ حسبَ قراءةِ أُبيّ [بن كعب] وسعد بن مالك، فقد زادا كلمةَ

إضافيّةً إلى هذهِ العبارةِ المقتبسةِ منَ الآيةِ؛ أي {ولهُ أخٌ أو أختٌ منَ الأم}، وفي تفسيرِهِ لهذهِ الآيةِ، يشرحُ البيضاويُّ أنَّ هذهِ الآيةَ لها هذا المعنى. ومن هنا هذا العرضُ الذي أمامنا يقدّمُ مثالاً واضحاً على الطريقةِ التي تأتي بها بعضُ القراءاتِ المختلفةِ إلى الوجود، وتجدُ طريقاً لها إلى النصِّ وذلكَ عن طريقِ إدخالِ كلماتٍ من مادّةٍ تفسيريّةٍ [أو أنَّ الغرضَ هوَ الشرحُ والتوضيح] وحشرِها في النصِّ بغرضِ إيضاحِ المعنى وجعلِهِ أكثرَ إشراقاً. في الآيةِ رقم 89 من سورةِ المائدة 5 هناكَ مثالٌ آخرُ على التحريفِ الذي تعرّضَ لهُ النصُّ القرآني: {لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ [.....] ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}، وهذهِ الآيةُ هيَ كما وردت في القرآنِ الأصليّ، حيثُ أنَّ المطلوبَ هوَ صيامُ ثلاثةِ أيّام، لكنَّ المفسّرَ الكبيرَ أبا حنيفة يقرأُ الآيةَ بإضافةِ كلمةٍ إضافيّةٍ إلى هذهِ العبارة، إذ أنَّ على المخالفِ أن يصومَ ثلاثةَ أيّامٍ متتابعة، فيقولُ في الآيةِ {فصيامُ ثلاثةِ أيّامٍ متتابعات}. هذهِ القراءةُ المخالفةُ والمغايرة لها عواقبٌ ونتائجٌ في غايةِ الأهمّيّةِ والجدّيّة، حيثُ أنّها تمسُّ، وتغيّرُ، القوانينَ التي وضعها الإسلام، لذلكَ قامَ أبو حنيفة وجميعُ أتباعه بتشريعِ الصّيام لثلاثةِ أيّامٍ متتابعات، في حينِ أنَّ البيضاويَّ وغيرهُ قالَ عن هذا التشريعِ بأنّهُ خاطئ، ويتعارضُ مع القرآن. من ذا الذي، بعدَ انقضاءِ كلِّ هذهِ الفترةِ الزمنيّةِ الطويلة، يمثّلُ القراءةَ الأصليّةَ والحقيقيّةَ للقرآنِ من هؤلاء؟ في الآيةِ رقم 153 من سورةِ الأنعام وردت عبارةٌ على النحوِ الآتي {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي}، لكنَّ البيضاويَّ هنا يوردُ قراءتينِ تختلفانِ تماماً عن هذا النصّ، في الأولى نقرأ، {هذا صراطُ ربّكم}، وفي الثانية {هذا صراطُ ربّكَ}، وسيلاحظُ القارئُ أنَّ القراءتينِ الثّانيةَ والثّالثة التي أوردهما البيضاوي، فهناكَ حرفٌ فارقٌ بينَ الكلمتين «ربّكَ» و«ربّكم». لذلكَ لا نستغربُ فزعَ عثمانَ من كثرةِ الاختلافاتِ والفروقاتِ القديمةِ التي ظهرت في قراءةِ القرآن، وسعيهِ الحثيثِ للتقليلِ منها وجمعها وتوحيدها في نصٍّ واحدٍ موحّد، لكنَّ الأمرَ الأكثرَ إثارةً للتعجّبِ والاستغراب هوَ أنَّ الخليفةَ قد فشلَ فشلاً ذريعاً في تحقيقِ غايته. العديدُ من هذهِ التحريفاتِ التي تتخلّلُ النصَّ القرآنيَّ تحملُ على وجهها الدليلَ على اليدِ الخرقاءِ والبليدةِ للمزوّر، وتكشفُ _بطبيعتها_ عن السببِ الكامنِ خلفَ وجودها، لذلكَ نقرأُ في سورةِ طه، الآيةَ رقم 94 عن هارون وهو يقول {قَالَ يَا

ابْنَ أُمَّ} [وكُتِبَت في نسخٍ أخرى {قال يبنؤم}]، لكن في سورةِ الأعراف آية رقم 150 نقرأُ {قَالَ ابْنَ أُمَّ}، وبإلقاءِ نظرة سريعةٍ ومتفحّصةٍ على هذهِ الآيات نجدُ أنّهُ في الآيةِ الأولى الإقحامُ العاديُّ للمخاطبِ مترافقٌ مع حرفِ النداء، «يا»، لكنّهُ غائبٌ في الآيةِ الأخرى، لذلكَ يصبحُ منَ الواضحِ تماماً أنَّ _ وبغرضِ الحفاظِ على سلاسةِ وجماليّةِ اللغةِ في القرآنِ_ الإقحامَ العاديَّ للمخاطبِ ينبغي أن يضافَ إلى الآيةِ الأخرى أيضاً. والآن يقولُ البيضاويُّ موضّحاً أنَّ ذلكَ قد حدثَ في الحقيقة، وأنَّ بعضَ المسلمينَ الأتقياءِ والأخيار، ومن أجلِ التخلّصِ من هذا العيبِ الذي تخلّلَ القرآن، أضافوا في الواقعِ الكلمةَ الضروريّةَ ضمنَ نسخهم منَ القرآن، ولذلكَ يخبرنا البيضاويُّ أنّ ابنَ عمر، حمزة، كسائي، وأبو بكر قرأوا في هذا الموضعِ {يا ابنَ أمّ}، فإمّا أن يكونَ استدلالنا هنا صحيحاً، أو أنّنا يجبُ أن نفترضَ أنَّ كلمةَ «يا» قد كانت موجودةً في نسخِ القرّاءِ المذكورين، لكنّها _كغيرها منَ النسخِ الأخرى_ حُذِفَت من النسخةِ الحاليّةِ للقرآن، وفي كلتا الحالتين نحنُ الآنَ أمامَ مثالٍ صارخٍ عن عدمِ الدقّةِ أو حالةِ اللايقينِ التي تلفُّ النصَّ الحاليَّ لهذا الكتاب. مرّةً أخرى في سورةِ يونس 10، الآية رقم 92، نحنُ أمامَ مثالٍ صارخٍ على حالةِ التحريفِ اللفظيِّ أو تحريفِ نصِّ القرآن، إذ تحكي هذهِ الآيةُ قصّةَ غرقِ فرعونَ في البحرِ الأحمرِ وانتشالهِ ليكونَ آيةً أو «تذكرةً» كإنذارٍ للذينَ يأتونَ من بعده: {لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً}، لكن يخبرنا البيضاويُّ هنا أنّهُ في بعضِ النسخِ منَ القرآن وردت القراءةُ على النحوِ التالي: {لمن خلقكَ آية}، هنا في هذا الموضع، تغيّرَ معنى الآيةِ بشكلٍ كامل، والمسلمُ الحائرُ والمرتبك سيظلُّ حائراً وجاهلاً أبداً حولَ أيٍّ من هذهِ القراءاتِ العديدةِ والمختلفةِ هيَ القراءةُ الصحيحةُ والتي تمثّلُ جزءاً منَ القرآنِ الأصلي، وأيّها مزيّفٌ ومحرّف؟ وهناكَ مثالٌ آخر على اختلافاتٍ كبيرةٍ في القراءةِ نجدها في الآيةِ رقم 38 من سورةِ الكهف 18، في النسخِ الحاليّةِ منَ القرآن: {لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا} لكن يخبرنا القاضي في تفسيرهِ أنّهُ في بعضِ النسخِ وردت هذهِ الآيةُ على النحوِ التالي: {ولكن هوَ الله ربّي ولكن أنا لا إله إلّا هوَ ربّي} التعليقُ على هذا التحريفِ الصّارخِ للنصِّ القرآني قد يكونُ زائداً عن الحاجةِ وغيرَ مجدٍ، ونتركُ الحكمَ للقارئِ ليحكمَ بنفسه. حالةٌ أخرى منَ التحريفِ العلنيِّ والواضحِ للنصِّ القرآني يوردها القاضي البيضاويُّ في تفسيرهِ للآية رقم 38 من سورة يس 36: {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا}، لكن ليسَ هناكَ أيُّ مسلمٍ مثقّفٍ ومتعلّم يعتقدُ فعلاً أنَّ الشّمسَ تجري أو

تسيرُ خلالَ اليوم، ثمَّ تستقرُّ في مكانٍ محدّدٍ عندما يحينُ ما نسمّيه «بالمساء»، لكن من خلالِ نظرةٍ أكثرَ ليبراليّةً إلى هذهِ الآيةِ نعرفُ أنَّ هذهِ الآيةَ ببساطة تتحدّثُ بلغةٍ شعبيّةٍ عاميّة، وليسَ الغرضُ منها عرضَ حقيقةٍ علميّة، إلّا أنَّ بعضَ الأتباعِ المتشدّدينَ والمتحمّسينَ لدينهم ولنبيّهم، لا يقتنعونَ بهذا التفسير، ويسعونَ لإزالةِ هذا العيبِ الخياليِّ والوهميِّ من صفحاتِ القرآن، فاتّخذوا وسائلَ وأساليبَ صارمةً لإدخالِ كلمةٍ في هذهِ الآية، لذا يخبرنا البيضاويُّ أنّهُ في بعضِ النسخِ منَ القرآنِ أُدخِلَت كلمة «لا» في هذا الموضع، ليصبحَ المعنى على الشّكل التّالي: {والشّمسُ تجري لا مستقرَّ لها}. قبلَ أن ننهي هذا الفصل، أودُّ أن أوردَ مثالاً آخرَ على عمليّةِ التحريفِ في النصِّ القرآني اخترتهُ منَ الأمثلةِ الكثيرةِ التي أدرجها القاضي البيضاويّ، في الآيةِ الأولى من سورةِ القمر 54 وردت على النحوِ التّالي في النسخِ الحاليّةِ منَ القرآن: {اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ}، منَ المعلوم أنَّ ذلكَ الخلافَ المريرَ والطويلَ الذي جرى بينَ المسلمينَ بمختلفِ مذاهبهم وطوائفهم حولَ هذهِ الآية، فالبعضُ يؤكّدُ أنّنا هنا أمامَ شهادةٍ واضحةٍ على معجزةٍ رائعةٍ قامَ بها محمّد عندما شقَّ القمر، وآخرونَ يقولونَ أنَّ الآيةَ بكاملها تتضمّنُ إشارةً مستقبليّة، وأنَّ كلَّ ما تعلّمنا إيّاه الآية هوَ أنَّ القمرَ سينشقُّ نصفينِ عندَ مجيءِ السّاعة. كلُّ ما نحتاجُ إليهِ لجعلِ هذهِ الآيةِ تشيرُ بلا شكّ إلى حدثٍ وقعَ في الزمنِ الماضي كانَ مجرّدَ إضافةِ كلمةٍ ما تؤدّي تلكَ الوظيفة. والآن، يخبرنا البيضاويُّ أنَّ هناكَ بعضَ النسخِ التي أدخلت في الآيةِ كلمةَ «قد» بمعنى «الآن»، لذا تصبحُ هذهِ الآيةُ تقرأُ على النحوِ التّالي {وقد انشقَّ القمرُ الآن}، ألم يتّضح الأمرُ اليوم أن قامَ بعضُ المجادلينَ المحمّديين، لكي يحصّنوا آرائهم الخاصّةَ فيما يتعلّقُ بهذا الموضوع، وليمجّدوا نبيّهم محمّد في نفسِ الوقت، بأن أدخلوا هذهِ الكلمةَ في نسخهم منَ القرآن؟ إذا كانَ هذا الاستدلالُ صحيحاً، ألا تلقي هذهِ المسألةُ بكاملها ضوءاً باهتاً على المعاملةِ الشنيعةِ التي تعرّضَ لها كتابُ المسلمينَ المقدّسِ في الماضي وعلى يدِ أصحابه، ألا تُظهِرُ هذهِ المسألةُ زيفَ الادّعاءاتِ والمزاعمِ المفرطةِ والتي لا أساسَ لها، التي أطلقها المسلمونَ بخصوصِ سلامةِ ومعصوميّةِ النصِّ القرآنيّ؟ أمثلةٌ كثيرةٌ شبيهةٌ بتلك أوردناها سابقاً يمكنُ إيرادها هنا، إلّا أنَّ ضيقَ المساحةِ لا يسمحُ لنا بالخوضِ أكثرَ في هذهِ الأمثلة، لقد أظهرنا ما يكفي منَ الأمثلةِ لتثبتَ لكلِّ قارئٍ غيرِ متحيّزٍ وموضوعيٍّ ومنفتح، أنَّ القرآنَ قد تمّ تحريفهُ والتلاعبُ بهِ إلى حدٍّ كبير، وأنَّ السُنّةَ والشّيعةَ على حدٍّ سواء يتّفقونَ فيما

بينهم حولَ تلكَ التبايناتِ والاختلافاتِ الموجودةِ في نسخٍ مختلفة. الكثيرُ منَ العلماءِ والباحثينَ الموثوقينَ والموضوعيين اعترفوا أنّهُ في العديدِ من الحالاتِ أُفسِدَ النصُّ القرآنيُّ وحُرِّفَ بشكلٍ عنيد على يدِ مسلمينَ منعدمي الضمير، لذلكَ نرى أنَّ البيضاويَّ ومعلّم وأبو الفداء جميعهم يشيرونَ إلى عبدِ الله بن سرح باسمه، إذ أنّهُ كانَ أحدَ كتبةِ الوحيِّ وصحابةِ محمّد، وكانَ يغيّرُ ويتلاعبُ بالكلماتِ عندما كانَ محمّد يلقّنهُ السّورة، لكن سنرى أنَّ النصَّ القرآنيَّ الذي بينَ أيدينا اليوم ليسَ هوَ الوحيدَ المفتوحَ على السؤالِ والريبة، وليسَ فقط أنَّ هناكَ الكثيرَ منَ التبايناتِ والاختلافاتِ موجودةٌ في قراءةِ القرآنِ الذي نقرأهُ اليوم، بل سنثبتُ أنَّ جزءاً كبيراً من القرآنِ الأصليِّ باتَ الآنَ مفقوداً، وذلكَ من خلالِ مصادرَ محمّديّةٍ موثوقةٍ ومعتمدةٍ من قبلِ المحمّديّينَ أنفسهم، وأنَّ القرآنَ الحاليَّ ما هوَ إلّا جزءٌ _ومع ذلكَ تمَّ تحريفه_ منَ الكتابِ الأصليِّ الذي لقّنهُ محمّدٌ لأتباعه.

شهادةُ التّراثِ على القرآن:

سيتذكّرُ القارئ أنَّ الخليفةَ عثمان قامَ بجمعِ نسخةٍ واحدةٍ منَ القرآن، وأحرقَ جميعَ النسخِ الأخرى، ثمَّ أرسلَ نسخاً عديدةً من مصحفهِ إلى المدنِ الرئيسةِ في العالمِ الإسلامي، إلّا أنّهُ لم يسبق أن قامَ أيُّ أحدٍ بإنكارِ هذا العملِ على الخليفة، إلّا الشيعةُ الذينَ أنكروا هذا العملَ بأشدِّ وأقذعِ الكلمات، إذ أنّهم يؤكّدونَ مراراً وتكراراً أنَّ الكثيرَ منَ الآياتِ التي تشيرُ إلى عليٍّ وعائلته قد حُذِفَت أو أُزيلَت من بينِ آياتِ القرآن. سورةٌ كاملةٌ غائبةٌ الآن منَ النسخِ الحاليّةِ منَ القرآن، وتتضمّنُ الكثيرَ منَ الإشاراتِ إلى عليٍّ ومكانته العظيمة، إلّا أنّها لم تعد موجودة، يطلقُ على تلكَ السّورةِ تسميةُ «سورةِ النّورين»، إذ يَقصِدُ بالنورينِ كلاًّ من محمّدٍ وعليّ، ويمكنُ للقارئِ أن يجدَ هذهِ السّورةَ كاملةً في كتابِ «تحقيقِ الإيمان»، ص13-11، ومنَ المرجّحِ أنَّ هذهِ السّورةَ كانت موجودةً ضمنَ مصحفِ عليّ، لكن لسوءِ الحظِّ أنَّ ذكرَ المصحفِ قد فُقِدَ أيضاً، والحالُ أنَّ الشيعةَ يعتقدونَ أنّهُ عندما يظهرُ المهدي _الإمامُ الأخير_ سيظهرُ معهُ القرآنُ الكاملُ مرّةً أخرى ويقدّمه إلى العالم. دراسةٌ متفحّصةٌ للتّراث تبيّنُ لنا أنَّ القرآنَ كانَ في زمنِ محمّدٍ أكبرَ وأضخمَ بكثيرٍ ممّا هوَ عليهِ الآن، فهنالكَ حديثٌ منقولٌ عن أبي عبدِ اللهِ عن هشام أنّهُ قال: ((إنَّ القرآنَ الذي جاءَ بهِ جبريلُ إلى محمّدٍ صلعم سبعةَ عشرَ ألفَ آيات)) لكن حسبما جاءَ في تفسيرِ البيضاويِّ [وغيرهِ منَ التفاسيرِ الأخرى] فالقرآنُ الحاليُّ لا يتضمّنُ سوى 6264 آية، لذلكَ فنحنُ نعرفُ من هذا التقليدِ البالغِ الأهميّة، والموثّقِ من قبلِ البقيّة، أنَّ القرآنَ الحاليَّ لا يشكّلُ سوى ثلثي حجمِ القرآنِ الأصليّ! في تقليدٍ آخر يردُ الخبرُ التّالي: ((محمّد بن نصر سمعَ عنهُ [أبو عبدِ الله] أنّهُ قال: أنّهُ كانَ في [سورة] (لم يكنِّ) اسمُ سبعينَ رجلاً من قريش بأسمائهم وأسماءِ آبائهم)) وتشيرُ الأبحاثُ إلى أنَّ هذهِ القائمةَ منَ الأسماء قد اختفت كلّيّاً وحُذِفَت منَ النسخِ الحاليّةِ منَ القرآن، أمّا التفسيرُ الأوضحُ فهوَ أنَّ تلكَ الأسماءَ كانت تشكّلُ جزءاً كبيراً من ذلكَ القرآنِ الذي فُقِد، والتي تمّت الإشارةُ إليه في الحديثِ الذي وردَ سابقاً. في الكتابِ المشهورِ الموسومِ بـ«الإتقان»، مؤلّفهُ جلال الدين السيوطي، وردَ خبرٌ أنّهُ كانَ في سورةِ الأحزابِ آيةٌ تتناولُ موضوعَ معاقبةِ الزُناة، هذهِ الآيةُ الشّهيرة، والتي تعرفُ بـ «آيةِ الرّجم»، غالباً ما يشارُ إليها في التقاليدِ والتّراث، ممّا لا يدعُ أيَّ مجالٍ للشّكِّ أنَّ هذهِ الآيةَ كانت تشكّلُ جزءاً أساسيّاً وجوهريّاً منَ القرآن، وقد جاءت هذهِ الآيةُ على الشّكل التّالي حسبما وردَ في

الإتقان: ((فيها آيةٌ للرّجم، قالَ: وما الرّجم؟ قال: إذا زنيا الشيخُ والشيخةُ فارجموهما)) هذهِ الآيةُ غيرُ موجودةٍ في النسخِ الحاليّةِ منَ القرآن، ومع ذلك فهناكَ دليلٌ قاطعٌ أنّها كانت جزءاً هاماً منَ الكتابِ الأصليّ، على سبيلِ المثال، يقالُ أنَّ عمرَ [بنَ الخطّاب] كانَ يعرفُ أنّها كانت جزءاً رئيساً منَ القرآن، لكنّهُ عجزَ عن إيجادِ أيِّ قارئٍ يدعمُ رأيه، لذلكَ فقد رفضَ إدخالها في القرآن. في كتابِ «فتح الباري» جاءَ الحديثُ التّالي: ((بقولِ عمر هذا أنّهُ كانت عندهُ شهادةٌ في آيةِ الرجم أنّها منَ القرآن فلم يُلحِقها بنصِّ المصحفِ بشهادةٍ واحدة)) هذهِ التقاليدُ تظهرُ لنا أنَّ الأفكارَ الحاليّةَ والشّائعةَ عن القوّةِ العظيمةِ للذاكرةِ التي كانَ يمتلكها الرجالُ (الحفظة) الذينَ كانوا حولَ الرسول، تحتاجُ لإعادةِ نظرٍ وتقويمٍ بشكلٍ جدّيّ، إذ أنّنا هنا لدينا من دونِ شكٍّ آيةٌ منَ القرآن ولا يمكنُ لأصالتها أن تشهدَ عليها شهادةُ رجلٍ واحد. فهناكَ أكثرُ من تقليدٍ أو حديثٍ يسجّلُ لنا شهادةَ عائشة، أصغرِ زوجاتِ النبيِّ وأحبّهنَّ إلى قلبه، عن هذهِ الآية، وقد جاءَ في التقليد: ((قالت عائشة: كانت الأحزابُ... في زمنِ رسولِ الله مائتي آية فلمّا كتبَ عثمانُ المصاحفَ لم يقبل إلّا ما أثبتَ وكانَ فيها آيةُ الرّجم)) هذهِ الشهادةُ التي وردت على لسانِ زوجةِ محمّد تثبتُ بالكاملِ التصريحاتِ والتقاليدَ التي وردت في الأعلى عن نقصِ النسخةِ الحاليّةِ منَ القرآن، إذ أنَّ عائشةَ تخبرنا أنَّ سورةَ الأحزابِ في زمنِ محمّد كانت تتضمّنُ مائتي آية، أمّا في القرآنِ الحاليّ فسورةُ الأحزابِ تتكوّنُ من 73، ثمَّ تضيفُ عائشة فيما بعد شهادتها إلى شهادةِ عمر على حقيقةِ أنَّ آيةَ الرّجمِ كانت موجودةً في القرآن في إحدى المرّات، لكن _لا حاجةَ للقول لا توجدُ أيُّ إشارةٍ أو دليلٍ إليها في النسخةِ الحاليّة. هناكَ تقليدٌ آخر، موجودٌ في كتابِ ابن ماجة، وأحمد: ((عن عائشة – رضيَ اللهُ عنها – قالت: «لقد نزلت آيةُ الرّجمِ، ورضاعةُ الكبيرِ عشراً، ولقد كانت في صحيفةٍ تحتَ سريري فلمّا ماتَ رسولُ اللهِ وتشاغلنا بموته، دخلَ داجنٌ فأكلها»)) لا حاجةَ لأن نعلّقَ أكثر على هذهِ الآية، فالقارئُ إمّا أن يكونَ مجرّداً من كلِّ إحساسٍ أو شعورٍ أدبيّ، أو أنّهُ مجحفٌ أعمى عن قصد، إذا أخفقَ في رؤيةِ كيفَ أنَّ هذهِ الحقائقَ التي أوردناها في الأعلى تحطّمُ وتفنّدُ جميعَ المزاعمِ حولَ الحمايةِ والصّيانةِ الإلهيّةِ للقرآن. ومخافةُ القول أنَّ لغتنا هنا مبالغٌ فيها، فإنّنا نقتبسُ عدّةَ أحاديثَ وتقاليدَ أخرى من مصادرَ موثوقة، والتي ستمكّنُ القارئَ من رؤيةِ الحقائقِ التي أوردناها هنا. هناكَ تقليدٌ معروفٌ جيّداً عن ابنِ عمر: ((عن ابن عمر قال: لا يقولُ أحدكم قد أخذتُ القرآنَ كلّهُ، ما

يدريهِ ما كلّهُ، قد ذهبَ منهُ قرآنٌ كثير، ولكن يقول قد أخذتُ ما ظهرَ منهُ)). تقليدٌ آخرُ جاءَ فيه: ((قالَ بنُ جيش قالَ أُبيُّ بنُ كعب: كم كانَ عددُ آياتِ سورةِ الأحزاب؟ قلت: اثنتينِ وسبعينَ آية، وثلاثاً وسبعينَ آية، قال: إن كانت لتعدلُ سورةَ البقرة)) هذا الحديثُ المشهورُ موجودٌ أيضاً في كتابِ العلاّمةِ جلالِ الدينِ السيوطي المعروف بالإتقان، حيثُ يخبرنا أنَّ سورةَ الأحزابِ، التي تتألّفُ الآنَ من ثلاثٍ وسبعينَ آية، كانت تساوي في إحدى المرّات سورةَ البقرةِ التي تتألّفُ من 286 آية، لذلكَ يلاحظُ أنّهُ من هذهِ السّورةِ وحدها أنَّ هناكَ حوالي 213 آية مفقودة. تقليدٌ معروفٌ آخر عن ابنِ عبّاس جاءَ فيه: ((سألتُ عليَّ بنَ أبي طالب: لِمَ لَمْ يُكتَب في براءة «بسمِ اللهِ الرّحمنِ الرّحيم»؟ قال: إنّها أمانٌ وبراءةٌ منزّلةٌ بالسّيف، وعن مالك أنَّ أوّلها لمّا سقطَ مع البسمِ الله فقد ثبتَ أنّها كانت تعدلُ البقرةَ بطولها)) في تقليدٍ آخر جاءَ في صحيحِ مسلم، في كتابِ الزكاةِ هناكَ حديثٌ وردَ فيهِ أنَّ أحدَ قرّاءِ القرآن، واسمهُ أبو موسى الأشعري، قال: ((وإنّا كنّا نقرأُ سورةً كنّا نشبّهها في الطولِ والشدّةِ ببراءة فأنسيتها غيرَ أنّي قد حفظتُ منها لو كانَ لابنِ آدمَ واديانِ من مالٍ لابتغى وادياً ثالثاً ولا يملأُ جوفَ بنِ آدمَ إلّا التراب وكنّا نقرأُ سورةً كنّا نشبّهها بإحدى المسبّحات فأنسيتها غيرَ أنّي حفظتُ منها يا أيّها الذينَ آمنوا لِمَ تقولونَ ما لا تفعلون فتكتبَ شهادةً في أعناقكم فتسألونَ عنها يومَ القيامة))ليستَ هناكَ حاجةٌ لقولِ المزيد، إذ أنَّ أيّاً من هاتينِ الآيتينِ غيرُ موجودتينِ في المصحفِ العثماني. في صحيحِ الجامعِ الكبيرِ للحديثِ البخاريّ هناكَ تقليدٌ آخرُ يؤكّدُ فقداناً كاملاً لعددٍ كبيرٍ منَ الآياتِ من سورةِ الأحزاب، إذ وردَ فيه: ((وأخرجَ البخاريُّ في تاريخهِ عن حذيفةَ قال: قرأتُ سورةَ الأحزابِ على النبيِّ فنسيتُ منها سبعينَ آيةً ما وجدتها))كما أنَّ هناكَ تقليداً آخرَ يستحقُّ أن نوردهُ هنا قبلَ أن نختتمَ هذا الكتاب. إذ أنّهُ لا يتعلّقُ بالماضي، بل بمستقبلِ تاريخِ القرآن، وهوَ موجودٌ في مجموعِ ابنِ ماجة: ((عن حذيفةَ بنِ اليمان قالَ رسولُ الله صلعم: يدرسُ الإسلامُ كما يدرسُ وشيُ الثّوبِ حتّى لا يُدركَ ما صيامٌ ولا صلاةٌ ولا نسكٌ ولا صدقةٌ وليسري على كتابِ اللهِ عزَّ وجلّ في ليلةٍ فلا يبقى في الأرضِ منهُ آية))لا نريدُ التعليقَ أكثرَ حولَ الأحاديثِ التي وردت معنا في الأعلى، فهيَ كافيةٌ لتثبتَ لأيِّ إنسانٍ عقلانيٍ باحثٍ عن الحقيقة _ومن أجلِ الحقيقةِ وحدها_ الكامنةِ وراءَ النصِّ القرآنيّ. نشأَ كلُّ مسلمٍ على الاعتقادِ بأنَّ للقرآنِ قداسةً تحميهِ من أيِّ تغيّرٍ أو تحريف. طبعاً القرآنُ نفسهُ يقدّمُ هذا الزّعمَ في الآيةِ التالية: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ

وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} [الحجر 15: 9] كما أنّنا نقرأُ في مكانٍ آخرَ ما يلي: {ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ} [البقرة 2: 2] إذن؛ هذا الكتابُ مصونٌ، محفوظٌ، ولا يتطرّقُ إليهِ الشّكّ، وقد بلغَ الأمرُ في بعضهم حدَّ المغالاةِ في تمجيدِهِ إذ قالَ صاحبُ كتابِ فضائلِ القرآن: أنّكَ إذا وضعتَهُ في النّار فإنَّ النّارَ لن تمسسهُ ولن يحترق!! سأدعُ القارئَ ليحكمَ من تلقاءِ نفسِهِ على قيمةِ هذهِ المزاعمِ حولَ مصداقيّةِ القرآنِ وموثوقيّته في ضوءِ الشّهاداتِ التي قدّمها هؤلاءِ الفقهاءُ المسلمون والتي قُدِّمت في هذا الكتاب، وسيرى أنَّ ادّعاءَ الحمايةِ الإلهيّةِ المزعومةِ من كلِّ التغييرات هوَ ادّعاءٌ باطل، وأنَّ القرآنَ يدينُ نفسهُ، ويثبتُ أنّهُ من أصلٍ ومنشئٍ بشري. وإذا كانَ عندَ القارئِ رغبةٌ إضافيّةٌ للاطّلاعِ على معلوماتٍ أكثر حولَ هذا الموضوعِ الهامّ يمكنهُ الاطّلاعُ على الأعمالِ التّالية: هدايةُ المسلمين، منارُ الحقّ، ميزانُ الحقّ، تحقيقُ الإيمان، تحريفُ القرآن، وتأويلُ القرآن، ثمَّ ليتابع القارئ _ وبكلِّ موضوعيّة_ الاطّلاعَ على كلِّ الأعمالِ والدراساتِ التي تناولت هذا الموضوعَ الهام؛ أي آراءَ وكتاباتِ أولئكَ الذينَ أوردنا اقتباساتٍ من أعمالهم هنا، فشهاداتهم لا يمكنُ تجاهلها أو تنحيتها جانباً. لقد رأينا ما قالهُ رجالٌ مثلَ القاضي البيضاويّ، الإمامُ حسين، مسلم، البخاريّ، وجلالُ الدينِ السيوطي فيما يتعلّقُ بالقرآن. ورأينا كيفَ _حتّى في الفترةِ التي كانَ ما يزالُ فيها محمّدٌ على قيدِ الحياة_ ظهرت اختلافاتٌ وفروقاتٌ وتبايناتٌ هائلةٌ في قراءةِ القرآن، وقد تتبّعنا تاريخَ كلِّ المحاولاتِ اليائسةِ لتقليلها وحصرها في نصٍّ رسميٍّ موحّد، وقد رأينا كم كانت نسخةُ عثمانَ مختلفةً عن نسخةِ أبي بكر ومصحفِ عبدِ اللهِ بنِ مسعود، ورأينا أيضاً _طبقاً لشهاداتِ أهمِّ وأعظمِ مفسّري القرآن_ كيفَ أنَّ النصَّ الحاليَّ يحتوي على اختلافاتٍ وتبايناتٍ كثيرةٍ في القراءات، وكثيرٌ منها تغيّرُ معنى الآياتِ بشكلٍ كلّيّ، وأخيراً رأينا كيفَ أنَّ تلكَ الشّهاداتِ توافقت مع بعضها الآخر، ونصلُ من ذلكَ إلى نتيجةٍ مفادها أنَّ هناكَ أجزاءً كبيرةً فُقِدَت منَ القرآن.

ما القرآن؟[1]

توبي ليستر

في عام 1972، وخلالَ عمليّةِ ترميمٍ للمسجدِ الكبيرِ في مدينةِ صنعاءَ باليمن، وأثناءَ عملِ العمّالِ في شرفةٍ بينَ سقفيّ الهيكلِ الداخليّ والخارجيّ عثروا على مقبرة، إلّا أنّهم لم يتعرّفوا عليها في بادئِ الأمر، لكنَّ جهلهم كانَ مبرَّراً: المساجدُ في الحالةِ العاديّة ليست مقابر، كما أنَّ الموقعَ لم يكن يحتوي أيّةَ شواهدَ أو أضرحة، لا وجودَ لبقايا جسديّةٍ بشريّة، ولا مجوهراتٍ جنائزيّة. في الواقع، لم تكن هذهِ المقبرةُ تحتوي إلّا على هريسةٍ مشوَّهةٍ وغيرِ جذّابةٍ من رقٍّ قديمٍ ووثائقَ ورقيّةٍ عتيقة – كتبٌ مهترئةٌ وصفحاتٌ مشتّتةٌ مكتوبٌ عليها بالنصِّ العربي، مصهورةٌ ومخلوطةٌ ببعضها جرّاءَ قرونٍ طويلةٍ منَ الأمطارِ والرطوبة، مقضومةٌ خلالَ كلِّ هذهِ الفترةِ منَ الزّمن من قبلِ الجرذانِ والحشرات. ورغبةً منهم بمتابعةِ عملهم، قامَ العمّالُ بجمعِ المخطوطات، حشروها داخلَ حوالي عشرينَ كيساً منَ البطاطا، ووضعوها جانباً على سلّمِ أحدِ مآذنِ المسجد، حيثُ أُقفِلَ عليها، ونُسيت مرّةً أخرى، لكنْ ليسَ لفترةٍ طويلة، حتّى عثرَ عليها القاضي إسماعيل الأكوع، وقد كانَ رئيسَ السّلطاتِ اليمنيّة للعاديات، وهوَ من أدركَ الأهمّيّةَ الفعليّةَ لهذهِ المكتشفات.

طلبَ الأكوعُ مساعدةً دوليّةً لفحصِ هذهِ الكسراتِ وصيانتها، وفي عام 1979 استطاعَ أن يثيرَ اهتمامَ باحثٍ ألمانيٍّ زائر، الذي بدورهِ أقنعَ الحكومةَ الألمانيّةَ بتمويلِ مشروعِ ترميم. وبعدما بدأَ المشروع، سرعانَ ما تبيّنَ أنَّ هذا الكنزَ كانَ مثالاً رائعاً لما كانَ يسمّى في وقتٍ منَ الأوقات باسمِ «القبرِ الورقي»، في هذهِ الحالة كانَ الموقعُ يحتوي على – من بينِ الكثيرِ منَ الأشياءِ الأخرى– عشراتِ الآلافِ منَ الكسراتِ من آلافِ الصّحفِ التي تحملُ مخطوطاتٍ مختلفةً للقرآن، كتابِ المسلمينَ المقدّس. جرى الحديثُ في بعضِ الدوائرِ الإسلاميّةِ المتشدّدة أنَّ النسخَ التالفةَ أو المهترئةَ منَ القرآن يجبُ إزالتها وعدمُ إدخالها في عمليّةِ تدوير، لذلكَ فإنَّ

(1) مقالةٌ نُشِرَت ضمنَ مجلّة «أتلانتيك مونثلي» في يناير عام 1999. مترجمةٌ بتصرُّف بإذنٍ خطّيٍّ منَ الكاتب.
Toby Lester, "What Is the Koran7" Atlantic Monthly, January 1999.

فكرةَ القبر، والذي حافظَ على حرمةِ وقداسةِ النصوصِ المدوَّنةِ عليها، وفي نفسِ ضمنِ عدمِ قراءةِ أو تلاوةِ أيِّ نسخةٍ أخرى، ما عدا نسخةٍ كاملةٍ وسليمةٍ منَ الكتاب.

بعضُ الصفحاتِ في ذلكَ الكنزِ اليمني بدت أنّها تعودُ في تاريخها إلى القرنينِ السّابعِ والثّامنِ الميلاديين، أو القرنينِ الإسلاميين الأوّلين – كانت عبارةً عن كسرات؛ أي أنّها كانت أقدمَ المصاحفِ الموجودةِ حتّى الآن، والأهمُّ من ذلك، بعضُ هذهِ الكسراتِ أظهرت بعضَ الزّيغانِ والشذوذاتِ الصغيرةِ، لكن اللافتةِ للانتباه والمختلفةِ عن النصِّ القرآنيِّ الرسمي. هذهِ الشذوذاتُ، مع أنّها ليست بالجديدةِ أو المفاجئةِ بالنسبةِ لمؤرِّخي النصوص، بدت مزعجةً ومقلقةً لمعتقداتِ وأفكارِ المسلمينَ الأرثوذكس التي تنصُّ بأنَّ القرآنَ كامل، خارجٌ عن إطارِ الزمان، وأنّهُ كلامُ اللهِ الذي لا يتغيَّرُ ولا يتبدَّل.

الجهودُ العلمانيّةُ والموضوعيّةُ الرئيسةُ لإعادةِ تفسيرِ القرآن – التي تقومُ جزئيّاً على الدليلِ النصّيِّ الذي تقدّمهُ الكسراتُ اليمنيّة – تعدُّ أمراً مزعجاً ومهيناً بالنسبةِ للكثيرِ منَ المسلمين، على غرارِ المحاولاتِ اللاّحقةِ لإعادةِ تفسيرِ الإنجيلِ وحياةِ يسوعِ التي أزعجت الكثيرَ منَ المسيحيينَ المتشدِّدينَ والمحافظين، وبرغم ذلك، هناكَ باحثون، من بينهم علماءُ مسلمون، شعروا أنَّ هذهِ الجهود، والتي تسعى أساساً إلى وضعِ القرآنِ في سياقهِ التّاريخيّ، ستكونُ بمثابةِ الصّدمةِ الإنعاشيّةِ لنهضةٍ إسلاميّةٍ جديدة، من خلالِ إعادةِ النظرِ في التّراثِ وتقويمه، والتقدُّمِ نحوَ الأمامِ بالنظرِ إلى الخلف. إلى هنا حُصِرَ الأمرُ ضمنَ إطارِ الحججِ العلميّة، هذا النوعُ منَ التفكيرِ يمكنُ أن يكونَ بالغَ القوّةِ والتأثيرِ ويمكنُ أن يؤدّي – كما تُظهِرُ تواريخُ عصرِ النهضةِ والإصلاح – إلى تغييراتٍ اجتماعيّةٍ عظيمةِ الأثر، فالقرآنُ، بعدَ كلِّ شيء، حاليّاً من أكثرِ الكتبِ الأيديولوجيّةِ تأثيراً في العالم.

النظرُ إلى الكسرات:

أوّلُ شخصٍ يُمضي قسماً كبيراً منَ الوقتِ في التدقيقِ وفحصِ الكسراتِ اليمنيّة، سنةَ 1981، كانَ جيردر بوين، باحثٌ متخصِّصٌ بالخطِّ والرسمِ العربيِّ والباليوغرافيا[1] القرآنيّة من جامعةِ سارلاند، بسار بروكن، ألمانيا. بوين، الذي أُرسِلَ من قبلِ الحكومةِ الألمانيّةِ لتنظيمِ

(1) الباليوغرافيا القرآنيّة Koranic Paleography: علمُ الخطوطِ والكتاباتِ القرآنيّةِ القديمة. [المترجم]

مشروعِ الصيانةِ والإشرافِ عليه، أدركَ مدى عتقِ بعضِ كسراتِ الصّحف، وكشفت أبحاثهُ المبدئيّةُ التمهيديّة ترتيباً غيرَ مألوفٍ للسّور، اختلافاتٌ نصيّةٌ جوهريّةٌ ورئيسة، وأساليبُ نادرةٌ في القواعدِ الإملائيّةِ والرسوماتِ الفنيّةِ المزينة. اللافتُ للانتباهِ أيضاً، أنَّ الصّحفَ التي كُتِبَ عليها القرآن كانت مكتوبةً بخطٍّ نادر وبالخطِّ العربيِّ الحجازيِّ القديم؛ قطعٌ وأجزاءٌ منَ المصاحفِ المبكرةِ منَ المعروفِ أنّها موجودة، كانت أيضاً ألواحاً-نسخٌ يبدو أنّها كُتِبَت في وقتٍ أبكر، نسخٌ تمَّ التخلُّصُ منها- بدأ بوين الإحساسَ بأنَّ المصاحفَ اليمنيّةَ تشيرُ إلى أنّها نصوصٌ متغيّرةٌ ومتطوِّرة وليست ببساطةٍ كلمةَ اللهِ التي أُنزِلَت على النبيِّ محمّد خلالَ القرنِ السّابعِ الميلادي.

منذُ باكورةِ عام 1980 تمَّ استخراجُ أكثرَ من حوالي خمسَ عشرةَ ألفِ صحيفةٍ من صحفِ القرآنِ اليمنيِّ وبسطها، تنظيفها، معالجتها، فرزها، تصنيفها، وجمعها، وهيَ تقبعُ الآن -محفوظةً لألفِ سنةٍ أخرى- في دارِ المخطوطاتِ اليمنيّة، منتظرةً مجيءَ أحدٍ ما ليُجري عليها دراساتٍ تفصيليّةً أكثر.

إلّا أنَّ السّلطاتِ اليمنيّةَ يبدو أنّها تعارضُ هذا الأمرَ ولا تسمحُ به، والحال، كما يقولُ بوين موضّحاً:

أنّهم يريدونَ أن يُبقوا على هذا الشيءِ منزوياً، كما نفعلُ نحنُ أيضاً، مع أنّهم - ولأسبابٍ مختلفةٍ تماماً- لا يريدونَ أن يلفتوا الانتباهَ إلى حقيقةِ أنَّ هناكَ ألماناً وآخرينَ غيرهم يعملونَ على تلكَ المصاحف، هم لا يريدونَ أن ينتشرَ الخبرُ بينَ العامّةِ أنَّ هناكَ أعمالاً تجري، بما أنَّ الموقفَ الإسلاميَّ يقتضي أنَّ كلَّ ما يجبُ أن يقالَ عن القرآنِ وبخصوصِه، قد قيلَ منذُ ألفِ سنةٍ مضت وانتهى الأمر.

حتّى الآن لم يحظَ سوى اثنينِ منَ العلماءِ بإمكانيّةِ الاقترابِ من المخطوطاتِ اليمنيّةِ بشكلٍ موسّع: بوين وزميلهُ غراف فون بوتمر، باحثٌ متخصّصٌ في تاريخِ الفنِّ الإسلاميّ، من جامعةِ سارلاند أيضاً. لم ينشر بوين وفون بوتمر سوى القليلِ منَ المقالاتِ المختصرةِ في دوريّاتٍ علميّةٍ أكاديميّة حولَ ما تمكّنا منَ اكتشافهِ في الكسراتِ اليمنيّة. كانا ممانعينِ للنشرِ جزئيّاً لأنّهما -حتّى فترةٍ مؤخّرة- كانا منشغلينِ بتصنيفِ وفرزِ الأجزاءِ أكثرَ من انشغالهما بفحصها بشكلٍ

منتظم، وجزئياً لأنّهما كانا يشعرانِ أنَّ السّلطاتِ اليمنيّة، إن هيَ أدركت العواقبَ والنتائجَ المترتّبةَ عن هذا الاكتشاف، قد تمنعهما من متابعةِ عملهما، على أيّةِ حال، انتهى فون بوتمر في عام 1997 من أخذِ أكثرَ من خمسٍ وثلاثينَ صورةً مصغّرةً عن الكسرات، وعادَ بالصّورِ إلى ألمانيا. وهذا معناهُ أنَّ فون بوتمر، بوين، وغيرهم منَ العلماء سيكونُ لديهم قريباً الفرصةُ للتأمُّلِ وتفحُّصِ النصوصِ ونشرِ أعمالهم بحرّيّة – وهذا ما يترقّبهُ بوين بحماسة. إذ يقول:

غالبيّةُ المسلمينَ لديهم ذلكَ الاعتقادُ الذي يقولُ أنَّ كلَّ ما هوَ بينَ دفّتيِّ القرآن هوَ كلامُ اللهِ غيرِ المحرَّفِ والمعصوم، فهم يحبُّونَ دائماً الاقتباسَ النصّيَّ الذي يُظهِرُ أنَّ الكتابَ المقدَّسَ لهُ تاريخٌ طويلٌ وخاصّ وأنَّهُ لم يُنزَّل منَ السماء، لكن حتّى هذهِ اللحظة بقيَ القرآنُ محفوظاً كما بقيَ بعيداً عن التحريفِ والتشويه، والطريقةُ الوحيدةُ لاختراقِ هذا الجدار، هوَ من خلالِ إثباتِ أنَّ القرآنَ لهُ تاريخهُ النصّيُّ الخاصُّ أيضاً، وكسراتُ صنعاء ستساعدنا في ذلك.

بوين ليسَ وحيداً في حماستهِ التفاؤليّة هذه، «فوقعُ المخطوطاتِ اليمنيّةِ ما زالَ محسوساً حتّى الآن» يقول أندرو ريبين، أستاذُ الدراساتِ الدينيّةِ في جامعةِ كالغاري، الذي يُعَدُّ في طليعةِ الباحثينَ القرآنيّينَ اليوم، فقراءاتها المختلفةُ والمتباينة وترتيبُ آياتها المختلف، جميعها أمورٌ في غايةِ الأهمّيّة، والجميعُ متّفقٌ على ذلك. هذهِ المخطوطاتُ تقولُ إنَّ التّاريخَ المبكرَ للنصِّ القرآني هوَ أكثرُ من مجرَّدِ سؤالٍ مفتوح وأكثرُ بكثيرٍ ممَّا توقَّعَ الكثيرون: فالنصُّ كانَ أقلَّ استقراراً، ولذلكَ فإنَّهُ يفتقرُ إلى تلكَ القداسةِ والموثوقيّةِ اللتينِ كانتا تنسبانِ إليه.

تنقيح – تحريرُ كلامِ الله:

حسبَ معاييرِ الدراساتِ الإنجيليّةِ والتوراتيّةِ المعاصرة، معظمُ الأسئلةِ التي جرى طرحها من قبلِ الباحثينَ أمثال بوين وريبين تعدُّ متواضعة، ومن خارجِ إطارِ السّياقِ الإسلاميّ، مفترضةً أنَّ القرآنَ لهُ تاريخ، ومقترحةً أنَّهُ يمكنُ تفسيرهُ بطريقةٍ مجازيّةٍ وليسَ بشكلٍ راديكاليّ، إلّا أنَّ السّياقَ الإسلاميَّ – وحساسيّاتِ المسلمين – لا يمكنُ تجاهلهما، «فمن خلالِ أرخنةِ القرآن سينتجُ عن ذلكَ عمليّةُ شرعنةٍ لكلِّ التجربةِ والخبرةِ الدينيّةِ للمجتمعِ الإسلاميّ،» يقول ستيفن همفري، أستاذُ الدراساتِ الإسلاميّةِ في جامعةِ كاليفورنيا، سانتا باربرا.

فالقرآنُ هوَ أساسُ ودستورُ المجتمع، إنَّهُ الوثيقةُ التي أدَّت إلى وجوده. أمَّا مثاليّاً – إذ

منَ الواضح أنَّهُ على أرضِ الواقع لم يكن الأمرُ كذلك – فالتاريخُ الإسلاميُّ كانَ نتاجَ الجهدِ والسّعيِ لمتابعةِ وتطبيقِ الوصايا القرآنيّةِ على الحياةِ الإنسانيّة، فلو كانَ القرآنُ وثيقةً تاريخيّة، عندئذٍ يكونُ الصراعُ الإسلاميُّ بأكملِهِ وطوالَ أربعةَ عشرَ قرناً بلا أيِّ معنى.

نظرةُ المسلمينَ الأرثوذوكس إلى القرآن تتلخَّصُ في أنَّهُ كلامُ اللهِ المحفوظ، كاملٌ، وفريدٌ في رسالتِهِ، لغتِهِ، أسلوبِهِ، وشكلِهِ، وهذهِ النظرةُ مشابهةٌ لنظرةِ المسيحيينَ المتشدِّدين إلى الكتابِ المقدَّسِ بأنَّهُ «معصومٌ» و«مُلهَم»، وهذهِ الفكرةُ ظلَّت شائعةً حتّى يومنا هذا وفي عدَّةِ أماكن. اكتسبت الفكرةُ تعبيراً كلاسيكيّاً أكثرَ بقليل منذُ أقلَّ من قرنٍ منَ الزّمن على يدِ الباحثِ الإنجيليِّ جون وليم بورغن.

الإنجيلُ ما هوَ إلّا «صوتُ الرَّبِّ المتربِّعِ على العرش» فكلُّ سفرٍ فيه، كلُّ جزءٍ وكلُّ مقطعٍ منه، كلُّ كلمةٍ فيه، كلُّ مقطعٍ لفظيٍّ منه... كلُّ حرف، هوَ الكلمةُ المباشرةُ والمعصومةُ للرَّبِّ العليّ!

والحقيقةُ أنَّهُ ليسَ كلُّ المسيحيّينَ ينظرونَ هذهِ النظرةَ نفسها إلى الكتابِ المقدَّس، وفي الواقع، كما تشيرُ موسوعةُ الإسلام (Encyclopedia of Islam 1981): «النظيرُ الأقربُ في الديانةِ المسيحيّةِ إلى دورِ القرآنِ في دينِ الإسلام ليسَ الكتابَ المقدَّس، بل المسيح»، فإذا كانَ المسيحُ هوَ كلمةَ الرَّبِّ التي تحوَّلت إلى لحم، فالقرآنُ هوَ كلمةُ اللهِ التي تحوَّلت إلى نصٍّ، فالشكُّ في صلاحيّتِهِ وموثوقيّتِهِ تُعتبرُ مساساً بالإسلامِ وتهجُّماً عليه – واسألوا سلمان رشدي.

ردودُ الفعلِ الارتكاسيّةُ العنيفةُ للمسلمين لم تكن لتحولَ دونَ إجراءِ دراسةٍ نقديّةٍ-تاريخيّةٍ للقرآن، كما بيَّنت مقالاتُ الكتابِ الموسوعيِّ أصلُ القرآن [الذي قامَ بتحريرها وترجمتها ابنُ الورّاق] (1998). وقد استمرَّ العملُ حتّى خلالَ قضيّةِ سلمان رشدي: ففي عام 1996 قامَ الباحثُ القرآنيُّ غونتر لولينغ بكتابةِ مقالةٍ ضمنَ مجلّةِ النقدِ الأعلى عن المدى الشّاسع الذي تحرَّفَ فيهِ كلٌّ منَ النصِّ القرآنيِّ والأخبارِ التّراثيّةِ الإسلاميّةِ عن أصولِ الإسلام، تحريفٌ قُبِلَ بشكلٍ غيرِ متوقَّعٍ من قبلِ المتخصِّصينَ الغربيّينَ بالدراساتِ الإسلاميّة.

في عام 1994 نشرت مجلّةُ القدسِ للدراساتِ بالعربيّةِ والإسلام أحدثَ دراسةٍ كانَ قد قامَ بها الباحثُ يهودا نيفو، منَ الجامعةِ العبريّةِ بالقدس، مفصِّلاً فيها النقوشَ الدينيّةَ منَ

القرنين السّابع والثّامن عشرَ الميلاديين، والتي نُقِشَت على صخورٍ عُثِرَ عليها في جميع أرجاءِ صحراءِ النقب والتي، اقترحَ نيفو، تطرحُ «إشكالاتٍ كبيرةً ومعتبرةً تتعلّقُ بالتّراثِ الإسلاميّ ومرويّاتهِ عن تاريخِ الإسلام». في العامِ نفسه، وفي المجلّةِ ذاتها، نشرت الباحثةُ باتريشيا كرونه، متخصِّصةٌ في الإسلامِ المبكر من معهدِ الدراساتِ المتقدِّمةِ في برنستون، في نيوجيرسي، مقالاً قالت فيهِ إنَّ توضيحَ الآياتِ الصعبةَ والمبهمةَ في النصِّ القرآنيّ لا يصبحُ ممكناً إلّا من خلالِ «تركِ الرّواياتِ والأخبارِ التقليديّةِ عن كيفيّةِ ظهورِ القرآنِ والتخلّي عنها». ومن هنا عرضَ جيمس بيلامي عام 1991 ضمنَ مجلّةِ المجتمعِ الأمريكيِّ الشرقيّ سلسلةً منَ التصحيحاتِ والتنقيحاتِ لنصِّ القرآن – تغييراتٌ تعدُّ من وجهةِ نظرِ المسلمينَ الأرثوذكس تساوي عمليّةَ تنقيحٍ وتحريرِ كلامِ الله.

تعدُّ كرونه من أشهرِ وأهمِّ العلماءِ في هذا المجال. فخلالَ العقدينِ الثّامنِ والتّاسع منَ القرنِ العشرين شاركت في تأليفِ العديدِ منَ الأعمالِ البحثيّةِ والكتبِ الهامّة – أشهرها، عملها مع الباحثِ مايكل كوك: الهاجريّون Hagarism: صناعةُ العالمِ الإسلاميّ (1977) – والتي قدّمت فيها حُججاً راديكاليّةً عن أصولِ الإسلامِ ومصادرهِ وكتابةِ التّاريخِ الإسلامي. إحدى الأطروحاتِ المميَّزةِ التي يوردها كتابُ الهاجريّون تتلخّصُ في أنَّ نصَّ القرآنِ ظهرَ في فترةٍ لاحقةٍ وزمنٍ أحدثَ بكثيرٍ ممّا كان يُعتقَد.

إذ لا يوجدُ أيُّ دليلٍ قاطعٍ يثبتُ وجودَ القرآن بأيِّ شكلٍ منَ الأشكالِ قبلَ العقدِ الأخيرِ منَ القرنِ السّابعِ الميلادي، وأنَّ مكّةَ لم تكن المقامَ الإسلاميَّ الأوّل، [فالأدلّةُ] تشيرُ بوضوحٍ إلى وجودِ حرمٍ أو مقامٍ أكثرَ أهمّيّةً في شمالِ غربِ جزيرةِ العرب... أمّا مكّة فكانت ثانويّةً وغيرَ هامّة، وأنَّ الفتوحاتِ العربيّةَ سابقةٌ لمرحلةِ تمأسسِ الإسلام.

الأوهامُ اليهوديّةُ–المسيحيّةُ شُرِّعَت على شكلِ غزوٍ عربيٍّ للأراضي المقدّسة، وفكرةُ الهجرة، أو انتقالُ محمّدٍ وأتباعهِ من مكّةَ إلى المدينة عام 622، قد انطلقت بعدَ وفاةِ محمّدٍ بفترةٍ طويلة.

لا يوجدُ أيُّ مصدرٍ يعودُ إلى القرنِ السّابعِ الميلادي يعرِّفُ فترةَ الهجرةِ خلالَ الحقبةِ العربيّة، كما أنَّ كلمةَ «مسلم» لم تكن مستعملةً خلالَ المرحلةِ المبكرةِ منَ الإسلامِ الأوّلي.

فليسَ هناكَ أيُّ سببٍ مناسب يدفعنا للافتراضِ أنَّ حاملي هذهِ الهويّةِ البدائيّةِ قد أطلقوا على أنفسهم تسميةَ «مسلمين» [إلّا أنَّ] المصادرَ... تكشفُ لنا عن تسميةٍ مبكرةٍ لتلكَ الجالية مغاريتاي «Magaritai» [والتي] تظهرُ في المصادرِ اليونانيّةِ ضمنَ ورقةِ برديٍّ تعودُ إلى عام 642، وضمنَ المصادرِ السريانيّة «مهاغريه/مهجريّة» أو «مهجرين» بحدودِ عام 640.

استُقبِلَ كتابُ (الهاجريّون) بهجومٍ عنيفٍ من قبلِ العلماءِ المسلمينَ وغيرِ المسلمين على حدٍّ سواء، وذلكَ جرّاءَ اعتمادِهِ على مصادرَ تعتبرُ معاديةً جدّاً، فقد كتبَ أحدهم يقول:

هذا كتابٌ يقومُ على ما يمكنُ أن يعدَّ – من أيِّ منظورٍ إسلاميٍّ – كشهادةِ غيرِ منتظمةٍ مستوحاةٍ من مصادرَ إسلاميةٍ كافرة.

منذُ ذلكَ الوقت، تراجعَ كلٌّ من كرونه وكوك جزئيّاً عن معظمِ افتراضاتهم الراديكاليّة – على سبيلِ المثال، أنَّ النبيَّ محمّد كانَ قد عاشَ فترةً أطولَ بستّينٍ ممّا تقرُّرُ المصادرُ الإسلاميّة، وأنَّ تاريخيّةَ هجرتهِ إلى المدينةِ مشكوكٌ بها. لكنَّ كرونه استمرّت في تحدّيها للأفكارِ ووجهاتِ النظرِ الإسلاميّةِ والغربيّةِ حولَ تاريخِ الإسلام، ففي عملها: التجارةُ المكّيّةُ وظهورُ الإسلام (Meccan Trade and the Rise of Islam) 1987 قدّمت حجّةً مفصّلةً تتحدّى من خلالِ وجهةِ النظرِ السّائدةِ بينَ العلماءِ والباحثينَ الغربيّين (وبعضِ المسلمين) أنَّ الإسلامَ قد ظهرَ نتيجةً لتجارةِ التوابلِ العربيّة.

إنَّ فكرةَ جيردر بوين الحاليّة عن تاريخِ القرآن، تساهمُ وتشتركُ في هذهِ الأطروحةِ التصحيحيّةِ المعاصرة. يقولُ بوين:

فكرتي هيَ أنَّ القرآن هوَ عبارةٌ عن مزيجٍ منَ النصوصِ التي لم تكن مفهومةً كلّها حتّى في زمنِ محمّد، حتّى أنَّ العديدَ منها قد يكونُ قبلَ ظهورِ الإسلامِ بفترةٍ طويلة، وحتّى ضمنَ المصادرِ التراثيّةِ الإسلاميّة، هنالكَ كمٌّ ضخمٌ منَ المعلوماتِ المتناقضةِ والأخبارِ المتعارضة، من ضمنِ ذلك ركيزةٌ مسيحيّةٌ مهمّة، يمكننا أن نشتقَّ منها نتائجَ أنتي-تاريخيّةً كاملةً لو أردنا.

باتريشيا كرونه تدافعُ عن أهدافِ هذهِ الطريقةِ في التفكير:

القرآنُ هوَ نصٌّ مقدَّسٌ لهُ تاريخه، مثلهُ مثلَ أيِّ نصٍّ مقدَّسٍ آخر – باستثناءِ أنّنا لا نعرفُ تاريخهُ حقَّ المعرفة ونميلُ إلى إثارةِ موجاتِ احتجاجٍ عارمة عندما ندرسهُ وندقّقُ فيه، لن يهتمَّ أحدٌ بالاحتجاجِ إذا كانَ مصدرهُ الغربيّين، لكنَّ الغربيين يبدونَ محترمينَ ومراعينَ عندما تأتي الاحتجاجاتُ منَ النّاسِ الآخرين: من أنتَ لتعبثَ بتراثهم؟ لكنّنا نحنُ المتخصّصينَ بالدراساتِ الإسلاميّةِ لا نسعى لهدمِ ديانةِ أحد.

ليسَ الجميعُ متّفقينَ حولَ هذا التأكيد – وخصوصاً منذُ أن حلَّت الدراساتُ القرآنيّةُ الغربيّةُ تقليديّاً ضمنَ سياقِ العدائيّةِ المعلنةِ والمفتوحةِ بينَ المسيحيّةِ والإسلام. (طبعاً، الحركةُ الواسعةُ في الغرب خلالَ القرنينِ الماضيين «التفسير» الشّرق، غالباً ما أُشيرَ إليها بتسميةِ «الاستشراق» Orientalism، قد أصبحت خلالَ السنواتِ الأخيرةِ عرضةً للهجومِ لإظهارها الانحيازَ الدينيَّ والثقافيَّ المماثل). لقد بدا القرآن، بالنسبةِ للباحثينَ المسيحيّينَ واليهودِ بشكلٍ خاصّ، أنّهُ يتكوّنُ من هرطقة، وقد جادلَ المستشرقُ الكبيرُ في القرنِ التّاسعَ عشر، وليم موير، أنَّ القرآنَ كانَ أحدَ أشرسِ وأعتى أعداءِ الحضارة، الحرّيّة، والحقيقة التي سبقَ وأن عرفها العالم.

العلماءُ المبكرونَ السوفييت، أيضاً، أجروا دراسةً مدفوعةً أيديولوجيّاً لنشأةِ الإسلامِ ومصادره، وبحماسٍ تبشيريٍّ تقريباً: في ثلاثينيّاتِ وأربعينيّاتِ القرنِ العشرين صدرت منشوراتٌ سوفييتيّةٌ بعنوان «Ateist» نشرت سلسلةً منَ المقالاتِ تفسِّرُ فيها ظهورَ الإسلامِ ضمنَ إطارٍ ماركسيٍّ-لينيني. في الإسلام وروسيا (Islam and Russia 1956) لخّصت آن لامبتون معظمَ هذا العمل، وكتبت تقولُ إنَّ عِدَّةَ علماءَ سوفييت نظروا بأنَّ القوى المحرِّكة لهذا الدينِ الناشئ، كانت مجهَّزةً مسبقاً من قبلِ الطبقاتِ البرجوازيّةِ في كلٍّ من مكّةَ والمدينة.

وأنَّ الباحثَ س، ب، تولستوف قال: إنَّ الإسلامَ كانَ عبارةً عن حركةٍ دينيّةٍ-اجتماعيّة نشأت بصيغةٍ عبوديّةٍ وليست إقطاعيّة في المجتمعِ العربي.

وأنَّ ن. أ. موروزوف جادلَ بأنَّ: حتّى زمنِ الحملاتِ الصليبيّة، كانَ منَ المتعذّرِ تمييزُ الإسلامِ عن اليهوديّة و... عندها فقط اكتسب نوعيّتهُ المميزَّةَ والمستقلّة، في حينِ أنَّ محمّداً والخلفاءَ الأوائل ما هم إلّا شخصيّاتٌ أسطوريّة.

ظهرَ موروزوف أنَّهُ مُنظِّرٌ متوهِّجٌ ومزخرفٌ بشكلٍ خاص، فقد كتبت لامبتون تقولُ إنَّهُ قالَ أيضاً، في كتابِهِ المسيح (Christ 1930): أنَّهُ وخلالَ العصورِ الوسطى، كانَ الإسلامُ مجرَّدَ مذهبٍ فرعيٍّ منَ الأريوسيَّة ظهرَ بفعلِ حدثٍ طقسيٍّ في منطقةِ البحرِ الأحمرِ بالقربِ من مكَّة.

لا نُفاجَأُ عندئذٍ، بالنظرِ إلى انحيازِ العديدِ منَ الدراساتِ النقديَّةِ غيرِ الإسلاميَّةِ للقرآن، لماذا يميلُ المسلمونَ إلى رفضها رفضاً قاطعاً. فهناكَ احتجاجٌ بليغٌ ظهرَ سنةَ 1987، في دوريَّة Muslim World Book Review، ضمنَ ورقةٍ بعنوان منهجٌ ضدَّ الحقيقة: الاستشراقُ والدراساتُ القرآنيَّةُ بقلمِ الناقدِ الإسلاميِّ برفيز منظور. واضعاً أسسَ وأصولَ الدراساتِ القرآنيَّةِ الغربيَّةِ ضمنَ «المستنقعاتِ الجدليَّةِ المسيحيَّةِ للقرونِ الوسطى» واصفاً وضعها الحاليَّ بأنَّها «طريقٌ مسدودٌ من ذاتها». الذي قامَ بِهِ منظور هوَ أنَّهُ قامَ بتركيبِ عقدةٍ أو مركَّبٍ وهجومٍ مقنَّعٍ على كاملِ النظرةِ الغربيَّةِ إلى الإسلام. إذ يقولُ في افتتاحيَّةِ مقالتِهِ بغضب:

مشروعُ المستشرقِ في الدراساتِ القرآنيَّة، مهما كانت استحقاقاتهُ الأخرى وخدماته، كانَ في الأساسِ مشروعَ نكايةٍ، نشأَ في حضنِ اليأسِ والإحباط وتغذَّى على الكراهيةِ والثأر: نكايةُ الأقوياءِ بالضعفاء، إحباطُ ويأسُ العقلانيِّينَ تجاهَ المؤمنينَ بالخرافات، وانتقامُ «الأرثوذكس» ضدَّ «غيرِ الملتزمين»، ففي السّاعةِ الأعظمِ من نصرهِ الدنيوي، نسَّقَ الرجلُ الغربيُّ، سلطاتِ الدولةِ، الكنيسةَ والجامعة، مطلقاً هجومهُ المزمعَ ضدَّ قلاعِ الدينِ الإسلاميّ. جميعُ الخطوطِ الشّاذَّةِ الضّالَّةِ لشخصيَّتِهِ المتغطرسة – بعقلانيّتها المتهوِّرة، بأحلامها في السّيطرةِ على العالمِ وأصوليّتها المذهبيّة – انخرطت ضمنَ مؤامرةٍ دنيئةٍ لإزاحةِ كتابِ المسلمينَ المقدَّس من مكانتِهِ الحصينةِ كمثالٍ للأصالةِ التّاريخيّةِ والمغزى الأخلاقي، والجائزةُ النهائيّةُ والحاسمة في سعيِ الرجلِ الغربيِّ من خلالِ مجازفتهِ الجريئةِ كانت عقلَ المسلمِ نفسه. ومن أجلِ أن يتخلَّصَ الغربُ من مشكلةِ الإسلامِ بشكلٍ نهائي ومرَّةً وإلى الأبد، فكَّرَ، أنَّ وعيَ المسلمِ يجبُ أن يُقَولَبَ ويتشكَّلَ لكي ييأسَ منَ الحقيقةِ الإدراكيّةِ للرسالةِ الإلهيّةِ المقدَّسةِ التي أُنزِلَت على النبي. وفقط المسلمُ الذي ينتابهُ الشكُّ والريبةُ حولَ الأصالةِ التّاريخيّةِ أو الاستقلالِ المذهبيِّ للوحيِ القرآنيِّ هوَ الذي سيتخلَّى ويتنازلُ عن مهمَّتِهِ الكونيّة، وبذلكَ لن يشكِّلَ أيَّ تحدٍّ يقفُ في وجهِ الهيمنةِ الغربيّةِ العالميّةِ للشّرق، وهذا – على الأقل – يبدو سبباً ضمنيّاً، إذا لم يكن

واضحاً أو ظاهراً، لهجوم المستشرق على القرآن.

وبالرّغم من هذه المقاومة، فقد استمرّ الباحثون الغربيّون من شتّى المجالات والاهتمامات الأكاديميّة واللاهوتيّة بالقيام بعملهم، مُطبّقين أحدث التقنيّات الجديدة والمعاصرة في النقد التّاريخيّ والنصّيّ على دراساتهم للقرآن. جزءٌ كبيرٌ من هذه الدراسات والأبحاث الموجودة الآن في الوقت الحاليّ، تتكفّلُ بنشرها شركةُ بريل Brill الأوروبيّة للنشر – وهيَ شركةُ نشرٍ عريقةٌ ساهمت بنشرِ أهمّ الأعمالِ الرئيسيّةِ كموسوعةِ الإسلام Encyclopedia of Islam والنسخةِ البحثيّة من مخطوطاتِ البحرِ الميّت The Dead Sea Scroll Study Edition – وقد تكفّلت الآن بمهمّةِ إصدارِ أوّلِ طبعةٍ من موسوعةِ القرآن Encyclopedia of the Quran. جين مكوليف، أستاذةُ الدراساتِ الإسلاميّةِ في جامعةِ تورنتو ومحرّرةُ الموسوعة، تأملُ أنّها ستكونُ بمقامِ «النظيرِ المثاليّ» للموسوعاتِ التوراتيّةِ والإنجيليّة، وستكونُ بمثابةِ «عملِ الألفيّةِ الجامعِ لكافّةِ الدراساتِ القرآنيّة»، حاليّاً، حُرِّرت مقالاتٌ من أجلِ الجزءِ الأوّلِ منَ الموسوعة، على أن يتمّ إعدادها للنشرِ لاحقاً.

ستكونُ موسوعةُ القرآنِ عملاً تعاونيّاً بحقّ، شاركَ فيهِ باحثونَ منَ المسلمينَ وغيرِ المسلمين، كما أنّ مقالاته ستقدّمُ لنا وجهاتِ نظرٍ متعدّدةٍ حولَ تفسيرِ القرآن، بعضها قد يشكّلُ تحدّياً للآراءِ ووجهاتِ النظرِ الإسلاميّةِ التقليديّة – وهذا ما يقلقُ ويزعجُ الكثيرينَ في العالمِ الإسلامي، حيثُ أنّ الوقتَ لم يحن بعدُ للقيامِ بدراساتٍ نقديّةٍ جادّةٍ للقرآن. إنّ قضيّةَ نصر حامد أبو زيد، الأستاذُ المصريُّ المتواضعُ والخبيرُ باللّغةِ العربيّة، والذي احتلّ كرسيّاً في اللجنةِ الاستشاريّةِ للموسوعة، تُظهرُ الصّعوباتِ التي تواجهُ الباحثَ المسلمَ الذي يحاولُ إعادةَ النظرِ وتقويمَ تراثه.

شرُّ البليّة:

يقولُ نصر حامد أبو زيد:

القرآنُ نصٌّ، نصٌّ أدبي، والطريقةُ الوحيدةُ لفهمهِ وتفسيرهِ، وتحليله، تكونُ من خلالِ النظرةِ الأدبيّة، وهذهِ مسألةٌ لاهوتيّةٌ جوهريّة.

ولأنّهُ عبّرَ عن أفكارهِ بهذا الشّكل – بشكلٍ أساسي، لأنّهُ تحدّى الفكرةَ التي تقولُ أنّهُ يجبُ

قراءةُ القرآنِ بشكلٍ حرفيٍّ وذلكَ لأنّهُ كلامُ اللهِ المنزَّلُ والمعصومُ عن التغييرِ والتبديلِ – اتُّهِمَ أبو زيد بالكفرِ والزّندقةِ رسمياً عام 1995، وقد صدرَ هذا الحكمُ في عام 1996 عن المحكمةِ العليا بمصر، ثمَّ تابعت المحكمةُ عملها، على أساسِ الشّريعةِ الإسلاميّةِ التي تُحرِّمُ زواجَ المسلمةِ منَ الكافرِ أو المرتدّ، فأصدرت حكماً بالتفريقِ بينَ أبو زيد وزوجتِهِ ابتهال يونس (وهوَ حكمٌ وصفتهُ ابتهال يونس بأنّهُ جاءَ «كالضربةِ على الرأس»).

أقرَّ أبو زيد بصرامةٍ وإصرار على أنّهُ مسلمٌ تقيٌّ، لكنّهُ قالَ إنَّ محتوى أو مضمونَ القرآنِ الظّاهر – على سبيلِ المثال، كالقوانينِ والشّرائعِ القديمةِ حولَ معاملةِ النّساء، والتي يتميَّزُ الإسلامُ بسوءِ سمعتِهِ في هذا المجال – أقلُّ أهمّيّةً بكثيرٍ من مضمونهِ المركّب، المعقّد، المستتر، والمغذّي روحيّاً. يقول أبو زيد: إنَّ الشّريعةَ الإسلاميّةَ المتشدِّدةَ فاسدة، فهيَ تختزلُ النصَّ المقدّسَ، الأبديّ، والديناميكيّ ليتناسبَ مع التفسيراتِ الإنسانيّةِ والتي تقتصرُ فقط على «حليةٍ رخيصة... تعويذة... أو زينة».

بقيَ أبو زيد لفترةٍ منَ الوقت في مصرَ محاولاً فيها ردَّ شبهةِ الكفرِ والارتدادَ عنه، لكنّهُ قرّرَ الهربَ هوَ وزوجتهُ من مصرَ إلى هولندا جرّاءَ التهديداتِ الكثيرةِ بالموتِ التي تلقّاها، والمضايقاتِ التي لقيها منَ العامّة، حيثُ أطلقَ على المسألةِ بمجملها «شرٌّ بليّة». الشّيخُ يوسف البدري، وهوَ رجلُ دينٍ ألهمت تعاليمهُ التحريضيّةُ الكثيرَ منَ المعارضينَ لأبي زيد، قالَ مبتهجاً:

نحنُ لسنا إرهابيّين، فنحنُ لم نستخدم الرّصاصَ أو الأسلحةَ النّاريّة، لكنّنا أوقفنا أيَّ عدوٍّ متربّصٍ بالإسلامِ ومنعناهُ منَ السّخريةِ والاستهزاءِ بديننا... فلن يجرؤَ أحدٌ على مجرَّدِ التفكيرِ بإلحاقِ الضررِ بالإسلامِ بعدَ الآن.

يبدو أنَّ خوفَ أبو زيد على حياتِهِ كانَ مبرَّراً وكذلكَ هربه؛ ففي عام 1992 اغتيلَ الصحفيُّ المصريُّ فرج فوده على يدِ إسلاميٍّ متطرِّف بسببِ كتاباتِهِ النقديّةِ عن جماعةِ الإخوانِ المسلمينَ في مصر، وفي عام 1994 طُعِنَ الروائيُّ المصريُّ والحائزُ على جائزةِ نوبل نجيب محفوظ برقبتِهِ لأنّهُ ألّفَ روايةً بعنوان أولادُ حارتنا (1959) – وهيَ روايةٌ، منظّمةٌ مثلَ القرآن، يستعرضُ فيها الكاتبُ مفاهيماً «ضلاليّةً وهرطقيّةً» عن اللهِ والنبيِّ محمّد.

الخروجُ عن التفسيرِ الأرثوذكسيِّ التقليديِّ للقرآن، يقولُ المفكّرُ الجزائريُّ محمّد أركون، أستاذٌ فخريٌّ للفكرِ الإسلاميِّ في جامعةِ باريس، «هوَ عملٌ حسّاسٌ للغاية» ولهُ عواقبُ هامّة. يقولُ أركون:

فالملايينُ والملايينُ منَ النّاس يرجعونَ إلى القرآنِ بشكلٍ يوميٍّ ليفسّروا تصرّفاتهم وأفعالهم وليبرّروا طموحاتهم، هذهِ الدرجةُ في المرجعيّةِ أكبرُ بكثيرٍ ممّا كانت من قبل.

محمّدٌ في الكهف:

تنطوي مكّةُ في مكانٍ قصيٍّ وقاحلٍ بينَ سلسلتينِ منَ التلالِ الشّاهقةِ والشديدةِ الانحدار في غربِ شبهِ الجزيرةِ العربيّة، والتي تسمّى اليومَ بالمملكةِ العربيّةِ السعوديّة. ونحوَ الغربِ منها مباشرةً تنبسطُ شواطئُ البحرِ الميّتِ المنبسطةُ والقائظة، وفي الشّرقِ تمتدُّ صحراءُ الربعِ الخاليِّ العظيمة – أكبرُ مساحةٍ منَ الأراضي الرمليّةِ الممتدةِ على سطحِ هذا الكوكب. موقعُ البلدةِ قصيٌّ وممِلٌّ، والأرضُ جافّةٌ ومتربة، تشتعلُ تحتَ الشّمسِ القاسية. المنطقةُ بأكملها تتميّزُ بالحرِّ الشديد، وخفقاتِ الرّياحِ الصحراويّة. ومع أنَّ الأمطارَ قد لا تهطلُ طوالَ أعوامٍ كاملة، فإنَّ هطولها قد يكونُ شديداً وقاسياً، مخلّفةً سيولاً جارفةً منَ المياهِ المنحدرةِ على سفوحِ التلال، متوجّهةً نحوَ السفحِ الذي ترقدُ ضمنهُ المدينةُ لتغمره. كخلفيّةٍ مجهّزةٍ لنزولِ الوحيِّ القدسيّ، فتلكَ هيَ المنطقةُ الأكثرُ ملائمةً كجبالِ سيناء أو براري يهودا.

المصدرُ الحقيقيُّ الوحيدُ للمعلوماتِ التّاريخيّةِ عن مكّةَ ما قبلَ الإسلام وظروفُ الوحيِ القرآنيّ، هيَ الروايةُ الإسلاميّةُ التقليديّةُ حولَ نشأةِ دينِ الإسلام.

خلالَ القرونِ التي سبقت ظهورَ الإسلام، كانت مكّةُ عبارةً عن مقامٍ وثنيٍّ محليٍّ لها مكانتها العريقةُ والأصيلة، أمّا الطقوسُ والشّعائرُ الدينيّةُ التي كانت تتعلّقُ بالكعبة – الحرمِ المقدّس، ما زالت طقوساً رئيسيّةً ومحوريّةً ضمنَ المنظومةِ الإسلاميّةِ اليوم، إذ يؤمنُ المسلمونَ أنّها قد بُنِيَت أصلاً على يدِ إبراهيم (الذي يعرفُ عندَ المسيحيّينَ باسمِ أبراهام وعندَ اليهودِ باسمِ أبرام) وابنهِ إسماعيل (إشمايل). ما إن ازدهرت مكّةُ في القرنِ السّادسِ الميلادي، حتّى انتشرت الأصنامُ وتكاثرت بمختلفِ الأشكالِ والأحجامِ والمسمّيات، والرّوايةُ التقليديّةُ أنّهُ وخلالَ باكورةِ القرنِ السّابعِ الميلادي كانَ هناكَ هيكلٌ مكوّنٌ من 360 تمثالاً وأيقونةً أحاطت

الكعبة (وفي الداخلِ نُقِشَت كتاباتٌ عن يسوعٍ ومريمَ العذراء، من بينِ أصنامٍ أخرى).

وعلى هذا الأساسِ يقالُ أنّهُ تمَّ إيحاءُ أوّلِ المقاطعِ أو الآياتِ منَ القرآن، في سنةِ 610، على تاجرٍ من مكّةَ اسمهُ محمّدٌ بنُ عبدِ الله، كانَ محمّدٌ قد طوّرَ عندهُ عادةَ الخروجِ من مكّةَ الوثنيّةِ إلى كهفٍ في جبلٍ بالقربِ منها، حيثُ كانَ ينعمُ في عزلتِهِ، وخلالَ إحدى فتراتِ العزلةِ هذه يقالُ أنَّ ملاكاً زارهُ يُدعى جبريل – وهوَ الملاكُ نفسهُ الذي أعلنَ قدومَ يسوعٍ لمريمَ العذراء في مدينةِ النّاصرة قبلَ حوالي ستمائةِ سنةٍ من زيارتِهِ لمحمّد، بادئاً بالكلمةِ التي وردت في القرآن «إقرأ!»، أعلمَ جبريلُ محمّداً بأنّهُ سيكونُ رسولَ الله، ومنذُ تلكَ اللحظة، وحتّى لحظةِ موته، محمّدٌ الذي من المفترضِ أنّهُ أميٌّ لا يعرفُ القراءةَ والكتابة، استلمَ خلالَ تلكَ الفترةِ الوحيَ منَ اللهِ عن طريقِ جبريل بلغةٍ عربيّةٍ جُمِعَت فيما بعد تحتَ اسمِ «القرآن» والذي كانَ إعلاناً مبدئيّاً بأسلوبٍ شاعريٍّ وبلاغيٍّ جدّاً، لانطلاقِ دينٍ توحيديٍّ جديدٍ اسمهُ «الإسلام»، أو «الخضوعُ والتسليمُ لله»، تلا محمّدٌ تلكَ الآياتِ التي كانت «تتزّلُ إليه» بشكلٍ حرفيٍّ إلى أفرادِ أسرتِهِ المقرَّبينَ منه، وأصدقائه، الذين إمّا حفظوها عن ظهرِ قلب أو دوّنوها على مختلفِ أنواعِ الصّحف.

المكيّونَ الأقوياء سرعانَ ما بدأوا حملةً ضدَّ محمّد، لإرجاعهِ هوَ ومجموعتِهِ الصّغيرةِ إلى دينهم الأصليّ، ذلكَ الدّينُ الذي هوَ اللبُّ الوثنيُّ للحياةِ المكيّةِ الثقافيّةِ والاقتصاديّة. وكنتيجةٍ في عام 622 هاجرت تلكَ المجموعةُ الصغيرةُ نحوَ منطقةٍ موجودةٍ شمالاً وتبعدُ حوالي متي ميلٍ عن مكّة، نحوَ مدينةِ يثرب، والتي عُرِفَت فيما بعد باسمِ «المدينة» (نسبةً إلى مدينةِ النبي). هذهِ الهجرة، تمثّلُ ولادةَ مجتمعٍ إسلاميٍّ مستقلٍّ وقائمٍ بذاته، وإنَّ سنةَ 622 أصبحت نقطةَ بدءِ التقويمِ الإسلاميِّ الهجريّ. في المدينة، استمرَّ محمّدٌ في تلقّي الوحي، آياتٌ وسورٌ ذاتُ طبيعةٍ عنيفةٍ، تشريعيّة، ومملّةٍ جدّاً، وفي غضونِ عام 630 كانَ محمّدٌ قد جمعَ حولهُ عدداً كبيراً منَ الأنصارِ والدّعمِ ضمنَ مجتمعِ المدينةِ لمهاجمةِ مكّةَ وغزوها، وقد أمضى السّتينِ الأخيرتينِ من عمرِهِ وهوَ يجمعُ أنصاراً جدداً حولهُ، يعزّزُ قوّتهُ السياسيّة، ولم ينقطع عنهُ الوحي.

التّراثُ الإسلاميُّ يخبرنا أنّهُ عندما ماتَ محمّد، سنة 632، لم يكن الوحيُ القرآنيُّ الذي «تنزّلَ» عليهِ قد جُمِعَ بعدُ ضمنَ مصحفٍ موحَّد، بل كانت الآياتُ وأجزاءٌ منَ السّورِ مدوَّنةً على «سعفِ النخيلِ والأحجارِ المسطَّحةِ وفي قلوبِ الرّجال» (وهذا أمرٌ ليسَ بمفاجىء: فالتّراثُ الشفهيُّ كانَ شائعاً ومعتمداً، والنصُّ العربيُّ الذي كانَ يُكتَبُ من دونِ نقطٍ أو حركاتٍ صوتيّة،

كالتي نستخدمها اليوم، كانت وظيفتهُ تقتصرُ على الاستذكار)، ولم يكن مؤسَّساً وراسخاً كالنصِّ الحالي. ولم يكنْ هذا الأمرُ ذو أهمّيّةٍ تذكر في ذلكَ الوقت، فعربُ المدينة – الذين كانوا على الأرجحِ ائتلافاً مكوَّناً من تجّارٍ سابقين، بدوٍ منَ الصحراء، وحضرٍ زراعيّينَ اتّحدوا تحتَ رايةِ دينٍ جديدٍ منحهم حسّاً بالوحدةِ والانتماء، وألهمتهم أقوالُ النبيِّ وأفعاله – كانوا في ذلكَ الوقتِ يتنقلونَ ضمنَ سلسلةٍ طويلةٍ منَ الفتوحاتِ والغزواتِ الناجحةِ التي ارتُكِبَت جميعها باسمِ الإسلام. وخلالَ عام 640 كانَ العربُ قد احتلّوا معظمَ الشّام، العراق، بلادِ فارس، ومصر، وبعدَ ذلكَ بثلاثينَ سنةً، كانوا منهمكينَ في احتلالِ أجزاءٍ من أوروبّا، شمالِ أفريقيا، وآسيا الوسطى.

خلالَ العقودِ الأولى منَ الفتحِ العربي، قُتِلَ الكثيرُ من أصحابِ محمّد، وقُتِلَت معهم حصيلةٌ كبيرةٌ من كتبةِ الوحي، وبدأ المسلمونَ الجددُ في المناطقِ الأعجميّةِ يتجادلونَ حولَ النصِّ القرآنيِّ وقراءاته. يعودُ قائدُ جيشِ المسلمينَ في أذربيجان إلى الخليفةِ عثمان ويعبّرُ لهُ عن مخاوفهِ من نشوبِ خلافاتٍ مذهبيّةٍ بينَ الأعاجمِ والمسلمين (656-644) – الخليفةُ المسلمُ الثّالث – ويقالُ بأنَّ الخليفةَ أمرهُ بأن «يُدرِكَ هؤلاءِ النّاسَ قبلَ أن يختلفوا على القرآن، بنفسِ الشّكل الذي اختلفَ فيهِ المسيحيّونَ واليهودُ على الكتابِ المقدَّس». جمعَ عثمانُ لجنةً تحريريّةً قامت بجمعِ كلِّ الأجزاءِ والكسراتِ المختلفة، وبعناية، منَ القرآن والتي استُظهِرَت أو دوِّنت على أيدي صحابةِ محمّد، وكانت النتيجةُ ظهورَ نصٍّ نموذجيٍّ يمثِّلُ النسخةَ الشرعيّةَ والرسميّةَ منَ القرآن، وقد أمرَ عثمانُ بإحراقِ وإتلافِ كلِّ النسخِ الناقصةِ وغيرِ الكاملةِ منَ المصاحف، أمّا النسخةُ الجديدةُ فقد وُزِّعَت فوراً على المراكزِ الرئيسيّةِ للإمبراطوريّةِ الإسلاميّةِ التي أخذت في النموِّ بشكلٍ متسارع.

خلالَ القرونِ القليلةِ التالية، وبينما أصبحَ الإسلامُ كياناً سياسيّاً ودينيّاً مستقلاً وقويّاً، ظهرَ كمٌّ هائلٌ منَ التقاليدِ التفسيريّةِ والتّاريخيّةِ لتفسيرِ القرآنِ وتوضيحِ نشأةِ الإسلامِ وجذوره، وأهمُّ عنصرٍ بينَ هذهِ التقاليدِ التّراثيّةِ كان: «الحديث»؛ أو مجموعَ أقوالِ وأفعالِ محمّد؛ «السُنّة»؛ مجموعُ العاداتِ الإسلاميّةِ الاجتماعيّةِ والشرعيّة؛ و«السّيرة»؛ سيرةُ النبيِّ الذاتيّة؛ ثمّ «التفسير»؛ أو شروحاتُ الصحابةِ والمقرَّبينَ منَ النبيِّ للقرآن وما كانَ غامضاً منه، ومن هذهِ المصادرِ التّراثيّةِ الإسلاميّة – مجموعةٌ ومصنَّفةٌ ضمنَ أعمالٍ مكتوبةٍ تعودُ على الأرجحِ إلى منتصفِ

القرنِ الثّامنِ الميلادي –استُحيَت كلُّ الرواياتِ والأخبارِ الإسلاميّةِ عن نزولِ الوحي خلالَ المراحلِ المبكرةِ والمظلمةِ من تاريخِ الإسلام.

لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ:

القرآنُ يشبهُ إلى حدٍّ ما الإنجيلَ أو «العهدَ الجديد»، فهوَ يتكوّنُ من 114 سورة، والتي تتفاوتُ في أطوالها ومواضيعها، أمّا ترتيبُ السّورِ في الكتاب فإنّهُ لا يعتمدُ لا على الترتيبِ الزمنيِّ للأحداث ولا على الترتيبِ الموضوعي، إذ أنَّ القسمَ الأكبرَ منَ السّورِ رُتّبت بطريقةٍ منحدرةٍ حسبَ الطولِ منَ البدايةِ وحتّى النهاية، وبالرّغم من هذهِ البنيةِ الهيكليّةِ الغريبةِ وغيرِ المألوفة، الأمرُ المفاجئُ بالنسبةِ للمطّلعينَ الجددِ عموماً على القرآن، هوَ الدرجةُ التي تتشابهُ فيها الأفكارُ والمعتقداتُ والقصصُ في القرآنِ مع مثيلاتها في الكتابِ المقدّس.

فالرَّبُّ (أو اللهُ بالعربيّة): هوَ إلهٌ مطلقُ القوّة، مطلقُ القدرة، عليمٌ، رحيم، خلقَ العالمَ وكلَّ ما فيهِ من كائناتٍ حيّة، كما أنّهُ إلهٌ يرسلُ رسائلَ وتشريعاتٍ من حينٍ لآخر عن طريقِ رسلٍ وأنبياءَ ليهدوا البشرَ ويذكّروهم بنعمِ اللهِ عليهم، وفي المستقبلِ – القريبِ أو البعيد، والذي يقالُ أنَّ لا أحدَ يعرفهُ إلّا هوَ – ستحلُّ نهايةُ العالمِ ويكونُ يومُ الحسابِ [عندَ المسلمين] أو الدينونةِ [عندَ المسيحيين][1]. آدم، أو إنسان، طُردَ منَ الجنّةِ لأنّهُ أكلَ منَ الشجرةِ المحرّمة، نوح يبني فُلكاً لهُ لينقذَ على متنهِ مجموعةً منَ الكائناتِ الحيّةِ منَ الطّوفانِ الذي حلَّ بالأرضِ جرّاءَ غضبٍ من الرَّبّ، إبراهيم [والأصحُّ تسميةُ أبرام] يحضّرُ نفسهُ للتضحيةِ بابنهِ إرضاءً لله، موسى يُخرجُ شعبَ إسرائيلَ من مصرَ ويتلقّى وحياً من عندِ الله فوقَ جبلِ سيناء، يسوعُ – الذي وُلدَ من مريمَ العذراء والذي يلقّبُ بالمسيح – يقومُ بالمعجزات، يجمعُ التلاميذَ من حولهِ، ثمَّ يرتقي إلى السماء.

ويولي القرآنُ عنايةً شديدةً للتأكيدِ على هذا التّراثِ التوحيديِّ المشترك، لكنّهُ يحاولُ بصعوبةٍ ومشقّةٍ التفريقَ بينَ الإسلامِ وبينَ اليهوديّةِ والمسيحيّة، فعلى سبيلِ المثال، نلاحظُ أنَّ القرآنَ يوردُ أسماءَ أنبياءَ مثل: هود، صالح، شعيب، لقمان، وآخرينَ غيرهم، وهؤلاءِ يبدو أنّهم من أصولٍ عربيّة، كما أنَّ القرآنَ يحاولُ باستمرارٍ تذكيرَ القارئِ بأنّهُ نزلَ (بلسانٍ عربيٍّ مبين/ ولقومٍ

(1) راجع كتابنا: حكايا القرآن، إبراهيم جركس. ماذا نعرفُ عن محمّد حقّاً؟

يتفكَّرون)، وبالرّغم من تأكيداتِهِ المتكرِّرةِ لذلك، فالأمرُ عكسُ ذلكَ في الواقعِ، إذ أنَّ القرآنَ مُستعصٍ وغامض وصعبٌ بالنسبةِ للقرَّاءِ المعاصرين – وحتّى للأفرادِ المتعلِّمينَ ومتحدِّثي اللغةِ العربيّة – ليفهموه. وكثيراً ما نلاحظُ أنَّ القرآنَ يقفزُ قفزاتٍ دراماتيكيّةً تحوُّليّةً في الأسلوب، السجع، والموضوع في الآياتِ ضمنَ السّورةِ الواحدة، كما أنّهُ يفترِضُ ألفةً باللّغةِ، القصصِ، والأحداثِ التي تبدو أنّها كانت قد فُقِدَت حتّى بالنسبةِ للمفسِّرينَ المسلمينَ الأوائل (وهذا أمرٌ نموذجيٌّ لنصٍّ تطوَّرَ مبدئيّاً ضمنَ تراثٍ شفهي)، أمّا عن تناقضاتِهِ وتعارضاتِهِ الظّاهرة فمنَ السّهلِ جدّاً التعرُّفُ إليها: فاللهُ قد يشارُ إليهِ على أنّهُ الشّخصُ الأوّلُ والثّالثُ في الجملةِ نفسها، نسخٌ مختلفةٌ للقصّةِ نفسها تتكرَّرُ في أماكنَ مختلفةٍ في النصّ، بالإضافةِ إلى تناقضِ وتعارضِ القراراتِ والأوامرِ الإلهيّةِ من حينٍ لآخر. فيما يخصُّ هذهِ الحالةَ الأخيرة نلاحظُ أنَّ القرآنَ يتوقّعُ توجيهَ النقدِ له، لذا نراهُ يدافعُ عن نفسِهِ، بالتأكيدِ على حقِّهِ في نسخِ أو إلغاءِ آيةٍ أو آياتٍ منه (مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا) [البقرة 2: 106].

وقد أتى النّقدُ ما إن احتكَّ المسلمونَ بالمسيحيينَ خلالَ القرنِ الثّامنِ الميلادي، إذ أنَّ الحروبَ الاستعماريّةَ كانت مصحوبةً بنزاعاتٍ جدليّةٍ ثيولوجيّة، حتّى انخرطَ المسيحيّونَ وغيرهم بدراسةِ الحالةِ الأدبيّةِ المشوَّشةِ والمربكةِ للقرآن، كبرهانٍ على أصولِهِ البشريّة، كما أنَّ علماءَ المسلمينَ أنفسهم كانوا يحصونَ ويعدِّدونَ الإشكالاتِ الصعبةَ والسّماتِ المحيِّرةَ والمربكةَ للقرآن – مفرداتٌ غريبةٌ وغيرُ مألوفة، أخطاءٌ نحويّةٌ ظاهرةٌ في النصّ، تعارضُ قواعدي، قراءاتٌ شاذَّة، وغيرها منَ الأمورِ الأخرى. هنالكَ نقاشٌ لاهوتيٌّ جدّيٌّ ظهرَ في الإسلام خلالَ أواخرِ القرنِ الثّامنِ الميلادي، واضعاً أولئكَ الذينَ آمنوا بالقرآنِ على أنّهُ كلمةُ اللهِ الأزليّةُ الأبديّةُ المعصومة، وجهاً لوجهٍ أمامَ هؤلاءِ الذينَ آمنوا أنّهُ كتابٌ مخلوقٌ ومتغيِّرٌ مع الزمن، مثلهُ مثلَ أيِّ شيءٍ آخر ما عدا اللهِ نفسه. وتحتَ حكمِ الخليفةِ المأمون (833–813) تحوَّلت وجهةُ النظرِ الأخيرةُ هذهِ من فورها إلى مذهبٍ أرثوذكسيٍّ قائمٍ بذاته، فقد جرى في العديدِ منَ المدارسِ الفكريّةِ قبولُ ودعمُ تلكَ الفكرة، ومن ضمنها مدرسةٌ ذاتُ أهمّيّةٍ ومكانةٍ كبيرين تعرفُ بالمعتزلة، حيثُ خلقت أساساً لاهوتيّاً معقّداً قائماً جزئيّاً على الفهمِ المجازيِّ للقرآن بدلاً منَ الفهمِ الحرفيّ.

عندَ نهايةِ القرنِ العاشرِ الميلادي خبا التأثيرُ الفكريُّ لمدرسةِ المعتزلةِ واندثر، وذلكَ

لأسبابٍ سياسيّةٍ معقّدة، أمّا المذهبُ الرسميُّ فقد صارَ مذهبَ «الإعجاز»، أو إعجازَ القرآن، (وكنتيجة، لم يُترجَم القرآنُ تراثيّاً من قبلِ المسلمينَ العرب من أجلِ المسلمينَ الذينَ لا يتحدَّثونَ اللّغةَ العربيّة، وبدلاً من ذلك فقد قُرِءَ القرآنُ وكُتِبَ في الأصلِ من قبلِ كلِّ المسلمينَ في جميعِ أرجاءِ العالمِ الإسلاميّ، والذينَ غالبيّتهم لا يتحدَّثونَ اللغةَ العربيّة. أمّا الترجماتُ والتوضيحاتُ التي كانت موجودة، فلم تكن تُعدُّ أكثرَ من مجرّدِ شروحاتٍ وتعليقاتٍ على القرآن)، فتبنّي مذهبِ الإعجازِ القرآنيّ كانَ نقطةَ التحوُّلِ الرئيسيّةَ في التّاريخِ الإسلاميّ، ومنَ القرنِ العاشرِ الميلادي وحتّى يومنا هذا، نجدُ أنَّ نظرةَ المسلمينَ السّائدةَ إلى القرآن هيَ أنّهُ الكلمةُ النهائيّةُ والمعصومةُ لله، والتي بقيت كما هيَ حتّى الآن ولم تتغيَّر أو تتحرَّف.

النزعةُ التخريبيّةُ المريضة:

يتحدَّثُ جيردر بوين باستنكافٍ عن الرّغبةِ التقليديّة، من جهةِ العلماءِ المسلمينَ والغربيّين، لقبولِ الفهمِ التقليديِّ والسّائدِ للقرآن. يقولُ بوين:

وردَ في القرآنِ أنّهُ نزلَ بلسانٍ عربيٍّ «مبين»، لكن لو نظرنا إليه، فسنلاحظُ أنَّ هناكَ الكثيرَ منَ الجملِ والعباراتِ التي لا معنى لها، فالعديدُ منَ المسلمين – وبعضُ المستشرقين – سيقولونَ لكَ عكسَ ذلكَ، طبعاً، لكنَّ الحقيقةَ تقولُ إنَّ أكثرَ من ثلثِ القرآنِ غامضٌ وغيرُ مفهوم، وهذا هوَ سببُ التوجُّسِ التقليديِّ من عمليّةِ الترجمة، فإذا كانَ القرآنُ غيرَ مفهوم – إذا كانَ منَ المتعذِّرِ فهمهُ حتّى باللّغة – عندئذٍ فهوَ غيرُ قابلٍ للترجمةِ والتفسير، وقد خافَ النّاسُ ذلك. وبما أنَّ القرآنَ يزعمُ بشكلٍ متكرِّرٍ على أنّهُ واضحٌ ومبين، لكن منَ الواضحِ أنّهُ ليسَ كذلك – وهذا ما سيخبركَ بهِ متحدِّثو اللّغةِ العربيّةِ أيضاً – إذن فهناكَ تناقض، لذا لا بدَّ أنَّ هناكَ شيئاً آخر.

في محاولتها للعثورِ على أنَّ هناكَ «شيئاً آخر» قد بدأ فعلاً خلالَ هذا القرن، تقولُ الباحثةُ في تاريخِ الإسلامِ المبكر باتريشيا كرونه:

حتّى فترةٍ مؤخّرة، كانَ الجميعُ قد سلَّمَ أنَّ كلَّ ما يزعمهُ المسلمونَ ويقولونهُ عن أصولِ ومصادرِ القرآنِ وتاريخهِ صحيح، لكن إن أسقطنا ذلكَ الافتراض، فعلينا عندئذٍ أن نبدأَ من جديد.

وليسَ صحيحاً تماماً أنَّ القرآنَ وصلَ إلينا وهوَ مرتبطٌ بإحكامٍ ضمنَ إطارٍ تراثيٍّ تاريخيٍّ

وحصّنٍ ضدَّ النّقدِ والتحليل، كما تقولُ الباحثة كرونه في كتابها (عبيدٌ على ظهورِ الأحصنة) Slaves on Horses:

المنقّحونَ التوراتيّون يعرضونَ لنا أجزاءً منَ التّراثِ الإسرائيليِّ خلالَ مراحلَ مختلفةٍ من عمليّةِ بلورتها، ويمكنُ مقارنةُ شهاداتهم بشكلٍ مثمرٍ وموازنتها مقابلَ بعضها البعض، أمّا التّراثُ الإسلاميُّ فكانَ نتيجةً، ليسَ عمليّةَ بلورةٍ بطيئة، بل انفجار، حيثُ أنَّ المُصنِّفينَ الأوائل لم يكونوا مُنقّحين، بل جامعي فُتاتٍ وبقايا الذينَ كانت أعمالهم مجرَّدةً منَ الوحدةِ العامّةِ بشكلٍ مدهش، ولا يمكنُ استجلاءُ توضيحاتٍ محدَّدةٍ من مقارنتها.

ما لا يدعو للاستغراب، إذا أخذنا بالحسبان التوسُّعَ الانفجاريَّ المفاجئَ للإسلام الأوّل، والفترةَ الزمنيّةَ بينَ ولادةِ الدّين، وأوّلَ توثيقٍ إسلاميٍّ منظّمٍ في تاريخه، فعالمُ محمّدٍ كانَ مختلفاً بشكلٍ جذريٍّ وقاطع عن عوالمِ المؤرّخينَ الذينَ كتبوا عنهُ لاحقاً. خلالَ القرنِ الإسلاميِّ الأوّل، مجموعةٌ من رجالِ الصّحراءِ [البدوِ] المحليّينَ الوثنيّين تحوّلوا إلى وُصاةٍ على إمبراطوريّةٍ واسعةٍ مترامية الأطرافِ ذاتِ مؤسّساتيّةٍ توحيديّةٍ ازدهرت سياسيّاً واقتصاديّاً ودينيّاً وفكريّاً. العديدُ منَ المؤرّخينَ الحاليّين يجادلونَ أنّهُ منَ المستحيلِ أن نتوقّعَ أنَّ قصصَ ومرويّاتِ الإسلامِ عن أصولهِ ونشأتهِ الخاصّة – وخصوصاً التّراثَ الشفهيَّ خلالَ القرونِ الأولى – قد نجت من هذا التحوُّلِ الاجتماعيِّ الكبير وبقيت سليمةً من دونِ أن تُمَسّ. كما لا يمكننا توقُّعُ أن يكتبَ مؤرّخٌ مسلمٌ منَ العراق في القرنِ التّاسعِ أو العاشرِ الميلادي، ويكونُ قد خرجَ عن خلفيّتهِ الثقافيّةِ والاجتماعيّةِ (وقناعاتهِ الدينيّة)، ليصفَ بدقّةٍ وموضوعيّةٍ الإطارَ الزمنيَّ والاجتماعيَّ للجزيرةِ العربيّةِ خلالَ القرنِ السّابع. قامَ ستيفن همفري ضمنَ مجلّةِ (العالم الإسلامي: إطارٌ عام للبحث، 1988)[1] بتلخيصِ المسألةِ التي تواجهُ المؤرّخينَ الذينَ يدرسونَ الإسلامَ المبكر:

إذا كانَ هدفنا فهمُ الطريقةِ التي فهمَ فيها مسلمو القرنينِ الثّاني الهجري/الثّامنِ الميلادي والثّالثِ الهجري/التّاسعِ الميلادي أصلَ ونشأةَ مجتمعهم، فسنكونُ بعيدينَ كلَّ البعدِ عن الحقيقة، لكن إذا كانَ هدفنا معرفةَ «ما الذي حدثَ فعلاً» في سياقِ أجوبةٍ موثّقةٍ وموثوقةٍ للأسئلةِ الحديثةِ المتعلّقةِ بالعقودِ الأولى للمجتمعِ الإسلاميِّ، عندها نكونُ أمامَ مشكلةٍ حقيقيّة.

(1) إبراهيم جركس، «الحوارُ المتمدّن»-العدد: 4692 - 2015 / 1 / 15 - 13:33، المحور: العلمانيّة، الدينُ السياسي ونقدُ الفكرِ الديني.

الشّخصُ الوحيدُ الذي هزّ أركانَ الدراساتِ القرآنيّةِ خلالَ العقودِ القليلةِ الماضية، هوَ الباحثُ جون وانسبرو John Wansbrough، باحثٌ سابقٌ من جامعةِ لندن للدراساتِ الشرقيّةِ والإفريقيّة. أمّا بوين فيعيدُ قراءتهُ الآن خلالَ استعدادهِ لتحليلِ المخطوطاتِ اليمنيّة. تقولُ باتريشيا كرونه عنها وعن مايكل كوك: «إنّ أغلبَ ما قالاهُ في كتابهما الهاجريون عن القرآن اعتمدَ في أساسهِ على أفكارِ وطروحاتِ جون وانسبرو». إلّا أنّ هناكَ باحثينَ آخرين أشاروا إلى عملِ وانسبرو على أنّهُ «عنيدٌ للغاية»، «بليدٌ وجامدٌ بشكلٍ مريع»، «يحتوي الكثيرَ منَ الخداعِ الذّاتي». لكن سواءً أحبّوا ذلكَ أم لا، فأيُّ باحثٍ ينخرطُ في الدراساتِ التحليليّةِ والنقديّةِ للقرآنِ اليوم، فعليهِ أن يطّلعَ على أهمّ عملين لوانسبرو هنا: دراساتٌ قرآنيّة: مصادرُ ومناهجُ التفسيرِ القرآنيّ (1977)؛ وكتابُ البيئةِ الطّائفيّة: مضمونُ وتركيبُ تاريخِ الخلاصِ الإسلاميّ (1978).

قامَ وانسبرو بتطبيقٍ كاملٍ للتّرسانة، والتي أطلقَ عليها تسميةَ «أدواتٍ وتقنيّاتٍ» النّقدِ التوراتيّ – نقدُ الأسلوب، المصادر، التنقيح، وأكثرَ من ذلك – على النصّ القرآنيّ. وقد استنتجَ أنّ القرآنَ قد تطوّرَ بشكلٍ تدريجيٍّ خلالَ القرنينِ السّابعِ والثّامنِ الميلاديين، وخلالَ فترةٍ زمنيّةٍ طويلةٍ منَ التناقلِ الشفهيِّ عندما كانت الفرقُ والطّوائفُ اليهوديّةُ والمسيحيّةُ تتحاورُ باستمرار، وتتبادلُ الأفكارَ مع بعضها البعض في مكانٍ آخر يقعُ في الشّمالِ من مكّةَ والمدينة، والذي باتَ يشكّلُ الآنَ ما يسمّى بسوريا، الأردن، فلسطين، والعراق. والسّببُ في عدمِ بقاءِ أو وصولِ أيّ مادةٍ تراثيّةٍ إسلاميّةٍ إلينا، هوَ أنّها لم تكن موجودةً أصلاً، وهذا هوَ الاستنتاجُ الذي يتوصّلُ إليهِ وانسبرو.

بالنسبةِ إلى وانسبرو، يمثّلُ التّراثُ الإسلاميُّ ما يعرفُ عندَ الباحثينَ والنقّادِ التوراتيّين اسمَ «تاريخِ الخلاص salvation history»: وهوَ عبارةٌ عن روايةٍ دينيّةٍ لاهوتيّةٍ تراثيّةٍ ذاتِ طابعٍ تبشيريٍّ لنشأةِ دينٍ معيّن، وأصولهُ تمَّ اختراعها لاحقاً ثمّ تخيُّلها وهيَ تحدثُ في الماضي؛ بمعنًى آخر، كما يشرحُ وانسبرو الأمرَ في كتابهِ دراساتٌ قرآنيّة، فالإعلانُ عن شرعيّةِ القرآنِ – بالإضافةِ إلى التّراثِ والتقاليدِ الإسلاميّةِ التي ظهرت لتفسيره – قد تضمّنَ:

إسنادَ عدّةِ مجموعاتٍ – متداخلةٍ جزئيّاً – منَ الأفكارِ والصّور [مجموعةٌ فسيفسائيّةٌ منَ الأفكارِ والميّزات] إلى صورةِ النبيّ الإنجيليّ أو التوراتيّ [معدّلٌ حسبَ التبشيرِ المحمّديّ كرجلٍ عربيٍّ ينقلُ رسالةَ الرّبّ] وإعطائهِ رسالةً تقليديّةً للخلاص [معدّلٌ حسبَ تأثيرِ الربانيّةِ

اليهوديّةِ إلى كلمةِ الكلمةِ الراسخةِ والمعصومةِ لله].

نظريّاتُ وانسبرو الغامضة كانَ لها أثرٌ يذكرُ في بعضِ الدوائرِ العلميّةِ والأكاديميّة، لكن هناكَ العديدُ منَ المسلمينَ الذينَ وجدوا أنَّ تلكَ النظريّاتِ مزعجةٌ ومهينة. برفيز منظور على سبيلِ المثال، وصفَ عملَ وانسبرو الهامّ دراساتٌ قرآنيّة وأعمالٌ أخرى بأنّها «مقالٌ مجرَّدٌ منَ القوّة»، و«تخريبٌ متعمَّدٌ للعقل». حتّى أنَّ منظور نفسهُ يجادلُ بالتراجعِ عن الدراساتِ القرآنيّةِ النّقديّةِ والتخلّي عنها، وبدلاً من ذلك يحثُّ المسلمينَ على بزِّ الباحثينَ والتجديديّينَ الغربيّين «في ساحةِ الوغى الإبستمولوجيّة»، معترفاً أنّهُ عاجلاً أم آجلاً سيتحتّمُ علينا [نحنُ المسلمين] أن ننظرَ إلى القرآن من خلالِ فرضيّاتٍ ومعاييرَ منهجيّةٍ مختلفةٍ تمامَ الاختلافِ وبشكلٍ جذريٍّ عن المعاييرِ والفرضيّاتِ التي قدَّمها لنا التُّراث.

الحداثةُ في العالمِ الإسلامي:

طبعاً، ولأكثرِ من قرنٍ كامل كانت هناكَ شخصيّاتٌ عامّةٌ مشهورةٌ في العالمِ الإسلامي كانت لها محاولاتها الحداثيّةُ لدراسةِ القرآنِ والتّاريخِ الإسلاميّ: الأستاذُ المنفيُّ، والذي توفّيَ مؤخراً، المصريّ نصر حامد أبو زيد، وهوَ ليسَ الوحيد. أمّا أشهرهم على الإطلاق فكانَ سلف أبو زيد البروفسور الأكاديميّ والوزير المصريُّ السابق، والأديبُ والكاتب، طه حسين. بصفتهِ مفكّراً حداثيّاً عاقدَ العزم، كرّسَ طهَ حسين في باكورةِ ثلاثينيّاتِ القرنِ العشرين حياتهُ لدراسةِ الشّعرِ العربيّ ما قبلَ الإسلاميّ [والذي سُمّيَ بالشّعرِ الجاهليّ] حيثُ انتهى إلى استنتاجِ أنَّ معظمَ ذلكَ الأدبِ الجاهليّ كانَ مفبركاً من قبلِ مؤسّسةِ الإسلام لكي يكونَ بمثابةِ الدّاعمِ الخارجيِّ للميثولوجيا القرآنيّة. وهناكَ مثالٌ آخرُ أكثرُ حداثةً، وهوَ الصّحفيُّ والدبلوماسيُّ الإيرانيّ علي دشتي، الذي ألّفَ كتاباً عنوانهُ 23 عاماً: دراسةٌ في الممارسةِ النبويّةِ المحمّدية [1985] حيثُ يطلبُ من أصحابهِ من المسلمين عدمَ اعتمادِ الرواياتِ والأخبارِ التقليديّةِ عن حياةِ محمّد، والتي أسماها بـ«المؤسّطرةِ والمُعجزَة».

يذكر أبو زيد أيضاً شخصيّةً ذاتَ أثرٍ كبيرٍ في مجتمعاتنا، محمّد عبده، كسابقةٍ حداثيّة، فهذا الرّجلُ الذي يعدُّ أبا الحداثةِ المصريّةِ في القرنِ التّاسعَ عشر رأى إمكانيّةَ قيامِ لاهوتٍ إسلاميٍّ جديدٍ ضمنَ سياقِ نظريّاتِ معتزلةِ القرنِ التّاسعَ عشر. حيثُ أنَّ أفكارَ المعتزلة نالت شعبيّةً

كبيرةً ضمنَ بعضِ الدوائرِ الإسلاميّةِ مبكراً في هذا القرن، (ممّا دفعَ الأديبَ والمفكّرَ المصريَّ الكبيرَ أحمد أمين للقولِ في عام 1936 إنَّ «نهايةَ المعتزلة وانقراضَ الفكرِ المعتزليِّ كانَ بمثابةِ أعظمِ نكبةٍ أصابت العالمَ الإسلامي، إذ أنّهم بذلكَ ارتكبوا جريمةً بحقِّ أنفسهم»). وقد حملَ الباحثُ الباكستانيُّ الرّاحلُ فضلُ الرّحمن شعلةَ الفكرِ المعتزليِّ إلى عصرنا الحاليّ، وقد قضى السنواتِ التّاليةَ من عمره، من فترةِ السّتّينات وحتّى وفاتِهِ في سنةِ 1988، يعلّمُ ويدرّسُ في الولاياتِ المتّحدةِ الأمريكيّة، حيثُ درّسَ الكثيرَ منَ الباحثينَ في الإسلام – من كلٍّ منَ المسلمينَ وغيرِ المسلمين – ضمنَ إطارِ التُّراثِ المعتزليّ.

لكنَّ الحقيقةَ تقول: إنَّ هذهِ الأعمالَ لم تأتِ دونَ تكلفةٍ عالية، فـ طه حسين، مثل نصر أبو زيد، اتُّهِمَ بالزندقةِ في مصر، علي دشتي توفّيَ بطريقةٍ غامضةٍ عام 1979؛ أي بعدَ فترةٍ قصيرةٍ من انتصارِ الثورةِ الإيرانيّة، أمّا فضلُ الرّحمن قد أُجبِرَ على مغادرة الباكستان في ستّيناتِ القرنِ العشرين. فالمسلمونَ الذينَ يدرسونَ المذهبَ الأرثوذكسيَّ بطريقةٍ نقديّة عليهم أن يطؤوا أرضَ المعركةِ بحذر. يقول نصر أبو زيد إثرَ تصاعدِ الحملةِ الإسلاميّةِ العدائيّةِ ضدَّ نزعاتِ تفسيرِ القرآنِ الحداثيّةِ وحسبَ متطلّباتِ العصر:

أريدُ أنْ أُخرِجَ القرآنَ من هذا السّجن، لكي يعودَ من جديد ذلكَ الكتابَ الغنيَّ والمنتِجَ لجوهرِ ثقافتنا الفكريّةِ والفنيّة، والتي جرى خنقها وتقييدها في مجتمعاتنا.

وبالرّغمِ من أعدائهِ الكثيرينَ داخلَ مصر، كانَ أبو زيد يُحرِزُ تقدُّماً ملحوظاً نحوَ هدفِهِ، وهناكَ الكثيرُ منَ العلاماتِ والدلائلِ التي تشيرُ إلى أنَّ عملهُ قد حظيَ باهتمامٍ كبير – لكن هادئٍ وصامت – في العالمِ العربي، يقول أبو زيد إنَّ عمله (مفهومُ النصّ، 1990) قد طُبِعَ تسعَ مرّاتٍ على الأقلّ بشكلٍ غيرِ رسميٍّ في كلٍّ منَ القاهرةِ وبيروت.

باحثٌ مشهورٌ آخر لهُ أعمالٌ مقروءةٌ على نطاقٍ واسع، سعى إلى إعادةِ تقويمِ وقراءةِ القرآن بعيونٍ جديدة، وهوَ الباحثُ الجزائريُّ محمّد أركون، الأستاذُ بجامعةِ باريس، صرَّحَ أركون في عملِهِ الجامع محاضراتٌ في القرآن (1982) على سبيلِ المثال، أنَّ الوقتَ قد حانَ [بالنسبةِ للإسلام] لتقديرِ -بالإضافةِ لكلِّ التقاليدِ الثقافيّةِ الكبرى- الأخطارِ والمجازفاتِ الحديثةِ للمعرفةِ العلميّة.

ولذلكَ فهوَ يقترحُ أنَّ مشكلةَ المصدرِ الإلهيِّ للقرآن يمكنها أن تُخدمَ لتنشيطِ الفكرِ الإسلاميِّ ودفعهِ للانخراطِ في النقاشِ الرئيسيِّ لعصرنا.

يأسفُ أركون لحقيقةِ أنَّ أغلبَ المسلمينَ غافلينَ أو غيرُ مدركين أنَّ هناكَ مفهوماً آخرَ مختلفاً منَ القرآن موجوداً ضمنَ تراثهم وتاريخهم الخاصّ. أمَّا ما تقدِّمهُ إعادةُ تقويم أو قراءةِ التّاريخ الإسلاميِّ للمسلمين فهوَ فرصةٌ لتحدِّي التطرُّفِ والتشدُّدِ الإسلاميّينِ من داخلِ الإسلام، بدلاً منَ الاعتمادِ على مصادرٍ ومرجعيّاتٍ خارجيّة. فأركون وأبو زيد وآخرونَ غيرهم، يأملونَ أن يقودَ هذا التحدِّي في النهاية إلى نهضةٍ إسلاميّةٍ متجدِّدةٍ ومواكبةٍ لروحِ العصر.

الشّرخُ الكبيرُ بينَ هذهِ النظريّاتِ الأكاديميّةِ وبينَ الممارسةِ اليوميّةِ للإسلام حولَ العالمِ شرخٌ هائلٌ ومنَ الصّعبِ جدّاً ردمه، طبعاً، أغلبيّةُ المسلمينَ اليوم غيرُ قادرينَ على تحدِّي الفهمِ التقليديِّ الأرثوذكسيّ للقرآنِ والتّاريخِ الإسلاميِّ ومسائلتها، ومع ذلك، يتحوَّلُ الإسلامُ إلى أحدِ أكبرِ الأديانِ في العالمِ من حيثُ أتباعهِ وانتشاره، أمَّا السّببُ في ذلك، فيعودُ جزئيّاً إلى انفتاحهِ على التغيُّراتِ الاجتماعيّةِ والأفكارِ الجديدة [كما يرى كلٌّ من أركون وأبو زيد، لكنَّ الحقيقةَ على أرضِ الواقع ترينا شيئاً آخرَ تماماً] (قبلَ عدّةِ قرون، وعندما كانت أوروبّا غارقةً في ظلمةِ عصورها المظلمةِ الأبديّة، كانت الحضارةُ الإسلاميّةُ تنعمُ في ازدهارها حيثُ فتحت عصراً جديداً في مجالِ الاكتشافاتِ العلميّةِ والفلسفيّةِ والفكريّةِ العظيمة.

بالإضافةِ إلى أنَّ أفكارَ اليونانِ والرومانيينَ القدماء قد بقيت مجهولةً وخافيةً عن الأوروبيّينَ لولا أنّها تُرجمَت ونُقِلَت من قبلِ المترجمينَ والفلاسفةِ المسلمينَ الذين اكتشفوها وأعادوا إحيائها من جديد) يستعرضُ تاريخُ الإسلام أنَّ المفهومَ السّائدَ عن القرآن لم يكن هوَ المفهومَ الوحيدَ على الإطلاق، ويُظهِرُ التّاريخُ الحاليُّ للدراساتِ والأبحاثِ التوراتيّة، أن ليست كلُّ الدراساتِ التّاريخيّةِ النّقديّةِ للكتاباتِ المقدّسة هيَ أعمالٌ عدائيّةٌ وهدّامة، وبدلاً من ذلك يمكنُ تطبيقها وإدخالها ضمنَ حيّزِ العملِ بهدفِ التجديدِ الروحيِّ والثّقافي، إذ يمكنها، كما يقولُ محمّد أركون، أن تُبسِّطَ النصَّ بينما تعيدُ تأكيدَ «ترابطِ بديهيّاتها الكبرى».

ستُطرَحُ تفسيراتٌ متنوِّعةٌ ومتباينةٌ جدّاً للقرآنِ والتّاريخِ الإسلاميِّ خلالَ العقودِ القادمة، مع ذوبانِ وانصهارِ الامتيازاتِ الثقافيّةِ التّراثيّةِ بينَ الشّرق، الغرب، الشّمال،

والجنوب، ومع استمرارِ نموِّ وتزايدِ سكّانِ العالمِ الإسلامي، ومع اتّساعِ دائرةِ الضوءِ المسلَّطةِ على المصادرِ التّاريخيّةِ المبكرة، ومع التقاءِ المساواةِ بينَ الجنسين مع القرآن، ومع ظهورِ هذا التنوُّعِ الكبيرِ والهائلِ للتفسيراتِ الجديدة، ستأتي معهُ مشاكساتٌ ومعارضاتٌ متزايدةٌ بالتأكيد، وذلكَ مرَّدهُ على الأرجح إلى حقيقةِ أنَّ الإسلامَ موجودٌ ضمنَ هذهِ التشكيلةِ الثقافيّةِ والاجتماعيّةِ الكبيرةِ والفسيفسائيّة - البوسنة، إيران، ماليزيا، نيجيريا، المملكةُ العربيّةُ السعوديّة، جنوبُ أفريقيا، الولاياتُ المتّحدة، وأماكنُ أخرى. وأكثرَ من أيِّ وقتٍ مضى، أيُّ شخصٍ يرغبُ في فهمِ واستيعابِ الشؤونِ العالميّة، سيكونُ بحاجةٍ إلى دراسةِ وفهمِ الحضارةِ الإسلاميّة، بكافّةِ مكوّناتها وأطوارها، وأفضلُ طريقةٍ للبدءِ بهذا المشروع هيَ في دراسةِ وفهمِ القرآن.

ماذا نعرف عن محمد حقاً؟

باتريشا كرونه

منَ الصعبِ جدّاً معرفةُ أيِّ شيءٍ مؤكّدٍ عن أيِّ مؤسّسٍ من مؤسّسي الأديانِ الرئيسيّةِ في العالمِ، فكما يَطمُسُ قُدسٌ بعدَ الآخر محيطَ المناطقِ التي كانَ ينشطُ فيها، كذلكَ نرى مذهباً بعدَ آخر وهوَ يعيدُ تشكيلهُ وصياغتهُ وقولبتهُ كشخصيّةٍ وقورةٍ ومبجّلةٍ وقدوةٍ يُحتذى بها لأعدادٍ كبيرةٍ منَ البشرِ في أوقاتٍ وأماكنَ لم يسمعوا بها من قبل. في حالةِ النبيِّ محمّد، لم تَظهر المصادرُ الإسلاميّةُ التي تتحدّثُ عن حياتهِ إلّا في الفترةِ 800-750م؛ أي بعدَ مرورِ أربعِ أو خمسِ أجيالٍ على موته، ويفترضُ بعضُ الإسلاميّينَ (المتخصّصينَ في مجالِ دراسةِ الإسلامِ وتاريخه) أنَّ تلكَ المصادرَ هيَ رواياتٌ تاريخيّةٌ مباشرة، لذلكَ كلّه، على الأرجحِ أنّنا نعرفُ عن محمّد أكثرَ بكثيرٍ ممّا نعرفهُ عن يسوع (ناهيكَ عن موسى وبوذا)، وبالتأكيدِ نحنُ نمتلكُ الإمكانيّةَ لمعرفةِ المزيدِ أيضاً.

لا شكَّ أنَّ محمّداً كانَ موجوداً، وظهرت محاولاتٌ من حينٍ لآخر لإنكارِ وجوده، لكنّها ضعيفةٌ إلى حدٍّ ما، فجيرانهُ «في سوريا البيزنطيّة» قد سمعوا بهِ بعدَ سنتينِ من وفاته، وهناكَ نصٌّ يونانيٌّ مكتوبٌ خلالَ فترةِ الغزوِ العربيِّ لسوريا بينَ عاميّ 632 و634 للميلاد جاءَ فيهِ أنَّ ((نبيّاً كاذباً ظهرَ بينَ السرسنيّين))، ورُفِضَ على أنّهُ مزيّف على أساسِ أنَّ الأنبياءَ ((لا يأتونَ بالسّيفِ والعربة))، وهذا ما يعطينا انطباعاً بأنّهُ كانَ يقودُ عمليّةَ الغزو.

يُرجَعُ تاريخُ وفاةِ محمّدٍ بشكلٍ طبيعي إلى عام 632م، لكنَّ احتمالَ أن يكونَ تاريخُ وفاتهِ الأصليّ بعدَ ذلكَ بعامينِ أو ثلاثة واردٌ أيضاً، فالتقويمُ الإسلاميُّ قد وُضِعَ بعدَ وفاةِ النبيّ، ونقطةُ البدايةِ كانت وقتَ هجرتهِ إلى يثرب [المدينة لاحقاً] قبلَ ذلكَ بعشرِ سنوات. بعضُ المسلمينَ يربطونَ نقطةَ البدايةِ هذهِ مع عام 5-624 في التقويمِ الجورجيِّ بدلاً من سنةِ 622 المفترضة. إذا كانَ هذا التّاريخُ المعدّلُ صحيحاً، فالدليلُ المستمدُّ منَ النصِّ اليونانيِّ سيعني أنَّ محمّداً مجرّدُ «مؤسّسٍ» لدينٍ عالميٍّ مثبتٍ وجودهُ في المصادرِ المعاصرةِ له، لكن بأيِّ حال، هذا النصُّ يمنحنا دليلاً قاطعاً تقريباً بأنّهُ كانَ رجلاً حقيقيّاً، إضافةً إلى ذلك، هناكَ وثيقةٌ

أرمينيةٌ كُتِبَت بعدَ عام 661 بفترةٍ قصيرة، تذكرهُ بالاسم وتعطينا لمحةً واضحةً تقريباً عن تعاليمهِ التوحيديّة. على الجانبِ الإسلاميّ، المصادرُ التي يعودُ تاريخها إلى منتصفِ القرنِ الثّامنِ للميلاد وما بعده تحتفظُ لنا بوثيقةٍ [معاهدة] بينَ محمّدٍ وأهالي يثرب، وهناكَ الكثيرُ منَ الأسبابِ الجيّدةِ لقبولِ أصالةِ هذهِ الوثيقة، محمّدٌ أيضاً مذكورٌ بالاسم، وموصوفٌ بأنّهُ «رسولُ الله»، أربعَ مرّاتٍ في القرآن (وسنتكلّمُ عن ذلكَ لاحقاً). صحيحٌ أنّ اسمَ محمّدٍ لم يظهر على النقودِ العربيّةِ وأوراقِ البرديِّ والوثائقِ الأخرى إلّا خلالَ فترةِ 680؛ أي بعدَ حوالي خمسينَ عاماً على وفاتهِ (بغضِّ النظرِ عن تاريخِ موتهِ بالضّبط). وهذهِ هيَ الأرضيّةُ التي قامَ على أساسها بعضُ الباحثين _ وبالأخصِّ يهودا نيفو وجوديث كورين_ بالتشكيكِ بوجودهِ أصلاً، لكن قليلونَ الذينَ سيقبلونَ المقدّمةَ التي تقولُ أنَّ التّاريخَ يجبُ أن يُعادَ بناؤهُ على أساسِ الدليلِ الوثائقيِّ فحسب (أي؛ معلوماتٍ لم تُتناقل من جيلٍ لآخر، بل نُقِشَت على الحجارةِ أو معادنٍ أو استُخرجَت من الأرض، حيثُ تكونُ محافظةً على شكلها الأصلي). الدليلُ على أنَّ نبيّاً كانَ نشطاً بينَ العربِ خلالَ العقودِ المبكرةِ منَ القرنِ السّابع، وعشيّةَ الغزوِ العربيّ للشّرقِ الأوسط، أقلُّ ما يقالُ عنها أنّها كافيةٌ بشكلٍ استثنائي، كلُّ شيءٍ آخر عن محمّد يصبحُ أقلَّ تأكيداً وأكثرَ ارتياباً، لكن مازالَ يمكننا ملاحظةُ كمٍّ منَ المعلوماتِ شبهِ المؤكّدة. أهمُّ شيء، يمكننا أن نكونَ متأكّدينَ بما يكفي أنَّ القرآنَ هوَ عبارةٌ عن مجموعةٍ منَ الأقوالِ التي نَطقَ بها بشأنِ الدّين، والتي زعمَ أنّها موحاةٌ لهُ منَ الله. قد لا يكونُ الكتابُ قد احتفظَ بجميعِ السّورِ والرسائلِ التي يزعمُ أنّهُ تلقّاها، وهوَ غيرُ مسؤولٍ عن الترتيبِ الذي نقرأها فيه، فقد جُمِعَت بعدَ وفاته _أمّا المدّةُ فهيَ محلُّ جدال- لكن يصعبُ الشكُّ بأنّهُ نطقَ بأغلبها أو بعضٍ منها. هؤلاءِ الذينَ ينكرونَ وجودَ نبيٍّ عربيٍّ ما زالوا يجادلونَ طبعاً، لكنَّ ذلكَ يخلّفُ الكثيرَ من الإشكالاتِ التي تتخلّلُ الأدلّةَ الأخيرة، ومع القرآنِ ذاتهِ بالتحديد، في محاولةٍ لجعلها مقنعة.

النصُّ والرسالة:

ومع ذلك منَ الصعبِ جداً استخدامُ الكتابِ كوثيقةٍ تاريخيّة، وأساسُ هذهِ الصعوبةِ يتضمّنُ أسئلةً غيرَ مجابٍ عنها حولَ الكيفيّةِ التي وصلَ بها إلى شكلهِ التقليديّ، وحقيقةِ أنّهُ ما زالَ غيرَ متوفّرٍ بنسخةٍ مخصّصةٍ للدراسة، كما أنَّ لها جذوراً في النصّ، النسخُ الأولى من القرآن لا تظهرُ إلّا هيكلاً عظيماً ساكناً للنصّ، لا توجدُ حروفٌ صوتيّةٌ ولا حركات، والأسوأُ من

ذلك، لا توجدُ علاماتُ ترقيم، لذا نرى أنَّ الكثيرَ منَ الأحرفِ الساكنة يمكنُ أن تُقرأ بأكثرَ من طريقة. الباحثونَ المعاصرون يطمئنونَ أنفسهم عمليّاً أنّهُ طالما أنَّ القرآنَ كانَ مجوّداً منذُ البداية، فبإمكاننا الاعتمادُ على التّراثِ الشفهيِّ لنعرفَ القراءةَ الصحيحة، لكن هناكَ خلافٌ كبيرٌ في التّراث _حولَ مسألةِ التشكيلِ والحركاتِ أغلبَ الأحيان، لكنّها في بعضِ الأحيان تتعلّقُ بالسّواكنِ أيضاً_ على الطريقةِ الصحيحةِ في قراءةِ بعضِ الكلمات. لكنَّ هذهِ المشكلةَ بالكادِ تؤثّرُ غالباً على معنى النصّ، لكنّها قد تتركُ تأثيراً على التفاصيلِ الهامّةِ من أجلِ عمليّةِ إعادةِ البناءِ التّاريخيّة. في أغلبِ الحالات، مع أو دونَ شكٍّ حولَ مسألةِ القراءة، نلاحظُ أنَّ القرآنَ غامضٌ جدّاً، في بعضِ الأحيانِ يستخدمُ تعابيرَ لم تكن معروفةً حتّى بالنسبةِ للمفسّرينَ الأوائل، أو كلماتٍ لا تبدو أنّها تناسبُ السّياقَ بشكلٍ كامل، مع أنّها يمكنُ تفسيرها بشكلٍ انتقائيٍّ لتتناسبَ أو لا تتناسبَ مع السّياق، وأحياناً يبدو أنّهُ يعطينا أجزاءً مقصوصةً من سياقٍ طويلٍ ومفقود، وأسلوبها يكونُ تلميحيّاً للغاية. أحدُ التفسيراتِ لهذهِ السّماتِ هوَ أنَّ النبيَّ قد صاغَ رسالتهُ بلغةٍ شعائريّةٍ طقوسيّةٍ كانت ساريةً ومنتشرةً في البيئةِ الدينيّةِ التي نشأ وترعرعَ فيها، متبنّياً أو/ ومقلّداً نصوصاً قديمةً كالتراتيلِ والأناشيدِ والصّلوات، ربّما تُرجِمَت أو أُخِذَت عن لغةٍ ساميّةٍ أخرى أثناءَ تشكيلها. وقد عولجت هذهِ الفكرةُ ضمن عملين ألمانيين رئيسيين، الأوّل هو عملُ غونتر لولينغ Günter Lüling والآخرُ هوَ كريستوف لوكسنبرغ Christoph Luxenberg، وهناكَ الكثيرُ ليقالَ في هذا الشأن. في نفسِ الوقت، كلا العملينَ مفتوحانِ أمامَ الكثيرِ منَ نقدِ العلم- بشكلٍ أساسي حجّةُ قلّةِ الخبرة في حالةِ لوكسنبرغ- إذ لا يمكننا القولُ أنّهما قدّما لهذا المجالِ خدمةً كبيرة. إنَّ محاولةَ الربطِ بينَ الخصائصِ اللغويّةِ والأسلوبيّةِ في القرآن مع تلكَ الخصائصِ في النصوصِ الدينيّةِ الأقدم تتطلّبُ معرفةً عميقةً باللّغاتِ السّاميّةِ التي لا يمتلكها سوى قلّةٍ قليلة، أمّا هؤلاءِ القلّة يميلونَ للعملِ على مسائلَ أخرى، وهذا طبيعيٌّ كونَ هذا المجالِ حُمّلَ الكثيرَ منَ الثقلِ السياسي. عمل لوكسنبرغ يعدُّ مثالاً واضحاً على ذلك؛ التقطتهُ الصّحافةُ وعرضتهُ عبرَ وسائلِ الإعلام بطريقةٍ شعوريّةٍ وعاطفيّةٍ كأخطرِ فكرةٍ يمكنُ أن يخرجَ بها المختصُّ وهيَ؛ تنويرُ المسلمينَ الذينَ يعيشونَ في الغرب. لكن لا المسلمونَ ولا المختصّونَ بالدراساتِ الإسلاميّةِ كانوا مسرورين.

القصّةُ منَ الداخل:

القرآنُ لا يتحدّثُ عن قصّةِ حياةِ النبيّ، على العكس، إنّهُ لا يرينا النبيَّ منَ الخارجِ على الإطلاق، بل يأخذنا إلى داخلِ عقله، حيثُ يتحدّثُ إليهِ الله، يخبرهُ رسالتهُ ويعلّمهُ تعاليمه، وكيفيّةَ التعاملِ معَ النّاسِ الذينَ يهزؤونَ منه، وما يقولهُ لأتباعهِ ومؤيّديه، وهلمَّ جرّا. نحنُ نرى العالمَ من خلالِ عينيّه، والأسلوبُ التلميحيُّ يجعلُ منَ الصعبِ متابعةَ ما يجري. يُشارُ إلى الأحداثِ، لكن دونَ روايتها، تُناقَشُ الخلافاتُ لكن من دونِ شرحها، يُذكَرُ أشخاصٌ وأماكن، لكن بالكادِ تُذكَرُ أسماء. الأنصارُ تمّت الإشارةُ إليهم كمؤمنين، أمّا المعارضونَ فحُكِمَ عليهم بأنّهم كفّارٌ، مشركون، وثنيّون، مذنبون، زنادقةٌ، منافقون، وما إلى هنالك، دونَ إشارةٍ واضحةٍ ومحدّدةٍ إلى هويّتهم وماذا قالوا أو فعلوا (أي؛ كما يفعلُ القادةُ الإيديولوجيّونَ عندما يُشيطنونَ معارضيهم ويختزلونهم في فئاتٍ وأوصافٍ مجرّدة: إرهابيّينَ، عملاء، إمبرياليّين، أعداءُ الأمّة)، قد يكونونَ أحياناً _وهكذا يكونون_ نفسَ الأشخاصِ الذينَ يظهرونَ اليومَ تحتَ فئةٍ معيّنة، وغداً تحتَ فئةٍ أخرى. والحالُ أنَّ هناكَ شيئاً واحداً يبدو واضحاً؛ جميعُ الأطرافِ المذكورةِ في القرآن هم موحّدونَ يعبدونَ إلهَ التّراثِ التوراتي، وجميعهم على معرفةٍ تامّةٍ _وبعضهم منَ الكتابِ المقدّسِ مباشرةً_ بالمفاهيمِ والقصصِ والأفكارِ التوراتيّة، ونفسُ الأمرِ ينطبقُ على هؤلاءِ الذينَ يُطلقُ عليهم «مشركون»، وهم مرتبطونَ تراثيّاً بقبيلةِ محمّد في مكّة. يقولُ التّراثُ الإسلاميُّ أنَّ أفرادَ هذهِ القبيلة، التي تعرفُ باسمِ «قريش»، كانوا مؤمنينَ بإلهِ إبراهيمَ وملّتهِ التوحيديّةِ التي أُفسِدَت من قبلِ عناصرَ وثنيّةٍ داخلةٍ فيها، سيرى المؤرّخونَ المعاصرونَ أنفسهم ملزمينَ بعكسِ العلاقةِ وعدِّ العناصرِ الوثنيّةِ أقدمَ منَ التوحيد، لكنّنا نلاحظُ وجودَ توليفةٍ من فكرٍ توحيديٍّ توراتيٍّ مع بعضِ العناصرِ الوثنيّةِ العربيّةِ في القرآن. هؤلاءِ الذينَ سمّاهم القرآنُ «بالمشركين» ويؤمنونَ بإلهٍ واحدٍ يحكمُ العالمَ ويتمُّ التقرّبُ إليهِ عن طريقِ الصّلاةِ والشّعائرِ الدينيّة، هم في الحقيقةِ مدانونَ مثلَ الأعداءِ الإيديولوجيّينَ في عصرنا الحاليّ، إذ يبدو أنّهم نشأوا في نفسِ المجتمعِ الذي نشأ فيهِ أولئكَ الذينَ رفضوهم ونبذوهم. ولعدّةِ أسبابٍ طائفيّةٍ ومذهبيّة، يعملُ التّراثُ على إثارةِ الجانبِ الوثنيِّ لخصومِ النبيّ، وأهمُّ مصدرٍ بشكلٍ خاصّ _(ابن الكلبي [في كتابهِ الأصنام]_ ينظرُ إليهم بوصفهم عُبّاداً سُذّجاً للحجارةِ والأصنامِ من ذلكَ النوعِ الذي كانَ موجوداً في أرجاءَ أخرى من شبهِ الجزيرةِ العربيّة، لهذا السبب، عملَ

الأدبُ الثانويُّ اللاّحقُ على اعتبارهم وثنيّينَ صريحينَ أيضاً. بعضُ المفسّرين أكثرُ تعقيداً بكثيرٍ من ابنِ الكلبي، ومن بينهم الباحثُ المعاصر هاوتينغ G R Hawting الذي يعدُّ أنّهُ أوّلُ من بيّنَ بأنَّ الأشخاصَ الذينَ رُفِضوا بوصفهم «مشركينَ» في القرآن ليسوا وثنيّينَ صريحين، إنَّ حقيقةَ أنَّ القرآنَ قد سجّلَ هذا الشقَّ داخلَ مجتمعٍ موحّدٍ في الجزيرةِ العربيّة يمكنُ أن تغيّرَ فهمنا للطريقةِ التي ظهرَ فيها هذا الدينُ الجديد.

النبيُّ و«المشركون»:

ماهيَ إذن المسائلُ الكبيرةُ التي تقسمُ بينَ النبيِّ ومعارضيه؟ هناكَ مسألتانِ هامّتانِ للغاية؛ الأولى أنّهُ يتّهمُ المشركينَ بنفسِ التُّهمةِ التي اتّهمَ بها المسيحيّين _ تأليهُ البشر، فالمسيحيّونَ قد رفعوا من منزلةِ يسوع لمكانةٍ إلهيّة (مع أنَّ بعضهم كانوا مؤمنين)، أمّا المشركونَ فقد رفعوا الملائكةَ إلى نفسِ المرتبة وأضافوا خطأً آخرَ إلى خطأهم وهوَ أنّهم عدّوهم إناثاً (أو بعضاً منها)، وكما قالَ المسيحيّونَ عن يسوع أنّهُ ابنُ الله، كذلكَ المشركونَ سمّوا الملائكةَ بأبناءِ وبناتِ الله؛ أي يبدو أنّهم يشيرونَ إلى نوعٍ من هويّةِ الجوهر. يزعمُ المشركونَ أيضاً أنَّ الملائكةَ - أو الآلهة، كما يطلقونَ عليها أيضاً- كانوا وسطاءَ يساعدونهم على التقرّبِ منَ الله، وهيَ حجّةٌ معروفةٌ جيّداً من قبلِ الموحّدينَ القدماءِ الذينَ استبقوا على آلهةِ أجدادهم وأسلافهم واستذكروها بالقولِ عنها أنّها ملائكة، بالنسبةِ للمسيحيينَ أيضاً كانوا يرونَ الملائكةَ كوسطاء، وكانَ للنبيِّ وجهةُ نظرٍ مماثلة، أمّا اعتراضهُ هوَ فقد ظهرَ من حقيقةِ أنَّ ملائكةَ الوثنيّينَ كانَ ينظرُ إليها بوصفها ظهوراتٍ لهُ نفسهُ وليسَ بوصفهم خدماً أو وسطاءَ له. ويردُّ النبيُّ عن طريقِ التأكيدِ بشكلٍ دائم، أنَّ اللهَ واحدٌ ولا شريكَ له، لم يلد ولم يولد، ولم يكن لهُ كفواً أحد. السّببُ الآخرُ للخصومةِ بينَ النبيِّ ومعارضيهِ كانَ مسألةَ البعث. البعضُ كانَ يشكُّ بمسألةِ البعث، بينما أنكرهُ آخرونَ بقوّة، وآخرونَ رفضوا فكرةَ حياةٍ ما بعدَ الموتِ من أصلها، أمّا الأصوليّونَ والمتشدّدون فيبدو أنّهم ظهروا من بينِ صفوفِ اليهودِ و/أو المسيحيّينَ أكثرَ من _أو بالإضافةِ إلى_ المشركين، أو ربّما المشركونَ هم أصلاً يهودٌ ومسيحيّونَ منَ النوعِ المحلّيّ. بأيّةِ حال، يبدو أنَّ المتشدّدينَ قد ظهروا مؤخّراً على السّاحة، ومرّةً أخرى، أشخاصٌ من نفسِ النوعِ يمكنُ مصادفتهم على الجانبِ اليونانيِّ والسريانيِّ أيضاً. يردُّ النبيُّ بتكرارِ الحججِ المؤيّدةِ لفكرةِ البعثِ منَ النوعِ المسيحيّ، مصرّاً على أنَّ النّاسَ سيُبعَثونَ منَ الموتِ يومَ القيامة ليحاكموا، كما أنّهُ

أضافَ بأنَّ يومَ القيامةِ قريب، على شكلِ كارثةٍ محليّةٍ على غرارِ تلكَ الكوارثِ التي قضت على بعضِ المجتمعاتِ المحليّة -كقومِ لوط على سبيلِ المثال- أو على شكلِ حريقٍ هائل.

استهزأ بهِ معارضوهُ وسخروا منه، سائلينَ لماذا لم يحدث ذلك، لكنّهُ يصرُّ على ذلك. عندَ نقطةٍ معيّنة تتحوّلُ المواجهةُ إلى مواجهةٍ عنيفة ويمتلئُ الكتابُ بصيحاتِ لحملِ السّلاح، والمزيدِ منَ الاقتتالِ من أجلِ حَرَمْ.عند هذا الحدّ نلاحظُ وجودَ هجرة، مع أنَّ الحدثَ بذاتهِ غيرُ مذكورٍ بالتفاصيل، ونرى نوعاً منَ التشريعِ لإقامةِ مجتمعٍ جديد. خلالَ الكتابِ نلاحظُ أيضاً الكثيرَ منَ الجدالِ القاسيّ حولَ شرعيّةِ النبيِّ نفسه، لكنَّ وحدانيّةَ الله، وحقيقةَ البعثِ والحساب، وهولَ العقابِ الوشيكِ الوقوع هيَ حتّى الآن أهمُّ السّماتِ الواردة، وأُعِيدَ تكرارُ ذكرها في أغلبِ سورِ القرآن، باختصار، لا يقتصرُ الأمرُ على معرفتنا بوجودِ نبيٍّ نشطَ بينَ العربِ خلالَ العقودِ الأولى منَ القرنِ السّابع للميلاد، لدينا أيضاً فكرةٌ واضحةٌ عن تعاليمه. قد يستنتجُ غيرُ الإسلاميينَ أنَّ شكوى المؤرّخين حولَ قلّةِ معرفتهم عنه هيَ مجرّدُ امتعاضٍ مهني.

لكنَّ الأمرَ أكثرُ من مجرّدِ ذلك. وهذهِ مشكلةٌ كبيرةٌ فيما يتعلّقُ ببلادِ العرب.

مسألةُ الجغرافيا:

كتبُ أهالي الإمبراطوريتينِ البيزنطيّةِ والفارسيّةِ الكثيرة عن النهايتينِ الشماليّةِ والجنوبيّةِ لشبهِ الجزيرةِ العربيّة، حيثُ لدينا الكثيرُ منَ النقوشِ من هناك، لكنَّ الأرضَ الوسطى كانت أرضاً مجهولة terra incognita، وفي هذهِ النقطةِ بالضّبط يضعُ التّراثُ الإسلاميُّ محمّداً وسيرتهُ النبويّة. نحنُ لا نعرفُ تماماً ما الذي كانَ يحدثُ هناك، باستثناءِ ما يخبرنا بهِ التّراثُ الإسلامي، هذهِ المنطقةُ لم تنتج أدباً معروفاً ومحدداً يمكنُ أن نُرجعَ إليهِ القرآن، باستثناءِ الشّعرِ الذي نعرفُ عنهُ من خلالِ المصادرِ الإسلاميّةِ والتّراثِ الإسلاميّ، والذي بدورهِ يبدو مختلفاً تماماً في سماتهِ وخصائصهِ حيثُ أنّهُ لا يسلّطُ الكثيرَ منَ الضوءِ على الكتاب. لا يوجدُ مصدرٌ واحدٌ من خارجِ الجزيرةِ العربيّة يذكرُ مكّةَ قبلَ الغزوِ العربيّ، ولا يوجدُ أيُّ مصدرٍ يعرضُ أيَّ علامةٍ من علاماتِ التعرّفِ أو يخبرنا أيَّ شيءٍ عمّا كانوا يعرفونهُ عن «مكّة» عندما ظهرت في المصادرِ اللاّحقة، إنَّ هناكَ مكاناً اسمهُ مكّة حيثُ تقعُ مكّةُ في يومنا هذا، قد يكونُ حقيقة، وأن

يكونَ فيها حَرَمٌ وثنيٌّ فهوَ أمرٌ مقبولٌ تماماً (فبلادُ العربِ كانت مليئةً بالبيوتِ والكعبات)، وأنّها كانت تخصُّ قبيلةً عربيّةً تسمّى «قريش»، لكنّنا لا نعرفُ أيَّ شيءٍ عن هذا المكان يمكننا أن نكونَ متأكّدينَ منهُ مئةً بالمئة، باختصار، نحنُ لا نمتلكُ أيَّ سياقٍ للنبيِّ ورسالته. منَ الصعبِ ألّا نشكّكَ بأنَّ التّراثَ يضعُ النبيَّ وسيرتهُ في مكّةَ لنفسِ الأسبابِ التي تجعلهُ يصرُّ على أمّيّته: السبيلُ الوحيدُ الذي حصّلَ من خلالهِ معرفتهُ بجميعِ الأشياءِ والأمورِ التي أخبر بها اللهُ اليهودُ والمسيحيّونَ هوَ عن طريقِ وحيٍ منَ الله، كانت مكّةُ منطقةً عذراء، وكانت خاليةً من أيِّ تجمّعاتٍ يهوديّةٍ أو مسيحيّة. الأمرُ الذي يدعونا للشكِّ بأنَّ المكانَ موضوعٌ بغرضٍ مذهبيٍّ مدعومٍ بحقيقةِ أنَّ القرآنَ يصفُ معارضيهِ المشركين بأنّهم مزارعونَ يزرعونَ القمحَ والحنطة، الكرمة، الزيتون، وأشجارَ النخيل. القمحُ والكرمةُ والزيتون هيَ المنتجاتُ الرئيسيّةُ لمنطقةِ حوضِ المتوسّط، أمّا أشجارُ النخيلِ فتأخذنا نحوَ الجنوب، لكنَّ مكّة لم تكن المكانَ الأنسبَ لهذا النوعِ من الزراعة، ومن غيرِ المعقولِ أنَّ أحداً كانَ ينتجُ الزيتونَ هناك، إضافةً إلى أنَّ القرآنَ يصفُ معارضيهِ بأنّهم يعيشونَ على أنقاضِ أمّةٍ مندثرةٍ كانت تعيشُ في نفسِ المكان، ربّما مدينةٌ دمّرها اللهُ بسببِ كثرةِ ذنوبها. كانَ هناكَ الكثيرُ من مواقعِ الخرائبِ شمالَ غربيِّ جزيرةِ العرب. كانَ النبيُّ يخبرُ معارضيهِ مراراً وتكراراً بأهمّيّتهم وأن يتّعظوا منهم، وقد قالَ في إحدى المناسباتِ مشيراً إلى بقايا وآثارِ قومِ لوط: ((وإنّكم لتمرّونَ على ديارهم مصبحينَ وممسين))، وهذا يأخذنا إلى مكانٍ ما في منطقةِ البحرِ الميّت. كانَ المؤرّخونَ المعاصرونَ يحلّلونَ ويقدّرونَ التّراثَ إلى هذهِ الدرجة، حتّى مرّت هاتانِ النقطتانِ الأولى والثّانية دونَ أن ينتبهوا إليهما إلّا مؤخّراً، أمّا النقطةُ الثّالثةُ فقد تمَّ تجاهلها، قالَ المفسّرونَ: أنَّ قريشاً كانت تمرُّ بخرائبِ قومِ لوط أثناءَ رحلتهم السنويّةِ إلى سوريا، لكنَّ السبيلَ الوحيدَ ليمرَّ المرءُ من مكانٍ ما صباحاً ومساءً هو أن يعيشَ في مكانٍ ما على مقربةٍ منه. الرحلاتُ السنويّةُ التي تذرّعَ بها المفسّرون، كانت رحلاتٍ تجاريّة، جميعُ المصادرِ تقولُ أنَّ قريشاً كانت تتاجرُ في جنوبيِّ سوريا، وهناكَ كثيرونَ يقولونَ أنّها كانت لها تجارتها في اليمنِ أيضاً، وأضافَ بعضهم العراقَ وأثيوبيا إلى وجهتهم، قيلَ أنّهم كانوا يتاجرونَ بشكلٍ رئيسيٍّ بالبضائعِ الجلديّة، الألبسةِ الصوفيّة، وبضائعَ أخرى ذاتِ منشأٍ رعوي، بالإضافةِ إلى العطور (وليسَ أصنافاً عربيّةً جنوبيّةً منَ البخور، أو بضائعَ ترفٍ هنديّةً كما كانَ يُعتقَد). لقد تمَّ التذرّعُ بخطِّ القوافلِ التجاريّةِ القرشيّةِ لتفسيرِ التشابهاتِ

مع الموادِ التوراتيّةِ وغيرِ التوراتيّةِ التي تميّزُ أسلوبَ القرآن، لكنَّ ذلكَ يتجاوزُ ما يأخذهُ التجّارُ معهم خلالَ رحلاتهم السنويّة، لاشكَّ أنَّ هناكَ مجتمعاً تجاريّاً مساهماً بشكلٍ أو بآخر في ظهورِ الإسلام، مع أنّهُ ليسَ منَ الواضحِ كيفيّةَ ارتباطِهِ بالمجتمعِ الزراعيِّ المذكورِ في القرآن، هناكَ الكثيرُ لنقولهُ حولَ ذلك، لكن دونَ أيِّ يقينٍ كامل.

ثلاثةُ مصادرَ للدليل:

المشكلةُ الأكبرُ التي تواجهُ الباحثينَ في نشأةِ الإسلام، هيَ تحديدُ الإطارِ البيئيِّ الذي عملَ فيهِ النبيّ، ما الذي كانَ يتجاوبُ معه، ولماذا كانت بقيّةُ بلادِ العربِ متجاوبةً مع رسالته؟ لدينا فرصةٌ جيّدةٌ لإحرازِ تقدّم، إذ أنّنا لم نقترب بعد من استخدامِ الأنواعِ الرئيسيّةِ الثلاثةِ من أدلّتنا: 1) التّراثُ المرتبطُ بالنبيّ (الحديثُ بشكلٍ أساسي)، 2) القرآنُ نفسه، 3) و(نوعٌ جديدٌ يقدّمُ لنا الكثيرَ منَ المقدّماتِ لننطلقَ منها) علمُ الآثار/ الأركيولوجيا. النوعُ الأوّلُ هوَ الأصعبُ من ناحيةِ التعاملِ معهُ ومعالجته، وهذا النوعُ يأخذُ شكلَ الأحاديث _تقاريرُ قصيرةٌ ومختصرة (لا تتجاوزُ السطرَ أو السطرين في بعضِ الأحيان) تسجّلُ ما قالهُ شخصٌ قديم_كأحدِ صحابةِ النبيّ أو النبيِّ نفسه_ أو فعلهُ في مناسبةٍ معيّنة، متدرّجةً عبرَ سلسلةٍ منَ النُّقّال (اليوم، نلاحظُ أنَّ تعبيرَ «حديث» يعني كلامَ النبيِّ نفسه). أغلبُ المصادرِ الأوّليّةِ عن حياةِ النبيّ، بالإضافةِ إلى فترةِ حياةِ خلفائهِ المباشرين، تتضمّنُ أحاديثاً بشكلٍ أو بآخر. الغرضُ من هذهِ الأخبارِ والتقاريرِ تثبيتُ الشّريعةِ الإسلاميّةِ وشرعنتها، وليسَ تسجيلَ التّاريخِ بالمعنى المعاصرِ للكلمة، وبما أنَّ هذهِ الأخبارَ كانت تنتقلُ بطريقةٍ شفهيّة، كتصريحاتٍ وأقوالٍ قصيرةٍ جداً، انحرفت بسهولةٍ عن معناها الأصليّ مع تغيّرِ الأحوالِ والظروف (كما أنّها كانت تُفبرَكُ بسهولةٍ بالغة). إنّها تعتبرُ شهادةً على النّزاعاتِ الحاصلةِ حولَ الشّكلِ الحقيقيِّ للإسلامِ حتّى مطلعِ القرنِ التّاسعِ للميلاد، عندما تمَّ جمعُ الموادِ وترسيخها. هذهِ النقاشاتُ والجدالات ساهمت في تضبيبِ الطبيعةِ التّاريخيّةِ للشخصيّاتِ التي لها علاقةٌ بالموضوعِ بوصفها مرجعيّاتٍ تاريخيّة، في حينِ أنّها تخبرنا الكثيرَ عن التصوّراتِ اللاّحقة. الموادُ غيرُ متبلورةٍ وينقصها التنظيم، ومنَ الصّعبِ معالجتها، والشّروعُ في تجميعِ هذا الكمِّ الهائلِ منَ الأخبارِ المتعارضةِ والنسخِ المختلفةِ حولَ موضوعٍ محدّدٍ كانَ يعدُّ عملاً مرهقاً ومهمّةً شاقّة، أمّا الآن باتَ سهلاً جداً من

خلالِ قواعدِ البياناتِ القابلةِ لإجراءِ عمليّةِ البحثِ فيها، بطبيعةِ الحال، ما زلنا لم نقبل بشكلٍ عام المناهجَ التي اعتُمِدَت في ترتيبِ المواد، سواءٌ أكانت دليلاً على النبيّ أو على خلافاتٍ مذهبيّةٍ لاحقة (الأمرُ الذي سيثبتُ أنّهُ مثمرٌ حقّاً) لكن يجري الآن عملٌ أكثرُ إثارةً في هذا المجال. بالنسبةِ إلى المصدرِ الثّاني، القرآن، فإنَّ دراستهُ ما زالت تحتَ سيطرةِ وتأثيرِ منهجِ المفسّرينَ المسلمينَ الأوائل، الذينَ كانوا يتميّزونَ بعادةِ النظرِ في كلِّ آيةٍ على حدة وباستقلال، وتفسيرها على خلفيّةِ الأحداثِ التي وقعت في زمنِ النبيِّ وحياتهِ دونَ أيِّ نظرٍ للسياقِ الذي ظهرت ضمنهُ في القرآنِ نفسه، وبالتّالي، كانوا يستبدلونَ السياقَ القرآنيَّ بسياقٍ آخرَ جديد. منذُ حوالي خمسينَ عاماً قامَ عالمٌ إسلاميٌّ يدعى محمّد شلتوت، الذي أصبحَ شيخاً للأزهر فيما بعد، برفضِ هذا المنهجِ لصالحِ فهمِ القرآنِ في ضوءِ القرآنِ نفسه. كانَ عالماً دينيّاً مهتمّاً بالرسالةِ الدينيّةِ والأخلاقيّةِ للقرآن، لم يكن مؤرّخاً منَ النوعِ الغربي، لكن يجبُ اتّباعُ منهجهِ أيضاً من قبلِ المؤرّخين. كانَ الإجراءُ الذي يتّبعهُ المفسّرونَ القدامى يتمحورُ حولَ تحديدِ معنى الكتابِ ضمنَ إطارِ اللغةِ العربيّةِ فقط، بعزلةٍ عن التطوّراتِ الدينيّةِ والثقافيّةِ في العالمِ الخارجيّ، لذلكَ كانت القصصُ والرّواياتُ التوراتيّةُ وغيرها منَ الأفكارِ التي تولّدت خارجَ جزيرةِ العرب قد وصلت إلى الباحثينَ المعاصرينَ بوصفها «استعاراتٍ أجنبيّةً غريبة»، مختارةً بطريقةٍ صدفويّةٍ من قبلِ تاجرٍ لم يكن يفهمُ معناها بالكامل. لقد أصبحَ واضحاً أنَّ هذهِ الفكرةَ خاطئةٌ بالكامل، فالنبيُّ لم يكن شخصاً منَ الخارج قامَ بانتقاءٍ عشوائيٍّ لمجموعِ ما توصّلت إليهِ الجدالاتُ في العالمِ التوحيديِّ المحيطِ به، بل كانَ مشاركاً كاملاً في هذهِ النقاشاتِ والجدالات، بمعنى آخر؛ إنَّ ظهورَ الإسلام يجبُ أن يكونَ مرتبطاً بتطوّراتٍ في العالمِ القديم، وعن طريقِ وضعِ هذا السّياقِ في عقولنا علينا إعادةُ قراءةِ القرآن. إنّها مهمّةٌ صعبة، وسيكونُ هناك، بل كانَ هناكَ مسبقاً، منعطفاتٌ خاطئةٌ على طولِ الدرب، لكنّها ستكونُ ثورةً في هذا المجال. أمّا النوعُ الثالث، والأكثرُ إثارةً بينَ المصادر، باتَ يلوحُ في الأفق: علمُ الآثار/الأركيولوجيا؛ بلادُ العرب، هيَ المجهولُ الأكبر، وقد بدأت أعمالُ التنقيبِ فيها، ومع أنّهُ من غيرِ المرجّحِ أن تجري عمليّاتُ تنقيبٍ أثريّةٍ في مكّةَ والمدينة في المدى المنظور، إلّا أنَّ النتائجَ التي تكوّنُ هذا المذهبَ الجديد تفتحُ أبوابَ العقلِ على مصراعيها. يبدو أنَّ بلادِ العربِ كانت مكاناً أكثرَ

تقدّماً وتطوّراً ممّا اعتقدهُ أغلبُ المتخصّصينَ بالدراساتِ الإسلاميّة -وأنا من بينهم- ليسَ فقط في الشّمالِ والجنوب، بل في الوسطِ أيضاً. بدأنا نحصلُ على صورةٍ أكثرَ تلوّناً عن المكان، ومنَ الواضحِ أنّنا يجبُ أن ننظرَ إليهِ كمكانٍ أكثرِ ارتباطاً بباقي منطقةِ الشّرقِ الأدنى ممّا كنّا نعتقده. سجلُّ النقوشاتِ يتّسعُ بدورهِ ويتمدّدُ أكثرَ أيضاً، إلّا أنّنا متأكّدونَ من مشكلةٍ واحدة، وهيَ المدى الواسعُ والكبيرُ للتفاسيرِ المحتملةِ بالارتباطِ مع التفاسيرِ المنكمشةِ والمتقلّصةِ الأخرى، لمساعدتنا على امتلاكِ حسٍّ أفضلَ عن المكانِ الذي يجبُ أن نبحثَ عن الحلولِ فيه، وتحسنَ افتراضاتنا وتخميناتنا حيثُ لا يكونُ هناكَ دليل. لن نكونَ قادرينَ على فعلِ ذلكَ دونَ أيِّ مصادرَ تراثيّة، طبعاً، أمّا الفرصُ فتقول: إنّ ما يخبرنا بهِ التّراثُ عن حياةِ النبيِّ وسيرتهِ غيرُ دقيقٍ بشكلٍ أو بآخر، لكن لن ينجحَ أيُّ تأويلٍ تاريخيٍّ ما لم تكن التفاصيلُ والسّياقُ والافتراضاتُ صحيحةً ودقيقة. قد لا نصلُ إلى معرفةِ ما نرغبُ بمعرفته -وهل سبقَ أن حقّقنا ذلك؟ لكنَّ الباحثينَ والدارسينَ في التّاريخِ الإسلاميِّ لديهم كلُّ الأسبابِ ليكونوا متفائلينَ بأن تمتلئَ الفجواتُ التي تتخلّلُ معرفتهم الحاليّة خلالَ السنواتِ القادمة.

مصادر القرآن

(بحث في مصادر الإسلام)

وليم غولدساك 1907

THE ORIGINS OF THE QUR AN ((AN ENQUIRY INTO THE SOURCES OF ISLAM)) BY THE Rev. W. GOLDSACK THE CHRISTIAN LITERATURE SOCIETY LONDON, MADRAS AND COLOMBO 1907 {بل هوَ قرآنٌ مَجيدٌ في لوحٍ محفوظ}

مقدّمة:

إنَّ كلمةَ «قرآن» مشتقّةٌ منَ الفعلِ العربيِّ «قَرَأ»؛ ويعني ذلكَ فعلَ القراءة، أو بالأحرى «ذلكَ الذي يجبُ أن يُقْرَأ»، وهوَ مأخوذٌ من سورةِ [الحقّ: 1] {إقرأ باسمِ ربّكَ} والتي يقالُ أنّها أوّلُ سورةٍ نزلت على محمّد، وهذهِ الكلمةُ التي تستخدمُ عادةً للإشارةِ إلى القرآنِ فقط، كانت وما زالت تستخدمُ حتّى الآن، وباستمرار، لوصفِ مجموعِ الوحيِ والآياتِ المنزّلةِ على محمّد. وتروي لنا الأحاديثُ والتّراث، الكثيرَ منَ القصصِ الجميلةِ فيما يتعلّقُ بنزولِ الوحيِّ على محمّد، والتي احتفظت بها عائشة، زوجةُ محمّدٍ المفضّلة، حيثُ تقصّها لنا على النحوِ التّالي: ((عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهَا قَالَتْ: أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ وَهُوَ التَّعَبُّدُ اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ: اقْرَأْ، قَالَ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، قَالَ: فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا فَقَالَ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ. فَقَالَ لِخَدِيجَةَ وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ: لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي فَقَالَتْ: خَدِيجَةُ كَلاَّ وَاللهِ مَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ وَتَحْمِلُ الْكَلَّ وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ وَتَقْرِي الضَّيْفَ وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ، فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى ابْنَ عَمِّ خَدِيجَةَ، وَكَانَ امْرَأً قَدْ تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعِبْرَانِيَّ فَيَكْتُبُ مِنَ الإِنْجِيلِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَكْتُبَ وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: يَا ابْنَ عَمِّ اسْمَعْ مِنِ ابْنِ أَخِيكَ، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَى فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَبَرَ مَا رَأَى فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَّلَ اللهُ عَلَى مُوسَى يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ قَالَ: نَعَمْ لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْراً مُؤَزَّراً، ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ وَفَتَرَ الْوَحْيُ قَالَ ابْنُ شِهَابٍ وَأَخْبَرَنِي أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَنَّ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ الأَنْصَارِيَّ قَالَ وَهُوَ يُحَدِّثُ عَنْ فَتْرَةِ الْوَحْيِ فَقَالَ فِي حَدِيثِهِ: بَيْنَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ فَرَفَعْتُ بَصَرِي فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ فَرُعِبْتُ مِنْهُ فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ، إِلَى قَوْلِهِ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ، فَحَمِيَ الْوَحْيُ وَتَتَابَعَ تَابَعَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ يُوسُفَ وَأَبُو صَالِحٍ وَتَابَعَهُ هِلاَلُ بْنُ رَدَّادٍ عَنِ الزُّهْرِيِّ، وَقَالَ يُونُسُ وَمَعْمَرٌ بَوَادِرُهُ)) [مشكاةُ المصابيح، وشرحُ الباري في تفسيرِ صحيح البخاري] هذهِ الأخبارُ والأحاديثُ كالتي وردت في الأعلى، بالإضافةِ إلى التصريحاتِ المتكرّرةِ والعديدةِ الواردةِ في القرآنِ نفسه، تشكّلُ أساسَ المعتقدِ المحمّديِّ بأنَّ القرآنَ هوَ كلامُ اللهِ المنزَّلُ والمعصومُ الذي أُوحِيَ إلى محمّد بطريقةٍ عجائبيّة، عن طريقِ الملاكِ جبريل. لقد قيلَ أنَّ القرآنَ كانَ موجوداً في السّماءِ العليا ومنذُ الأزل، مكتوباً على «اللوحِ المحفوظ»، وموضوعاً بالقربِ من عرشِ الله، ثمّ أُنزِلَ إلى السّماءِ الدنيا في شهرِ رمضان، حيثُ أُوحِيَ إلى محمّد بشكلٍ تدريجيٍّ وعلى فترةٍ زمنيّةٍ تتخطّى 23 عاماً. القرآنُ مليءٌ بآياتٍ تؤكّدُ على مصدرِهِ الإلهيِّ هذا، كما أنَّ هناكَ الكثيرَ منَ الآياتِ التي تصبُّ اللّعناتِ على رؤوسِ أولئكَ الذينَ ينكرونَ هذا الزّعم. لقد نقلَ لنا البخاريُّ وكثيرونَ غيرُهُ، العديدَ منَ الأخبارِ والأحاديثِ التي لا يتّسعُ لها الوقتُ ولا

المكانُ هنا، المتعلّقةُ بالطريقةِ والمناسبةِ التي نزلت فيها هذهِ الآياتُ «الموحاة»، في حين أنَّ كُتّاباً أكثرَ حداثةً، كجلالِ الدينِ السيوطي، قد رتّبوا ونظّموا الأنماطَ المختلفةَ لهذا الوحيِّ الإلهيِّ حسبَ فئات مثلَ: الوحي المنزّلِ عن طريقِ الملاكِ جبريل، أو عن طريقِ صبّهِ في قلبِ النبيِّ، الأحلام، أو التواصلِ المباشرِ مع الله وهلمَّ جرّا. ونحنُ هنا لسنا معنيّينَ بكلِّ هذهِ التفاصيل [من أجلِ الاطّلاع أكثر على أخبارِ وتراثِ جمعِ الأحاديث وقيمةِ هذهِ المجاميع، انظر: «Faith of Islam»، pp. 93-101، 1907 (3rd ed Madras)]. ومن أجلِ أهميّةِ هذا البحثِ علينا الاكتفاءُ بإعلانِ حقيقةٍ واضحةٍ وصارخة، وهيَ أنَّ القرآنَ مقدّسٌ للغايةِ عندَ المسلمين، وهناكَ حوالي 200،000،000 إنسان يؤمنونَ بقدسيّتهِ وأنّهُ كلامُ اللهِ نفسه [طبعاً هذا التخمينُ في زمنِ الكاتب، أمّا الآن فقد تجاوزَ عددُ المسلمينَ المليار]، موجودٌ في السّماءِ العليا منذُ الأزل، وأُنزلَ في النهايةِ إلى عالمنا الأرضيِّ هذا عن طريقِ نبيّهِ المصطفى محمّد. الهدفُ من هذا الكتيّبِ هوَ أن نمعنَ النظرَ في هذهِ المزاعمِ الخرقاء، ونتأكّدَ ما إذا كانَ منَ الممكنِ النظرُ إلى مضمونِ القرآنِ ومحتواهُ بعيداً عن نظريّةِ الوحيِّ الإلهيِّ هذه. بالنسبةِ للقارئِ المسلم، الذي ينفرُ عقلهُ من مجرّدِ اقتراحِ إخضاعِ القرآنِ للدراسةِ النّقديّة، فإنّنا نحيلهُ إلى كلمةِ السير سعيد أحمد في معرضِ تعليقهِ على الكتابِ المقدّس [التفسيرُ الإسلاميُّ للكتابِ المقدّس، الجزء الثاني، ص335]، إذ يقولُ هذا الباحثُ الإسلاميّ: ((لا يمكنني بأيِّ شكلٍ منَ الأشكال الاقتناعُ بالفكرةِ الخرافيّةِ بأنَّ الكتابَ المقدّسَ، وجميعَ الكتبِ المقدّسةِ بشكلٍ عام، وحتّى كتابُ القرآنِ الكريم، لا يجبُ أن تخضعَ للفحصِ الدّقيقِ والصّارم، أيمكنُ لأيِّ إنسانٍ عاقلٍ أن يتصوّرَ أنَّ اللهَ قد منحنا هذهِ الهبةَ الإلهيّة، هبةَ العقل، لكي نقفَ مكتوفي الأيدي ونمتنعَ عن استخدامه، هل يمكننا أن نعلنَ بضميرٍ وإخلاصٍ أنّنا مسيحيّونَ أو محمّديّونَ دونَ أن نعطي أيَّ سببٍ لإيماننا، أو دونَ ممارسةِ ملكةِ الفكرِ لدينا إلى أقصى حدٍّ ممكنٍ من قدرتنا في دراستنا وتدقيقنا في ذلكَ الكمِّ منَ الكتاباتِ والآياتِ الثمينةِ التي قُدِّمَت لنا كأساسٍ ومرشدٍ لإيماننا؟... على العكسِ من ذلك فأنا أريدُ توطيدَ الرغبةِ في دراسةِ تلكَ الكتاباتِ المقدّسةِ بإنصاف، وبحرّيّةٍ كاملةٍ ومحترمةٍ بعيدةٍ عن الوقاحة)) علَّ القارئَ المسلمَ لهذا الكتاب، يتذكّرُ الطبيعةَ الأزليّةَ والجليلةَ لهذا الموضوع، ويسعى _في ظلِّ تصريحِ السير سعيد أحمد_ للبحثِ بحرّيّةٍ موضوعيّةٍ ومطلقةٍ في الكتابِ الذي يقومُ عليهِ إيمانه. بالنسبةِ لنا نحن نعتقد _وسنعملُ على إثبات_ بأنَّ القرآنَ ليسَ أكثرَ

من مجرّدِ مجموعةٍ متفاوتةٍ وغيرِ متجانسةٍ منَ المذاهبِ والمعتقداتِ والقصصِ والأساطيرِ التي كانت موجودةً مسبقاً في شبهِ الجزيرةِ العربيّةِ زمنَ محمّد، والتي استعارها وعدّلَ بها وكيّفها، وقُدِّمَت بعدَ ذلكَ بوصفها وحياً مباشراً منَ الله، وقد أضيفَ إلى هذهِ القصصِ والأساطير عددٌ منَ الشرائعِ والوصايا العمليّة، السلبيّة منها والإيجابيّة، والتي سُمّيَت لاحقاً حسبَ ضروراتِ ومقتضياتِ تلكَ الفترة. وبموجبِ هذهِ الخطّة سأقترحُ أن نناقشَ الأمورَ التّالية وبالترتيبِ المقترحِ هنا: 1) تلكَ الأقسامُ منَ القرآنِ التي استعارها محمّدٌ وتبنّاها منَ الدياناتِ الوثنيّةِ التي كانت منتشرةً في زمنه، 2) تلكَ الأجزاءُ ذاتِ الأصلِ والمنشأِ اليهودي، بقسميهِ التوراتيّ والتلمودي، 3) والأجزاءُ التي تعلّمها محمّدُ من معاصريهِ منَ المسيحيّين، 4) وأخيراً، الأجزاءُ منَ القرآنِ التي «نزلت» حسبَ ظروفٍ معيّنةٍ وخاصّةٍ في لحظتها، والتي صيغت لدعمِ وتعزيزِ أفعالٍ معيّنةٍ للنبيّ.

معتقداتُ الوثنيّينَ وطقوسهم المُدمَجَةُ في القرآن:

قد يقالُ أنَّ الإسلامَ هوَ أكثرُ دينٍ انتقائيٍّ موجودٍ في العالمِ، ومنَ المؤكّدِ أنَّ مؤسّسهُ، محمّد، قد استفادَ كثيراً منَ الموادِ المختلفةِ التي كانت في متناولهِ في ذلكَ الوقت. يُفترَضُ عادةً أنَّ محمّداً كانَ أوّلَ من جلبَ التوحيدَ لشعبهِ وعرّفهم على الإلهِ الواحد، ويبدو وهوَ يزعمُ بلسانهِ أنَّ هذهِ الحقيقةَ قد أوحيت إليهِ مباشرةً منَ الله، لذلكَ نقرأ في سورةِ الأنعام آية 106: {اتّبع ما أوحيَ إليكَ من ربّكَ لا إلهَ إلّا هو}.لكن بعيداً عن حقيقةِ أنّهُ كانَ هناكَ العديدُ منَ المجتمعاتِ اليهوديّةِ والمسيحيّةِ في شبهِ الجزيرةِ العربيّةِ التي كانَ يمكنُ لمحمّدٍ أن يتعلّمَ منها التوحيدَ في زمنه، فنظرةٌ قريبةٌ ومدقّقةٌ في التّاريخِ العربيِّ كافيةٌ بأن تبيّنَ حقيقةَ أنَّ اللهَ الواحد كانَ معروفاً جيّداً ومعبوداً من قبلِ العرب قبلَ ولادةِ محمّد بزمنٍ طويلٍ جدّاً. في الأدبِ الجاهليِّ/ما قبلَ الإسلاميّ كانَ اسمُ «إله» يستخدمُ لأيِّ إله، لكنَّ اسمَ «الإله» الذي ارتبطَ باللهِ أو إلهِ المسلمين، فكانَ يطلقُ على كبيرِ الآلهةِ ورئيسهم، وقد أوردَ كلٌّ من الشّاعرينِ الوثنيّينِ النّابغةِ ولَبيد اسمَ «اللهِ» بشكلٍ متكرّرٍ في سياقِ حديثهما عن كبيرِ الآلهةِ أو الإلهِ العظيم، وقد استُخدِمَت الكلمةُ أيضاً في ذلكَ السّياقِ في معلّقتيهما، في حينِ أنَّ ابنَ هشام يخبرنا بأنَّ قريشاً، وأثناءَ تأديتها مراسمَ الإهلال، كانوا يرفعونَ الصوت: ((لبّيك اللهمَّ لبّيك، لبّيكَ لا شريكَ لكَ لبّيك، إنَّ الحمدَ والنعمةَ لكَ والمُلْك)) [وتسمّى عادةً بالتلبية]، بل علينا

أن نتذكّرَ أيضاً أنَّ الكعبةَ كانت تسمّى، وقبلَ ولادةِ محمّدٍ بقرونٍ عديدة، بيتِ الله، كما أنَّ اسمَ والد محمّد نفسهِ «عبدُ الله» يثبتُ إلى أيِّ مدى كانت كلمةُ «اللهِ» مستخدمةً في تلكَ الأيّام [انظر: Zwemer s "Moslem Doctrine of God"]، ويقرُّ السير سعيد أحمد في عملهِ حولَ العربِ ما قبلَ الإسلام بوجودِ فِرَقٍ ومذاهبَ توحيديّةٍ بينَ العربِ قبلَ زمنِ محمّد، فهوَ يقول: ((كانت هناكَ فئتينِ منَ العربِ الموحّدينَ في زمنِ الجاهليّة، أمّا أفرادُ الفئةِ الثّانيةِ فكانوا يعبدونَ الإلهَ الحقيقيَّ الواحد، ويؤمنونَ بالحسابِ ويومِ القيامةِ وخلودِ الرّوحِ وثوابها وعقابها حسبَ أعمالها خلالَ تواجدها في الجسد، لكنّهم لم يؤمنوا لا بالأنبياءِ ولا بالوحي))، ثمَّ يقولُ في موضعٍ آخر: ((كانت هناكَ أربعُ مذاهبَ أو فِرَقٍ توحيديّةٍ بينَ العربِ قبلَ الإسلام آمنت بالوحيِّ وكانت منتشرةً على نطاقٍ واسعٍ في تلكَ الفترة، وبالأخصِّ الصّابئة، الأحناف، اليهودُ والمسيحيّون [Syed Ahmad، "Maroam al-Arab qabl al-Islam"، pp.222، 223]، وبإمكانِ القارئِ الآن ملاحظةُ أنَّ مفهومَ الإلهِ الأكبرِ أو الزّعيم كانَ معروفاً «بالله»، وكانَ مألوفاً جدّاً بالنسبةِ لمعاصري محمّد، وبالنسبةِ لمحمّدٍ نفسه من دونِ أدنى شكّ، فتبنّى هذا المفهومَ كأساسٍ لنظامهِ العقائديّ، وقدّمهُ على أنّهُ وحيٌّ منزّلٌ عليهِ منَ السّماء، لذلكَ لا نستغربُ كثيراً عندما نقرأ أنَّ العربَ قالت عنهُ أنّهُ يعيدُ عليهم روايةَ «قصصِ الأوّلين» [سورة الفرقان، 6]، أو عندما حاولَ محمّدٌ إقناعهم بالإيمانِ بوحيهِ كانَ عليهم أن يقولوا: {أم يقولونَ تقوّلَهُ بل لا يؤمنون} [سورة الطّور، 33] الفترةُ الزمنيّةُ التي تسبقُ ظهورَ محمّدٍ مباشرةً شهدت ظهورَ فرقةٍ لاهوتيّةٍ موحّدةٍ كانت تسمّى الأحناف، وهيَ عبارةٌ عن مجموعةٍ منَ المصلحينَ الأتقياءِ الذينَ رفضوا وثنيّةَ أقوامهم وعبادتهم للأصنام، ودافعوا عن عبادةِ الإلهِ الواحدِ الحقيقيّ. من أهمِّ الروّادِ والشخصيّاتِ المحوريّةِ في هذهِ الفرقة كانَ ورقةُ بنُ نوفل، عبيدُ اللهِ بنُ جحش، عثمانُ بنُ الحويرث، وزيدُ بنُ عَمْرو [بن نُفَيل]. وهناكَ أخبارٌ تاريخيّةٌ تخبرنا كيفَ أنَّ زيداً قد تبنّى هذا المصطلحَ «حنيف» كإشارةٍ إلى المسيحيينَ واليهودِ الذينَ حاولوا إقناعهُ للتحنّفِ واعتناقِ الحنيفيّة. كانَ زيدٌ غارقاً في ديانتهِ الوثنيّةِ إلى حدِّ الإشباع، ولم يقدر على تقبّلِ لا المسيحيّةِ ولا اليهوديّةِ فقال: ((ما معنى الحنيفيّة؟))، فأخبره اليهودُ والمسيحيّونَ بأنّها كانت مِلّةَ إبراهيمَ الذي لم يعبد سوى إلهٍ واحد، فأجابهم بأن أقسمَ وأشهدَ على نفسهِ بألّا يتّبعَ إلّا ملّةَ إبراهيم. يوردُ ابنُ هشام أحدُ كبارِ المؤرّخينَ لسيرةِ محمّد وأكثرهم موثوقيّةً في كتابهِ «سيرة

رسول الله» [ج1، ص76-77] روايةً مثيرةً عن الأحناف، حيثُ أنّهُ يخبرنا ما يلي: ((فأمّا ورقةُ بنُ نوفل فاستحكمَ في النصرانيّةِ واتّبعَ الكتبَ من أهلها حتّى عَلِمَ علماً من أهلِ الكتاب)). وقد يخبرنا المسلمونَ المطّلعونَ أكثرَ من ذلك، بأنَّ ورقةَ هذا كانَ ابنَ عمِّ خديجةَ زوجةِ محمّد، وأنّهُ قد ترجمَ الإنجيلَ إلى اللغةِ العربيّة. ومن خلالِ هذهِ الحقائقِ المثيرة، بإمكاننا استنتاجُ نتيجةٍ أو نتيجتينِ في غايةِ الأهمّيّة؛ النتيجةُ الأولى هيَ أنَّ محمّداً كانَ قد التقى ورقةَ عدّةَ مرّاتٍ أو أنّهُ كانَ يلتقي بهِ ويتعاملُ معهُ بشكلٍ متكرّر، أمّا النتيجةُ الثّانية فهيَ أنّهُ كانَ من السّهلِ جدّاً الاطّلاعُ على موضوعِ وحدةِ الإلهِ من خلالِ التفاعلِ مع هؤلاءِ الحنفاء [للدراسةِ نقديّةِ أكثرَ تفصيلاً حولَ علاقةِ محمّدٍ بالحنفاء راجع: Sell s "Essays in Islam"، pp. 241-50 وأيضاً Kuenen s "Hibbert Lectures"، for 1882، p. 21]، لكن يمكننا أن نكونَ متأكّدينَ من أمرٍ واحدٍ على الأقلّ، أنَّ محمّداً كانَ مديناً لهم جدّاً لِما أخذهُ من أفكارهم ومعتقداتهم اللاّهوتيّة، لدرجةِ أنّهُ عندما بدأ بدعوتهِ، كانَ قد تبنّى الكلمةَ ذاتها بوصفها وصفاً أساسيّاً في نقاشاتهِ، ومرّةً بعدَ أخرى، أكّدَ أنّهُ قد أُرسِلَ لتبليغِ ديانةِ إبراهيم، الذي قدّمهُ بصفتهِ حنيفاً. ونكتفي هنا بإيرادِ آيتين [انظر أيضاً سورة الحجّ: 77، سورة النّحل: 124، سورة البقرة: 129، وسورة النّساء: 124] من سورةِ الأنعام 162، حيثُ يقولُ النبيّ: {قل إنّي هداني ربّي إلى صراطٍ مستقيمٍ ديناً قيّماً مِلّةَ إبراهيمَ حنيفاً} وفي سورةِ آلِ عمران 89 نقرأُ مرّةً ثانية {فاتبعوا ملّةَ إبراهيمَ حنيفاً}لا يقتصرُ الأمرُ بأنَّ فكرةَ الإلهِ الواحدِ كانت معروفةً ومنتشرةً على نطاقٍ واسعٍ بينَ معاصري محمّد، بل إنّها حقيقةٌ غيرُ قابلةٍ للدّحضِ والتفنيدِ بأنَّ أغلبَ الطقوسِ والشّعائرِ المرتبطةِ بحجِّ محمّد_والتي زعمَ بأنّها قد أُنزِلَت إليهِ عن طريقِ الوحي_ أيضاً كانت موجودةً قبلَ عهدهِ بزمنٍ بعيد، وكانت تؤدّى بشكلٍ متكرّرٍ من قبلِ العربِ الوثنيين، ويقرُّ المؤرّخُ الإسلاميُّ الشهيرُ أبو الفداء بهذهِ الحقائق، حيثُ أنّنا نقرأُ في تاريخهِ الكبير [Hist. Ante-Islamica (ed. Fleischer)، p.180] ((كانوا [عربُ ما قبلِ الإسلام] يؤدّونَ فريضةَ الحجِّ إلى الكعبة، حيثُ كانوا يؤدّونَ مناسكَ العمرةِ والإحرام، كما أنّهم كانوا يؤدّونَ الطوافَ [حولَ الكعبة]، والجريَ بينَ جبليِ الصفا والمروة، ورميَ الحجارة، وفي نهايةِ كلِّ ثلاثِ سنوات يقضونَ شهراً في عزلةٍ متزهّدة... كما أنّهم أجروا عمليّاتِ الختان، وقاموا بقطعِ اليدِ اليمنى للسارقين)) هذهِ الشهادةُ من أبي الفداء لا تتركُ أيَّ مجالٍ للشّكِّ بأنَّ جميعَ هذهِ الشّعائرِ

والممارسات، بالإضافةِ إلى العديدِ منَ الطقوسِ الشعائريّةِ التي ذكرها، كانت موجودةً قبلَ عهدِ محمّد، وقد استعارها بكلِّ بساطةٍ ودمجها في منظومتِهِ العقائديّةِ الجديدةِ على أنّها وحيٌ مباشرٌ من عندِ الله. وحتّى أتباعهُ المقرّبون وجدوا صعوبةً في التوفيقِ بينَ الإبقاءِ على هذهِ الشّعائرِ والممارساتِ الوثنيّةِ وبينَ النّظامِ اللاّهوتيِّ التوحيديّ، وهناكَ حديثٌ نقلهُ لنا المؤرّخونَ المسلمون وردَ فيهِ أنَّ ((عمرَ بنَ الخطّاب رضيَ الله عنه قد قبّلَ الحجرَ الأسود، ثمَّ قال: أم واللهِ لقد علمتُ أنّكَ حجرٌ ولولا أنّي رأيتُ رسولَ اللهِ صلّى الله عليهِ وسلم يقبّلكَ ما قبّلتك)). لكنَّ محمّداً لم يقصر حجّهُ على العرب، فرحلاتهُ إلى سوريا وأماكنَ مختلفة ساعدتهُ على الاحتكاكِ مع العديدِ منَ الفرسِ وآخرينَ من شعوبٍ أخرى، حيثُ تبنّى العديدَ من أفكارهم ومفاهيمهم الدينيّةِ المتعلّقةِ بالجنّةِ والنّار، الثّوابِ والعقاب، التي ظهرت طلائعها، ثمَّ تعدّلت وتكيّفت باللهجةِ العربيّةِ الصّافيةِ لقبيلةِ قريش كجزءٍ منَ الوحيِ المنزّلِ إليهِ عن طريقِ الملاكِ جبريل. يوردُ ابنُ هشام، واضعُ السيرةِ النبويّةِ لمحمّد، واحداً من هؤلاءِ وبالاسم: سلمان [الفارسي]، الذي أصبحَ فيما بعدُ مشهوراً بوصفهِ أحدَ صحابةِ النبيِّ المقرّبين. في شبهِ الجزيرةِ العربيّة، كانَ محمّدٌ لديهِ الكثيرُ منَ الفرصِ لتعلّمِ حكاياتِ وأساطيرِ الفرسِ ويتعرّفَ عليها، إذ أنَّ الفرسَ قد مارسوا تأثيرهم في تلكَ الأرضِ منذُ زمنٍ بعيد.

في زمنٍ ما سابقٍ على عهدِ محمّد حكمت سلالةٌ منَ الحكّامِ الفرسِ منطقةَ الحيرة، «العراقَ واليمن». ويذكرُ المؤرّخُ العربيُّ أبو الفداءِ ثمانيةَ أمراءِ فرس قاموا بحكمِ اليمن، والأثرُ الذي تركهُ الغزاةُ المثقّفونَ على العرب لم يكن ضئيلاً، بل على العكس، هناكَ دليلٌ دامغٌ في التّاريخِ العربيِّ يثبتُ أنَّ الأساطيرَ والأشعارَ التي قالها الفرسُ معروفةٌ جيّداً بينَ العرب، وهناكَ مثالٌ مثيرٌ يمكنُ العثورُ عليهِ في كتابِ ابنِ هشام. يخبرنا الكاتبُ أنّهُ خلالَ الأيّامِ الأولى للإسلام لم تكن القصصُ والرّواياتُ الفارسيّةُ هيَ الوحيدةَ الموجودةَ في المدينة، لكنَّ قريشاً كانت تتميّزُ عبادتها في مقارنةِ رواياتها وقصصها مع تلكَ الموجودةِ في القرآن، ويخبرنا ابنُ هشام عن أحدِ هؤلاءِ القرشيّين، وهوَ النضرُ بنُ الحارث، عندما وقفَ أمامَ قريش وقصَّ عليهم قصصاً ورواياتٍ عن ملوكِ الفرس، ثمَّ تابعَ قائلاً: ((واللهِ ما محمّدٌ بأحسنِ حديثاً منّي وما حديثهُ إلّا أساطيرُ الأوّلين كتبهُ كما أكتبه))، مؤلّفُ كتابِ «روضةِ الأحباب» كانَ أكثرَ نزاهةً وصراحةً حتّى، إذ أنّهُ يخبرنا أنّهُ كانَ من عادةِ النبيِّ التحدّثُ مع أفرادِ كلِّ أمّةٍ من زوّارهِ بألسنتهم، ومن هنا

جاءَ إدخالُ بعضِ الكلماتِ الفارسيّةِ إلى اللغةِ العربيّة)) هذا الاعترافُ الخطيرُ والفاضحُ يقدّمُ لنا مفتاحاً لفهمِ المزيدِ عن القرآنِ الذي في حالةٍ أخرى سيكونُ مبهماً ومستعصياً على الفهم، إذ منَ الواضحِ أنّهُ يقدّمُ لنا إشارةً على مصدرِ العديدِ منَ الكلماتِ والمفاهيمِ الفارسيّةِ التي يمكنُ إيجادها فيه. أيُّ مقارنةٍ بسيطةٍ ما بينَ الكوزمولوجيا الزرادشتيّةِ وبينَ القصصِ والأساطيرِ عن الجنّةِ والنّار، الموتِ والحساب، التي تزخرفُ الآنَ صفحاتِ القرآن، لن تتركَ أيَّ مجالٍ للشكِّ أنَّ محمّداً قد تعلّمها منَ الفرسِ الذينَ تعاملَ معهم واحتكَّ بهم، ثمَّ قدّمها للعربِ الجهلةِ بلغتهِ الخاصّة بوصفها وحياً من عندِ الله. المفاهيمُ التي استعيرت منَ الزرادشتيّةِ يمكنُ إرجاعها بشكلٍ عام إلى وجودِ الكلماتِ الفارسيّةِ في الرواياتِ والقصصِ التي تحتويها، إذ منَ المنطقيِّ جدّاً أن نتوصّلَ إلى النتيجةِ التالية، بأنّهُ إذا كانت الكلمةُ المستخدمةُ لوصفِ أيِّ مفهومٍ دينيٍّ مجهولٍ وغيرِ معروف حتّى اللحظة على أنّهُ فارسيُّ المصدر، عندئذٍ يكونُ المفهومُ نفسهُ مشتقّاً من ذلكَ المصدر. والآن، إنّها لحقيقةٌ مثيرةٌ أن نجدَ أنَّ الكتابَ الذي لطالما وصفهُ محمّدٌ بأنّهُ «قرآنٌ عربيٌّ مبين» [أو نزلَ بلسانٍ عربيٍّ مبين]، هوَ في الحقيقةِ كتابٌ مليءٌ بالكلماتِ الأجنبيّةِ والغريبةِ التي تجسّدُ المفاهيمَ الموجودةَ في ذاتِ المنظوماتِ العقائديّةِ التي أُخِذَت منها تلكَ الكلمات، والاستنتاجُ واضحٌ هنا جدّاً، بأنَّ المفاهيم ذاتها كانت مستعارةً أيضاً. ونتابعُ الآن لنقدّمَ لكم مثالينِ أو ثلاثةَ أمثلةٍ على سبيلِ البرهان، كلُّ مسلمٍ يعرفُ قصّةَ ليلةِ المعراجِ التي عرجَ فيها محمّدٌ إلى السّماء، إلّا أنَّ القرآنَ يشيرُ بطريقةٍ مختصرةٍ جدّاً ومقتضبة لهذهِ الليلةِ العجيبة، حيثُ أنّنا نقرأُ في سورةِ بني إسرائيل [الإسراء]: {سبحانَ الذي أسرى بعبدِهِ ليلاً منَ المسجدِ الحرامِ إلى المسجدِ الأقصى الذي باركنا حولهُ لنريهِ من آياتنا} وهناكَ إشارةٌ أخرى في الآيةِ رقم 60 من نفسِ السّورة تصفُ نفسَ الحدث، حيثُ نقرأ {وما جعلنا الرؤيةَ التي أريناكَ إلّا فتنةً للنّاس} هذا التصريحُ الأخير...، فالمفسّرونَ المحمّديونَ وكتبةُ الأحاديثِ مسرورونَ ليرسموا بوضوحٍ وتفصيلٍ رحلةً ليليّةً-جسديّةً إلى السّماءِ على ظهرِ بغلٍ طائر، ليسَ إلى المسجدِ الأقصى فحسب، بل إلى السّماء، حيثُ عرجَ النبيُّ من قصّةٍ إلى أخرى، حتّى وصلَ إلى حضرةِ الله وتعلّمَ منهُ العديدَ من أسرارِ السّماء. لابدَّ أنَّ محمّداً قد استقى هذهِ القصّةَ منَ الفارسيّين، إذ أنّنا نجدُ في أسطورةِ «أرتا فيراف نامك» التي كُتِبَت قبلَ محمّدٍ بأربعمائةِ عام قصّةً مماثلة، متشابهةً في العديدِ منَ التفاصيلِ والأفكار، نقرأُ عن كاهنٍ مجوسيٍّ شابٍّ يعيشُ حياةً تقيّةً

وزاهدة، يصعدُ إلى السّماءِ بإرشادِ من ملاكٍ مرافقٍ لهُ، وبعدَ أن يعبرَ جميعَ طبقاتِ السّماء يصلُ إلى حضرةِ الإلهِ ويشاهدُ جميعَ مُتَعِ ومباهجِ السّماء، يعودُ إلى الأرضِ ليخبرَ الزرادشتيّينَ عمّا رآهُ هناكَ في الأعلى [Chapter vii. §§ 1-4، quoted in Tisdall s "Sources of the Qur an"، p. 227 et seq.].

قصصُ القرآنِ وروايتهُ عن الحُورِ العين/ حوريّاتِ الفردوس مأخوذةٌ أيضاً عن الفارسيّن، كلُّ قارئٍ للقرآن على اطّلاعٍ بالصّورِ الحسّيّةِ للفردوسِ القرآني، وبالحُورِ العينِ ذواتِ العيونِ السّودِ الممدّداتِ على الأرائك، ينتظرنَ عناقَ المؤمنينَ الأتقياء. ونختارُ صورةً من بينِ العديدِ منَ الصّورِ الحسّيّةِ من سورةِ الرّحمن 46_76: {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * ذَوَاتَا أَفْنَانٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ * وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دانٍ * فبأيّ آلاءِ ربّكما تكذّبانِ * فيهنّ قاصراتُ الطّرفِ لم يطمِثْهُنّ إنسٌ من قبلهم ولا جان * فبأيّ آلاءِ ربّكما تكذّبان * كأنّهنّ الياقوتُ والمرجان * فبأيّ آلاءِ ربّكما تكذّبان * هل جزاءُ الإحسانِ إلا الإحسان * فبأيّ آلاءِ ربّكما تكذّبان * ومن دونهما جنّتان * فبأيّ آلاءِ ربّكما تكذّبان * مُدهامّتانِ * فبأيّ آلاءِ ربّكما تكذّبان * فيهما عينان نضّاختان * فبأيّ آلاءِ ربّكما تكذّبان * فيهما فاكهةٌ ونخلٌ ورمّان * فبأيّ آلاءِ ربّكما تكذّبان * فيهنّ خيراتٌ حِسانٌ *فبأيّ آلاءِ ربّكما تكذّبان * حورٌ مقصوراتٌ في الخيام * فبأيّ آلاءِ ربّكما تكذّبان * لم يطمثهنّ إنسٌ قبلهم ولا جان * فبأيّ آلاءِ ربّكما تكذّبان * متكئين على رَفرَفٍ خُضرٍ وعبقريٍّ حسان} لقد بيّنَ العديدُ منَ الكتّابِ والباحثينَ أنَّ هذهِ القصصَ عن الحوريّاتِ مشتقّةٌ منَ الأساطيرِ الفارسيّةِ القديمةِ عن الأرواحِ الأنثويّةِ النقيّةِ والجميلةِ التي تسكنُ الفردوسَ والتي تأسرُ قلوبَ الرجال. هذهِ الأرواحُ الجميلةُ التي كانت تسمّى «بيراكات»، لابدَّ أنَّ محمّداً قد سمعَ بها عن طريقِ الأغاني الفارسيّةِ أو القصصِ والروايات، حتّى أنَّ كلمةَ «حُور» بالذّات، التي وردت في القرآن، هيَ ذاتُ أصلٍ فارسي، وهيَ مشتقّةٌ منَ اللفظةِ الفهلويّةِ «حُور» والتي تعني «الضّوء»، وذلكَ كافٍ لأن يدلّنا على مصدرِ القصّةِ بكاملها [لمناقشةٍ مفصّلةٍ ومتعمّقةٍ أكثرَ حولَ اشتقاقِ هذهِ الكلمة، انظر "Tisdall s Religion of the Crescent"، p. 171]. ونفسُ الشيءِ يمكنُ أن يقالَ عن الخرافاتِ القرآنيّةِ المتعلّقةِ «بالجنّ» أو «الأرواحِ

الشريرة»، إذ أنَّ أصلها الفارسيَّ _وأنّها مشتقّةٌ من اللفظةِ الأفستيّةِ «جاينا»_ يوضّحُ لنا أنَّ هذا المفهومَ مشتقٌّ أيضاً منَ الفرسِ الذينَ تحتوي كتبهم على قصصٍ وأساطيرَ مماثلة. هناكَ العديدُ منَ التماثلاتِ المشابهةِ يمكنُ الإشارةُ إليها بينَ الميثولوجيا الزرادشتيّةِ وقصصِ القرآن، لكن قد سبقَ وكُتِبَ الكثيرُ لإثباتِ أنَّ المصادرَ التي استمدَّ منها القرآنُ مفاهيمهُ وتعلّمَ محمّدٌ رواياته، كانت الفُرسَ الذين التقاهم واحتكَّ بهم، فكلمةُ «فِرْدَوْس» نفسها المستخدمةُ في مواضعَ عديدةٍ في القرآن، هيَ ذاتُ أصلٍ فارسيّ، على غرارِ بعضِ الكلماتِ الأخرى التي استخدمها محمّدٌ ليصفَ مفاهيمَ استعارها من الفُرس. ويقدّمُ لنا المؤرّخُ الإسلاميُّ أبو الفداء بعضَ النقاطِ والمفاهيمِ المحدّدةِ عن طائفةٍ معيّنةٍ مذكورةٍ أكثرَ من مرّةٍ في القرآن، معروفةٍ باسمِ «الصّابئة» [Hist. Ante-Islamica" (ed. Fleisher")، p. 148، quoted in Tisdall s "Religion of the Crescent"، p. 143.]، فهوَ يخبرنا أنّهم _من بينِ أشياءَ أخرى_ كانت لديهم سبعُ صلواتٍ في اليوم، خمسةٌ من هذهِ الصّلواتِ تتطابقُ تماماً مع صلواتِ المسلمينَ الخمس، وكما يتّضحُ من إشاراتِ محمّدٍ العديدةِ إلى الصّابئة بأنّهُ كانَ على اتصالٍ قريبٍ معهم، وعلى الأرجحِ أنَّ النبيَّ قد أخذَ عنهم هذهِ الطقوسَ التي باتت سائدةً الآنَ في العالمِ الإسلامي. الحقائقُ المذكورةُ في الأعلى معروفةٌ بشكلٍ جيّدٍ وعلى نطاقٍ واسع، حيثُ أنَّ الفقهاءَ المحمّديّينَ لا يواجهونَ أيّةَ مشكلةٍ في الاعترافِ بتأثيرِ الفكرِ المعاصرِ لمحمّد على أساسِ القرآنِ وتكوينه. ويقرُّ السير سعيد أحمد قائلاً: ((لا شكَّ أنّهُ في سورِ الفترةِ المتوسّطة، وقبلَ أن يكونَ عقلُ المعلّمِ قد وصلَ إلى مرحلةِ تطوّرِ وعيهِ الدينيِّ الكامل، وعندما كانَ منَ الضروريِّ تشكيلُ لغةٍ واضحةٍ وجليّةٍ للعوامِ من سكّانِ الصحراء، جذبت الأوصافُ الواقعيّةُ للجنّةِ والنّار، المستعارةُ منَ الفنتازيا الميثولوجيّةِ للزرادشتيّينَ والصّابئةِ واليهودِ التلموديّين، اهتمامَ هؤلاءِ البدو، وأصبحت لاحقاً الأساسَ والجوهرَ الفعليَّ لدينهم _عبادةُ اللهِ في الإنسانيّةِ والمحبّة. فالحوريّاتُ هيَ مخلوقاتٌ ذاتُ أصلٍ زرادشتي، وكذلكَ الجنّة «الفِرْدَوْس» بالفارسيّة، أمّا الجحيم، حيثُ العذابُ الأبديّ، فهوَ تلموديُّ المصدر)) ["Spirit of Islam" (ed. Calcutta، 1902)، pp. 235-6] لكن إذا كانت الحقيقةُ كما مرَّ معنا في الأعلى، فلنا أن نتساءل: كيفَ يمكنُ قبولُ القرآنِ بأنّهُ كلامُ الله، الموجودُ منذُ الأزلِ والمنزّلُ على محمّدٍ عن طريقِ الملاكِ جبريل؟ وقد أُثبِتَ عكسُ ذلك، بأنَّ النبيَّ محمّد قد استعارَ الكثيرَ منَ الأفكارِ

والمفاهيمِ والمعتقداتِ عن الحنفاءِ، الصّابئينَ، الزرادشتيّينَ، وغيرهم أيضاً، ونحنُ نفترضُ أيضاً أنَّ باقي محتوياتِ القرآن مستعارةٌ أيضاً، وهذا ما سنتابعُ إثباتهُ في الفصولِ التّالية.

المعتقداتُ والطقوسُ اليهوديّةُ المُدمَجةُ في القرآن:

في حينِ أنَّ دراسةً متعمّقةً للقرآن تبيّنُ بما لا يدعُ أيَّ مجالٍ للشّكّ أنَّ محمّداً قد استعارَ الكثيرَ منَ الأفكارِ والمفاهيمِ من معاصريهِ منَ الوثنيّينَ العرب، كما أنّهُ أدخلَ في منظومتهِ العقائديّةِ الكثيرَ منَ المفاهيمِ والمعتقداتِ المسيحيّة، إلّا أنَّ بحثاً مستفيضاً في مصادرِ القرآن، يكشفُ حقيقةَ أنَّ الإسلامَ ـ بشكلٍ رئيسيٍ ـ يعدُّ أكثرَ من مجرّدِ يهوديّةٍ تلموديّة، إضافةً إلى التأكيدِ بنبوّةِ محمّدٍ ورسالته. ونتقدّمُ هنا في هذا الفصلِ لإثباتِ حقيقةِ هذا التأكيد.

يمكنُ القول أنَّ محمّداً كانت أمامهُ فرصةٌ سانحةٌ للالتقاءِ باليهودِ والتفاعلِ معهم، هؤلاءِ الذينَ كانَ منَ الممكنِ أن يتعلّمَ منهم القصصَ والأساطيرَ الموجودةَ عندهم والمتعلّقةَ بالآباءِ والبطاركةِ الأوائلِ وكثيرينَ غيرهم [راجع كتاب غايغر: اليهوديّة والإسلام 1833، ص27 ((Was hat Muhammad aus dem Judenthume aufgenommen))]. وأيُّ مقارنةٍ لهذهِ القصصِ والرّواياتِ كما وردت في القرآنِ مع التحويراتِ التلموديّةِ التّواريخ الكتابيّة، سيبيّنُ أنَّ يهودَ مكّةَ والمدينة قد لقّنوا أساطيرهم وقصصهم لمحمّد، الذي بدورهِ أعادَ قصّها ورواياتها للعربِ الجهلةِ على أنّها «وحيٌ» من عندِ الله، وعلينا أن نذكّرَ بأنَّ التلمودَ كانَ قد اكتملَ جمعهُ قبلَ قرنٍ من عهدِ محمّد، ولا بدَّ أنّهُ قد تركَ تأثيرهُ على المذهبِ الدينيِّ لجميعِ اليهودِ في شبهِ الجزيرةِ العربيّة. حيثُ يتحدّثُ محمّد في آيةٍ منَ القرآن عن شخصٍ يهوديٍّ شهدَ على مهمّتهِ، وإذا كنّا نقرأُ في أغلبِ هذهِ الآياتِ عن جدالاتهِ ومناظراتهِ معهم، يبدو منَ الواضحِ أنّهُ، في موضعٍ واحدٍ على الأقلّ، تربطهُ معهم علاقةُ صداقةٍ حميميّة، لذا باتَ منَ السّهلِ فهمُ من أينَ أخذَ محمّدٌ رواياتهُ وأساطيرهُ اليهوديّة، حيثُ استمعَ لها، ثمَّ تبنّاها وصاغها لتناسبَ الأذنَ العربيّة. لاشكَّ أنَّ محمّداً كانَ معروفاً عنهُ مساءلتهُ اليهودَ في كلِّ ما يتعلّقُ بدينهم، وقد نقلَ لنا رواةُ الحديثِ وناقلو الأخبارِ منَ المسلمين حديثاً عن ذلكَ الأثر: ((قالَ ابنُ عبّاس فلمّا سألهم النبي صلعم عن شيءٍ من أهلِ الكتابِ فكتموهُ إيّاهُ وأخبروهُ بغيرهِ فخرجوا........)) والأهمُّ من ذلك ما زالت حقيقةُ أنَّ محمّداً قد استثنى نفسهُ من هذهِ الاستعارةِ لهذهِ الموادِ من

أجلِ قصصهِ ورواياته، من خلالِ التظاهرِ بأنّهُ قد تلقّى وحياً منَ الله يأمرهُ بفعلِ ذلك. حيثُ أنّنا نقرأُ في سورةِ يونس ما يلي: {فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ} [سورة يونس 10: 94] ويخبرنا المؤرّخُ الطّبريّ بأنّ خديجة (أوّلُ زوجةٍ من زوجاتِ النبيّ) كانت قد قرأت الكتبَ المقدّسةَ السّابقة واطلعت عليها (كتبُ الأوّلين)، وكانت تعرفُ قصصَ الأنبياءِ الأوائل. والآن بتنا نعرفُ أنّ محمّداً عاشَ مع خديجة حوالي خمسةَ عشرَ عاماً قبلَ أن يعلنَ عن نبوّتهِ. وعلينا أن نتذكّرَ جيّداً أنّهُ وخلالَ تلكَ الفترةِ كلّها كانت على صلةٍ قريبةٍ واحتكاكٍ مباشرٍ مع القسّ ورقة بن نوفل، الذي كانَ بدورهِ متحنّفاً ومسيحيّاً في آنٍ معاً، كما أنّهُ قد عملَ على ترجمةِ الكتابِ المقدّسِ المسيحيِّ إلى اللغةِ العربيّة، لذا لم تعد هناكَ صعوبةٌ كبيرةٌ في استنتاجِ من أينَ حصّلَ محمّدٌ معرفتهُ بالقصصِ والرواياتِ الرابانيّةِ اليهوديّة. والآن سأوردُ أمثلةً عن الكيفيّةِ التي استقى محمّدٌ بها القصصَ من التّاريخِ اليهودي، التي كانت شائعةً ومنتشرةً جدّاً بينَ معاصريه، لكن قبلَ أن أقومَ بذلك، سيكونُ منَ الضروريِّ جدّاً توضيحُ الصّورةِ من خلالِ التنويهِ إلى وضعِ الفكرِ والثقافةِ اليهوديّةِ في شبهِ الجزيرةِ العربيّة زمنَ محمّد. كانَ اليهودُ، وخصوصاً في الأماكنِ والمناطقِ المجاورةِ للمدينة، كثيرينَ جدّاً، كما أنّهم كانوا يمتلكونَ الكثيرَ منَ السُّلطة، لكنَّ دراسةَ العهدِ القديم، وكانت قد ترافقت معها بدراسةِ التلمودِ اليهوديّ، والكتابُ الأخيرُ كانَ عبارةً عن تجميعٍ غيرِ منظّمٍ وعشوائيٍّ للتأمّلاتِ الرابانيّة، تفسيرات، تعليقات، وأحاديثَ تراثيّةٍ متعلقةٍ بالكتابِ المقدّسِ اليهودي. كانت هذهِ الموسوعةُ الكبيرةُ منَ الشّرائعِ والأحاديثِ اليهوديّة، بمثابةِ سجلٍّ لأفكارِ ومعتقداتِ الشعبِ اليهوديِّ على مدى آلافِ السنوات، وكانت تحتوي المعتقداتِ العامّةَ والتّراثَ الشفهيَّ لشعبٍ عريقٍ وقديمٍ موجودٍ منذُ آلافِ السنين، لكنّها كانت بمثابةِ «فوضى أدبيّة» من دونِ أيِّ تنظيم، وغيرَ مؤرّخة، ومليئةً بالخيالاتِ الصبيانيّةِ والقصصِ الطفوليّة. وكانَ ذلكَ هوَ أساسَ الفكرِ اليهوديِّ زمنَ محمّد، كما أنّ قصصَ التلمودِ ورواياتهِ المنحولة تطربُ عقولَ وآذانَ الجمهورِ اليهوديّ، وتمهّدُ الأرضَ لتدريسها وتعليمها في المدارسِ الدينيّةِ اليهوديّة [المدراش]. من هنا لم يكن التوراةُ هوَ الكتابَ الذي أخذَ منهُ محمّدٌ معلوماتهُ وقصصه، وإنّما كانَ التلمود، وقد استطاعَ محمّدٌ الوصولَ إلى تلكَ المعلوماتِ عن طريقِ تفاعلهِ مع اليهود، وستتابعُ مناقشةَ قصصِ ورواياتِ البطاركةِ والآباءِ والتفاصيلِ الأخرى الواردةِ في القرآن والمتوافقةِ مع أساطيرِ

الهاغادا أكثرَ منَ الكتابِ المقدّس. في سورةِ المائدة هناكَ قصّةٌ مثيرةٌ حولَ قابين وهابيل، وفي الآيةِ رقم 34 تردُ حادثةُ قتلِ قابينَ لهابيل، وبعدَ أن قتلَ الأخُ أخاه تقولُ الآية: {فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ} [سورة المائدة 31] وكلُّ دارسٍ للتوراة يعرفُ أنَّ هذهِ القصّةَ غيرُ موجودةٍ في الروايةِ التي وردت في كتابِ موسى، لكن ليسَ هناكَ أدنى شكٌّ أنّنا نعرفُ من أينَ استقى محمّدٌ هذهِ الأسطورة، فهناكَ كتابٌ رابّانيٌّ يسمّى «ترجوم يوناثان» لفرقي رابي أليعازر، الفصل 21، وردَ فيهِ ما يلي: ((جلسَ آدمُ وزوجتهُ يبكيانِ وينوحانِ عليه [هابيل]، ولم يعرفا ما الذي سيفعلانِ به، فالدّينُ لم يكن معروفاً لهما، ثمَّ جاءَ غرابٌ، ماتَ صاحبهُ، فأخذَ جسدهُ، وحفرَ في الأرضِ، ووضعهُ في الحفرةِ أمامَ أعينهما، ثمَّ قالَ آدم: عليَّ أن أفعلَ مثلما فعلَ الغراب، فأخذَ على الفورِ جثّةَ هابيل، حفرَ الأرضَ، ووضعَ جثّتهُ في الحفرة)) [Tisdall، "The Sources of the Qur an"، p. 63] ومن خلالِ مقارنةِ بينَ هذينِ المقطعين يتّضحُ لنا أنَّ محمّداً قد سمعَ قصّةَ دفنِ هابيلَ منَ اليهودِ كما هيَ واردةٌ في الكتبِ الرابانيّة، واعتقدَ أنّها مستقاةٌ منَ الكتابِ المقدّس، فأخذها كذلكَ وأضافَ إليها بعضَ التعديلات، ثمَّ زعمَ أنّها أوحيت لهُ من عندِ الله. القرآنُ مليءٌ بقصصٍ عن البطريركِ الكبيرِ إبراهيم. هذهِ الأمثلةُ المتعددةُ تتناقضُ وبشكلٍ صارخٍ مع القصّةِ التوراتيّة، لكن بمقارنتها مع الأساطيرِ الرابانيّةِ لليهود، نجدُ من دونِ أدنى شكٍّ أنَّ محمّداً قد تعلّمها من هؤلاءِ خلالَ تفاعلهِ القريبِ معهم. حيثُ أنّهُ وفي مواضعَ كثيرةٍ في القرآن نقرأُ قصّةَ إبراهيمَ ورميهِ في النّارِ من قبلِ أحدِ الملوك (وقد أطلقَ عليهِ الشرّاحُ والمفسّرونَ اسمَ «نمرود») لأنَّ إبراهيمَ رفضَ عبادةَ الأصنام، وقد جاءَ في سورةِ الأنبياء: آية رقم 69-70 {قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ... وَنَجَّيْنَاهُ} والآن إنّها الحقيقةُ مثيرةٌ للفضولِ والاهتمام عندما نعرفُ أنَّ هذهِ الأسطورةَ، والتي لا أساسَ لها في الكتابِ المقدّس، موجودةٌ بكلّيّتها في كتابٍ لليهود عنوانهُ «مدراش ربّا» [Geiger s "Judaism and Islam"، p. 96]. ونقرأُ في التوراةِ أنَّ البطريركَ إبراهيم قبلَ دخولهِ إلى أرضِ كنعان، كانَ يسكنُ في مدينةٍ اسمها «أورُ الكلدانيّين»، لكنَّ اللهَ أخرجهُ منها وأرشدهُ إلى أرضِ الميعاد. لذلكَ نقرأُ في سفرِ التكوين، الإصحاحِ الخامسَ عشر، مقطع رقم 7 ((أَنَا الرَّبُّ الَّذِي أَخْرَجَكَ مِنْ أُورِ الْكَلْدَانِيِّينَ)). منَ الواضحِ أنَّ هذهِ المدينةَ لم تكن معروفةً للكاتبِ اليهوديِّ الجاهلِ الذي كتبَ المدراشَ المذكورَ أعلاه، إذ أنّهُ

في معرضِ تفسيرِهِ لهذا المقطعِ أخذَ كلمةَ «أور»، والتي تعني «نار» أيضاً، بمعناها الحرفيّ، واعتقدَ أنَّ اللهَ قد أخرجَ البطريركَ إبراهيم من النّار، لذلكَ، ولتفسيرِ هذهِ الآية، ((أَنَا الرَّبُّ الَّذِي أَخْرَجَكَ مِنْ أُورِ الْكَلْدَانِيِّينَ))، تمّ تأليفُ روايةٍ بكاملها عن إبراهيمَ الذي رماهُ الملكُ نمرودُ في النّار، وأخرجهُ اللهُ منها بطريقةٍ عجائبيّة. الرّوايةُ موجودةٌ بكاملها في مدراش ربّا الذي أشرنا إليهِ سابقاً، وكانت هذهِ الأسطورةُ معروفةً على نطاقٍ واسعٍ بينَ اليهودِ العرب زمنَ محمّد، وقد وردَ فيها: ((والآن وقد حدثَ ذلكَ عندما رمى نمرودُ إبراهيمَ في أتونٍ منَ النّار، لأنّهُ رفضَ عبادةَ الأصنام، وهذا حالَ بينهُ وبينَ النّارِ من أذيّته)) باتَ القارئُ الآنَ يفهمُ المصدرَ الذي جاءت منهُ هذهِ القصّةُ كما تبدو في القرآن، فالكاتبُ الذي منَ الواضحِ أنّهُ كانَ يجهلُ المعنى الحقيقيَّ لكلماتِ المفسّرِ اليهوديِّ التي أشرنا لها سابقاً، وإذا كانت هناكَ ضرورةٌ لأيِّ دليلٍ ذي طبيعةٍ غيرِ تاريخيّةٍ على الإطلاق لهذهِ الرّواية، فيمكنُ العثورُ عليهِ في حقيقةِ أنَّ النمرودَ لم يكن معاصراً لإبراهيمَ بتاتاً، بل سبقهُ بسنواتٍ عديدة. هناكَ روايةٌ قرآنيّةٌ أخرى ذاتُ أصولٍ يهوديّةٍ بلا أدنى شكٍّ موجودةٌ في سورةِ طه آية رقم 88 تتحدّثُ عن العجلِ الذي عبدهُ الإسرائيليّونَ خلالَ فترةِ غيابِ موسى على جبلِ سيناء. إذ تخبرنا القصّةُ أنَّ النّاسَ جلبوا ممتلكاتهم وحليّهم منَ الذهبِ والفضّةِ وألقوا بها في النّار، {فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ}. منَ المعروفِ جيّداً أنَّ التوراةَ لا تتضمّنُ أيَّ ذكرٍ للعجلِ الذهبيِّ ذي الخوار، لكنَّ الأساطيرَ الرابانيّةَ غيرُ مرغوبةٍ بالطريقةِ التي وردت فيها والتي اقتبسها محمّد. إذن، نقرأُ في كتابِ فرقي رابي أليعازر أنَّ ((العجلَ خارَ بصخبٍ، وخرجَ منَ النّار، فرآهُ بنو إسرائيل)) الرابي يهوذا ينقلُ لنا روايةً أخرى عن رجلٍ اسمهُ سامائيل خبّأَ نفسهُ داخلَ العجلِ وأصدرَ أصواتاً تشبهُ صوتَ خوارِ العجلِ ليضلّلَ أبناءَ إسرائيل. مثلُ هذهِ القصّةِ كانت شائعةً ومنتشرةً على نطاقٍ واسعٍ بينَ يهودِ شبهِ الجزيرةِ العربيّةِ زمنَ محمّد، ليجري القارئُ مقارنةً بينها وبينَ الرّوايةِ الواردةِ في القرآن وسيرى بسهولةٍ أنَّ محمّداً، باعتقادهِ أنَّ الرّوايةَ التي سمعها على لسانِ معاصريهِ منَ اليهود هيَ جزءٌ منَ الكتابِ المقدّس، فتبنّاها وقدّمها لاحقاً للعربِ الجهلاءِ مدّعياً أنّها أوحيت إليهِ منَ اللهِ–إلهه. لسوءِ الحظِّ أساءَ محمّدٌ فهمَ الإشارةِ للرجلِ سامائيل، وخلطَ اسمهُ بكلمةِ «السّامريّين»، الذينَ اعتقدَ أنّهم كانوا أعداءً لليهودِ حسبَ علمه، وهذا ما دفعهُ للظنِّ بأنَّ (السّامريَّ) [Geiger، "Judaism and Islam"، pp. 130-2] جزءٌ منَ

المشكلة، وبما أنَّ السّامريّينَ لم يكونوا موجودينَ كشعبٍ إلّا بعدَ قرونٍ منَ الحادثةِ المسجّلةِ هنا، فلابدَّ أنّها تتطلّبُ درجةً عاليةً منَ الجهلِ والسذاجةِ لتصديقها، والإيمانِ بأنَّ الروايةَ القرآنيّةَ منزّلةٌ من إلهٍ عليمٍ يعرفُ كلَّ شيء. في سورةِ النمل، الآية رقم 44 نقرأُ قصّةً طويلةً عن سليمانَ وملكةِ سبأ حيثُ وردَ فيها أنَّ الملكَ سليمان قد أرسلَ رسالةً إلى الملكةِ عن طريقِ طائرٍ دعاهُ لهذهِ المهمّةِ بالذّات. وتخبرنا القصّةُ أنَّ الملكةَ بعد أن قرأت الرسالةَ قرّرت زيارةَ الملكِ سليمان، وعندما وصلت للمملكةِ ووقفت على أعتابِ قصرِ الملك {قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ * فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا * قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ}، ولمّا سمعت ذلكَ أجابت الملكةُ كأيِّ إنسانٍ مسلم {رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} كلُّ قارئٍ ومطّلعٍ على الكتابِ المقدّسِ يعرفُ بأنَّ كلَّ هذا مجرّدُ خرافة، ولا يمكنُ أن يكونَ كلامَ الله، أمّا السؤالُ الواردُ هنا فهوَ يدورُ حولَ أصلِ هذهِ القصّةِ ومصدرها. نقرأُ في ترجومِ «كتاب إستير» - وهوَ كتابٌ رابانيٌّ مليءٌ بالخرافاتِ والقصصِ الأسطوريّة، وبنفسِ الكلماتِ غالباً- كاملَ القصّةِ كما رواها محمّد. حيثُ أنّنا نقرأُ في هذا الترجوم ((كانَ سليمانُ يعرفُ أنّها [الملكة] ستأتي، فنهضَ واستقرَّ في قصرٍ منَ الزّجاج، وعندما رأتهُ ملكةُ سبأ، ظنّت أنَّ الأرضَ كانت ماءً، لذا وأثناءَ عبورها فوقها، قامت برفعِ فستانها)) والكثيرُ يمكنُ إيرادهُ من هذا الكتاب، من بينها حادثةُ الطائرِ المرسال، لكنّني أعتقدُ أنَّ ذلكَ يكفي لتبيانِ أنَّ القصّةَ الواردةَ في القرآنِ ليست سوى قصّةٍ رابانيّةٍ تعلّمها محمّدٌ منَ اليهود، لندع القارئَ يطّلعُ على الروايةِ الواردةِ في الكتابِ المقدّس (سفر الملوك الأول: الإصحاح العاشر) فسيلاحظُ مدى الفرقِ الشّاسعِ بينَ هذهِ الروايةِ وتلك.

روايةٌ خرافيّةٌ أخرى تعلّمها محمّدٌ منَ اليهودِ وأدخلها في القرآن، وهيَ قصّةُ رفعِ الرّبِّ للجبلِ فوقَ الإسرائيليين ليُدخِلَ الرعبَ في قلوبهم، إذ أنّنا نقرأُ في سورةِ الأعراف، آية رقم 170 ما يلي: {وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ} هذهِ القصّةُ ليسَ لها أساسٌ على الإطلاقِ في الواقع، لكن يمكنُ العثورُ عليها في كرّاسةٍ دينيّةٍ يهوديّة تسمّى «عابوداه ساره»، التوراةُ لا تذكرُ شيئاً حولَ هذا الموضوع، إنّها تصرّحُ وبكلِّ بساطةٍ أنَّ جميعَ النّاس _عندما كانَ موسى على الجبلِ يتلقّى الشّريعةَ منَ الرّبّ_ وقفوا تحتَ، أو أسفل، عندَ قاعدةِ، الجبل. المفسّرونَ اليهود سرعانَ ما حوّلوا هذهِ القصّةَ إلى خرافةٍ عن إلهٍ يرفعُ الجبلَ فوقَ رؤوسِ

البشر، وفي الروايةِ الواردةِ في (عابوداه ساره) نقرأُ عن اللهِ وهوَ يقولُ للإسرائيليين: ((لقد غطّيتكم بالجبلِ كجفنِ العين)) وفي روايةٍ رابانيّةٍ أخرى نقرأُ أنَّ اللهَ قد ((قَلَبَ الجبلَ المقدّسَ فوقهم كالقِدر، وقالَ لهم: «إذا قبلتم الشّريعةَ، فذلكَ أمرٌ جيّد، أمّا إذا لم تقبلوها، فسيكونُ هذا المكانُ قبركم)) هذهِ الأسطورةُ، التي كانت شائعةً ومنتشرةً بينَ اليهودِ العربِ في شبهِ الجزيرةِ العربيّة، لابدَّ أنّها بلغت أذنيْ محمّد الذي اعتقدَ أنّها جزءٌ منَ الرّوايةِ التوراتيّة، سرعانَ ما أدخلها في قرآنهِ وسعى لإقناعِ المسلمين للإيمانِ بها كجزءٍ من كلامِ الله، المحفوظِ منذُ الأزلِ في اللّوحِ المحفوظ بالقربِ من عرشهِ في السّماء، والذي أُنزِلَ أخيراً على محمّدٍ بواسطةِ الملاكِ جبريل.

القصّةُ الواردةُ في الأعلى لا تساويها في سخافتها وتفاهتها سوى قصّةِ الملائكةِ الساقطينَ الموجودةِ في سورةِ الحجر، آيتان رقم 18-16، التي تنصُّ على أنَّ الشياطينَ تحاولُ دوماً التنصّتَ والاستماعَ إلى كلِّ ما يجري ويقالُ في السّماء، لكنّها تُرْجَمُ دوماً بالشهبِ من قبلِ الملائكةِ لطردها، لذلكَ نقرأُ في هذهِ الآية {وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ}ومرّةً أخرى، نقرأُ في سورةِ الملك، آية رقم 5 التالي {وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ}.

وهذا هوَ التفسيرُ الذي اعتمدهُ محمّد لتفسيرِ ظاهرةِ الشُّهب! ففكرتهُ عن الشّياطينِ والعفاريتِ التي تحاولُ استراقَ السمعِ لكلِّ ما يجري في السّماء، ليست فكرةً أصيلة، إنّها هيَ صدىً لخرافةٍ يهوديّةٍ وردت في كتاب «الحاجيجا»، حيثُ جاءَ فيها أنَّ الشّياطينَ ((تسترقُ السمعَ من وراءِ ستار)) لتسرقَ بعضَ المعرفةِ والاطّلاعِ على المستقبل. لسنا بحاجةٍ إلى التعليقِ أكثرَ حولَ هذهِ القصصِ والرواياتِ الأسطوريّة، لديَّ قناعةٌ راسخةٌ أنّهُ لا يوجدُ إنسانٌ مسلمٌ عاقلٌ يمتلكُ حدّاً متوسّطاً منَ الذكاء يقبلُ بفكرةِ أنَّ هذهِ القصصَ والخرافاتِ ذاتُ مصدرٍ إلهيّ، مجرّدُ وجودها بحدِّ ذاتهِ في القرآن شهادةٌ لا شكَّ فيها على المصدرِ والأصلِ الإنسانيّ لهذا الكتاب. لكن هناكَ الكثيرُ ليقالَ عن كم كانَ محمّدٌ مديناً لليهودِ على الأفكارِ والأساطيرِ التي دمجها لاحقاً في القرآن، لكنَّ محدوديّةَ هذا الكتابِ وحجمهُ الصغير لا يسمحانِ لنا سوى بإيرادِ مثالينِ آخرين فقط.

بما أنَّ كلاً منَ اليهودِ والصّابئة كانوا يشهدونَ شهرَ الصيام، لذا منَ الصّعبِ التقريرُ من أيِّ

من هاتينِ الفرقتين أخذَ محمّدٌ هذا المفهومَ الذي نصادفهُ كثيراً في القرآن، لكن فيما يتعلّقُ بهذا الصيام، هناكَ قاعدةٌ أو تشريعٌ في القرآن لا شكَّ أنّهُ من أصولٍ يهوديّة. نقرأ في سورة البقرة، الآية رقم 187 مايلي: {وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ * ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ} هذهِ الطريقةُ القديمةُ في تقريرِ متى ينتهي الليلُ ويبدأُ الصبحُ لم تكن أصيلة، إنّما أخذها محمّدٌ عن اليهودِ الذينَ تبنّوا هذهِ الممارساتِ قبلَ فترةٍ طويلةٍ جدّاً، حيثُ أنّنا نقرأُ في مشناه بيراخوث أنَّ الإفطارَ يبدأُ ((عندما نستطيعُ تمييزَ الخيطِ الأزرقِ والأبيض)) ومع ذلك يُطلَبُ منَ المسلمينَ الإيمانُ بأنَّ محمّداً لم يكن لهُ أيُّ دورٍ في تأليفِ القرآن، وأنّهُ نزلَ بكاملهِ موحىً منَ السّماءِ حيثُ ظلَّ محفوظاً منذُ الأزلِ في «اللّوحِ المحفوظ»، في المقابل، سنتابعُ الآن إثباتَ أنَّ فكرةَ النصِّ المنقوشِ على اللّوحِ المحفوظِ نفسها ما هيَ سوى فكرةٍ منتحلةٍ عن اليهود.

نقرأُ في سورةِ البروج، الآية رقم 21 {بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ}، هذا اللّوحُ العجيبُ كثيراً ما جرى الحديثُ عنهُ في التّراثِ المحمّدي، وهناكَ عيّنةٌ من هذهِ القصصِ الخياليّةِ والأساطيرِ الخرافيّةِ في قصصِ الأنبياء، إذ قد ذُكِرَ أنّهُ ومنذُ البداية ((خلقَ اللهُ جوهرةً تحتَ عرشه، ومن تلكَ الجوهرةِ خُلِقَ اللّوحُ المحفوظ. كانَ نورهُ يمتدُّ مسيرَ سبعمائةِ عام، ولهيبهُ يمتدُّ مسيرَ ثلاثمائةِ عام [خلقَ اللهُ اللّوحَ المحفوظَ لمسيرةِ مائةِ عامٍ فقالَ للقلم قبلَ أن يخلقَ الخلق: اكتب علمي في خلقي، فجرى بما هوَ كائنٌ إلى يوم القيامة])) ثمَّ وبعدَ وصفِ عمليّةِ خلقِ القلم يتابعُ الكاتب: ((واللهُ خلقَ اللّوحَ المحفوظَ وقالَ للقلمِ قبلَ أن يخلقَ الخلق: اكتب علمي في خلقي، فجرى بما هوَ كائنٌ إلى يومِ القيامة)).

هذهِ الفكرةُ عن اللّوحِ الذي سجّلَ اللهُ عليهِ معرفته، منَ الواضحِ أنّها مماثلةٌ للرّوايةِ الواردةِ في التوراة، حيثُ نقرأُ أنَّ الرّبَّ قالَ لموسى ((انحت لكَ لوحينِ من حجرٍ مثلَ الأوّلين واصعد إلى الجبلِ واصنع لكَ تابوتاً من خشب... فاكتب على اللّوحينِ الكلماتِ التي كانت على اللّوحينِ الأوّلينِ اللذينِ كسرتهما و تضعهما في التابوت)) [سفر التثنية، الإصحاح العاشر: 1-2] ومنَ المهمِّ جدّاً التنويهُ بأنَّ الكلمةَ العبريّةَ «لوخ» استُخدِمَت أثناءَ الحديثِ عن هذهِ الألواحِ في التوراة وهيَ الكلمةُ التي تبنّاها محمّدٌ حينَ وصفهِ للوحهِ الخيالي. لابدَّ أنّهُ قد سمعَ اليهودَ يروونَ قصّةَ اللّوحينِ الحجريّينِ المحفوظيْنِ في التابوت، فتبنّى فكرةَ الكتابِ المحفوظِ

في السّماء، وعدّل فيها، متمنّياً لكتابهِ القرآن أن يكونَ لهُ أصلٌ ومصدرٌ خاصٌّ بهِ ومتميّز، والحالُ أنَّ النبيَّ قد نسيَ نفسهُ، وفي لحظةٍ خاطفة جعلَ اللهَ يقول: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ} [الأنبياء: 105] مّا جعلَ إيمانَ المسلمينَ متزعزعاً بمشهدِ القرآن، الذي يزعمُ بأنّهُ قد كُتِبَ منذُ بدءِ الخليقة، وهوَ يقتبسُ من كتابٍ آخرَ مكتوبٍ قبلهُ بحوالي ألفيِّ عام. أعتقدُ أنَّ أغلبَ النّاسِ العقلاءِ سيعتبرونَ ذلكَ مجرّدَ دليلٍ على أنَّ القرآنَ قد وُجِدَ بعدَ الزبور.

إذا كانَ لابدَّ لنا من إيرادِ أدلّةٍ أخرى لنبيّنَ أنَّ القرآنَ يعتمدُ بشكلٍ كبيرٍ على المفاهيمِ اليهوديّةِ التلموديّة، فبإمكاننا استنباطها منَ الكلماتِ العديدةِ ذاتِ الأصلِ العبريِّ الموجودةِ في القرآن، ومن ضمنها الكلماتُ التالية: تابوت، توراة، عدن، جهنّم، سبت، سكينة، طاغوت، فرقان، ماعون، مثاني، وملكوت [Geiger، "Judaism and Islam"، pp. 30-45]. أمّا القارئُ الفضوليُّ فسيجدُ في كتابِ الدكتور عماد الدين «هدايةُ المسلمين»، ص 276-283 قائمةً بحوالي 114 كلمةً أجنبيّةً غيرَ عربيّةٍ واردةً في القرآن، مرفقةً بمصدرها ومعناها الأصليّ.

المعتقداتُ والطقوسُ المسيحيّةُ المُدْمَجَةُ في القرآن:

سبقَ وأشرنا إلى أنَّ محمّداً كانَ مديناً للمسيحيّةِ بأفكارهِ لكن بصورةٍ أقلَّ منَ اليهوديّةِ والوثنيّةِ العربيّةِ ما قبلَ الإسلاميّة، ومع ذلك يكشفُ القرآنُ عن عددٍ غيرِ قليلٍ منَ العلاماتِ حولَ تأثيرِ الديانةِ المسيحيّةِ وأفكارها وطقوسها وممارساتها، لذلكَ وردَ ذكرُ يسوعِ المسيح في القرآنِ بوصفهِ نبيّاً مرسلاً من عندِ الله، وقد أوحيَ إليهِ الإنجيل، والذي بشّرَ بقدومِ محمّد. ونستدلُّ منَ الإشاراتِ الكثيرةِ إلى المسيحيّينَ في القرآن بأنّهم كانوا متواجدينَ بأعدادٍ كبيرةٍ في شبهِ الجزيرةِ العربيّةِ زمنَ محمّد، ويبدو أنَّ محمّداً قد خالطهم واتّخذَ أصدقاءَ لهُ من بينهم، كما نستدلُّ منَ النصيحةِ التّاليةِ الواردةِ في الآية: {وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى؟} [سورة المائدة: 82] طبعاً محمّد كانت لديهِ جميعُ الأسبابِ التي تدفعهُ لتكريمِ المسيحيّينَ والإشادةِ بهم، ففي النهاية لم يجد أتباعهُ المضطّهدونَ ملجأً آمناً لهم أكثرَ من مملكةِ الحبشةِ المسيحيّةِ عندما اشتدّت عليهم يدُ المعارضةِ المكيّة. كانت هناكَ الكثيرُ منَ الفرصِ السّانحةِ لمحمّد لكي يتعرّفَ إلى المسيحيّة، خلالَ رحلاتهِ إلى سوريا وضمنَ الجزيرةِ

العربيّةِ ذاتها، وقد أشرنا سابقاً إلى أنَّ ورقة [بن نوفل]، ابنَ عمِّ خديجة زوجة محمّد الأولى، كانَ مسيحيّاً وكانَ مطّلعاً بشكلٍ جيّدٍ على الكتابِ المقدّسِ المسيحيّ، ولاحقاً، ليسوا قليلينَ أولئكَ المسيحيّونَ الذينَ اتّبعوا محمّداً وأصبحوا من أتباعه، ومن بينهم ماريّا القبطيّة التي كانَ منَ الممكنِ أن يتعلّمَ منها كلَّ ما يتعلّقُ بالإنجيل، وخصوصاً الكتاباتِ والقصصِ الأبوكريفيّة/ المنحولةِ التي كانت منتشرةً وشائعةً بينَ المسيحيّينَ الشرقيّين.

لذا سيكونُ من السّهلِ بالنسبةِ لمحمّد أن يأخذَ هذهِ القصصَ ويحوّرها حسبَ عبريّتِهِ الخاصّة زاعماً أنّها وحيٌ منزّلٌ عليهِ منَ السّماء. لم يكن لدى معاصري محمّد إيُّ شكٍّ بأنّهُ فعلَ ذلك، وكثيراً ما كانوا يتّهمونهُ بأنّهُ كانَ يستعينُ بأشخاصٍ معروفينَ جيّداً، لذا، وعلى سبيلِ المثال، نقرأُ في سورةِ النحل، الآيات من 101-103 {قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ... وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ؟ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ} يقولُ البيضاويُّ في معرضِ تفسيرهِ لهذهِ الآيةِ ما يلي: ((جبرا الروميّ غلامُ عامرِ بنِ الحضرمي، وقيلَ جبرا ويسارا، كانا يصنعانِ السيوفَ بمكّة، ويقرآنِ التوراةَ والإنجيل، وكانَ الرسولُ صلعم يمرُّ عليهما ويسمعُ ما يقرآنه)) منَ المهمِّ التنويهُ هنا إنّهُ ردّاً على التهمةِ بأنّهُ كانَ يستعينُ بهؤلاءِ الأشخاصِ لتأليفِ القرآن، لم ينكر محمّدٌ هذهِ التُّهمة، كلُّ ما أمكنهُ قولهُ هوَ أنَّ الشّخصَ أو الأشخاصَ المشارَ إليهم هنا كانوا غرباءَ وأجانب، ولذا لم يكن بمقدورهم صياغتهُ بهذهِ الأناقةِ والإبداعِ باللغةِ العربيّة. لكنّنا هنا لسنا معنيّينَ بإثباتِ أنّهم فعلوا ذلك، ما نودُّ التأكيدَ عليهِ هوَ أنَّ محمّداً تعرّفَ على المفاهيمِ الرئيسيّةِ والأفكارِ الرئيسيّةِ للرواياتِ الإنجيليّةِ والقصصِ الأبوكريفيّةِ المنحولةِ عنَ اليهودِ والمسيحيّينَ الذينَ احتكَّ بهم وتفاعلَ معهم، ثمَّ ومن خلالِ عبقريّتِهِ الشّعريّةِ الخاصّة، صاغها بالصّيغةِ التي وردت ضمنَ القرآن. وقد بيّنا سابقاً أنّهُ كانت لديهِ الكثيرُ منَ الفرصِ السّانحةِ لفعلِ ذلك، لقد سبقَ وأشرنا في الفصلِ السابقِ أنَّ الكتاباتِ والتفسيراتِ التلموديّةَ للكتابِ المقدّس _وليست الكتاباتِ المقدّسةَ ذاتها_ هيَ التي كانت شائعةً بينَ يهودِ شبهِ الجزيرةِ العربيّةِ زمنَ محمّد، ولن يوفّقَ القارئُ في فهمِ واستيعابِ الطبيعةِ الحقيقيّةِ للتأثيرِ الذي تركتهُ المسيحيّةُ على محمّد، ما لم تُفهَمَ الطبيعةُ الحقيقيّةُ لتلكَ المسيحيّةِ بشكلٍ مناسب. كانت شبهُ الجزيرةِ العربيّةِ تسمّى سابقاً «بأرضِ المرطقات» أو «أمِّ الهرطقات». منَ المؤكّدِ أنّهُ منذُ أقدمِ الأزمنة كانت تلكَ الأرضُ بمثابةِ ملجئٍ للعديدِ منَ الفرقِ والمذاهبِ

الهرطقيّةِ التي طُردَت منَ الإمبراطوريّةِ الرومانيّة بسببِ أفكارها الهرطقيّةِ الخطيرة. إنَّ المسيحيّةَ في شبهِ الجزيرةِ العربيّةِ في زمنِ محمّد كانت مدفونةً تحتَ كمٍّ هائلٍ منَ الخرافاتِ والانحدار؛ كانت الخرافاتُ وعبادةُ القدّيسينَ والمذاهبُ المريميّةُ تحتلُّ موقعَ الدّينِ الحقيقيّ، بالإضافةِ إلى كمٍّ هائلٍ منَ الأدبِ الخرافيِّ الأبوكريفيِّ المنحول، كانَ يحلُّ محلَّ الكتابِ المقدّس. وقد قيلَ أنّهُ لو احتكَّ محمّدٌ مع شكلٍ أكثرَ نقاءً منَ المسيحيّة، على الأرجح، لما كانَ هناكَ دينٌ مزيّفٌ آخر في شبهِ الجزيرةِ العربيّة، ولكانَ هناكَ مصلحٌ مسيحيٌّ بدلاً من نبيٍّ مزيّف. أمّا الذي حدثَ هوَ أنَّ التعاليمَ المغاليةَ للمريميّينَ والفرقِ الهرطقيّةِ الأخرى قد نبذت ذلكَ المُصلحَ العربيّ، وأدّت بهِ إلى رفضِ تعاليمهم على أنّها ليست أكثرَ من مجرّدِ وثنيّات. كانَ من سوءِ حظِّ محمّد أنّهُ خلطَ بينَ هذا الكمِّ الهائلِ منَ الخرافاتِ وبينَ المسيحيّةِ الحقيقيّة، وبذلكَ أسّسَ ديناً أعادَ البشريّةَ إلى أغلالِ اليهوديّةِ وزنزانةِ الفكرِ التلمودي. وأيُّ مقارنةٍ بينَ هذهِ القصصِ المنحرفةِ عن التعاليمِ الحقيقيّةِ للإنجيل وبينَ القصصِ الواردةِ في القرآن ستبيّنُ في نفسِ الوقت أنَّ محمّداً كانَ قد قَبِلَ العديدَ من تلكَ القصصِ وتبنّاها على أساسِ أنّها جزءٌ منَ الكتابِ المقدّس، معتقداً بأنّها حقيقيّة، فدمجها في القرآن. وسنوردُ هنا مثالاً أو مثالينِ يمكنُ أن نوضّحَ المسألةَ من خلالهما، في سورة الكهف، الآيات 9-12، 25، نقرأُ قصّةً مثيرةً للاهتمام عن سبعِ شبّانٍ دخلوا كهفاً ليناموا فيهِ، ثمّ يستيقظونَ من جديد ليدركوا أنّهم قضوا فترةَ 309 سنوات وهم نيام. نقرأُ في الآية {أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا * إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا * فَضَرَبْنَا عَلَى? آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا * ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى? لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا*... وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا}هذهِ القصّةُ الأسطوريّة، والتي لا أساسَ لها بتاتاً، كانت منتشرةً في شبهِ الجزيرةِ العربيّةِ قبلَ محمّدٍ بزمنٍ طويل. وهيَ موجودةٌ في كتاباتِ رجلِ دينٍ سوريٍّ كانَ اسمهُ يعقوب السّروجي [وردت هذهِ القصّةُ في عظةٍ دينيّةٍ لهذا الكاهنِ السريانيِّ بعنوان «أعمال القدّيسين» Acta Sanctcorum] الذي ماتَ عام 521 للميلاد والذي يخبرنا قصّةً عن سبعةِ شبّانٍ من مدينة أفسوس هربوا من قبضةِ الحاكم الرومانيِّ ديسيوس. وقد قيلَ أنّهم التجأوا إلى كهفٍ حيثُ غطّوا في نومٍ عميق، ولم يستيقظوا إلّا بعدَ مرورِ 196 سنة ليجدوا الديانةَ المسيحيّةَ منتشرةً في كلِّ مكان. لابدَّ أنَّ محمّداً قد سمعَ القصّةَ من أفواهِ مسيحيّي شبهِ الجزيرةِ العربيّةِ

وسوريا، واعتقدَ أنّها حقيقيّة، فزعمَ أنّها موحاةٌ لهُ منَ الله.

قصّةٌ أخرى في القرآنِ ذاتُ أصولٍ مسيحيّةٍ ومتعلّقةٍ بطفولةِ مريم والدةِ يسوع. لا شيءَ يدعو للدهشةِ والاستغرابِ أكثرَ من سكوتِ الأناجيلِ الأصليّةِ فيما يتعلّقُ بشخصيّةِ مريم والدةِ يسوعَ المسيح، لكن في مجتمعٍ حيثُ تعاليمُ المسيحيّةِ مدفونةٌ تحتَ ركامٍ هائلٍ منَ الخرافاتِ والأساطير، وحيثُ أخذتِ العقيدةُ المريميّةُ مكانَ الديانةِ الحقيقيّة، فلا عجبَ أن نجدَ عدداً منَ القصصِ والرّواياتِ الأسطوريّةِ التي تروي تفاصيلَ خرافيّةً عن حياةِ مريم وبصيغةٍ مغاليةٍ جدّاً وأسطوريّة. هذهِ القصصُ الأبوكريفيّةُ المنحولة كانت موجودةً ومنتشرةً بكثرة بينَ مسيحيّي شبهِ الجزيرةِ العربيّة، وكانت بالتأكيدِ معروفةً جيّداً بالنسبةِ لمحمّد، إذ أنَّ الأخيرَ كانَ يجهلُ مضامينَ وتفاصيلَ الكتابِ المقدّسِ الأصلي، وكانَ أجهلَ من أن يستطيعَ التفريقَ بينَ القصصِ الحقيقيّةِ والقصصِ المزيّفةِ والمنحولة، وفي النهاية تبنّاها وأدخلها في قرآنهِ زاعماً أنّها وحيٌ من عندِ الله، وأنَّ رسالتهُ أُنزلَت لإكمالِ وتأكيدِ الكتبِ المقدّسةِ السّابقة.

نقرأُ في سورةِ آل عمران، الآية رقم 44 أنَّ مريمَ في صباها قد جُلِبَت إلى معبدِ أورشليم الذي أصبحَ منذُ ذلكَ الوقت موطنها وبيتها حتّى ميلادِ المسيح. ويخبرنا القرآنُ أنّها خلالَ إقامتها هناك ذهبت بها أمّها إلى من لهم الأمرُ على بيتِ المقدس، فتشاحنوا وتخاصموا أيّهم يكفلُ مريم، واقترحوا عليها بأن ألقوا أقلامهم في النّهر، فأيّهم لم يجرِ قلمهُ مع الماء فلهُ كفالتها، فوقعَ ذلكَ لزكريا { وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ } هذهِ القصّة، كما يعرفُ كلُّ قارئٍ للإنجيل، غيرُ موجودةٍ في الكتابِ المقدّس [لا في العهدِ القديم ولا في الجديد]، بل هيَ موجودةٌ بكلّيّتها في الكتبِ الأبوكريفيّةِ المنحولةِ للمسيحيّينَ الهراطقة الذينَ عاشوا ونشطوا في شبهِ الجزيرةِ العربيّةِ زمنَ محمّد، لذلكَ فمصدرها واضحٌ جدّاً ومعروف. فقد وردَ في كلٍّ من «إنجيلِ جيمس المنحول [أو الإنجيلِ الطفولي] Protevangelium of James the Less» ،"The Sources of the Qur an" [Tisdall، pp. 156-8]، والكتابِ القبطيّ «تاريخُ مريمَ العذراء» حادثةُ رمي الأقلامِ من أجلِ الكفالة، أو كما وُصِفَت العادةُ فيها، الحقُّ بالزّواجِ من مريم. في الإنجيلِ الأوّل نقرأُ أنّهُ عندما وصلت مريم إلى عمرِ الثّانيةَ عشر عُقِدَ مجمعٌ للكهنةِ قُرِّرَ فيهِ مستقبلُ الفتاةِ حيثُ ((وقفَ ملاكُ الرّبِّ بالقربِ منهُ [زكريا] قائلاً: يا زكريا، يا زكريا، اخرج وأدعو جميعَ الرجالِ الأراملِ من بينِ النّاس، وليحضر كلُّ واحدٍ منهم

معهُ قضيباً، وأيُّ رجلٍ منهم يريهِ الإلهُ الرَّبُّ إشارة، ستكونُ زوجتهُ مريم)).

هناكَ روايةٌ قرآنيَّةٌ أخرى مرتبطةٌ بمريمَ العذراء استعارها محمّد [أو لطشها] منَ الأناجيلِ والكتبِ المنحولة، أو بالأحرى من ألسنةِ معاصريهِ وصحابتِهِ منَ المسيحيّين، وهيَ عن شجرةِ النخيل، إذ قد وردَ في سورةِ مريم الآيات من 25-22 {فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا * فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا * فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا * وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا}.

أمّا الأناجيلُ فهيَ على العكسِ تخبرنا أنَّ يسوعَ قد وُلِدَ في بيتِ لحم داخلَ حظيرةٍ أو بالقربِ منها، في هذهِ الحالة فمصدرُ القصّةِ التي ردّدها محمّد يمكنُ تعقّبها تماماً، حيثُ أنَّ الكتبَ المسيحيّةَ الأبوكريفيّة تحتوي أساطيرَ مماثلةً، وتتضمّنُ العديدَ منَ القصصِ الخياليّةِ المرتبطةِ بميلادِ يسوع، كانت هذهِ الأساطيرُ المنحولةُ والقصصُ الخياليّةُ موجودةً ومنتشرةً على نطاقٍ واسعٍ بينَ مسيحيّي شبهِ الجزيرةِ العربيّة، ولابدَّ أنّها وصلت أذنيْ محمّد الذي تصوّرَ بدورهِ أنّها جزءٌ منَ الكتابِ المقدّسِ الأصلي. في العملِ المنحولِ المعنون «طفولةُ مريمَ العذراء وميلادُ المخلّص» نقرأُ قصّةَ شجرةِ النخيلِ كاملةً بخصائصها وسماتها الكاملة، ويمكنُ إيجادُ بعضِ التغييراتِ والاختلافاتِ في القصّة، وذلكَ مردّهُ إلى أنَّ هذهِ القصصَ كانت متناقلةً شفهيّاً، لكنَّ أيَّ مقارنةٍ حذرةٍ ودقيقةٍ بينَ القصّةِ كما وردت في هذهِ الأناجيلِ المشبوهةِ مع القصّةِ التي استعارها محمّدٌ ودمجها في قرآنهِ ستوضّحُ أنَّ الأخيرَ [محمّد] قد لطشها أو أخذها من الأوّل [الكتب المنحولة]، ثمَّ قدّمها على أنّها وحيٌ مباشرٌ من عندِ الله. ولكي يرى القارئُ مدى التقارباتِ والتماثلات، فقد أوردتُ اقتباساتٍ منَ العملِ المنحولِ المذكورِ سابقاً، فبعدَ تسجيلِ رحلةِ يوسفَ ومريم بصحبةِ الطفلِ يسوع يتابعُ الرّاوي قائلاً: ((وأسرع يوسفُ فأحضرها [مريم] إلى شجرةِ النخيل، فأنزلها عن ظهرِ دابّتها، وعندما جلست مريمُ عندَ جذعِ الشجرة نظرت إلى أعلى الشجرة، فرأتها مليئةً بالثمارِ الطيّبةِ والطازجة، وقالت ليوسف: «أرغبُ ببعضِ ثمارِ هذهِ الشجرةِ إذا أمكنَ ذلك»... ثمَّ قالَ الطفلُ يسوع بهيُّ الطلعةِ والمجالسِ في حضنِ أمّهِ مريمَ العذراء، لشجرةِ النخيل: «أيّتها الشجرة، اخفضي أغصانكِ وانعشي أمّي بثمارك»، وبعدَ أن سمعت شجرةُ النخيلِ كلماتِ يسوعَ هذه أحنت رأسها إلى قدميّ مريم، وأكلوا جميعهم من

ثمارها التي كانت تحملها، وانتعشوا ثمَّ انتصبت شجرةُ النخيلِ على الفور، وخرجَ نبعٌ منَ الماءِ النقيِّ والصافي والباردِ والعذب من بينِ جذورها)).

كلُّ قارئٍ للقرآن يعرفُ أنّهُ يحتوي عدّةَ إشاراتٍ إلى يسوعَ المسيح، كما أنّهُ يتضمّنُ قصصاً محدّدةً مرتبطةً بمولده، بعضها غيرُ موجودٍ في الأناجيلِ الأصليّة، هذهِ القصصُ، مثلها كمثلِ قصّةِ شجرةِ النخيل، يمكنُ القولُ عنها أنّها من مصادرَ منحولة، وتبيّنُ المصادرَ التي استقاها منها محمّد وأدخلها في قرآنه. إحدى تلكَ الأساطيرِ تشيرُ إلى معجزاتٍ معيّنةٍ يقالُ أنَّ يسوعَ قد أدّاها خلالَ طفولته، وتردُ إحدى الإشاراتِ إليها في سورةِ المائدة، الآية 110، حيثُ أنّنا نقرأُ فيها: {إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ، إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً، وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ، وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي} والآن نلاحظُ أنَّ الأناجيلَ الأصليّةَ لا تتضمّنُ أيَّ شيءٍ كهذا، إنّما على العكس، تشيرُ دوماً على أنَّ أوّلَ معجزةٍ قامَ بها يسوع كانت أنّهُ ملأَ الأجرانَ الحجريّةَ الستّةَ بالخمر، وذلكَ قبلَ أن يبلغَ عامهُ الثلاثين. وقد جاءَ في كتابِ يوحنّا، الإصحاح الثاني، المقطع رقم 11 ((هذهِ المعجزةُ هيَ الآيةُ الأولى التي أجراها يسوعُ في قانا بالجليل، وأظهرَ مجدهُ، فآمنَ تلاميذه)). وعندما نقرأُ في إنجيلِ طفولةِ المخلّصِ المشبوه، أو «إنجيل توما الإسرائيليّ»، وغيرهِ منَ الأعمالِ الأبوكريفيّةِ المنحولة، نجدُ بوضوحٍ أنَّ هذهِ القصّةَ كانت شائعةً جدّاً وعلى نطاقٍ واسعٍ في شبهِ الجزيرةِ العربيّةِ زمنَ محمّد، وقد سمعها الأخيرُ من معاصريهِ وأتباعهِ منَ المسيحيّينَ السابقين، متصوّراً بأنّها جزءٌ منَ الأناجيلِ الأصليّة، فأدخلها في قرآنه.

ليسَ هناكَ تفسيرٌ آخرُ أكثرَ منطقيّةً ومعقوليّةً من هذا التفسيرِ حولَ التشابهِ بينَ الروايتين: الإنجيليّةِ المنحولةِ والقرآنيّة، ليتذكّر القارئ، على سبيلِ المثال، أنَّ النسخةَ القرآنيّةَ التي اقتبسنا منها في الأعلى، تأخذُ من «إنجيلِ توما الإسرائيليّ»، وهوَ كتابٌ خياليٌّ أسطوريٌّ مشبوهُ المصدر، كُتِبَ في زمنٍ متأخّر، ولم يعتبر قط على أنّهُ موحى من يسوعِ المسيح أو أيِّ فرقةٍ مسيحيّةٍ أصليّة، وقد وردَ في هذا الكتاب أنَّ ((يسوعَ الطفلَ عندما كانَ في الخامسةِ من عمرهِ يلعبُ في الطريقِ بنبعِ جارٍ منَ الماءِ الملوّث فجمعهُ في خنادقَ وجعلها على الفورِ نقيّةً وعذبة، وكلُّ ذلكَ بكلمةٍ واحدةٍ منه، ثمَّ رطّبَ بها بعضاً منَ الترابِ وصنعَ منها اثنا عشرَ طيراً... صفّقَ يسوعُ بيديهِ للطيورِ وصرخَ بها: «ارحلي»، فرفرفت مبتعدةً عنه)) [من أجلِ الاطّلاعِ على روايةٍ أخرى

راجع كتاب Tisdall، "The Sources of the Qur an"، p. 175] إنَّ خيالَ مؤلِّفِ هذا الإنجيلِ وشطحاتهُ الخرافيَّةُ والرومانسيَّة، تخبرنا أيضاً بأنَّ يسوعَ قد تكلَّمَ مع أمّهِ عندما كانَ ما يزالُ في المهد، وأطلعهم على مهمّتِهِ الإلهيَّةِ المقدّسة. وهناكَ الكثيرُ والكثيرُ يمكنُ ذكرهُ والكتابةُ عنهُ لنبيّنَ أنَّ محمّداً كانَ مديناً ليسَ فقط لمجموعةٍ صغيرةٍ ومحدودةٍ منَ الهراطقةِ المسيحيّينَ المؤمنينَ بالأساطيرِ والخرافاتِ الذينَ كثروا في عهدهِ، للرّواياتِ والمفاهيمِ الدينيّةِ التي نجدها الآنَ في القرآن، إلّا أنَّ حجمَ هذا الكتيّبِ ومحدوديّتهُ لا يسمحانِ لنا بإيرادِ سوى مثالٍ واحدٍ إضافي. فالقارئُ الذي يرغبُ بدراسةِ الموضوعِ أكثرَ والتعمّقِ فيه، عليهِ أن يطّلعَ على أعمالِ كلٍّ من تسدال وبيل وغايغر الشهيرة، حيثُ استقينا أغلبَ موادِ فصولِ هذا الكتيّبِ منها.

لا يمكننا اختتامُ هذا الفصلِ دونَ الإشارةِ إلى «الميزانِ»، الذي أُشيرَ إليهِ في القرآنِ عدّةَ مرّات، إذ يخبرنا الإسلامُ أنّهُ في يومِ الحساب سيكونُ هناكَ ميزانٌ حيثُ ستوزَنُ أعمالُ الإنسان، فهؤلاءِ الذينَ تغلبُ أعمالهم الحسنةُ والصّالحة سيفوزونَ بالنعيمِ الأبديِّ جنّةِ الخلد، أمّا أولئكَ الذينَ تكثرُ أعمالهم السيّئةُ والشريرةُ فسيخلّدونَ في جهنّمَ وبئسَ المصير، لذا نقرأُ في سورةِ الأعراف الأيتان 8-9 {وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ ? فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ} هذا المفهومُ القرآنيُّ مأخوذٌ عن عملٍ أبوكريفيٍّ منحول عنوانهُ «عهدُ إبراهيم» [منشور في «Texts and Studies»، vol. ii، No. 2 وقد اقتبسَ عنهُ تسدال «The Sources of the Qur an»، p. 200] وقد كُتِبَ هذا العملُ في القرنِ الثّاني أو الثّالثِ للميلاد، وهوَ عبارةٌ عن قصّةٍ أسطوريّةٍ مرتبطةٍ بالبطريرك إبراهيم ومعراجهِ إلى السّماء، حيثُ قد رأى، من بينِ الكثيرِ منَ الأمورِ الأخرى، عرشَ الدينونةِ العظيم، وتستمرُّ القصة: ((وعلى العرشِ جلسَ رجلٌ مهيب... وأمامهُ طاولةٌ كالزّجاج، وكلُّ شيءٍ منَ الذهبِ والكتّان، وعلى الطاولةِ هناكَ كتاب، كانَ سمكهُ ستّةَ أذرعٍ وارتفاعهُ عشرةَ أذرع، وعلى يمينهِ ويسارهِ يقفُ ملاكانِ يحملانِ ورقةً وقلماً ومداداً، وأمامَ الطّاولةِ كانَ يجلسُ ملاكٌ يشعُّ نوراً يحملُ ميزاناً في يده... والرجلُ المهيبُ الجالسُ على العرشِ كانَ يحاكمُ الأرواحَ بنفسه، أمّا الملاكانِ اللذانِ كانا يقفانِ على يسارهِ ويمينهِ كانا يسجّلان. الملاكُ الذي على اليمينِ يسجّلُ الأعمالَ الصّالحة، أمّا الملاكُ الذي على اليسارِ فيسجّلُ الذنوبَ والأعمالَ السيّئة، أمّا الملاكُ الذي يقفُ أمامَ الطّاولة، الذي يحملُ بيدهِ الميزان، كانَ يزنُ أعمالَ

كلِّ روح)).

ويمكننا الاستمرارُ أكثرَ من ذلك ونقدّمُ مفاهيماً وأفكاراً أخرى وردت في القرآنِ كمذهبِ إنكارِ موتِ المسيح، وتفكيكِ الثّالوثِ وحلّهِ إلى ثلاثةِ أقانيمَ هيَ؛ الأبُ والابنُ ومريمُ العذراء، التي اكتسبها محمّد منَ الفرقِ الغنوصيّةِ وغيرها منَ المذاهبِ الهرطقيّةِ الأخرى التي انتشرت وازدهرت في شبهِ الجزيرةِ العربيّةِ زمنَ محمّد. بأيّةِ حال يكفي كلُّ ما قلناهُ هنا لإثباتِ أنَّ كلَّ ما وردَ في القرآنِ من مفاهيمَ وعقائدَ تعودُ في الحقيقةِ إلى مصادرَ مسيحيّةٍ منحولةٍ ومشبوهة، في حينِ أنَّ القارئَ المسيحيَّ سيدركُ أيضاً مدى خطأِ وضلالِ الزّعمِ القائلِ بأنَّ الكتابَ الأخيرَ «يؤكّدُ ويثبتُ» الكتاباتِ السّابقة: التوراةِ والإنجيل.

الأجزاءُ منَ القرآنِ التي أُدخِلَت حسبَ ظروفِ ومتطلّباتِ كلِّ مرحلة:

لم يعد هناكَ أيُّ شكٍّ في أنَّ أيَّ دراسةٍ دقيقةٍ وموضوعيّةٍ وغيرِ منحازةٍ للقرآن ستثبتُ وبشكلٍ قاطعٍ أنَّ جزءاً كبيراً منَ القرآنِ قد تمَّ تلفيقهُ وفبركتهُ من قِبَلِ محمّدٍ ليتناسبَ مع أغراضهِ ومصالحهِ الخاصّة. وهذا منعطفٌ كبيرٌ بالتأكيد، وستابعُ الآنَ في إثباتنا لذلك، وينبغي علينا أن نتذكّرَ دائماً بأنَّ ((من الضروريِّ جداً عملَ مقارنةٍ للحقائقِ التّاريخيّةِ في حياةِ محمّد مع الأجزاءِ المختلفةِ منَ القرآن والمرتبطةِ بهِ إذا أردنا فهمَ تلكَ الحياةِ بشكلٍ واضحٍ وذكيّ، وهناكَ نتيجةٌ أخرى مهمّةٌ جداً لهذهِ المقارنة هيَ أنّها تظهرُ الطريقةَ التدريجيّةَ التي ظهرَ فيها القرآنُ إلى الوجود، وكيفَ تناسبَ الوحيُ مع الظروفِ المحلّيّة، ثمَّ قدّمَ ما كانَ يزعمُ على أنّهُ سلطةٌ إلهيّةٌ وتأييدٌ لأعمالِ النبيِّ المختلفة، بهذهِ الطريقةِ وحدها، يمكنُ تبريرُ تغييرهِ لسياستهِ وحمايتهِ هوَ نفسهُ من تهمةِ الزمنيّةِ و التناقض)) [راجع كتاب سِل، التطوّرُ التّاريخيُّ للقرآن، ص1 Sell "Historical Development of the Qur an"]. ومثلُ هذهِ الدراسةِ لوحدها كفيلةٌ بأن تجعلَ القارئَ قادراً على فهمِ هذهِ المسائل كمسألةِ تغييرِ القِبلَةِ من بيتِ المقدسِ إلى مكّة، ونسخَ الأمرِ الإلهيّ من {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ} [البقرة 257] إلى {وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ} [البقرة 188] بالإضافةِ إلى الكثيرِ منَ الإقحاماتِ المتناقضةِ والمتعلّقةِ بالشؤونِ المنزليّةِ والخاصّةِ للنبيّ. فحقيقةُ أنَّ النبيَّ وفي العديدِ منَ المناسبات قد وقعَ تحتَ إغراءِ تلفيقِ العديدِ من آياتِ الوحي على قريش مشهودٌ عليها من قِبَلِ عددٍ كبيرٍ من كُتّابِ محمّديين، ومن بينهم مرجعيّاتٌ إسلاميّةٌ

كبرى كابنِ هشام، الطّبريّ يحيى وجلال الدين، أمّا ظروفُ سقوطِ النبيّ فهيَ على الشّكل الآتي: في أحدِ الأيّام، دخلَ محمّدٌ البيتَ الحرامَ في مكّة، وبدأ بترديدِ سورةِ النجم. وكانت الممانعةُ الشديدةُ للقرشيّينَ تؤلمُ النبيَّ وتثقلُ قلبهُ، وكانَ يتوقُ لرؤيةِ بعضِ التأييدِ لهُ وبعضِ القبولِ لرسالتهِ منهم، فإغراءُ التسويةِ كانَ شديداً للغاية، والإغواءُ بالتصالحِ مع أولئكَ الذينَ طالما اضطّهدوهُ وحاربوه أقوى من أن يتمكّنَ من مقاومته، ثمَّ سقطَ النبيُّ سهواً، إذ أنّهُ عندما وصلَ إلى الكلماتِ {أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ} [النجم 19-20] أضافَ من عندهِ، لإسعادِ سامعيهِ وترغيباً لهم برسالتهِ، {تلكَ الغرانيقُ العُلا * إنَّ شفاعَتَهُنَّ لَتُرتَجى} أسعدَ القرشيّينَ وأطربهم من سماعِ ذلكَ، وانضمّوا مع النبيِّ في صلاته، وقالوا: ((ما ذكر آلهتنا بخيرٍ قبلَ اليوم، فسجدَ وسجدوا)) لكنَّ محمّداً تراجعَ من فورهِ عن تسويتهِ المتسرّعة، وسحبَ كلماتهُ عن الأوثانِ العربيّةِ، مستبدلاً إيّاها بالكلماتِ التي نجدها حاليّاً في القرآن {أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ * إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ} [النجم 21-23]، ثمَّ ولإخفاءِ خطئهِ وتغطيته، عمدَ لصياغةِ آيةٍ أخرى حيثُ جعلَ اللهَ يطمئنهُ فيها بأنّهُ كانَ في أيدٍ أمينة، حيثُ أنَّ ما حدثَ معهُ قد حدثَ مع غيرهِ منَ الأنبياءِ من قبلهِ، فقد ألقى الشّيطانُ على ألسنتهم، لذا نقرأُ في سورةِ الحجّ، آية رقم 52 {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ}.الحادثةُ المذكورةُ هنا هيَ على درجةٍ عظيمةٍ منَ الأهمّيّةِ استفضنا في الحديثِ عنها لتبيينِ أنَّ مصداقيّتها مكفولةٌ ومشهودٌ لها من قِبَلِ أعلى وأشهرِ المرجعيّات، فإذا كانَ النبيُّ في باكورةِ سيرتهِ النبويّةِ قد وُضِعَ تحتَ إغراءِ تلفيقِ آياتٍ قرآنيّةٍ من أجلِ أن ينالَ رضى وقبولَ أعداءه، فإنّهُ في المراحلِ اللاّحقةِ عندما اتّسعَ طموحهُ العالميُّ وتعلّقَ في الأفق، لابدَّ أنَّ هذا الإغراءَ قد كَبُرَ وعَظُمَ معه. ونوردُ في الأسفلِ حادثةَ الغرانيقِ المشهورة: ((قالَ ابنُ عبّاس ومحمّد بنُ كعبِ القرظي وغيرهما من المفسّرين لمّا رأى رسولُ اللهِ تولّيَ قومهِ عنهُ وشقَّ عليهِ ما رأى من مباعدتهم عمّا جاءهم بهِ منَ الله، تمنّى في نفسهِ أن يأتيهِ عن اللهِ ما يقاربُ بينهُ وبينَ قومهِ يحرّضهُ على إيمانهم فكانَ يوماً في مجلسِ قريش فأنزلَ اللهُ تعالى سورةَ النجمِ فقرأها رسولُ الله وحتّى بلغَ قولهُ «أفرأيتم اللاّتَ والعزّى ومناةَ الثالثةِ الأخرى» ألقى الشّيطانُ على لسانهِ بما كانَ يحدّثُ بهِ نفسهُ ويتمنّاهُ «تلكَ الغرانيقُ العُلا * إنّ شفاعَتَهُنّ لَتُرتَجى» فلمّا سمعت قريشُ

ذلكَ فرحت به))

هناكَ صيغةٌ أخرى للقصّةِ وردت في كتابِ المواهبِ اللدنيّة، وهيَ على الشّكلِ الآتي: ((قرأَ رسولُ اللهِ صلعم بمكّةَ والنجمُ فلمّا بلغَ «أفرأيتم اللاّتَ والعُزّى ومناةَ الثالثةَ الأخرى» ألقى الشّيطانُ على لسانِهِ «تلكَ الغرانيقُ العُلى، وإنَّ شفاعتهنّ لَتُرْتَجى»، فقالَ المشركونَ: ما ذكرَ آلهتنا بخيرٍ قبلَ اليوم، فسجدَ وسجدوا فأُنزلَت هذهِ الآية «وما أرسلنا من قبلكَ من رسولٍ ولا نبيٍّ إلّا إذا تمنّى ألقى الشّيطانُ في أمنيته» [الحجّ 52])) وينسبُ إلى النبيِّ أنّهُ قد تابَ عن هذهِ السقطةِ التي وقعَ فيها، وقامَ لاحقاً بعدَ ذلكَ باستنكارٍ ورفضٍ جميعِ أشكالِ الوثنيّة، لكنَّ هذهِ التجربةَ التي مرَّ بها لم تكن لصالحِهِ أبداً، ولم يتعلّمَ الدرسَ منها، إذ أنّهُ سرعانَ ما وجدَ نفسهُ يغيّرُ كلامهُ وأقوالهُ ليتناسبَ مع غاياتِهِ وأغراضِهِ الخاصّة، لذا وعندما هربَ النبيُّ إلى المدينة، وكانَ ضعيفاً ومضطّهداً آنذاك، سرعانَ ما أدركَ ضرورةَ التوفيقِ والمصالحة _وكسبهم إلى صفّهِ إذا أمكنَ ذلك_ مع المجتمعاتِ اليهوديّةِ المتعدّدةِ والقويّةِ التي كانت تعيشُ هناك.

ولهذا السّببِ بالضّبط كانَ قد جعلَ بيتَ المقدسِ قِبلَتهُ، وكانَ لفترةٍ ليست قصيرةً من الوقت يصلّي باتّجاهِ تلكَ المدينةِ اليهوديّة، ولكن في النهاية، وعندما باءت جميعُ جهودِهِ ومحاولاتِهِ لكسبِ اليهودِ إلى جانبِهِ بالفشل، وعندما قُوِيَ موقفهُ بعدَ دخولِ العديدِ منَ العربِ في دينه، شعرَ بضرورةِ كسبِ قريشٍ إلى جانبِهِ مرّةً أخرى، ولذلكَ الغرضِ بالضّبط أنزلَ «وحياً» مرّةً أخرى جاعلاً منَ الكعبةِ القِبلةَ الجديدةَ للمسلمين، لذا نقرأُ في سورةِ البقرة: { وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ * وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ * وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ * إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ * قَدْ نَرَىٰ * تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ * فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا * فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ * وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ} [البقرة143-142] ويعترفُ المفسّرونَ المحمّديّونَ بهذهِ الحقائق، لذا نقرأُ في تفسيرِ الجلالين ما يلي: ((فلمّا هاجرَ أمرَ باستقبالِ بيتِ المقدسِ تأليفاً لليهودِ ستّةَ أو سبعةَ أشهرٍ ثمّ حوّل)) [مقتبس في عملِ غايغر اليهوديّةُ والإسلام، ص14، وموجودٌ في تفسيرِ الجلالين]

هناكَ أمرٌ اعتباطيٌّ آخر أصدرهُ محمّد خلالَ سنواتِهِ الأولى من إقامتِهِ في المدينة لهُ علاقةٌ بالصّيامِ اليهوديّ، وقد غُيِّرَ وبُدِّلَ على غرارِ ما حدثَ في مسألةِ القِبلة، والروايةُ التّاليةُ ستثبتُ

هذا الأمرَ وترينا كيفَ أنَّ الظروفَ المحليّةَ المحيطة دفعت محمّداً لإصدارِ تعاليمِ وأوامرَ اعتباطيّةٍ مختلفة، فيما بعد قامَ بتغييرها بنفسِ الطريقةِ ما أن استجدّت أمورٌ جديدةٌ وظهرت ضروراتٌ مغايرةٌ على السّاحة، لذا يخبرنا كاظم أنّهُ ((رُوِيَ أنَّ رسولَ الله لمّا قدمَ المدينةَ وجدَ يهوداً يصومونَ عاشوراء فسألهم عن ذلكَ فقالوا إنّهُ الذي غرقَ فيهِ فرعونُ وقومهُ ونجى موسى ومن معهُ فقال أنا أحقُّ بموسى منهم فأمرَ بصومِ عاشوراء)) [Geiger "Judaism and Islam"، p. 26 ونفسُ الخبرِ ينقلهُ لنا ابنُ عبّاس ورد في كتابِ «مشكاةِ المصابيح» باب الصّوم] هذا الصّومُ، الذي ما زالَ يمارسُ في اليومِ العاشرِ من شهرِ رمضان كطقسٍ تطوّعيٍّ ومبجّل، يقدّمُ دليلاً واضحاً عن الطريقةِ التي استعارَ بها محمّدٌ منَ المنظوماتِ العقائديّةِ الأخرى عندما أرادَ ذلك، ويكذّبُ الادّعاءَ القائلَ بأنّهُ تلقّى المعلوماتِ الدينيّةَ عن طريقِ وحيٍ إلهي. روايةٌ أخرى تبيّنُ المصدرَ والأصلَ البشريَّ للقرآن وقد نقلها لنا عدّةُ مفسّرينَ وعلماءِ محمّديين تتعلّقُ بمسألةِ زواجِ محمّدٍ من زينب زوجةِ ابنهِ بالتبنّي زيد.

كانَ زيدُ معروفاً «بابنِ محمّد»، وكانَ قد اتّخذَ لهُ زوجةً امرأةً جميلةً كانت تسمّى زينب، يخبرنا التّراثُ أنّهُ وفي أحدِ الأيّام حدثَ وأن جاءَ النبيُّ لزيارة منزلِ زيدٍ ووجدَ زينبَ في رداءٍ يكشفُ جميعَ مفاتنها، فأُعجِبَ النبيُّ بما رآهُ منها، وعبّرَ عن إعجابهِ بقوله: ((سبحانَ اللهِ مقلّبِ القلوب)). سمعت زينبُ كلماتِ النبيّ، ومن فورها أخبرت زوجها بما حدث، في النهاية طلّقَ هذا الأخيرُ زوجتهُ، وعرضها على محمّد، لكنَّ النبيَّ تردّدَ في قبولِهِ إيّاها كونها طليقةَ ابنِهِ بالتبنّي، ولكي يتجنّبَ الفضيحةَ والمهزلةَ التي عرفَ أنّها ستتبعُ زواجهُ منها، قامَ بتلفيقِ وحيٍ منَ اللهِ يبرّرُ فيهِ عمليّةَ زواجهِ من زينب، حيثُ يأمرهُ اللهُ أن يتّخذها لهُ زوجة، ويمكننا قراءةُ هذهِ التحفةِ منَ الوحيِ في سورةِ الأحزاب، الآية رقم 37 {فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ} ونحنُ نسألُ هنا، أيمكنُ لأيِّ مسلمٍ نزيهٍ وذكي أن يؤمنَ بأنَّ هذهِ الكلماتِ المقتبسةَ هنا هيَ كلامُ الله، أليسَ منَ الواضحِ أنَّ كلَّ هذهِ الآيةِ بدلاً من كونها وحياً مباشراً من عندِ الله، قد صيغت بتعمّدٍ وعن سابقِ قصدٍ وإصرارٍ من قِبَلِ محمّد لتبريرِ أفعالهِ وغاياتهِ الخاصّة؟

وحيٌ آخرُ مزعومٌ لفّقهُ محمّد لتبريرِ مسألةٍ من مسائلهِ العائليّةِ موجودٌ في سورةِ التحريم الآيتان رقم 1 و2 حيثُ منحهُ اللهُ إذنهُ _منحَ نفسهُ إذناً_ بكسرِ وعودهِ التي كانَ قد قطعها،

هذهِ الروايةُ التي رواها العديدُ منَ المفسّرينَ ورجالِ الدّين جرت على النحوِ التالي: كانَ النبيُّ قد أظهرَ الكثيرَ منَ الإعجابِ والمحاباةِ تجاهَ ماريّة، ممّا أثارَ الغيرةَ في قلبِ العديدِ من زوجاته، واللواتي ذكّرنهُ بشدّةٍ ومراراً وتكراراً بعهدِهِ الذي قطعهُ على نفسِهِ وعليهنّ بألّا يلمسَ أيَّ فتاةٍ أو خادمةٍ مهما كانت. لكنَّ النبيَّ قد رأى أنَّ قطعَ الوعودِ والعهود أسهلُ بكثيرٍ منَ المحافظةِ عليها، ووجدَ أنَّ تفوّقهُ الشديدَ وشهيّتهُ الكبيرةَ لهذهِ الفتاةِ القبطيّةِ العبدة أقوى من أن يستطيعَ مقاومتها، لكنّهُ وجدَ حلاً للمشكلة، وبرّرَ ارتباطهُ بهذهِ الفتاةِ عن طريقِ تلفيقِ الآيةِ التّالية مانحاً نفسهُ الإذنَ بكسرِ عهده: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ * تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ * وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ * وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ * وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} لن نعلّقَ أكثر حولَ هذهِ الآية، وسنطرحُ سؤالاً على المسلمِ ليتفكّر فيها إذا كانَ منَ الممكنِ أنَّ هذهِ الكلماتِ هيَ من عندِ الله... ما إذا كانت كلماتُ القرآن، مكتوبةً في اللّوحِ المحفوظِ وقبلَ بدءِ الخليقة. وحولَ هذهِ العلاقة هناكَ حديثٌ ينقلهُ لنا المسلمونَ [صحيح البخاري 4788] يقدّمُ تفسيراً موحياً حولَ تشريعاتِ محمّدٍ العائليّةِ والمتعلّقةِ بأمورِ وشؤونِ عائلتِهِ ونسائه: ((قالت عائشة: كنتُ أغار على اللواتي وهبنَ أنفسهنَّ لرسولِ الله صلعم فقلتُ أتهبُ المرأةُ نفسها؟ فلمّا أنزلَ اللهُ تعالى {ترجئُ من تشاءُ منهنَّ وتؤوي إليكَ من تشاء ومن ابتغيتَ ممّن عزلتَ فلا جُنَاحَ عليك} [سورة الأحزاب 51] قلت: ما أرى ربّكَ إلّا يسارعُ في هواك)).

الإشاراتُ القرآنيّةُ الكثيرةُ والمتناقضةُ فيما يتعلّقُ بقضيّةِ الجهادِ، أو الحرْبِ المقدّسة، هيَ بمثابةِ مثالٍ آخر حولَ سياسةِ النبيُّ الزئبقيّةِ والمؤقّتة، أيُّ دراسةٍ تاريخيّةٍ لذلكَ الكتاب ستبيّنُ لنا أنّهُ خلالَ المراحلِ المبكرةِ الأولى منَ الإسلام عندما كانَ محمّد ما يزالُ ضعيفاً ولاجئاً مضطّهداً، محروماً منَ القوّةِ اللازمةِ لفرضِ أفكاره بحدِّ السّيف، كانَ مائلاً لاتّباعِ سياسةِ الاعتدالِ والتسامح في تعاملِهِ مع غيرِ المسلمين. حيثُ أنّنا نقرأُ في سورةِ البقرة، الآية 257 {لا إكراهَ في الدّين}، لكن عندما ابتسمَ لهُ الحظُّ ووجدَ نفسهُ محاطاً بمجموعتِهِ من ملوكِ الحرْبِ المتعطّشينَ للسلبِ والغنائم، اتّخذَ وحيهُ منعطفاً خطيراً، حيثُ عملَ على تلفيقِ آياتٍ تحثُّ أتباعهُ على مقاتلةِ الكفّارِ وغيرِ المؤمنين {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ} [سورة الأنفال 39] وكتأكيدٍ على هذهِ الأوامر أخذت الآياتُ تهطلُ عليهِ وهيَ تتضمّنُ هذهِ الكلماتِ المتوعّدة:{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ * وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ * وَبِئْسَ

الْمَصِيرُ} [التوبة 73]{فاقتلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ} [التوبة 5] كثيراً ما نرى محمّد وهوَ يشيرُ إلى جمالِ القرآنِ العربيِّ وأناقته، وأسلوبِهِ الرائعِ وتراكيبِهِ التي لا تضاهى في إعجازها، كدليلٍ على مصدرِهِ السّماويِّ والإلهيّ. ولطالما قامَ محمّد بسرقةِ وانتحالِ الكثيرِ منَ التعابيرِ والجملِ العربيّةِ ليحسّنَ من مستوى كتابه. والأدبُ العربيُّ مليءٌ بهذهِ الأمثلةِ عن السّرقاتِ الأدبيّة، كالتي سترِدُ بعدَ قليل، ويمكنُ تقديمها كدليلٍ هنا، يخبرنا البيضاويُّ في تفسيرِهِ ((عبدُ اللهِ بن أبي سرح كانَ قد كتبَ لرسولِ الله فلمّا نزلت الآية {ولقد خلقنا الإنسان من سلالةٍ من طين} فلمّا بلغَ قولهُ {ثمَّ أنشأناه خلقاً آخر} قال عبدُ الله {فتباركَ اللهُ أحسنُ الخالقين} تعجّباً من تفضيلِ خلقِ الإنسان، فقالَ عليهِ السلام: اكتبها فكذلكَ نزلت، فشكَّ عبدُ اللهِ وقال: لئن كانَ محمّدٌ صادقاً لقد أوحيَ إليَّ كما أوحيَ إليه ولئن كانَ كاذباً لقد قلتُ كما قال)) [تفسير البيضاوي، ص 184] يتّضحُ من هذهِ القصّةِ كما يقولُ البيضاويُّ أنَّ محمّداً كانَ فخوراً جدّاً وسعيداً بالتعبيرِ الذي استخدمهُ كاتبهُ لدرجةِ أنّهُ سرعانَ ما قرّرَ إدخالهُ في القرآن، وما زالَ حتّى الآن، ولكي يتمكّنَ من ذلك، قالَ لهُ إنَّ هذهِ الجملةَ كذلك «نزلت» بحذافيرها. منَ الطبيعيِّ أنَّ عبدَ الله بنَ سرح قد سُرَّ لهذا المدح، ولأنَّ كلماتِهِ لقيت أذناً صاغيةً منَ النبيِّ، لذا قرّرَ أنَّ الوحيَ نزلَ عليهِ هوَ الآخر أيضاً، وهذا ما أثارَ سخطَ النبيِّ وغضبهُ الذي أنزلهُ على ابنِ سرح، وعبّرَ عن ذلكَ في الآيةِ التّاليةِ التي لا يمكنُ لأيِّ مسلمٍ عاقلٍ أن يؤمنَ بأنّها قد نزلت من إله {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ} [الأنعام 93] من هذهِ الرواية، والتي رواها الإمامُ حسين، يتّضحُ لنا أنَّ أسلوبَ القرآنِ لا يمكننا النظرُ إليهِ كمعجزة، إذ أنّنا هنا أمامَ آيةٍ قامَ عبدُ اللهِ بنُ سرح بتغييرها، ويمكنُ أن يندرجَ ذلكَ على باقي القرآن، ولا يمكنُ التفريقُ بينها بأيِّ حالٍ منَ الأحوال، إضافةً إلى ذلك، منَ الواضحِ أنّهُ إذا كانَ محمّدٌ يستطيعُ الادّعاءَ بأنّها وحي، وأن يُدخِلَ في القرآنِ كلماتٍ وعباراتٍ سمعها من أحدِ أتباعِهِ أو كتبته، فسيكونُ من السّهلِ أيضاً بالنسبةِ لهُ أن يزعمَ نفسَ المرجعيّةِ للقصصِ والرّواياتِ التي كانَ قد سمعها خلالَ فتراتٍ زمنيّةٍ مختلفة منَ اليهودِ والمسيحيين. وقد تركَ لنا العلاّمةُ الإسلاميُّ الشهير جلالُ الدينِ السيوطي دليلاً دامغاً بأنَّ محمّداً كانت لديهِ عادةُ لطشِ العباراتِ والكلماتِ التي يسمعها من أتباعِهِ ودمجها في قرآنِهِ كلّما أعجبتهُ عبارةٌ أو كلمة، لذا نقرأُ في كتابِهِ الشهير «الإتقانُ في علومِ القرآن»: ((النوعُ

العاشرُ فيها نزلَ منَ القرآن على لسانِ بعضِ الصحابة)).وفي حديثٍ آخرَ ينقلهُ لنا الترمذيُّ عن ابنِ عمر أنَّ ((رسولَ اللهِ صلعم قالَ أنَّ الله جعلَ الحقَّ على لسانِ عمرٍ وقلبه)) إذن؛ كانَ منَ الواضحِ جدّاً ترديدُ محمّدٍ لكلماتِ عمر لدرجةٍ جعلت جلالَ الدينِ السيوطي يخبرنا بأنَّ أصحابَ النبيِّ كانوا يقولون: ((الا نزلَ القرآنُ على نحوِ ما قالهُ عمر)) وينقلُ لنا مجاهدُ حديثاً آخرَ على نفسِ النمط، إذ يقولُ فيه: ((كانَ عمرُ يرى الرأيَ فنزلَ بهِ القرآن)) يتّضحُ تماماً من هذهِ الأحاديث أنَّ عمراً كانَ الكاتبَ الحقيقيَّ والفعليَّ لأجزاءٍ محدّدةٍ منَ القرآن. في الواقع، إنَّ الأدبَ الإسلاميَّ مليءٌ بالكثيرِ من هذهِ الآياتِ المُنتحلة [للاطّلاع أكثر على الموضوع، راجع كتاب «هدايةُ المسلمين»، ص226-224]. على سبيلِ المثال، جاءَ في القرآن: {مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ} [سورة البقرة 98]هذهِ الكلماتُ قالها عمرٌ في الأصلِ لبعضِ اليهود، وقد أعجبت محمّداً لدرجةِ أنّهُ أخذَ يردّدها كجزءٍ منَ القرآن. وكاملُ القصّةِ يرويها لنا البيضاويُّ في تفسيره: ((قيلَ دخلَ عمرُ بنُ الخطّاب رضيَ اللهُ عنه مدراسَ اليهودِ يوماً فسألهم عن جبريل فقالوا: ذلكَ عدوّنا يطلعُ محمّداً على أسرارنا وأنّهُ صاحبُ كلِّ خسفٍ وعذاب وميكاييل صاحبُ الخصبِ والسّلام قال: وما منزلتهما عندَ اللهِ تعالى قالوا: جبريلُ على يمينهِ وميكاييلُ على يسارهِ وبينهما عداوة، قال: لئن كانَ كما تقولونَ فليسا بعدوّين ولأنتم أكفرُ منَ الحميرِ ومن كانَ عدوَّ أحدهما وهوَ عدوُّ اللهِ تعالى، ثمَّ رجعَ عمر فوجدَ بريا قد سبقهُ بالوحي فقالَ عليهِ السلام قد وافقكَ ربّكَ يا عمر)) [تفسير البيضاوي، القاهرة، ص20]

حديثٌ صحيحٌ آخر ينقلهُ لنا البخاري يكشفُ لنا عن أصلِ ومصدرِ ثلاثِ آياتٍ أخرى منَ القرآن، ويثبتُ بشكلٍ قاطعٍ أنَّ محمّداً قد أضافَ إلى قرآنهِ من أقوالِ مَنْ حولهُ من صحابته، هذهِ الأحاديثُ إذا فسّرناها وحلّلناها بطريقةٍ منطقيّةٍ وعقلانيّةٍ ستكذّبُ تماماً الزّعمَ القائلَ بأنَّ القرآنَ موحى من عندِ الله، بل على العكس، إنّما تدعمُ القولَ بأنَّ هذا الكتابَ هوَ نتاجُ اليدِ البشريّة، ومن تأليفِ من هم حولَ محمّد. أمّا الأحاديثُ فهيَ على الشّكلِ الآتي: ((أخرجَ البخاريُّ وغيرهُ عن النحس قالَ عمرُ بنُ الخطّاب: وافقتُ ربّي في ثلاث قلت: يا رسولَ اللهِ لو اتخذنا من مقامِ إبراهيمَ مصلّى، فنزلت {واتخذوا من مقامِ إبراهيمَ مصلّى}، وقلت: يا رسولَ الله إنَّ نساءكَ يدخلُ عليهنَّ البرُّ والفاجرُ فإن مُرْتَهُنَّ يحتجبن فنزلتَ آيةُ الحجابِ واجتمعَ على

رسولِ اللهِ نساؤهُ في الغيرةِ فقلتُ لهنّ: عسى ربّهُ إن طلّقكُنّ أن يبدّلهُ أزواجاً خيراً منكنّ فنزلت كذلك)) ويمكننا إيرادُ العديدِ منَ الآياتِ والمقاطعِ القرآنيّةِ التي استعارها محمّدٌ من ألسنةِ أتباعهِ وصحابته، لكنّ حدودَ هذا الكتابِ وصغرَ حجمهِ يحولانِ دونَ التوسّعِ أكثرَ من ذلك حولَ هذهِ النقطة[يمكنُ للقارئِ الفضوليّ أن يجدها جميعها في كتابِ جلال الدين السيوطي، الإتقانُ في علومِ القرآن، الجزء الأول، ص43] أمّا القارئُ الرّاغبُ في متابعةِ الموضوعِ والتعمّقِ أكثرَ فيه، فعليهِ الرجوعُ إلى كتابِ عمادِ الدين الشهير «هدايةُ المسلمين» حيثُ أنّهُ يعالجُ هذهِ المسألةَ بشكلٍ مطوّل. ونكتفي بهذا لإثباتِ مدى كذبِ ولا صوابيّةِ الإيمانِ بأنّ القرآنَ منزّلٌ منَ الله عن طريقِ الملاكِ جبريل، حتّى أنّ القرآنَ نفسهُ يشهدُ على تلفيقِ وصياغةِ العديدِ منَ الآياتِ القرآنيّةِ لتلبيةِ أغراضِ محمّدٍ الشخصيّةِ وغاياتهِ الخاصّة. الكمُّ الأكبرُ منَ الآياتِ القرآنيّة، كما سبقَ ورأينا، تتضمّنُ عناصرَ عديدةً مختلفةً مأخوذةً من مصادرَ موجودةٍ أصلاً، والتي تبنّاها محمّدٌ وأخذها وصاغها بطريقتهِ، ثمّ أدخلها في قرآنهِ الذي نقرأهُ اليوم.

جدالٌ حولَ القرآن...

حوارٌ مع كريستوف لوكسنبرغ

حاورهُ: كريستوف برغمر[1]

س: كريستوف برغمر: سيّد لوكسنبرغ، كتابكَ الذي يحملُ عنوان: «قراءةٍ آراميّةٍ-سريانيّةٍ للقرآن: مساهمةٌ في تفسيرِ لغةِ القرآن» سبّبَ حركةً رئيسيّةً في الأوساطِ الثقافيّة. الصّحفُ والمجلاّتُ في كافّةِ أرجاءِ العالمِ نقلت نتائجَ أبحاثك، وكانَ هناكَ بعضُ الجدالاتِ وردودِ الفعلِ العنيفة، تلتها مجموعةٌ كبيرةٌ منَ المحاضراتِ والحلقاتِ الدراسيّة. لقد عبّرَ النّاسُ من مختلفِ أنحاءِ العالمِ عن آرائهم: باحثون، أشخاصٌ عاديّون، مسلمونَ وغيرُ مسلمين، مع أثرٍ جانبي وهوَ أنَّ البحوثَ في القرآن وعلى مدى سنينَ طويلة كانت محصورةً في الغرفِ الدراسيّةِ الهادئة وضمنَ مجموعةٍ محدّدةٍ منَ العلماءِ والباحثينَ الغربيينَ والعرب، أمّا الآن فهذهِ البحوثُ تجتذبُ اهتمامَ الرأيِ العامِّ العالميِّ مرّةً أخرى، كطائرِ العنقاءِ الذي انبعثَ من الرماد.كتابٌ من بينِ الكتبِ الأكثرِ مبيعاً، بالرّغمِ من أنّكَ قد ألّفتهُ باللغةِ الألمانيّةِ ونشرتهُ في ألمانيا، بالإضافةِ إلى صعوبةِ قراءتهِ وفهمه، لماذا قرّرتَ استخدامَ المناهجِ والأساليبِ اللغويّةِ لفحصِ القرآن؟

ج: كريستوف لوكسنبرغ: في البدايةِ أودُّ أن أقولَ أنَّ الباحثينَ والعلماءَ الغربيّين كانوا يعرفونَ تمامَ المعرفة ومنذُ مدّةٍ طويلة أنَّ هناكَ بعضَ الآياتِ الغامضةِ وغيرِ المفهومةِ في القرآن. وهذا يتوافقُ مع تفسيراتِ وتأويلاتِ المفسّرينَ العرب. على أيّةِ حال، كانت هذهِ الآياتُ أو العباراتُ الغامضةُ هيَ النقطةَ التي انطلقتُ منها خلالَ عملي هذا. أمّا

---

(1) حوارٌ مأخوذٌ باختصار من كتابِ كريستوف برغمر: ﴿جدالٌ حولَ القرآن: نقاش لوكسنبرغ﴾ ترجمة عن النص الإنكليزي ((Dispute about the Koran: The Luxenberg Debate)). العنوانُ الأصليُّ للكتاب باللغةِ الألمانيّة:

Christoph Burgmer, Streit um den Koran. Die Luxenberg Debatte: Standpunkte und Hinterdründe. Pp. 14 – 34. © Verlag Hans Schiler, Berlin 2004.

المحاولاتُ السّابقةُ في تفسيرها فكانت معتمدةً على التخميناتِ والافتراضاتِ أكثرَ من كونها مؤسّسةً على أرضيّةٍ فلسفيّة. لكنَّ التخميناتِ لا يمكنها ـولم تكن قطـ أن تكونَ أساساتٍ صلبةً لمنهجٍ علميٍّ متماسك، وأنا أحاولُ أن أستخدمَ أساليبَ فلسفيّةً لتوضيحِ وتفسيرِ هذهِ الآيات. والقاموسُ السّيرو- آرامي قد تبيّنَ أنّهُ أفضلُ وسيلةٍ لتحقيقِ ذلك.

س: قبلَ أن نتناولَ موضوعَ القرآنِ واللغةِ القرآنيّة، أودُّ أن أسألكَ عن سببِ توظيفكَ للّغةِ السّيرو- آراميّة كأداةٍ لتفسيرِ القرآنِ وفكِّ طلاسمه؟

ج: لأكثرَ من ألفِ سنة كانت اللغةُ الآراميّةُ هيَ اللغةَ الرسميّةَ للتعارفِ واللغةَ الثقافيّةَ لمنطقةِ غربيِّ آسيا، والتي يطلقُ عليها اليوم اسمُ «الشّرقِ الأوسط». كانَ الإغريقُ يطلقونَ على اللغةِ الآراميّةِ Aramaic المستخدمةُ هنا باسمِ «السُّريانيّة Syriac»، وقد اشتقّوا هذا الاسمَ منَ الآشوريّة Assyria، أو بلادِ آشور موطنِ الآشوريّين، لكن مع إسقاطِ الحرفِ الأوّل «الألف A»، وخلالَ القرنِ الثّاني للميلاد، كانَ الآشوريّونَ المسيحيّونَ يسمّونَ أنفسهم «بالسُّريان»، وكانت لغتهم هيَ السُّريانيّة، وذلكَ لتميزِ أنفسهم عن الآشوريّينَ الوثنيّين، وقد أصبحت هذهِ اللغةُ السُّريانيّةُ هيَ اللغةَ المكتوبةَ والثقافيّةَ السّائدةَ خلالَ العهدينِ القديمِ والجديد، وقد أطلقَ العربُ على هذا الشّكل منَ الآراميّةِ اسمَ السُّريانيّةِ حتّى يومنا هذا.

س: على غرارِ العربيّة، إنَّ السّيرو- آراميّة هيَ لغةٌ ساميّة، لذلكَ فكلا اللّغتينِ متقاربتان. هل هذا ينطبقُ أيضاً على طريقةِ كتابةِ كلٍّ منهما، ما هوَ الفرقُ بينَ اللّغةِ السّيرو- آراميّةِ المكتوبةِ والعربيّة؟

ج: هناكَ الكثيرُ منَ الجذورِ المشتركةِ بينَ اللغتينِ السّيرو- آراميّةِ والعربيّةِ المكتوبة، كما في نظامهما اللفظيّ، فهما لغتانِ شقيقتان، أمّا الشيءُ المميّزُ فيهما فهوَ ما يُعْرَفُ «بالميزةِ ثلاثيّةِ الجوانب Trilaterality»؛ ومعنى ذلكَ أنّ جذرَ الكلمةِ في كلٍّ منهما يتألّفُ من ثلاثةِ حروفٍ ساكنة، وتلكَ الحروفُ الثلاثةُ السّاكنة يمكنُ أن تتوسّعَ وتمتدّ، وهذهِ الخاصّيّةُ هيَ التي تربطُ اللّغاتِ الساميّةَ ببعضها البعض، خُذ على سبيلِ المثال كلمة (كَتَبَ)

وهيَ تحملُ معنى فعلِ الكتابةِ في كلا اللّغتين، وقد جاءت من الجذرِ الثلاثيِّ (ك-ت-ب) هذا الجذرُ المؤلّفُ من الحروفِ السّاكنةِ مكتوبٌ أيضاً عادةً. على أيّةِ حال، إنَّ الذي يعرفُ باسمِ «الحروفِ شبهِ الصوتيّة أو نصفِ صوتيّة = ساكنة» كانت تستعملُ أيضاً mate lectionis؛ أي كحروفٍ صوتيّة، وذلك لأنّها -الأحرفُ الصوتيّة- لم تكن مكتوبة. النقطةُ هنا، هيَ أنّ الأحرفَ الصوتيّةَ لم تكن مكتوبةً في المخطوطاتِ المبكرةِ للقرآن، بل أُضيفَت فيما بعد. إنَّ فهمَ المخطوطةِ العربيّةِ جعلَ الأمرَ أكثرَ صعوبةً من خلالِ واقعِ أنَّ الحروفَ السّاكنةَ غامضةٌ ومبهمة، فالأبجديّةُ العربيّةُ تحتوي فعليّاً على 15 حرفاً مقابلَ الآراميّةِ التي تحتوي على 22 حرفاً، أمّا العربيّةُ اليوم فإنّها تحتوي 28 حرفاً مستخدماً، لكن فقط ستّةُ حروفٍ واضحةٍ وغيرُ غامضة، أمّا الأحرفُ الاثنينِ والعشرينَ الباقية فإنَّ لها معنيّينِ أو أكثر. مثال، دعنا نرجعُ إلى الجذرِ الثلاثيِّ (ك ت ب) وبسببِ غموضِ الشّكل المكتوب، فإنّي أستطيعُ أن أقرأَ هذهِ الكلمةَ على الشّكل التالي: (كَتَبَ) والتي تعني فعلَ الكتابة، لكن بإمكاني أيضاً أن أقرأَ هذا الجذرَ بشكلٍ آخر (كَبَتَ) بمعنى القمعِ والكبت.هناكَ رابطٌ أو علاقةٌ ما بينَ السّيرو- آراميّةِ المكتوبةِ والعربيّةِ المكتوبة، لكنّهُ مجرّدُ رابطٍ جزئيّ، فبخلافِ السريانيّة، إنَّ مظهرَ العديدِ منَ الأحرفِ في المخطوطةِ العربيّةِ تُختَصَرُ إلى حرفٍ مماثل، لكن عندما تتميّزُ هذهِ الإشارةُ بعلاماتٍ (التي تعرَفُ باسمِ علاماتِ التشكيلِ التي توضعُ فوقَ الحروف) تصبحُ جليّةً وواضحة، إذ أنّها تمثّلُ أكثرَ من خمسةِ حروفٍ مختلفة، حيثُ يمكنُ للحرفِ الواحد أن يُقرَأ بطرقٍ مختلفةٍ وذلكَ اعتماداً على موضعِ الحركة؛ أي أنّها فوقهُ أم تحته. على أيّةِ حال، المقصودُ هوَ أنَّ هذهِ الحركاتِ لم تكن موجودةً في الكتابةِ العربيّةِ المبكرة، بل لقد تطوّرت في مراحلَ لاحقة، وخلقت نظاماً كاملاً جعلَ منَ الإشاراتِ والعلاماتِ الغامضةِ حركاتٍ جليّةً وواضحة. أمّا في النّصِّ السّيرو- آراميّ، من ناحيةٍ أخرى، لم يكن هناكَ سوى حرفينِ متشابهينِ يُميَّزُ بينهما عن طريقِ نقطتين: حرفُ الدّال، وحرفُ الرّاء. أمّا حرفُ الدّال فهناكَ نقطةٌ واحدةٌ تحتهُ، وحرفُ الرّاء نقطةٌ واحدةٌ فوقهُ، لذلكَ فاللغةُ السّيرو- آراميّة أكثرُ وضوحاً وسهولةً منَ اللغةِ القرآنيّةِ العربيّة.

س: دعنا نعد بالزّمنِ إلى الشّرقِ الأوسط خلالَ القرنِ السّابعِ الميلادي. ما هوَ الدورُ

الذي لعبتهُ اللّغةُ والمخطوطةُ السّيرو- آراميّة في ذلكَ الوقت، هل كانت هذهِ اللغةُ لغةً تجاريّةً خاصّةً بالعمل، أو أنّها لغةٌ عالميّةٌ ثقافيّةٌ سائدة؟ وذلكَ لمقارنتها مع الفارسيّةِ في الهند خلالَ الفترةِ الممتدّةِ بينَ القرنِ السّابعَ عشر والتّاسعَ عشرَ للميلاد، أو مع اللّغةِ الإنكليزيّةِ اليوم التي تشكّلُ أساسَ التواصلِ بينَ النّاسِ الذينَ يتكلّمونها مهما اختلفت لغاتهم الأمُّ وتنوّعت.

ج: هذا محتملٌ جدّاً، كانَ هناكَ أيضاً عربٌ استخدموا اللّغةَ الآراميّةَ في حياتهم اليوميّة، على سبيلِ المثال الأنباط، وفي تدمر (بالميرا) أيضاً، المدينةُ الأصليّةُ للعربِ الآراميّين، فاللّغةُ الآراميّةُ كانت لغةً محكيّةً ومكتوبة. لذلكَ يُفترضُ أنّ العربَ المثقّفينَ في سوريا وما حولها كانوا يتكلّمونها، أمّا في الشّرقِ الأقصى، كانت اللّغةُ الفارسيّةُ هيَ اللّغةَ السّائدة، أمّا في المدنِ السّوريّةِ فكانت الإغريقيّة. لم تُحدد بعد ماهيّةُ التأثيراتِ التي خلّفتها هذهِ اللّغاتُ على الحجاز، وهيَ جزءٌ من شبهِ الجزيرةِ العربيّةِ والتي تسمّى في الوقتِ الحاليّ «السعوديّة» حيثُ كانَ نفوذُ محمّد، ولكن إذا كانت لغةُ القرآنِ هيَ لغةَ أهلِ الحجاز، عندها يمكننا افتراضُ وجودِ تأثيرٍ آراميٍّ كبير.

في النهاية، نلاحظُ حتّى أنّ اسمَ «مكّة» آراميّ، والذي يعني الجوفَ أو الفجوة، فهيَ تقعُ في أسفلِ الوادي بينَ هضبتين، ويشيرُ ذلكَ إلى أنّها مستوطنةٌ آراميّة، وكانَ النبيُّ تاجراً حتّى أنّ أسفارهُ بلغت مدينةَ دمشق، ويفترضُ أنّهُ على الأقلّ قد تعلّمَ جميعَ هذهِ اللّغاتِ، فمنَ المستبعدِ أن يكونَ هناكَ تاجرٌ يسافرُ بشكلٍ مستمرٍّ إلى بلدٍ آخر ولا يعرفُ على الأقلّ بعضَ الكلماتِ المستخدمةِ في ذاكَ البلد، لذا منَ المحتملِ أنّهُ قد فهمَ بعضَ الكلماتِ من هذهِ اللّغة. من ناحيةٍ أخرى، التّراثُ الإسلاميُّ يرفضُ فكرةَ أن يكونَ محمّدٌ يعرفُ الكتابةَ بهذهِ اللغة، فهم يؤكّدونَ بشكلٍ واضح أنّ محمّداً كانَ أمّيّاً، إلّا أنَّ هناكَ آيةً في القرآنِ جاءَ فيها {وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ} [العنكبوت: 48] لذا أفترضُ أنَّ معنى هذهِ الآية هوَ أنَّ محمّداً كانَ يقرأُ ويكتب.

س: كيفَ تمَّ تداولُ هذهِ اللّغة، اجتماعيّاً وسياسيّاً، في مكّةَ القرنِ السّابعِ للميلاد؟

ج: كانت مكّةُ نقطةَ التقاءٍ هامّةً جدّاً على طريقِ التجارةِ بينَ سوريا وجنوبِ شبهِ الجزيرة

العربيّة. الأنباطُ الآراميّونَ الذينَ كانت عاصمتهم البتراء التي تقعُ في الأردن في الوقتِ الحالي، كانوا تجّاراً نشطينَ جدّاً، طبعاً، كأيِّ مركزٍ تجاري، كانَ هناكَ العديدُ منَ الغرباءِ في مكّةَ أيضاً، وخصوصاً منَ الآراميّين، حتّى أنَّ العربَ أنفسهم كانوا بدواً بشكلٍ رئيسي؛ أي أنّهم لم يستقرّوا في مكانٍ معيّن، وهذا ما يشيرُ إليهِ اسمهم «العرب»، وهوَ إشارةٌ إلى النّاسِ الذينَ يعيشونَ حياةً بدويّة. نحنُ لا نعرفُ شيئاً عن اللغةِ التي تحدّثَ بها محمّد، كلُّ ما وصلنا منهُ هوَ مداولاتهُ وحواراتهُ اللاّحقةُ والمعروفةُ «بالأحاديث»، وقد جُمِعَت ودُوِّنت خلالَ العصورِ الوسطى، ثمَّ وُثِّقَت بإرجاعها إلى الأشخاصِ الذينَ بدورهم أقاموا معرفتهم وأرجعوها إلى مرجعيّاتٍ سابقةٍ فعلت نفسَ الشيء، لذلك فالحديثُ لا يعدُّ الحديثَ أصيلاً وصحيحاً إلّا إذا كانَ متبوعاً بسلسلةٍ طويلةٍ غيرِ قابلةٍ للكسرِ منَ المرجعيّات إلى أن تصلَ إلى النبيِّ نفسه.

وبالرّغمِ من أنّهُ قد تمَّ توثيقُ الأحاديثِ بطريقةٍ ذكيّةٍ في ذلكَ الوقت، إلّا أنّهُ يجبُ فحصها وتدقيقها وتقويمها بشكلٍ نقديٍّ صارم في الوقت الحالي. العديدُ منَ المسلمينَ في الواقع قاموا بذلكَ على مرِّ القرون، البخاري، الباحثُ الإسلاميُّ الأهمُّ في مجالِ الأحاديث، جمعَ حوالي 60000 حديثاً في القرنِ التّاسع، إلّا أنّهُ صنّفَ فقط 2000 حديثٍ بعدّها أحاديثَ صحيحة، ولاحقاً تمَّ التشكيكُ في الكثيرِ منها، ومع ذلك، وبالرّغمِ منَ التشكيكِ بالكثيرِ منَ الأحاديث، إلّا أنّها مازالت تعدُّ امتداداً هامّاً للقرآنِ حتّى الوقتِ الحالي، بالرّغمِ من أنّها التصريحاتُ المنطوقةُ الوحيدةُ التي وصلتنا من محمّد، وهذهِ التصريحاتُ المنطوقة قد جُمِعَت في مرحلةٍ متأخّرة، وليسَ من قِبَلِ معاصريّ النبيّ، لذلك من غيرِ المحتملِ أن نتأكّدَ من عمرِ تلكَ الأحاديثِ أو أصلها ـ بخلافِ النصوصِ القرآنيّةِ المتوفّرةِ لدينا في الوقتِ الحالي، والتي يعودُ تاريخها إلى أوائلِ القرنِ الثّامنِ الميلادي.

س: ما طبيعةُ العلاقةِ التي كانت قائمةً بينَ العربيّةِ والسّيرو- آراميّة خلالَ زمنِ النبيِّ وما بعده؟

ج: عندما جاءَ الإسلام كانت اللّغةُ السُّريانيّةُ لبعضِ الوقتِ هيَ اللغةَ الرسميّة، لذلك كانت اللّغةُ السّيرو- آراميّة موجودةً جنباً إلى جنب مع العربيّة، ثمَّ تطوّرَ النصُّ العربيُّ،

متّخذاً النبطيّةَ كنموذجٍ له، وبالرّغمِ من أنَّ العربيّةَ كانت مستخدمةً مسبقاً في الكتابةِ خلالَ القرنِ الأوّلِ للهجرة، والذي يمثّلُ بدايةَ التقويمِ الإسلاميّ، استُبدِلَت السُّريانيّةُ كلغةٍ مكتوبةٍ رسميّةٍ بشكلٍ نهائيٍّ في عهدِ الخليفةِ عبدِ الملكِ بنِ مروان، وكانَ ذلكَ بعدَ مضيِّ حوالي سبعينَ عاماً على موتِ النبيّ.

س: ما هيَ المصادرُ التّاريخيّةُ للغةِ العربيّة؟

ج: كانَ هناكَ اعتقادٌ شائعٌ مازالَ حتّى الوقتِ الحالي يرى أنَّ اللّغةَ العربيّةَ هيَ من أقدمِ اللّغاتِ السّاميّة، ويقالُ أنّها كانت محكيّةً قبل 2000 أو 3000 سنة قبلَ المسيح، لذلكَ لم تقم أيّةُ محاولةٍ علميّةٍ جادّة لتحليلِ وشرحِ اللّغةِ العربيّة من ناحيةِ اللّغاتِ السّاميّةِ المتأخّرة، فالسّماتُ الغامضةُ للّغةِ العربيّةِ القرآنيّة تمَّ تقصّيها وبحثها من جهةٍ واحدةٍ وهيَ جهةُ اللغةِ العربيّةِ ذاتها. التّراثُ العربيُّ يشيرُ أيضاً إلى الشّعرِ العربيّ الذي يُفترضُ أنّهُ تراثٌ قبلَ إسلامي، ولذلكَ فهوَ أقدمُ منَ اللّغةِ القرآنيّةِ المكتوبةِ للقرآن، على أيّةِ حال، إنَّ قِدَمَ هذا التّراثِ الشعريّ مشكوكٌ فيهِ من قِبَلِ طه حسين على سبيلِ المثال، وهوَ كاتبٌ مصريٌّ مشهورٌ جدّاً، أمّا فكرتهُ فكانت أنّهُ لم يكن هناكَ أيُّ دليلٍ مكتوبٍ أو مدوّنٍ مهما كانَ نوعهُ على الشّعرِ العربيِّ القديم، إلّا أنّهُ تمّت صياغتهُ خلالَ الفترةِ العربيّة، وقد فُسِّرَ هذا الأمرُ من واقعِ أنَّ هذا الشّعرَ قد جُمِعَ خلالَ القرنِ التّاسعِ للميلاد، لذا يقولُ طه حسين أنّهُ يجبُ على الباحثِ أن يسمحَ بالتساؤلِ كيف، ومن قِبَلِ مَن، تمَّ جمعُ كلِّ هذا التّراثِ الشّعريِّ في القرنِ التّاسع، وبشكلٍ مفاجئ، لكن في ذلكَ الوقت، سبّبَ هذا التساؤلُ الكثيرَ منَ الاضطّراباتِ في مصر، وكانَ على طه حسين أن يسحبَ كلامهُ ويتراجعَ عن أفكارهِ بشكلٍ علنيّ، بما أنّهُ وطبقاً للتّراثِ العربيّ، فالشّعرُ العربيُّ القديمُ متطابقٌ بشكلٍ كبيرٍ مع لغةِ القرآن.

س: إذا تتبّعَ الإنسانُ التّراثَ الإسلاميَّ الذي ذكرته، فالتصنيفُ المكتوبُ للقرآنِ يرجعُ إلى الخليفةِ «عثمان»، وهوَ أمرٌ معترفٌ بهِ من قِبَلِ جميعِ المسلمين كخليفةٍ محمّدٍ الثّالث وكأميرٍ للمؤمنين، ويقالُ أنّهُ جمعَ، فحصَ، ورتّبَ القرآنَ الحاليَّ من أجزاءٍ متفرّقةٍ ومختلفةٍ منَ القرآنِ الأصليِّ الذي كانَ موجوداً في القرنِ السّابع، وبعدَ سنواتٍ قليلةٍ من وفاةِ النبيّ.

ج: هذا ما يقولهُ لنا التّراثُ الإسلاميّ، ولكن ليسَ هناكَ أيُّ شكلٍ من أشكالِ الكتاباتِ القرآنيّةِ موجودٍ بينَ أيدينا يعودُ إلى فترةِ الإسلامِ المبكر، على الأقلّ لم نجد أيّاً منها حتّى الوقتِ الحالي، لذا فالرّدُّ على مثلِ هذا التصريح يجبُ أن يكونَ إشارةَ استفهامٍ كبيرة، خصوصاً عندما يكتشفُ الباحثُ أنّهُ لم يُحتَفَظ ولا بأيِّ نسخةٍ منَ القرآنِ الأصليّ، حتّى بالرّغمِ من أنَّ الشّكل المكتوبَ منَ القرآن معروضٌ كأوّلِ كتابٍ في العربيّة. ليسَ هناكَ أيّةُ نصوصٍ عربيّةٍ أقدم باستثناءِ بعضِ المخطوطات، وبوضعِ القرآنِ جانباً، إنَّ أقدمَ كتابٍ مكتوبٍ باللّغةِ العربيّةِ يعودُ في تاريخهِ إلى القرنِ الثّامنِ الميلادي، وهوَ كتابُ السيرةِ النبويّةِ لابنِ هشام، وكتابُ كليلة ودمنة لابنِ المقفّع، لذلكَ لن يجدي التساؤلُ العربَ سواءً لم يقرؤوا أو لم يكتبوا بينَ المرحلةِ التي جاءَ فيها القرآن والمرحلةِ التي دُوِّنَ فيها أوّلُ كتابٍ في الأدبِ العربيّ؛ من هم هؤلاءِ العرب، وما هيَ الخلفيّةُ الثقافيّةُ لهؤلاءِ الكتبةِ والنّاسخينَ الذين كتبوا القرآن؟ هناكَ عددٌ منَ النقوشِ العربيّةِ تعودُ إلى فترةٍ أقدمَ منَ الكتابةِ العربيّةِ القرآنيّة، إلى الأزمانِ ما قبلَ الإسلاميّة، لكنَّ العربيّةَ كانت تستخدمُ هناك، وهيَ بالتّأكيدِ عربيّة، مختلطةٌ مع كلماتٍ آراميّة، كما في حالةِ- على سبيلِ المثال- نقشُ نيمارا المشهور والذي يعودُ تاريخهُ إلى عام 328 قبلَ الميلاد، ووُجِدَ على مسافةِ 120 كلم جنوبَ شرقِ مدينةِ دمشق، حتّى أنَّ هناكَ نقوشاً أخرى أقدم تمّ اكتشافها، توحي إلى اللّغةِ العربيّة، بالإضافةِ إلى النقوشِ العربيّة، هناكَ مخطوطاتٌ ورسائلُ أقلّ مكتوبةٌ على ورقِ البرديِّ منذُ زمنِ محمّدٍ وأتباعهِ المعاصرينَ له. النقطةُ الرئيسيّةُ هنا هيَ أنّهُ لا توجدُ أيّةُ كتب، ورغمَ ذلك كانَ النّاسُ زمنَ النبيِّ يتكلّمونَ المستوى الكلاسيكيَّ العالي للقرآن، وهذا على الأقلّ موجودٌ في كلِّ المصادرِ التّراثيّةِ العربيّة. إنَّ الشّعرَ العربيَّ القديمَ المذكورَ أعلاه يمكنُ تقديمهُ كدليلٍ على ذلك. وهوَ بالطبعِ مكتوبٌ بشكلٍ كلاسيكيّ، لكنّهُ لا يمكنُ أن يؤكّدَ ما إذا كانت هذهِ العربيّةُ الكلاسيكيّةُ محكيّةً أم لا، بالإضافةِ إلى أنّنا نعرفُ أنَّ الشّعرَ هوَ شكلٌ فنّي، لذلكَ ربّما كانَ هناكَ شعراءٌ أتقنوا اللّغةَ العربيّةَ الكلاسيكيّةَ بشكلٍ جيّد، وأنَّ قصائدهم قد انتقلت من مصدرٍ إلى آخر حتّى وصلت إلى الزمنِ الحاضر. المهمُّ أنَّ ذلكَ لا يثبتُ أنَّ هذهِ اللّغاتِ كانت مستخدمةً أيضاً في الحياةِ اليوميّة، أنا أميلُ للاعتقادِ بأنَّ العربيّةَ

الكلاسيكيَّ لم تكن محكيّة، إلّا أنَّ النّاسَ في عصرِ النبيِّ استخدموا لهجاتٍ مختلفة.

س: بالنسبةِ للمسلمينَ المؤمنينَ أنَّ اللّغةَ العربيّةَ هيَ لغةٌ مقدّسة، إنّها لغةُ القرآن، كما أنّها لغةُ الله، إنّهم مقتنعونَ أنَّ الله تكلّمَ العربيّةَ أو على الأقلّ أنَّ وحيهُ نزلَ بالعربيّة، إذن؛ ما هيَ العلاقةُ بينَ الأصلِ المقدّسِ للّغةِ وتدوينها، وفي هذهِ الحالة، النصِّ العربيِّ؟

ج: لا أحدَ يزعمُ أنَّ الله كتبَ بنفسه، كلُّ ما قيلَ، هوَ أنّهُ أُنزِلَ أو أوحى، وأنَّ هذا الوحيَ من النّاحيةِ المبدئيّةِ كانَ شفويّاً، وأنَّ النبيَّ أعلنهُ بشكلٍ شفويّ، إلّا أنَّ السّامعينَ أو المستمعينَ هم الذينَ دوّنوه. عندَ هذهِ النقطة، كانت اليدُ الإنسانيّةُ تعمل، لم يكن النبيُّ هوَ الذي دوّنَ الوحي، بل معاصروه، والكتبةُ المتأخّرون، لذلكَ فالنصُّ المدوّنُ ليسَ لهُ نفسُ أهمّيّةِ الكلامِ المنطوق. إنَّ التأكيدَ هنا هو على «اللّغةِ المنطوقة» بدلَ «الكلماتِ المكتوبة». طبعاً اكتسب الكتاباتُ بعضَ الأهمّيّةِ القدسيّةِ لاحقاً، وخصوصاً عندما تطوّرت أكثر منَ النّاحيةِ الخطّيّة، إنَّ التمثيلَ التصويريَّ أو الرمزيَّ غيرُ مسموحٍ في الإسلام، لذلكَ استُخدِمَ النصُّ أو المخطوطُ ـ وعباراتٌ معيّنةٌ منَ القرآن ـ من أجلِ تزيينِ وتجميلِ الأبنيةِ المقدّسة، في الصوفيّة اكتسبت الرموزُ معانٍ باطنيّةً إضافيّة، أهمّيّةً قدسيّةً تقريباً، ومع ذلك فالنصُّ لا يعطينا إلّا صورةً للّغةِ العربيّة، سواءً أكانت هذهِ الصّورةُ المكتوبةُ محكيّةً بنفسِ الطريقةِ فعلاً، كما نفعلُ نحنُ اليوم، أم أنّها كانت مجهولة. اعتمدَ النّاسُ التّراثَ الشفويَّ المنطوقَ كبرهانٍ قائم، إلّا أنّهُ ولأنَّ النّاسَ اعتمدوا التّراثَ الشفويَّ مراراً وتكراراً، فإنّهُ لا يمكننا الافتراضُ أنَّ هناكَ نصّاً موثوقاً متعلّقاً بالقرآن، لأنَّ التّراثَ الشفويَّ تبيّنَ أنّهُ مشكوكٌ فيه وخصوصاً عندما تمَّ تدوينُ شيءٍ ما مختلفٍ ضمنَ القرآن، وتلكَ هيَ القضيّةُ دائماً عندما لا يمكنُ تقديمُ أيِّ تفسيرِ «للآياتِ الغامضةِ» في القرآن من خلالِ مراجعةِ التّراثِ الشفويّ، لذا فليست فقط هذهِ الأقسام، بل كاملُ التّراثِ هوَ الذي يجبُ أن يُشَكَّكَ فيه.

س: من وجهةِ نظرِ خبيرٍ وباحثٍ في مجالِ اللّغويّات، ما هيَ الأسبابُ التي أدّت إلى التشكيكِ في التّراث؟

ج: إنَّ السببَ الرئيسيَّ يكمنُ في المخطوطةِ العربيّةِ نفسها، يبدو أنّهُ كانَ يفهمها فقط

المبتدئون، ولإيجادِ الأسبابِ وراءَ ما نبحثُ عنه، علينا أن نعودَ إلى علاماتِ التنوينِ أو التشكيلِ في اللّغةِ العربيّةِ المكتوبة، منَ المعروفِ أنَّ هذهِ العلاماتِ قد أُضيفَت لاحقاً، وفكرتي هنا هيَ أنَّ القرّاءَ -كما يمكنُ تسميتهم- لم يعد لديهم فهمٌ وإدراكٌ كاملٌ للنصِّ القرآنيّ؛ أي أنّهم ببساطة لم يعودوا يتقنونها، لذلكَ فهؤلاءِ القرّاء قرّروا وحاولوا تفسيرَ النصِّ القرآنيِّ بالاعتمادِ على فهمهم المعاصرِ لتلكَ الفترةِ للّغةِ العربيّة. ففي زمنهم كانت الآراميّةُ قد اختفت بشكلٍ كاملٍ بكلِّ معنى الكلمة من إدراكهم، لذلكَ، بشكلٍ شعوريٍّ أو لا شعوريّ، تجاهلوا العلاقةَ اللّغويّةَ/ اللّسانيّةَ التّاريخيّةَ المشتركةَ بينَ العربيّةِ والآراميّة، ومع ذلك كانَ هذا ضروريّاً جدّاً لفهمِ النصّ، ففي النهاية، إنَّ النظامَ المكتوبَ المستخدمَ في القرآن قائمٌ على الآراميّة، وهناكَ مصدرٌ آخرُ محتملٌ للأخطاءِ ضمنَ نظامِ النصِّ العربيِّ نفسه، كما ذكرتُ مسبقاً، هناكَ فقط ستّةُ أحرفٍ منَ الأبجديّةِ تتّصفُ بعدمِ الغموضِ والوضوح، أمّا الاثنتانِ والعشرينَ الباقية فهيَ تحتاجُ إلى توضيحٍ وتفسير.

إنَّ خطرَ إساءةِ الفهمِ كانت كبيرةً جدّاً، والقراءاتُ الخاطئةُ المتكرّرةُ يمكنُ أن توضّحَ أيضاً بهذهِ الطريقة. لذا منَ الممكنِ الافتراضُ أنَّ النّاسَ الذي كتبوا في الأصلِ القرآن، قرؤوهُ وفهموهُ بشكلٍ صحيحٍ دونَ العلاماتِ وإشاراتِ التنوين، لكنَّ القرّاءَ اللاّحقينَ والمفكّرين، الذينَ حاولوا التّأسيسَ لطريقةٍ واضحةٍ لقراءةِ القرآن وأضافوا علاماتِ التنوين من أجلِ هذا الغرض، افتقروا إلى المعرفةِ الثقافيّةِ – التّاريخيّة. ولهذا السّببِ لم يتمكّنوا من تفسيرِ العديدِ منَ الآيات، وكانوا ببساطةٍ مخطئينَ بالطريقةِ التي أسّسوا وفقها هذهِ العلامات. لذلك ليسَ القرآنُ هوَ المخطئ، بل البشرُ الذينَ قرأوا النصّ. هذهِ الفكرةُ أيضاً مدعومةٌ بالحقيقةِ التّاريخيّةِ التي تقول: أنّهُ كانت هناكَ مقاومةٌ كبيرةٌ لإضافةِ العلامات، إنَّ معرفةَ أنَّ القرآنَ أصلاً مكتوبٌ من دونِ تلكَ الإشارات ما زالت موجودةً حتّى الوقتِ الحاضر، إنَّ حقيقةَ أنَّ المسلمينَ المؤمنينَ نظروا إلى القرآنِ على أنّهُ كتابٌ مقدّس، وذلكَ يعني أنَّ النّاسَ كانوا مقتنعينَ لوقتٍ طويل، أنّهُ ليسَ منَ الممكنِ أن يكمّلَ بإشاراتِ تنوينٍ إضافيّة، وهذا هوَ السّببُ لكي يقولَ أيُّ أحدٍ أنَّ هذهِ العلاماتِ أُضيفَت بيدٍ بشريّة، فهيَ لم تكن موجودةً في القرآنِ الأصليّ.

س: في القرونِ الماضيةِ قامَ المفكّرونَ العربُ أيضاً بالتأسيسِ لفكرةِ أنَّ هناكَ تفاوتاتٍ واختلافاتٍ مهمّةً بينَ نسخِ القرآنِ العديدة؟

ج: هذا صحيح: إنَّ الفروقاتِ الكبيرةَ موجودةٌ في النسخِ المختلفةِ منَ القرآن حتّى يومنا هذا. في جامعةِ الكويت هناكَ عملٌ ضخمٌ مؤلّفٌ من ثمانيةِ مجلّداتٍ عن هذهِ الانحرافات، لكنَّ هذهِ الفروقاتِ ليست مأخوذةً بالحسبان عندَ تفسيرِ القرآن. في الوقتِ الحاضر نلاحظُ أنَّ نسخةَ القاهرة هيَ النسخةُ السّائدةُ والمشرّعةُ كنسخةٍ قانونيّة، فالمسلمونَ يقرؤونَ ويتعلّمونَ القرآنَ اعتماداً على هذهِ النسخة، يبدو أنَّ هذهِ النسخةَ منَ القرآنِ تتوافقُ مع تلكَ التي أخرجها الطّبري ـ من كبارِ مفسّري القرآنِ الإسلاميّين ـ في نهايةِ القرنِ التّاسع وبدايةِ القرنِ العاشرِ الميلاديين. هذا هوَ العمرُ الحقيقيُّ للتّراثِ الشفويِّ منذُ أن وُجِد، فالطّبريُّ نفسهُ يعدُّ بينَ المسلمين على أنّهُ أهمُّ مفسّرٍ ومعلّقٍ للقرآن، بالرّغمِ من أنّهُ حتّى لم يعلّق على القرآنِ نفسه، وبدلاً من ذلك، قامَ بجمعِ وتقويمِ التعليقاتِ المتعلّقةِ بالقرآن. إنَّ طريقتهُ المدرسيّةَ تتوافقُ تماماً مع طريقةِ البخاري، الذي وُلِدَ في إقليمِ بُخارى واكتسبَ سمعةً بأنّهُ أكثرُ العلماءِ شهرةً في العصورِ الوسطى. إنَّ الذي نطلقُ عليهِ في هذهِ الطريقةِ اسمَ «مرجعيّات» هي التي يتمُّ سؤالها أوّلاً، وهؤلاءِ أشخاصٌ بارزونَ بسببِ سمعتهم، كفاءتهم، مصداقيّتهم، وأثرهم... إلخ، إلى الذينَ وصلتهم أقوالُ النبيِّ من قِبَلِ «المرجعيّات» السّابقة. يسمّي الطّبريُّ سلاسلَ كاملةً من أولئكَ الذينَ سلّموا التّراثَ، وقال: أنَّ هذهِ أو تلكَ الآيةَ يجبُ أن تُفهَمَ بهذا الشّكل أو ذاك، على كلِّ حال، باستخدامِ هذهِ الطريقة بدأ الطّبريُّ يرسمُ أربعينَ سلسلةً - في بعضِ الأحيان- منَ السلاسلِ المرجعيّةِ ليشرحَ آيةً واحدةً فقط. يمكنُ أن يقودنا هذا الأسلوبُ إلى تفسيراتٍ مختلفة، لكنّهُ أيضاً قد يفيدُ في إيصالنا إلى أخرى مماثلة، بهذهِ الطريقةِ يتّبعُ الطّبريّ الأسلوبَ المؤسّسَ على النقلِ الشفويِّ ولا يضيفُ بدورهِ شيئاً جديداً لقراءةِ هذهِ التفسيرات، مع أنّهُ يقيّمها ويطرحُ رأيهُ في أيٍّ ممّا يراهُ صحيحاً.[1]

---

(1) أودُّ هنا أن أنبّهَ القارئَ العزيزَ بالرجوعِ إلى البحثِ الهامّ جدّاً الذي يقومُ بِهِ الأستاذ نبيل فيّاض في الوقتِ الحالي، بالبحثِ في مسألةِ الفروقاتِ بينَ المصاحف، ويمكنُ الرجوعُ إلى أبحاثهِ في موقع «الأوان» بعنوان: فروقات المصاحف. وأنصحكَ عزيزي القارئ بالرجوعِ إلى كتابِ «المصاحفِ» للسّجستاني إذا أردتَ التعمّقَ أكثر في هذهِ المسألة. المترجم

س: من المؤكّدِ أنَّ الطّبريَّ كانَ أحدَ أشهرِ العلماءِ القروسطيّين، فقد سافرَ عبرَ العالمِ العربيِّ والإسلاميّ، وتحدّثَ مع الكثيرِ منَ النّاس، وخلّفَ وراءهُ مجموعةَ أعمالٍ تذكاريّةٍ باللغةِ الأهمّيّة، أمّا المادّةُ القرآنيّةُ التي خلّفها فتصلُ إلى أكثرَ من 3000 صفحة. ما أهمّيّةُ هذا العملِ في الوقتِ الحاضر؟

ج: لقد قامَ فعلاً ببحثٍ مضنٍ لاكتشافِ الحقيقة، لكنَّ ذلكَ كانَ يتمُّ بالإشارةِ إلى التّراثِ الشفويِّ المنقول أكثرَ منَ التّراثِ المكتوبِ والمدوّن، فهوَ لم يذكر مصدراً مكتوباً واحداً في أيِّ عملٍ من أعماله، فمرجعهُ المدوّنُ الوحيدُ كان ـ كما ذكرتُ سابقاً ـ إلى تراثٍ شعريٍّ عربيٍّ قديم مشكوكٍ فيه، وقد اعتمدَ على ذلكَ في تفسيرِ الكلمةِ الغامضةِ والتعبيرِ المبهمِ في القرآن.

على كلِّ حال، إذا أنعمتَ النظرَ يتبيّنُ لكَ أنَّ الشعرَ العربيَّ القديم لا يستخدمُ إلّا التعبيراتِ القرآنيّةَ اللاّحقة حتّى أنّهُ يفهمها بشكلٍ خاطئٍ ومغلوط، لكن إذا كانَ تعبيرُ الطّبريِّ المفهومُ بشكلٍ خاطئٍ مأخوذاً كدليلٍ على صحّةِ أسلوبٍ معيّنٍ في القراءة، فإنَّ ذلكَ يعتبرُ تفكيراً حشويّاً، كما أنَّ الطّبريَّ يذكرُ معلّقينَ آخرين على القرآن، لكنّهم يصبحونَ غيرَ قابلينَ للتتبّع، لذلك فإنَّ تعليقاتهُ تبقى أيضاً منَ المصادرِ الأكثرِ أهمّيّةً من هؤلاءِ الآخرين، يمكنُ لأحدنا أن يفترضَ أنَّ الطّبريَّ على الأرجحِ جمعَ كلَّ شيءٍ عن المادّةِ والمعرفةِ القرآنيّةِ التي وُجِدَت في عصره.

س: أنتَ نفسكَ تقترحُ طريقةً أخرى في قراءةِ النصِّ القرآنيّ، ما هيَ الطريقةُ العلميّةُ أو المدرسيّةُ التي استخدمتها في توضيحِ ما يطلقُ عليهِ تسميةُ «الآياتِ الغامضة»، الكلماتِ المبهمةِ في القرآن؟

ج: وظيفةُ اللّغةِ هيَ التعبيرُ عن شيءٍ ما، لذا من خلالِ شكلٍ مدوّن أحاولُ أن أُعيدَ بناءَ لغةٍ تجعلُ منَ النصِّ شيئاً منطقيّاً ومفهوماً، لذلك فأنا أستعملُ أوّلاً المعرفةَ التي تتعلّقُ باللغةِ القرآنيّةِ التي تتعاملُ مع الأمورِ الرّوحيّةِ الأوّليّة، متمثّلةً في إيجادِ تماسكٍ منطقيٍّ في النصّ، وإذا كانت العربيّةُ لا تقدّمُ مثلَ هذا التماسك، عندها أحاولُ مع اللغةِ الآراميّة، وحتّى إن كانت الكلمةُ تلفظُ بنفسِ الشّكل، وحتّى مع المترادفات،

فأحاولُ التأكّدَ ما إذا كانت العربيّةُ أم الآراميّةَ هيَ التي تقدّمُ تفسيراً أفضل. ولذلك عليكَ أن تعرفَ الآراميّةَ معرفةً جيّدة، ومن خلالِ معرفةِ النسخةِ السّيرو_ آراميّةِ منَ الكتابِ المقدّس فقط، تكونُ عمليّةُ إعادةِ البناءِ هذهِ ممكنة، ففي النهاية، وصلتنا هذهِ الأداةُ بشكلٍ موثوق، وليست هناكَ أيّةُ مشاكلَ حولَ قراءتها وفهمها، بالإضافةِ إلى أنَّ الجهازَ العلميَّ الموثوقَ كالقواميس، يقدّمُ قاعدةً صلبةً وموثوقةً لهذهِ المغامرةِ الخطيرة.

س: ما هيَ الأجزاءُ منَ القرآنِ التي أجريتَ عليها أبحاثك؟

ج: يخبرنا التّراثُ الإسلاميُّ أنَّ قسماً منَ القرآنِ نزلَ في مكّة والقسمَ الآخر نزلَ في المدينة، والسّورُ التي نزلت في مكّة فتسمّى «بالسّورِ المكّيّة»، أمّا السّورُ الأخرى فتسمّى «بالسّورِ المدنيّة». المهمُّ هنا أنَّ الجزءَ الأكبرَ من هذهِ السّورِ جاءَ من مكّة؛ إنّها تتعاملُ مع الدّينِ والأمورِ الروحانيّةِ بشكلٍ رئيسي، أمّا السّورُ المدنيّةُ فإنّها على العكس، سياسيّة، والسّببُ وراءَ ذلك هوَ بالتأكيدِ حقيقةُ أنَّ النبيَّ قد طُرِدَ أوّلاً من قِبَلِ شعبِ مكّة وكانَ لا بدَّ لهُ من أن يهاجرَ إلى المدينة، وهذا ما يعرفُ باسمِ «الهجرة»؛ أي رحيلُ النبيِّ عن مكّةَ عام 622 للميلاد، وهوَ يشكّلُ بدايةَ التقويمِ الهجريِّ الإسلاميّ. على كلِّ حال، كانَ محمّدُ ينوي دائماً الرجوعَ إلى مدينتِهِ الأم، ثمَّ حدثت بعدَ ذلكَ عدّةُ اشتباكاتٍ عسكريّةٍ بينَ النبيِّ ومؤيّديهِ وبينَ المكّيّين. ومفهومٌ أنَّ هذهِ التوضيحاتِ للواقعِ السياسيِّ أيضاً تمَّ التعبيرُ عنها في السّورِ المدنيّة، والمهمُّ أنّي دقّقتُ بشكلٍ رئيسيٍّ السّورَ المكّيّة، بدأتُ أوّلاً في قراءةِ القرآن ببطءٍ وانتظام عام 1993، وبالتدريجِ بدأت تتشكّلُ لديَّ بصائرُ محدّدةٌ عن تعقيدِ النصِّ وتركيبه، استغرقَ ذلكَ وقتاً طويلاً، بما أنَّ فهمَ القرآنِ كانَ صعباً لأنَّ اللّغةَ المكتوبةَ لها شكلها الخاصُّ في العربيّة أكثرُ منَ اللغةِ اليوميّةِ المحكيّة. تيودور نولدكه، المستشرقُ والفيلسوفُ الألمانيُّ الأعظم في القرنِ التّاسعَ عشر، صرّحَ بشكلٍ تهكّميٍّ أنَّ شعورَ العربِ الصّحّيَّ باللّغةِ منعهم من تقليدِ أسلوبِ اللغةِ العربيّةِ القرآنيّة؛ في الأسلوبِ القرآني هناكَ لغةٌ محدّدةٌ تجدُ لها شكلاً تعبيريّاً خاصّاً بها.

س: ما أهمّيّةُ القرآنِ بالنسبةِ لكَ بصفتكَ متخصّصاً في علمِ اللّغويّاتِ أو اللّسانيّات؟

ج: أنا أعتقدُ أنَّ القرآن هوَ أوّلُ محاولةٍ للتعبيرِ الذاتيِّ باللّغةِ العربيّة، ففي ذلكَ الوقت، لم يكن هناكَ أيُّ نموذجٍ للّغةِ المكتوبة، لذلكَ نرى أنَّ بادئي هذهِ اللّغةِ العربيّةِ المكتوبة استدعوا عناصرَ اللّغةِ التي كانوا يستخدمونها في الحوارِ المتحضّر، ويمكننا الافتراضُ أنَّ هذهِ اللّغةَ كانت الآراميّة، وليست العربيّة. فالعربيّةُ القرآنيّةُ يمكنُ أن تظهرَ كمزيجٍ منَ العربيّةِ والآراميّة، وسأذهبُ لأبعدَ من ذلك لأقولَ أنّها كتجربةٍ مشابهةٍ للإسبيرانتو Esperanto [اللّغةُ المعتمدةُ كلغةٍ عالميّة]، لكنَّ الهدفَ كانَ هوَ نفسه. وعلى غرارِ مبتكري الإسبيرانتو، أرادَ كتبةُ القرآنِ أن يخلقوا لغةً مشتركةً مفهومةً ومقبولةً لأكبرِ عددٍ ممكنٍ منَ النّاس، تمَّ دمجُ اللهجاتِ أيضاً والاعترافُ بها في مرحلةٍ مبكرةٍ من قِبَلِ المفكّرينَ والمعلّقينَ والمفسّرينَ العرب. برأيي الشخصيّ أرى أنَّ ما كانوا يؤمنونَ بهِ على أنّهُ لهجة، كانَ في الحقيقةِ مزيجاً منَ العناصرِ العربيّةِ والآراميّة، والتي كانت مكتملةً بالكلماتِ الأخرى المستعارة من ـعلى سبيل المثال_ الفارسيّةِ أو اليونانيّة، والمهمُّ هنا أنَّ هذهِ الكلماتِ المستعارةَ لم تظهر إلّا نادراً في القرآن، بينما يظهرُ خلطُ العناصرِ العربيّةِ والآراميّةِ بشكلٍ طاغٍ وحاسمٍ في لغته.

س: هل التنوّعُ التّاريخيُّ - اللّسانيُّ الذي يميّزُ القرآن لهُ أيُّ اعتبارٍ في أبحاثك؟

ج: إنَّ الأبحاثَ الغربيّةَ في القرآن تعتمدُ في المرتبةِ الأولى على التّراثِ العربيّ، لذلكَ حاولَ الباحثونَ أنْ يفحصوا القرآنَ بموجبِ ذلكَ التّراث. ما وراءَ ذلك كانَ بالطبعِ إنجازاً أحرزوهُ عندما اكتشفوا أنَّ العديدَ منَ الاستعاراتِ اللّغويّةِ مستخدمةٌ في القرآن، حتّى أنَّ هناكَ تشكيلاتٍ من هذهِ الكلماتِ المستعارة، وتمَّ اشتقاقُ عددٍ كبيرٍ منها بشكلٍ صحيح، لكن هناكَ أيضاً بعضُ الكلمات التي قُرِأت بشكلٍ خاطئ، مغلوط، ويُتَطَلّبُ إعادةُ تفسيرها من جديد، والنقطةُ الهامّةُ هنا هيَ أنّهُ للبدءِ مع النّاسِ الذينَ يبتغونَ تفسيراتٍ اشتقاقيّةً منَ الكلماتِ المستعارةِ التي ميّزوها، فهم لم يشكّكوا في معنى الآياتِ في النصّ، والتي فُسّرت بموجبِ التّراث، حتّى أنّهم لن يتخيّلوا أنَّ اللّغةَ المستخدمةَ في القرآن يمكنُ أن تكونَ أيَّ شيءٍ غيرَ اللّغةِ العربيّةِ القديمةِ الثّابتة. أمّا إذا بقيت آيةٌ ما غامضةً حتّى مع التفسيراتِ الجديدةِ للكلمات، فذلكَ كانَ عذراً لعدمِ القدرةِ على تدبّرِ العربيّةِ القديمةِ التي لم يعد فهمها ممكناً في الزّمنِ الحاضر، لذلكَ لم يدرك أحدٌ

أنَّ هذهِ العربيّةَ كانت مؤسّسةً على اللّغةِ الآراميّة، فالنّاسُ لم يميّزوا العناصرَ الآراميّة، أو اعتقدوا أنَّ آثارها لم تكن على هذهِ الدرجةِ منَ الأهميّة. لقد أرادوا أن يبيّنوا مهما كانَ الثمن، أنَّ لغةَ القرآنِ هيَ لغةٌ عربيّةٌ كلاسيكيّةٌ بحتة، إلّا أنّهُ كانَ هناكَ بعضُ الشكوك، كلُّ شيءٍ كانَ لا بدَّ وأن يبدو عربيّاً أصيلاً، كانت الأمنيةُ المطلقةُ لهم هيَ أن يروا الشّكل الكلاسيكيَّ للغةِ العربيّةِ في القرآنِ الذي يخفي الطبقةَ الآراميّةَ الموجودةَ في النصّ. آملُ أن يكونَ بحثي قد جعلَ النّاسَ واعينَ للعلاقةِ بينَ هاتينِ اللّغتين، وأن تكرّسَ الدراساتُ السّاميّةُ مرّةً أخرى انتباهاً أكثرَ إلى الآراميّةِ لكي تكونَ أقدرَ على التحرّي، ليسَ فقط الصّلةَ اللّغوية بل والثقافيّةِ بينَ اللّغتين. أستطيعُ أن أتخيّلَ أنَّ هذا سيقودنا حتماً في المستقبلِ إلى بعضِ النتائجِ المدهشة.

س: برأيك، ما هيَ نسبةُ الكلماتِ الآراميّةِ في القرآن؟

ج: منَ الناحيةِ الكميّة، حوالي 30 % منَ القرآن سيكونُ مختلفاً، لكنَّ هذهِ الصّورةَ لا تخبرنا الشيءَ الكثير، سيكونُ هناكَ بعضُ التغيّراتِ النوعيّة؛ وأقصدُ بالنوعيّةِ أنَّ معظمَ المضمونِ الثيولوجيِّ للقرآن يجبُ أن يُعادَ التفكيرُ فيه، وهذا طبعاً سيقودنا إلى نتائجَ مدهشةٍ مختلفةٍ تماماً. إنَّ الشّرطَ المسبقَ هوَ استعدادُ علماءِ الدّينِ المسلمين لقراءةِ القرآنِ بعيونٍ جديدة، ويعني ذلك؛ فهمَ القرآنِ كما هوَ مفهومٌ في الأصل، وليسَ كما فُسِّرَ لاحقاً. أنا أجري هنا تمييزاً واضحاً بينَ النصِّ القرآنيِّ وبينَ التفسيراتِ القرآنيّةِ اللاّحقة، بما أنَّ النصَّ القرآنيَّ هوَ شيءٌ مختلفٌ عن التفسيراتِ اللاّحقة.

س: هناكَ الكثيرُ منَ المقالاتِ التي تتناولُ طريقتكَ في قراءةِ القرآن، والتي أشعلت شعلةَ ردودِ الفعلِ العنيفةِ في بعضِ البلدان؛ في الباكستان سُحِبَت كلُّ أعدادِ صحيفةٍ لأنّها نشرت مقالةً حولَ بحثك. ما هيَ تجربتكَ حتّى هذهِ اللحظة مع ردودِ أفعالِ المسلمينَ حولَ نتائجِ بحوثك؟

ج: تجربتي حتّى هذهِ اللحظة تقولُ أنَّ المسلمينَ المخلصين سيكونونَ مستعدّينَ دائماً لتقبّلِ هذهِ التفسيراتِ الجديدة، هذا فيما يتعلّقُ بالآياتِ التي تختلفُ تفسيراتها الجديدةُ عن التفسيراتِ التّراثيّةِ الإسلاميّة، ففي النهاية، أنا لا أمضي بعيداً في التصريحِ بأنَّ

محمّداً أو القرآنَ لم يكن موجوداً. إنَّ وجودَ القرآنِ هوَ حقيقةٌ تاريخيّة، إنهُ الآن سؤالٌ حولَ رؤيةِ هذهِ الحقيقةِ التّاريخيّةِ في سياقها التّاريخيّ، والذي يعني أيضاً رؤيتها منَ النّاحيةِ التّاريخيّةِ وإخضاعَ النصِّ للفحصِ الدقيقِ الصّارمِ من وجهةِ النظرِ تلك، أمّا منَ النّاحيةِ النّقديّة فإنّهُ لا يعني أنّني أريدُ التقليلَ من قيمةِ القرآنِ والاستخفافَ به، أنا أريدُ فقط أن أفهمهُ بشكلٍ صحيحٍ على أساسِ النتائجِ التّاريخيّةِ – اللّغويّة. ما يخرجُ بهِ النّاسُ من تفسيراتي فذلكَ أمرٌ لا يعنيني، هذا يعتمدُ كلّيّاً على علماءِ الدّينِ المسلمين، في العديدِ منَ الآيات نلاحظُ أنَّ القرآنَ ثابتٌ ومتماسك، وأنّهُ أيضاً كلامُ الله. أنا لا أدّعي أبداً أنّهُ ليسَ كلامَ الله، كما أنّي أقولُ إنَّ الباحثَ يجبُ أن يصلَ إلى نتيجةٍ مفادها أنّهُ في سياقِ مسارِ التّاريخ، طرأ على هذا الكلامِ الإلهيّ بعضُ التغييراتِ _خصوصاً من خلالِ القراءاتِ المغلوطةِ وعلاماتِ التنوينِ التي وُضِعَت في غيرِ أماكنها؛ لذلك ليسَ كلامُ اللهِ هوَ الذي تغيّرَ بالذّات، بل التفسيراتِ الخاطئةَ التي قامَ بها البشر.

مِنَ الإنجيلِ إلى الإسلام: مقابلة مع كريستوف لوكسنبرغ

حاورهُ ألفريد هاكنسبرغر

في عام 2000 أصدرَ الكاتبُ والمستشرقُ الألمانيُّ «كريستوف لوكسنبرغ» كتابهُ الخطيرَ والرائعَ قراءةٌ آراميّةٌ -سريانيّةٌ للقرآن: مساهمةٌ في تفسيرِ لغةِ القرآن» [دارُ الكتابِ العربي، برلين 2000] يعرضُ فيهِ قراءةً جديدةً للمقاطعِ والكلماتِ الغامضةِ والمبهمةِ الواردةِ في القرآن، نفذت طبعاتُ الكتابِ بوقتٍ قياسيٍّ منَ المكتباتِ ومتاجرِ الكتب، وليسَ هناكَ ترجمةٌ أخرى للكتاب سوى الترجمةِ الإنكليزيّة. عنوانُ الكتابِ بلغتهِ الأم:

Die syro-aramäische Lesart des Koran. Ein Beitrag zur Entschlüsselung der Koransprache.

وعنوانهُ في الطبعةِ الإنكليزيّةِ الحديثة:

The Syro-Aramaic Reading of the Koran A Contribution to the Decoding of the Language of the Koran.

والمؤلّفُ أستاذٌ ألمانيٌّ متخصّصٌ في اللّغاتِ القديمة، حاولَ إلقاءَ نظرةٍ جديدةٍ على كتابِ الإسلامِ المقدّس، ((وهوَ يقولُ أنَّ القرآنَ قد تمَّ تأليفهُ على يدِ متكلّمينَ سريان- أراميّينَ مسيحيّين، بغرضِ تنصيرِ العرب، وقد قامَ بتفسيرهِ بطريقةٍ جديدة)) [ساندرو ماغيستر] روما: كانت اللّغةُ الآراميّةُ هيَ اللّغةَ الشّائعةَ والمشتركةَ بينَ جميعِ سكّانِ الشّرقِ الأوسطِ القديم، وهيَ فكرةٌ تمّت ملاحظتها بشكلٍ واسعٍ من قِبَلِ جمهورٍ عريض، والفضلُ بذلكَ يعودُ إلى «ميل غيبسون» في فيلمهِ الرائع «آلامُ المسيح The Passion of the Christ» والذي شاهدهُ جميعُ النّاسِ بتلكَ اللّغة، لكن أن تكونَ اللغةُ السّيرو- آراميّة هيَ أصلَ القرآن، وأنَّ القرآنَ نفسهُ ما هوَ إلّا نظامٌ بدائيٌّ مسيحيّ، هيَ فكرةٌ أكثرُ تخصّصاً، حتّى أنّها تكادُ تكونُ مستترة، وهيَ فكرةٌ خطيرة. وقد لجأَ مؤلّفُ هذا الكتابِ الأكثرِ أهميّةً في هذا الموضوع _وهوَ أستاذٌ

جامعيٌّ متخصّصٌ في اللّغاتِ السّاميّةِ القديمةِ والعربيّة_ إلى الكتابةِ تحتَ اسمٍ مستعار. فقبلَ بضعةِ سنوات، أحدُ زملائهِ في جامعةِ نابلس بفلسطين_سليمان بشير_ رُميَ خارجَ النافذةِ من قِبَلِ طلاّبهِ المسلمينَ المروّعين. في أوروبّا القرنينِ السّادس والسّابع عشر، المشوّهةِ بالحروبِ الدينيّة، قامَ الباحثونَ في الإنجيل باستخدامِ ألقابٍ وأسماءٍ مستعارةٍ خوفاً على حياتهم من محاكمِ التفتيش، أمّا الآن، فإذا كانَ الذينَ يقومونَ بذلك هم الباحثونَ في القرآن، فهذهِ إشارةٌ إلى أنَّ عصرَ إعادةِ قراءةِ القرآنِ اللّغويّةِ والتّاريخيّةِ والنحويّةِ والفلسفيّةِ قد بدأ. أنا باعتقادي الشّخصيّ أنَّ هذهِ بمثابةِ بدايةٍ واعدة. جيرد_ رودجير بوين، أستاذٌ في جامعةِ سارلاند بألمانيا وباحثٌ آخر في القرآن على المستوى الفلسفيّ، يقولُ أنَّ نظرةً من هذا النوعِ إلى كتابِ الإسلامِ المقدّس قد يساعدُ في نبذِ قراءاتهِ الأصوليّةِ والمزدوجة، ويسلّطُ الضوءَ على علاقتهِ بالديانتين: اليهوديّةِ والمسيحيّة. هنا نوردُ مقابلةً مع الكاتب، منشورةً في صحيفةِ «Süddeutsche Zeitung» بألمانيا، وصحيفة «L' espresso» الإيطاليّة.

11 - 12 مارس 2004

س: بروفيسور، لماذا تعتقدُ أنّهُ منَ المفيدِ إعادةُ قراءةِ القرآن؟

ج: لأنّهُ، في القرآن، هناكَ الكثيرُ منَ النقاطِ الغامضةِ والمبهمةِ وغيرِ المفهومةِ التي لم يفهمها المفسّرونَ العربُ أنفسهم، منذُ البداية، وعجزوا عن تفسيرها واستخراجِ معانيها؛ تلكَ الانتقالاتُ التي يقالُ عنها أنّهُ لا يفهمها غيرُ الله، وهوَ الأعلمُ بفحواها، فالبحثُ الغربيُّ في القرآن، والذي لم يُوجَّه بأسلوبٍ منتظم إلّا منذُ حوالي منتصفِ القرنِ التّاسعَ عشر، اعتمدَ في أساسهِ على تعليقاتِ وتفسيراتِ الفقهاءِ العرب، لكنّهُ لم يتجاوز التفسيراتِ الاشتقاقيّةَ لبعضِ مصطلحاتِ الأصلِ الأجنبي.

س: ما الذي يميّزُ أسلوبكَ ومنهجكَ عن غيره؟

ج: لقد انطلقتُ من فكرةِ أنَّ لغةَ القرآن يجبُ أن تُدْرَسَ من وجهةِ نظرٍ تاريخيّةٍ ـ لغويّة، فعندما جُمِعَ القرآن، لم تكن اللّغةُ العربيّةُ موجودةً بشكلها الكتابيّ [التدوينيّ]، لذلك كانَ هذا بمثابةِ دليلٍ بالنسبةِ لي يجبُ أخذهُ بالحسبان وعدمُ التغاضي عنه... وفوقَ كلِّ ذلك، اللّغةُ الآراميّةُ في ذلكَ العصر _بينَ القرنِ الرابعِ والسّابعِ للميلاد_ لم تكن اللّغةَ

الكتابيّةَ الوحيدةَ المعتمدةَ في التواصلِ فحسب، بل كانت أيضاً اللّغةَ المشتركةَ لجميعِ سكّانِ تلكَ المنطقةِ في جنوبيِّ قارّةِ آسيا.

س: أخبرنا عن البداية.

ج: في البداية، باشرتُ بقراءةٍ تزامنيّة، بمعنىً آخر؛ وضعتُ في حسباني كلاً منَ اللّغتينِ العربيّةِ والآراميّة. وبفضلِ هذا الإجراء، كنتُ قادراً على اكتشافِ مدى التأثيرِ المجهولِ وغيرِ الملاحظ للّغةِ الآراميّةِ على لغةِ القرآن: في الحقيقة، معظمُ الألفاظِ التي تندرجُ تحتَ تصنيفِ أنّها «عربيّةٌ كلاسيكيّةٌ أو قديمة» هيَ من اشتقاقاتٍ آراميّة.

س: إذن؛ ماذا تقولُ عن الفكرةِ التي ما زالت تلاقي قبولاً واسعاً حتّى وقتنا الحاضر، وهيَ أنَّ القرآنَ كانَ أوّلَ كتابٍ يكتبُ باللّغةِ العربيّة؟

ج: وفقاً للتّراثِ الإسلامي، يعودُ القرآنُ في تاريخِهِ إلى القرنِ السّابعِ الميلادي، بينما تعودُ الأمثلةُ الأولى عن التّراثِ الأدبيِّ العربيِّ إلى ما بعدَ قرنينِ من ذلكَ التّاريخ، إلى زمنِ تدوينِ «السيرةِ النبويّة» أو حياةِ النبيِّ محمّد التي دوّنها ابنُ هشام الذي توفّيَ بدورهِ عام 828 للميلاد.

ومن هنا بإمكاننا التأسيسُ للقولِ بأنَّ الأدبَ العربيَّ بعدَ القرآنيِّ قد تطوّرَ على درجات، خلالَ الفترةِ اللاّحقةِ لعملِ الخليلِ بن أحمد الذي توفّيَ عام 786، مؤسّسُ علمِ «الصّناعةِ المعجميّةِ العربيّة Lexicography» في مصنّفهِ «كتابِ العين»، بالإضافةِ إلى سيبويه [توفّيَ عام 796 م] الذي كانَ لهُ فضلٌ كبيرٌ في تطويرِ علمِ النحوِ العربيّ. والآن، إذا افترضنا أنَّ عمليّةَ كتابةِ القرآن قد انتهت في السّنةِ التي توفّيَ فيها النبيُّ محمّد _أي عام 632_ فإنّنا نجدُ أنفسنا أمامَ فترةٍ تبلغُ قرابةَ 150 عاماً، لم يكن فيها أيُّ أثرٍ يذكر للّغةِ العربيّة.

س: إذن، في زمنِ محمّد لم يكن للّغةِ العربيّةِ أيّةُ قواعدَ دقيقةٍ ومحدّدة، ولم تكن تستخدمُ اللغةَ المكتوبةُ في التواصل، إذن كيفَ تمَّ تدوينُ القرآنِ وكتابته؟

ج: في ذلكَ الوقت، لم يكن هناكَ مدارسٌ لتدريسِ اللّغةِ العربيّةِ _باستثناء، على الأرجح، بعضِ المراكزِ المسيحيّةِ في الأنبارِ والحيرة، جنوبَ وادي الرافدين، أو ما يسمّى حاليّاً

بالعراق. فالعربُ القاطنونَ في تلكَ المنطقة تمَّ تنصيرهم وتعليمهم أصولَ الديانةِ المسيحيّةِ على يدِ مسيحيّينَ سوريّين. لغتهم الطقوسيّةُ الأصليّةُ كانت السُّريانيّةَ-الآراميّة، وكانت بمثابةِ الوعاءِ الذي احتوى جُلَّ ثقافتهم، وبشكلٍ عام لغةَ التواصلِ المدوّنةِ أو المكتوبة.

س: ما هيَ العلاقةُ بينَ لغةِ الثّقافةِ هذه وأصلِ القرآن؟

ج: بدايةً خلالَ القرنِ الثّالث، المسيحيّونَ السّوريّون لم يجدّدوا أنفسهم في مهمّتهم التبشيريّةِ في البلدانِ القريبةِ فقط، كأرمينيا وبلادِ فارس، بل قطعوا المسافاتِ الطويلةَ إلى المناطقِ النائية، حتّى وصلوا حدودَ الصّينِ والسّاحلِ الغربيِّ للهنْد، بالإضافةِ إلى كاملِ شبهِ الجزيرةِ العربيّةِ حتّى اليمنِ وأثيوبيا، ولذلك فمنَ المحتملِ أنّهم ـمن أجلِ إعلانِ رسالةِ المسيحِ إلى العربـ قد استخدموا ـمن بينِ الكثيرِ منَ الأشياءـ لغةَ البدوِ، أو العرب.

فمن أجلِ نشرِ الإنجيل، اعتمدوا أساساً وبالضرورةِ على خليطٍ أو مزيجٍ منَ اللّغات، ولكن في الوقتِ الذي لم تكن فيهِ اللّغةُ العربيّةُ سوى مجموعةٍ منَ اللّهجاتِ العاميّةِ أو المحليّةِ ولم تكن قد اتّخذت شكلاً كتابياً بعد، لم يكن أمامَ المبشّرينَ أيُّ خيارٍ سوى أن يلجؤوا إلى لغتهم الأدبيّةِ وثقافتهم الخاصّة، وهيَ السُّريانيّةُ-الآراميّة. وكانت النتيجةُ أنَّ لغةَ القرآنِ قد وُلِدَت كلغةٍ كتابيّةٍ عربيّة، إلّا أنّها أحدُ الاشتقاقاتِ العربيّةِ-الآراميّة.

س: هل تعني أنَّ الإنسانَ الذي يجهلُ اللغةَ السُّريانيّةَ-الآراميّةَ غيرُ قادرٍ على تفسيرِ وتأويلِ القرآنِ بشكلٍ صحيح؟

ج: نعم. أيُّ شخصٍ يريدُ أن يضعَ دراسةً عن القرآن يجبُ أن تكونَ لديهِ خلفيّةٌ في قواعدِ اللّغةِ [السّيرو-آراميّة Syro-Aramaic] وأدبِ تلكَ الفترة؛ أي فترةِ القرنِ السّابعِ الميلادي. عندها فقط سيكونُ بإمكانهِ تحديدُ المعنى الأصليِّ للتعابيرِ العربيّةِ التي يمكنُ لتأويلاتها السيمانتيكيّة/ اللفظيّة أن تُؤسّسَ بشكلٍ نهائيٍّ وقاطعٍ على إعادةِ ترجمتها إلى السّيرو-آراميّة.

• الحُورِ العينِ والأعناب

س: دعنا الآنَ نتطرّقُ إلى مسألةِ سوءِ الفَهم، حيثُ أنَّ من أكثرِ الأخطاءِ التي حدّدتها وأشرتَ إليها هيَ مسألةُ «الحورِ العين»، التي وعدَ اللهُ بهنَّ أتباعهُ في الجنّة، وخصوصاً لأولئكَ الذينَ يؤدّونَ عمليّاتٍ تفجيريّة.

ج: نبدأُ من كلمةِ «حور huri»، التي لم يجد لها المفسّرونَ العرب أيَّ معنىً غيرَ «الفتياتِ أو العذارى في الجنّة»، ولكن إذا وضعَ الباحثُ في حسبانهِ الاشتقاقاتِ منَ اللّغةِ السّيرو-آراميّة، فإنَّ ذلكَ التعبيرَ يشيرُ إلى «العنبِ الأبيض»، وهوَ أحدُ العناصرِ الرمزيّةِ التي تميّزُ الفردوسَ المسيحيّ، والتي تمَّ ذكرها في العشاءِ الأخيرِ للمسيح.

هناكَ تعبيرٌ قرآنيٌّ آخر، فُسّرَ على أنّهُ «الولدان» أو «الغلمانُ» في الجنّة، أمّا في اللغةِ الآراميّة، إنّها تشيرُ إلى فاكهةِ الكرمة، والتي تمت مقارنتها في القرآنِ باللؤلؤ، أمّا بالنسبةِ للعناصرِ التي ترمزُ للجنّة، تلكَ الأخطاءُ التأويليّةُ مرتبطةٌ على الأرجحِ بالاحتكارِ الذكوريِّ في التفسيرِ والتأويلِ القرآنيّ.

س: بالمناسبة، ما رأيكَ بمسألةِ الحجابِ في الإسلام؟

ج: هناكَ مقطعٌ في سورةِ النّور، الآية رقم 31، وتقرأُ باللّغةِ العربيّة { وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ }، وتلكَ عبارةٌ غيرُ مفهومةٍ ومبهمة، حيثُ أنَّ التفسيرَ الشّائعَ لهذهِ الآية هوَ ((فأمرَ اللهُ تعالى بليِّ الخمارِ على الجيوب، وهيئةُ ذلكَ أن تضربَ المرأةُ بخمارها على جيبها لتسترَ صدرها)) [أنظر تفسيرَ القرطبي، ابن كثير، الطّبريّ، البغوي] لكن إذا تمّت قراءةُ هذا المقطعِ على ضوءِ اللّغةِ السّيرو-آراميّة فإنّها تعني بكلِّ بساطة: «عليهنَّ أن يربطنَ ويشددنَ أحزمتهنَّ حولَ خصورهنّ».

س: هل يعني ذلكَ أنَّ الحجابَ هوَ أشبهُ ما يكونُ بحزامِ العفّة؟

ج: ليسَ بالضّبط. صحيحٌ أنّهُ في التّراثِ المسيحيّ الحزامُ مرتبطٌ بمسألةِ العفّة، حيثُ تُصَوَّرُ مريمُ وهناكَ حزامٌ مربوطٌ حولَ خصرها، ولكن في حكايةِ الإنجيلِ عن العشاءِ الأخير، يربطُ المسيحُ أيضاً مئزراً حولَ خصرهِ قبلَ غسلِ أقدامِ حواريّيه. منَ الواضحِ

أنَّ هناكَ العديدَ منَ التوافقاتِ مع المعتقدِ المسيحيّ.

س: أنتَ اكتشفتَ أنّهُ في سورةِ القَدْر وردَ ذكرُ ميلادِ السيّدِ المسيح، وفي تفسيركَ لسورةِ مريمَ الشّهيرة، فإنَّ «ولادتها للمسيح» هيَ «عملٌ مشرّعٌ منَ الرَّبّ»، وإضافةً إلى ذلك، يتضمّنُ النصُّ على دعوةٍ لحضورِ الطقسِ المقدّس، القدّاس. هل القرآنُ إذن هوَ عبارةٌ عن نسخةٍ عربيّةٍ عن الإنجيلِ المسيحيّ؟

ج: في الأصل، إنَّ القرآنَ هوَ كتابُ طقوسٍ وقداديسَ سيرو- آراميّة، مؤلّفٌ من أناشيدَ واستخراجاتٍ منَ النصوصِ المقدّسةِ والتي كانت تستخدمُ على الأرجح في الخدماتِ المسيحيّةِ المقدّسة. من ناحيةٍ ثانية، قد يرى المرءُ في القرآن بدايةَ التبشيرِ الموجّهِ من أجلِ نقلِ العقيدةِ في النصوصِ المقدّسةِ إلى وثنيّي مكّة، وباللّغةِ العربيّة، أمّا القسمانِ الاجتماعيُّ والسياسيّ -واللذانِ قد لا يكونانِ مرتبطينِ بالقرآنِ بالضرورة- فقد تمّت إضافتهما فيما بعد خلالَ فترةِ نزولِ محمّدٍ في المدينة، ففي بدايتِهِ، لم يكن يعدُّ القرآنَ كأساسٍ لدينٍ جديد، بل إنّهُ يفترضُ مقدّماً إيماناً في الكتبِ والنصوصِ المقدّسة، وهذا بالكادِ قامَ بدورٍ فعّالٍ في المجتمعِ العربيّ.

س: بالنسبةِ للمسلمينَ المؤمنين -وخاصّةً المتطرّفينَ منهم- بأنَّ القرآنَ هوَ الكتابُ المقدّس وأنّهُ كلامُ الله المنزّل، والحقيقةُ المطلقةُ والوحيدة، فإنَّ أفكارك تعتبرُ كفراً بحدِّ عينها. ما هيَ ردودُ الأفعالِ التي لاحظتها حتّى الآن؟

ج: في الباكستان، مُنِعَ توزيعُ صحيفةِ «النيوزويك» التي احتوت مقالاً عن كتابي. ما عدا ذلك ينبغي عليَّ قولُ أنّني -خلالَ صداماتي مع الكثيرِ منَ المسلمين- لم ألحظ أيّةَ علائمَ على مواقفِ عدائيّةٍ منّي، بل على العكسِ تماماً، لقد قدّروا التزامَ المفكّرينَ والكتّابِ من غيرِ المسلمين بموضوعيّةِ دراساتهم لكتابهم المقدّس. قد يُحكَمُ على كتابي بأنّهُ كفر فقط من قِبَلِ أولئكَ الذينَ قرّروا التمسّكَ بالأخطاءِ في تفسيرِ كلمةِ الله، إلّا أنه قد جاءَ في القرآنِ أنّهُ: {إنّكَ لا تهدي من أحببت ولكنَّ الله يَهدي من يشاء وهوَ أعلمُ بالمهتدين } [سورة القصص: 56]

س: ألستَ خائفاً من صدورِ فتوى بهدرِ دمك، كتلكَ التي صدرت بحقِّ سلمان رشدي؟

ج: أنا لستُ مسلماً، لذلكَ فأنا لستُ بخطر، كما أنّني لم انتهك حرمةَ القرآن.

س: لكنّكَ ما زلت تفضّلُ استخدامَ اسمٍ مستعار.

ج: فعلتُ ذلكَ عملاً بنصيحةِ بعضِ الأصدقاءِ المسلمينَ الذينَ كانوا خائفينَ من أن يقومَ أصوليٌّ متعصّبٌ ما بمبادرةٍ شخصيّة، دونَ انتظارِ صدورِ فتوى.

معاني القرآن على ضوء علم اللسان

طبقا لمنهج كريستوف لوكسنبرغ في دراسته

كريستوف لوكسنبرغ

«قراءة آرامية سريانية للقرآن – مساهمة في حلّ غموض لغة القرآن»(1)

مفهوم الآية 110 من سورة آل عمران

«كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ»

يذكر لوكسنبرغ في أوّل خطوة لمنهج بحثه مراجعة تفسير الطبري للنظر في ما يقوله المفسرون. فقد يحصل أحيانا بأنّ أحد المفسرين جاء بالشرح الصحيح، إلا أنّ الطبري لم يأخذه بعين الاعتبار، وعلى الباحث حينئذ دعم هذا الشرح الصحيح بالشواهد والأدلة اللغوية التي تتناسب مع سياق النص القرآني. وهذا ما يتّبعه ويطبّقه المحقق في ما يلي.

يستهلّ أبو جعفر الطبري تفسير هذه الآية بقوله: اختلف أهل التأويل في تأويل قوله: «كنتم خير أمة أخرجت للناس» .

فقال بعضهم: هم الذين هاجروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة، وخاصة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

***ذكر من قال ذلك**: ويذكر الطبري ثمانية أحاديث (7606 – 7613) عن الذين اتخذوا

(1) صدرت الطبعة الأولى سنة 2000 (الطبعة الخامسة 2016) باللغة الألمانية في برلين بعنوان:

«Die syro-aramäische Lesart des Koran – Ein Beitrag zur Entschlüsselung der Koransprache»

والطبعة الإنكليزية سنة 2007 بعنوان:

«The Syro-Aramaic Reading of the Koran – A Contribution to the Decoding of the Language of the Koran»

هذا الرأي .

ثم يعرض الطبري رأيا آخر:

وقال آخرون: معنى ذلك: كنتم خير أمة أخرجت للناس، إذا كنتم بهذه الشروط التي وصفهم جل ثناؤه بها. فكان تأويل ذلك عندهم: كنتم خير أمة تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله .

ويدعم الطبري هذا الرأي بحديثين (7615–7614) عن مجاهد بقوله:

على هذا الشرط: أن تأمرُوا بالمعروف، وتنهوا عن المنكر وتؤمنوا بالله .

ويستنتج الطبري من الرأي الثالث عن الحسن (7620) ما يلي:

قال أبو جعفر: وأولى هذه الأقوال بتأويل الآية ما قال الحسن (7623–7621):

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ألا إنكم وفيّتم سبعين أمّة، أنتم آخرها وأكرمها على الله»

التعقيب على تفسير أبي جعفر الطبري

أخطأ أبو جعفر بإعطاء الأولوية للرأي الأخير الذي يستشهد برواية بعيدة عن مفهوم النص القرآني وبصرف النظر عن بنية الجملة النحوية، بدلا من الرأي الثاني القائل عن مجاهد بأنّ «كنتم خير أمة» مفهومها: على شرط أن «تأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر وتؤمنوا بالله». ويدلّ هذا المفهوم على أنّ بعض أهل السلف كان لهم علم بلغة القرآن بخلاف أهل التأويل الذين تبعوهم في عصر لاحق، مبتعدين عن أسس ومعاني لغة القرآن، فلم يعودوا يفهموها إلا طبقا لقواعد العربية الفصحى التي تمّ وضعها بعد تدوين القرآن، وذلك في العصر العباسي من منتصف القرن الثامن الميلادي وما بعد .

ولكنّ الإشكال في هذه الآية لا يكمن في الألفاظ، فالألفاظ كلّها عربية صحيحة ومفهومة بحد ذاتها ولا يقتضي توضيحها من السريانية . إنّما تركيب الجملة (المسمّى باللغات الأجنبية "ستناكس") لا مثيل له في النحو العربي ولا يمكن فهمه إلا على أساس قواعد النحو الآرامي[1]

---

(1) يشير ستانيسلاف زيكرت في «نحو الآرامية القديمة» إلى مثل هذه الجمل الشرطية بدون أداة شرط كما يلي:

الذي ما زال دارجا في اللهجات العربية المعاصرة بخلاف العربية الفصحى . فبحسب هذا النحو تشكّل هذه الآية جملة شـرطيّة بدون أداة شـرط كما سيتمّ شرحها في ما يلي .

تتكوّن هذه الآية نحويا من جزئين، يبتدئ الأوّل بالفعل الماضي: "كنتم" (خير أمة أخرجت للناس)، ويتبع الثاني بالفعل المضارع: "تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله". فهِم أتباع الرأي الأول من أهل التأويل هذه العبارة بمعنى الماضي: "كنتم ... تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر و تؤمنون بالله". ولذا نسبوها إلى أهل السلف الذين خرجوا مع الرسول من مكة إلى المدينة، فهؤلاء هم الذين كانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله.

أما أتباع الرأي الثالث من أهل التأويل، فغضّوا النظر عن الفعل الماضي " كنتم " وفسّروه بمعنى " كنتم – وما زلتم – تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ". ولذا رأوا بأن "كنتم" تعني في هذا السياق "أنتم خير أمّة".

ولما دعم الطبري هذا التفسير المعتمد عليه التراث الإسلامي، لم يرَ مترجمو معاني القرآن الأجانب من المستشرقين والمستعربين حجّة للشك في صحّة هذا المفهوم، اعتقادا منهم بان

Stanislav Segert, *Altaramäische Grammatik*, Leipzig: Verlag Enzyklopädie, 1990, p. 430, 7.5.4. Bedingungssätze:

«Die Handlung und ihre Folge werden nebeneinandergestellt, wobei keine besondere hypothetische Konjunktion die gegenseitige Bindung der zwei Sätze andeutet. Sowohl im Vordersatz als auch im Nachsatz können Perfekt, Imperfekt und nominales Prädikat – meist Existenzausdruck oder Partizip – verwendet werden, im Nachsatz daneben noch Jussiv oder Imperativ. Die Verwendung dieser Ausdrucksmöglichkeiten hängt von der jeweiligen Situation ab, und es können keine festen Typen von Bedingungssätzen festgestellt werden.»

ترجمته: الجمل الشرطية: «يتمّ ترتيب الفعل وجوابه جنبا إلى جنب، دون أداة شرط افتراضية خاصّة تدلّ على العلاقة المتبادلة بين الجملتين . إن كان في المبتدأ أم في الخبر يمكن استعمال الفعل بصيغة الماضي أو المضارع أو جملة اسميّة في الخبر، وغالبا ما يكون ذلك عبارة الوجود (ܐܝܬ إيث السريانية، ومقابلها عربيّا «ليت» للتمني و«ليس» للنفي) أو اسم فاعل أو مفعول، كما يمكن أن يكون الفعل بصيغة الأمر المباشر أو غير المباشر (قُل أو ليقُل) في الخبر. أما إمكانية استعمال التعابير المذكورة، فهي متعلقة بالحالة المعبّر عنها، ولا يمكن تحديد صِيَغ خاصّة للجمل الشرطية.»

المفسرين العرب أولى منهم لفهم لسان القرآن العربي المبين . ولذا نراهم اعتمدوا هذا التفسير في تراجمهم . نذكر منهم أهم المستشرقين الجامعيين في الغرب، فيرى باحث القرآن الألماني رودي بارت في هذه الآية جملتين منفصلتين ويترجم كما يلي:

Rudi Paret (Q 3:110): «Ihr (Gläubigen) *seid* die beste Gemeinschaft, die unter den Menschern entstanden ist. Ihr *gebietet*, was recht ist, *verbietet*, was verwerflich ist, und *glaubt* an Gott.»

ولا يختلف عنه رجيس بلاشير، الأستاذ السابق في جامعة السوربون، في ترجمته الفرنسية التالية:

Régis Blachère (106/110): «Vous *êtes* la meilleure communauté qu'on ait fait surgir pour les Hommes: vous *ordonnez* le Convenable, *interdisez* le Blâmable et *croyez* en Allah.»

ويطابق باحث القرآن البريطاني الشهير ريتشارد بِلّ هذا المفهوم بقوله:

Richard Bell (106): "Ye *have become* the best community ever produced for the people *urging* what is reputable and *restraining* from what is disreputable, and *believing* in Allah."

فحسب هذا المفهوم، لا عجب أن نسمع أحيانا في خطبة يوم الجمعة الخطيب يعلن بكلّ صراحة ودون أي شك: "أنتم خير أمّة" - وليس: "كنتم خير أمّة أخرجت للناس"...

المغالطة التاريخية في مفهوم هذه الآية

لا لوم على الطبري الواثق في كلام القرآن القائل بنزوله بـ«لسان عربي مبين». وهذا صحيح بالنسبة إلى لغة القرآن التي كان يفهمها مجموعة غير محددة من العرب، ولو أن الطبري يفترض بأن هذه اللغة من الأرجح أن تكون لغة قريش، وفقا لما يذكره القرآن في سورة ابراهيم الآية 4: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ».

إلا أن القرآن لم يذكر اسم هذا القوم ولم يحدد أي لهجة من مختلف لهجات العرب كما نعرفها حتى اليوم، بل يعود هذا الاعتقاد إلى "سيرة النبي عليه الصلاة والسلام" لابن هشام (المتوفى 828 م). فبغض النظر عن كل ما ورد في هذه السيرة وغيرها من التصانيف التاريخية المتأخرة بالنسبة إلى مكة وقاطنيها، فإنّ القرآن هو خير شاهد على أن "لسانه" يتميّز عن لغة مشاهير النحويين المتأخرين من عرب، كالخليل بن أحمد (المتوفى نحو 786 م) أو أعاجم، كسيبويه (المتوفى نحو 796 م). ودليل ذلك ما سيتمّ عرضه "نحويا" في ما يلي عن مفهوم الآية 110 من سورة آل عمران . فالمميّز في هذه الآية ما لم يأبه له حتى الآن أيّ فقيه من مفسري القرآن الأوائل ومترجميه المتأخرين شرقا وغربا، إذ لم يلاحظوا بأنّ هذه الآية مركبة من

جملة شرطية دون أداة شرط:

فمن جملة الآراء الثلاثة المشار إليها أعلاه، أورد الطبري الرأي الثاني عن مجاهد الذي نبّه إلى أن هذه الآية مفهومها:

على شرط أن «تأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر وتؤمنوا بالله».

إلا أن الطبري لم يقتنع بهذا الحديث لأنه لم يتخيّل كيف يمكن قراءة هذه الآية كجملة شرطيّة دون أداة شرط، ولذا اعتبر هذا التفسير خارجا عن أصول اللغة ومن باب الظن والخيال، فلم يكترث به.

إلا أنّ القرآن يؤيّد تفسير مجاهد، إذا علمنا بأن الجملة الشرطية ممكن أن تستغني عن أداة الشرط، وذلك بمجرّد تعاقب الصيغة الفعلية في كل جزء من الجملة الشرطية، وذلك بذكر المضارع في المبتدأ المعبّر عن الشرط، والماضي في الجزء الثاني المعبّرعن الخبر أو جواب الشرط .

أما في القرآن، فإنّ هذه الجملة الشرطية مقلوبة، أي أنّ الخبر مقدّم والمبتدأ مؤخّر. فترتيب الجملة القرآنية

«كُنتُمْ خَيْرَ – تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ» يتمّ مفهومها بالترتيب التالي:

«تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ – كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ».

ولتوضيح مفهوم هذه العبارة الافتراضية الشرطية، وجب إدخال أداة الشرط وفقا للنحو العربي كما يلي:

«لو أنكم تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ – لكُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ».

ويؤيّد القرآن هذا المفهوم بالتعقيب عليه مباشرة بجملة عربية شرطية صريحة بقوله:

«وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم»، ثم يضيف: «مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ» (أي الفاسخون والمخالفون لوصايا الله). وربما أراد القرآن بـ «المؤمنون» النصارى وبـ«الفسقون» الذين هادوا، إذ يميّز أهل الكتب عن بعضهم في الآيات 113–115 بقوله:

«لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (113) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (114) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (115)».

فمع قوله متمنّيا «وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم»، فإن القرآن يشهد لبعض أهل الكتاب إيجابيا (وليس افتراضا) بأنّ أمّة منهم «يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ».

فالنص القرآني واضح وجلي ولم يقصد بتعبير "كنتم خير أمة" بأن المسلمين هم خير أمة، بل أراد بهذه الجملة الشرطية التمني لهم وتحريضهم على الإيمان بالله وعمل الخير، واضعا إياهم على نفس مستوى أهل الكتاب، شرط أن يتّبعوا ما وصّاهم به تعالى كما ذكر أعلاه، فـ"أولئك – دون تمييز – من الصلحين" "والله عليم بالمتقين"، كما قال في سورة الحجرات 13: "إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ"، وآل عمران 76: "بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ".

وبالرجوع إلى هذه الجملة الشرطية، رُبّ منتقد يسأل: لم نسمع حتى الآن بجملة شرطية بهذا الشكل، مع أنه يستعمل نظيرها في اللغة الدارجة دون الوعي إليها، كقولك: "بتحب تجي – أهلا وسهلا فيك"، بدلا من "إذا بتحب تجي – أهلا وسهلا فيك". فهل وردت في القرآن

آيات أخرى بصيغة المضارع في المبتدأ للدلالة على جملة شرطية دون أداة شرط ؟

يحق للناقد طرح هذا السؤال (والنقد آراميا يعني تصحيح الكلام وتنقيته من الخطأ)، وسوف نردّ على هذا السؤال بالإشارة إلى ما لا يقلّ عن 19 آية في القرآن تبدأ بصيغة المضارع للدلالة على الشرط، بينما لم يفهمها المفسرون شرقا والمترجمون غربا إلا بمعنى الحاضر . فكلّ الآيات التي تبتدئ بـ «يسألونك» (وعددها 15) و«يسألك» (وعددها 2) تعني « إذا سألوك»، والجواب بالأمر: «قُـل»[1]. كذلك في سورة النساء 127: «ويستفتونك (أي إذا استفتوك) في النساء، قل الله يفتيكم فيهن». وفي نفس السورة 176: «يستفتونك (أي إذا استفتوك)، قل الله يفتيكم في الكللة»[2]. وفي سورة طه 105 يأتي الجواب بحرف الفاء: «وَيَسْأَلُونَكَ (أي إذا

(1) ونظيرها في الدارجة: « بيسألوك شو العمل – قول لـ(هـ)ن» كذا وكذا...

وقد ذكر زيكرت أعلاه استعمال صيغة الأمر في جواب الجملة الشرطية بدون أداة شرط في الآرامية القديمة.

(2) نقلا عن محرّر هذا المقال، سبق محمد المسيح بشرح كلمة الكللة (دون تمييز اشتقاق الكلمتين المختلف) في كتابه "مخطوطات القرآن ـ مدخل للدراسة المخطوطات القديمة" (2017) عن السريانية "ܟܠܠܬܐ"، وتقرأ "كَلّالاثا" بصيغة الجمع، ومفردها "ܟܠܬܐ"، وتقرأ "كَلْثا". وقد وردت هذه الكلمة مرتين في القرآن، ففي سورة النساء 12: "وإن كان رجل يورَث كللة أو امرأة"، ففي هذا النص كللة (وتُقرأ كَلّة وليس كلالة) بصيغة المفرد تعني: "الكنّة" (أي زوجة الإبن)، كما وردت في قاموس مَنّا (336 ب). والكلمة السريانية ܟܠܬܐ (كَلْثا) مشتقة من فعل ܟܠܐ (كلا) الذي يعني «كلا، منع، حرس" (منّا 337 ب)، كما نجده في سورة الأنبياء 42: "قُل مَن يكلوكم بالیل والنهار من الرحمن» (وقد أضيفت الهمزة على يكلؤكم في المرحلة الأخيرة وهي الخامسة لتدوين القرآن). وكذلك كلبُهم، أي حارسهم، وهو الملاك الحارس كما سبق ذكره بتعبير ܥܝܪܐ (عيرا) أي "اليَقِظ" في المرجع السرياني)، وليس كلبهم كما وردت أربع مرات بتنقيط السين الخاطئ في سورة الكهف (الآية 18 و 22)، وقد حصل هذا التصحيف في المرحلة الرابعة لتدوين القرآن. ومن نفس الجذر اسم الكلية أو الكلوة لأنها تمنع الجسم من التسمّم. والكللة، وتلفظ الكَلّة (كما كتابة الله بلامين)، اسم مفعول سرياني مؤنث مُفرد وتعني "المحروسة" بنفس معنى وصيغة الكَنّة المشتقة من الفعل المرادف السرياني ܟܢ أي "كنّ، ستر، حجب" (منّا 342 ا). والكنّة اسم مفعول سرياني وتعني عربيا المحروسة بالنسبة إلى والدي زوجها بعد خروجها من حراسة والديها، فيصبح مَن يحميها الحمو والحماة.

أما "لكللة" في سورة النساء 176، فهي بصيغة الجمع وتُلفظ الكلاله (بلفظ الهاء بالإمالة نحو الياء، وهي تشير إلى الجمع الآرامي)، ولا علاقة لها بالكللة أي الكنّة أو المحروسة بصيغة المفرد (في سورة النساء 12)، وهي مشتقة من فعل سرياني آخر وهو "ܟܠܠ" أي "كلّل، أكمل، أنجز" (منّا 335 ب)، ويأتي اسم المصدر السرياني "ܟܘܠܠܐ" (كُلاّلا) ليس فقط بمعنى "الإكليل"، بل أيضا بمعنى "الوفاة" بالنسبة إلى الشهداء والقديسين (منّا 336 ا) باعتبار تكلل حياتهم بالوفاة. أما بالسريانية المندائية البابلية، فيشمل هذا المعنى جميع الموتى دون استثناء (انظر قاموس دراور ـ ماتسوخ المندائي):

(E.S. Drower and R. Macuch, A Mandaic Dictionary, Oxford 1963, 217a: KLL II: to surround, complete; to come to an end, die...).

سألوك)عَنِ الْجِبَالِ - فَقُلْ»، وكذلك في سورة النساء 153:

«يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ - فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ
».

والمعنى: «إذا سـألكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ - فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ».

ولمّا لم يفهم مترجمو القرآن الغربيون صيغة المضارع إلا بمعنى الحاضر، جعلوا هذه الجملة الشرطية المركبة من مبتدأ وخبر جملتين منفصلتين فترجموا الآية 105 من سورة طه مثلا كالتالي:

Rudi Paret (105): "Und man *fragt* dich, was (dereinst) mit den Bergen geschehen wird [W: man *fragt* dich nach den Bergen]. *Sag*: ..."

Régis Blachère (105): "Ils *t'interrogent* sur [*ce que deviendront*] les montagnes. *Réponds*: ..."

Richard Bell (105): "They *ask* thee about the mountains ; *so say*: ..."

وعليه فإن كلمة الكلله (الكلاله) في سورة النساء 176 تعني عربيًا «المُكلّلون» أي «المتوفّـون» أو «المَوتى». أما الطبري، فقد علّق على مفهوم هذا التعبير بقوله:

وقد بينا معنى: « الكلالة » فيما مضى بالشواهد الدالة على صحته، وقد ذكرنا اختلاف المختلفين فيه، فأغنى ذلك عن إعادته، وبيّنا أن الكلالة» عندنا: ما عدا الولد والوالد.»

وبالنسبة إلى مفهوم «الكللة» (الكلّة) في سورة النساء 12 سبق بقوله: «القول في تأويل قوله: وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ. قال أبو جعفر: "يعني بذلك جل ثناؤه: وإن كان رجلٌ أو امرأة يورث "الكلالة" على هذا القول، مصدر من قولهم: "تكلّله النسب تكلُّلا وكلالة »، بمعني: تعطف عليه النسب. ثم اختلفت القرأة في قراءة ذلك. فقرأ ذلك عامة قرأة أهل الإسلام: (وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً)، يعني: وإن كان رجل يورث متكلِّل النسب. وقرأه بعضهم: (وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً)، بمعنى: وإن كان رجل يورِث من يتكلّله، بمعنى: من يتعطف عليه بنسبه من أخ أو أخت. واختلف أهل التأويل في "الكلالة". فقال بعضهم: هي ما خلا الوالد والولد. ذكر من قال ذلك . وبعد عرض ما لا يقلّ عن 27 حديثا من مختلف الآراء، يستنتج منها الطبري بالمختصر المفيد قوله: "فقد أنبأت هذه الأخبار عن صحة ما قلنا في معنى « الكلالة »، وأنها ورثة الميت دون الميت، ممن عدا والده.» ويتبيّن من هذا التفسير بأن الطبري لم يميّز بين قراءة ومفهوم كلمتي الكللة 1) بلفظ «الكلّة» في سورة النساء 12 بمعنى «الكنّة» بصيغة لمفرد، و 2) بلفظ «الكلاله» (بلفظ الهاء بالإمالة نحو الياء) في نفس السورة الآية 176 بمعنى «المتوفّون» بصيغة الجمع.

نعرض مثالا آخر من سورة الأعراف الآية 187، حيث يرِد الفعل المضارع «يسلونك» مرتين بمعنى « إذا سألوك» 1):

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَاقُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ»

« ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً»

شرح الألفاظ

ا) «أَيَّانَ» حسب تفسير الطبري، «قال أبو جعفر: ومعنى «أيان»: متى، في كلام العرب، ومنه قول الراجز: (54) أَيَّانَ تَقْضِي حَاجَتِي أَيَّانَا - أَمَا تَرَى لِنُجْحِهَا إِبَّانَا».

التعليق على تفسير الطبري: لو كان تعبير «أيَّانَ»، على حدّ قوله، «من كلام العرب»، للاحظ فقهاء اللغة بأنّ هذا التعبير مركّب من كلمتين: « أيّ » و « آن »، فكان المفروض أن يُقرأ كمضاف ومضاف إليه بنصب «أيَّ» ويخفض وتنوين «آنٍ»: « أيَّ آنٍ». فقول الراجز ليس دليلا على أنّ هذا التعبير «من كلام العرب»، بل أنّ استعماله بهذه الصيغة لم يدخل في كلام العرب إلا بعد قراءته الخاطئة عن يد قرّاء متأخرين اعتبروه كظرف زمان مستقلّ بذاته، فحرّكوه بالنصب. ولم يحصل هذا التشكيل إلا في آخر مرحلة من تدوين القرآن، وهي حسب نتائج بحثنا، المرحلة الخامسة، كما نجدها في طبعة مصحف القاهرة الصادرة سنة 1924 م. ولمّا اعتمد هذا المصحف على رواية حفص بن سليمان لقراءة عاصم بن أبي النجود الكوفي ناسبا إيّاها إلى النبي (صلعم)، دون ذكر أي مرجع من المخطوطات القرآنية التاريخية، لا يسعنا تحديد تاريخ المرحلة الخامسة التي تمّ فيها تشكيل نص القرآن النهائي كما يقدمه لنا مصحف القاهرة . إلا أنه من المؤكّد أن هذا التشكيل جاء بعد تنقيط أو إعجام 15 حرفا من حروف الأبجدية العربية (ومجموعها 28 حرفا) الذي لم يتمّ إلا في المرحلة الرابعة، وذلك في العصر العباسي، وليس قبل القرن التاسع الميلادي . وعليه، نظرا إلى المخطوطات التي وصلتنا بالرسم الحجازي والكوفي والخالية غالبا من النقط، لا يسعنا إلا الافتراض بأن المرحلة الخامسة لا يمكن تحديدها قبل القرن العاشر الميلادي في أبكر تقدير، إلا إذا وجدت مخطوطات تاريخية تعارض هذا التقدير. أما الإشارة إلى النقل الشفهي الذي تمّ «حفظه في الصدور»، فلا يعتبر هذا الادعاء بالنسبة للباحث عن الحقيقة برهانا قاطعا لانتمائه إلى عصر الرسول، سيّما وأنّ

استنتاجات التحليل والتدقيق اللغوي لنصّ القرآن تخالف بكل وضوح هذا الادعاء. والقرآن الكريم خير دليل على صحّة قراءته ومعانيها.

2) مُرساها: ا) بالنسبة إلى تحريك الميم بالضمّ، لم يحصل إلا في المرحلة الخامسة، وهذا من ابتداع النحويين اللاحقين وليس من «حفظها في الصدور»، والمعروف في لغة العامّة لفظها بالفتح: مَرساها، فلماذا مُرساها ؟

ب) أصل الكلمة سرياني (ܡܪܣܐ رسا) بنفس المعنى، حسب شرح منّا (745 أ): «رسا . ثبت . حلّ». والطبري يشرحها بمعنى حلولها: « ومعنى قوله: (مرساها)، قيامها».

ج) الفعل السرياني ܪܣܐ (رسا) صيغة ثانوية مشتقّة من الفعل الأساسي ܪܣܟ (رسك) الذي يُلفظ سريانيا وعربيا «رسخ» وبنفس المعنى . وصيغة «مَرساها» مصدر ميمي سرياني بمعنى «رسوخها» عربيا.

ف «الرسخون في العلم» (آل عمران 7 والنساء 162) هم الثابتون والمتمكّنون من العلم . وقد ورد جذر رسا الثانوي ومشتقاته 14 مرّة في القرآن . وليس هذا الدليل الوحيد على أنّ هذين الفعلين، الأساسي والثانوي، أصلهما سرياني وليس العكس .

3) فعل « جلا، يجلو» و « جلّى، يجلّي» مشتقّ من السرياني « ܓܠܐ جلا » و « ܓܠܝ جلّى» الذي يعني «ظهر وأظهر». والطبري لم يشرح هذا الفعل إلا على وجه التقريب: «عن مجاهد: (لا يجليها): يأتي بها. عن السدي: (لا يجليها لوقتها إلا هو)، يقول: لا يرسلها لوقتها إلا هو». والمعنى الصحيح سريانيا: «لا يُظهرها لوقتها إلا هو».

ومع صحّة قراءة «يجلّيها» (ومشتقاتها 5 مرات في القرآن)، فقد أخطأ أهل التأويل وأهل اللغة بقراءة وتفسير فعل «خلا» ومشتقاته (27 مرّة في القرآن) بمعنى «فرغ وانفرد»، ناهيك عن معنى «مضى»، في الآية 75 من سورة المائدة مثلا:

"مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ "

ويشرحها الطبري بمعنى: "وإنما هو لله رسولٌ كسائر رسله الذين كانوا قبلَه فمضوا وخَلَوْا ". وكذلك آل عمران 144:

"وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ"

تفسير الطبري: " يقول جل ثناؤه: فمحمد صلى الله عليه وسلم إنما هو فيما الله به صانعٌ من قبضه إليه عند انقضاء مدة أجله، كسائر رسله إلى خلقه الذين مضوْا قبله، وماتوا عند انقضاء مدة آجالهم ."

هذا ما أورده الطبري عن أهل التأويل . إنما الصحيح قراءة "جَلَت " بدلا من "خَلَتْ"، وقد حصل هذا التصحيف في المرحلة الرابعة لتدوين القرآن، والمعنى بشهادة قاموس أوجين مَنّا السرياني العربي (105) ܓܠܐ: "جلا، كشف، بيّن، أنبأ، أوضح، أظهر، أعلم، أخبر". فيكون المعنى طبقا للتعبير الشائع:

"ليس على الرسول إلا البلاغ"، بأنّ المسيح – وهو نفسه (بشهادة نقش قبّة الصخرة) محمّد (أي ممجّد) – ما هو إلا رسول قد جَلَت من قبله الرسل – أي بلّغت الرسل من قبله رسالة ربهم . وعليه وجب تصحيح الآيتين المذكورتين كالتالي:

" مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ جَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ "

" وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ جَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ "

وبثقتهم بتفسير الطبري، لم يرَ فقهاء العربية وباحثو معاني القرآن الغربيون مجالا للشك في هذا التفسير بترجمتهم كالتالي:

Paret (97) (Q 5:75): «Christus, der Sohn der Maria, ist nur ein Gesandter. Vor ihm *hat es schon* (verschiedene andere) Gesandte *gegeben*.»

(Q 3:144): «Und Mohammed ist nur ein Gersandter. Vor ihm *hat es schon* (verschiedene andere) Gesandte *gegeben*.»

Blachère (144) (Q 5:79/75): «Le Messie, fils de Marie, n'est qu'un Apôtre avant lequel les Apôtres [*antérieurs*] *ont passé*.»

(Q 3:138/144): «Mahomet n'est qu'un Apôtre. Avant lui, les [*autres*]

Apôtres *ont passé*.»

Bell (I, 104) (Q 5:79): «The Messiah, son of Mary, is nothing but a messenger before whose time the messengers *have passed away* [n. 4: As he also *passed away* like them.]»

(Q 3:138): «Muhammad is only a messenger; before him the messengers *passed away*.»

مثال آخر من سورة يوسف الآية 9:

" اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ "

تفسير الطبري: " (يَخْلُ لكم وجه أبيكم) يعنون: يَخْلُ لكم وجه أبيكم من شغله بيوسف، فإنه قد شغله عنّا، وصرف وَجهه عنّا إليه ".

والصحيح قراءة " يحِلُ لكم وجه أبيكم ". فالتعبير السرياني " ܚܠܝܘܬ ܐܦܐ " يعني سريانيا حسب منّا (106 ا): " ثقة، طمأنينة، بشاشة، اسفرار الوجه ". و " ܚܠܐ ܐܦܐ ": " بشوش، طلق الوجه ".

فيكون معنى " يحِلُ لكم وجه أبيكم ": يصبح وجه أبيكم بشوشا، طلقا تجاهكم.

متابعة سورة الأعراف 187:

4) تفسير معنى " ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ " كما أورده الطبري:

" عن السدي، قوله: (ثقلت في السموات والأرض)، يقول: خفيت في السموات والأرض، فلم يعلم قيامها متى تقوم مَلَكٌ مقرَّب، ولا نبيٌّ مرسل. " و " عن بعض أهل التأويل: (ثقلت في السموات والأرض)، قال: ثقل علمها على أهل السموات وأهل الأرض، إنهم لا يعلمون. " وعن الحسن " يقول: كبرت عليهم. " وعن السدي " قال: قال بعض الناس في " ثقلت ": عظمت. "

نظرا إلى هذه التفاسير التخمينية، أشار لوكسنبرغ في آخر خطوة من منهج بحثه إلى ما

يلي: حينها تكون الكلمة عربية لا شكّ فيها، إنّها لا تعطي المعنى المنتظر في النص القرآني، فعلينا حينئذ أن نترجم هذه الكلمة إلى السريانية لنقتبس من معاني مرادفها السرياني المعنى المطابق لسياق النص القرآني . ولما كان فعل «ܬܩܠ/ تقل» السرياني مطابقا لمرادفه العربي «ثقل» لفظا ومعنى، توجّب علينا أن نرى مرادفا سريانيا آخر يتناسب احد معانيه مع مفهوم النص القرآني . وبعد التمعّن والتدقيق والمقارنة نجد هذا المرادف في فعل «ܥܛܠ/ عطل» السرياني الذي يعني حسب مَنّا (538 ا): « ثقل، وقر / عطل، عجز / عضل، صعب».

فيكون المقصود إذن بـ«ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ»: «عَجَزَت فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ»، أي «استحالت». وبهذا المثل وبتطبيق هذا المنهج يمكننا توضيح الكثير مما غمض و« ثقل» حتى الآن في مفاهيم «غريب» القرآن .

رأينا أنّ تعبير « أيّانَ» مركّب من كلمتي «أيَّ» و « آنِ». فهل في القرآن مثال آخرعن إدغام كلمتين بكلمة واحدة، ما عدا التعابير المعروفة كـ «يَوْمَئِذٍ» (70 مرّة في القرآن) و«حِينَئِذٍ» (الواقعة 84)[1]؟ يسعنا الردّ إيجابيا على هذا السؤال، إذ يعطينا القرآن هذا المثال بالتعبير الدارج في العربية الفصحى، وهو التعبير المعروف بـ« هَلُمَّ » في سورة الأنعام الآية 150، وهذا نصها:

« قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ»

تفسير الطبري: « قال أبو جعفر: (هلم شهداءكم)، يقول: هاتوا شهداءكم». وشرحه لكلمة «هَلُمَّ»: وأهل العالية من تهامة توحّد «هلم» في الواحد والاثنين والجميع، وتذكر في المؤنث والمذكر، فتقول للواحد: «هلم يا فلان»، وللاثنين والجميع كذلك، وللأنثى مثله،

(1) التعبيران مركّبان من كلمتين أوّلهما عربي والثاني سرياني. فالتعبير الأول «يَوْمَئِذٍ» مركّب من "يَوْم" ومن اسم الإشارة السرياني "ܗܕܝܢ" (هَادِين) بحذف الـ "هـ" لارتباطها بالكلمة السابقة، فيكون اللفظ الصحيح "يَوْمَئِذٍ" (بدون همزة)، والتنوين العربي بديل لحرف الـ "ن" السرياني (يَوْمَذِين)، والمعنى "يَوْمَ ذاك" أي في "ذَلِكَ اليَوْم". ويطبّق نفس التحليل على تعبير "حينَئِذٍ"، فوجب لفظه "حِينَذٍ" (حِينَذِين) أي "حِينَ ذاك" أو في "ذَلِكَ الحِين". والتعبير السرياني نفسه مركّب من ثلاث أدوات إشارة وهي "ܗ" (هاي) "ܕ" (د/ دي) "ܗܝܢ" (هَيْن)، ولفظها وتطوّرها بالأحرف اللاتينيّة:

"hāi-d-hain" > "hāi-d-hēn" > "hāi-dēn" = (ܗܕܝܢ).

ومنه قول الأعشى:

وَكَانَ دَعَا قَوْمَهُ دَعْوَةً هَلُمَّ إِلَى أَمْرِكُمْ قَدْ صُرِمْ

ينشد: «هلم»، و «هلموا» . وأما أهل السافلة من نجد، فإنهم يوحّدون للواحد، ويثنّون للاثنين، ويجمعون للجميع. فيقال للواحد من الرجال: «هلم»، وللواحدة من النساء: «هلمي»، وللاثنين: «هلما»، وللجماعة من الرجال: «هلموا»، وللنساء: «هَلْمُمْنَ».

التعقيب على تفسير الطبري: لم يلاحظ أبو جعفر بأنّ «هلم» أوّلا ليست صيغة فعلية، ثانيا بأن معناها «هاتوا» لا أساس له في اللغة، بالرغم من قول الأعشى(1) الذي اتخذ هذا المفهوم من أهل التأويل الخاطئ، وثالثا بأنّ هذه الكلمة مركّبة من حرفين، أوّلها أداة الاستفهام «هل»، والثاني ضمير جمع المذكّر الغائب المتصل «(هـُ)م» بحذف الهاء كما يلفظ في بعض اللهجات العربية الدارجة، كقولك: «شفت(هـ)ن». ولا فرق إذا قرأنا «هَلُمْ» بتسكين الميم كما هو الحال في الفصحى، أو «هَلُمَّ» بتشديدها وفتحها كما تلفظ مثلا في العاميّة المصرية.

عواقب هذا التصحيح: لما فهم الطبري والقراء من قبله التعبير المزدوج «هَلْ(هُ)م» بمعنى «هاتوا»، اضطرّ النحويون إلى قراءة اسم الجمع التالي كمفعول به بالنصب، فقرؤوا «شُهَداءَكم» بإضافة الهمزة وفتحها (كما في سورة البقرة 23). وإذ نعلم أنّ الهمزة، التي لا وجود لها في المخطوطات الحجازية والكوفية، لم تضَف إلا في المرحلة الخامسة لتدوين القرآن، يتبيّن لنا بذلك من الواضح بأنّ القراءة الأساسية كانت «شُهَداكُم» بدون همزة. فلو علم أهل اللغة والنحويون بأنّ «هَلُم» ليست صيغة فعلية بل كتابة مختصرة لـ «هَلْ (هُ)مْ»، لقرؤوا مع إدخال الهمزة «شهداؤكم» بالضمّ باعتبارها فاعل وليس مفعول به. ونلاحظ تأثير نشاط النحويين المتأخرين في قراءة القرآن بإدخالهم الـ«واو» في حالة رفع فاعل جمع المذكّر على وزن «فُعَلا» مع الضمير المتصل مثل «آباؤنا» (12 مرّة)، «آباؤكم» (10 مرّات)، «آباؤهم» (5 مرّات)، وكذلك «أبناؤكم» (النساء 11)، «شركاؤنا» (النحل 86)، «شركاؤكم» (الأنعام 22، يونس 86). ولم يضيفوا الـ «واو» في الجمع الممنوع من

(1) وهو لقب عدد كبير من الشعراء العميان، ولم يحدد الطبري إن كان يقصد به الأعشى الجاهلي الكبير المتوفى سنة 629 م، فيكون هذا الشعر المعتبر من العصر الجاهلي لم يتمّ تأليفه بالحقيقة إلا بعد القرآن، والقرآن خير دليل على ذلك.

الصرف وبدون ضمير متصل مثل «له ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ» (البقرة 266) و«ليس على الضُّعَفَاءِ» (التوبة 91)، مع العلم بأنّ الهمزة لا وجود لها في المخطوطات القرآنية القديمة، وهي من ابتداع النحويين بعد وضع قواعد اللغة العربية الكتابية أو الفصحى في أواخر القرن الثامن الميلادي.

وقد أخطأ النحويون وأهل العربيّة بالنسبة إلى الرسم القرآني «الضعفوا» كما يرد (مرّتين) في مصحف القاهرة بقراءة «الضُّعَفاؤُا»، معتبرين هذا الرسم ككتابة كاملة للرسم السابق ذكره وبإضافة الهمزة: «الضُّعَفاءُ»، بينما يتبيّن من سياق النص القرآني في سورة ابرهيم 21: «فقال الضعفوا للذين استكبروا»، وسورة غافر 47: «فيقول الضعفوا للذين استكبروا»، بأنّ هذا الرسم لا يدلّ على اسم بسبب «ال» التعريف، بل يشير بوضوح إلى صيغة فعلية، وهو الفعل الماضي، وأنّ «ال» التعريف لا تسبق فقط الاسم، بل من المعروف أنها تستعمل عدا ذلك كاسم الموصول بمعنى «الّذي والّذين» الدالّ على صيغة فعلية، وهو غالبا اسم الفاعل أو اسم المفعول، إن كان في اللغة الكتابية أم المحكية، كقولك: «الذاهبون والقادمون»، أي: «الّذين هم ذاهبون والّذين هم قادمون»، و«المعروف أنّ»، أي: و«الّذي هو معروف أنّ». وفي الدارجة: «الرايح والجاي» أو «يَلّي رايح ويَلّي جاي». غير أنّ هذا الاستعمال الدارج لـ«ال» كاسم الموصول الداخل على اسم الفاعل والمفعول، يندر استعماله في الفصحى مع غير صيغة فعليّة كالماضي أو المضارع . فاستعماله مع الفعل الماضي في حالتين في القرآن مثال فريد من نوعه، وقد يجوز استعماله في الدارجة.

وعليه، واستنادا إلى ما تقدّم، توجّب إعادة النظر في رسم «الضعفوا» وقراءته الخاطئة بتشكيل «الضُّعَفاؤا» بمعنى «الضُّعَفاءُ» كاسم جمع، كما وردت هذه القراءة في مصحف القاهرة، وتصحيحها بقراءة الرسم الأساسي «الضعفوا» كفعل بصيغة الماضي: «الضَعِفُوا» بمعنى «الّذين ضَعِفُوا». وما يدعم هذه القراءة تناسبها مع صيغة الفعل الماضي التابع، فيتمّ المعنى بقراءة:

«فقال الضَعِفُوا للذين استكبَرُوا» بمعنى: « فقال الّذين ضَعِفُوا للذين استكبَرُوا» (ابرهيم 21). وكذلك: «فيقول الضَعِفُوا للذين استكبَرُوا» بمعنى: «فيقول الّذين ضَعِفُوا للذين استكبَرُوا» (غافر 47).

الرجوع إلى رسم «هلم» الوارد ثانية في سورة الأحزاب 18:

«قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا»

تفسير الطبري: «يقول تعالى ذكره: قد يعلم الله الذين يعوّقون الناس منكم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيصدّونهم عنه، وعن شهود الحرب معه. (والقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنا): أي تعالوا إلينا. (وَلا يَأْتُونَ البَأْسَ إلا قَلِيلا) يقول: ولا يشهدون الحرب والقتال إن شهدوا إلا تعذيرا، ودفعا عن أنفسهم المؤمنين. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.»

تحليل رسم "هلم" في هذا النص: لمّا رأينا بأنّ قراءة "هَلُمَّ" في سورة الأنعام 150 لا تعني "هاتوا"، فنفس الرسم لا يمكن أن يعني في هذا النص المختلف "تعالوا" كما يشرحه الطبري. فمن محتوى هذه الآية يتبيّن بأن "المُعَوِّقين – لا يأتون البأس إلا قليلا"، أي أنهم لا يرغبون الالتحاق بإخوانهم للقتال. فمن المنتظر أن يكون في كتابة "هلم إلينا" جواب يعبّر عن هذا الرفض. وسوف نبيّن بأن الخطأ كامن في استنساخ حرف الـ "هـ" من مصدر سابق مدوّن بأبجدية تختلف عن حروف الأبجدية العربية، وهو حرف الـ "س" في الأبجدية السريانية، وهذا رسمه: "ܣ". فإذا استبدلنا حرف الـ "هـ" بالـ "س" في كلمة "هلم"، تصبح القراءة: "سلم إلينا"، أي "سلام علينا"، إذ يستعمل القرآن حرفي "إلى" و"على" أحيانا بنفس المعنى، كما نجد مثال ذلك في عبارة: "إنا أنزلنا إليك الكتب بالحق" (الزمر 2)، وفي نفس السورة (آية 49): "إنا أنزلنا عليك الكتب للناس بالحق". وهذا دليل على أنّ حرف "إلى" لفظ مخفّف لحرف "على" بقلب العين إلى همزة، ولو أن استعمالهما في اللغة اتخذ فيما بعد مدلولا يختلف حسب المعنى.

نستنتج من هذا التحليل بأن رسم "هلم" المشار إليه بتعبير "هلم إلينا"، علينا أن نقرأه بكتابته السريانية الأساسية "ܫܠܡ" = "سلم إلينا"، أي: "سلام علينا". فالمقصود بـ"المعوّقين" الذين "لا يأتون البأس إلا قليلا" بقولهم "سلم إلينا"، بأنهم "مسالمون" لا يبغون الالتحاق بإخوانهم للقتال، ولذا قوله: "ولا يأتون البأس إلا قليلا".

الخـلاصة

المراحل الخمس لتدوين القرآن

يتبيّن من هذا المثال (وليس هذا المثال الوحيد) ومن غيره، بأن القرآن تمّ تدوينه على خمس مراحل:

ففي المرحلة الأولى يُفترض بأن القرآن تمت كتابته بالخط السرياني المسمّى بال "جرشوني" أو ال "كرشوني" . ويعتمد هذا الافتراض على التحليل اللغوي للنص القرآني الذي أسفر عن أخطاء في الرسم العربي، لا يمكن شرحها إلا على أساس شكل حروف الأبجدية السريانية . وقد تبيّن من هذا التحليل بأن ما لا يقلّ عن إثني عشر حرفا من الأبجدبة السريانية (وعددها إثنان وعشرون حرفا) تمّ نقلها بالخطأ إلى الرسم العربي، وذلك في المرحلة الثانية .

وتتميّز المرحلة الثالثة بأخطاء تمّ نقلها من العربي إلى العربي، ويبيّن التحليل اللغوي بأن هذه الأخطاء لا يمكن شرحها إلا على أساس شكل الحرف العربي . ومن جملة هذه الأخطاء الخلط بين ال «ط» وال «ك»، وال «ر» وال «و»، وأحيانا بين ال «ر» وال «ن» (بدون نقطة) في الرسم الحجازي والكوفي .

وعلاوة على هذه الأخطاء التي حصلت في الرسم، الذي هو أساس النص القرآني، دون أن يأبه بها المفسرون وأهل اللغة لاعتمادهم على عقيدة «النقل الشفهي» الذي نسبوا له مصطلح ال « تواتر» المحفوظ منذ البدء « في الصدور»، تمّت في المرحلة الرابعة إضافة النقط على خمسة عشر حرفا من النص القرآني غير المنقّط . وقد حصلت في هذه المرحلة أغلب الأخطاء في القراءات القرآنية، كما سيبيّنها التحليل اللغوي بالأدلة والمراجع اللغوية .

وفي المرحلة الخامسة تمّ أخيرا تدوين نص القرآن بإضافة التشكيل من ضمّة وفتحة وكسرة وتنوين وسكون وشدّة وهمزة وغيرها، كما يقدمه لنا مصحف القاهرة (الصادر سنة 1924 م.) . وقد حصلت هنا من جديد أخطاء لغوية تغيّر أحيانا معاني القرآن بخلاف مفاهيمها التقليدية وتكشف لنا معاني جديدة لمفهوم القرآن .

وبالنتيجة احتفظ لنا مصحف القاهرة في طيّاته جميع الأخطاء التي حصلت بالرسم في

المرحلتين الثانية والثالثة، وبالتنقيط في المرحلة الرابعة، وبالتشكيل في المرحلة الخامسة .

وقد نتج عن مقارنة أقدم المخطوطات القرآنية المدوّنة بالرسم الحجازي والكوفي(1) بأنّ كلّها تنتمي إلى المرحلة الثالثة، ودليل ذلك وجود نفس الأخطاء في الرسم في جميع هذه المخطوطات دون استثناء. وقد تساعد هذه المعلومة على تحديد الفترة الزمنية التي تنتمي إليها هذه المخطوطات التي يتبيّن من أخطاء رسمها أنها منقولة عن أصل سابق، وفي مرحلتين سابقتين . وسوف نأتي بدعم النتائج المذكورة ببراهين وأدلّة لغويّة أخرى توضّح لنا ما غمض وسيء فهمه من لسان القرآن المبين . وهذا ما نسميه بـ"معاني القرآن على ضوء علم اللسان". وسوف نتابع هذا الاجتهاد بالتحليل اللغوي الذي سيكشف لنا بأن تدوين القرآن تمّ على خمس مراحل، سوف نأتي على ذكر كلّ منها بالتفصيل، إن شاء الله تعالى .

(1) والمعروضة على موقع Corpus coranicum.de

التّاريخُ النصّيُّ للقرآن

آرثر جيفري

حيثما يوجدُ دينٌ يعتمدُ على نصٍّ مقدّسٍ أو كتاباتٍ مقدّسة، تلكَ الحقيقةُ تنتجُ ثقافةً كاملةً تتعلّقُ بمشكلةِ التّاريخِ النصّيِّ لتلكَ الكتاباتِ أو النصّ، وليسَ هناكَ أيُّ دينٍ مستثنى من ذلكَ من بينِ الأديانِ التّاريخيّة، ففي حالةِ الديانةِ البوذيّةِ على سبيلِ المثال، تواجهنا مشكلةُ شريعةِ بالي، الشّريعةِ السنسكريتيّة، الشّريعةِ التيبتيّة، والشريعةِ الصّينيّة. في حالةِ الديانةِ الزرادشتيّة هناكَ نزاعٌ وجدالٌ قائمٌ في هذهِ اللحظة بينَ العلماءِ الإيرانيّين بالنسبةِ لنصوصِ الأفيستا، و _كما هوَ معروف_ نصوصُ كتبِ اللّغةِ الفهلويّة، وهيَ مشكلةٌ معقّدةٌ جدّاً. كلُّ جيلٍ منَ الطلاّبِ خلالَ القرونِ القليلةِ الماضية وجدَ نفسهُ محاصراً بمشكلاتٍ وصعوباتٍ جديدةٍ تتعلّقُ بنصوصِ العهدِ القديم، وما زلنا نتذكّرُ جيّداً الحماسَ والهياجَ الذي انتابنا عندَ اكتشافِ ورقةِ برديّ تشيستر بيتي، وكسرةِ الإنجيلِ التي عثرَ عليها ريلاند، وكلا الاكتشافينِ أثارا نقاشاً حارّاً حولَ أمورٍ تتعلّقُ بالتّاريخِ النصّيِّ للعهدِ الجديد. وسواءٌ كنّا أمامَ نصِّ (كتابِ الموتى)، الكتابُ الدينيُّ للمصريّينَ القدماء، أو نصِّ القرآن الكتابِ المقدّسِ لدى أحدثِ الدياناتِ التّاريخيّةِ الكبرى، فنحنُ نقفُ أمامَ إشكاليّةِ تاريخِ النصّ. ففي حالةِ الدياناتِ الصغرى وغيرِ التّاريخيّةِ لدينا تواقيعُ مؤلّفي الكتبِ المقدّسةِ الأصليّةِ الخاصّةِ بكلِّ ديانة. ما لدينا نحنُ الآن بينَ أيدينا وثائقُ جاءت إلينا من مجتمعاتٍ وجالياتٍ مختلفة، والتي تمَّ التلاعبُ بنصوصها وتحريفها بشكلٍ متفاوت، هذا التلاعبُ لا يعني بالضرورةِ وجودَ عمليّةِ تلاعبٍ مع نوايا سيّئةٍ أو شريرة، إذ قد تكونُ طبعاً حسبَ نوايا صالحةٍ وطيّبة، لكن بغضِّ النظرِ عن هذا الأمر، فهذا تحريفٌ وتلاعب. الأفيستا على سبيلِ المثال، جرى تأليفهُ زمنَ السّاسانيّين وفقَ أبجديّةٍ جديدةٍ قائمةٍ على الأحرفِ والخصائصِ السّاسانيّةِ الفهلويّة، ونحنُ لا نعلمُ كيفَ كانَ نصُّ الأفيستا الأصليّ وعلى ماذا كانَ ينصّ، بنفسِ الشّكل، الكتاباتُ المقدّسةُ العبريّة كما نعرفها مكتوبةٌ «بالخطِّ المربّع»، لكنَّ هذا النوعَ منَ الخطوطِ لم يكن مستخدماً عندما تمَّ تأليفُ الكتاباتِ الأصليّةِ منها، إضافةً إلى ذلك، إنَّ «الإشارةَ» التي تتضمّنها نصوصُ

كلّ نسخنا هيَ إضافةٌ متأخرةٌ وحديّةٌ نسبياً إلى النصّ، وهناكَ ثلاثةُ اختلافاتٍ على الأقلّ معروفةٌ لهذهِ «الإشـارة». عندما نصلُ إلى موضوعِ القرآن، نجدُ أنَّ الخطَّ المبكرَ في المخطوطةِ القرآنيّة دونَ نقطةٍ أو إشاراتٍ تشكيليّة، وأنّها في المخطوطِ الكوفيّ مختلفةٌ تماماً عنها في المخطوطِ الحديثِ الذي نقرأهُ اليوم. هذهِ العصرنةُ والتحديثُ للمخطوط وضبطُ الإملاءِ والتهجئةِ فيه، ودعمهُ بالنقاطِ وإشاراتِ التشكيل، كانت من قبيلِ النيّةِ الحسنةِ طبعاً، لكنّها خلقت حالةَ تغيّرٍ وتحريفٍ في النصّ. تلكَ هيَ مشكلتنا بالضّبط، فنحنُ لدينا نصٌّ متناولٌ مستلم receptus textus، يمكنُ الاطّلاعُ عليهِ ضمنَ كافّةِ النسخِ العاديّةِ والمنتظمةِ والتي في متناولِ الجميع، إلّا أنّها ليست النسخةَ الأبكرَ منَ القرآن، بل النصَّ الذي أصبحَ على الشّكل الذي هوَ عليهِ اليوم نتيجةَ عمليّاتٍ مختلفةٍ منَ التغييرِ والإضافاتِ والحذفِ خلالَ عمليّةِ تناقلهِ من جيلٍ لآخر ضمنَ المجتمع. ماذا نعرفُ عن تاريخِ عمليّةِ التناقلِ النصّيّ؟ طبعاً، هناكَ نظريّةٌ أورثوذكسيّةٌ عن عمليّةِ التناقلِ هذه. كما أنَّ البارسيّةَ في الهند لديها نظريّةٌ تقليديّةٌ أورثوذكسيّة عن تناقلِ نصِّ الأفيستا، وفي الأدبِ الحاخاميّ نجدُ نظريّةً تقليديّةً عن تناقلِ نصِّ العهدِ القديم، ومع أنَّ الأبحاثَ الجادّةَ والصّارمةَ لا تقبلُ بمثلِ هذهِ النظريّاتِ التقليديّة، فهيَ تهتمُّ لأن تكونَ الرّواياتِ والأخبارَ المقبولةَ تقليديّاً عن طرقِ الانتقالِ النصّيّ ضمنَ هذهِ المجتمعات. النظريّةُ الإسلاميّةُ التقليديّة يمكنُ اختصارها على النحوِ التّالي؛ قبلَ أن يخلقَ اللهُ العالم، خلقَ اللّوحَ والقلم، وأمرَ القلمَ أن يسجّلَ على اللّوحِ كلَّ شيء، ومع ظهورِ كلِّ نبيّ كانَ جبريلُ يكشفُ لهُ منَ اللّوحِ الرسالةَ التي كانَ عليهِ تبليغها، وعندما جاءَ محمّد، وحانَ الوقتُ لتفويضهِ شريعته، جاءَ إليهِ الملاكُ جبريل أيضاً، ومن فترةٍ لأخرى خلالَ الاثني وعشرينَ عاماً أوحى لهُ تلكَ الآياتِ منَ اللّوحِ المحفوظِ الذي قيلَ أنّهُ كلامُ الله. كلَّ عامٍ كانَ جبريلُ يجتمعُ بالنبيِّ ويسترجعُ الآياتِ التي أوحاها إليهِ على مرِّ العامِ الماضي وذلكَ ليتأكّدَ من أنّهُ تمّ حفظها بشكلٍ جيّدٍ صحيح. وآخرَ عامٍ من حياةِ النبي راجعها الملاكُ معهُ مرّتين، وكما أنَّ النبيَّ من وقتٍ لآخر أعلنَ رسالتهُ التي استلمها من جبريلَ إلى النّاس، فقد جعلَ كتبتهُ يدوّنونَ ما كانَ يمليهِ عليهم، وعندما توفّيَ كانت جميعُ الموادِ والسّورِ والآياتِ التي أملاها على كتبتهِ مدوّنةً على موادَ مختلفةٍ ومحفوظةً بشكلٍ جيّد، لذا كانت تلكَ المدوّناتُ نصّاً

آخرَ، نسخةٌ طبقَ الأصلِ عن اللّوحِ المحفوظِ في السّماء. في زمنِ خلافةِ أبي بكر وُضِعَت هذهِ المادّةُ على شكلِ مخطوطةٍ كأوّلِ نصٍّ منقّح، والذي كانَ بمثابةِ النصِّ الرسميِّ لخلافتهِ وخلافةِ عمر بن الخطّاب. في زمنِ الخليفةِ عثمان، وجدَ أنَّ هذهِ المادّة كانت تقرأُ بلغاتِ أقوامٍ مختلفة وبإشاراتٍ وعلاماتٍ مختلفة، لذا «أرسلَ عثمانُ إلى حفصة، ابنة عمر وأرملةِ النبيّ» وطلبَ منها أن تُرسِلَ لهُ نسخةَ المصحفِ الذي كانَ لديها بعدَ وفاةِ والدها، ثمّ عيّنَ لجنةً من رجالِ قريش، وطلبَ منهم كتابةَ نسخةٍ منقّحةٍ جديدة حسبَ لسانِ قريش، وعندما تمَّ الأمر، طلبَ صنعَ أربعِ نسخٍ لهُ، ثمَّ أرسلَ واحدةً منها إلى الكوفة، وواحدةً إلى البصرة، وواحدةً إلى دمشق، والأخيرةَ إلى مكّة، وأمرَ بإتلافِ جميعِ النسخِ والمصاحفِ الأخرى الموجودةِ وإحراقها. كلُّ نسخنا الحاليّة التي نقرأها اليوم ما هيَ إلّا نسخٌ عن نصِّ عثمانَ الرسمي، طبعاً، النسخةُ المصريّةُ منَ النصّ 1342هـ تقولُ بجلاءٍ واضح: ((نصّهُ الصحيحُ مأخوذٌ ممّا تمَّ تناقلهُ من نسخٍ بالنسبةِ للمخطوطاتِ التي أرسلها عثمانُ إلى البصرة، الكوفة، دمشق، ومكّة، والنصُّ الذي خصّصهُ لأهلِ المدينةِ احتفظَ بهِ لنفسه)) بأيّةِ حال، هذا ليسَ تاريخَ النصّ كما يقرّهُ العلماءُ المعاصرون. وللبدء، منَ المؤكّدِ أنّهُ عندما ماتَ النبيُّ لم يكن هناكَ أيُّ شيءٍ أو مجموعةٍ تمَّ جمعُ تلكَ الآياتِ فيها، وتحريرها، وتنقيحها. ما لدينا هوَ الذي قامَ بجمعهِ فيما بعد زعماءُ المجتمع عندما شعروا بوجودِ حاجةٍ لجمعِ إملاءاتِ النبيِّ عندما فُقِدَ قسمٌ كبيرٌ منها، وبعضُ الأجزاءِ منها سُجِّلَت على شكلِ كسرات. هناكَ تقليدٌ مؤكّدٌ ومبكر وُجِدَ في عدّةِ مصادر يقول: ((أنَّ رسولَ الله توفّيَ حتّى قبلَ أن تتمَّ أيّةُ عمليّةِ جمعٍ للقرآن)) يجادلُ المسلمونَ المتشدّدون أنَّ النبيَّ نفسهُ لم يكن يعرفُ القراءةَ ولا الكتابة، لكن في جيلنا هذا كلٌّ من د. توري من جامعة يال ود. ريتشارد بيل من أدنبره، كلٌّ منهما يعملُ على حدى وبشكلٍ مستقلٍّ عن الآخر، توصّلا إلى نتيجةٍ أنَّ الدليلَ الباطنيَّ في القرآنِ نفسهِ يشيرُ إلى حقيقةٍ مفادها أنّهُ كانَ يعرفُ الكتابة، وأنّهُ خلالَ فترةِ ما قبلَ وفاتهِ كانَ مشغولاً في تحضيرِ مادّةِ «الكتاب»، ليتركهُ لأتباعهِ من بعدهِ كنصٍّ مقدّس، وأن يكونَ لهم كما كانت التوراةُ لليهود أو الإنجيلُ للمسيحيّين. هنالكَ طبعاً تراثٌ منحولٌ حاليّاً منتشرٌ بينَ الشّيعة، يقولُ أنَّ النبيَّ قد جمعَ آياتهِ ودوّنها على سعفِ النخيلِ والحريرِ والرّقّ، وقبلَ وفاتهِ أخبرَ صهرهُ وابنَ عمّهِ عليّاً أنَّ مادّتهُ تلكَ

قد خبّأها وراءَ أريكتِهِ، وطلبَ منهُ أن يأخذها وأن ينشرها على شكلٍ مخطوط. ليسَ منَ المستحيلِ أنّهُ كانت هناكَ مثلُ هذهِ البدايةِ حولَ جمعِ مادّةِ الوحيِ من قِبَلِ النبيِّ نفسه، ومنَ المحتملِ أيضاً أنَّ د. بيل قد يكونُ محقّاً في الاعتقادِ أنّ _على الأقلّ_ بعضَ مادّتهِ يمكنُ ملاحظتها في القرآنِ الحاليّ، غيرَ أنّهُ منَ المؤكّدِ أنّهُ لم يكن هناكَ أيُّ قرآنٍ موجودٍ ككتابٍ مجموعٍ، محرّرٍ، منقّحٍ، ومنقّطٍ عندما توفّيَ النبيّ. في البداية لم يكن يبدو على زعماءِ المجتمع، الذين تولّوا مسؤوليّةَ المجتمعِ بعدَ وفاةِ النبيّ، أنّهم شعروا بالحاجةِ إلى أيّ جمعٍ لمادّةِ الوحي، إذ أنّهُ فقط بعدَ انتقالِ المجتمع إلى مرحلةٍ جديدةٍ واستقرارهِ فيها، ظهرت الحاجةُ إلى وجودِ سجّلٍ عن تلكَ المواد، إذ أنّهُ حينَ كانَ النبيُّ على قيدِ الحياة، كانَ منبعُ الوحيِ _إذا جازَ لنا القول_ ما يزالُ مفتوحاً، فقد تأتي أوامرُ جديدةٌ في أيِّ وقت أو ظرفٌ لإلغاءِ أو نسخِ أوامرَ سابقةٍ لم تعد كافيةً للنمطِ الجديدِ للحياةِ الصّاعدة، أو آياتٌ جديدةٌ قد تتنزّلُ قريباً لملاقاةِ مواقفَ جديدةٍ وحديثةٍ وموافاتها. الحياةُ الاجتماعيّةُ المتطوّرةُ بسرعةٍ في المدينة عنت أنَّ المجتمعَ المسلمَ كانَ يواجهُ باستمرارٍ مشكلاتٍ اجتماعيّةً غيرَ متوقّعة، وقد ترعرعوا وهم معتادونَ على المجيءِ إلى النبيِّ ليأمرَ فيهم، ولحلِّ مشاكلهم. الصّيغةُ العرفيّةُ لهذهِ التعليماتِ والأوامر ليتمَّ الأخذُ بها كانت على شكلِ وحيٍ وآيات، إلّا أنّهُ، ومع وفاةِ النبيّ، توقّفَ سيلُ الوحيِ عن التدفّقِ بشكلٍ تلقائي، وخلفاؤهُ الأقربونَ وجدوا أنفسهم مسؤولينَ عن إدارةِ وتوجيهِ شؤونِ المجتمعِ حسبما هوَ بينَ أيديهم من تراثٍ أورثهُ لهم نبيّهم، لكن ما نوعُ صيغةِ الوحيِ التي كانت متوفّرةً لأولئكَ الخلفاءِ الأقربين؟ كانت هناكَ بعضُ الآيات، وخصوصاً آياتٍ ذاتِ طابعٍ قانونيٍّ تشريعيّ، كانَ النبيُّ قد أمرَ بنفسهِ أن يتمَّ تسجيلها وتدوينها، والتي كانت ماتزالُ في متناولِ المجتمع، كانت هناكَ أيضاً بعضُ الآياتِ ذاتِ طبيعةٍ طقسيّةٍ شعائريّة كانت تستخدمُ ضمنَ نطاقِ الصّلواتِ اليوميّة، والتي، سواءً تمَّ تدوينها أم لم يتمّ، جرى حفظها عن ظهرِ قلب من قبلِ عددٍ ليسَ بقليلٍ من أعضاءِ ذلكَ المجتمع. ربّما كانت هناكَ آياتٌ بشكلٍ مكتوب بينَ مقتنياتِ النبيِّ الخاصّة، حتماً كانَ هناكَ عددٌ منَ الآياتِ وموادِ الوحي قامَ بتسجيلها عددٌ لا بأسَ بهِ من أبناءِ ذلكَ المجتمع، ليسَ لأنَّ النبيَّ كانَ قد أمرهم بذلك، بل لأنّهم كانوا مهتمّينَ بالاحتفاظِ بها بشكلها المكتوبِ أو المدوّن، ثمَّ كانت هناكَ ذاكرةُ المجتمعِ نفسه.

ذلكَ التقليد منَ المحتملِ أنّهُ صحيحٌ عندما يقولُ أنَّ الوحيَ أو الآياتِ التي أعلنها النبيُّ كانت قصيرةً نسبيّاً مع وجودِ بعضِ الاستثناءات، ومنَ الممكنِ أنّهُ كانَ هناكَ العديدُ من أعضاءِ المجتمعِ الذينَ يمكنهم تذكّرُ عددِ الآياتِ التي أُنزلَت وعلى مناسباتٍ مختلفة. عندما كانَ الزّعماءُ الأوائلُ للمجتمعِ الإسلاميِّ بحاجةٍ لأن يعرفوا ما إذا كانَ هنالكَ أيّةُ أوامرَ أو نواهٍ تتعلّقُ بخصوصِ مسألةٍ معيّنةٍ أو أخرى، كانوا يرجعونَ إلى أولئكَ الأشخاصِ الذينَ يمثّلونَ مصادرَ للمعلومات. ربّما خلالَ فترةِ حياةِ النبيِّ كانَ هناكَ أعضاءٌ محدّدونَ ضمنَ المجتمع، كانَ لديهم الميلُ والاهتمامُ بجمعِ الإملاءاتِ التي كان يمليها عليهم نبيّهم، وكان هذا أمراً عاديّاً، فنفسُ الحالةِ هاهنا، إذ أنَّ الكنيسةَ المسيحيّةَ السّابقة هيَ التي قدّمت تلكَ المجموعاتِ من «أقوالِ المسيح»، والتي نجدها ضمنَ الموادِ الأساسيّةِ للأناجيل. حتماً بعدَ موتِ محمّد نجدُ أعضاءَ محدّدينَ ضمنَ المجتمع مهتمّينَ بتضخيمِ مجموعتهم الخاصّةِ من أقوالِ النبيّ، وهؤلاءِ يُعرفونَ الآن باسم «القرّاء» _أو الأشخاصِ الذينَ أصبحوا بمثابةِ نوعٍ من مستودعاتِ الوحيِ التي يمكنُ أن يرجعَ إليها الزُّعماءُ للتزوّدِ بالمعلوماتِ اللاّزمة، عندما كانوا بحاجةٍ إليها، حسبَ السّورِ والآياتِ التي تقرّرُ ماذا يجبُ أن يفعلوا وأن يتعاملوا مع كلِّ حالة. بعضُ أولئكَ القرّاء تمَّ اختيارهم لحفظِ أكبرِ قدرٍ ممكنٍ منَ الوحي، بينما هناكَ آخرونَ اختاروا الالتزامَ بتحويلِ مجموعاتهم إلى صيغةٍ مكتوبة، كانَ هناكَ اقتراحٌ أنَّ النبيَّ نفسهُ قد بدأ بتنظيمِ لجنةٍ منَ القرّاءِ الذينَ كانوا بمثابةِ حرّاسِ وحفظةِ الوحي، لكنَّ الدليلَ على هذا المأخذِ ضعيفٌ جدّاً والتّاريخُ المبكرُ للقرّاءِ ما زال محجوباً في ظلالِ الغموضِ الأعظم. هنا، نحنُ أمامَ أوّلِ مرحلةٍ في تاريخِ النصِّ القرآني، لا يمكنُ أن يكونَ هناكَ نصٌّ جازمٌ وقاطعٌ حينَ كانَ النبيُّ حيّاً، وإبطالُ المادّةِ السّابقةِ ونسخها من جديد كانت حالةً محتملةً دوماً، بأيِّ حال؛ عندَ وفاةِ النبيّ، انتهت تلكَ الحالة، وبقيَ لدينا ما تمَّ حفظهُ من مادّةِ الوحي، بشكلٍ مكتوبٍ جزئيّاً، في أيدي أبناءِ المجتمع، وميلِ فئةٍ صغيرةٍ منهم لأن يولوا عنايةً خاصّةً للمادّة، أو يكونوا اختصاصيّينَ فيها. تقولُ المراجعُ التّراثيّةُ أنَّ خسارةَ هؤلاءِ الاختصاصيّين كانَ بمثابةِ خطرٍ مفاجئ، والذي قادَ بدورهِ إلى المرحلةِ التّاليةِ في تاريخِ النصّ. نقرأُ أنّهُ في معركةِ اليمامة عام 12هـ سقطَ العديدُ منَ القرّاءِ والحفظةِ قتلى في أرضِ المعركة، أمّا عمر

فقد استيقظَ من فورِهِ لحقيقةِ أنَّ بضعةَ معاركَ كهذِهِ المعركة قد تعني ضياعَ قسمٍ كبيرٍ من مادّةِ الوحي وإلى الأبد، لذا قدمَ إلى الخليفةِ أبي بكر وحثَّهُ على أهمّيّةِ وضرورةِ جمعِ المادّةِ التي كانت بحوزةِ القرّاء، وجمعها ثمّ تدوينها بصيغةٍ نصّيّة، قبلَ أن يفوتَ الأوان، كما أنّنا نجدُ إشاراتٍ كثيرةً في المراجعِ التّراثيّةِ والتّاريخيّةِ تشيرُ إلى الآياتِ التي «فُقِدَت يومَ اليمامة». اعترضَ أبو بكرٍ، وتردّدَ، قائلاً أنّهُ من هوَ ليقومَ بفعلٍ مالم يقم بهِ النبيُّ نفسه، حتّى أنّهُ لم يوجّه أيَّ أمرٍ بذلك. بأيِّ حال، أقنعهُ عمر بضرورةِ وأهمّيّةِ هذا الأمر، وتمَّ تعيينُ زيد _كما جاءَ في المراجعِ التّراثيّة_ لجمعِ المادّةِ المكتوبةِ على سعفِ النخيل، الحجارةِ البيضاء، عظامِ كتفِ الجمل، ومن صدورِ الرجال، بمعنى آخر؛ قامَ بجمعِ كلِّ المادّةِ المتوفّرةِ _الشفهيّةِ والمكتوبة_ محاولةً منهُ لإخراجِ أوّلِ نصٍّ قاطعٍ وشرعيٍّ جامعٍ لكلامِ الوحي، لذلك فالنصُّ يحتوي تراثاً يُعتبرُ كإعلانٍ رسميٍّ من قِبَلِ أبي بكر، وبذلكَ فهوَ النسخةُ المنقّحةُ الأولى منَ القرآن. النّقدُ الحديثُ والمعاصر يبدو أنّهُ يريدُ القبولَ بحقيقةِ أنَّ أبا بكرٍ كانَ لديهِ مجموعتهُ الخاصّةُ من مادّةِ الوحي صُنِعَت خصّيصاً له، وربّما، ألزمَ زيدَ بنَ ثابتٍ بصنعها، لكنَّ النّقدَ الحديثَ لا يريدُ قبولَ الزّعمِ الذي يقولُ أنَّ هذهِ النسخةَ كانت النسخةَ الرسميّةَ المنقّحةَ للقرآن. كلُّ ما يمكننا الاعترافُ بهِ هوَ أنّها كانت مجموعةً خاصّةً مصنوعةً خصّيصاً للخليفةِ أبي بكر، إلّا أنَّ بعضَ الباحثينَ ينكرونَ هذا الأمر، ويؤكّدونَ على أنَّ عملَ زيدٍ قد تمَّ في زمنِ الخليفةِ عثمان، لكن بما أنَّ عثمانَ كانَ شخصيّةً مكروهةً وغيرَ مقبولةٍ بالنسبةِ للتقليديّين، فقد لفّقوا قصّةً أو نسخةً منقّحةً منَ القرآن في زمنِ أبي بكر، وذلكَ لكي لا ينالَ عثمانُ شرفَ صنعِ أوّلِ نسخةٍ منقّحةٍ ومحرّرة. لا بدَّ أنَّ أحداً ما قامَ بجمعِ مصحفٍ لحفصة ابنةِ عمر، وهو ما عُرِفَ فيما بعد «بمصحفِ حفصة»، والذي استُخدِمَ لاحقاً كجزءٍ منَ المادّةِ التي اعتمدَ عليها عثمانُ في تنقيحه، وهذا ما يدعونا للاعتقادِ أنّهُ لابدَّ وأن يكونَ هناكَ مجموعةٌ خاصّةٌ قامَ بجمعها إمّا أبو بكرٍ أو عمر، وعلى الأرجحِ كانت على يدِ الخليفةِ الأوّل، إلّا أنّها كانت نسخةً خاصّةً وليست نصّاً رسميّاً. في واقعِ الأمر، هناكَ أشخاصٌ آخرون بالإضافةِ إلى زيدِ بنِ ثابت منَ الذينَ شغلوا أنفسهم بمهمّةِ جمعِ مجموعةٍ كاملةٍ على شكلِ نصوصٍ ومخطوطات والتي بقيت حتّى الآن تشكّلُ مادّةَ وحيٍ تدخلُ في صُلبِ القرآن. والتّراثُ يعرفُ أسماءَ العديدِ من

هؤلاءِ الأشخاص، على سبيلِ المثال: سالمُ بنُ معقل [ويعرفُ بسالم مولى أبي حذيفة]، الذي قُتِلَ في معركةِ اليمامة [في الواقع هنالكَ حديثٌ لافتٌ للانتباه لابدَّ أن نتوقَّفَ عندهُ في أبحاثٍ تالية، إذ وردَ حديثٌ عن محمّد يقولُ فيه: ((«خذوا القرآنَ من أربعة: من ابن أمّ عبد - وبدأ به - ومن أُبيّ بنِ كعب ومن سالمٍ مولى أبي حذيفة ومن معاذِ بنِ جبل»))] وتقولُ المصادرُ التّراثيّةُ أنّهُ كانَ أوّلَ من قامَ بهذا العملِ عندما دوّنَ مادّتهُ على شكلِ نصٍّ مكتوب. عليُّ بنُ أبي طالب، الذي قيلَ عنهُ أنّهُ سعى لترتيبِ آياتِ الوحيِ حسبَ ترتيبها الزمنيّ. أنسُ بنُ مالك، الذي قد يكونُ قد ورثَ نصَّ عمّهِ أبو زيد، الذي كانَ معروفاً جدّاً كأحدِ أوائلِ المصنّفينَ المبكرينَ لآياتِ الوحي. أبو موسى الأشعريّ صاحبُ النصِّ الأضخم، وقد أُعطيَ اسماً حميمياً «لبابُ القلوب»، والعديدُ منَ النصوصِ الأخرى، ومن ضمنها نصُّ أُبَيّ بنِ كعب ونصُّ عبدِ اللهِ بنِ مسعود الذينَ استطاعت الكثيرُ من نصوصها النجاةَ والوصولَ إلينا. كثيراً ما يؤكّدُ أنَّ فعلَ «جَمَعَ» تعني عمليّةَ الجمع، وتستخدمُ في مثلِ هذا السّياق، إلّا أنّهُ يعني الحفظَ والاستظهارَ فقط. قد يكونُ معنى هذا الفعلِ صحيحاً، لكن بما أنّهُ يقالُ أنَّ علياً قد حزمَ كلَّ ما جمعهُ على ظهرِ الجملِ وأتى به، وبما أنَّ ما جمعهُ أبو موسى الأشعري كانَ له تسميةٌ خاصّةٌ به، وبما أنَّ صحابةَ ابنِ مسعودٍ في الكوفة دعموهُ عندما رفضَ تسليمَ مجموعتهِ ليتمَّ إتلافها وحرقها، منَ الواضحِ هنا أنّنا نتعاملُ مع مجموعاتٍ مكتوبةٍ أو مدوّنة. في حالةِ نصوصِ عليّ، أُبيّ، وابن مسعود، طبعاً، يمكننا ملاحظةُ تراثٍ يعترفُ بوجودِ نظامٍ رُتّبت آياتُ الوحيِ وفقهُ في نصوصهم، وهوَ نظامٌ يختلفُ تماماً عن النظامِ الذي نجدهُ في قرآننا الحاليّ.

الحقيقةُ الأكثرُ أهميّةً هيَ أنَّ التّراثَ كانَ محفوظاً بالارتباطِ معَ هذهِ المخطوطاتِ المبكرة، وهيَ الحقيقةُ التي تقولُ أنَّ بعضاً منها جاءَ لتوثيقِ وتأكيدِ مكانةِ المخطوطةِ الأساسيّةِ الحضريّة، لذلكَ نقرأُ أنَّ أهلَ الكوفةِ راعوا مخطوطةَ ابنِ مسعود في سياقِ تحريرهم وتنقيحهم لها، وأهلُ البصرةِ اعتمدوا مخطوطةَ أبي موسى، وأهلُ دمشقَ اعتمدوا مخطوطةَ المقدادِ بنِ الأسود، وباقي السوريّينَ باستثناءِ أهالي دمشق، اعتمدوا نصَّ أُبيّ. وهذا ما كانَ متوقّعاً بالضّبط، إذ أنَّ نفسَ الحالةِ حصلت مع العهدِ الجديد، حيثُ أنَّ النصوصَ التي تندرجُ تحتَ مسمّى النصِّ الإسكندرانيّ، النصِّ الطبيعيّ، النصِّ الغربيّ، النصِّ

القيصريّ، كانت عبارةً عن تنقيحاتٍ للنصّ، حيثُ هناكَ اختلافاتٌ طفيفةٌ فيما بينها، بالإضافةِ إلى تفضيلِ قراءاتٍ معيّنةٍ متباينة، والتي نمت وتضخّمت ودخلت حيّزَ العملِ في بعضِ المراكزِ المهمّةِ من حياةِ الكنيسة. ما إن شرعت كلٌّ منَ الكوفةِ، البصرةِ، دمشقَ، وحمصَ بالتطوّرِ إلى مراكزَ هامّةٍ ومحوريّةٍ في العالمِ الإسلاميّ، كانَ منَ الطبيعيِّ أنّها _على غرارِ مكّةَ والمدينة_ كانت تريدُ مجموعةً خاصّةً بها من مادّةِ الوحي، والتّراثُ يعكسُ لنا حقيقةَ أنَّ إصداراتٍ مختلفةً أخرى من مادّةِ الوحيِ دخلت حيّزَ العملِ داخلَ هذهِ المراكزِ الهامّة. هذهِ الإصداراتُ أو التنقيحات، في حينِ أنّها تحتضنُ نفسَ الجسدِ من مادّةِ الوحي، إلّا أنّها تختلفُ دائماً في إدراجٍ أو استثناءِ مادّةٍ معيّنة، وفي اختيارها بينَ القراءاتِ المتعدّدةِ والمتباينة، وهذا ما يتخلّلُ هذهِ المخطوطاتِ الميتروبوليتيّةِ المبكرةِ للإسلام. من هنا نحنُ نعلمُ أنَّ نصَّ ابنِ مسعود قد أهملَ سورةَ الفاتحة، وسورةَ الإخلاص 113، وسورةَ النّاس 114، وأنَّ مخطوطتي أُبيّ وأبي موسى تضمّنتا سورتينِ قصيرتين، غيرِ موجودتينِ حاليّاً في قرآننا الحالي، في حينِ أنَّ جسداً كاملاً منَ القراءاتِ المختلفةِ من هذهِ النصوصِ جُمِعَت منَ الأدبِ النحويّ، المعجميّ، التفسيريّ، والماسوريتيّ منَ الأجيالِ اللاّحقةِ التي ظلّت تتذكّرها وتناقشها. كانَ هناكَ في وقتٍ ما طبعاً عددٌ منَ الأعمالِ الخاصّةِ والمميّزة، تحتَ عنوانِ «كتابِ المصاحف»، والذي تناولَ هذهِ المرحلةَ من مراحلِ النصوصِ القديمةِ بشكلٍ خاصّ، وكانَ بمثابةِ حادثةٍ محظوظةٍ مكّنت المؤلّفَ الحاليَّ من اكتشافِ ونشرِ النصِّ المثالِ الأوحد والنّاجي الوحيدِ من هذهِ الأعمال، وهوَ كتابُ المصاحفِ لأبي داوودَ السجستاني. كانَ وجودُ هذهِ المتغيّراتِ في النصوصِ المستخدمةِ في مراكزَ مختلفةٍ هوَ الذي قادَ إلى المرحلةِ التّاليةِ في تاريخِ النصّ، القصّةُ التي تمَّ فيها تقديسُ هذهِ الذكرى هيَ أنَّ حذيفةَ بنَ اليمان أُرسِلَ إلى الجيوشِ التي تقاتلُ في أذربيجان، وقد أصابهُ الهلعُ عندما وجدَ الكوفيّينَ والسوريّينَ يتجادلونَ حولَ القراءةِ الصحيحةِ للآياتِ التي كانوا يستخدمونها في طقوسهم وشعائرهم التعبّديّة، وفي بعضِ الحالات كانوا ينكرونَ ما كانَ يستخدمهُ الآخر بأنّهُ كانَ جزءاً منَ القرآن. عادَ متألّماً ممّا شاهدهُ إلى الخليفةِ عثمانَ في المدينةِ وطلبَ منهُ أن يُدرِكَ هؤلاءِ النّاسَ قبلَ أن يختلفوا فيما بينهم على القرآن كما اختلفَ اليهودُ والمسيحيّونَ على الكتابِ المقدّس، اقتنعَ عثمانُ وأرسلَ في طلبِ زيدِ بنِ

ثابت، وسلّمهُ مهمّةَ صنعِ نسخةٍ شرعيّةٍ رسميّةٍ منقّحة. تخبرنا المصادرُ التّراثيّةُ أنّهُ قامَ بأربعةِ أمورٍ تتعلّقُ بهذا الأمر، أوّلاً قامَ بإعلانٍ في المسجدِ طالباً من أيِّ شخصٍ لديهِ نسخةٌ أو مدوّنةٌ من مادّةِ الوحيِ أن يأتيَ بها إليه، ثانياً، أرسلَ إلى حفصةَ لكي ترسلَ لهُ المادّةَ التي كانت لدى أبيها عمر. أخرجتها حفصة من تحتِ سريرها، وتبيّنَ لها أنَّ الديدانَ قد نخرت فيها في عدّةِ أماكن، لكن منَ المؤكّدِ أنَّ مادّتهُ جرى استخدامها أثناءَ عمليّةِ التنقيح، ثمَّ أُعِيدَ إلى صاحبته، وخلالَ جنازتها قامَ الخليفةُ مروان، الذي حاولَ دون جدوى الحصولَ على مصحفها خلالَ فترةِ حياتها، بالمطالبةِ بهِ من أخيها ثمَّ أحرقهُ، وذلكَ جرّاءَ خوفهِ _كما ادّعى_ أنّهُ إذا انتشرَ هذا المصحف، فستظهرُ وتتفشّى القراءاتُ التي حاولَ عثمانُ طمسها منذُ البداية، ثالثاً، عيّنَ لجنةً للعملِ مع زيدِ بنِ ثابت للتدقيقِ في كلِّ الموادِ التي أُرسِلَت، وعدمَ القبولِ بأيٍّ منها إلّا ما أمكنَ العثورُ على شاهدينِ عليها، وللتأكّدِ من أنَّ ما كُتِبَ تمّت كتابتهُ بلسانِ قريش الأصليّ، رابعاً، عندما اكتملَ العمل، أمرَ بصنعِ أربعِ نسخٍ منهُ وأرسلَ نسخةً إلى كلِّ مدينةٍ ميتروبوليتيّةٍ كبرى، مع أوامرَ بإحراقِ وإتلافِ كلِّ الصّحفِ والمخطوطاتِ الأخرى. بعضُ التّراثيّينَ يخبروننا أنَّ هذا العام سُمّيَ بعامِ «حرقِ المصاحف»، إذ أنّنا وبعدَ سنواتٍ طويلةٍ من هذهِ الحادثة نسمعُ صدى امتعاضِ القرّاءِ وكراهيّتهم وعداوتهم لعثمانَ بسببِ ما قامَ بهِ من تشريعٍ لنصِّ المدينةِ وتحريمِ استخدامِ أيِّ نصٍّ آخر.

لاقت نسخةُ عثمانَ الرسميّةِ إقبالاً سريعاً وشديداً وعالميّاً تقريباً، لكنّنا لا نسمعُ عن أيِّ دعمٍ للنصوصِ المبكرةِ إلّا في الكوفة، إذ أنَّ نصَّ ابنِ مسعود استمرَّ في معارضتهِ لسلطةِ النصِّ الشّرعيِّ الجديد، لكن حتّى الكوفةُ في النهاية ركبت التيّارَ كباقي العالمِ الإسلاميّ، وقبلت النصَّ المدني. غالباً ما يقالُ أنّهُ بما أنَّ المدينةَ كانت مدينةَ النبيِّ نفسه، وكانت موطنَ غالبيّةِ المسلمينَ القدماءِ الذين كانوا على مقربةٍ منَ النبيّ، لذلكَ نالَ النصُّ المدنيُّ كلَّ الفرصِ لأن يكونَ أفضلَ نصٍّ متوفّر، والجديرُ بالذكرِ أنّهُ في ذلكَ الوقت كانَ واحداً من بينِ أنواعٍ عديدةٍ منَ النصوصِ التّراثيّةِ في الوجود، وعملُ عثمانَ على تسجيلهِ وجمعهِ في شكلٍ مؤكّدٍ ونهائيّ، كانَ يشكّلُ خاتمةً ونهايةً في تاريخِ النصّ. حتّى ذلكَ الوقت كانت تلكَ الفترةُ هيَ فترةَ المخطوطاتِ القديمة، لكن منذُ تلكَ الفترةِ وما بعدها فإنّنا

نتبّعُ تاريخَ مخطوطةٍ واحدةٍ فقط، وهيَ نصُّ عثمانَ الرسميُّ المنقّح. جرت محاولاتٌ عدّةٌ لتجنّبِ هذهِ النتيجة من خلالِ الزّعمِ أنَّ كلَّ ما فعلهُ عثمان كانَ بإزالةِ الاختلافاتِ والتبايناتِ اللّهجويّةِ واللّسانيّةِ التي وجدت طريقها إلى لفظِ القرآن كما كانَ يُقرَأ، وتوحيدِ نوعيّةِ النصِّ المكتوبِ بلهجةٍ قرشيّةٍ نقيّة. إنَّ مسألةَ اللّهجةِ القرشيّةِ هذهِ مذكورةٌ طبعاً في المصادرِ التّراثيّةِ التي تشيرُ إلى عمليّةِ التنقيحِ هذه، لكنَّ الادّعاءَ بأنَّ هذا كلّهُ كانَ مجرّدَ مسألةِ اختلافاتٍ لهجويّةٍ لسانيّة معناهُ السيرُ عكسَ ما تقولُ وتخبرنا بهِ الأخبارُ والرّوايات، فالأغلبيّةُ العظمى منَ الاختلافاتِ اللّسانيّةِ لم تُقدِّم بشكلها المكتوبِ إطلاقاً، كما أنّها لم تكن تستوجبُ نصّاً جديداً. فقصصُ زيدٍ وزملائهِ وهم يعملونَ على النصّ تجعلُ منَ الواضحِ جدّاً أنّهم كانوا يعتبرونَ بأنّهم يدوّنونَ نصّاً متجدّداً، حيثُ نقرأُ أنّهُ في الوقتِ الذي لا يكونُ هناكَ سوى شاهدٍ واحدٍ على آيةٍ معيّنة، فكانوا ينتظرونَ حتّى يرجعَ شاهدٌ آخر يعرفُ تلكَ الآيةَ منَ الحرْب، أو من حيثما كان، ويقرأها لهم، وكانت هناكَ نقاشاتٌ بينهم حولَ مسألةِ الجزءِ أو السّورةِ التي تنتمي إليها الآية. أخيراً، كميّةُ القراءاتِ المختلفةِ التي نجت وبقيت من نصوصِ أُبيّ وابنِ مسعود، تظهرُ أنّها كانت اختلافاتٍ نصّيّةً فعليّةً وليست مجرّدَ اختلافاتٍ لهجويّةٍ لسانيّة، والحالُ، أنَّ النصَّ الذي شرّعهُ عثمان كانَ نصّاً عاجزاً وساكناً بعلاماتٍ تشيرُ إلى نهايةِ كلِّ آية، من دونِ أيِّ نُقطٍ أو حركات، ومن دونِ إشاراتٍ إملائيّةٍ من أيِّ نوع. لسوءِ الحظِّ نحنُ لا نعرفُ بالضّبط نوعَ النصِّ الذي كُتِبَ فيه، الكسراتُ المبكرةُ منَ المخطوطاتِ القرآنيّةِ التي وصلتنا كُتِبَت بنوعٍ منَ الخطِّ كانَ قد نما وانتشرَ في مدينةِ الكوفة كنصٍّ خاصٍّ لكتابةِ المصاحف والذي نسمّيهِ اليومَ بالخطِّ الكوفيّ، والحالُ أنَّ أيّاً من هذهِ الكسرات لا يمكنُ تأريخهُ إلى زمنٍ أبكرَ منَ القرنِ الثّاني للهجرة، وطبعاً هناكَ الكثيرُ منَ الشكوكِ في أن تكونَ أيٌّ منها تعودُ لزمنٍ أبكرَ منَ القرنِ الثّالث. قد نقرأُ أحياناً أنّهُ ما زالَ هناكَ مصاحفُ مكتوبةٌ بخطِّ عثمانَ أو عليّ، أو ولدَيْ عليّ، الحسن والحسين، إلّا أنَّ مثلَ هذهِ الأفكار ما هيَ إلّا ثمرةُ أوهامٍ زائفة. قامَ البروفيسور بيرغستراسر Bergstrasser بجمعِ حوالي عشرينَ مرجعاً وإشارة إلى مزاعمٍ وادّعاءاتٍ أطلقتها مذاهبٌ وفرقٌ إسلاميّةٌ مختلفة تدّعي فيها أنّها تمتلكُ النصَّ العثمانيَّ الحقيقيَّ والأصليَّ نفسهُ والذي كانَ يقرأهُ قبلَ مقتلهِ بلحظات، وصفحاتٍ

مصطبغةٍ بدمائه. بهذا النصِّ المُعابِ والسّاكن، كانَ على القارئ ترجمتهُ وتفسيره. كانَ عليهِ أن يقرّرَ ما إذا كانَ هذا الحرفُ سيناً أو شيناً، صاداً أو ضاداً، فاءً أو قافً، وهكذا، وعندما كانَ يقرّرُ ذلك، كانَ عليهِ أيضاً أن يقرّرَ سواءً أيقرأُ صيغةَ الفعلِ كفعلٍ نشطٍ أو سلبي أو يعاملَ كلماتٍ معيّنةً معاملةَ الفعلِ أو الاسم، حيثُ لا تكونُ لا هذا ولا ذاك، وهكذا. خلالَ القرنِ الأوّلِ للهجرة لم تكن هذهِ المشكلةُ بمثلِ هذهِ الجدّيّةِ بالنسبةِ للقرّاء، إذ أنَّ الذاكرةَ التي بقيت تحفظُ في ثناياها الشّكل الذي يجبُ أن يكونَ عليهِ النصّ، هي التي كانت تقرّرُ في الكثيرِ منَ الآياتِ والمقاطعِ وكيفيّةِ تشكيلها وتنقيطها، وأمكنةِ علاماتِ الوقف حيثُ يكتملُ المعنى [لكنَّ الذاكرةَ كثيراً ما تخونُ أصحابها]. نظريّاً، قد يفترضُ البعضُ أنَّ هذا التّراثَ الشفهيَّ حولَ الكيفيّةِ التي يجبُ أن يُقرَأَ النصُّ فيها يمكنُ تناقلها بحذرٍ وعنايةٍ من جيلٍ لآخر، على غرارِ الشّعرِ العربيِّ القديم، لكن فعليّاً الكمُّ الهائلُ منَ القراءاتِ المختلفةِ التي سُجّلَت يثبتُ أنّهُ لم يكن هناكَ تراثٌ متماسكٌ وثابتٌ بشأنِ هذهِ المسألة تمَّ تناقله. فمن زمنِ نشرِ نصِّ عثمانَ الرسميّ وحتّى عام 322هـ خلالَ هذهِ الفترة، نحنُ ضمنَ فترةِ الاختيار، والأمرُ المثيرُ للفضولِ أنّهُ بالرّغمِ من أنَّ النصَّ العثمانيَّ مأخوذٌ الآن كقاعدةٍ أساسيّة، فالعديدُ منَ العلماءِ المشهورين، وحتّى لنهايةِ هذهِ الفترة، كانوا معتادينَ على حالةِ تفضيلهم لقراءةِ بعضِ الآياتِ قراءةً معيّنةً مختلفةً تمامَ الاختلافِ عن النصِّ العثمانيِّ، ومن مصاحفَ غيرِ عثمانيّة، وكما توقّعنا فإنّنا نجدُ أنَّ اختيارَ بعضِ المعلّمينَ المشهورين دامَ أطولَ بفضلِ طلاّبهم، ونالَ قبولاً ضمنَ دوائرَ أقلَّ أو أكثرَ شمولاً، لذا فإنّنا نسمعُ عن طلاّبٍ كانوا يدرسونَ مسألةَ اختيارٍ كذا وكذا حسبَ حروفٍ وروايات كذا وكذا حسبَ القراءة. بمعنى آخر؛ نماذجهم كانت التنقيطَ أوّلاً، ثمَّ وضعَ الحركاتِ على النصِّ غيرِ المنقّطِ والسّاكن. مرّةً أخرى بدأَ هذا الأمرُ بالتجسّدِ ضمنَ المدنِ المركزيّةِ الكبرى حيثُ كانَ الطلاّبُ يجتمعونَ فيما بينهم ضمنَ منتديات، وسرعانَ ما بدأَ النّاسُ يسمعونَ عن تراثِ الكوفيّين، أو تراثِ البصريّين، أو السوريّين، وإلى ما هنالك، وكلُّ واحدٍ منهم يشيرُ إلى طريقتهِ الخاصّةِ والصحيحةِ في تنقيطِ وتشكيلِ النصّ، وهذا يعني أنَّ التّراثَ الذي انتشرَ في مدارسهم بتدريسِ القرآنِ وتعليمهِ كانَ مهذّباً. في تاريخٍ مبكرٍ جدّاً نسمعُ عن ثلاثةِ مبادئ صاعدة وُضِعَت لتوجيهِ عمليّةِ الاختيار، بمعنى

المصحف العربيّ والإسناد، وهذا يعني؛ القراءةُ المفترضةُ يجبُ أن تتسقَ مع النصِّ السّاكن، وأن تتناسبَ مع قواعدِ اللغةِ العربيّة، وأن تكونَ قراءةً منحدرةً من شخصيّةٍ أو مرجعيّةٍ محترمة. طبعاً، كانَ هناكَ خلافٌ حولَ هذهِ القواعد، فقد زعمَ البعضُ أنّهُ طالما أنَّ القراءةَ كانت قراءةً عربيّةً جيّدة، وضمنَ سياقٍ جيّد فلا أهمّيّةَ لأيِّ شيءٍ آخر سواءً أكانَ منَ النصِّ العثمانيّ أو من أيٍّ منَ المصاحفِ القديمةِ غيرِ العثمانيّة، بما أنّها تنتمي إلى عصرِ النبيّ. كانَ البعضُ يرفضُ مبدأَ الإسنادِ رفضاً قاطعاً، لكن يشترطُ أن تكونَ القراءةُ عربيّةً صحيحةً ومقبولةً بشكلٍ طبيعيٍّ من قِبَلِ الجميع. المرحلةُ التّاليةُ كانت في الإشارةِ إلى هذهِ القراءاتِ ضمنَ النصِّ نفسه. فلسنا بحاجةٍ لأن نضعَ عليها علاماتٍ في النصّ، إذ ما أن يحفظها القارئُ بشكلٍ جيّدٍ ومناسب فما عليهِ إلّا أن يأخذَ نسخةً منَ النصِّ السّاكنِ ويقرأها وفقما حفظها. والحال، أنَّ الذاكرةَ غالباً ما تخوننا، وعلى الفورِ جرى تقديمُ العادة، استناداً على ممارساتٍ شائعةٍ بينَ المسيحيّينَ الذينَ يستخدمونَ الكتاباتِ المقدّسةَ السُّريانيّة، وذلكَ بتأشيرِ القراءاتِ بنظامٍ منَ النقطِ السّوداءِ والملوّنة. ويخبرنا التّراثُ بوضوحٍ أنّهُ كانت هناكَ معارضةٌ شديدةٌ لإضافةِ هذهِ العلاماتِ والتأشيراتِ إلى النصّ، وقد عُدَّ ذلكَ على أنّهُ «بدعةٌ» وهرطقة. لا يوجدُ إجماعٌ حولَ من هوَ أوّلُ من قدّمَ نظامَ التنقيط، والأسماءُ المرشّحةُ والمتّصلةُ بهذهِ المسألةِ هيَ: يحيى بن يَعمُر ونصرُ بنُ عاصم. في البدايةِ كانت هناكَ فترةٌ منَ الميوعة، ولدينا الآنَ أجزاءٌ وكسراتٌ منَ النصِّ أُدخِلَت فيها نقاطٌ ملوّنةٌ بألوانٍ مختلفة؛ احتمالاتٌ مختلفةٌ لتنقيطِ نفسِ الكلمة. في حينِ أنَّ أغلبَ الكلماتِ ليست لها نقطٌ على الإطلاق، وهذا يشيرُ إلى أنّهُ في بادئِ الأمر لم يكن التنقيطُ يجري إلّا على تلكَ الكلماتِ التي كانت هناكَ بعضُ الشكوكِ حولَ قراءتها، أمّا عمليّةُ التنقيطِ فقد أصبحت مقبولةً بالكامل واندرجت في النهايةِ على النصِّ بأكملهِ وذلكَ بسببِ نشاطِ الحجّاجِ بنِ يوسفَ المشهور، والذي كانَ على الأرجحِ الشّخصيّةَ الأكثرَ لفتاً للانتباه والأكثرَ إثارةً للاهتمامِ في تاريخِ الإسلام أثناءَ خلافةِ عبدِ الملك. فعندما نقومُ بفحصِ الأخبارِ والرواياتِ حولَ نشاطِ الحجّاجِ فيما يتعلّقُ بهذهِ المسألة، نكتشفُ فجأةً أنَّ الدليلَ يشيرُ بقوّةٍ إلى حقيقةِ أنَّ عملهُ لم ينحصر في تثبيتِ النصِّ القرآنيِّ عن طريقِ مجموعةٍ منَ النقاطِ التي ترشدُ طريقةَ القراءة، بل يبدو أنّهُ خرجَ بنصٍّ منقّحٍ

وجديدٍ كليّاً للقرآن، وصنعَ نسخاً من عملِهِ هذا وأرسلها إلى كلِّ المراكزِ المدنيّةِ الكبرى، وأمرَ بإتلافِ وإحراقِ النسخِ السّابقةِ الموجودةِ فيها، تماماً كما فعلَ عثمانُ سابقاً، إضافةً إلى ذلك، هذا النصُّ الجديدُ الذي أعلنهُ الحجّاجُ ونشره يبدو أنّهُ مرَّ بتعديلاتٍ شاملةٍ تقريباً. الفيلسوفُ المسيحيُّ الكندي في عملِهِ المثيرِ للجدل والمعروفِ باسم «دفاعاً عن الكندي» يشيرُ إلى نقطةٍ مثيرةٍ للجدلِ عندما يقولُ أنَّ الحجّاجَ ـ كما هوَ معروفـ أجرى تعديلاتٍ كثيرةً وشاملةً على نصِّ القرآن، لكن جرى اعتبارُ ذلكَ من قِبَلِ الباحثينَ والعلماء على أنّهُ مجرّدُ مبالغةٍ وتجسيمٍ لإثارةِ الجدل كالذي نراهُ في الكتاباتِ المثيرةِ للجدل. والحالُ، في كتاب المصاحفِ لابن أبي داؤود، قسمٌ يحتوي قائمةَ القراءاتِ في نصِّ قرآننا يذكرُ فيها التغييراتِ التي أدخلها الحجّاج. إذا كانَ هذا الكلامُ صحيحاً، فإنَّ النصَّ المنقولَ الذي بحوزتنا لا يعتمدُ على التنقيحِ العثمانيّ، بل على تنقيحِ الحجّاجِ بنِ يوسفَ الثقفي. أمّا تحديدُ عمليّةِ الاختيارِ وقصرِها فقد حدثَ سنة 322 للهجرة عندما قامَ كلٌّ منَ الوزيرين ابنِ مقلة وابنِ عيسى، بإرشادٍ منَ العلاّمةِ الشهير ابن مجاهد، بوضعِ سبعةِ نظمٍ لقراءةِ النصِّ، والتقريرُ أنَّ هذهِ القراءاتِ السّبعةَ هيَ وحدها القراءاتُ الشرعيّةُ والرّسميّةُ للنقطِ والحركاتِ في النصّ، إلّا أنَّ قرارهم هذا لم يمضِ دونَ اعتراضاتٍ وتحدّيات، إلّا أنَّ العقابَ الصّارمَ الذي وُجّهَ للعالمينِ المشهورين، ابنِ هشام وأبي الحسنِ البغدادي، اللذينِ أصرّا على حقّهما في الاختيارِ، والقراءة، إذ وجدا أنّها مناسبةٌ أكثرَ في النصوصِ القديمة، وسرعانَ ما اقتنعَ القرّاءُ أنَّ فترةَ «الاختيارِ» وصلت إلى نهايتها، وواجهوا قراءاتٍ محدودةً شكّلت علامةً على مرحلةٍ جديدةٍ من تاريخِ النصّ. القراءاتُ السّبعةُ التي اختارها ابنُ مجاهد كانت قراءةَ نافعِ المدنيّ، ابنُ كثيرٍ المكّي، ابنُ عامرٍ الشّامي، أبو عمرو بنِ العلاء البصريّ، وعاصم، حمزة، والكسائي من مدرسةِ الكوفة، إلّا أنَّ اختيارهُ هذا جرى تحدّيه، فقد اعترضَ البعضُ وبجدّيّةٍ لحقيقةِ أنَّ ثلاثَ قراءاتٍ من أصلِ سبعة تنتمي إلى مدرسةِ الكوفة، ورغبوا أن تُستَبدَلَ إحداها بقارئٍ من مدرسةٍ أخرى، البعضُ فضّلَ أبو جعفر منَ المدرسةِ المدنيّة، والبعضُ الآخر فضّلَ يعقوبَ من المدرسةِ البصريّة. أمّا الاعتراضُ فقد كانَ موجّهاً نحوَ مدرسةِ الكسائيِّ ضمنَ المجموعة، والمرشّح لخلافةِ المدرسةِ الكوفيّة كان قد توفيَ منذُ زمنٍ طويل. خيارُ ابنِ مجاهد والقراءاتُ السّبعةُ التي شرّعها

مازالت هيَ نفسها القراءاتِ الشرعيّةَ السّبعة، رغم أنّهُ في العديدِ منَ الأمثلة تبقى الأعمالُ الماسوريتيّةُ _كعملِ ابنِ الجزريِّ الشهير «النشر»_ تسجّلُ عددَ القراءاتِ المختلفة إلى عشرِ قراءات؛ أي القراءاتُ السّبعةُ بالإضافةِ إلى ثلاثِ قراءاتٍ أخرى خاصّةٍ بأولئكَ المرشّحينَ المتوفّين. بعضُ الأعمالِ الماسوريتيّةِ طبعاً، تضمّنت أربعَ عشرةَ قراءة، من ضمنها وبالإضافةِ إلى القراءاتِ العشر، أربعُ قراءاتٍ أخرى، ابن محيسن المكّي، الحسنُ البصريّ، اليزيديُّ البصريّ، والأعمشُ الكوفيّ، الذين لقيت قراءاتهم بعضَ التأييدِ بصفتها أنّها أجدرُ من غيرها بأن تكونَ ضمنَ القراءاتِ السّبعةِ وتستحقُّ جعلها شرعيّةً ورسميّةً أكثرَ من معظمِ تلكَ التي اختارها ابنُ مجاهد، لكنّها لم تلقَ أيَّ قبولٍ عام. عملُ البنّاء الشهير «الإتحاف» على سبيلِ المثال يسجّلُ القراءاتِ الأربعَ عشرةَ كلّها، ويوجدُ هنا وهناك مدّعونَ آخرونَ وجدوا لهم بعضَ السند، لكن ولأسبابٍ غيرِ واضحةٍ حتّى الآن، كانَ ابنُ مجاهد قادراً على نيلِ الدعمِ والقبولِ العام لنُظُمِهِ السّبعة، وخلالَ فترةٍ لا تتجاوزُ نصفَ قرن، انتشرت تلكَ القراءاتُ ونالت قبولاً واسعاً. نحنُ لا نمتلك أيّاً من هذهِ النُّظُمِ السّبعةِ بالشّكل الذي قدّمها بهِ مؤسّسها، هذهِ النُّظُمُ السّبعةُ تمَّ تناقلها ضمنَ المدارس، وخلالَ فترةٍ قصيرةٍ جداً بعدَ قبولها كنُظُمٍ شرعيّة، نجدُ كمّاً هائلاً منَ الرّواياتِ تتعلّقُ بكيفيّةِ قراءةِ كلِّ نظامٍ منها. في حالةِ قراءةٍ أو قراءتينِ منها كانَ هناكَ عددٌ كبيرٌ جداً منَ الرّوايات، في الفترةِ التي وضعَ فيها الداني _الذي ماتَ سنةَ 444هـ_ تفسيرهُ، هناكَ روايتانِ اختيرتا لكلِّ واحدةٍ من هذهِ القراءاتِ السّبعةِ كروايةٍ شرعيّةٍ لها، وطالما أنّها مستحسنةٌ رسميّاً. أمّا عن الكيفيّةِ التي جرى من خلالها اختيارُ هذهِ القراءات فإنّنا لا نملكُ أيّةَ معلوماتٍ عن الأمر، ولا يمكننا المجازفةُ في التخمين، كلُّ ما نعرفهُ هوَ أنَّ عمليّةَ تثبيتِ النصِّ المتغيّرِ قد وصلت إلى هذهِ المرحلةِ المتقدّمة، وقد تمَّ تسجيلها من قبلِ الداني. بالنسبةِ لنافع فقد اختارَ رواياتِ قالون وورش، أمّا ابنُ كثير فقد اختارَ رواياتِ قنبلَ والبزّي، ابنُ عامر اختارَ رواياتِ ابنِ ذكوان وهشام، وأبو عمرو اختارَ رواياتِ الدوريّ والسوسي، أمّا حمزة فقد اختارَ رواياتِ خلف وخلاّد، وقد اختارَ عاصم رواياتِ حفصٍ وأبي بكر، أمّا بالنسبةِ للكسائيّ فقد اختارَ رواياتِ الدوريِّ والحارث. أيُّ قراءةٍ عن هؤلاءِ الأشخاص تعدُّ قراءةً شرعيّة. لا يوجدُ أيُّ قرارٍ رسميٌّ لنا علمٌ بهِ تمَّ أخذهُ

لتأسيسِ تلكَ الرّواياتِ عليه كقرارٍ وحيدٍ وجائزٍ، كما أنَّ استخدامَ كلمةِ «شرعيّ» ليسَ دقيقاً تماماً، لكنَّ هذهِ الرّواياتِ جاءت لتأخذَ موقعَ المرجعيّةِ الفريدةِ التي لم نعد نملكُ أيَّ كلمةٍ مناسبةٍ لها أكثرُ ملائمةً من «شرعيّة»، وسيتمُّ اتّباعُ واحدةٍ منها أو أخرى عندما يكتبُ النّسّاخُ مخطوطاتٍ جديدةً ويشيرونَ إلى مكانِ العلامةِ والحركة. هذهِ النُّظُمُ لتأشيرِ القراءات، بأيّةِ حال، لم تكن العلاماتِ الوحيدةَ التي أُضِيفَت إلى النصّ، فالعلاماتُ عندَ نهايةِ كلِّ آيةٍ تظهرُ في الكسراتِ المبكرةِ منَ النصوصِ التي في متناولنا، رغمَ أنّهُ كانَ هناكَ اتّفاقٌ عامٌّ حولَ مكانِ وقوعِ هذهِ العلاماتِ الوقفيّة، لذا أصبحت هذهِ المسألةُ الآن يجبُ حلّها ضمنَ المدارسِ، والمعاييرِ الماسوريتيّةِ لنهاياتِ الآياتِ الكوفيّةِ، أو البصريّة أو السّوريّةِ أو المدنيّة، حسبَ الحالة، وفي بعضِ الأحيانِ علاماتٌ للإشارةِ إلى موقعٍ كانَ فيهِ تراثٌ مختلفٌ بالنسبةِ إلى المكانِ أو الموضعِ الذي يجبُ الانتهاءُ عنده، كلُّ هذهِ الأمورِ تمَّ إدخالها في النصّ. السّورُ أيضاً جرى تأشيرها في فترةٍ مبكرةٍ جدّاً، لكن دونَ عناوين، والآن تبدأُ عادةً وضعِ اسمِ السّورةِ فوقها. أسماءٌ مختلفةٌ استُخدِمَت في مواقعَ مختلفة، وحتّى وقتنا الحاضر لا يوجدُ هناكَ اتفاقٌ تامٌّ حولَ الأسماءِ التي تظهرُ فوقَ سورٍ معيّنةٍ في مصاحفَ مطبوعةٍ خلالَ قرونٍ مختلفة، لكن بالإضافةِ لسورٍ وآياتٍ وأقسامٍ أخرى منَ النصِّ ظهرت بأنّها موسومة. بعضُ الكتبةِ والنسّاخِ وضعوا علامةً عندَ نهايةِ كلِّ مجموعةٍ من عشرٍ أو خمسِ آيات، بعضهم قسّمَ النصَّ أسباعاً ووضعَ علامةً عندَ نهايةِ كلِّ سبع، هناكَ البعضُ ممّن استخدمَ علاماتٍ خاصّةً عندَ بداياتِ ونهاياتِ الأنصافِ، الأرباعِ، والأثمان، إلخ. هناكَ عادةٌ كانت منتشرةً أكثر وهيَ تقسيمُ النصِّ إلى ثلاثينَ جزءاً وذلكَ لكي تتمَّ قراءةُ كلِّ جزءٍ في كلِّ يومٍ ولمدّةِ شهر، وهذهِ الأقسامُ بأرباعها وأنصافها، كانت تُقسّمُ بدقّةٍ وحذر، إلى أجزاءَ وأحزابٍ أصبحت عادةً شائعةً على نطاقٍ واسعٍ لدرجةِ أنّهُ حتّى يومنا هذا نلاحظُ علماءَ القرآنِ قديمي الطراز وهم يقتبسونَ منَ القرآن حسبَ الجزءِ والحزبِ أكثرَ من اقتباسهم منهُ بالآياتِ والسّور.

والأكثرُ أهمّيّةً كانت عمليّةُ تقديمِ إشاراتِ التوقّف، والتي _على غرارِ علاماتِ التوقّفِ التي تملأُ الكتابَ المقدّسَ العبري_ هيَ بمثابةِ دليلٍ أو مرشدٍ بمعنىً ما، وتؤدّي بالضّبطِ نفسَ الوظيفةِ التي تؤدّيها علاماتُ الترقيمِ في وقتنا الحاضر. أقدمُ مجموعةٍ من

علاماتِ التوقّفِ التي جرى استخدامها كانت بسيطةً جدّاً تشيرُ إلى «عدمِ التوقّف»، «توقّفٌ اختياريٌّ»، «وتوقّفٌ إجباريّ»، لكن ضمنَ المدارس تطوّرت هذهِ العلاماتُ إلى أنظمةٍ أكثرَ تعقيداً عن طريقِ زيادةٍ في أنماطِ التوقّفِ الاختياريِّ المعترفِ بها، رغمَ أنّهُ أيضاً كانَ هناكَ اختلافٌ كبيرٌ بينَ المدارسِ حولَ الموضعِ الذي يجبُ أن توضعَ فيهِ علاماتُ «عدمِ التوقّفِ» و«التوقّف». إنَّ إضافةَ هذهِ العلاماتِ إلى النصِّ، طبعاً، تمثّلُ خطوةً متقدّمةً في تاريخِ عمليّةِ تثبيتِ نوعيّةِ النصِّ المستقبل، إلّا أنّهُ من غيرِ الممكنِ بعد كتابةُ القصّةِ الكاملةِ للطريقةِ التي تطوّرت فيها هذهِ الأنظمةُ المختلفةُ لعلاماتِ التوقّف.
هناكَ خطوةٌ أخرى في هذهِ العمليّة، وهيَ خطوةٌ كانت في غايةِ الأهمّيّة، لكنَّ أصلها ما زالَ في الوقتِ الحاضرِ غامضاً ومحجوباً، وهيَ اختيارُ النموذجِ القياسيّ. فطلاّبُ العهدِ القديمِ سيتذكّرونَ أنَّ النصَّ السّاكنَ في الكتابِ العبريّ مأخوذٌ عن مخطوطةٍ تقدّمُ نموذجاً قياسيّاً وحيداً، والذي ما أن يتمَّ اختيارهُ حتّى يتّبعهُ الكتبةُ والنسّاخ لإعادةِ تقديمهِ بدقّةٍ وأمانة، حتّى أنَّ الأخطاءَ الإملائيّةَ والقواعديّةَ التي تتخلّلهُ كانَ لزاماً أن يُعادَ إنتاجها في النسخِ كافّة. ونفسُ الأمرِ ينطبقُ على القرآن، إلّا أنّهُ في الفترةِ التي كانَ فيها الدّاني يكتبُ عملهُ «المغني» و«التيسير» كانَ قد تمَّ اختيارُ النموذجِ القياسيِّ مسبقاً، إذ أنّهُ في كتابهِ «المغني»، وهوَ عبارةٌ عن تعليماتٍ وإرشاداتٍ يسترشدُ فيها النسّاخُ والكتبةُ الذينَ ينسخونَ نماذجَ منَ القرآن، فقد قدّمَ لهم بالتفاصيلِ القواعدَ التي يجبُ عليهم مراقبتها خلالَ ممارسةِ عملهم، ويضعُ قائمةً بجميعِ الألفاظِ الغريبةِ والشذوذاتِ الإملائيّةِ والقواعديّة والتي يجبُ عليهم مراعاتها أثناءَ إعادةِ الإنتاجِ في نسخهم، مع أنّهم يعرفونَ حتماً أنَّ هذهِ أخطاء، لذا كلمةُ «رحمةٍ» في سورةِ مريم الآيةِ الأولى يجبُ أن تكتبَ بتاءٍ مبسوطة «ت» في النهايةِ «رحمت» وليسَ المربوطة «ة»، في سورةِ الكهف 18 الآية رقم 38 كلمة «لكنّا» كانَ يجبُ كتابتها بألفٍ طويلةٍ في النهاية بدلَ كلمةِ «لكنَّ» العاديّة، في سورةِ طه 20 الآية رقم 94 كانَ يجبُ أن تكتبَ كلمة «يبنوم» بدلَ «يا ابنَ أم»، في سورةِ الكهف 19 آية رقم 49 «مالِ هذا» بدلَ أن تكتبَ في شكلها الصحيحِ والطبيعيِّ «ما لهذا»، في سورةِ الصّافّات آية رقم 130 يجبُ كتابةُ «آلِ ياسين» بدلاً من «إلياسين»، وهكذا. من ذا الذي كانَ ناسخَ هذا النموذجِ القياسيّ، وكيفَ تمَّ اختيارهُ، أسئلةٌ لم نستطع حتّى الآن الإجابةَ عنها. النظريّةُ

التقليديّةُ تقول أنَّ هذهِ الشذوذاتِ كانت مقدّمةً مسبقاً في الإمام، النصُّ النموذجيُّ الساكنُ الذي جُهِّزَ بأمرٍ من عثمان، لكن فيما يتعلّقُ بمسألةِ ما إذا كانت هذهِ الشذوذاتُ لا تظهرُ دائماً في الكسراتِ والأجزاءِ المبكرةِ منَ المخطوطاتِ الكوفيّةِ فهوَ أمرٌ مشكوكٌ فيه. كلُّ القراءاتِ السّبعةِ التي وردَ ذكرها آنفاً شرعيّةٌ ومعترفٌ بها بشكلٍ متساوٍ، ويمكنُ قراءةُ القرآن حسبَ أيّةِ روايةٍ تمَّ اختيارها لكلِّ واحدةٍ منها، والحالُ، أنّهُ لا يوجدُ أيُّ نصٍّ مكتوبٍ يمكنُ أن يُعبّرَ في النصِّ عن جميعِ القراءاتِ السّبعة. هناكَ عدّةُ نماذجَ قياسيّةٍ معروفةٍ من كسراتِ المخطوطةِ الكوفيّة حيثُ، ومن خلالِ استخدام نقاطٍ بألوانٍ مختلفةٍ ومتباينة، القراءاتُ المختلفةُ قد سُجِّلَت في بعضِ الحالاتِ كلماتٍ بعينها، هنالكَ أيضاً عدّةُ مخطوطاتٍ معروفةٌ بوجودِ تذييلاتٍ هامشيّةٍ تقدّمُ خياراتٍ للقارئِ ليختارَ بينَ القراءاتِ السّبعةِ التي تناسبه، أو حتّى بينَ العشرةِ قراءات. الممارسةُ العاديّةُ والعمليّةُ الوحيدةُ في الواقع، هيَ أن يُكتَبَ النصُّ حسبَ نظامٍ واحدٍ من بينِ النُظُمِ السّبعة. لم تجرِي حتّى الآن أيُّ عمليّةِ مسحٍ وفحصٍ وتدقيقٍ منتظمةٍ على جميعِ المخطوطاتِ القرآنيّةِ هادفةٍ إلى تحديدِ أو تقريرِ نوعِ نصّها، لكن بقدرِ ما يتمُّ فحصُ وتحقيقُ النتائج سيتبيّنُ أنّهُ ومن بينِ أربعَ عشرةَ روايةٍ هنالكَ ثلاثُ رواياتٍ فقط معروفةٌ ولها رواجٌ كبيرٌ في كتابةِ المخطوطات. في السّودان وحتّى جيلٍ مضى، يبدو أنّهُ كانت هناكَ نصوصٌ مكتوبةٌ حسبَ النظامِ البصريِّ للدوري، في شمالِ إفريقيا، من طرابلس وحتّى المغرب، الشّكل العامُّ والشّائعُ للنصِّ الموجودِ في المخطوطات، وفي العديدِ منَ النسخِ المطبوعة، هوَ التّراثُ المدنيُّ الذي يعودُ إلى ورش. وفي أيِّ مكانٍ آخرَ منَ العالمِ الإسلاميّ النمطُ الوحيدُ المستخدمُ منَ النصّ، هوَ العائدُ إلى حفصٍ الكوفيّ. نصُّ حفصٍ هذا في السنواتِ الأخيرةِ ألغى تماماً نصَّ الدوريِّ في السّودان، وبسرعةٍ كبيرةٍ أيضاً ألغى نصَّ ورش في شمالِ أفريقيا. هنا نصلُ إلى نهايةِ تاريخِ النصِّ القرآنيِّ بالسّيطرةِ الكاملةِ لتراثِ حفص كنصٍّ سائدٍ في مختلفِ أرجاءِ العالمِ الإسلاميّ. في ظلِّ هذا النصّ تمت طباعةُ النسخةِ القياسيّةِ المصريّةِ لسنةِ 1344 بعدَ الهجرة، والتي كانت بمثابةِ محاولةٍ لتوضيحِ النصِّ من تحديثاتِ القواعدِ الإملائيّةِ وزيادةِ تحميلِ العلاماتِ الماسوريتيّة، واستعادةِ أكبرِ قدرٍ ممكنٍ من نقاءِ نصِّ حفصٍ النموذجيّ. بسببِ استخدامِ محرّريهِ لمرجعيّاتٍ متأخرةٍ نسبيّاً بدلاً من أن يعودوا إلى المصادرِ الأوّليّةِ

الأسبقِ لمعلوماتنا بالنسبةِ إلى نصِّ حفص، فلم ينجحوا تماماً في إنتاجِ نوعٍ صافٍ ونقيٍّ من النصِّ الحفصي، لكنَّهُ على الأقلّ أفضلُ من أيِّ نصٍّ آخرَ موجود، ومتفوّقٌ على نصِّ فلوجل، الذي استُعمِلَ بشكلٍ واسعٍ تقريباً من قِبَلِ العلماءِ الأوروبيّين منذُ ظهورهِ لأوّلِ مرّةٍ عام 1834. المرحلةُ التّاليةُ ستكونُ مرحلةَ النصِّ النّقديّ. ستكونُ الفكرةُ في طبعِ نصٍّ ساكنٍ في المخطوطةِ الكوفيّةِ على صفحة، اعتماداً على أقدمِ المخطوطاتِ المتوفّرةِ لدينا اليوم، مع نصٍّ حفصيٍّ محرّرٍ من وجهةِ نظرٍ نقديّة يقابلُ النصَّ السّابقَ في الصفحةِ التّالية مع مجموعةٍ كاملةٍ من جميعِ القراءاتِ المختلفةِ المعروفة، توضعُ على الهامشِ الأسفلِ للصفحة. المؤلّفُ الحاليّ [يقصدُ هوَ نفسهُ] كانَ يتعاونُ مع البروفيسور بيرغستراسر على هذا المشروع، وقد تمَّ الشّروعُ بالعملِ على المشاكلِ المتعلّقةِ بكلا النصّينِ كبداية. لقد حقّقَ الكاتبُ في كلِّ التّراثِ المطبوعِ وكميةٍ لا بأسَ بها من مادّةِ المخطوطات، ليجمعَ منها كلَّ التغيّراتِ والاختلافاتِ في القراءة. قامَ بيرغستراسر بتأسيسِ الأرشيفِ في ميونخ حيثُ شرعَ بجمعِ صورٍ فوتوغرافيّةٍ للمخطوطاتِ القرآنيّةِ المبكرةِ كافّة، ولكلِّ الموادِ الماسوريتيّةِ المتعلّقةِ بها. بعدَ وفاتهِ المبكرة، أشرفَ على هذا الأرشيفِ وطوّرهُ خليفتهُ أوتو برتزل، لكنَّ أوتو قُتِلَ خارجَ سيباستوبول خلالَ الحرّبِ الأخيرة، وتمَّ تدميرُ كاملِ الأرشيفِ في ميونخ بسببِ النّارِ جرّاءَ قنبلة، لذا كانَ لزاماً أن يتمَّ البدءُ بهذا المشروعِ الهائلِ مرّةً أخرى ومنذُ البداية، لذلك منَ المشكوكِ فيهِ جدّاً إذا ما كانَ جيلنا سيتمكّنُ من مشاهدةِ اكتمالِ أوّلِ نسخةٍ نقديّةٍ من نصِّ القرآن.

محاضرةٌ أُلقِيَت في الثالثِ من أكتوبر عام 1946، خلالَ لقاءِ جمعيّةِ الشّرقِ الأوسطِ في القدس، ومنشورةٌ ضمنَ كتابِ آرثر جيفري الهامّ جدّاً «القرآنُ كنصٍّ مقدّس»، نيويورك، 1952.

Arthur Jeffery, The Qur an as scripture, New York, R. F. Moore Co., 1952.

القرآن المنحول

جاي سميث

مقدّمة:

يعتقدُ المسلمونَ أنَّ القرآنَ ليسَ فقط كلمةَ اللهِ الأخيرةَ والزّكيّة، بل أنّهُ أيضاً آخرُ وحيٍ يتنزّلُ على بني البشر، فهوَ الكتابُ الأخيرُ من عندِ الله. فهوَ مصدرهُ «أمُّ الكتاب» حسبَ الآيةِ رقم 4 من سورةِ الزخرف 43 {وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ}. ويؤكّدُ المسلمونَ باستمرار أنَّ القرآنَ هوَ النسخةُ الأصليّةُ والأصيلةُ من وحيِ اللهِ الأخيرِ المنقوشِ على اللّوحِ المحفوظِ الأصليّ الموجودِ منذُ الأزل في السّماء. فهم يشيرونَ بشكلٍ دائمٍ إلى سورةِ البروجِ التي جاءَ فيها {بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ} [85: 21-22] ويتجادلُ علماءُ المسلمينَ فيما بينهم حولَ ما إذا كانت هذهِ الآيةُ تشيرُ إلى اللّوحِ غيرِ المخلوقِ الذي كانَ موجوداً منذُ الأزل، فهم يعتقدونَ أنَّ القرآنَ نسخةٌ طبقُ الأصلِ عن الكتابِ السّماويِّ الأصليّ، حتّى في تنقيطِهِ، عناوينِهِ، وأقسامِهِ حسبَ السّور. طبقاً للتّراثِ الإسلاميّ، بدأ هذا الوحيُ بالنزولِ (أو بالتنزيل) [الإسراء 17: 85]، إلى السّماءِ الدنيا _أي أدنى سماءٍ من السّماواتِ السّبع_ خلالَ شهرِ رمضان، وفي ليلةِ القدرِ بالتحديد، ومن هناك، جرى إنزالها على محمّدٍ بالتدريجِ وعلى أقسام، وحسبما اقتضتهُ الحاجة، عن طريقِ الملاكِ جبرائيل [الفرقان 25: 32]. ومن هنا، فإنَّ كلَّ حرفٍ وكلَّ نقطةٍ وكلَّ كلمةٍ خاليةٌ من تأثيرِ الأيدي البشريّة، وذلكَ يُعطي القرآنَ صبغةً منَ المرجعيّة، الأصالة، وحتّى القداسة، وفي النهايةِ مصداقيّته.

أغلبُ الباحثينَ الغربيّين تقبّلوا هذهِ المزاعمَ منَ المسلمين بشكلٍ ظاهريّ، فهم لم يكن بمقدورهم مناقشةُ حججهم ومجادلتهم فيها، لأنَّ تلكَ الحججَ لا يمكنُ البرهنةُ على صحّتها أو عدمِ صحّتها، بما أنَّ مرجعيّتهم نفسها مستوحاةٌ منَ القرآنِ نفسه. كما كانَ هناكَ أيضاً تحفّظٌ للخوضِ في أمورٍ مثلَ أصالةِ القرآنِ ومصداقيّته، بالإضافةِ إلى

مصداقيّةِ الرسول، بسببِ ردّاتِ الفعلِ المضادّةِ نحوَ أولئكَ الذينَ امتلكوا الشّجاعةَ الكافيةَ للقيامِ بمثلِ تلكَ المحاولاتِ في الماضي. والحقيقةُ هيَ أنّهُ ولفترةٍ طويلةٍ منَ الزّمن، كانَ الغربيّونَ في جدالٍ لافتراضٍ أنَّ المسلمينَ كانت لديهم أدلّةٌ وبراهينٌ وبياناتٌ تدعمُ مزاعمهم. لم يحدث حتّى الآونةِ الأخيرة أن قامَ باحثونَ في الإسلام (يُعرفونَ بالمستشرقين) بإعادةِ فحصِ المصادرِ الإسلاميّةِ ودراستها، للكشفِ عن ذلكَ الدليلِ الذي يدفعنا للشّكّ والتساؤلِ حولَ الكثيرِ منَ الأمورِ التي كنّا نؤمنُ بها فيما يتعلّقُ بمحمّدٍ ووحيهِ «القرآن». اكتشافاتُ هؤلاءِ الباحثين تشيرُ إلى أنَّ القرآنَ لم يكن موحىً لشخصٍ واحدٍ بحدِّ عينه، بل كانَ عبارةً عن مجموعةٍ منَ التنقيحاتِ والتحريرات قامَ بها مجموعةٌ منَ الرّجال، وعلى مدى عدّةِ مئاتٍ منَ السنين، بمعنىً آخر؛ القرآنُ الذي نقرأهُ اليوم ليسَ هوَ نفسهُ الذي كانَ موجوداً خلالَ فترةِ متصفِ القرنِ السّابعِ الميلادي، بل على الأرجحِ كانَ نتاجَ القرنينِ الثّامنِ والتّاسعِ الميلاديين، إذ أنّهُ كانَ خلالَ هذا الوقت، كما يقولُ المستشرقون، وبشكلٍ خاصّ في القرنِ التّاسع، قد تمكّنَ الإسلامُ من تكوينِ هويّتِهِ الكلاسيكيّةِ وأصبحَ على الشّكلِ الذي هوَ عليهِ اليوم. لذلك، يجادلُ المستشرقونَ أنَّ المرحلةَ التكوينيّةَ للإسلام لم تكن خلالَ فترةِ حياةِ محمّد، بل تطوّرت خلالَ فترة الـ 200 إلى 300 سنة التالية،والحالُ، أنَّ المادّةَ المصدريّةَ لهذهِ الفترة خفيفةٌ ومتفرّقة، أمّا جوهريّاً فالمصادرُ الوحيدةُ التي كانت متوفّرةً للمؤرّخين، كانت المصادرَ الإسلاميّةَ فقط. وأكثرَ من ذلك، وخارجَ نطاقِ القرآن، تعدُّ المصادرُ متأخّرةً جدّاً، فقبلَ عام 750 الميلادي، نحنُ لا نملكُ أيّةَ وثائقَ إسلاميّةٍ معتمدةٍ يمكنُ أن تفتحَ لنا نافذةً على الفترةِ التكوينيّةِ للإسلام، إذ لا يوجدُ شيءٌ يدعمُ مادّةَ الأحاديثِ التّراثيّةِ الإسلاميّة (والتي تعني، التّاريخَ الإسلاميَّ معتمداً على تراثهم) الوثائقُ المتأخّرةُ تعتمدُ ببساطة على الوثائقِ الأبكر، التي باتت غيرَ موجودةٍ اليوم (هذا إذا كانت موجودةً في الأصل). الفترةُ الكلاسيكيّة (حوالي عام 800 ميلادي) تصفُ الفترةَ الأبكر، لكن من وجهةِ نظرها فقط؛ أي أنّها أشبهُ بفترةِ الرُّشدِ وهم يؤرّخونَ مرحلةَ طفولتهم ولا يتذكّرونَ إلّا الأوقاتِ السعيدةَ فيها. لذلك، خرجت الأخبارُ ملوّنةً، متحيّزةً، غيرَ موضوعيّةٍ، ومشوبةً بصبغةٍ ذاتيّة، ومثلُ هذهِ الأخبار لا يمكنُ اعتمادها وقبولها على أنّها موثوقةٌ وأصيلةٌ من قِبَلِ الباحثينَ والمؤرّخين

(إشارةٌ إلى دراساتِ كرونه حولَ إشكاليّةِ التّراثِ والأحاديث، وخصوصاً تلكَ التي كانت تعتمدُ على المرويّاتِ المحلّيّةِ، في التجارةِ المكّيّة، وعبيدٌ على ظهورِ الأحصنة).

لذلك، خطُّ التّماسِ بينَ ما سيقبلهُ المؤرّخُ وبينَ ما يتضمّنهُ التّراثُ الإسلاميُّ أخذَ بالنموِّ والاتّساعِ للأسبابِ التّالية: الإسلامُ _ طبقاً للباحثينَ الإسلاميّينَ الأرثوذوكس _ أعطى اعتماداً ومصداقيّةً كبيرين للتدخّلِ الإلهيِّ في وحيه، فالتّراثُ الإسلاميُّ يؤكّدُ باستمرار أنَّ اللهَ قد أنزلَ وحيهُ على محمّد بواسطةِ الرّوحِ جبرائيل على مدى اثنينِ وعشرينَ عاماً (632-510 للميلاد)، وخلالَ هذهِ الفترة صيغت العديدُ منَ القوانينِ والشّرائعِ التي تميّزُ الإسلامَ كما هوَ معروفٌ اليوم. ومع أنَّ هذا هوَ السيناريو الذي يرفضهُ الباحثونَ اليوم، كما كانَ مفترضاً سابقاً أنّهُ خلالَ باكورةِ القرنِ السّابع، ظهرَ الإسلامُ وتشكّلَ _ وهوَ دينٌ يعتبرُ متطوّراً منَ الناحيةِ الهيكليّة، ومكوّناً من منظومةٍ معقّدةٍ منَ الشّرائعِ والقوانينِ والضّوابط _ في بيئةٍ بدويّةٍ متخلّفة وأصبحَ قيدَ العملِ والتطبيقِ خلالَ فترةِ اثنينِ وعشرينَ عاماً فقط. كانت منطقةُ الحجازِ قبلَ ذلكَ الوقت غيرَ معروفةٍ ومجهولةً بالنسبةِ للعالمِ المتحضّر، وحتّى التّراثُ المتأخّرُ يشيرُ إلى تلكَ الفترةِ باسمِ «فترةِ الجاهليّة» (أو فترةِ الجهل، وما تتضمّنهُ من تأخّرٍ وتخلّف) كانت الجزيرةُ العربيّةُ قبلَ محمّد تفتقرُ لأيِّ ثقافةٍ مدنيّة، كما أنّها لم تكن قادرةً على إظهارِ أيِّ منظومةٍ أو بنيةٍ تحتيّةٍ معقّدة، ناهيكَ عن تأكيدِ السيناريو الذي رسمتهُ المصادرُ التّراثيّةُ المتأخّرةُ للفترةِ المبكرةِ منَ الإسلام، إذن؛ كيفَ يمكنُ أن يظهرَ الإسلامُ بهذهِ الدقّةِ وبهذهِ السرعة؟ ليسَ هناكَ أيُّ دليلٍ أو سبقٍ يؤكّدُ هذا السيناريو، سيتوقّعُ البعضُ مثلَ هذهِ الدرجةِ منَ التعقيد بعدَ مرورِ فترةٍ زمنيّةٍ لا تقلُّ عن قرنينِ منَ الزمن، بالإضافةِ إلى وجودِ وتوفّرِ مصادرَ أخرى، كالأخبارِ القادمةِ من حضاراتٍ مجاورةٍ قد تكون استعارات من تلكَ المنظومةِ بعضَ القوانينِ والشرائع، لكن بالتأكيد ليسَ ضمنَ بيئةٍ صحراويّةٍ فقيرةٍ وبسيطة، وطبعاً ليست خلالَ فترةٍ لا تتجاوزُ اثنينِ وعشرينَ عاماً. الباحثونَ والمؤرّخونَ لا يمكنهم القبولُ ببساطة الموقفَ المفترضَ من قِبَلِ المصادرِ التّراثيّةِ اللاّحقةِ التي يفترضُ أنّها ذاتُ مصدرٍ إلهيّ، وخصوصاً بما أنَّ هؤلاءِ المؤرّخينَ يؤكّدونَ باستمرار أنَّ التّاريخَ بكاملهِ يجبُ أن يكونَ مثبتاً بالأدلّةِ التّاريخيّة، لذا فهم مجبرونَ على التراجعِ والتوقّفِ قليلاً، ثمَّ التساؤل: كيفَ

لنا أن نعرفَ مصداقيّةَ ما نعرفه، من أينَ تأتي المعلومات، وهل تقومُ تلكَ المعلوماتُ على تحليلٍ تاريخيٍّ موضوعيٍّ وبعيدٍ كلَّ البعدِ عن الذّاتيّةِ والتحيّز؟ وهذا ما قادَ المؤرّخينَ للوقوعِ في إشكاليّة، فبسببِ افتراضاتهم العلميّةِ البعيدةِ كلَّ البعدِ عن التحيّزِ الدينيِّ واللاّهوتيّ لا يمكنُ لهم أن يقيموا أبحاثهم على وجودِ الله، ومع ذلك لا يمكنهم إدارةُ ظهورهم للمصادرِ التّراثيّةِ الإسلاميّةِ أيضاً (والتي تفترضُ وجودَ اللهِ بشكلٍ طبيعيّ)، لأنّها كانت الوثائقَ الأفضلَ والوحيدةَ المتوفّرة. وكانَ الأمرُ كذلكَ، حتّى مؤخّراً. الجيلُ الجديدُ منَ الخبراءِ والعلماءِ والباحثينَ في مجالِ الإسلاميّات (مثل د. جون وانسبرو، مايكل كوك، باتريشيا كرونه من أوكسفورد سابقاً، والآن تحاضرُ في كامبريدج، يهودا نيفو من جامعةِ القدّس، أندرو ريبّين من كندا، وآخرون)، في حينِ أنّهم يقرّونَ أنّهُ يوجدُ نوعٌ منَ الغموضِ فيما يتعلّقُ بالوحيِ الإلهيّ، إلّا أنّهم يبحثونَ الآنَ عن قربٍ أكثر في مصادرَ أخرى تتعلّقُ بالقرآن للتحقّقِ من علاماتٍ وإشاراتٍ عن أصولهِ ومنشأه. إنّها المصادرُ التي بدأت الآنَ بالكشفِ عن دليلٍ لتفسيراتٍ جديدةٍ عن بداياتِ دينٍ يعتقدُ فيهِ حوالي خُمسِ سكّانِ العالم، ويتنامى بازديادٍ وبوتيرةٍ أسرعَ من أيّةِ ديانةٍ أخرى. لذا سألجئُ لاستخدامِ أعمالهم لفهمٍ أفضلَ لمصدرٍ محتملٍ آخرَ للقرآن. إنّها مادّتهم، وآخرونَ غيرهم، والتي على علماءِ المسلمينَ وباحثيهم أن يواجهوها بشكلٍ أكثرَ جدّيّةً خلالَ السنواتِ التّالية، كما أنَّ هذهِ البياناتِ الجديدة تسلّطُ أسئلةً أكثرَ جدّيّةً على المزاعمِ التي طرحها العلماءُ المسلمونَ فيما يتعلّقُ بكتابهم المقدّس، القرآن، ونبيّهم، محمّد. دعونا إذاً نبدأُ تحليلنا بإلقاءِ نظرةٍ على المصادرِ التي من خلالها نعرفُ ما نعرفهُ عن الإسلام، نبيّهِ وكتابه.

1) إشكاليّاتُ التّراثِ الإسلاميّ:

لكي نقيمَ نقداً موضوعيّاً للقرآن منَ المهمِّ جدّاً أن نصمَّ آذاننا عمّا يقولهُ الدّعاةُ والمفسّرونَ الإسلاميّونَ اليوم، ونعودَ إلى البداية، إلى المصادرِ المبكرةِ للقرآن المتوفّرةِ بينَ أيدينا وتحتَ تصرّفنا، للعثورِ على علاماتٍ تشيرُ إلى أصالته. سيفترضُ البعضُ أنَّ ذلكَ سيكونُ منَ السّهلِ القيامُ به، إذ أنّهُ قطعةٌ أدبيّةٌ جديدةٌ نسبيّاً، ظهرت في المشهدِ منذُ حوالي 1400 عام تقريباً حسبما يقولهُ المسلمون.

1.1) المصادر:

كانت مسألةُ المصادرِ دائماً من أكثرِ المناطقِ إثارةً للجدلِ بالنسبةِ لعلماءِ وباحثي القرآن، وكأيِّ دراسةٍ للقرآن يجبُ أن تبدأ بمشكلةِ المصادرِ الأوّليّةِ مقابلَ المصادرِ الثّانويّة، فالمصادرُ الأوّليّةُ هيَ تلكَ الموادُ الأقرب، أو التي تتميّزُ بدخولٍ مباشر أو صلةٍ مباشرةٍ للحدث، أمّا المصادرُ الثّانويّةُ فتتعلّقُ بأيّةِ مادّةٍ تميلُ لأن تكونَ أكثرَ حداثة، وبذلك، فإنّها تعتمدُ في الأصلِ على المصادرِ الأوّليّة. في الإسلام، المصادرُ الأوّليّةُ التي نمتلكها وُضِعَت بعدَ مرورِ 300-150 عامٍ على حدوثِ الأحداثِ التي تصفها، ولذلكَ فهيَ بعيدةٌ بعضَ الشيءِ عن تلكَ الأحداث، ولهذا السببِ فإنّها _بالنسبةِ للأغراضِ العمليّةِ كافّة_ هيَ مصادرُ ثانويّة، إذ أنّها تعتمدُ على موادَّ أخرى، لم تعد موجودةً في يومنا هذا، أحدُ أوائلِ وأكبرِ هذهِ المصادر هوَ «تراثُ الحديثِ الإسلاميّ»، وبسببِ أهمّيّةِ الأحاديثِ التّراثيّةِ الإسلاميّة فمنَ المهمِّ جدّاً أن نتعاملَ معها أوّلاً.

التّراثُ والأحاديثُ الإسلاميّةُ تشتملُ على الكتاباتِ التي جُمِعَت من قِبَلِ المسلمين خلالَ أواخرِ القرنِ الثّامنِ وباكورةِ القرنِ العاشرِ الميلاديين، وهيَ تتعلّقُ في الأساس بأقوالِ النبيِّ محمّد خلالَ القرنِ السّابعِ الميلادي، وتفسيراتِ القرآن، فهيَ تمثّلُ الجسمَ الأكثرَ شمولاً وإلى أبعدِ حدّ للمادّةِ المتوفّرةِ لدينا اليوم عن الفترةِ المبكرةِ للإسلام، كما أنّها مكتوبةٌ بتفصيلٍ أكبر من أيِّ شيءٍ آخرَ في حوزتنا، فهيَ تحتوي على تواريخ بالإضافةِ لتفسيراتٍ لما حدث، فهيَ بمثابةِ تتمّةٍ للقرآن. القرآنُ بحدِّ ذاتهِ يصعبُ تتبّعه، إذ أنّهُ يتركُ القارئَ حائراً، مرتبكاً، وضائعاً خلالَ قفزهِ من قصّةٍ إلى أخرى، ومن آيةٍ إلى أخرى، دونَ أن يقدّمَ أيَّ خلفيةٍ أو روايةٍ أو توضيح، وهنا عندَ هذهِ النقطة يصبحُ الحديثُ في غايةِ الأهمّيّة، فهوَ سيملأُ الفراغاتِ في التفاصيل، ويساعدُ على توضيحٍ أو تفسيرِ الصّورةِ والتي ستكونُ مبهمةً وغيرَ واضحةٍ من دونها. في بعضِ الحالات نلاحظُ أنَّ الأحاديثَ تسدُّ على القرآن، فعلى سبيلِ المثال، عندما يشيرُ القرآن إلى الصّلواتِ اليوميّةِ الثلاثِ في الآيات (({وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ} [هود 11: 114]، {أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا * وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا} [الإسراء 17: 79-78]،

{فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ} [الروم 30: 18-17]، ومنَ المحتمل {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [النور 24: 58]))[1]، في حين أنَّ الصّلواتِ اليوميّةَ الخمسةَ المنصوصَ عليها من خلالِ الأحاديثِ اللاّحقة تمَّ تبنّيها من قِبَلِ المسلمينَ منذُ ذلكَ الوقت. عددٌ كبيرٌ منَ الأنواعِ موجودٌ ضمنَ هذهِ الأحاديث، أمّا مؤلّفوها فلم يكونوا هم أنفسهم كتبة، بل كانوا محرّريها ومنقّحيها قاموا بجمعِ المعلوماتِ التي «وصلت أو نُقِلَت إليهم» ثمَّ أنتجوها. هناكَ العديدُ منَ المحرّرين، لكنَّ الأربعةَ الذينَ يُعدّونَ بينَ أغلبِ المسلمين على أنّهم الأكثرُ أصالةً في كلِّ نوع، كلّهم عاشوا وجمعوا مادّتهم خلالَ الفترةِ ما بينَ 923-750 ميلادي؛ (أي بعدَ مرورِ 129-120 سنةٍ على وفاةِ محمّد) وسيكونُ منَ المفيدِ عرضُ أعمالهم، بالإضافةِ إلى التّواريخ: 1) السيرةُ النبويّةُ التي تتناولُ حياةَ محمّدٍ التقليديّة (ومن ضمنها معاركهُ وغزواته)، وأكثرُ السيرِ اتّساعاً وشمولاً تلكَ التي وُضِعَت من قِبَلِ ابنِ إسحاق (توفّي سنةَ 765 م)، إلّا أنّهُ لا يوجدُ أيُّ جزءٍ أو قسمٍ منها في يومنا هذا. لذلك، فإنّنا نعتمدُ على سيرةِ ابنِ هشام (توفّي سنةَ 833 م)، والتي منَ المفترضِ أنّها مأخوذةٌ عن سيرةِ ابنِ إسحاق، وذلكَ باعترافهِ هوَ (وفقَ ما جاءَ في بحثِ الباحثةِ باتريشيا كرونه) إلّا أنّهُ حذفَ واستبعدَ تلكَ المجالاتِ التي اعتبرها مهينةً (مثلَ أيِّ شيءٍ شعرَ بأنّهُ غليظٌ ومستهجن، قصائدٌ غيرُ مستشهدةٍ في أيِّ مكانٍ آخر، بالإضافةِ إلى الأمورِ التي وجدَ أنّها غيرُ جديرةٍ بالثّقة). 2) الحديث: وهوَ مؤلّفٌ من آلافِ الأخبارِ القصيرةِ أو الأقوالِ عن أقوالِ وأفعالِ النبيِّ والتي جُمِعَت من قِبَلِ المسلمين خلالَ القرنينِ التّاسعِ والعاشرِ الميلاديين، ومن بينِ أشهرِ مجاميعِ الأحاديثِ السّتة، صحيحُ البخاريّ

---

(1) ويمكننا أن نقول: أنّهُ تندرجُ في هذهِ الحالة قصّةُ النبيِّ إلياس، إذ أنّهُ ذُكِرَ ثلاثَ مرّاتٍ في القرآن (({وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ} [الأنعام:85] {وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ} [الصّافّات:123]، {سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ} [الصّافّات:130])) وهنا كلُّ ما وردَ عنه. فمن هوَ إلياس، وكيفَ لنا أن نعرفَ من هوَ إذا لم يذكرُ عنهُ القرآنُ أيَّ شيء؟ ما علينا إلّا أن نعودَ إلى الأحاديث.

(توفيّ سنةَ 870 م) يعدُّ أكثرها أصالةً وموثوقيّة. 3) التّاريخ: وهوَ عبارةٌ عن تواريخ، والتسلسلِ التّاريخيِّ لحياةِ النبيّ، وأشهرها ذلكَ الذي يعرفُ بتاريخ الطّبريّ (توفيّ سنةَ 923 م) والذي وضعهُ خلالَ بواكيرِ القرنِ العاشرِ الميلادي. 4) التفسير: وهوَ مجموعةُ تفاسيرِ وإيضاحاتٍ للقرآن، قواعدهُ ومضمونه، وأشهرُ تفسيرِ معروفٍ في يومنا هذا هوَ تفسيرُ الطّبريّ.

1. 2) تواريخٌ متأخّرة:

طبعاً، أوّلُ سؤالٍ علينا طرحهُ هوَ: لماذا كلُّ هذا التأخيرِ في تدوينِ هذهِ الأحاديث؛ أي بعدَ مرورِ 300-150 عامٍ على حدوثها؟ ببساطة، نحنُ لا نملكُ أيّةَ ((أخبارٍ عن المجتمعِ الإسلاميِّ خلالَ مرحلتهِ الأوّليّة، أو خلالَ المائةِ وخمسينَ سنةَ الأولى منه، بينَ غزواتِ العربِ الأولى [حوالي باكورةِ القرنِ السّابع] وظهورِ _مع رواياتِ السيرِ والمغازي_ الأدبِ الإسلاميِّ المبكر)) [نحوَ حوالي أواخرِ القرنِ الثّامن] يجبُ أن نتوقّعَ بأن نجدَ، خلالَ تلكَ السنواتِ المائةِ وخمسينَ المتخلّلة، على الأقلّ بقايا دليلٍ على تطوّرِ ديانةٍ عربيّةٍ قديمةٍ إلى الإسلام (بمعنىً آخر؛ تراثٌ إسلامي)، ومع ذلك، فنحنُ لا نجدُ شيئاً.هناكَ مسلمونَ يخالفونَ هذا الرأي، مؤكّدينَ أنَّ هناكَ دليلاً على التّراثِ الإسلاميِّ المبكر، وبشكلٍ رئيسي موطأُ مالكِ بنِ أنس (وُلِدَ سنةَ 712 م، وتوفيّ سنةَ 795 م). نورمان كالدر في كتابهِ الذي يبحثُ في علمِ التشريعِ الإسلاميِّ المبكر، يختلفُ مع هذهِ التّواريخ المبكرة، ويبحثُ فيما إذا كانَ منَ الممكنِ إرجاعُ تلكَ الأعمالِ إلى مؤلّفيها أو كتّابها المفترضين، ويقولُ أنَّ معظمَ النصوصِ التي لدينا اليوم والتي منَ المفترضِ أنَّ أولئكَ هم مؤلّفوها هيَ «نصوصٌ مذهبيّةٌ»، منقولةٌ ومتطوّرةٌ خلالَ عدّةِ أجيال، ومحققةٌ الشّكل الذي نعرفها فيه؛ أي أحدثُ بكثيرٍ منَ «المؤلّفينَ» المفترضينَ الذينَ تنسبُ إليهم عادةً. باتّباعِ الفرضيّةِ الحاليّة أنَّ «التشريعَ الشّافعيَّ» (والذي ينصُّ على إرجاعِ كافّةِ الأحاديثِ إلى محمّد) لم يُطَبّق أو يُعمَل بهِ حتّى بعدَ عامِ 820 للميلاد، وقد توصّلَ إلى نتيجةِ أنّهُ ولأنَّ المدوّنةَ لم تتناول مرجعيّةَ محمّدٍ النبويّة في حينِ أنَّ الموطأ يتناولها، لذا فالموطأ يجبُ أن يكونَ هوَ الوثيقةَ المتأخّرة، لذلك، لم يُرجِع كالدر تاريخَ المدوّنةِ إلى ما قبلَ عامِ 750 م، بل لفترةٍ ما بعدَ المدوّنة والتي كُتِبَت خلالَ عامِ 854 م. في الواقع، كالدر لم يكتفِ بوضعِ الموطأ إلى

ما بعدَ القرنِ الثّامنِ في الجزيرةِ العربيّة، بل إلى القرنِ الحادي عشر في قرطبةَ بإسبانيا، فإذا كانت أطروحتهُ صحيحةً، إذن فنحنُ لم يعد لدينا أدنى دليلٍ أو برهانٍ على التّراثِ الذي كانَ سائداً خلالَ الفترةِ المبكرةِ منَ الإسلام. همفري بدورهِ ينتقدُ هذهِ الإشكاليّةَ عندما يشيرُ إلى أنّهُ ((على افتراضِ أنَّ المسلمينَ يجبُ أن يكونوا قد أعطوا اهتماماً كبيراً لمسألةِ تسجيلِ إنجازاتهم العظيمة، في حينِ أنَّ المجتمعاتِ المثقّفةَ والحضاريّةَ والعاليةَ التمدّن التي أخضعها المسلمونَ لسيطرتهم منَ المنطقيِّ أن تتجنّبَ ذكرَ مثلَ هذهِ الأحداث، بل وتحاولُ طمسَ التّاريخِ المتعلّقِ بالغزاة)) ومع ذلك، وحسبَ أطروحةِ همفري كلُّ ما نجدهُ من هذهِ المرحلةِ المبكرة من مصادر إمّا أنّها عبارةٌ عن «شظايا وشذرات أو أنّها تمثّلُ وجهاتِ نظرٍ معيّنةٍ أو لامركزيّة»، تبطلُ وتعطّلُ أيَّ إمكانيّةٍ لإعادةِ بناءِ القرنِ الأوّلِ منَ الإسلامِ الأوّليِّ بشكلٍ كافٍ ودقيق. السؤالُ، إذن، من أينَ أتى مؤلفو ومحرّرو القرنينِ الثّامنِ والتّاسع بموادّهم ومصادرهم؟ الجوابُ، وببساطة، هو أنّنا لا نعلم. «أدلّتنا عن عمليّةِ التوثيقِ ما قبلَ عامِ 750م، تنسجمُ وتتوافقُ بشكلٍ كاملٍ تقريباً مع أكثرِ الاقتباساتِ المريبةِ والمشبوهةِ في عمليّةِ التجميعِ اللاّحقة»، لهذا السّبب، نحنُ لا نمتلكُ أيَّ دليلٍ أو إثباتٍ موثوقٍ يثبتُ أنَّ الأحاديثَ تتحدّثُ بصدقٍ وإخلاص عن حياةِ محمّد، أو حتّى القرآنِ نفسه. يُطلَبُ منَ العالمِ الإيمانُ بصحّةِ هذهِ الوثائق، والتي كُتِبَت بعدَ مضيِّ مئاتِ السنوات، ومع ذلك فإنّنا لا نملكُ أيَّ دليلٍ على صحّتها ودقّتها_خارجَ نطاقِ الإسناد_ والذي ليسَ أكثرَ من مجرّدِ قوائمَ منَ الإفادات[1] لأسماءِ أولئكَ الذين تمَّ تمريرُ الأحاديثِ عن طريقهم، ومع ذلك، فحتّى الأسانيدُ تفتقرُ لأيِّ توثيقٍ داعمٍ يدعمُ أصالتها ودقّتها، بأيِّ حال، سنناقشُ ذلكَ بتفصيلٍ أكبر خلالَ الدراسة.

الكتابة:

يؤكّدُ المسلمونَ بأنَّ المصادرَ الرئيسيّةَ الأوّليّةَ يمكنُ إرجاعها إلى حقيقةِ أنَّ الكتابةَ لم تكن مُعتَمَدةً ضمنَ تلكَ البيئةِ الصحراويّةِ المعزولةِ خلالَ تلكَ الفترة، وهذا الافتراضُ ليسَ مبنيّاً على أيِّ أساس، إذ إنَّ الكتابةَ على الورقِ بدأت قبلَ القرنِ السّابعِ الميلادي بوقتٍ طويلٍ جدّاً؛ فالكتابةُ على الورقِ اختُرِعَت في القرنِ الرابع، واستُخدِمَت بشكلٍ

(1) أو بالأحرى هيَ سلاسلُ طويلةٌ منَ العنعنةِ والأسماء.

موسّع عبرَ العالمِ المتحضّرِ بعدَ ذلك. سلالةُ بني أميّة كانَ مقرّها في سوريا، المقرُّ السّابقُ للدولةِ البيزنطيّة، وليست بلادَ العرب، وكانت سوريا مكوّنةً من مجتمعاتٍ معقّدةٍ ومتقدّمةٍ تستخدمُ الكتبةَ والسكرتاريينَ في المحاكم، مما يثبتُ أنَّ عمليّةَ الكتابةِ وتدوينِ النصوصِ كانت متطوّرةً جداً هناك، إضافةً إلى ذلك، جرى إخبارنا أنَّ شبهَ الجزيرةِ العربيّة (والمعروفةَ باسمِ الحجاز) خلالَ القرنِ السّابعِ وما قبل، كانت منطقةً تجاريّةً واقعةً على طريقٍ تجاريّ، حيثُ القوافلُ تسافرُ شمالاً-جنوباً، وعلى الأرجح شرقاً وغرباً، وفي حينِ أنَّ الدليلَ يثبتُ أنَّ التجارةَ كانت محليّةً بشكلٍ أساسي (كما سنناقشُ فيما بعد)، فقد كانَ يتمُّ استخدامُ القوافل. كيفَ كانت القوافلُ تحتفظُ بسجلاتها إذن؟ منَ المؤكّدِ أنّهم لم يكونوا يحفظونَ الأرقامَ والحساباتِ الكبيرة.

وأخيراً، علينا أن نتساءل: كيفَ حصلنا على القرآنِ إذا لم يكن هناكَ أيُّ أحدٍ قادرٍ على إمساكِ القلمِ والكتابةِ على الورقِ في ذلكَ الوقت؟ يزعمُ المسلمونَ أنَّ هناكَ بعضَ المخطوطاتِ منَ القرآنِ المبكر وجدت بعدَ وفاةِ النبيِّ بفترةٍ قصيرة كمصحفِ عبدِ اللهِ بنِ مسعود، أبو موسى، وأُبَيّ بن كعب. ماذا كانت تلكَ المخطوطاتُ والمدوّناتُ إذا لم تكن وثائقَ مكتوبة، فالنصُّ العثمانيُّ نفسهُ يجبُ أن يكونَ مكتوباً، وإلّا فإنّهُ لن يكونَ نصّاً؟ فالكتابةُ إذن كانت موجودة، لكن لسببٍ ما، لم يُحتَفَظ بأيِّ سجلٍّ عن تلكَ الوثائقِ الأوّليّةِ المفترضةِ ما قبلَ عام 750 م.[1]

الزّمن:

يؤكّدُ علماءُ مسلمونَ آخرون أنَّ غيابَ التوثيقِ المبكرِ لتلكَ المرحلة يمكنُ أن يعودَ السببُ فيهِ إلى الزّمن، إنّهم يعتقدونَ أنَّ الموادَ التي دُوِّنَت المادّةُ عليها بشكلٍ أساسيّ قد تحلّلت وتشوّهت بفعلِ عاملِ الزّمن، ولم تترك لنا إلّا بضعةَ أمثلةِ اليوم، أو أنّها ضَعُفَت جرّاءَ المعالجةِ والمناولةِ الثقيلةِ ودُمّرت، إلاّ أنَّ هذهِ الحجّةَ بحدِّ ذاتها مشبوهةٌ وغيرُ

(1) وخيرُ دليلٍ على هذهِ الأطروحةِ التي تقولُ أنَّ الكتابةَ كانت موجودةً في عصرِ النبيِّ حتّى نجدهُ في قصّةِ إسلامِ عمر بنِ الخطّاب، عندما دخلَ على أختهِ فسمعها ترتّلُ القرآنَ هيَ وزوجها، فقامَ فضربها، ولمّا أدمت قال: أعطني هذهِ الصحيفةَ التي سمعتكم تقرؤونَ آنفاً أنظرُ ما هذا الذي جاءَ بهِ محمّد، ثمّ أخذها منها وقرأ قسماً من سورةِ طه ثمّ دخلَ الإسلام[سيرةُ بنِ هشام مجلد 2 صفحة 190] إذن، صحيفة... تقرؤون... وقرأ بنُ الخطّاب الصحيفةَ ثمّ أسلم.

دقيقة، ففي المكتبةِ البريطانيّةِ لدينا أمثلةٌ غيرُ قليلةٍ منَ الوثائقِ كتبها أفرادٌ من مجتمعاتٍ وديانات ليست ببعيدةٍ عن الجزيرةِ العربيّة، حتّى أنّهم يؤرّخونَ هذهِ المخطوطاتِ بمئاتِ السنوات. هناكَ مخطوطانِ منَ العهدِ الجديد معروضان، كمخطوطةِ سينياتيكوس ومخطوطةِ ألكساندرينوس، وكلاهما وضعَ مخطوطهُ خلالَ القرنِ الرابعِ للميلاد، ثلاثمائةِ أو أربعمائةِ عامٍ قبلَ الإسلام! لماذا لم تتحلّلا أو تَفْسُدا عبرَ الزّمن؟ بأيِّ حال، يكمنُ الضعفُ في هذهِ الحجّةِ بشكلٍ خاصّ عندما نسقطها على القرآنِ نفسه.

«النصُّ العثمانيُّ» للقرآن (النسخةُ الشّرعيّةُ النهائيّةُ التي منَ المفترضِ أنَّ زيداً بنَ ثابتٍ قد جمعها، بطلبٍ منَ الخليفةِ الراشديِّ الثّالثِ عثمانَ بنِ عفّان) يعدُّ من قِبَلِ جميعِ المسلمين أنّهُ التحفةُ الأدبيّةُ الأهمُّ والأعرقُ في الوجود، وكما لاحظنا من قبل، فحسبما وردَ في الآيتين 4-2 من سورةِ الزخرف 43 {إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ}، فإنّهُ «أمُّ الكتاب»، وأهمّيّتهُ تكمنُ في حقيقةِ أنّهُ يعدُّ نسخةً طبقَ الأصلِ عن «اللّوحِ المحفوظِ» الموجودِ في السّماء [سورة البروج 85: 22]. التّراثُ الإسلاميُّ يخبرنا أنَّ جميعَ النصوصِ الأخرى المنافسة تمَّ التلاعبُ بها بعدَ عامِ 646-650 للميلاد، وحتّى «مصحفُ حفصة»، الذي أُخِذَ النصُّ المنقّحُ النهائيُّ عنه قد أُحرِق. فإذا كانَ هذا النصُّ العثمانيُّ بهذهِ الدرجةِ منَ الأهمّيّة، فلماذا لم يُدوَّن على الورق، أو أيّةِ موادٍ تدومُ أكثر ليظلَّ حتّى يومنا هذا، وقطعاً، إذا شوّهت المخطوطاتُ السّابقةُ عن طريقِ الاستعمالِ المستمرِّ والتناول، فلماذا لم تُستَبدَل بأخرى مكتوبةٍ على جلودِ الحيواناتِ لتدومَ أطول، كالعديدِ منَ الوثائقِ الأخرى التي دُوِّنَت على الجلودِ وبقيت حتّى وقتنا الحالي؟ نحنُ لا نمتلكُ أيَّ دليلٍ على الإطلاق عن النصِّ القرآنيِّ الأصلي، كما أننا لم نضع أيدينا بعد على أيٍّ منَ النسخِ المزعومةِ الأربعة من هذا التنقيحِ النهائيِّ والذي تمَّ إرسالها إلى مكّة، المدينة، البصرة، ودمشق، وحتّى إن كانت هذهِ النسخُ قد تفسّخت وتحلّلت مع الزمن، فسيكونُ هناكَ قطعاً بعضُ القطعِ والأجزاءِ الباقيةِ منها تشيرُ إلى تلكَ الوثائق. فعندَ نهايةِ القرنِ السّابعِ الميلادي كانَ الإسلامُ قد انتشرَ عبرَ شمالِ إفريقيا وصولاً إلى إسبانيا، وشرقاً تخطّى الحدودَ الهنديّة، وكانَ القرآنُ _حسبما وردَ في التّراثِ الإسلامي_ القطعةَ المركزيّةَ في الإيمان، وطبعاً ضمنَ ذلكَ المناخِ الكبيرِ منَ التأثيرِ القرآنيّ، كانَ لا بدَّ

أن تكونَ هناكَ بعضُ الوثائقِ أو النصوصِ القرآنيّةِ التي بقيت موجودةً حتّى يومنا هذا، ومع ذلك، لم يتبقَّ لنا شيءٌ من تلكَ الفترة. في حينِ أنَّ الديانةَ المسيحيّةَ يوجدُ لديها أكثرُ من 5300 نصٍّ ووثيقةٍ يونانيّةٍ عن العهدِ الجديد، وحوالي 10000 فولغاتا لاتينيّة، وعلى الأقلّ 9300 نسخةٍ أخرى مبكرة، وهذا يصلُ مجموعهُ إلى ما يتجاوزُ 24000 وثيقةٍ ومخطوطةٍ ما زالت موجودة، معظمها تمَّ تدوينهُ خلالَ الفترةِ ما بينَ 24 إلى 400 سنةٍ بعدَ وفاةِ المسيح (أو بالأحرى ما بينَ القرنِ الأوّلِ والخامسِ الميلاديين)، أمّا الإسلامُ فلا يمكنُ البرهنةُ على أيٍّ من نصوصهِ حتّى القرنِ الثّامن. إذا كانَ بإمكانِ المسيحيّينَ الأوائلِ الإبقاءُ والحفاظُ على عدّةِ آلافٍ منَ النصوصِ والمخطوطاتِ القديمة، وجميعها كُتِبَت وأُلِفَت قبلَ القرنِ السّابعِ بزمنٍ طويل، في الوقتِ الذي لم يُختَرَع فيهِ الورقُ بعد، ممّا اجبرَ النّاسَ على استعمالِ ورقِ البرديِّ القابلِ للتحلّلِ والإفسادِ عبرَ الزّمن، عندها جديرٌ بنا أن نتساءلَ: لماذا لم يكن المسلمونَ قادرينَ على تقديمِ مخطوطةٍ واحدةٍ على الأقل عن تلكَ الفترةِ الأحدثِ منَ الفترةِ المسيحيّة، وفي لحظةِ الوحيِ المفترض؟ هذا بالتأكيدِ يبيّنُ الإشكاليّةَ في الحجّةِ التي تقولُ أنَّ المصادرَ والوثائقَ الأصليّةَ والمبكرةَ للقرآنِ قد تحلّلت وفسدت عبرَ الزّمن، أو أنّها قد تَلِفَت بسببِ الاستعمالِ الطويلِ والكثيف.

المخطوطات:

في المقابل، وكردّ، يجادلُ المسلمونَ أنّهم يمتلكونَ فعلاً عدداً من هذهِ النصوصِ «العثمانيّة» المنقّحة، هذهِ النسخُ الأصليّةُ منَ القرنِ السّابعِ ما زالت محافظةً على شكلها، وأغلبُ المسلمينَ يزعمونَ أنَّ هناكَ نسخاً أصليّةً في مكّةَ، القاهرة، وعلى الأرجحِ في كلِّ حاضرةٍ إسلاميّةٍ أو مستعمرةٍ سابقة، وغالباً ما كنتُ أطلبُ منهم تزويدي بالمعلوماتِ التي يمكنُ أن تدعمَ أصالتها وعتقها، وهوَ اختبارٌ لم يتمكّن أحدٌ حتّى الآن منَ الخوضِ فيه. بأيّةِ حال، هناكَ وثيقتانِ قد تتضمّنانِ على شيءٍ منَ المصداقيّةِ والأصالة، وإليهما يشيرُ أغلبُ المسلمين. هناكَ مخطوطةُ سمرقند، والتي عُثِرَ عليها في المكتبةِ الرسميّةِ السوفييتيّة، طشقند، بأوزبكستان (التي كانت تقعُ في الجزءِ الجنوبيِّ من الاتّحادِ السوفييتيِّ السّابق)، ومخطوطةُ طوب كابي سراي، وهيَ موجودةٌ في متحفِ طوب كابي في إسطنبول، بتركيا. هاتانِ الوثيقتانِ قديمتانِ جدّاً، وقد أُجرِيَت الكثيرُ منَ التحليلاتِ الاشتقاقيّةِ واللّغويّةِ

القديمةِ الكافيةِ والوافيةِ عليها منْ قِبَلِ علماءَ متخصّصينَ بالمخطوطاتِ القديمةِ وتأريخها، بالإضافةِ إلى خبراءَ بالخطِّ العربيِّ دعماً لدراساتهم وأبحاثهم هنا.

● مخطوطُ سمرقنْد:

مأخوذٌ من كتابِ جيل كرايست (جمعُ القرآن)مخطوطةُ سمرقنْد ليست وثيقةً كاملةً على الإطلاق. في الحقيقة، خارجَ المئةِ والأربعَ عشرةَ سورةً الموجودةَ في القرآنِ اليوم، فإنّها لا تتضمّنُ سوى على أجزاءٍ منَ السّورِ منَ السّورةِ الثّانية وحتّى الثّالثةِ والأربعين. من هذهِ السّور، قسمٌ كبيرٌ منَ النصِّ مفقود، والكتابةُ الفعليّةُ للنصِّ في مخطوطةِ سمرقنْد تمثّلُ مشكلةً فعليّة، إذ يظهرُ أنّهُ نصٌّ مُعابٌ وشاذٌّ جدّاً، بعضُ الصفحاتِ نظيفةٌ وخاليةٌ منَ الشوائب، ومنسوخةٌ بعنايةٍ وبشكلٍ موحّد، بينما هناكَ صفحاتٌ أخرى غيرُ مرتّبةٍ وفوضويّةٌ ومخلّةٌ بالتوازن، في بعضِ الصفحاتِ يبدو النصُّ موسّعاً جدّاً، في حينِ أنّهُ في صفحاتٍ أخرى مثبّتٌ ومكثّفٌ بشدّة. في زمنٍ ما كانَ الحرفُ العربيُّ (الكاف ك، ک) مستبعداً منَ النصّ، في حينِ أنّهُ في نصوصٍ أخرى ليسَ فقط ممتدّاً وموسّعاً، بل هوَ الحرفُ السّائدُ في النصّ، ولأنَّ العديدَ من صفحاتِ المخطوطةِ تختلفُ بشدّةٍ عن صفحاتٍ أخرى، فالافتراضُ الشّائعُ اليوم هوَ أنّنا أمامَ نصٍّ مركّب، مؤلّفٍ منَ إدخالاتٍ وحالاتٍ حشرٍ من مخطوطاتٍ عديدةٍ ومختلفة، وأيضاً يوجدُ ضمنَ النصِّ توضيحاتٌ وإشاراتٌ فنيّةٌ بينَ السّور، مرسومةٌ عادةً من مجموعاتٍ منَ الصفوفِ والمربّعات، بالإضافةِ إلى مئةٍ وواحدٍ وخمسينَ ميداليّةً بالألوانِ الأحمر، الأخضر، الأزرق، والبرتقالي؛ هذهِ الإشاراتُ التوضيحيّةُ هيَ ما دفعت الخبراءَ لإرجاعِ المخطوطِ إلى القرنِ التّاسع، إذ أنّهُ من غيرِ الممكنِ أن تكونَ هذهِ الإشاراتُ والتوضيحاتُ متضمّنةً في نسخةِ القرنِ السّابعِ للنصِّ العثمانيِّ وتمَّ إرسالها إلى أقاليمَ أخرى.

● مخطوطةُ طوب كابي سراي:

مخطوطةُ طوب كابي سراي في إسطنبول بتركيا أيضاً، تمَّ تدوينُ النصِّ فيها على رقٍّ، مجرّداً منَ التشكيلِ والتنقيط. وعلى غرارِ مخطوطةِ سمرقنْد، نلاحظُ أنّها زُخرِفَت وزُيّنَت بدوائرَ وميداليّاتٍ مزيّنة، وهذا إشارةٌ إلى وقتٍ لاحق. يزعمُ المسلمونَ أنَّ هذهِ

المخطوطةَ هيَ إحدى المخطوطاتِ الأصليّة، لا بل إنّها المخطوطةُ الوحيدةُ المكتوبةُ بخطِّ زيدِ بنِ ثابت، بأيِّ حال، لا نحتاجُ سوى إلى إجراءِ مقارنةٍ بسيطةٍ بينَ هذا المخطوطِ ومخطوطِ سمرقند لندركَ أنَّ أيّاً منهما لا يمكنُ أن يكونَ من مصدرٍ عثمانيّ. على سبيلِ المثال، مخطوطةُ طوب كابي سراي الإسطنبوليّةُ تحتوي الصفحةُ الواحدةُ منها على ثمانيةَ عشرَ سطراً، في حينِ أنَّ مخطوطةَ سمرقند في طشقند لا تحتوي إلّا نصفَ ذلكَ العددِ أو أكثرَ بقليل، بين 8 و12 سطراً في الصفحة، مخطوطةُ إسطنبول مكتوبةٌ على الرقِّ بطريقةٍ رسميّةٍ جدّاً، كُتِبَت الكلماتُ والخطوطُ بشكلٍ موحّدٍ تقريباً، في حينِ أنَّ النصَّ في مخطوطةِ سمرقند غالباً ما يكونُ عشوائيّاً ومشوّهاً إلى حدٍّ كبير، لا يمكنُ لأحدٍ أن يصدّقَ أنّ كلا المخطوطينِ منسوخانِ عن بعضهما وبنفسِ الكتابةِ والخط.

تحليلُ المخطوطة:

يقومُ خبراءُ تحليلِ المخطوطاتِ باستخدامِ ثلاثةِ اختباراتٍ لتقديرِ أعمارِها، وللبدء، إنّهم يختبرونَ عمرَ الورقةِ التي كُتِبَ عليها النصُّ المخطوط، باستخدامِ موادَ كيميائيّةٍ كالتّأريخِ بالكربون-14، وهذا مناسبٌ للوثائقِ الحاليّةِ كالقرآن، كتأريخٍ دقيقٍ ما بينَ +/- 20 سنةٍ محتملة، والحالُ، أنّهُ كانَ هناكَ تحفّظٌ في استخدامه، لأنَّ كمّيّةَ المادّةِ التي منَ الممكنِ تلفها خلالَ عمليّةِ المعالجةِ قد تكونُ (1 إلى3 غرامات) ممّا يهدّدُ بفقدانِ جزءٍ كبيرٍ منَ المخطوط. طريقةٌ أخرى أكثرُ دقّةً للتّأريخِ بواسطةِ عنصرِ الكربون-14، تعرفُ باسمِ AMS (مطيافُ مسرّعِ الكتلة) ويتمُّ استخدامهُ الآن، ولا يلزمُ منهُ سوى 0.5 إلى 1.0 ملغ منَ المادّةِ للاختبار، ومع ذلك، حتّى الآن لم يتمَّ فحصُ واختبارُ أيٍّ من هذهِ المخطوطاتِ بهذهِ الوسائلِ المتطوّرة. الخبراءُ أيضاً يدرسونَ حبرَ المخطوطِ ونوعيّتهُ ويحلّلونَ مكوّناتهُ وعناصره، محدّدينَ مكانَ صنعها وتركيبها، وما إذا كانَ قد كُتِبَ عليها لمرّةٍ واحدة أو عدّةَ مرّات، لكنَّ عمرَ هذهِ الوثائقِ سيكونُ منَ الصّعبِ الاستدلالُ عليه لعدمِ حداثةِ الوثيقة. هذهِ المشاكلُ معقدّةٌ بسببِ صعوبةِ وصولِ هذهِ المخطوطاتِ إلى ميدانِ البحثِ العلميِّ المفصّل، وذلكَ بسببِ مخاوفِ أولئكَ الذينَ يحرسونها، لهذا يجبُ أن يذهبَ الاختصاصيّونَ إلى المخطوطِ نفسه، للقيامِ بالتحاليلِ اللازّمةِ لمعرفةِ ما إذا كانَ المخطوطُ حديثاً أم قديماً. ويعرفُ هذا النوعُ منَ الدراساتِ والأبحاث بـ الباليوغرافيا

Paleography أو علمُ ودراسةُ الكتاباتِ القديمة، فأساليبُ رسمِ الحروفِ تتغيّرُ وتتبدّلُ عبرَ الزّمن، وهذهِ التغيّراتُ تميلُ إلى أن تكونَ موحّدةً إذ أنَّ المخطوطاتِ عادةً ما تُكتَبُ على أيدي خطّاطينَ محترفين. وبهذا مالَ فنُّ الخطِّ إلى أسهلِ طريقة، وهيَ اتّباعُ الاتفاقيّات، مع وجودِ تعديلاتٍ تدريجيّة، وعن طريقِ فحصِ خطِّ اليد في كتابةِ نصوصٍ معروفٍ تاريخها أصلاً ومراقبةُ تطوّراتِهِ عبرَ الزّمن. يمكنُ لخبيرِ الكتاباتِ القديمةِ إجراءُ مقارناتٍ بينهُ وبينَ نصوصٍ أخرى مجهولةِ التّاريخِ وتحديدُ الفترةِ الزمنيّةِ التي يرجعُ إليها النصّ.

عندما نطبّقُ الاختبارَ الباليوغرافي على كلا المخطوطتين السمرقنديّة والطوبقابيّة فإنّنا سنتوصّلُ إلى نتائجَ مثيرةٍ للاهتمام تتعلّقُ بتواريخها، وهذا هوَ البرهانُ الذي سيكونُ بمثابةِ الحجّةِ الأهمِّ والأكثرِ جدّيّةً ضدَّ أيِّ احتمالٍ في أن تكونَ أيٌّ من هاتينِ المخطوطتين منسوخةً، أو «عثمانيّةً»، أو أنّهما كانتا موجودتينِ أصلاً في القرنِ السّابع.

● المخطوطُ الكوفي:

ما لا يعلمهُ أغلبُ المسلمين هوَ أنَّ المخطوطتانِ السّابقتانِ مكتوبتانِ بالخطِّ الكوفي، وهذا النوعُ منَ الخطوطِ حسبَ خبراءِ القرآنِ أمثال مارتن لينغز وياسين صفدي، لم يظهر حتّى أواخرِ القرنِ الثّامن (من عام 790 وما بعد)، ولم يكن مُستخدماً لا في مكّةَ ولا في المدينة خلالَ القرنِ السّابعِ الميلادي.وسببُ ذلكَ بسيطٌ جدّاً، أنظر: الخطُّ الكوفيُّ يستمدُّ اسمهُ من مدينةِ الكوفةِ في العراق، وسيكونُ منَ الغريبِ جدّاً أن يكونَ هذا النوعُ منَ الخطِّ هوَ الخطُّ الرسميُّ للمخطوطِ الأصليِّ للقرآن، بما أنّهُ خطٌّ يستمدُّ اسمهُ من مدينةٍ لم يمضِ على غزوِ العربِ لها سوى 10 إلى 14 عاماً. من المهمِّ جدّاً ملاحظةُ أنَّ مدينةَ الكوفة، والتي هيَ في يومنا الحاليِّ «العراق»، كانت مدينةً ساسانيّةً أو فارسيّةً قبلَ ذلكَ الوقت (638-637 م)، لذلك، في حينِ أنَّ اللّغةَ العربيّةَ كانت معروفةً هناك، إلّا أنّها لم تكن اللّغةَ الرّسميّةَ السّائدة، ناهيكَ عن النصِّ العربيِّ السّائد، حتّى بعدَ زمنٍ طويل. نحنُ نعرفُ في الحقيقة، أنَّ النصَّ الكوفيَّ قد بلغَ اكتمالهُ في أواخرِ القرنِ الثّامن؛ أي بعدَ مضيِّ مئةٍ وخمسينَ عاماً على وفاةِ النبيِّ محمّد، ثمَّ أصبحَ بعدَ ذلكَ مُستخدماً على نطاقٍ

واسع في جميعِ أصقاعِ العالمِ الإسلاميّ. وهذا أمرٌ منطقي، إذ أنّهُ وبعدَ عام 750، حكمت أسرةُ العبّاسيّينَ العالمَ الإسلاميَّ، وبسببِ خلفيّتهم الفارسيّةِ نقلوا مركزَ خلافتهم إلى منطقتي الكوفةِ وبغداد، وكانوا يريدونَ بذلك أن يسودَ نصّهم وكتابتهم الكوفيّة، إذ أنّهم أنفسهم كانوا محكومينَ من قِبَلِ الأمويّين (الذينَ كانَ مركزُ خلافتهم في دمشق) قرابةَ 100 عام، وسيتّضحُ لدينا الآن كيفَ أنَّ خطّاً عربيّاً نشأ في منطقتهم، كالخطِّ الكوفيّ، سيتطوّرُ إلى هذا النمطِ من الخطوطِ التي نراها في كلا الوثيقتينِ المذكورتينِ هنا.

شكلُ وبنيةُ المنظرِ الخارجيّ:

عاملٌ آخر يشيرُ إلى تواريخَ أحدث لهاتينِ المخطوطتينِ يتمثّلُ بالشّكل الذي كُتِبَت بهِ كلٌّ منهما، سنلاحظُ أنّهُ وبسببِ الشّكل المستطيلِ للخطِّ الكوفي، فكلتاهما مكتوبتانِ على صحفٍ أكبرَ بالعرضِ وليسَ بالطول، ويعرفُ ذلكَ باسمِ «بنيةِ المنظرِ الخارجيّ»، وهيَ بنيةٌ مأخوذةٌ من وثائقِ المسيحيّةِ السُّريانيّةِ والعراقيّةِ العائدةِ للقرنينِ الثّامنِ والتّاسعِ الميلاديين. والمخطوطاتُ العربيّةُ المبكرة جميعها مكتوبةٌ «بشكلٍ مستقيمٍ وقائم»،لذلك، نستنتجُ من هنا أنَّ كلتا المخطوطتينِ _السمرقنديّةِ والطوبقابيّة_ ولأنّهما مكتوبتانِ بالخطِّ الكوفيّ، وبسببِ بنيةِ وشكلِ منظرهما الخارجيّ، فلا يمكنُ أن تكونا قد كُتِبَتا قبلَ مضيِّ مئةٍ وخمسينَ عاماً على التنقيحِ العثمانيِّ المفترض؛ أي على أقلِّ تقدير أواخرَ القرنِ الثّامنِ وبداياتِ القرنِ التّاسع.

- خطُّ المشقِ والمائل:

إذن، إذا لم يكن الخطُّ الكوفيُّ هوَ الخطَّ المستخدمَ في منطقةِ الحجاز، فما هوَ نوعُ الخطِّ الذي كانَ سائداً في تلكَ المنطقةِ في ذلكَ الوقت؟ نحنُ نعرفُ أنَّ هناكَ نوعينِ منَ الخطوطِ العربيّةِ المبكرةِ والقديمةِ مألوفانِ لدى المسلمينَ المعاصرين، هذانِ النوعانِ هما: الخطُّ المائلُ، الذي تطوّرَ في منطقةِ الحجاز، وبشكلٍ خاصّ في مكّةَ والمدينة، وخطُّ المَشْقِ، والذي تطوّرَ في المدينةِ بشكلٍ خاصّ. استُخدِمَ الخطُّ المائلُ خلالَ القرنِ السّابع ويسهلُ تمييزه، حيثُ كانَ يكتبُ بزاويةٍ مائلةٍ بسيطة. في الواقع، استمرَّ هذا الخطُّ بالوجود قرابةَ قرنينِ منَ الزمن قبل أن يتوقّفوا عن استخدامه،كذلكَ خطُّ المشقِ أيضاً بدأ في القرنِ

السّابع الميلادي، لكن بقيَ قيدَ الاستخدامِ لعدّةِ قرونٍ تالية، فهذا الخطُّ أفقيٌّ أكثرَ من ناحيةِ الشّكل ويمكنُ تمييزهُ بأسلوبهِ المتّصلِ والذي جرت كتابتهُ بتروٍّ وعناية. إذا تمّ تأليفُ القرآنِ في هذا الوقتِ منَ القرنِ السّابعِ الميلادي، عندها يمكننا أن نتوقّعَ بأنّهُ كُتِبَ إمّا بخطٍّ المشقِ أو بالخطِّ المائل. اللافتُ للانتباه، أنَّ لدينا قرآناً مكتوباً بالخطِّ المائل، ويُقدَّمُ على أنّهُ أقدمُ نسخةٍ منَ القرآنِ في متناولنا اليوم، كما أنّهُ ليسَ موجوداً في إسطنبول أو طشقند، بل هوَ موجودٌ الآنَ في المكتبةِ البريطانيّةِ بلندن، وجرى تأريخهُ إلى نهايةِ القرنِ الثّامن، على يدِ مارتن لينغز، الأمينِ السّابقِ على مخطوطاتِ المكتبةِ البريطانيّة، وهو مسلمٌ ملتزم،لذلكَ، وبمساعدةِ التحليلِ الخطّيّ، نحنُ متأكدونَ أنّهُ ليسَ هناكَ أيُّ مخطوطٍ معروفٍ للقرآنِ في متناولنا اليوم يمكنُ إرجاعُ تأريخهِ إلى القرنِ السّابع. إضافةً إلى ذلك، عملياً كلُّ قطعٍ وكسراتِ المخطوطاتِ القرآنيّةِ المبكرةِ التي نمتلكها اليوم لا يمكنُ إرجاعُ تأريخها لأبكرَ من مضيِّ مئةِ عامٍ على الأقلّ على وفاةِ محمّد.

آن ماري شيمل في كتابها «خطُّ اليدِ والثقافةُ الإسلاميّة» تؤكّدُ على هذهِ النقطة، حيثُ تقولُ أنّهُ وبعيداً عن النسخةِ المكتشفةِ حالياً منَ [القرآن] في صنعاء، ((فالأجزاءُ المبيّنةُ الأسبق تعودُ إلى الربعِ الأوّلِ منَ القرنِ الثّامن)) اللافتُ للانتباه، أنَّ هذهِ المصاحفَ التي عُثِرَ عليها في صنعاءَ مازالَ يلفّها الغموض، حيثُ أنَّ الحكومةَ اليمنيّةَ لم تسمح للبعثةِ الألمانيّةِ التي اكتشفتها أن تنشرَ أبحاثها، هل يمكنُ أن يكونَ هذا التصرّفُ بمثابةِ محاولةٍ للتغطيةِ على ما قد تكشفهُ هذهِ النسخةُ المبكرةُ منَ القرآن؟ كانت هناكَ اقتراحاتٌ تقول: أنَّ النصَّ في هذا القرآنِ الذي يعودُ إلى باكورةِ القرنِ الثّامن لا يتوافقُ مع النصِّ الذي بينَ أيدينا اليوم؟ مازلنا ننتظرُ معرفةَ الحقيقةِ كاملةً. من خلالِ الدليلِ الذي لدينا سيكونُ من غيرِ المرجّحِ أنَّ بعضَ الأجزاءِ منَ القرآن تمّ نسخها افتراضياً في مصحفِ عثمانَ بأمرٍ منهُ وبقيت حتّى وصلتنا. ما نقفُ أمامهُ الآنَ هوَ تلكَ الهوّةُ الزّمنيّةُ الفاصلةُ التي تبلغُ نحوَ 150 سنةً والتي لا نستطيعُ ردمها، بأيِّ حال، وقبلَ المتابعةِ بموضوعِ القرآن، دعونا نعد إلى مسألةِ الأحاديثِ والتّراثِ الإسلاميّ، ونتابعُ نقاشنا عمّا إذا كانت هذهِ المصادرُ المبكرةُ للقرآن يمكنُ أن تقدّمَ لنا تأكيداً مناسباً لصلاحيّةِ القرآنِ وموثوقيّته، أمّا أهمُّ جزءٍ منَ التّراث، والذي يستخدمُ على نطاقٍ واسعٍ في جميعِ أرجاءِ العالمِ الإسلاميّ فهيَ الأحاديث.

1. 3) الموثوقيّة:

هناكَ جدالٌ كبيرٌ ليسَ فقط بينَ المؤرِّخينَ العلميّين، بل ضمنَ الأوساطِ الإسلاميّةِ أيضاً، حتّى اليوم، حولَ مصداقيّةِ تصانيفِ الأحاديثِ ومجاميعها وموثوقيّتها، وكما لاحظنا سابقاً، معظمُ نصوصنا التّاريخيّةِ عن الإسلامِ المبكر تمَّ جمعها بين 950-850 م، وجميعُ الموادِ اللاّحقةِ استخدمت هذهِ المجاميعَ كمصادرَ قياسيّةٍ لها، في حينِ أنَّ المادّةَ المبكرةَ وببساطة لا يمكنُ إثباتها أو البرهنةُ عليها بأيِّ درجةٍ منَ المصداقيّةِ والموثوقيّةِ والأصالة، إذ يمكنُ أن تكونَ الموادُ التّراثيّةُ السّابقةُ لم تعد ذاتَ صلة، لذا تمَّ تركها عرضةً للتلف، أو أنّهُ جرى إتلافها وتدميرها كلّها. نحنُ لا نعلمُ بكلِّ بساطة، ما نعلمهُ هوَ أنَّ هؤلاءِ الجامعينَ على الأرجح أخذوا مادّتهم من مجاميعَ تمَّ جمعها خلالَ العقودِ التي تخلّلت القرنَ التّاسعَ الميلادي، وليسَ من وثائقَ مكتوبةٍ في القرنِ السّابع، وطبعاً ليسَ من شخصِ محمّدٍ ذاته أو أحدِ صحابته. نحنُ نعلمُ أيضاً أنَّ العديدَ من جامعيها كانوا يعيدونَ صياغةَ الأخبارِ الماضية (رواياتٍ وعبارات) والتي عدّوها مقبولةً، ومع ذلك بقيت معاييرهم لغزاً يصعبُ فكّه. الآن يبدو واضحاً أنَّ «مدارسَ الشّريعةِ» في القرنِ التّاسعِ صادقت على أجندتها الخاصّةِ عن طريقِ التأكيدِ بأنَّ مذاهبها قد ترجعُ في أصلها ومنشأها إلى صحابةِ النبيّ، ثمَّ إلى النبيِّ نفسه.

يؤكّدُ شاخت على أنَّ أصلَ هذا المأخذِ كانَ الإمامَ الشّافعيَّ نفسه (توفّيَ عام 820 م)، إنّهُ هوَ الذي نصَّ على أنَّ كلَّ مصادرِ الشّريعةِ يجبُ إرجاعها إلى محمّد إذا أردنا إثباتَ أصالتها ومصداقيّتها. وكنتيجةٍ لذلك، الكتلةُ الأكبرُ من هذهِ المصادرِ الشّرعيّةِ صنعتها المدارسُ الشّرعيّةُ الكلاسيكيّةُ مبتهلةً سلطةَ ومرجعيّةَ النبيِّ التي أُسِّسَت خلالَ زمنِ الشّافعيِّ وما بعد، وفي النهاية أفضت إلى المذاهبِ العراقيّةِ اللاّحقة، وتلكَ المذاهبُ لا تعودُ في أصلها إلى الجزيرةِ العربيّة، وجدولُ أعمالها هيَ الأجندةُ التي جرى فرضها بكلِّ كليّةِ شريعةٍ تتعلّقُ باختيارِ التقاليدِ والتّراثِ في القرنينِ التّاسعِ والعاشر والتي يعتقدُ الكثيرونَ الآن أنّها تبطلُ وتُضعِفُ أصالةَ الحديث. يوافقُ وانسبرو كلاًّ من همفري وشاخت عندما يؤكّدُ أنَّ تلكَ السجلاّتِ الأدبيّة، على الرّغمِ من تقديمِ نفسها كمعاصرةٍ للأحداثِ التي تصفها، تعودُ فعليّاً إلى حقبةٍ أحدثَ بكثيرٍ من تلكَ الأحداث،

والتي تقترحُ أنّها كُتِبَت وفقاً لوجهاتِ النظرِ التّالية لكي تلائمَ أغراضَ وأجنّداتِ الفترةِ اللاّحقة. لنأخذ مثالَ الشّيعة، فأجنّدتهم شفّافةٌ للغاية، حيثُ أنّهم يؤكّدونَ أنّهُ من 2000 حديثٍ صحيحٍ أغلبها (1750) متحدِّرٌ عن عليّ، بنِ عمِّ النبيِّ وزوجِ ابنته، والذي لهُ مكانةٌ خاصّةٌ عندَ الشّيعة. بالنسبةِ للمراقبِ العاديّ يبدو هذا الأمرُ مشتبهاً، إذا كانت مسلّمةُ الأصالةِ عندَ الشّيعةِ سياسيّةً بحتة، عندها لماذا لا نستدلُّ على أنَّ نفسَ المسلّمةِ كانت تنطبقُ على مجموعاتٍ أخرى من التّراث؟ السؤالُ الذي يجبُ أن نطرحهُ هوَ ما إذا كانَ هناكَ -أو لم يكن- حصيلةٌ راسخةٌ منَ الحقائقِ والوقائعِ التّاريخيّةِ التي بقيت لنا لنستخدمها؟ شاخت ووانسبرو كلاهما متشكّكانِ حولَ هذهِ النقطة. باتريشيا كرونه تمضي بالحجّةِ لأبعدَ من ذلك حينَ تجادلُ أنَّ التّراثَ قد فقدَ مصداقيّتهُ وموثوقيّتهُ بسببِ تحيّزِ كلِّ جامعِ أخبارٍ ومصنّفٍ وانتمائهِ لطرفٍ منَ الأطراف، فهيَ تقول: ((إنَّ أعمالَ الجامعينَ الأوائل كأبي مخنف، سيف بن عمر، ابن إسحاق وابن الكلبي هيَ وفقاً لذلك مجرّدُ أكوامٍ منَ التقاليدِ التّراثيّةِ المتفاوتةِ التي لا تعكسُ شخصيّةَ أحد، أو أيّةَ مدرسة، أو زمان، أو مكان، وكما يروي ابنُ إسحاق الأخبارَ والأحاديثَ لمصلحةِ العراق، فإنَّ سيفَ العراقيّ لديهِ أخبارٌ وأحاديثٌ ضدَّ العراق، وكافّةُ المجاميعِ متّسمةٌ بإدراجِ مادّةٍ مساندة لدعمِ القناعاتِ الشّرعيّةِ والمذهبيّةِ المتعارضة)) بمعنىً آخر؛ مدارسُ الشّريعةِ المحليّةِ ببساطة قامت بتطويرِ أخبارٍ وأحاديثَ مختلفة، معتمدةً على الأعرافِ المحليّةِ السّائدةِ وآراءِ العلماءِ والفقهاءِ المحليّين، وقد أصبحَ العلماءُ والفقهاءُ مع الزّمن مدركينَ لهذا التنوّع، وشاهدوا بأمِّ أعينهم الحاجةَ إلى توحيدِ الشّريعةِ الإسلاميّة، وتمَّ إيجادُ الحلِّ في مناشدةِ الأخبارِ والأحاديثِ النبويّة، والتي لها مرجعيّةٌ وسلطةٌ أعلى من آراءِ الفقهاء. بدأت الأخبارُ والأحاديثُ المنسوبةُ للنبيِّ بالتضاعفِ والتكاثر حوالي عام 820 م وما بعد، لنأخذ مثالَ السيرة، والتي تعطينا أفضلَ مادّةٍ متوفّرةٍ تحكي لنا عن حياةِ محمّد، إذ يبدو أنّها تستمدُّ بعضَ معلوماتها منَ القرآن، ومع أنَّ «الإسناد» يتمُّ اعتمادهُ لتحديدِ الأصالة (والذي بتنا نعرفُ أنّهُ مشتبه، كما سنرى لاحقاً)، فإنَّ أصالتهُ تعتمدُ على مرجعيّةِ القرآن، الذي هوَ بدورهِ باتت مصداقيّتهُ قيدَ السؤالِ والشكِّ أيضاً (وستتمُّ مناقشتهُ لاحقاً) فبحسبِ أقوالِ جي. دي لا فيدا، في مقالتهِ عن السيرة، إنَّ مرحلةَ تشكّلِ

السيرةِ حتّى فترةِ تقلّصها واتّخاذها وضعها الشّرعيَّ الحاليَّ المعترفِ به يبدو أنّها حدثت على المراحلِ التّالية: ((التبجيلُ والاحترامُ المتزايدانِ باستمرار لشخصِ محمّد أثارا عمليّةَ نموٍّ وتضخّمٍ حولَ صورتهِ، كشخصيّةٍ تاريخيّةٍ أسطوريّةٍ ومؤلّهة، مؤسّسةٍ على ذكرياتٍ تاريخيّةٍ متفاوتةٍ في تحريفها وتحويرها، أمّا الحوادثُ التي عاشتها فمصاغةٌ على أساسِ التّراثِ الدينيِّ اليهوديِّ أو المسيحيّ (ربّما أيضاً الإيراني، إلى حدٍّ ما).)) ((إنّهُ يمضي للقولِ بأنَّ هذهِ المادّةَ أصبحت، منتظمةً ومنظّمةً ضمنَ مدارسِ المدينةِ منَ المحدّثين، من خلالِ المدراش، الدقيقِ والمليءِ بالتراكيب، مؤلّفاً من آياتٍ منَ القرآن، الأمرُ الذي أبهجَ المفسّرينَ وأسعدهم لاكتشافِ تلميحاتٍ تشيرُ إلى أحداثٍ مؤكّدةٍ في حياةِ النبيّ. بهذهِ الطريقةِ بالضّبط تمّت صياغةُ تاريخِ المدينة)) إذن، نحنُ أمامَ وثائقَ غيرِ موثوقةٍ وتفتقرُ لأصغرِ درجةٍ منَ المصداقيّة، إلّا أنَّ الموادَّ المبكرةَ تقدّمُ بعضَ المساعدة. كتابُ المغازي، وهو كتابٌ يتحدّثُ عن غزواتِ محمّدٍ ومعاركه، هوَ منَ الوثائقِ الإسلاميّةِ الأبكرِ والأقدمِ التي في متناولنا، فمن شأن هذهِ الوثائقِ أن تعطينا لمحةً أفضلَ عن تلكَ الفترة، إلّا أنّها لا تخبرنا سوى القليلِ عن حياةِ النبيِّ أو تعاليمه في الواقع، والغريبُ أنّهُ لا يوجدُ في أيِّ مكانٍ من هذهِ الوثائق تبجيلٌ لمحمّدٍ أو تأليهٌ لشخصه!.

4.1) التناقضات:

هناكَ إشكاليّةٌ أخرى تتخلّلُ التّراثَ الإسلاميّ، ألا وهيَ مشكلةُ التناقضات، الخلطُ والتعارضُ بالإضافةِ إلى الشذوذاتِ التي سيتمُّ توضيحها هنا. على سبيلِ المثال تسألُ كرونه هنا: ((ماذا سنفعلُ بتصريحاتِ البلاذري بأنَّ جهةَ القِبلةِ كانت نحوَ الغربِ في أوّلِ مسجدٍ في الكوفة... أنَّ هناكَ عدّةَ فواطم [جمعُ اسمِ فاطمة]، وأنَّ عليّاً أخو محمّدٍ في بعضِ الأحيان؟ هذا تراثٌ معلوماتهُ لا تعني شيئاً ولا تقودنا إلى أيِّ شيء)) بعضُ المؤلّفينَ كتبوا أخباراً وتقاريراً تناقضُ تقاريرَ أخرى كتبوها هم أنفسهم. الطّبريّ على سبيلِ المثال، غالباً ما يوردُ رواياتٍ مختلفة _ ومتضاربةً في بعضِ الأحيان_ لنفسِ الحادثة، والسؤالُ هنا إلى أيِّ مدى قامَ الطّبريّ بتحريرِ هذهِ المادّة، وإلى أيِّ حدٍّ بقيت مفتوحة، هل قامَ بانتقاءِ الأخبارِ التي استخدمها لكي يطوّرَ ويزيّنَ السّماتِ الرئيسيّةَ التي تميّزُ الدولةَ الإسلاميّة؟ نحنُ ببساطةٍ لا نعلم.

يخبرنا ابنُ إسحاق أنَّ محمّداً قد ظهرَ ضمنَ بيئةٍ يسودها الفراغُ السياسيُّ عندَ الدخولِ إلى يثربَ (المدينة)، لكنّهُ فيما بعد يخبرنا أنّهُ انتزعَ السّلطةَ من حاكمٍ كانَ يحكمُ المدينة، ابنُ إسحاقَ أيضاً يروي أنَّ يهودَ المدينةِ كانوا مساندينَ وخيرَ عونٍ لجيرانهم العرب، ومع ذلك كانوا يؤذونهم. أيٌّ من هذهِ الرواياتِ التّاريخيّةِ علينا تصديقها؟ كما تشيرُ كرونه: ((تمَّ نقلُ هذهِ الرواياتِ مع وجودِ إهمالٍ تامٍّ للواقعِ التّاريخيِّ للمدينةِ خلالَ تلكَ الفترة)).

إشكاليّةٌ أخرى تمثّلُ مرويّاتٍ متناقضةً ومتعارضةً منقولةً عن مجاميعَ مختلفة، العديدُ منها عبارةٌ عن أخبارٍ مختلفةٍ ومتضاربةٍ حولَ سمّةٍ عامّة. لنأخذ على سبيلِ المثال الرواياتِ الخمسَ عشرةَ المختلفةَ عن لقاءِ محمّدٍ برجلِ دينٍ من غيرِ الإسلاميّ يعترفُ بهِ كنبيٍّ مستقبليّ، بعضُ الرواياتِ تقولُ أنَّ هذا اللقاءَ حدثَ خلالَ طفولةِ محمّد، وأخرى تقولُ عندما كانَ في التّاسعةِ أو الثّانيةِ عشرَ من عمره، في حينِ أنَّ هناكَ رواياتٍ تقولُ أنّهُ التقى براهبٍ عندما كانَ في الخامسةِ والعشرينَ من العمر، تؤكّدُ بعضُ الأخبارِ والمرويّاتِ أنّهُ شُوهِدَ من قِبَلِ رهبانٍ مسيحيّينَ أثيوبيّين، أو يهود، في حينِ أنَّ مصادرَ أخرى تؤكّدُ أنَّ الذي رآهُ هوَ رائي أو كاهن إمّا في مكّة، أو عكاظ. تستنتجُ كرونه أنَّ ما لدينا هنا الآن عبارةٌ عن ((خمسَ عشرةَ نسخةً خياليّةً مختلفةً لحدثٍ ربّما لم يحصل)) لذلكَ منَ الصّعبِ جدّاً تقريرُ التقاريرِ الأصليّةِ منَ التي يجبُ استبعادها، هذهِ المشكلةُ هيَ التي تربكُ اليومَ المسلمينَ والمستشرقينَ على حدٍّ سواء.

1. 5) التماثلات:

من جهةٍ أخرى، العديدُ منَ الأخبارِ والتقاريرِ التّراثيّةِ تعكسُ نفسَ المادّةِ التي تعكسها غيرها منَ التقاريرِ الأخرى، دلالةً على تكرارِ نفسِ كمّيّةِ البياناتِ خلالَ القرون ومن دونِ أيّةِ إشارةٍ إلى منشأها وأصلها. لنأخذ على سبيلِ المثال «تاريخَ الطّبريّ» الذي يتناولُ حياةَ محمّد، وهذا العملُ يشبهُ إلى حدٍّ كبيرٍ سيرةَ ابنِ هشام، ونفسُ الأمرِ ينطبقُ على «تفسيرهِ للقرآن»، والذي بدورهِ يشبهُ إلى حدٍّ كبير صحيحَ البخاريِّ الذي يجمعُ فيهِ أحاديثَ محمّد، وبسببِ التشابهاتِ والتماثلاتِ القائمةِ بينَ هذهِ الأعمالِ ذاتِ التّواريخِ المتأخرة، يبدو أنّها تشيرُ إلى مصدرٍ واحدٍ مبكر يعودُ إلى القرنِ التّاسع، هوَ نفسُ المصدرِ الذي تستمدُّ كافّةُ الكتبِ الأخرى مادّتها منه، هل يفترضُ ذلكَ مادّةً «شرعيّةً» أجازها

العلماء؟ أمرٌ محتمل، لكن ليسَ هناكَ أيُّ سبيلٍ للتأكّد، لذلك، هذهِ الموادُ تخلقُ مشكلاتٍ هائلةً للمؤرّخينَ الذينَ يعتبرونها أصليّةً إذا كانت هناكَ بياناتٌ قابلةٌ للملاحظة، والتي يمكنُ تقييمها بموضوعيّةٍ لاشتقاقها من خارجِ المصادرِ الثّانويّةِ نفسها، كالمصادرِ الأوّليّةِ التي اقتُبِسَت منها هذهِ الأحاديثُ والأخبار، ومع ذلك لدينا القليلُ لنشيرَ إليه، والسؤالُ الذي يجبُ طرحهُ هنا: هل كانَ لتلكَ المصادرِ الأوّليّةِ أيُّ وجودٍ في الأصل، وإذا كانَ الأمرُ كذلك هل سنكونُ قادرينَ على تحديدها ومعرفتها، معتمدينَ على المادّةِ الثّانويّةِ التي في متناولنا؟

6.1) التضخّم:

مشكلةٌ أخرى نواجهها تشوبُ هذا التّراث، ألا وهيَ مشكلةُ التضخّم، كما ذكرنا من قبل، بدأت هذهِ الأعمالُ في الظهورِ خلالَ القرنِ الثّامنِ وما بعده؛ أي من 200 إلى 300 بعدَ وقوعِ الأحداثِ التي تشيرُ إليها، ثمَّ تضخّمت وتزايدت حتّى بلغت المئات، ثمَّ الآلاف، لماذا، وكيفَ يمكنتنا تفسيرُ هذا التضخّم؟ لنأخذ حادثةَ وفاةِ عبدِ الله، والدِ محمّد، فقد اتّفقَ جامعو أخبارِ أواخرَ القرنِ الثّامن (ابن إسحاق ومعمر) أنَّ عبدَ الله ماتَ باكراً وتركَ محمّدَ يتيماً، أمّا بالنسبةِ لأسبابِ الوفاةِ والظّروفِ التي مات فيها، فاللهُ أعلم،لكن فيما بعد، وخلالَ القرنِ التّاسع، يبدو أنَّ أحداً ما عرف، فالواقدي، الذي كتبَ بعدَ مرورِ خمسينَ عاماً لا يخبرنا فقط عن زمنِ وفاةِ عبدِ الله، بل الطريقةِ التي ماتَ بها، والمكانِ الذي ماتَ فيه، وماذا كانَ عمره، ومكانُ دفنهِ بالضّبط. وحسبما يقولُ مايكل كوك: ((هذا التطوّرُ في مسارِ الأحداث خلالَ نصفِ قرنٍ من حالةِ اللايقين وعدمِ المعرفةِ إلى الغزارةِ والوفرةِ في التفاصيلِ الدقيقة يخبرنا أنَّ تلكَ الكمّيّةَ غيرَ القليلةِ منَ المعلوماتِ التي عرفها الواقديّ لم تكن معروفة)) وهذا أمرٌ معروفٌ عن الواقديّ ومألوفٌ منه، فهوَ لطالما كانَ يريدُ أن يعطي تواريخَ دقيقة، مواقع، وأسماءً بحدِّ عينها حيثُ لم يكن يمتلكها ابنُ إسحاقَ نفسه. تقولُ كرونه في كتابها: ((ليسَ منَ المستغربِ أنَّ الفقهاءَ وعلماءَ المسلمين كانوا مولعينَ بالواقدي: فأينَ يمكنُ لأيِّ أحدٍ أن يعثرَ على معلوماتٍ دقيقةٍ وتفصيليّةٍ عن أيِّ شيءٍ يرغبُ بمعرفته؟ لكن بالنظرِ إلى أنَّ أغلبَ هذهِ المعلوماتِ لم تكن معروفةً لابنِ إسحاقَ قبله، فقيمتها مشكوكٌ فيها إلى أبعدِ حدّ. وإذا كانت المعلوماتُ

المزوّرةُ قد تراكمت بهذهِ النسبةِ خلالَ الجيلينِ بينَ ابنِ إسحاقَ والواقديّ، فإنّهُ منَ الصّعبِ جداً تجنّبُ النتيجةِ التي تفرضُ نفسها أمامنا، أنّهُ لابدَّ أنَّ هناكَ المزيدَ جرت مراكمتهُ خلالَ الأجيالِ الثلاثةِ التي تفصلُ بينَ النبيِّ وابنِ إسحاق)) من هنا، ومن دونِ أيِّ رقابةٍ أو ضبط، أو الرغبةِ للقيامِ بأيِّ توثيق، تجاوزَ جامعو الأخبارِ أنفسهم المهمّةَ التي يجدرُ بهم تأديتها.

علماءُ المسلمينَ الذينَ يعونَ عمليّةَ التضخيمِ هذه، يبرّرونها من خلالِ المجادلةِ بأنَّ الدينَ الإسلاميَّ كانَ في بدايةِ استقرارهِ خلالَ هذهِ الفترة، لذلك، كانَ منَ الطبيعيِّ أن تظهرَ الأعمالُ الأدبيّةُ المتنوّعة، فهم يقولونَ أنَّ المادّةَ المكتوبةَ الأبكر لم تعد ذاتَ صلةٍ أو علاقةٍ بالإسلام الجديد، ولذلكَ تمَّ استبعادُ الموادِ المبكرةِ أو فقدانها. في حينِ أنَّ هناكَ تصديقاً واعتماداً من نوعِ ما لهذهِ النظريّة، يمكننا افتراضُ أنَّ البعضَ من تلكَ الوثائقِ قد بقيت، قبعت منسيّةً ضمنَ قبوِ مكتبةٍ ما، أو ضمنَ مجموعةِ أحدهم منَ الكتب، إلّا أنّهُ ليسَ هناكَ من شيء، وهذا أمرٌ مثيرٌ للشّكِّ والريبة، والأهمُّ من ذلكَ هوَ ما إذا كانَ «النصُّ القرآنيُّ العثمانيّ» (أو التنقيحُ في صيغتهِ النهائيّة، والذي منَ المفترضِ أنَّ زيداً بنَ ثابت هوَ من جمعهُ وصاغهُ خلالَ الفترةِ ما بينَ 650-646 م، والذي هوَ مصدرُ قرآننا الحالي) سيكونُ متضمناً ضمنَ هذا السيناريو؟ بالتأكيدِ كانَ يعدُّ ذا صلة، إذ أنّهُ، وكما ذكرنا سابقاً، حسبَ التّراثِ والأخبار أنَّ جميعَ النسخِ والنصوصِ الأخرى جرى إحراقها وإتلافها على يدِ الخليفةِ عثمان بعدَ الانتهاءِ من عمليّةِ الجمعِ مباشرةً، تاركاً هذا النصَّ الوحيدَ، مصدراً لكلِّ النسخِ التي صُنِعَت لاحقاً، لكن أينَ هيَ تلكَ النسخُ اليوم، فالكسراتُ والنتفُ منَ النصِّ القرآنيِّ المبكر التي بينَ أيدينا لم يتمَّ تأريخها إلى ما قبلَ 690-750 م، هل سيرغبُ هؤلاءِ الذينَ يتمسّكونَ بموقفهم ذاك بالاعترافِ أنَّ هذهِ النسخَ الأربعةَ منَ القرآن أيضاً تمَّ استبعادها أو إتلافها لأنّها لم تعد تمتُّ للإسلامِ الجديدِ بأيِّ صلة؟ إضافةً إلى ذلك، العددُ الكلّيُّ للأحاديثِ التي ظهرت فجأةً خلالَ القرنِ التّاسع تخلقُ لنا حالةً منَ الشكِّ والريبة، فقد قيلَ أنّهُ خلالَ منتصفِ القرنِ التّاسع بلغَ العددُ الإجماليُّ للأحاديث 600000 حديثٍ، أو رواياتٍ مبكرةٍ عن النبيّ.

في الواقع، حسبما جاءَ في التّراث أنَّ تلكَ الأحاديثَ كانت كثيرةً جدّاً لدرجةِ أنَّ

الخليفةَ الحاكم طلبَ منَ البخاريِّ أن يجمعَ الأقوالَ الصحيحةَ للنبيِّ ويختارها بعنايةٍ من أصلِ 600000 حديث. منَ الواضحِ أنّهُ حتّى في هذهِ الفترة، كانَ هناكَ شكٌّ يدورُ حولَ أصالةِ أغلبِ تلكَ الأحاديث، لم يذكر البخاريُّ المعاييرَ التي اتّبعها في الاختيار، ما عدا تصريحاتٍ مبهمةٍ مثل «ليسَ بثقة» أو «غيرُ ملائم»، في النهاية، استبقى على 7397 منَ الأحاديث، أو بالكادِ ما يعادلُ 1.2٪ من مجموعِ العددِ الكلّيّ، بأيِّ حال، فاسحاً المجالَ للتكرار، بلغَ المجموعُ الصافيّ 2762، جمعها من بينِ 600000؛ هذا يعني أنّهُ من بينِ 600000 حديثٍ، هناكَ 592603 حديثاً مزيّفاً، وكانَ يجبُ استبعادها، وهذا بدورهِ يعني أنَّ حوالي 99٪ من هذهِ الأحاديث عُدَّت مزيّفة. ألا يفتقرُ هذا الأمرُ الاعتقادَ بصلاحيّةِ ومصداقيّةِ التّراث؟ من سخريةِ القدر أنَّ هذا النوعَ من السيناريو فقط هوَ الذي يخلقُ حالةً منَ الشكِّ والريبة حولَ أصالةِ أيٍّ من تلكَ الأحاديث. من أينَ جاءت هذهِ الأحاديثُ الستمائةِ ألف إذا كانَ أغلبها يعدُّ مزيّفاً، هل نمتلكُ أيَّ دليلٍ على وجودها قبلَ ذلكَ الوقت؟... على الإطلاق! إنَّ حقيقةَ أنَّ هذهِ الأحاديثَ ظهرت فجأةً خلالَ هذهِ الفترة (القرنِ التّاسع، أو 250 سنةً مضت على الأحداثِ التي تتكلّمُ عنها)، وتمَّ رفضها بهذا الشّكل الفجائيّ، تشيرُ إلى أنّها تمَّ اختلاقها وابتكارها ثمَّ تبنّيها في ذلكَ الوقت، وأنّها ليست نتائجَ وقتٍ أبكر، وهنا يتكرّرُ مع ما وردَ في وقتٍ أسبق على لسانِ شاخت فيما يتعلّقُ بدافعِ جامعيّ أخبارِ القرنِ التّاسعِ وحاجتهم لتصديقِ وإثباتِ صحّةِ القوانينِ والشّرائعِ المستعارة، من خلالِ إيجادِ الصلةِ مع النبيّ. وفي خضمِّ استعجالهم وعجلتهم تلك، استعاروا الكثيرَ منَ الأمورِ بشكلٍ متحرّر، الأمرُ الذي بدورهِ، أجبرَ العلماءَ على المضيِّ وتقديسِ تلكَ الأحاديثِ التي عدّوها داعمةً لجدولِ أعمالهم وأجندتهم. ذلكَ يتركنا أمامَ مشكلةٍ أخرى: كيفَ قرّروا أيّاً منَ تلكَ الأحاديثِ كانَ موثوقاً وأصيلاً وأيّها يفتقرُ لذلك.

1. 7) الإسناد:

للإجابةِ على هذا السؤال، يؤكّدُ العلماءُ المسلمونَ أنَّ الوسائلَ الأوّليّةَ للاختيارِ بينَ الأحاديثِ الأصيلةِ والمزوّرة كانت تتمثّلُ في عمليّةِ الإرسالِ الشفهيِّ التي تعرفُ باسمِ «الإسناد». وهذا هوَ العلمُ الذي اعتمدهُ البخاريّ، الطّبريّ والعديدُ من جامعي

أخبارِ القرنِ العاشر لتصديقِ أخبارهم وإضفاءِ المصداقيّةِ عليها. ومن أجلِ معرفةِ من هوَ المؤلّفُ الأصليُّ للعديدِ منَ الأحاديثِ التي في متناولهم، قدّمَ جامعو الأخبارِ لائحةً منَ الأسماءِ تعودُ عبرَ سلسلةٍ من العنعناتِ إلى المؤلّفِ الأصليِّ الذي عايشَ النبيَّ نفسه. وبسببِ أهمّيّةِ هذا الموضوع بالنسبةِ لنقاشنا، علينا أن نقدّمَ شرحاً وافياً لهذا العلمِ المسمّى بالإسناد: في سبيلِ إضفاءِ المصداقيّةِ والموثوقيّةِ على الحديثِ، أو الرّواية، كان يتمُّ إرفاقُ سلسلةٍ منَ الأسماءِ قبلَ كلِّ وثيقةٍ تشيرُ افتراضيّاً إلى الشّخصِ الذي جرى نقلُ الحديثِ عنه، كانَ الأمرُ عبارةً عن سلسلةٍ منَ الأسماءِ والرّواة: عن فلانٍ قال، قالَ فلانٌ بنُ فلان، عن فلان... عن الفلانِ الذي عاصرَ النبيَّ... عن النبيِّ أنّهُ قال، وفي حينِ أنّنا في الغربِ نجدُ أنَّ الإرسالَ الشفهيَّ أمرٌ مثيرٌ للشكوكِ وغيرُ جديرٍ بالثّقة، إلّا أنّهُ كانَ شائعاً في العالمِ العربيِّ، بل كانَ بمثابةِ العربةِ التي حملت كاملَ تاريخهم ونقلتهُ إلينا. ومشكلةُ الإرسالِ الشفهيِّ هيَ في طبيعته، إذ أنّهُ يفسحُ المجالَ للتحريفِ والتلاعبِ بها أنّهُ ليسَ هناكَ أيُّ صيغةٍ أو وثيقةٍ مكتوبةٍ للرجوعِ إليها، لذلك، يمكنُ التلاعبُ بهِ بسهولةٍ وذلكَ حسبَ أهواءِ وأهدافِ وأجندةِ النّاقل (الأمرُ شبيهٌ جدّاً بلعبةِ الأطفال «همسات صينيّة») كانَ علمُ الإسنادِ بالنسبةِ للمسلمينَ الأوائل يعدُّ جوهريّاً وأساسيّاً، فهوَ يشيرُ إلى أولئكَ الذينَ ألّفوا الوثيقة، لكنَّ ما يهمّنا هنا هوَ كيفَ لنا أن نعرفَ أنَّ تلكَ الأسماءَ كانت أصليّة، هل هذا الشّخصُ الذي ينسبُ إليهِ الإسنادُ صادقٌ وينقلُ ما قيلَ بشكلٍ صادقٍ وموثوق؟

جامعُ الأخبار، من أجلِ إضفاءِ بعضِ المصداقيّةِ على كتاباته، سيدرجُ أسماءَ أشخاصٍ معروفينَ تاريخيّاً في إسناده، وهذا الأمرُ مشابهٌ لما نقومُ بهِ اليومَ عندما نطلبُ من أشخاصٍ وأفرادٍ بارزين كتابةَ تصديرٍ لكتبنا. كلّما كانت اللائحةُ أكبرَ في السلسلة كلّما اكتسبت مصداقيّةً وموثوقيّةً أعظم، لكن بخلافِ أولئكَ الذينَ يكتبونَ التصديراتِ لكتبنا اليوم، لم يكن جامعو أخبارِ القرنِ التّاسع يملكونَ أيَّ توثيقٍ ليثبتوا أنَّ مصادرهم كانت أصيلةً وموثوقة، فهؤلاءِ الأشخاصُ الذينَ أُضيفَت أسماؤهم ماتوا منذُ فترةٍ طويلةٍ جدّاً، ومن غيرِ الممكنِ استدعاؤهم للشّهادةِ على صدقِ الأقوالِ التي نقلوها، والغريبُ أنَّ ((الإسنادَ لديهِ الميلُ للنموِّ والاتّساعِ إلى الوراء، إذ أنّهُ في نصوصٍ باكرةٍ معيّنة يمكنُ ملاحظةُ أنَّ تصريحاً ما ينسبُ إلى أحدِ خلفاءِ بني أميّة، على سبيلِ المثال، أو قد لا يُنسب،

كما في حالةِ مبادئ وتشريعاتٍ قانونيّةٍ معيّنة، في مكانٍ آخر، نفسُ التصريحاتِ نجدها على شكلِ أحاديثَ أو أخبارٍ مع سلسلةٍ طويلةٍ منَ الإسنادِ تعودُ إلى محمّدٍ أو أحدِ صحابته)) لذلكَ منَ المرجّح أنّهُ جرى استخدامُ الإسنادِ لإضفاءِ نوعٍ منَ المصداقيّةِ على أحاديثَ معيّنة ((منَ الواضحِ أنّها تتعلّقُ بأمورٍ لها علاقةٌ بمجتمعٍ جاءَ بعدَ أجيالٍ كثيرةٍ من وفاةِ محمّد، لكن تمّت قولبتها وتشكيلها على شكلِ توقّعاتٍ مستقبليّةٍ تنبّأ بها هوَ)) هذهِ الأسانيدُ والأحاديثُ التي تمنحها مصداقيّةً مفترضةً هيَ بالكادِ تشهدُ للعقيدةِ والأفكارِ التي اختارَ المفسّرونَ الإيمانَ بها، فكيفَ إذن لنا يمكنُ اعتبارهُ كحقائقَ تاريخيّة، والتي بدورها تضعفُ تلكَ الأفكارَ والمعتقداتِ التي تسعى للاتصالِ بها. إذن؛ منَ الواضحِ أنَّ الأسانيدَ بدلاً من أن تدعمَ أو تثبتَ المادّةَ التي نجدها في التّراثِ الإسلاميّ، فإنّها تسبّبُ بدلاً من ذلكَ مشاكلَ أعظمَ وأكبر، إذن؛ نحنُ أمامَ حالةِ إدراكِ أنّهُ من دونِ وجودِ عمليّةِ إرسالٍ مستمرّةٍ وغيرِ منقطعة بينَ القرنِ السّابعِ والعاشر، فلا يمكنُ النظرُ إلى الأحاديثِ إلّا بكونها نظرةً سريعةً للقرنينِ التّاسعِ والعاشرِ الميلاديين ولا شيءَ أكثر، إضافةً إلى ذلك، علمُ الإسنادِ بحدِّ ذاته، والذي وُضِعَ لإضفاءِ المصداقيّةِ على تلكَ الأسانيد لم يبدأ إلّا في القرنِ العاشرِ الميلادي؛ أي بعدَ مضيِّ فترةٍ طويلةٍ من جمعِ الأسانيدِ التي هيَ موضعُ السؤال، لذا فهيَ ليست ذاتَ صلةٍ كبيرةٍ بموضوعِ نقاشنا. في النهاية، ولأنّهُ علمٌ غيرُ دقيق وغيرُ مضبوط، فالطريقةُ الأكثرُ شيوعاً وانتشاراً بينَ مؤرّخي اليوم هيَ: كلّما كانت اللائحةُ أكبر، والتي تحتوي على أشهرِ الأعلامِ والأسماءِ التّاريخيّة، كلّما ازدادت الشكّوكُ في أصالتها، وبناءً عليه، فنحنُ لن نعرفَ مطلقاً ما إذا كانت الأسماءُ الواردةُ في لائحةِ الإسنادِ قد قدّمت أو حتّى استلمت المعلوماتِ التي ينسبُ إليها تصديقها.

1. 8) الرّاوي:

على الأرجحِ أنَّ أكبرَ مشكلةٍ تواجهنا عندَ استعمالِ التّراثِ الإسلاميِّ كمصادرَ تاريخيّةٍ هيَ مشكلةُ الإرسالِ أو النقل، ولفهمِ أعمقَ لهذهِ الحجّة نحنُ بحاجةٍ للنظرِ بشكلٍ أعمقَ إلى مئاتِ السنواتِ قبلَ ابنِ إسحاق (750 م)، وبعدَ وفاةِ محمّد عام (632 م)، منذُ ذلكَ الوقت، «أحبارُ المسلمينَ الذينَ نديْنُ لهم بسيرةِ محمّدٍ النبويّةِ لم يكونوا هم خزّاناتِ الذاكرةِ الأصليّةِ التي حفظت تراثَ النبيّ». طبقاً لما تقولهُ باتريشيا كرونه، الباحثةُ الدنماركيّةُ في

هذا المجالِ من نقدِ المصادر، نحنُ لا نعرفُ سوى القليلِ عن المادّةِ الأصليّة، إذ أنَّ التّراثَ والأخبارَ قد جرى إعادةُ قولبتها من جديد مع تعاقبِ الرّواةِ خلالَ فترةِ قرنٍ ونصفِ القرن، هؤلاءِ الرواةُ أطلقت عليهم تسميةُ «القُصّاص»، ويعتقدُ أنّهم هم من ألّفوا قصصهم ورواياتهم مستخدمينَ نموذجَ الأساطيرِ المذكورةِ في الكتابِ المقدّسِ، والتي كانت شائعةً آنذاك في كافّةِ أصقاعِ العالمِ البيزنطيِّ والمناطقِ المحيطةِ بهِ في ذلكَ الوقت، بالإضافةِ إلى القصصِ ذاتِ الأصولِ الفارسيّة. ومن قصصهم تلك نمى أدبٌ كاملٌ قائمٌ بذاتهِ ينتمي إلى أدبِ الروايةِ التّاريخيّةِ أكثرَ من كونهِ تاريخاً. ضمنَ هذهِ القصصِ والرّوايات هناكَ أمثلةٌ عن موادَ تمّ نقلها أو إرسالها عبرَ التّراثِ الشفهيِّ لأجيالٍ قبلَ أن يتمَّ تدوينها، وكانت تقسمُ إلى نوعين: المتواتر (مادّةٌ تمّ تناقلها بالتتابع)، والمشهور (مادّةٌ كانت معروفةً بشكلٍ جيّدٍ أو مشهورة) تؤكّدُ باتريشيا كرونه في كتابها «طريقُ مكّةَ التجاريّ وظهورُ الإسلام» أنَّ أغلبَ ما استلمهُ الجامعونَ المتأخرون جاءَ عن طريقِ القُصّاصِ الذينَ كانوا منَ الناحيةِ التّراثيّةِ بمثابةِ الخزّاناتِ الحقيقيّةِ للتّاريخ: ((... لقد كانَ القُصّاصُ هم من صاغوا التّراثَ الإسلاميّ. التّراثُ التّاريخيُّ الصحيحُ الذي منَ المفترضِ أنّهم أضافوا إليهِ بعضاً من خرافاتهم وفبركاتهم لم يكن موجوداً ببساطةٍ شديدة، وذلكَ لأنَّ القُصّاصَ لعبوا دوراً محوريّاً وحيويّاً في قولبةِ التّراثِ الذي لا يمتلكُ إلّا القليلَ منَ الصحّةِ التّاريخيّةِ أو الوقائعِ التّاريخيّةِ التي تشيرُ إليه، ومع تعاقبِ القُصّاص، فقد تحوّلَ الماضي إلى مجموعةٍ عاديّةٍ منَ القصص، السّماتِ، والمواضيعِ التي يمكنُ أن تُدمجَ ويُعادَ دمجها مرّةً أخرى في خضمٍّ وفرةِ الرّواياتِ الفعليّة. وكلُّ تركيبةٍ وإعادةِ دمجٍ سَتُوَلِّدُ تفاصيلَ جديدة، وخلالَ جمعِ المعلوماتِ المزوّرةِ الجديدة، ستضيعُ القديمةُ منها وتذهبُ طيَّ النسيان، وفي حالةِ عدمِ وجودِ تراثٍ بديل، كانَ الفقهاءُ مجبرينَ على الاعتمادِ على رواياتِ وقصصِ الرّواة، كما فعلَ كلٌّ من ابنِ إسحاق، والواقديّ، ومؤرّخينَ غيرهم، وذلكَ لأنّهم اعتمدوا على نفسِ الذخيرةِ منَ الرّوايات، ولذلكَ تكرّرت الأقوالُ والأحاديثُ في أعمالهم.)) لأنَّ الرّواياتِ والأخبارَ المبكرةَ والمكتوبةَ عن حياةِ محمّد لم تُكتَب حتّى أواخرِ فترةِ حكمِ السلالةِ الأمويّة (حوالي 750 م)، ترى كرونه أنَّ ((التّراثَ الدينيَّ الإسلاميَّ تحوّلَ إلى نُصُبٍ أدّى لدمارِ الإسلامِ المحمّديِّ بدلاً منَ الحفاظِ عليه)) وأنَّ ((هذا التّراثَ بالذّات معلوماتهُ لا تعني أيَّ شيءٍ، ولا تقودُ إلى أيِّ مكان))، لذلك، منَ

الواضح تماماً أنَّ التّراثَ الإسلاميَّ ببساطة غيرُ جديرٍ بالثّقةِ كما كانَ عندما تطوّرَ وتضخّمَ أكثرَ منَ اللاّزم خلالَ مسيرةِ انتقالهِ من جيلٍ لآخر.

في الواقع، يمكننا أيضاً أن نكرّرَ ما قلناهُ سابقاً: التّراثُ والأحاديثُ تكونُ ذاتَ معنىً فقط عندما تتحدّثُ عن الفترةِ التي كُتِبَت فيها، لا أكثرَ ولا أقلّ. هنالكَ الكثيرُ منَ الصعوباتِ والمشاكلِ تتخلّلُ التّراث؛ التّواريخُ المتأخّرةُ للمخطوطاتِ المبكرة، فقدانُ المصداقيّةِ بسببِ وجودِ أجنْداتٍ لاحقة، والتناقضاتُ الواضحةُ عندما نقرأها بشكلٍ دقيق، بالإضافةِ إلى عمليّةِ التضخّمِ والتنامي الرّاجعةِ لعمليّةِ التنقيحِ الشّرسةِ على يدِ الرّواةِ والقُصّاص، والعلمُ غيرُ المضبوطِ الذي يُسمّى بالإسناد الذي يُستخدمُ للتحقّقِ والإثبات. هل لنا أن نستغربَ أنَّ المؤرّخينَ، في حينِ أنّهم التزموا بالإشارةِ إلى المادّةِ التي قدّمها التّراثُ الإسلاميّ (بسببِ حجمها ومجالها)، يفضّلونَ أن يجدوا تفاسيرَ بديلةً لأفكارٍ ونظريّاتٍ مقبولةٍ تقليديّاً، في حينِ أنّهم يبحثونَ في مكانٍ آخر عن مادّةٍ مصدريّةٍ أخرى مغايرة؟ طالما أنّهُ أُشِيرَ سابقاً إلى القرآن، فمنَ الطبيعيِّ والمنطقيِّ العودةُ إليه، كما أنَّ هناكَ العديدَ من علماءِ المسلمينَ الذينَ يزعمونَ أنَّ القرآنَ نفسهُ هوَ الذي يقدّمُ لنا أفضلَ مصدرٍ لأصالتهِ موثوقيّته، وليسَ التّراثُ أو الأخبارُ أو الأحاديث.

2) النقدُ الداخليُّ للقرآن:

في حينِ أنَّ المسلمينَ ينظرونَ نظرةَ احترامٍ وتقديسٍ لكافّةِ الكتبِ والنصوصِ المقدّسة، ومن ضمنها العهدانِ القديمُ والجديد، إلّا أنّهم يطالبونَ بمنحِ مكانةٍ عاليةٍ وميّزةٍ وخاصّةٍ للقرآن، زاعمينَ أنّهُ مترفّعٌ ومتفوّقٌ على كلِّ الكتبِ المقدّسةِ الأخرى، لأنّهُ ـ حسبَ زعمهم ـ منَ الناحيةِ المبدئيّة، لم يُكتَب من قِبَلِ البشر ولم تعكّرهُ أفكارُ البشرِ ورغباتهم وأهوائهم، ولسببٍ كهذا غالباً ما كانَ يشارُ إليهِ على أنّهُ «أمّ الكتاب»[1] أو أصلُ جميعِ الكتب.

2. 1) صياغةُ القرآن:

يزعمُ المسلمونَ أنَّ تفوّقَ القرآنِ على جميعِ الكتبِ مردّهُ إلى بنيتهِ المعقّدةِ وأسلوبهِ

(1) من سورةِ البروج 43: الآيتان 3-4.

الأدبيّ البليغ. وهم يقتبسونَ آياتٍ من سورةِ يونس التي تقول: {وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [10: 38-37]، ومن سورةِ الإسراء: {قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا} [17: 88] ويتردّدُ صدى ذلكَ في كتبِ التفسيرِ التي تقول: ((هذا بيانٌ لإعجازِ القرآنِ وأنّهُ لا يستطيعُ البشرُ أن يأتوا بمثلِهِ ولا بعشرِ سورٍ ولا بسورةٍ من مثلِهِ لأنّهُ بفصاحتِهِ وبلاغتِهِ ووجازتِهِ وحلاوتِهِ واشتمالِهِ على المعاني العزيزةِ والغزيرةِ النّافعةِ في الدنيا والآخرة لا تكونُ إلّا من عندِ اللهِ الذي لا يشبهُهُ شيءٌ في ذاتِهِ ولا في صفاتِهِ ولا في أفعالِهِ وأقوالِهِ، فكلامهُ لا يشبهُ كلامَ المخلوقين ولهذا قالَ تعالى: (وما كانَ هذا القرآنُ أن يُفترى من دونِ الله)؛ أي مثلُ هذا القرآنِ لا يكونُ إلّا من عندِ اللهِ ولا يشبهُ هذا كلامَ البشر)).[1]

الإعجاز:

يستدلُّ المسلمونَ أنّهُ بما أنَّ ليسَ هناكَ أيُّ مكافئٍ أدبيٍّ في الوجود، فهذا يثبتُ أنَّ القرآنَ معجزةٌ منزلةٌ من عندِ الله، وليسَ مكتوباً بيدِ البشر، هذا الأمرُ هوَ مصدرُ فرادتِهِ، إعجازِهِ، والذي يظنُّ المسلمونَ أنّهُ يثبتُ أصلهُ الإلهيَّ ويضعهُ في مصافِ المعجزاتِ الإلهيّة، ويؤكّدُ دورَ محمّد بالإضافةِ إلى أصالةِ الإسلامِ ومصداقيّته،ومع ذلك، فالقرآنُ نفسهُ يثيرُ في أنفسنا شكوكاً بالنسبةِ إلى صياغتِهِ المبكرة، وبالتأكيدِ يخلقُ لدينا شكوكاً تتعلّقُ بإعجازِهِ ومعجزته.

في الواقع، نحنُ نعلمُ أنّهُ حتّى نهايةِ القرنِ العاشرِ الميلادي ظهرت فكرةُ الإعجازِ وأخذت شكلها النهائيَّ وصيغتها النهائيّة، وبشكلٍ خاصّ كردِّ فعلٍ تجاهَ الكتاباتِ الجدليّةِ المسيحيّةِ التي نبشت تلكَ العيوبَ في ذلكَ الوقت. هناكَ بعضُ المسلمينَ الذينَ يتساءلونَ عمّا إذا كانَ التشكيكُ في الإعجازِ أمراً ملائماً للقرآن. سي. جي. فاندر، الباحثُ في الإسلام، أشارَ عام 1835 أنَّ ((من دونِ شكّ إنَّ الرأيَ العالميَّ للعلماءِ المسلمينَ غيرِ

(1) تفسيرُ القرآن لابنِ كثير، أنظر تفسير الآيات.

المتحيّزين أنَّ الأسلوبَ الأدبيَّ للقرآنِ أرفعُ وأرقى من كلِّ الكتبِ الأخرى باللغةِ العربيّة. البعضُ يشكُّ أنّهُ يفوقُ معلّقاتِ امرئِ القيسِ من ناحيةِ الشعرِ والفصاحةِ والبلاغة، أو مقاماتِ الحريريّ، إلّا أنّهُ في العالمِ الإسلاميِّ لا يملكُ سوى البعضِ القليلَ منَ الشّجاعةِ للتعبيرِ عن آرائهم هذه)) يتوسّعُ فاندر بدراستهِ المقارنةِ بينَ القرآنِ والتوراة، فيقول: ((عندما نقرأُ العهدَ القديمَ باللغةِ العبريّةِ الأصليّة، يرى العديدُ منَ الباحثينَ أنَّ الفصاحةَ والبلاغةَ في سفرِ إشعيا، سفرِ التثنية، والعديدِ منَ المزاميرِ الأخرى _على سبيلِ المثال_ أرقى وأعمقُ وأعظمُ من أيِّ جزءٍ أو سورةٍ في القرآن. بالكادِ ستجدُ أيَّ أحدٍ _باستثناءِ المسلمين_ سينكرُ هذا الأمر، وعلى الأرجحِ أيُّ مسلمٍ ملمٍّ باللّغتينِ العربيّةِ والعبريّةِ بشكلٍ جيّد سينكرُ ذلك)).

الضعفُ البنيوي:

مقارنةٌ بسيطةٌ مع الكتابِ المقدّس ستسلّطُ الضوءَ على بعضِ المشكلاتِ الأخرى. إذا بدأ أيُّ شخصٍ يعرفُ الكتابَ المقدّسَ بشكلٍ جيّد بقراءةِ القرآن سيتبيّنُ لهُ مباشرةً أنَّ القرآنَ هوَ من نوعٍ أدبيٍّ مختلفٍ تمامَ الاختلاف، بكافّةِ مزاياهُ الشعريّة، وحيثُ أنَّ الكتابَ المقدّسَ يحتوي الكثيرَ من الرّواياتِ التّاريخيّة، فالقرآنُ يحتوي القليلَ منها، بينما الكتابُ المقدّس يتجاوزُ سياقةَ لتوضيحِ ألفاظٍ أو مجالاتٍ مكتبيةٍ تتضمّنُ ستّةً وستّينَ كتاباً، مكتوباً على مدى 1500 سنة وتظهرُ أنّها مرتّبةٌ حسبَ تسلسلٍ زمنيٍّ بالمواضيعِ والسّمات.

القرآنُ، من ناحيةٍ أخرى، يُقرأُ كمجموعةٍ مختلطةٍ وغيرِ متظمةٍ منَ التصريحاتِ والأفكار، الكثيرُ منها ليسَ لهُ صلةٌ أو علاقةٌ بالآياتِ والسّورِ اللاّحقة. العديدُ منَ العلماءِ يعترفونَ أنَّ القرآنَ عشوائيٌّ جداً وفوضويٌّ للغاية في تركيبهِ حتّى أنّهُ يستلزمُ أعلى مستوىً منَ الحسِّ بالواجبِ عندَ أيِّ شخصٍ يريدُ الخوضَ فيه. الباحثُ الألمانيُّ سالمون ريناخ يقولُ في تحليلهِ الجادّ: ((من وجهةِ نظرٍ أدبيّةٍ بحتة، القرآنُ لا يمتلكُ أيّةَ ميّزاتٍ أو مزايا. كلامٌ خطابيٌّ، تكرار، عباراتٌ طفوليّة، افتقارٌ تامٌّ للمنطقِ والتناسقِ يصدمُ القارئَ عندَ كلِّ منعطفٍ فيه. منَ الغريبِ والمهينِ جداً للذّكاءِ والفطنةِ البشريّةِ الاعتقادُ أنَّ هذا النوعَ من الأدبِ العاديِّ كانَ موضوعَ تفسيراتٍ وأبحاثٍ وتأويلاتٍ لا تحصى، وأنَّ

ملايينَ البشرِ ما زالوا يهدرونَ وقتهم بالاستغراقِ فيه)) في سياقٍ مماثلٍ، نصّت موسوعةُ مكليتوك وسترونغ أنَّ: ((إنَّ مسألةَ القرآنِ هيَ مسألةٌ معقدةٌ ومفكّكةٌ جدّاً وشموليّة، إذ منَ الواضحِ أنَّ الكتابَ كانَ من دونِ أيِّ ترتيبٍ أو فكرٍ منطقي سواءٌ ككلٍّ أو كأجزاء كلُّ جزءٍ على حدة، وهذا يوافقُ الأسلوبَ المفكّكَ والعرضيَّ والاستطراديَّ الذي قيلَ أنّهُ تمَّ استلامهُ به)).

العيوبُ الأدبيّة:

حتّى المسلمُ السّابقُ علي الدشتي عوّلَ على العيوبِ اللّغويّةِ في القرآنِ، قائلاً: ((والحالُ، أنَّ لغةَ القرآنِ تشتملُ على جملٍ غيرِ مكتملةٍ تظلُّ مستغلقةً تماماً وبعيدةً عن الإفهام لولا شروحُ المفسّرين، وعلى كلماتٍ غريبةٍ ليست من كلامِ العرب، وكلماتٍ عربيّةٍ غيرِ مألوفة، وكلماتٍ مستخدمةٍ بغيرِ معانيها المعتادة، وعلى نعوتٍ وأفعالٍ تصرّفُ دونَ التزامٍ بمقتضياتِ الجنسِ والعدد، وعلى ضمائرَ تستخدمُ على نحوٍ غيرِ منطقيّ ودونَ التزامٍ بالقواعد، ودونَ أن يكونَ لها مرجعٌ أو إحالةٌ في بعضِ الأحيان، وعلى ضروبٍ منَ المفعولِ بهِ غالباً ما تكونُ في المقاطعِ الموقّعةِ بعيدةً عن فاعليها. ومثلُ هذهِ الضّروبِ منَ الزّيغِ في اللّغة هيَ ما أفسحَ المجالَ للنقّادِ الذينَ ينكرونَ بلاغةَ القرآن، بل إنَّ هذهِ المشكلةَ قد شغلت أيضاً عقولَ المسلمينَ الأتقياءِ أنفسهم، فقد اضْطُرَّت إلى السعيِّ وراءَ التعليلات ولعلّها كانت واحدةً من أسبابِ الخلافِ على القراءات)) خلالَ قراءةِ سورِ القرآن سرعانَ ما يلاحظُ الفردُ أنّها تفتقرُ إلى التسلسلِ التّاريخيّ. فحسبَ التّراثِ الإسلاميّ، السّورُ الأطولُ التي في بدايةِ القرآن هيَ السّورُ التي نزلت لاحقاً، وأنَّ السّورَ الأقصرَ التي يختتمُ بها القرآن كانت تعتبرُ أنّها الأقدمُ والأبكر، ومع ذلك، هذهِ المصادرُ نفسها تخبرنا أنَّ هناكَ سوراً معيّنةً تشتملُ على آياتٍ مكّيّةٍ ومدنيّةٍ معاً؛ أي آياتٍ مبكرةٍ ومتأخرة، لذلكَ منَ الصّعبِ جدّاً معرفةُ أيِّ التصريحاتِ في القرآن هيَ المبكرةُ وأيٌّ منها المتأخّرة.

مشكلةٌ أخرى وهيَ مشكلةُ التكرار، فقد أخبرونا أنَّ القرآنَ قد جرى حفظهُ في صدورِ أشخاصٍ أمّيّينَ غيرِ مثقّفينَ أو متعلّمين، لذا فهوَ يغرقُ في مبدأِ التكرارِ اللانهائيِّ

لنفسِ المادّة، هذا كلّهُ يقودُ إلى نوعٍ منَ الارتباكِ والحيرةِ عندَ القارئِ العادي، ويبدو أنّهُ يشيرُ إلى تصميمٍ حافلٍ بالذكرياتِ للرّواةِ والقُصّاصِ الذينَ ذكرتهم سابقاً. القرآنُ يحتوي على عيوبٍ وأخطاءَ أدبيّةٍ أخرى ((المادّةُ ضمنَ سورٍ فرديّةٍ تقفزُ من موضوعٍ لآخر، بمضاعفاتٍ وتضارباتٍ ظاهرةٍ في القواعدِ اللغويّة، التشريعِ واللاّهوت)) اللّغةُ نصفُ شعريّة، بينما قواعدها، بسببِ التعديلِ والحذف، فبيضاويّةٌ للغايةِ وغالباً ما تكونُ غامضةً ومبهمةً وملتبسةً في بعضِ الأحيان، هنالكَ تعارضٌ قواعديٌّ (كاستخدامِ الضمائرِ في صيغةِ الجمع مع أمورٍ مفردة)، وتغيّراتٌ في التعاملِ مع أسماءِ الجنْس (على سبيلِ المثال أنظر سورةَ البقرة 2: 177، آل عمران 3: 59، النّساء 4: 162، المائدة 5: 69، الأعراف 7: 160، والمنافقون 63: 10). في الكثيرِ منَ الأوقات تُترَكُ الجملُ من دونِ أفعال، على افتراضٍ أنّ القارئَ حسنُ الاطّلاع، وهيَ لا تمتلكُ سوى بضعةِ تفسيرات، ولذلكَ منَ الصّعبِ جدّاً قراءتها، ولكنَّ هذهِ الأمورَ ليست هيَ المشكلاتِ البنيويّةَ الوحيدة. إذ تشيرُ باتريشيا كرونه إلى أنّهُ ((داخلَ بنى الآياتِ هناكَ عمليّةُ إزاحةٍ مبتذلةٌ تحدثُ بشكلٍ مفاجئٍ ومتكرّر، فقد يظهرُ اللهُ في الشّخصِ الأوّلِ أو الثّالثِ في الجملةِ نفسها. قد يكونُ هناكَ بعضُ حالاتِ الإسقاطِ والإغفال، والتي إن لم يتمّ تفسيرها بشكلٍ جيّدٍ ووافٍ، فستكونُ مبهمةً وخاليةً منَ المعنى))، وكاستجابةٍ على هذهِ الاتّهامات، النحويُّ اللاّهوتيُّ «الرومانيّ» [توفّيَ سنةَ 996م] يقولُ أنَّ الحذوفاتِ والمخالفاتِ القواعديّةَ كانت أدواتٍ بلاغيّةً إيجابيّةً جدّاً بدلَ أن تكونَ دليلاً على التسرّعِ أو الإهمالِ في الكتابة. هذهِ الحجّةُ منَ المستحيلِ تقييمها، وذلكَ مردّهُ إلى الافتقارِ إلى أيِّ أدبٍ دنيويٍّ معاصر يمكنُ إجراءُ المقارنةِ معهُ. فهذا من شأنهِ أن ((يجعلَ منَ الحجّةِ حجّةً دوغمائيّة... لكنّها ستكونُ فعّالة (على غرارِ العديدِ منَ الحججِ الدينيّةِ الأخرى) ضمنَ إطارِ الإسلامِ وحده))، ومع ذلك، كانت هناكَ محاولاتٌ من قبلِ علماءٍ غيرِ مسلمين لنقضِ المزاعمِ الواردةِ أعلاه بالتعرّضِ للسّببِ الحقيقيِّ لهذهِ المخالفات. الكنديّ، فيلسوفٌ وخبيرٌ جدليٌّ مسيحيٌّ كانَ موظّفاً في محكمةِ الخليفة، خاضَ نقاشاتٍ مع مسلمينَ حوالي عام 830 م (هذا مباشرةً بعدَ إعلانِ قداسةِ القرآن) بدأ أنّهُ كانَ يعي دوافعَ المسلمينَ وأجندتهم في ذلكَ الوقت. متوقّعاً المزاعمَ التي قدّمها المسلمونَ أنَّ القرآنَ نفسهُ كانَ برهاناً على مصدرهِ ووحيهِ الإلهيّ، فقد

كتب يقول: ((إنَّ نتيجةَ كلِّ هذا [العمليّةَ التي ظهرَ فيها القرآنُ إلى حيّزِ الوجود] واضحٌ بالنسبةِ إليكَ يا من تقرأُ الكتابَ المقدّسَ وترى كيفَ أنَّ التواريخَ في كتابكَ، تمّ جمعها سويّاً وخلطها ببعضها البعض، وهذا دليلٌ على أنَّ هناكَ أيادٍ كثيرةً عملت فيه، وسبّبت كلَّ هذهِ التعارضاتِ والتناقضات، مضيفةً ومسقطةً كلَّ ما تراهُ مناسباً أو غيرَ مناسبٍ في نظرِ أصحابها، فهل مثلُ هذا الكتابِ الآن هوَ نتيجةُ وحيٍ أُنزِلَ منَ السماء؟)) اللافتُ للانتباه، هذا التصريحُ الذي صرّحهُ الكنديُّ في باكورةِ القرنِ التّاسع، يتوافقُ وينسجمُ بشكلٍ كبيرٍ مع النتيجةِ التي توصّلَ إليها وانسبرو بعدهُ بقرنٍ ومئةِ عام، وكلاهما يؤكّدُ أنَّ القرآنَ هوَ نتيجةُ عمليّةِ تجميعٍ عشوائيّةٍ قامَ بها منقّحونَ متأخرون جاءوا بعدَ مضيِّ قرنٍ كاملٍ على الأحداث.

العموميّة:

إشكاليّةٌ أخرى تتخلّلُ القرآن وهيَ مجاله، بعضُ السّورِ تنصُّ أنّهُ كتابٌ مخصّصٌ فقط للعرب (أنظر الآيات {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ} [إبراهيم 14: 4]، {أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا} [الشّورى 42: 7]، {إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا} [الزخرف 43: 3]، و{لِسَانًا عَرَبِيًّا} [الأحقاف 46: 12])، في حينِ أنَّ سوراً أخرى تشيرُ إلى أنّهُ كتابٌ أُنزِلَ لجميعِ النّاسِ ولكلِّ زمانٍ ومكان (أنظر الآية {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا} [سبأ 34:: 28]) هل هذا الاستعمالُ العموميُّ والشّاملُ قد جاءَ فيها بعد، تمّت إضافتهُ لاحقاً بعدَ توسّعِ رقعةِ العالمِ الإسلاميِّ ودخولِ أممٍ أجنبيّةٍ وأعجميّةٍ فيه، وبينَ النّاسِ الأجانب؟ إذا كانَ الأمرُ كذلك، فمن شأنهِ أن يضيفَ شكوكاً إضافيّةً على مصداقيّتِهِ وموثوقيّتِهِ كمصدرٍ مبكر.

الإقحام:

في القرآنِ نفسه هناكَ حالاتٌ واضحةٌ وجليّةٌ منَ الاستكمالِ الذّاتي. يشيرُ مايكل كوك إلى مثالٍ يمكنُ ملاحظتهُ في السّورةِ الثّالثةِ والخمسين [سورة النجم]، حيثُ أنَّ ((النصَّ الأساسيَّ يتألّفُ من آياتٍ قصيرةٍ متّسقةٍ ومتماثلةٍ بأسلوبٍ روحانيٍّ وملهم، لكن نلاحظُ في موضعين أنَّ هناكَ مقاطعَ تقاطعُ ذلكَ الانسياب، وتتميّزُ بأنّها مملّةٌ [فقيرةٌ وضعيفةٌ

الخيال] ومسهبةٌ [مضجرةٌ، فارغة] وهيَ في المكانِ غيرِ الملائم)) هل هذهِ الآياتُ من ذاتِ المصدر، وهل هيَ في الأصلِ تنتمي إلى نفسِ السّورة؟

هناكَ ميزةٌ أخرى في غايةِ الأهمّيّةِ تتمثّلُ في التكرار، إذ أنّنا نجدُ نسخاً بديلةً لنفسِ الآية ضمنَ أجزاءٍ أخرى مختلفةٍ منَ القرآن، نفسُ القصّةِ يمكنُ إيجادها مكرّرةً مع وجودِ تغييراتٍ طفيفةٍ ضمنَ سورٍ أخرى، وعندَ وضعها بجانبِ بعضها البعض غالباً ما تُظهرُ هذهِ النسخُ المتنوّعةُ نفسَ نوعِ الاختلافِ الذي يمكننا إيجادهُ بينَ النسخِ المتماثلةِ منَ الأحاديثِ الشفهيّة. من جديد نحنُ أمامَ مثالٍ آخر عن كتابٍ لم يكتبهُ كاتبٌ وحيد، بل قامَ بجمعهِ لاحقاً عددٌ منَ الأفراد، تصبحُ هذهِ المشكلةُ أكثرَ وضوحاً عندما نلقي نظرةً على بعضِ الأفكارِ والبياناتِ الإنجيليّةِ المفترضةِ والتي نجدها في القرآن.

2. 2) المصادرُ التلموديّةُ للقرآن:

منَ المحتملِ أنَّ الحيرةَ الأكبرَ التي تصيبُ المسيحيّينَ الذينَ يلتقطونَ القرآنَ ويقرؤونَ فيه، هيَ القصصُ التوراتيّةُ الواضحةُ والعديدة، والتي تتضمّنُ على بعضِ التماثلاتِ الصغيرةِ مع الرّواياتِ التوراتيّة. القصصُ القرآنيّةُ تحتوي الكثيرَ منَ الإبهام، حالاتِ التنقيحِ والتعديل، وبعضِ الإضافاتِ الغريبةِ التي أُضيفَت إلى قصصٍ مألوفةٍ ومعروفةٍ كنّا قد عرفناها وتعلّمناها، إذن، من أينَ جاءت تلكَ القصص، إذا لم تكن مقتبسةً منَ الكتبِ المقدّسةِ السّابقة؟ لحسنِ الحظّ، نحنُ لدينا الكثيرُ من الأدبِ اليهوديِّ المنحولِ والمشكوكِ في صحّته (أغلبهُ منَ التلمود)، يعودُ تاريخهُ إلى القرنِ الثّاني للميلاد، والذي يمكننا مقارنتهُ مع الكثيرِ منَ القصصِ والرّوايات، وعندما نقومُ بذلك، عندها فقط نجدُ تماثلاتٍ وتشابهاتٍ هائلةً بينَ هذهِ الفبركاتِ أو القصصِ الفولكلوريّة، والقصصِ التي تمَّ سردها في القرآن.[1] الكتاباتُ التلموديّةُ جُمِعَت خلالَ القرنِ الثّاني للميلاد منَ الشّريعةِ الشفهيّة (المشناه) وتراثِ تلكَ الشّرائع (غيمارا)، هذهِ الشّرائعُ والأحاديثُ التّراثيّةُ تمَّ خلقها لتعديلِ شريعةِ موسى (التوراة) مع تغيّرِ الزّمن، كما أنّها تشتملُ على تفسيراتٍ ونقاشاتٍ حولَ الشّريعة (الهاغادا والهالاخا وغيرها). أغلبُ اليهودِ لا يعتقدونَ بأصالةِ الكتاباتِ التلموديّة، إلّا أنّهم يقرؤونها رغمَ ذلكَ باهتمام، لإلقاءِ نظرةٍ

(1) المادّةُ التلموديّةُ مقتبسةٌ عن فاينبرغ: Feinburg .

على الزّمنِ أو الحقبةِ التي كُتِبَت فيها. إذن، من أينَ جاءت كلُّ هذهِ الكتاباتِ اليهوديّةِ غيرِ الأصيلةِ ودخلت القرآن؟ خلالَ الفترةِ المتخلّلةِ بينَ القرنينِ السّابعِ والتّاسعِ الميلاديين كانت هناكَ عدّةُ مجتمعاتٍ يهوديّةٍ تقطنُ شبهَ الجزيرةِ العربيّة (وكانت معروفةً باسمِ الحجاز) هم كانوا جزءاً أو شتاتاً هربوا من فلسطينَ بعدَ دمارِ القدّسِ عام 70 للميلاد. عددٌ ضخمٌ من هؤلاءِ اليهود كانوا يتّبعونَ تلكَ الكتاباتِ التلموديّةَ التي تمَّ نقلها إليهم شِفاهاً منَ الآباءِ إلى الأبناء وعلى مدى أجيال. كلُّ جيلٍ نمّقَ ونقّحَ الرّوايات، أو قامَ بدمجِ أفكارٍ ومعتقداتٍ فولكلوريّةٍ محلّيّةٍ فيها، لذا كانَ منَ الصّعبِ جدّاً معرفةُ ما الذي كانت تتضمّنهُ الرّواياتُ القديمةُ والأصليّة، وكانَ هناكَ أيضاً بينَ هؤلاءِ اليهود من آمنَ أنَّ هذهِ الكتاباتِ التلموديّة كانت قد أُضيفَت إلى «الألواحِ المحفوظة» (بمعنىً آخر؛ الوصايا العشر، والتوراةِ التي كانت محفوظةً في ذلكَ العهد)، وكانَ يُعتَقَدُ أنّها نسخٌ طبقُ الأصلِ عن الكتابِ السّماوي. يعتقدُ بعضُ الباحثين أنّهُ عندما ظهرَ جامعو الأخبارِ المسلمونَ المتأخّرونَ في المشهد، خلالَ القرنِ الثّامنِ والتّاسعِ الميلاديين، قاموا بإضافةِ هذا النوعِ منَ الأدبِ إلى المادّةِ القرآنيّةِ الناشئة، لذلكَ لا يجبُ أن نتفاجأ أنَّ عدداً من هذهِ المعتقداتِ التّراثيّةِ قادمٌ منَ اليهوديّةِ قد تمَّ قبولها عن غيرِ قصدٍ من قِبَلِ المنقّحينَ والمحرّرينَ اللاّحقين، ودمجها في الكتاباتِ المقدّسةِ الإسلاميّة.

هناكَ عدّةُ قصصٍ ورواياتٍ نجدُ لها جذوراً ضمنَ الأدبِ الدينيِّ اليهوديّ في القرنِ الثّاني للميلاد، وسأوردُ ثلاثةَ أمثلةٍ فقط، ثمَّ سأذكرُ أخرى عندَ نهايةِ هذا القسم.

قصّةُ قابينَ وهابيل:

تبدأُ القصّةُ في القرآن [المائدة 5: 32-30] بنفسِ الشّكلِ الذي تبدأُ بهِ في الرّوايةِ التوراتيّةِ عندما يقومُ قابين بقتلِ أخيهِ هابيل (مع أنَّ اسميهما لم يردا في الرّوايةِ القرآنيّة) ففي الآيةِ رقم 31، بعدَ أن يُقدِمَ قابين على قتلِ هابيل، تتغيّرُ الرّوايةُ ولا تتّخذُ لها مسارَ الرّوايةِ التوراتيّة. من أينَ جاءت هذهِ الروايةُ القرآنيّة، هل يعتبرُ ذلكَ بمثابةِ سجلٍّ تاريخيٍّ لم يكن معروفاً بالنسبةِ لمؤلّفي التوراة؟ بالطبعِ لم يكن كذلك، إذ أنَّ مصدرَ هذهِ الرّواية قد تمّت صياغتهُ بعدَ فترةٍ طويلةٍ جدّاً من إعلانِ العهدِ القديم، وبعدَ كتابةِ العهدِ الجديدِ أيضاً. في الواقع

هناكَ ثلاثةُ مصادرَ قد تكونُ هذهِ الرّوايةُ قد أُخِذَت منها: ترجومُ يوناثان بن عوزيا، ترجوم أورشليم، وكتابٌ آخرُ يدعى كتابَ فرقي دي رابي أليعازر. جميعُ هذهِ الوثائقِ الثلاث هيَ كتاباتٌ يهوديّةٌ منَ التلمود، وكانت عبارةً عن تراثٍ شفهيٍّ بينَ الأعوامِ 200–150 بعدَ الميلاد، هذهِ القصصُ هيَ تفسيرٌ وتعليقٌ على شرائعِ التوراة، مع أنّها معروفةٌ بأنّها لا تحتوي أيَّ شيءٍ آخر أكثرَ من مجرّدِ أساطيرٍ وفبركاتٍ عبريّة. مع قراءتنا لهذهِ القصّةِ في القرآن، يمكننا مقارنتها مع القصّةِ كما وردت في التلمود: القرآنُ التلمود{فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ} [المائدة 5: 31] {جلسَ آدمُ ومرافقةُ [حوّاء] يبكيانِ وفي حدادٍ عليه [هابيل]، ولم يعرفا ماذا يفعلانِ به، إذ ما كانا يعرفانِ الدفن. جاءَ غرابٌ قد ماتَ صاحبهُ، وأخذَ جثّتهُ، وحفرَ في الأرض، وأخفاهُ عن عينيهما، فقالَ آدم: سأفعلُ مثلما فعلَ هذا الغراب، فأخذَ جثّةَ هابيل، وحفرَ في الأرضِ، ودفنهُ} [سفر فرقي دي رابي إليعازر:21] بعيداً عن التباينِ والاختلافِ حولَ من قامَ بدفنِ مَن، فالروايتانِ متماثلتانِ بطريقةٍ مذهلة. ولا يسعنا إلّا أن نستنتجَ أنّهُ ومن هنا قامَ محمّدٌ، أو المحرّرونَ اللاّحقون، بأخذِ هذهِ القصّة، لذا نجدُ أنَّ هذهِ القصّةَ الفولكلوريّة، والأسطورةَ اليهوديّة، قد تكرّرت كحقيقةٍ تاريخيّةٍ في القرآن. ومع ذلك فهذا ليسَ كلَّ شيء، إذ أنّنا عندما نستمرُّ بالقراءةِ في سورةِ المائدة، الآية 32، نجدُ أنَّ هناكَ دليلاً آخرَ على عمليّةِ الانتحالِ من الأدبِ اليهوديِّ المنحول، وهذهِ المرّة من مشناه سنهدرين.

القرآن مشناه سنهدرين:

{مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ} [المائدة 5: 32] {وجدنا أنّهُ قيلَ في حالةِ قايينَ الذي قتلَ أخاه: «صوتُ دماءِ أخيكَ تصرخ»، ولم تأتِ كلمةُ (دمّ) بصيغةِ المفرد ولكن (دماء) بصيغةِ الجمع؛ بمعنى دمهِ ودمُ ذرّيّته. خلقَ الإنسانَ... مفرداً لكي يعرفَ أنَّ بالنسبةِ لمن يقتلُ شخصاً واحداً يكونُ معلوماً أنّهُ قد ذبحَ أمّةً بأسرها، لكن بالنسبةِ لمن أبقى على حياةِ شخصٍ واحدٍ فسيحسبُ كما لو أنّهُ قد أبقى على حياةِ أمّةٍ

بأسرها} [مشناه سنهدرين 4: 5] ليست هناكَ أيّةُ علاقةٍ بينَ الآيةِ رقم 31 والآية 32 المذكورةِ في الأعلى. فما علاقةُ قتلِ قايينَ أخاهُ هابيل بذبحِ الجنسِ البشريِّ كلِّه؟ لا شيءَ على الإطلاق. لسخريةِ القدر، الآيةُ 32، في الواقع، تدعمُ أساسَ وقاعدةَ أملَ العهدِ القديمِ لمهمّةِ المسيح، والتي كانت تخليصَ البشريّةِ من خطاياها وآثامها [8]، ومع ذلك فإنّها لا تتبعُ الآيةَ التي سبقتها، إذن، لماذا هيَ في هذا المكان؟ إذا كانَ علينا الرجوعُ إلى التلمودِ اليهوديِّ مرّةً أخرى، هذهِ المرّة إلى مشناه سنهدرين الجزءِ الرّابع، المقطعِ الخامس، سنجدُ عندئذٍ من أينَ حصلَ الكاتبُ على مادّتهِ، ولماذا وضعها هنا. في هذهِ المادّةِ نقرأُ تعليقَ الرّابي [الحاخام أو رجلِ الدّينِ اليهوديّ]، حيثُ أنّهُ يفسّرُ كلمةَ «دم» بمعنى: «دمهِ ودم سلالتهِ أو ذرّيته». تذكّر عزيزي القارئ، هذا الأمرُ بالذّات ما هوَ إلّا تفسيرٌ أو تعليقُ الرّابي، هذا تفسيرهُ الخاصّ، وهوَ تفسيرٌ تخمينيٌّ محض، لذلك، منَ المثيرِ أنّهُ من ثمَّ يتابعُ في تعليقهِ على المعنى الجمعيِّ لكلمةِ «دم»، ومع ذلك نرى أنَّ تعليقَ هذا الرّابي قد وردَ كلمةً بكلمة في القرآن، الآية 32 من سورةِ المائدة. كيفَ حدثَ وأن تحوّلَ تعليقُ رابٍ يهوديّ على نصٍّ توراتيّ إلى نصٍّ قرآنيٍّ مقدّس، ونُسِبَ إلى الله؟ النتيجةُ الوحيدةُ التي يمكنُ أن نصلَ إليها هيَ أنَّ المحرّرينَ المتأخّرين قد تعلّموا هذهِ النصيحةَ أو التحذيرَ من كتاباتِ الرّابي، لأنّهُ ليست هناكَ أيُّ علاقةٍ تربطُ بينَ روايةِ قتلِ قايينَ لأخيهِ هابيل (الآية 31) والآيةِ التّاليةِ عن النّاسِ جميعاً (الآية 32)، لكن عندما نقرأُ مشناه سنهدرين 4: 5 عندها فقط نفهمُ العلاقةَ بينَ هاتينِ القصّتين: تفسيرُ الرّابي لآيةٍ منَ التوراةِ وتعليقهُ على كلمةٍ رئيسيّة، وسببُ فقدانِ هذهِ الصّلةِ في القرآن باتَ منَ السّهلِ معرفتهُ وفهمه، فكاتبُ سورةِ المائدة لم يكن يعرفُ السّياقَ الذي كانَ يتكلّمُ فيهِ الرّابي، ولذلكَ لم يكن مدركاً أنَّ هذا الكلامَ كانَ مجرّدَ تعليقٍ أو تفسيرٍ على النصِّ التوراتيّ وليسَ منَ التوراةِ نفسها، لقد أضافها ببساطةٍ إلى القرآنِ وحشرها في النصِّ القرآنيِّ حشراً، مكرّراً ما كانَ قد سمعهُ دونَ استيعابِ النتائجِ أو العواقبِ المترتّبة.

قصّةُ البطريارك إبراهيم:

في سورةِ الأنبياء 21: 71-51، نجدُ قصّةَ إبراهيم، في الرّوايةِ القرآنيّةِ يواجهُ إبراهيمُ قومهُ ووالدهُ بسببِ الأوثانِ الكثيرةِ التي كانوا يعبدونها، وبعدَ جدالٍ طويلٍ بينَ إبراهيمَ

وقومه، ينفضُّ القومُ، فيقومُ إبراهيمُ بتحطيمِ الأصنامِ الأصغر، تاركاً الأصنامَ الكبيرةَ منها سليمة، وعندما شاهدَ قومهُ ذلكَ نادوا إبراهيمَ وسألوه إن كانَ هوَ مَنْ فعلَ ذلك، فأجابهم أنَّ الأصنامَ الأكبرَ هيَ التي دمّرت كلَّ الأصنامِ الصغيرة، ثمَّ يتحدّاهم بأن يسألوا الأصنامَ الكبرى لتجيبَ عن أسئلتهم، فأجابوهُ بقولهم: {لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ [الأصنام] يَنْطِقُونَ} [الآية 65]، ثمَّ يعنّفهم بردٍّ سريعٍ وقاسٍ، وجرّاءَ ذلكَ يقلونهُ في النّار، لكن في الآيةِ 69 نرى أنَّ اللهَ يأمرُ النّارَ أن تكونَ برداً وسلاماً على إبراهيم، فيخرجُ منها سليماً دونَ أن يمسسهُ أيُّ ضررٍ منها. ليسَ هناكَ أيُّ روايةٍ مماثلةٍ أو مشابهةٍ لهذهِ الرّوايةِ في الكتابِ المقدّس، إلّا أنَّ هناكَ مثلاً لها في كتابٍ يهوديٍّ فولكلوريٍّ يعودُ بتاريخهِ إلى القرنِ الثّاني الميلادي يسمّى مدراش رابا. في هذهِ الرّوايةِ يقومُ إبراهيمُ بتحطيمِ كلِّ الأصنامِ ما عدا الصنمِ الأكبر، يقومُ والدهُ والآخرونَ بتحدّيه، وبطريقةٍ مسلّيةٍ تمَّ حذفها منَ القرآن يجيبهم إبراهيمُ أنّهُ قدّمَ للصنمِ الأكبرِ ثوراً ليأكلهُ، لكن لأنَّ الأصنامَ الصُّغرى سارعت إلى الأكلِ وشاركت الصنمَ الأكبرَ طعامهُ، دونَ أن تُظهرَ لهُ أيَّ احترام، فقامَ بتحطيمها كلّها، الأبُ الغاضبُ لم يصدّق كلامَ ابنهِ، فأخذهُ إلى رجلٍ اسمهُ نمرود، قامَ بإلقائهِ في النّارِ ببساطة، لكنَّ اللهَ جعلها برداً وخرجَ منها سالماً. التشابهُ بينَ هاتينِ القصّتينِ لا مجالَ للخطأِ فيه.

روايةٌ يهوديّةٌ منَ القرنِ الثّاني، فولكلور، وأسطورة تتكرّرُ في «القرآنِ الكريم». منَ الواضحِ أنَّ محرّرَ هذهِ القصّة كانَ قد سمعَ مقتطفاتٍ منَ المرويّاتِ التوراتيّةِ منَ اليهودِ الزائرين، وافترضَ أنَّ تلكَ المرويّاتِ قادمةٌ من نفسِ المصدر وأدخلَ هذا التّراثَ اليهوديَّ في القرآنِ من غيرِ عمد. بعضُ المسلمينَ يزعمون أنَّ هذهِ الأسطورةَ هيَ كلمةُ اللهِ الحقيقيّة، وليست الرّوايةَ التوراتيّة. إنّهم يؤكّدونَ أنَّ اليهودَ قاموا بحذفها ببساطةٍ حتّى لا تتطابقَ معَ الرّوايةِ القرآنيّةِ اللاّحقة. ومن دونِ معرفةِ كيفَ يمكنُ لليهودِ أن يحذفوا هذهِ الرّوايةَ بالذّات، بما أنَّ القرآنَ لم يكن ليظهرَ إلّا بعدَ مضيِّ العديدِ منَ القرون، نحنُ مع ذلك يجبُ أن نتساءلَ من أينَ جاءَ هذا الفولكلور؟ الكتابُ المقدّسُ نفسهُ يقدّمُ لنا الجوابَ على سؤالنا. في سفرِ التكوين 15: 7 ((أَنَا الرَّبُّ الَّذِي أَخْرَجَكَ مِنْ أُورِ الْكَلْدَانِيِّينَ لِيُعْطِيَكَ هذِهِ الأَرْضَ لِتَرِثَهَا)) إذ يخبرُ الرَّبُّ إبراهيمَ أنّهُ هوَ الذي أخرجهُ من

مدينةِ أور الكلدانيّة، أمّا مدينةُ أور، فجاءَ ذكرها في مكانٍ آخر، ((فَخَرَجُوا مَعًا مِنْ أُورِ الْكَلْدَانِيِّينَ لِيَذْهَبُوا إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ)) [تكوين 11: 13]، ولدينا دليلٌ على أنَّ سفراً يهوديّاً اسمهُ «يوناثان بن عوزيا» قد أخطأ في استخدامِ أو فهمِ كلمةِ «أور Ur» العبريّةِ والتي تعني «النّار»، لذا وخلالَ تفسيرهِ لهذا المقطعِ يكتبُ قائلاً: ((أنا الرَّبُّ إلهكَ الذي خلّصكَ من فرنِ الكلدانيّينَ النّاري)). إذن، وبسببِ هذا الخلطِ والخطأِ في قراءةِ وترجمةِ الآياتِ التوراتيّةِ تحوّلت هذهِ القصّةُ الفولكلوريّةُ إلى روايةٍ معروفةٍ ومشهورةٍ خلالَ هذهِ الفترة، والتي تحكي كيفَ أنَّ الرّبَّ خلّصَ إبراهيمَ وأخرجهُ منَ النّار. بوجودِ هذهِ المعلوماتِ في متناولنا، يمكننا عندئذٍ معرفةُ من أينَ جاءت هذهِ القصّةُ اليهوديّة؛ عن طريقِ سوءِ فهمٍ لكلمةٍ واحدة ضمنَ أحدِ آياتِ التوراة من قِبَلِ رابٍ صاحبِ سفرٍ منحول، ومع ذلك، وجدت هذهِ الرّوايةُ المفبركةُ النّاتجةُ عن سوءِ فهمٍ لها طريقاً إلى القرآن. يتّضحُ من هذهِ الأمثلةِ أنَّ محرّرَ القرآنِ قامَ بكلِّ بساطةٍ بتكرارِ ما قد سمعهُ، ولم يكن قادراً على التمييزِ والتفريقِ بينَ ما قد سمعهُ وبينَ ما جاءَ فعليّاً في التوراة، فقامَ بتقديمِ كليهما في القرآنِ جنباً إلى جنب.

قصّةُ سليمانَ وسبأ:

نقرأُ في سورةِ الأعراف 27: 44-17 قصّةً تتعلّقُ بسليمان، طائرِ الهدهد وملكةِ سبأ. وبعدَ قراءةِ الرّوايةِ القرآنيّةِ عن سليمان، سيكونُ منَ المفيدِ جدّاً مقارنتها مع الرّوايةِ المأخوذةِ منَ الفولكلورِ اليهوديّ، الترجومِ الثّاني لـ إستير، الذي كُتِبَ خلالَ القرنِ الثّاني للميلاد؛ أي حوالي خمسمائةِ عامٍ قبلَ صياغةِ القرآن.

القرآن [سورةُ الأعراف 27: 44-17] الترجومُ الثّاني لإستير17: وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ20: وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ21: لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ22: فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ [فتقدّم] فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ23: إِنِّي وَجَدتُّ [هناك] امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ27: قَالَ [سليمان] سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ28: اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ

فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ29: قَالَتْ [الملكة] يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ30: إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ 32: قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ33: قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ35: وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ42: فَلَمَّا جَاءَتْ...44: قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ» وفي وقتٍ آخر، عندما ابتهجَ قلبُ سليمانَ منَ الخمر، أمرَ الحيواناتِ والطيورَ والجانَ أن ترقصَ أمامهُ حتى يرى الملوكُ (الحاضرونَ) عظمتهُ، وكانَ الجميعُ حاضراً إلّا المسجونونَ والسجّانون، ولكنّهُ لاحظَ غيابَ الديكِ الأحمر (بدلاً منَ الهدهد)، فطلبَ القبضَ عليهِ حتى يذبحهُ، ولكنَّ الطائرَ ظهرَ معلناً اكتشافهُ مملكةَ سبأ الغنيّةَ التي تحكمها ملكة، فأرسلَ لها سليمانُ رسالةً مع نفسِ الطائرِ مرغباً الملكةَ في زيارتهِ مثلَ سائرِ ملوكِ أركانِ الأرضِ الأربع، ولو فعلت لوضعها في مرتبةٍ فوقَ هؤلاءِ الملوك، أمّا لو رفضت فسوفَ يسلّطُ عليها وحوشَ الأرضِ وطيورَ السّماء، وسوفَ تكونُ الشّياطينُ والجانُّ من أعدائها يطلبونَ القبضَ عليها، وسجنها، بل وأكلها، وعندما قرأت هذا الكلامَ أرسلت لمجلسِ نبلائها تستشيرهم، ولكنّهم لم يكونوا يعرفونَ سليمان، فنصحوها بأن ترسلَ لهُ سفناً ضخمةً محمّلةً بالهدايا القيّمةِ والعبيد، وعندما وصلت أرسلَ لها سليمانُ رسولاً يلبسُ ملابسَ برّاقة، عندما رأتهُ قالت: هل أنتَ سليمان؟ فقالَ لها: بل أنا عبدٌ من عبيده، وقد استقبلها سليمانُ في قصرٍ من زجاج حتّى أنّها حسبتهُ ماءً لأنّهُ كانَ على البحر، ورفعت ثيابها، ورأى سليمانُ أنَ ساقيها عليهما شعر، فقالَ لها الشّعرُ جيّدٌ في الرجال ولكنّهُ ليسَ كذلكَ للنّساء، فقالت: يا سيّدي عندي لكَ ثلاثةُ ألغاز، لو عرفتَ إجاباتها سوفَ أعرفُ أنّكَ حكيم، أمّا لو لم تعرف، سوفَ تكونُ مثلَ بقيّةٍ من حولك، ولمّا أجابَ سليمانُ على أسئلتها قالت بدهشة: تباركَ الرّبُّ إلهكَ الذي وضعكَ على العرشِ لتحكمَ بالعدلِ والقسطاس،وأهدت سليمانَ الكثيرَ منَ الذهبِ والفضّة، وأعطاها هوَ كلَّ ما اشتهت. إذن، باتَ منَ الواضح أنّكَ ما إن تقرأ الروايتينِ اللّتينِ في الأعلى وتقارنَ بينهما، حتّى تكتشفَ من فوركَ المصدرَ الذي أخذَ منهُ محرّرُ القرآنِ قصّةَ سليمان وملكةِ سبأ. من ناحيتيَ الشّكلِ والمضمون تبدو القصّةُ القرآنيّةُ شبيهةً بالقصّةِ المأخوذةِ عن الترجومِ

اليهوديّ، والذي كُتِبَ خلالَ القرنِ الثّاني للميلاد؛ أي قبلَ حوالي خمسمائةِ سنةٍ من صياغةِ القرآن. القصّتانِ متماثلتانِ بطريقةٍ غيرِ معقولة، الجنُّ، الطيورُ، وبشكلٍ خاصّ الطيرُ المُرسَلُ، الذي لم يستطع سليمانُ العثورَ عليهِ في البداية، لكنّهُ استخدمهُ وسيطاً بينهُ وبينَ ملكةِ سبأ، بالإضافةِ إلى الرسالةِ والأرضيّةِ الزجاجيّةِ المرمريّة، وهذا أمرٌ فريدٌ بالنسبةِ للرّوايتين. لن نجدَ مثلَ هذهِ التماثلاتِ والتطابقاتِ في آياتِ التوراةِ مطلقاً. مرّةً أخرى علينا أن نتساءلَ كيفَ لهذا الفولكلورِ اليهوديِّ منَ القرنِ الثّاني للميلاد أن يجدَ طريقهُ إلى القرآن؟

هناكَ أمثلةٌ أخرى حيثُ يمكننا إيجادُ أدبٍ مسيحيٍّ وأدبٍ يهوديٍّ منحولٍ ضمنَ النصِّ القرآنيّ، في قصّةِ جبلِ سيناء الذي رفعهُ اللهُ فوقَ رؤوسِ اليهودِ كتهديدٍ لهم لرفضهم شريعةَ موسى {وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [الأعراف 7: 171] جاءت من كتابٍ يهوديٍّ منحولٍ يعودُ تاريخهُ إلى القرنِ الميلاديِّ الثّاني، يسمّى عابودا زاره. القصصُ الغريبةُ عن الطفولةِ المبكرةِ للمسيحِ في القرآن يمكنُ تتبّعها إلى عددٍ منَ الكتاباتِ المسيحيّةِ المنحولة: شجرةُ النخيلِ التي تقدّمُ ملجئاً لمريمَ عندما جاءها المحيض [سورة مريم 19: 26-22] هذهِ الفكرةُ مأخوذةٌ عن الكتبِ المفقودةِ منَ التوراة، في حينِ أنَّ قصّةَ يسوعِ الطفل وهوَ يخلقُ طيوراً منَ الصلصال {أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ} [آل عمران 3: 49] مأخوذةٌ من كتابِ القدّيسِ توماس «كتاب توما» الذي يتحدّثُ فيهِ عن فترةِ طفولةِ يسوعِ المسيح. قصّةُ يسوعِ الطفل يتكلّمُ وهوَ في المهد [مريم 19: 33-29] يمكنُ تتبّعُ أصلها إلى الأسطورةِ العربيّةِ المنحولةِ من مصرَ والتي كانت تسمّى «الإنجيلَ الأوّلَ عن طفولةِ يسوعِ المسيح». سورةُ الإسراء 17: 1 {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} تتحدّثُ عن رحلةِ محمّدٍ في الليلِ منَ المسجدِ الحرام إلى المسجدِ الأقصى. من خلالِ الأحاديثِ اللاّحقةِ والتفاسير نجدُ أنَّ هذهِ الآيةَ تشيرُ إلى صعودِ محمّدٍ إلى السّماءِ السّابعة، بعدَ رحلةٍ ليليّةٍ معجزة (معراج) من مكّةَ إلى القدّس، على ظهرِ دابّةٍ تسمّى «البُراق». تفاصيلُ أكثرُ يمكننا إيجادها في كتابِ «مشكاةِ الأنوار»، وترجعُ هذهِ القصّةُ إلى كتابٍ خياليٍّ منَ الأدبِ

المنحول يسمّى «عهدَ إبراهيم»، تمّ تأليفهُ منذُ مئتي سنةٍ قبلَ الميلادِ في مصر، ثمّ تُرجِمَ فيما بعد إلى اللّغتينِ اليونانيّةِ والعربيّة.

روايةٌ أخرى مشابهة هيَ «سرُّ إدريس» (الفصل 1: 10-4 و 2: 1)، والتي تسبقُ القرآنَ بأربعةِ قرون، إلّا أنَّ هناكَ روايةً مماثلةً تماماً حتّى أنّها تشتملُ على ذاتِ التفاصيلِ موجودةً ضمنَ كتابٍ فارسيٍّ بعنوان «آرتاي فيرات نامك»، حيثُ يقصُّ ذلكَ الكتابُ علينا قصّةَ شابٍّ زرادشتيٍّ ورعٍ وتقيٍّ يصعدُ إلى السّماوات، وعندَ عودتهِ، يقصُّ كلَّ ما رآه، أو يعترفُ بما رآه. الوصفُ القرآنيُّ للجحيم يشابهُ ويماثلُ إلى حدٍّ بعيدٍ وصفَ النّارِ في مواعظِ إفرايم، راهبٌ نسطوريٌّ منَ القرنِ السّادسِ الميلادي.على الأرجح أنَّ مؤلّفَ القرآنِ قالَ في الأماكنِ التّالية {اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ} [الشورى 42: 17]، و{فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ} [القارعة 101: 9-6] قد استخدمَ كتابَ «عهدِ إبراهيم» واقتبسَ منهُ التعاليمَ التي تقولُ أنَّ هناكَ ميزاناً سيستخدمهُ اللهُ يومَ القيامةِ ليقيسَ بهِ الحسناتِ والسيّئات، وبذلكَ يحدّدُ إذا ما كانَ هذا الشّخصُ سيذهبُ إلى الجنّةِ أم إلى النّار.

وصفُ الجنّةِ في الآيات: {فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ} [الرحمن 55: 56-58] {وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ * جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الواقعة 56: 22-24]، والتي تتحدّثُ عن كيفيّةِ مكافأةِ الصّالحينَ والأتقياءِ بحورٍ عينٍ عيونهنَّ كاللؤلؤ، وهذا يتطابقُ ويتماثلُ تماماً مع مفهومِ الجنّةِ في الدينِ الزرادشتيِّ في بلادِ فارس، إلّا أنَّ اسمَ الجواري اللواتي في الجنّةِ ليس «حورٍ»، بل «باريس». منَ المهمِّ جدّاً تذكّرُ أنَّ الرّواياتِ التلموديّةَ لم تكن لها تلكَ الأصالةُ بالنسبةِ لليهودِ المتشدّدينَ خلالَ تلكَ الفترة، ولسببٍ واحدٍ وبسيط، أنّها لم تكن موجودةً في مجمّعٍ يفنه Jamnia عام 80 للميلاد، حينَ تمَّ إقرارُ نسخةِ العهدِ القديم. كما أنَّ المادّةَ الأبوكريفيّةَ المسيحيّة لم تعتبر شرعيّةً أو قانونيّة، إذ لم يُشهَد لها ككتاباتٍ موثوقةٍ وأصيلةٍ قبلَ وبعدَ انعقادِ مجلسِ نيقيا عام 325 م، لذلكَ هذهِ الرّواياتُ دائماً جرى فهمها ككتاباتٍ ضلاليّةٍ وهرطقيّةٍ من قِبَلِ المؤمنينَ المتشدّدينَ

اليهودِ والمسيحيّينَ والمثقفين، لهذا السّبب نجدُ أنّهُ أمرٌ مثيرٌ للريبةِ والشكِّ والشبهةِ أن نجدَ كتاباتٍ أبوكريفيّةً منحولةً وجدت طريقاً لها إلى كتابٍ يزعمُ أنّهُ الوحيُ الأخيرُ والنهائيُّ منَ اللهِ إلى إبراهيمَ، إسحاقَ ويعقوب.

2. 3) التناقضاتُ العلميّةُ في القرآن:

وصلنا الآن إلى المجالِ الأخيرِ للصعوباتِ التي نلحظها عندما نقرأُ في القرآن، وهيَ الصعوباتُ والتناقضاتُ العلميّة. من نقطةِ مراقبةٍ علميّةٍ متقدّمة يمكننا الآنَ ملاحظةُ ما يبدو أنّهُ أشبهَ بأخطاءٍ علميّةٍ فادحةٍ تتخلّلُ النصَّ القرآنيّ، بعضها بالكادِ يمكنُ عدّهُ تناقضاتٍ وتعارضاتٍ مع رواياتِ الكتابِ المقدّسِ المبكرة، على سبيلِ المثال:

القرآنُ الكتابُ المقدّس:

تبنّي زوجةِ فرعون لموسى الصغير: {وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} [القصص 28: 9] أمّا الكتابُ المقدّسُ فيقول أنَّ تلكَ كانت ابنته: {وَلَمَّا كَبِرَ الْوَلَدُ جَاءَتْ بِهِ إِلَى ابْنَةِ فِرْعَوْنَ فَصَارَ لَهَا ابْنًا، وَدَعَتِ اسْمَهُ «مُوسَى» وَقَالَتْ: «إِنِّي انْتَشَلْتُهُ مِنَ الْمَاءِ»} [الخروج 2: 10] الزّعمُ الذي وردَ في القرآنِ أنّ اسمَ يحيى كانَ أوّلَ اسمٍ يُطلَقُ على ولدِ زكريا {يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا} [مريم 19: 7] لكن نجدُ أنَّ هذا الاسمَ قد وردَ قبلَ ذلكَ بزمنٍ طويل {وَيُوحَنَانُ بْنُ قَارِيحَ} [سفر الملوك الثاني 25: 23] اشتمالُ تعريفِ الثّالوثِ المسيحيّ على اسمِ مريم {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ} [المائدة 5: 116] وهذا لا يتعارضُ فقط مع الكتابِ المقدّس، بل مع معتقداتِ أغلبِ المسيحيّينَ التي ترسّخت منذُ أكثرَ من 2000 سنة.

اللافتُ للانتباه، أنّهُ كانت هناكَ طائفةٌ صغيرةٌ هرطقيّةٌ تبنّت هذهِ النظرة، وكانت تقطنُ منطقةَ الشّرقِ الأوسطِ في زمنِ جمعِ القرآنِ وتحريره، هل يمكنُ أن يكونَ هذا هوَ مصدرَ هذا الخطإِ والتعارضِ الفادح؟ بالتأكيدِ الإلهُ العالمُ والعارفُ بكلِّ شيءٍ كانَ سيعلمُ أنَّ هذهِ الفكرةَ هيَ بمثابةِ عقيدةٍ محوريّةٍ للدينِ المسيحيّ.

هناكَ تعارضٌ داخليٌّ صارخٌ أيضاً، وهوَ الخلطُ الحاصلُ حولَ شخصيةِ مريم، إذ جاءَ في القرآنِ أنّها أختُ هارونَ وابنةُ آلِ عمران (العائلةِ المذكورةِ في الكتابِ المقدّس) بالإضافةِ إلى أنّها والدةُ يسوع، مع أنَّ الفترةَ الزمنيّةَ التي تفصلُ بين مريمَ آلِ عمران وأختِ هارون وبينَ مريمَ والدةِ يسوع أكثرُ من 1570 سنة {وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ} [التحريم 66: 12]، {فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا * يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا * فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا} [مريم 19: 29-27] إذن، هل هارونُ أخو موسى آلِ عمران هوَ الخالُ المباشرُ ليسوع؟؟!!!!

إشكاليّةٌ أخرى تتخلّلُ آيةً معروفةً بشكلٍ جيّدٍ تتعلّقُ بهامان. في القرآنِ يشارُ إلى هامان كخادمٍ لفرعون، والذي شيّدَ برجاً عالياً ليصعدَ من خلالهِ إلى إلهِ موسى ({وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ} {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ} [القصص 28: 6، 38]، {إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ} {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ} [غافر 40: 24، 36])، إلّا أنَّ برجَ بابل قد بُنِيَ قبلَ ذلكَ بسبعمائةٍ وخمسينَ عاماً {وَقَالُوا: «هَلُمَّ نَبْنِ لأَنْفُسِنَا مَدِينَةً وَبُرْجًا رَأْسُهُ بِالسَّمَاءِ. وَنَصْنَعُ لأَنْفُسِنَا اسْمًا لِئَلاَّ نَتَبَدَّدَ عَلَى وَجْهِ كُلِّ الأَرْضِ»} [تكوين 11: 4]، أمّا اسمُ هامان فقد وردَ في قصّةِ إستير البابليّة؛ أي بعدَ 1100 سنةٍ على فرعون. يعتقدُ المفسّرونَ أنَّ الآياتِ تشيرُ هناكَ إلى هامانٍ آخر، ومع ذلك فاسم هامانٍ ليسَ اسماً مصريّاً، بل بابليّاً بامتياز. في حينِ أنَّ هذهِ الأمثلةَ قد لا يكونُ منَ الممكنِ إخضاعها لعمليّةِ البحثِ العلميّ، إلّا أنّها تشيرُ إلى وجودِ جهلٍ بالكتابِ المقدّس، وهذا يشيرُ إلى نوعٍ منَ الحالةِ الانعزاليّةِ الأكيدة، والتي يمكننا توقّعها إذا كانت الرّواياتُ قد انتقلت شفهيّاً ضمنَ بيئةٍ بعيدةٍ جداً عن بيئتها الأصليّةِ التي وُلِدَت فيها. صعوبةٌ أكثرُ جدّيّةً مثبتةٌ بتلكَ السّورِ التي تناقضُ البياناتِ التّاريخيّةَ والعلميّةَ والعيانيّةَ القابلةَ للملاحظة، وهنالكَ عددٌ منها موجودٌ في القرآن، لكن ومن

أجلِ الإيجازِ والاختصارِ سأشيرُ إلى بعضٍ منها.

حسبَ القرآن ({قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ * فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي * قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ}، {قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ * قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي * قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا} [طه 20: 87-85، 97-95]) نجدُ أنَّهُ السّامرّائيُّ هوَ الذي صنعَ الثّورَ ووضعهُ على جبلِ حوريب، إلّا أنَّ لفظةَ «سامرّائيّ» لم تظهر إلى الوجودِ حتّى بعدَ هذهِ الحادثةِ بعدّةِ مئاتٍ منَ السنوات، في عام 722 قبلَ الميلاد. اسمُ عيسى يطلقُ بشكلٍ خاطئٍ على يسوع، حيثُ أنَّ الاسمَ العربيَّ الصحيحَ من يسوع هوَ «يشوع». إلّا أنَّ هناكَ تصريحاً أكثرَ غرابةً ومغالطةً وردَ في الآياتِ التّاليةِ يقولُ أنَّ الجبالَ كالأوتادِ تبقي الأرضَ ثابتةً وتحفظها منَ الحركة {وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ} [النحل 16: 15]، {وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ} [الأنبياء 21: 31]، {وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ} [لقمان 31: 10]، {وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا} [النبأ 78: 7]، {وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ} [الغاشية 88: 19]، لكننا نعلمُ الآنَ من دراساتٍ وأبحاثٍ في علمِ الجيولوجيا أنَّ الجبالَ هيَ نتيجةُ النّشاطاتِ البركانيّةِ أو جرّاءَ اصطدامِ صفيحتينِ تكتونيّتينِ مع بعضها البعض، الأمرُ المثيرُ للسخرية، أنَّ هذينِ السّببين أثبتا أنَّ وجودَ الجبالِ هوَ دليلٌ على عدمِ ثباتٍ أو استقرارِ القشرةِ الأرضيّة، والعكسُ ليسَ صحيحاً.

في سورةِ الأعراف 7: 127 {لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ} فرعونُ يحذّرُ سحرتهُ ويهدّدهم بأنّهُ سيقطعُ أيديهم وأرجلهم ويتركهم يموتونَ على الصليب.

في سورةِ يوسف 12: 41 {يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ} تخبرنا القصّةُ أنَّ يوسفَ

هَدَدَ أنَّهُ سيصلب، بأيِّ حال، لم يكن هناكَ أيُّ وجودٍ للصّلبانِ في تلكَ الأيام (دعونا لا نخلطُ هنا الأمرَ مع عنخِ المصريِّ الذي كانَ مصدرَ الخصبِ والحياة، وليسَ أداةً للعذابِ والموت). مُورِسَ الصّلبُ للمرّةِ الأولى من قبلِ الفينيقيّينَ والقرطاجيّين، ثمَّ تمّت استعارتهُ من قِبَلِ الرّومانِ حتّى مجيءِ المسيح؛ أي 1700 بعدَ فرعون. هناكَ مغالطةٌ علميّةٌ أخرى قابلةٌ للمعاينةِ والملاحظة، كالمغالطةِ التي وردت في سورةِ فُصِّلَت 41: 11 {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ} فهل صحيحٌ أنَّ السماءَ مخلوقةٌ منَ الدّخان؟ الفيزيائيّانِ الشهيران نيومان وإيكلمان يؤكّدانِ أنَّ الدخانَ المكوَّنَ من جزيئاتٍ عضويّة لم يكن موجوداً خلالَ المرحلةِ البدائيّة.

الشّهبُ والمذنّباتُ، وحتّى النجوم، حسبَ القرآن يقذفُ بها اللهُ الجنَّ والشّياطينَ الذينَ يسترقونَ السمعَ على كلامِ اللهِ في السّماءِ قبلَ أن ينزلَ على البشر ({وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ * وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ * إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ} [الحجر 15: 18-16]، {زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ * لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ * إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ} [الصافات 37: 10-6]، {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ} [الرحمن 55: 35-33]، {وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ} [الملك 67: 5]، {وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا} [الجن 72: 9-8]، {وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ} [الطارق 86: 3-2]). كيفَ لنا أن نفهمَ هذهِ السّور، هل لنا أن نصدّقَ أنَّ اللهَ يرمي الشُّهبَ والنيازك (أشياءُ ماديّة) مصنوعةٌ من أوكسيدِ الكربون أو نيكلٍ حديديّ، ليرجمَ بها شياطيناً أو جاناً (أشياءُ غيرُ ماديّة) يسترقونَ السمعَ على المجمعِ السّماوي، وكيفَ نفسّرُ حقيقةَ أنَّ الشُّهبَ الأرضيّةَ تسطعُ كالمطرِ في سماءِ الأرض والتي تتحرّكُ معها ضمنَ مسارٍ موازٍ لها، هل نفهمُ أنَّ هذهِ المساراتِ المتوازيةَ تشيرُ إلى أنَّ الشّياطينَ

تصطفُّ في طوابيرَ طويلةٍ وفي نفسِ اللحظة؟

مثالٌ آخرُ معروفٌ بينَ مسلمي اليوم يتعلّقُ بمراحلِ تشكّلِ الجنين ﴿وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ [البقرة 2: 259]، ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [الحجّ 22: 5]، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون 23: 12-14]، ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [غافر 40: 67]، ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾ [القيامة 75: 37-39]، ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق 96: 1-2] فوفقَ ما جاءَ في هذهِ الآياتِ يمرُّ الجنينُ بأربعةِ مراحل، بدءاً بالنطفةِ التي تصبحُ علقة، إلّا أنَّ لا أحدَ يعلمُ معنى هذهِ الكلمةِ بالضبط، فقد حاولَ البعضُ، مجادلينَ أنها كلُّ شيءٍ يعلق، إلى العَلَقة، أو التصاق، أو كتلةٍ جنينيّة، ولحمٍ ممضوغ، وإلى ما هنالك... ثمَّ تصبحُ العلقةُ عظماً وتتحوّلُ أخيراً إلى لحم. والحال، أنَّ هناكَ الكثيرَ منَ الصعوباتِ في هذهِ السّور، أوّلاً، ليسَ هناكَ ما يسمّى بمرحلةِ العلقةِ خلالَ مراحلِ تشكّلِ الجنين، إضافةً إلى ذلك، النطفةُ لا تتحوّلُ إلى شيءٍ ملتصقٍ أو لاصقٍ أو بويضةٍ ملقّحةٍ من دونِ وجودِ بويضةٍ غيرِ ملقّحة، فالنطفةُ تحتاجُ إلى البويضة، والبويضةُ بدورها بحاجةٍ إلى نُطفة، ثانياً، «الشيءُ الذي يتعلّقُ أو يلتصق» لا يتوقّفُ عن الالتصاقِ ليتحوّلَ إلى «مضغة»، بل يبقى ملتصقاً لمدّةِ ثمانيةِ أشهرٍ ونصفِ الشهر، وأخيراً، الهيكلُ العظميُّ لا يتشكّلُ قبلَ اللحم (أو العضلات)، فالعضلاتُ وبوادرُ نموِّ الغضاريفِ تشيرُ إلى بدايةِ تشكّلِ العظامِ في المرحلةِ التّالية. في الواقع، وحسبَ د. سادلر _مؤلّفُ معجمِ لانغمان لعلمِ الأجنّةِ الطبّي (Dr. T.W. Sadler Phd., the author of Langman s Medical Embryology)_ في رسالةٍ شخصيّةٍ إلى د. كامبل عام 1987، أثبتت الأبحاثُ أنَّ العضلاتِ تتشكّلُ قبلَ عدّةِ أسابيعَ من تشكّلِ العظام، وليسَ كما جاءَ في القرآن. كم منَ المضحكِ سماعُ الآياتِ

السّابقةِ عندما يوردها المسلمونَ والعلماءُ المعاصرون كأدلّةٍ وبراهينَ على علميّةِ القرآن، في حينِ أنّهُ في الواقع، ما أن تُصبحَ الحقيقةُ معروفةً، فإنّ العلمَ نفسهُ والذي يرغبونَ بأن يسخّروهُ لقضيّتهم، يثبتُ خطأهم وزيفهم.

4.2) حلٌّ ممكن (تاريخُ الخلاص):

لا ينفكُّ المسلمونَ وهم يخبروننا أنَّ وحيَ القرآنِ قد نزلَ على محمّدٍ وتمَّ جمعهُ في صحفٍ أخيراً على يدِ زيدِ بنِ ثابت، بينَ 646-650 للميلاد، تحتَ إشرافِ الخليفةِ الثّالث عثمان. أمّا المؤرّخونَ فيتّخذونَ موقفين كاستجابةٍ لهذا التأكيدِ الذي يقدّمهُ التّراثُ الإسلاميّ. الفريقُ الأوّل، المدعومُ من قِبَلِ المؤرّخ جون بورتون، يوافقُ بعضَ الشيءِ ما جاءَ في التّراثِ الإسلاميّ، قائلين أنَّ القرآنَ جُمِعَ خلالَ فترةِ حياةِ النبيِّ أو بعدَ وفاتهِ مباشرةً أو بفترةٍ قصيرةٍ جداً. بورتون في دفاعهِ، يستخدمُ نصوصاً شرعيّةً وقانونيّةً لتأريخِ القرآنِ إلى فترةِ حياةِ النبيّ، وهناكَ البعضُ في الغربِ منَ الذينَ يوافقونَ بورتون، أمّا الأغلبيّةُ فتجدُ أنَّ نظريّتهُ غيرُ منطقيّة، إذ ليسَ هناكَ سوى القليلِ منَ النصوصِ المكتوبةِ والتي يمكنُ أن نبني على أساسها نتائجاً وفرضيّاتٍ مؤكّدة. الفريقُ الثّاني يواجهُ التّراثَ الإسلاميَ، ومن أفضلِ مناصريهِ جون وانسبرو، من SOAS (جامعة لندن)، فهوَ يستخدمُ التحليلَ التّاريخيَّ نفسهُ الذي طُبِّقَ خلالَ نقدِ الكتابِ المقدّسِ ليصلَ إلى نتائجه. يؤكّدُ وانسبرو أنَّ القرآن، كما نعرفهُ بكافّةِ مشاكلهِ وعيوبهِ الأدبيّةِ والبنيويّة، لم يظهر إلى العلن حتّى عام 800 للميلاد، فهوَ يقولُ أنَّ القرآنَ ليسَ نصّاً تمَّ نقلهُ إلى العالمِ على يدِ رجلٍ واحد، بل عملت فيهِ أيادٍ كثيرة لعدّةِ مؤلّفينَ منَ القرنِ التّاسع. يمضي وانسبرو بعيداً في أقوالهِ بالتأكيد أنَّ جميعَ الوثائقِ والمدوّناتِ الإسلاميّةِ المبكرة يجبُ أن تعرضَ بصفتها «تاريخاً للخلاص»، تاريخٌ ((ليسَ عبارةً عن رواياتٍ لأحداثٍ محفوظة، ومفتوحٌ أمامَ المؤرّخينَ لدراسته، إذ أنَّ تاريخَ الخلاصِ لم يحدث، كما هوَ في شكلهِ وصيغتهِ الأدبيّةِ والتي لها سياقها وإطارها التّاريخيُّ الخاص)) بمعنىً آخر؛ أنّهُ كانَ مكتوباً بوجودِ أجندةٍ معيّنةٍ في عقولِ كتبته. لذلكَ، السجلاّتُ الأدبيّةُ لتاريخِ الخلاص، مع أنّها تقدّمُ نفسها على أنّها معاصرةٌ للأحداثِ التي تصفها، كما سبقَ وذكرنا، تنتمي فعليّاً لحقبةٍ أحدثَ بكثيرٍ من تلكَ الأحداث، وهذا يدلُّ على أنّها كُتِبَت حسبَ تفسيرٍ وتأويلٍ لاحقٍ للأحداث،

وذلكَ لكي يتلاءمَ ويتناسبَ مع أخلاقيّةِ تلكَ الفترةِ المتأخرة. التّاريخُ الحقيقيُّ والفعليُّ في سياقِ عبارةِ «ما الذي حدثَ فعلاً» قد أصبحَ مضمّناً ضمنَ تفسيرٍ لاحقٍ وعمليّاً، إن لم يكن بشكلٍ كلّي، ممتزجٍ بهِ، ومتشابكٍ معهُ بشكلٍ معقّد. والسؤالُ يبقى ما إذا كانَ هناكَ أيُّ مقدارٍ منَ «الحقيقةِ التّاريخيّة» هنا، وحتّى إن اعترفنا أنَّ هناكَ بعضَ لبٍّ منَ الحقيقةِ التّاريخيّة، فمنَ المستحيلِ تحديدها ومعرفتها. يجادلُ وانسبرو أنَّ القرآنَ، التفسيرَ، والسيرة هيَ مكوّناتُ قائمةِ تاريخِ الخلاصِ الإسلاميّ، والتي يقترحُ أنّها مكتوبةٌ لتشيرَ إلى دورِ اللهِ في إدارةِ شؤونِ العالمِ والبشر، وخصوصاً خلالَ فترةِ حياةِ محمّد. يناقشُ وانسبرو أنّنا لا نعلمُ، وعلى الأرجح لن نعلمَ أبداً ما الذي حدثَ فعلاً، كلُّ ما لدينا من أخبارٍ عن تلكَ الفترة هيَ ما قالهُ لنا أشخاصٌ متأخرونَ جاءوا بعدَ تلكَ الفترةِ بزمنٍ طويل، واعتقدوا أنَّ هذا الذي حدثَ آنذاك، فكتبوا تاريخَ الخلاص. يقولُ وانسبرو: إنَّ نقطةَ تاريخِ الخلاصِ الإسلاميِّ كانت لتشكيلِ هوّيّةٍ دينيّةٍ عربيّةٍ محدّدة، وتمَّ تحقيقُ ذلكَ بعد تبنّي أفكارٍ ومعتقداتٍ وروايات كانوا قد اقتبسوها من مستنقعٍ طويلٍ عريضٍ منَ المعتقداتِ والأساطيرِ اليهوديّةِ-المسيحيّة، ونقطةُ البدءِ هذهِ يمكنُ وضعها في شبهِ جزيرةِ العرب خلالَ القرنِ السّابعِ الميلادي. يشيرُ وانسبرو إلى دليلٍ على ذلكَ مذكورٍ في القرآن يدلُّ على استنباطها من سياقٍ يهوديٍّ-مسيحيّ: على سبيلِ المثال، الخطُّ النبويُّ الذي ينتهي بختمِ النبوّة، سلسلةُ الكتاباتِ المقدّسة، فكرةُ تدميرِ الحضاراتِ والمدن، والمواضيعُ القصصيّةُ المشتركة. تحليلُ وانسبرو صحيح، إذ يُصبحُ منَ الصّعبِ جدّاً إبقاءُ القرآنِ كمصدرٍ حقيقيٍّ ودقيقٍ للإسلام، أو مصدرٍ للتّراثِ الإسلامي، وخصوصاً في ضوءِ حقيقةِ أنّهُ منَ الممكنِ تحديدُ تواريخِ التّراثِ نفسه. في حينِ أنَّ تاريخَ القرآنِ نفسهُ يشكّلُ رادعاً وعقبةً كبيرة أمامَ تقريرِ أصالةِ القرآنِ وموثوقيّته، إنّهُ من دونِ شكٍّ العقبةُ الوحيدة، بالمقابل، هناكَ العديدُ منَ الفقهاءِ المسلمين الذينَ يجادلونَ أنَّ الوجودَ المستمرَّ لعددِ الرّجالِ الذينَ يحفظونَ القرآنَ كلّهُ في مجموعهِ هوَ الأمرُ الذي يحفظُ مصداقيّتهُ وأصالته. هؤلاءِ الرّجالُ كانَ يطلقُ عليهم اسمُ «الحَفَظَة»، فهم كانوا بمثابةِ مستودعاتٍ لحفظِ القرآن، والذينَ تمَّ الرجوعُ إليهم لاحقاً من قِبَلِ السّلفِ إذا ما طرأ أيُّ شيءٍ أو ظهرت مشكلةٌ ما. اليوم نلاحظُ وجودَ أعدادٍ كبيرةٍ من حفظةِ القرآن في منطقتي الشرقِ الأوسطِ وآسيا، ونحنُ

يمكننا أن نعلمَ ما إذا كانوا يحفظونَ القرآنَ جيّداً وبشكلٍ صحيحٍ، إذ أنَّ هناكَ نصّاً مكتوباً موجوداً بينَ أيدينا يمكننا التحقّقُ منهُ حولَ صحّةِ قراءتِهم أو تلاوتِهم.

ما الذي رجعَ إليهِ جامعو الأخبارِ المتأخّرونَ للتحقّقِ من صحّةِ ما حفظهُ الحفظةُ في أيامهم، أينَ هوَ النصُّ المكتوبُ والوثائقُ المدوّنة؟ جوهريّاً عدنا إلى نفسِ المشكلةِ التي ناقشناها خلالَ الفصلِ السابق، الحفظةُ الأوائلُ كانَ يجبُ أن تكونَ لديهم وثائقٌ ليحفظوا منها، إذ أنَّ مصداقيّةَ كلِّ حافظٍ نابعةٌ من تطابقِ تلاوتِهِ مع ما جاءَ في الوثيقة، وليسَ أيَّ شيءٍ آخر. هل هناكَ أيُّ وجودٍ لمثلِ هذهِ الوثائق؟ أمّا إذا كانوا يحفظونَ ما قد سمعوهُ من أشخاصٍ آخرين منوّعٌ منَ التّراثِ الشفهيّ، عندئذٍ يصبحُ سماعهم وتلاوتهم عرضةً للشكِّ والريبةِ بما أنَّ التّراثَ الشفهيَّ، وبشكلٍ خاصّ التّراثَ الشفهيَّ الدينيّ، هوَ بطبيعتِهِ عرضةٌ للمبالغةِ، الزيادةِ والنقصان، الزينةِ والإفساد، وفي النهاية، التحريفِ والتحوير. ماذا سنفعلُ عندئذٍ بالمشكلاتِ الداخليّةِ التي تتخلّلُ القرآن، كيفَ نفسّرُ العيوبَ والإشكالاتِ البنيويّةَ والأدبيّة، بالإضافةِ إلى الرّواياتِ المزوّرةِ والمنحولةِ والتناقضاتِ العلميّةِ والتّاريخيّةِ التي وجدت طريقاً لها إلى صفحاته؟ هذهِ الصعوباتُ والإشكالاتُ يبدو أنّها تشيرُ بعيداً عن التأليفِ القدسيّ والمصدرِ الإلهيِّ للقرآنِ إلى مصدرٍ أكثرَ معقوليّةً ومنطقيّة، وهوَ أنَّ القرآنَ ليسَ أكثرَ من مجرّدِ مجموعةٍ منَ المصادرِ المتباينةِ والمختلفةِ المستعارةِ من أجزاءٍ متفرّقةٍ ومتنوّعةٍ منَ الأدبِ المحيط، القصصِ الفولكلوريّة، أو التقاليدِ الشفهيّةِ التي تجولُ في الأنحاء وتنتقلُ عبرَ الأجواءِ طوالَ الوقت، وبالصدفةِ يتمُّ تطعيمها في ثقافةِ المجتمعاتِ الأميّةِ والجاهلة. بسببِ التأريخِ المشكوكِ فيهِ للقرآن، وحقيقةِ أنّهُ ليسَ هناكَ أيُّ توثيقٍ رئيسيٍّ وموثوقٍ لهُ قبلَ عام 750 م، والمصادرِ المختلفةِ والمتفاوتةِ التي استُقِيَ منها، بالإضافةِ إلى استعمالِهِ المقتصرِ بأغلبِهِ على العرب، فليسَ منَ الملائمِ بالنسبةِ إلينا استخدامهُ كمصدرٍ في التحقّقِ من أصالتِهِ الخاصّةِ ومصداقيّتِهِ الكاملة، أساساً نحنُ لا نملكُ سوى القليلِ منَ الموادِ الإسلاميّةِ المبكرةِ التي يمكننا من خلالها تحديدُ أيِّ تاريخٍ أو وجودٍ للقرآن، أو حتّى مصادرَ الإسلام، إذن، أينَ لنا أن نعثرَ على المصادرِ الفعليّةِ للإسلام والتي جاءَ منها، إذا كانت الشكوكُ والإشكالاتُ تتخلّلُ كلاًّ منَ التّراثِ والقرآن؟

النقدُ الخارجيُّ للقرآن:

لحسنِ الحظِّ أنّنا لا نعتمدُ مليّاً على المصادرِ الإسلاميّةِ أو القرآنِ نفسه من أجلِ بياناتنا عن أصلِ القرآنِ والإسلام، كانَ هناكَ أناسٌ آخرون موجودونَ في ذلكَ الزمن، عاشوا على مقربةٍ منَ المسلمينَ وتركوا لنا مواداً يمكننا استعمالها والاعتمادُ عليها. والدليلُ من عندِ غيرِ المسلمينَ يمكنُ إيجادهُ ضمنَ كمّيّاتٍ غيرِ قليلةٍ من موادٍ منَ الأدبِ اليونانيّ، السُّريانيّ، الأرمينيّ، العبريّ، الآراميّ، والقبطيّ منذُ زمنِ الفتوحات (القرن السابع) وما بعده، كما أنّهُ بينَ أيدينا كمّيّةٌ ضخمةٌ منَ الكتاباتِ والنقوشِ العربيّةِ، والتي تعودُ في تاريخها إلى ما قبلَ التّاريخِ الإسلاميّ، إلّا أنّهُ يبدو أنَّ هذهِ الموادَ تتعارضُ وتتنافى مع أغلبِ ما جاءَ في القرآنِ والتّراث. وهذهِ هيَ المادّةُ بالذّات التي أُثبِتَ أنّها الأكثرُ فائدةً في تقييمِ وتخمينِ ما إذا كانَ القرآنُ كلمةَ اللهِ الحقيقيّةَ والنهائيّةَ فعلاً أم لا، إنّها تلكَ المادّةُ التي سيحتاجُ المسلمونَ إلى الانتباهِ إليها مستقبلاً، وهيَ المادّةُ التي يجبُ أن يوجّهوا حججهم ضدّها ويبنوا دفاعاتهم عليها. دعونا إذن نلقي نظرةً على ما جاءَ في تلكَ المواد.

3. 1) الهجرة:

تمَّ اكتشافُ ورقةِ برديٍّ يعودُ تاريخها إلى عامِ 643 م تحكي عن السنةِ الثّانيةِ والعشرين، تقولُ أنَّ شيئاً ما حدثَ عامَ 622 بينَ العرب، يتطابقُ تاريخُ ذلكَ الحدثِ مع تاريخِ الهجرة، لكن ما الذي حدثَ فعلاً، فنحنُ لا نعلمُ ذلك، لأنَّ ورقةَ البرديّ لا تخبرنا شيئاً عن ذلك. هل يمكنُ أنّها تشيرُ إلى التّاريخِ الذي تحرّكَ فيهِ محمّد وانتقلَ فيهِ من مكّةَ إلى المدينة، وليسَ شيئاً آخر، أم أنّهُ التّاريخُ الذي انطلقت فيهِ الفتوحاتُ العربيّة؟ في حينِ أنَّ التّراثَ والتّاريخَ الإسلاميَّ ينسبُ هذهِ الهجرةَ من مكّةَ إلى المدينة، إلّا أنّهما لا يقدّمانِ أيّةَ مصادرَ مبكرة (بمعنىً آخر؛ مصدراً تاريخيّاً يعودُ إلى القرنِ السّابع) يمكنُ أن تشهدَ على تاريخيّةِ هذا النزوحِ الجماعي. المخطوطةُ الأبكرُ التي نملكها هيَ سيرةٌ ذاتيّةٌ داخليّةٌ عربيّةٌ للنبيّ مدوّنةٌ على ورقِ البرديّ تعودُ إلى الفترةِ الأمويّةِ المتأخرة، وتمَّ تدوينها حوالي عام 750 م؛ أي بعدَ مئةِ عام. المادّةُ العربيّةُ التي في متناولنا (عملات، ورق بردي، مخطوطات ونقوش) جميعها تعكفُ عن تسميةِ العصرِ أو الفترة (شاهدةُ القبرِ التي تمَّ تأريخها إلى السنةِ التّاسعةِ

والعشرينَ للهجرة، والتي يستشهدُ بها الكثيرُ منَ المسلمين، لم تُعرَف إلّا من مصادرَ أدبيّةٍ لاحقة) الموادُ اليونانيّةُ والسُّريانيّةُ تشيرُ إلى تلكَ الفترة كما أشارَ إليها العرب، إلّا أنَّ هناكَ وثيقتانِ منَ الوثائقِ الكنسيّةِ النسطوريّة تعودانِ إلى عام 676 م و680 م تقدّمانِ لنا نقطةَ انطلاقٍ محدّدةً كهجرةِ الإسماعيليّينَ ليسَ فقط من داخلِ بلادِ العرب، بل من بلادِ العربِ إلى الأرضِ الموعودة، على الأرجح خارجَ بلادِ العرب، وما هيَ هذهِ الأرضُ الموعودة؟ هناكَ تراثٌ إسلاميٌّ قامَ بجمعهِ أبو داؤود يعطينا فكرةً عن ذلك. يقول: ((ستكونُ هناكَ هجرةٌ بعدَ هجرة، إلّا أنَّ أفضلَ الرّجالِ وأحسنهم هم أولئكَ الذينَ سيتبعونَ هجرةَ إبراهيم)) في حينِ أنَّ بعضَ المسلمينَ يؤكّدونَ أنّهُ يجبُ أن يؤخذَ ذلكَ في إطارٍ لاهوتيٍّ دينيّ كإشارةٍ إلى انتقالِ إبراهيمَ منَ الوثنيّةِ إلى التوحيد، ونحنُ نعتقدُ أنّهُ من الأفضلِ استبقاءُ الفهمِ التوراتيِّ واليهوديِّ لخروجِ إبراهيمَ الذي كانَ من أورِ الكلدانيّةِ إلى أرضِ كنعان، مع هاران [تكوين 11: 31 -12: 5] لذا فإنّهُ منَ المرجّحِ أن تكونَ الأرضُ الموعودةُ التي كانَ يهاجرُ إليها العرب ليست شيئاً آخرَ سوى خطِّ السّاحلِ الفلسطينيِّ السُّريانيّ، من صيدا إلى غزّة ونحوَ الداخلِ إلى مدنِ البحرِ الميّت كسدوم وعمّورة. باتريشيا كرونه في مقالتها التي تحملُ عنوان: «مفهومُ الهجرةِ في القرنِ الأوّل»، تتحدّثُ عن دليلٍ داعمٍ لحدوثِ هجرةٍ خارجَ جزيرةِ العرب. في مقالتها حولَ الهجرة، تدرجُ قائمةً بـ 57 شهادةً أو استشهاداً مقتبساً من داخلِ التّراثِ الإسلاميِّ وخارجه، تشيرُ جميعُ الاستشهاداتِ إلى حدوثِ عمليّةِ هجرةٍ، أو نزوحٍ، ليسَ من مكّةَ إلى المدينة، بل منَ الجزيرةِ العربيّةِ نحوَ الشّمال، أو إلى المدنِ والمواقعِ العسكريّةِ الحدوديّةِ المحيطة. وهذا أمرٌ لافتٌ للانتباهِ فعلاً، فأغلبُ ما ستعلّمهُ من هنا سيوافقُ _ وعلى الأرجحِ سيؤكّد_ هذهِ النتائجَ أيضاً. هذهِ المعلوماتُ عن الهجرةِ تمنحنا أوّلَ دليلٍ أو إثباتٍ محتملٍ يشيرُ إلى أنَّ أغلبَ البياناتِ التي وردت في القرآنِ والتّراثِ الإسلاميِّ ببساطة لا تتطابقُ أو تنسجمُ مع البياناتِ الخارجيّةِ الموجودة، وأنّهُ ربّما هناكَ أجندةٌ أخرى مغايرة قيدُ العملِ هنا، لننتقل إذن إلى الفقراتِ التّالية لمعرفةِ ما هيَ هذهِ الأجندة.

3. 2) القِبلة:

حسبما جاءَ في القرآن، فوجهةُ الصّلاةِ (أو القِبلة)، قد اكتملت وشُرِّعَت نحوَ مكّةَ لجميعِ المسلمينَ بعدَ الهجرةِ مباشرةً، فالتّاريخُ 624 للميلاد، تصوّرٌ ممتازٌ لهذا الحدث

[انظر الآيات: {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ} {وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ} [البقرة 2: 144، 149-150] ومع ذلك، الدليلُ المبكرُ القادمُ من خارجِ المصادرِ الإسلاميّةِ التّراثيّةِ بخصوصِ الاتّجاهِ الذي كانَ يتّجهُ إليهِ المسلمونَ لأداءِ صلواتهم، وضمناً مكانهم المقدّس، تشيرُ إلى منطقةٍ أبعدَ بكثيرٍ من مكّة، إلى الشّمالِ منها، في الواقع في مكانٍ ما في شمالٍ _ شرقِ جزيرةِ العرب. مع اعتبارِ الدليلِ الأركيولوجيِّ الذي اكتُشِفَ، وهوَ قيدُ الدراسةِ حتّى الآن من أوّلِ مسجدٍ بُنِيَ خلالَ القرنِ السّابع. طبقاً لأبحاثٍ ودراساتٍ أركيولوجيّةٍ قامَ بها كلٌّ من كريسويل Cre-swell وفيهيرفاري Fehervari على المسجدِ القديمِ في الشّرقِ الأوسط، مسجدانِ أمويّانِ من طابقينِ في العراق، أحدهما بناهُ الحجّاجُ في واسط (والذي أشارَ إليهِ كريسويل أنّهُ «المسجدُ الأقدمُ في الإسلام الذي بقيَ لنا من تلكَ الفترة»)، والآخرُ منسوبٌ إلى نفسِ الفترةِ تقريباً في بغداد (الجهةُ التي تواجهها هذهِ المساجد) فهيَ لا تواجهُ مكّة، بل موجّهةٌ إلى الشّمالِ البعيد. مسجدُ واسط بـ 33 درجة، ومسجدُ بغداد بـ 30 درجة، وهذا يوافقُ ما جاءَ في شهادةِ البلاذريّ في كتابهِ (فتوح البلدان) أنَّ قِبلةَ أوّلِ مسجدٍ هيَ في الكوفةِ بالعراق، والذي بُنِيَ حوالي عام 670 للميلاد، كما أنّها تقبعُ أيضاً نحوَ الغرب، في حينِ أنّها يجبُ أن تشيرَ غالباً مباشرةً نحوَ الشّمال. التصميمُ الأساسيُّ والأصليُّ لمسجدِ عمرَ بنِ العاص يقعُ في الفِسطاط، حاميةٌ عسكريّةٌ تقعُ خارجَ القاهرةِ بمصر، يشيرُ إلى أنَّ القِبلةَ كانت تتّجهُ مرّةً أخرى بعيداً نحوَ الشّمال وتمَّ تصحيحها فيما بعد على يدِ الحاكم قرّة بنِ شريك. وبشكلٍ لافتٍ للانتباه يتطابقُ ذلكَ مع ما جاءَ في التّراثِ الإسلاميِّ اللاّحق الذي صنّفهُ أحمدُ بنُ المقريزيّ أنَّ عُمراً صلّى متوجّهاً بعضَ الشيءِ نحوَ جهةِ جنوب _ شرق، وليسَ نحوَ الجنوب. إذا أخذنا خريطةً سنجدُ إلى أينَ تشيرُ تلكَ المساجد. هذهِ الأمثلةُ الأربعةُ السّابقة تشيرُ إلى أنَّ موقعَ القِبلةِ لم يكن نحوَ مكّة، بل أبعدَ نحوَ الشّمال،

في الواقعِ قريباً منَ القدّس. فإذن، كما سيقولُ بعضُ المسلمينَ الآن، ليسَ علينا أن نأخذَ هذهِ المكتشفاتِ على محملِ الجدِّ، فالعديدُ منَ المساجدِ في يومنا هذا تُخطئُ القِبلة، عندها علينا أن نتساءلَ لماذا، إذا كانَ المسلمونَ آنذاك غيرَ قادرينَ على تحديدِ الاتجاهات، جميعها تشيرُ إلى جهةٍ واحدةٍ غيرِ مكّة، نحوَ مكانٍ ما في شمالِ بلادِ العرب، أو منَ المحتملِ أنّها القدّس؟ يمكننا إيجادُ تشابهاتٍ أخرى لهذهِ الجهةِ للصّلاةِ عندَ الكاتبِ والرحّالةِ المسيحيِّ يعقوب الإيديسي Jacob of Edessa، الذي، يكتبُ في أواخرِ عام 705 للميلاد، كانَ شاهدَ عيانٍ في مصر، فقد أكّدَ أنَّ المهجريّةَ في مصرَ صلّوا باتّجاهِ الشّرقِ الذي كانَ نحوَ الكعبة. رسالتهُ (التي يمكنُ إيجادها في المتحفِ البريطانيّ) تكشفُ لنا الكثيرَ في الحقيقة، مكتوبةً بالسُّريانيّة، يشيرُ إلى المهجريّةِ قائلاً: ((إذن، يتّضحُ من كلِّ ذلكَ أنَّ الجنوبَ ليست الجهةَ التي يتجّهُ إليها اليهودُ والمهجريّةُ هنا في سوريا، بل نحوَ أورشليمَ أو الكعبة، الأماكنِ البطريركيّةِ الأساسيّةِ والمقدّسةِ لأعراقهم)). تنبيه: ذكرُ الكعبةِ هنا لا يعني بالضرورةِ كعبةَ مكّة (كما سيشيرُ العديدُ منَ المسلمينَ من فورهم)، إذ أنّهُ في ذلكَ الوقت كانَ هناكَ العديدُ منَ الكعبات، وعادةً ما كانت توجدُ في المدنِ التجاريّة. كريسويل، في ملاحظاتٍ عن كتابهِ في «فنُّ العمارةِ الإسلاميّة» ص 17 يشيرُ إلى مقالةِ فينستر «Kunst des Orients»، مشيراً إلى أنَّ فينستر: ((... يلفتُ الانتباهَ إلى أبنيةٍ أخرى مكعّبةِ الشّكل في جزيرةِ العرب، وردَ ذكرها في المصادرِ العربيّةِ التّراثيّةِ المبكرة، ويقترحُ أنَّ الكعبةَ كانت تمثّلُ جزءاً منَ التّراثِ العمرانيّ العربيّ في ذلكَ الوقت)) فقد كانَ منَ المفيدِ والمربح بناءُ كعبةٍ في هذهِ المدنِ التجاريّةِ المليئةِ بالأسواق لكي يحجَّ إليها النّاسُ القادمونَ إلى المدينة للتسوّقِ أو للتضرّعِ للأصنامِ التي تحتويها. الكعبةُ التي أشارَ إليها يعقوبُ الإيديسي تقعُ في «الأماكنِ الأبويّةِ المقدّسةِ للأعراق»، والتي أكّدَ أيضاً أنّها لا تقعُ في الجنوب. فاليهودُ والعربُ (المهجريّة) يؤكّدُ أنّهم من نسلِ إبراهيمَ الذي عُرِفَ عنهُ أنّهُ عاشَ وماتَ في فلسطين، وهذا ما أكّدتهُ الاكتشافاتُ الأركيولوجيّةُ الأخيرة (انظر النقاشَ حولَ ألواحِ إيبلا وماري، بالإضافةِ إلى الإشاراتِ التوراتيّةِ الإضافيّةِ التي تعودُ إلى القرنِ العاشرِ إلى إبراهيم) هذا الهبوطُ المشتركُ من إبراهيم تمَّ تأكيدهُ أيضاً من قِبَلِ مؤرّخٍ أرمنيٍّ حوالي العام 660 للميلاد. لذلك، وحسبَ أقوالِ يعقوب الإيديسي، في

أواخرِ عامِ 705 للميلاد، إنَّ جهةَ الصّلاةِ نحوَ مكّة لم تكن مشروعةً بعد. د. كرونه، في مقالتها 1994 «مفهومُ القرنِ الأوّلِ للهجرة» تضيفُ اكتشافاً جديداً قد يشيرُ إلى أنَّ القدّسَ أو أورشليم كانت أوّلَ وجهةٍ للقِبلةِ المبكرة. دراسةٌ جديدةٌ قامت بها باتريشيا كارلاير على قصورِ الخلفاءِ الأمويّينَ الصيفيّةِ تقول: أنَّ المساجدَ في هذهِ القصور لديها قِبلةٌ موجّهةٌ نحوَ القدّسِ أيضاً. وفق أبحاثٍ ودراساتٍ د. هاوتينغ، الذي يدرّسُ مناهجَ عن مصادرِ الإسلامِ في معهدِ الدراساتِ الاستشراقيّةِ والإفريقيّةِ (SOAS) بلندن، لم يتمَّ اكتشافُ أيّةِ مساجدَ تعودُ لهذهِ الفترة (القرنِ السّابعِ الميلادي) مواجهةً لمكّة، والحالُ، أنَّ هاوتينغ ينبّهنا أن ليسَ كلُّ المساجدِ تتّخذُ القدّسَ قِبلةً لها. فبعضُ المساجدِ الأردنيّةِ تتوجّهُ نحوَ الشّمال، في حينِ أنَّ هناكَ مساجداً شمالَ أفريقيّةٍ محدّدةً تتوجّهُ نحوَ الجنوب، ممّا يدلُّ على أنّهُ كانَ هناكَ حالةٌ منَ الارتباكِ والحيرةِ حولَ المكانِ المقدّسِ واتجاهه، ومع ذلك يؤكّدُ القرآنُ أنَّ القِبلةَ تمَّ توجيهها نحوَ مكّة قرابةَ عام 624 للميلاد وبقيت هكذا حتّى وقتنا الحاضر. إذن، حسبَ كرونه، كوك، كارلاير، وهاوتينغ، مجموعةُ الأدلّةِ الأثريّةِ منَ العراق بالإضافةِ إلى الدليلِ الأدبيِّ من سوريا ومصرَ جميعها تشيرُ بوضوحٍ إلى حَرَمٍ [يعني وجهةً للصّلاة] لكن ليسَ في الجنوب، بل في مكانٍ ما في شمالِ_غربِ جزيرةِ العرب (أو حتّى الشّمالِ الأقصى) على الأقلّ حتّى نهايةِ القرنِ السّابعِ الميلادي.

ماذا يحصلُ هنا، لماذا لا تتوجّهُ المساجدُ المبكرةُ نحوَ مكّة، لماذا هذا التناقضُ بينَ القرآنِ وما يكشفهُ لنا علمُ الآثار، بالإضافةِ إلى الوثائقِ التي تعودُ إلى عامِ 705 للميلاد؟ يجادلُ بعضُ المسلمينَ أنَّ ذلكَ مردّهُ إلى أنَّ المسلمينَ الأوائل لم يكونوا يعرفونَ جهةَ مكّة، ومع ذلك كانت هناكَ طرقاتٌ تجاريّةٌ في الصحراء، قوافل، إذ أنَّ نمطَ حياتهم كانَ يعتمدُ على الترحالِ والسّفرِ في الصّحراء الفقيرةِ بالمعالمِ الجغرافيّة _وبسببِ العواصفِ الرمليّة_ والطرقات، والأهمُّ من ذلكَ أنّهم كانوا يعرفونَ طرقَ الاستدلالِ بالنجوم، فحياتهم كانت تعتمدُ على ذلك. بالتأكيدِ كانوا يعرفونَ الفرقَ بينَ الشّمالِ والجنوب، إضافةً إلى ذلك، المساجدُ في العراقِ ومصرَ كانت تبنى داخلَ مناطقَ متحضّرةٍ ومنظّمة، بينَ أناسٍ مثقّفينَ وأذكياءَ بارعينَ في تحديدِ الاتّجاهات. من غيرِ المحتملِ أنّهم قد أخطئوا في تحديدِ وحسابِ قِبَلِهِم بعدّةِ درجات. إذ كيفَ كانَ لهم أن يؤدّوا فريضةَ الحجِّ المُلزمةَ

والمفروضةَ عليهم، والتي كما قيلَ لنا كانت مشروعةً في ذلكَ الوقت، ولماذا كلُّ هذا العددِ منَ المساجدِ التي تتوجّهُ نحوَ شمالِ جزيرةِ العرب، أو ربّما القدّس؟ الجوابُ قد يكمنُ في مكانٍ آخر، إلّا أنّي سأفترضُ أنَّ هناكَ سببينِ على الأرجحِ لهذا التعارض: 1) أنَّ العلاقةَ كانت ما تزالُ جيّدةً بينَ المسلمين (الذينَ كانوا يُسمّونَ بالمهاجريّن، العربُ المسلمين أو المهجريّن) وبينَ اليهود، وفي النهاية، لم تكن هناكَ أيّةُ حاجةٍ لتغييرِ جهةِ القِبلة (حتّى القرآنُ نفسهُ يعترفُ أنَّ القِبلةَ كانت في الأصلِ نحوَ القدّس: {وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ} [البقرة 2: 143][1]، {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ} [البقرة 2: 144][2] 2) أنَّ مكّةَ لم تكن معروفةً بعدُ جيّداً.

3. 3) اليهود:

يقولُ القرآنُ أنَّ محمّداً قطعَ علاقتهُ باليهود عامَ 624 للميلاد (أو مباشرةً بعدَ الهجرةِ عام 622 م)، وبذلكَ نقلَ القِبلةَ في تلكَ الفترة [البقرة2: 144، 149-150]. والحالُ، أنَّ المصادرَ غيرَ الإسلاميّةِ المبكرة تصفُ العلاقةَ الجيّدةَ التي كانت بينَ المسلمينَ واليهودِ في زمنِ الفتوحاتِ الأولى (أواخرَ عام 620 م)، وحتّى بعدَ ذلك. دوكترينا ياكوبي على سبيلِ المثال، الشهادةُ الأبكرُ عن محمّدٍ و«تحرّكهِ» موجودةٌ خارجَ إطارِ التّراثِ الإسلاميّ، كرّاسةٌ يونانيّةٌ معاديةٌ لليهودِ تسمّى (Doctrina Iacobi) تمّت كتابتها في فلسطينَ خلالَ الفترةِ ما بينَ 634 و640 للميلاد. تتضمّنُ الدوكترينا تحذيراً منَ اليهودِ الذينَ يختلطونَ بالعربِ المسلمين، وخطرَ السُّقوطِ في أيدي هؤلاءِ اليهودِ والعربِ المسلمين. في الواقع، يبدو من هذهِ العلاقةِ أنّها لإضفاءِ طابعِ الحقِّ على الغزوِ الذي جرى ذكرهُ في المصدرِ الأرمينيِّ المبكر أنَّ حاكمَ مدينةِ القدّسِ بعدَ الغزوِ كانَ يهوديّاً. المهمُّ هنا هوَ

(1) يقولُ ابنُ كثير في تفسيرهِ للآية: ((إنّما شرّعنا لكَ يا محمّدُ التوجّهَ أوّلاً إلى بيتِ المقدس، ثمَّ صرفناكَ عنها إلى الكعبةِ ليظهرَ حالُ من يتّبعكَ ويطيعك)).

(2) يوردُ ابنُ كثير في تفسيرهِ الحديثَ الآتي: ((قالَ عليُّ بن أبي طلحة عن ابنِ عبّاس: كانَ أوّلُ ما نُسِخَ منَ القرآنِ القِبلةَ، وذلكَ أنَّ رسولَ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم، لمّا هاجرَ إلى المدينةِ وكانَ أكثرُ أهلها اليهود، فأمرهُ اللهُ أن يستقبلَ بيتَ المقدس، ففرحت اليهودُ فاستقبلها رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم بضعةَ عشرَ شهراً، وكانَ يُحِبُّ قِبلةَ إبراهيم، فكانَ يدعو إلى اللهِ وينظرُ إلى السّماء فأنزلَ الله {قد نرى تقلّبَ وجهكَ في السّماء})).

احتمالُ أنَّ اليهودُ والعربَ كانوا في حالةِ تحالفٍ زمنَ غزوِ فلسطين، واستمرَّ تحالفهم لفترةٍ ليست بالقصيرةِ فيما بعد. تثبتُ حالةُ الألفةِ التي جمعت اليهودَ والعرب، والتي ذُكِرَت في وثيقةِ دوكترينا، إشاراتٍ إلى حالةِ العداءِ للمسيحيّةِ من جهةِ الغزاةِ المتحالفين، فحسبَ بونفيتش، فهيَ تذكرُ تحوّلَ أحدِ اليهودِ والذي يحتجُّ أنّهُ لن ينكرَ المسيحَ كابنٍ للرّبّ حتّى وإن أمسكَ بهِ اليهودُ والمسلمونَ وقطّعوهُ إلى قطعٍ وأشلاء. منَ الواضحِ تماماً أنَّ الكاتبَ كانَ يؤمنُ أنَّ العربَ واليهودَ كانوا أحلافاً مع بعضهم حتّى زمنِ الفتح. إنَّ أصالةَ ومصداقيّةَ هذا الخبرِ مؤكّدةٌ من قِبَلِ المُصنِّفِ الكبيرِ محمّدِ بنِ إسحاق، واضعُ سيرةِ محمّد، في وثيقةٍ موسومةٍ بعنوانِ «ميثاقِ المدينة»، في هذهِ الوثيقةِ يظهرُ اليهودُ كمجتمعٍ مكوّنٍ وحدة (أمّةً واحدة) مع مؤمنينَ بدينهم لهم دينهم الخاصّ وموزّعينَ بلا أسماءٍ بينَ عددٍ منَ القبائلِ العربيّة، وبما أنّهُ منَ المحتملِ أنَّ هذهِ الوثيقةَ _ طبقاً لكلٍّ منَ كرونه وكوك_ هيَ من أقدمِ وثائقِ التّراثِ الإسلاميّ، فانسجامها وتوافقها مع الرّواياتِ والأخبارِ الخارجيّةِ الأسبقِ عن أصلِ الإسلامِ ونشأتهِ على درجةٍ كبيرةٍ منَ الأهمّيّة. إذا كانت هذهِ الشهاداتُ حقيقيّةً وصحيحة عندها علينا أن نسألَ كيفَ حدثَ وأن أصبحَ اليهودُ والعربُ المسلمونَ حلفاءَ أواخرَ عامِ 640 م، في حينِ أنَّ محمّداً _حسبما جاءَ في القرآنِ_ قطعَ علاقاتهِ باليهودِ خلالَ عامِ 624؛ أي قبلَ هذهِ الأحداثِ بخمسةَ عشرَ عاماً؟ المؤرّخُ الأرمنيُّ عام 660 م للإجابةِ عن ذلك نحنُ بحاجةٍ للإشارةِ إلى خبرٍ أبكرَ ذي صلةٍ بسيرةِ النبيّ، وردَ الخبرُ ضمنَ سجلٍّ أرمنيٍّ يعودُ تاريخهُ إلى 660 م، والذي نُسِبَ من قِبَلِ البعضِ إلى الأسقفِ سيبيوس Bishop Sebeos. يصفُ المؤرّخُ كيفَ أنَّ محمّداً أسّسَ جاليةً جمعت كلاً منَ الإسماعيليّين [1](أي العرب) واليهود، وأنَّ أرضيتهم المشتركةَ كانت تتمثّلُ بانحدارهم جميعاً من نسلِ إبراهيم، العربُ من إسماعيل، واليهودُ من إسحاق، كانَ المؤرّخُ يرى أنَّ محمّداً وهبَ كلا المجتمعينَ الحقَّ بالأرضِ المقدّسةِ والموعودة، في حينِ أنّهُ يقدّمُ لهم آتياً نسباً توحيدياً موحّداً، وهذا كلامٌ ليسَ من دونِ سابقة، إذ أنَّ فكرةَ حقِّ ولادةِ إسماعيليٍّ في أرضِ الميعاد قد تمّت مناقشتها قبلَ ذلك ورفضها ضمنَ سفرِ رابّاه (61: 7)، في التلمودِ البابليّ وكتابِ يوبيل (التهليل). وهكذا

(1) نسبةً إلى إسماعيلَ بنِ إبراهيم.

فإنَّ رؤيةَ محمّدٍ لم تكن جزيرةَ العرب، بل كانت موجّهةً نحوَ فلسطين، بالمرافقةِ مع اليهود، وهي ميزةٌ، طبقاً للبحثِ الذي أجراهُ جي. بي. كابوت مثبتةٌ بشكلٍ مستقلٍّ ضمنَ التّراثِ التّاريخيِّ اليعقوبيّ. اللافتُ للانتباه، وطبقاً لبحثٍ مشتركٍ قامَ بهِ كلٌّ منَ كرونه وكوك، بقيَ التوجّهُ نحوَ فلسطينَ حتّى في التّراثِ والتقاليدِ الإسلاميّة، مع تمويهِ فلسطين على أنّها سوريا. ونحنُ لا نحتاجُ سوى إلى الرجوعِ لكتاباتِ داؤودَ سليمانَ بنِ الأشعثِ السجستاني، وأحمدَ بنِ محمّدِ بنِ حنبل لنجدَ أنَّ النبيَّ أوصى بسوريا على أنّها الأرضُ التي اختارها اللهُ للمختارينَ من عباده. هذهِ الاستنتاجاتُ ستتناسبُ أيضاً بشكلٍ جيّد مع التأكيدِ المذكورِ سابقاً من قِبَلِ كرونه عن هجرةِ العرب، أو النزوحِ منَ الجزيرةِ العربيّةِ نحوَ الشّمال، وببساطةٍ أكبر، بينَ مدنِ الجزيرةِ العربيّة. الانفصالُ بينَ اليهودِ والعرب، حسبما أوردهُ المؤرّخُ الأرمنيُّ عامَ 660 م، جاءَ بعدَ فتحِ القدّس عام 640 م.

مرّةً أخرى نجدُ عدداً منَ المصادرِ غيرِ الإسلاميّةِ التي تعارضُ القرآن، مؤكّدةً أنّهُ كانت هناكَ علاقةٌ طيّبةٌ بينَ العربِ واليهود دامت على الأقلّ أكثرَ من خمسةَ عشرَ عاماً؛ أي تتجاوزُ الفترةَ التي حدّدها القرآن. إذا كانت فلسطينُ مركزَ اهتمامِ العرب، عندها ينبغي علينا أن نبحثَ عن دورِ مدينةِ مكّة.

4.3) مكّة:

يؤكّدُ المسلمونَ أنَّ «مكّةَ هيَ مركزُ العالمِ الإسلاميّ، ومركزُ التاريخ». حسبَ القرآن، {أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ [مكة] مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ} [آل عمران 3: 96]. وفي الآيات {وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ} [الأنعام 6: 92] و{وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ} [الشّورى 42: 5] هنا نجدُ أنَّ مكّةَ هيَ «أمُّ القرى». حسبَ التّراثِ الإسلاميّ، آدمُ هوَ من وضعَ الحجرَ الأسودَ في المكانِ الأصليِّ للكعبةِ الحاليّة، في حينِ أنَّ القرآنَ [سورة البقرة2: 127-125] يقولُ أنَّ إبراهيمَ مع ابنهِ إسماعيل قاما بترميمِ الكعبةِ وإعادةِ بناءها بعدَ ذلكَ بعدّةِ سنوات، وهكذا بالنتيجة، تعدُّ مكّة من

قِبَلِ المسلمينَ بأنّها أوّلُ وأهمُّ مدينةٍ في العالم. باستثناءِ الصعوبةِ البالغةِ والواضحةِ في إيجادِ أيِّ دليلٍ وثائقيٍّ أو أثريٍّ يدلُّ على أنَّ إبراهيمَ ذهبَ إلى مكّةَ وعاشَ بها، الإشكاليّةُ الأصعبُ تكمنُ في العثورِ على أيِّ دليلٍ أو إشارةٍ إلى هذهِ المدينةِ قبلَ ظهورِ الإسلام. من بحثٍ قامَ بهِ كلٌّ من كوك وكرونه، الإشارةُ المفترضةُ الأولى والوحيدة ما قبلَ الإسلاميّةِ إلى مكّة مجرّدُ تخمينٍ لمدينةٍ كانَ يطلقُ عليها اسمُ «مكربة» من قِبَلِ الجغرافيِّ اليونانيِّ المصريِّ بطليموس Ptolemy منتصفَ القرنِ الثّاني للميلاد، إلّا أنّنا لا نعرفُ حقَّ المعرفة ما إذا كانت هذهِ الإشارةُ التي ضمّنها بطليموس تشيرُ إلى مكّة، إذ أنّهُ لا يذكرُ سوى الاسمْ ولا شيءَ آخر، إضافةً إلى ذلك، حسبما تقولُ د. كرونه، الجذرُ الثلاثيُّ العربيُّ لكلمةِ مكّة (ملكّ) لا تتطابقُ على الإطلاقِ مع الجذرِ الثلاثيِّ لكلمةِ مكربة «كربَ» (حيثَ أنَّ الحرفينِ «مك» اللذينِ يسبقانِ «ربة» يعنيانِ: مكان) إذن؛ ليسَ هناكَ أيُّ خبرٍ على الإطلاقِ عن مكّةَ أو كعبتها ضمنَ أيِّ وثيقةٍ تاريخيّةٍ قديمةٍ أو عتيقة، هذا حتّى حوالي نهايةِ القرنِ السّابع. في الواقع، يقولُ كلٌّ من كوك وكرونه: ((الإشاراتُ الأبكرُ هيَ تلكَ التي عُثِرَ عليها في النسخةِ السُّريانيّةِ لأبوكاليبس سيودو-ميثوديوس)). بأيِّ حال، وبالرّغمِ من أنَّ الأبوكاليبس نفسها يعودُ تاريخها إلى أواخرِ القرنِ السّابعِ للميلاد، فالإشارةُ إلى مكّةَ غيرُ موجودةٍ إلّا في النسخِ المتأخّرة، ولا يتمُّ تقديمها في التّراثِ الأوروبيِّ أو السّوريِّ المتأخّر، كما أنّها لا تظهرُ في نصِّ الفاتيكان، الذي يعدُّ من قِبَلِ العديدِ منَ الاشتقاقيّينَ بأنّهُ النصُّ الأقدم.

الإشارةُ التّاليةُ إلى مكّة، حسبَ كوك وكرونه، جاءت من مصدرٍ يعودُ تاريخهُ إلى الفترةِ المبكرةِ من حكمِ الخليفةِ هشام، الذي حكمَ بينَ 724-743م. لذلك، فالدليلُ الإثباتيُّ الأسبقُ لدينا عن وجودِ مكّة يبعدُ مئةَ عامٍ كاملةٍ عن التّاريخِ الذي حدّدهُ كلٌّ منَ القرآنِ والتّراثِ الإسلاميّ. لماذا؟ طبعاً، إذا كانت مكّةُ مدينةً على هذهِ الدرجةِ منَ الأهمّيّة، فلا بدَّ أن يكونَ أحدٌ ما، في مكانٍ ما، قد ذكرها، إلّا أنّنا لا نجدُ شيئاً، ما عدا إشارةٍ صغيرةٍ ومقتضبةٍ من بطليموس قبلَ ذلكَ بخمسمئةِ عام، وهذهِ التصريحاتُ المبدئيّةُ في الجزءِ الأخيرِ منَ القرنِ السّابعِ وبواكيرِ القرنِ الثّامن. وهذا ليسَ كلَّ شيء، إذ أنَّ المسلمينَ يؤكّدونَ أنَّ مكّةَ لم تكن فقط مدينةً عريقةً وعظيمة، بل أنّها كانت مركزَ الطرقِ التجاريّةِ

في جزيرةِ العرب خلالَ القرنِ السّابعِ وما قبله. رغمَ ذلك، وطبقاً للدراسةِ الشّاملةِ التي أجراها بوليي Bulliet على تاريخِ التجارةِ في منطقةِ الشّرقِ الأوسطِ القديم، هذهِ المزاعمُ التي يطلقها المسلمونَ خاطئةٌ تماماً، إذ أنَّ مكّة وببساطةٍ شديدة لم تكن تقعُ في مركزِ الطريقِ التجاريِّ الرئيس، والسببُ هوَ أنَّ «مكّةَ تقعُ على حافّةِ شبهِ الجزيرةِ العربيّة، ولا يمكنُ ملاحظتها إلّا بواسطةِ قراءةٍ مضنيةٍ للخريطة، ومنَ الصعبِ وصفها بأنّها تقاطعُ طريقٍ طبيعيٌّ بينَ الشّرقِ والغرب، أو الشّمالِ والجنوب»، وهذا يتوافقُ مع بحثٍ آخرَ قامَ بهِ كلٌّ من غروم Groom وموللر Muller، والذي جاءَ فيهِ أنَّ مكّةَ من غيرِ الممكنِ أنّها كانت تقعُ على طريقٍ تجاريّ، إذ أنّها كانت تستلزمُ انعطافاً غيرَ مجدٍ عن الطريقِ الطبيعيّ. في الواقع، هما يؤكّدانِ أنَّ الطريقَ التجاريَّ كانَ يتخطّى مكّةَ ويتجاوزها بأكثرَ من مئةِ ميل. تضيفُ باتريشيا كرونه في كتابها «التجارةُ المكيّةُ وظهورُ الإسلام» سبباً عمليّاً، غالباً ما أُغفِلَ من قِبَلِ المؤرّخينَ السابقين، فهيَ تشيرُ إلى أنَّ ((مكّةَ كانت مكاناً مقفراً ومُجدِباً، والمكانُ المقفرُ لا يسوى أن يكونَ محطّة، إذ أنَّ تلكَ المناطقَ المقفرة تصلحُ لأن تكونَ محطّاتٍ على أقلِّ تقدير عندما تكونُ على مسافاتٍ قصيرةٍ ليست ببعيدةٍ عن بيئاتٍ خضراءَ وغنيّة. ما حاجةُ أن تقومَ القوافلُ بالهبوطِ إلى الوادي القاحلِ لمكّةَ في حينِ أنّها بإمكانها التوقّفُ في الطّائف. طبعاً كانَ يوجدُ في مكّةَ بئرٌ ومقام، لكنَّ هذينِ الشيئين موجودانِ هناكَ في الطّائفِ أيضاً، بالإضافةِ إلى الغذاءِ والمؤنِ أيضاً)) إضافةً إلى ذلك، تقولُ باتريشيا كرونه متسائلةً: ((لنا أن نتساءلَ ما هيَ نوعيّةُ السّلعِ والبضائعِ التي كانت متوافرةً في الجزيرةِ العربيّةِ يمكنُ نقلها كلَّ هذهِ المسافة، داخلَ مثلِ هذهِ البيئةِ المقفرةِ وغيرِ المضيافة، ويمكنُ بيعها بربحٍ كبيرٍ كافٍ لأن يدعمَ عمليّةَ نموِّ وازدهارِ مدينةٍ تقبعُ في موقعٍ حدوديٍّ محرومٍ من أيّةِ مصادرَ طبيعيّة؟)) لم يكن البخّورَ طبعاً، أو التوابلَ أو أيّةَ سلعٍ غريبةٍ أخرى، كما أعلنَ العديدُ منَ الكتّابِ والمُصنّفينَ الأوائلِ الذينَ يفتقرونَ للمصداقيّةِ والموثوقيّة.

تشيرُ د. كرونه في كتابها عن التجارةِ المكيّةِ إلى أنّهُ من بينِ الخمسةَ عشرَ نوعاً منَ التوابلِ التي نُسِبَت إلى مكّة: ستّةٌ منها صارت قديمةً واندثرت قبلَ القرنِ السّادس، نوعانِ كانا يستوردانِ عن طريقِ البحر، نوعانِ كانا من شرقِ إفريقيا حصراً، نوعانِ كانا من الأنواعِ

الرديئةِ دونَ المستوى، وهكذا لم تتمَّ المتاجرةُ بهما، نوعٌ هويّتهُ كانت تشكّلُ إشكاليّةً كبيرة، ونوعانِ لا يمكنُ تمييزهما مطلقاً، وبذلك، ولا نوعٌ منَ الأنواعِ الخمسةَ عشرَ للتوابل يمكنُ نسبهُ إلى مكّة. إذن، ما هوَ الطريقُ التجاريُّ الذي كانت تشتهرُ بهِ مكّة؟ يؤكّدُ بعضُ المسلمينَ أنّهُ للإبداعِ أو لجمعِ الجمال، ومعَ ذلكَ لنا أن نتعجّب: أفي هذا المكانِ المقفرِ والبيئةِ الفقيرة؟ حسبَ دراسةٍ أحدثَ أكثرَ موثوقيّةً لكلٍّ من كيستر وشبرينغر، نلاحظُ أنَّ العربَ انخرطوا في تجارةٍ أبسطَ وأقلَّ تعقيداً، تتضمّنُ كلاً منَ الجلدِ واللباس، ومن غيرِ المعقولِ أن تكونَ تجارةٌ قائمةٌ على مثلِ هذهِ المواد أن تؤسّسَ إمبراطوريّةً تجاريّةً كبيرة ذاتَ أبعادٍ دوليّة، والحالُ، أنَّ المشكلةَ الفعليّةَ بمكّة هيَ أنَّ شبهَ جزيرةِ العرب كانت تفتقرُ لطريقِ تجارةٍ عالمي، ناهيكَ عن مكّة، قبلَ ولادةِ محمّدٍ بقرن. يبدو أنَّ أغلبَ بياناتنا في هذا الحقلِ كانت مزوّرةً ومنحولةً منذُ البداية، وذلكَ مردّهُ إلى البحثِ السطحيِّ وغيرِ الموضوعيِّ للمصادرِ الأصليّة، الذي نفّذهُ لامينز، «باحثٌ غيرُ جديرٍ بالثقة»، وتمَّ ترديدهُ من قِبَلِ العديدِ منَ المستشرقينَ العظماء كواتس، شعبان، رودنسون، هيتي، لويس، وشهيد. لامينز، مستخدماً مصادرَ تعودُ إلى القرنِ الأوّل (مثلَ بيريبلوس 50م، وبلّيني 79م) كانَ عليهِ أن يرجعَ إلى مؤرّخينَ ومصادرَ تاريخيّةٍ يونانيّةٍ وبيزنطيّةٍ ومصريّةٍ تعودُ إلى القرنِ السّادسِ الميلادي، وذلكَ لأنّها قريبةٌ من تلكَ الأحداث (مثلَ كوسماس، بركوبيوس وتيودريتوس)، ولأنّهم لم يكونوا فقط تجّاراً، رحّالةً، جغرافيّين، بل مؤرّخينَ أيضاً، فهم كانوا يعرفونَ المنطقةَ والمرحلةَ الزمنيّة، وبذلكَ سيكونونَ هم الأقدرَ على تقديمِ صورةٍ أكثرِ دقّةً ومعقوليّةً لنا. لو أشارَ إلى هؤلاءِ المؤرّخينَ المتأخرين لوجدَ أنَّ الطريقَ التجاريَّ اليونانيَّ بينَ الهندِ والبحرِ الأبيضِ المتوسّط كانَ طريقاً بحريّاً ملاحيّاً بالكاملِ بعدَ القرنِ الميلاديِّ الأوّل، ولسنا بحاجةٍ إلّا إلى إلقاءِ نظرةٍ سريعةٍ على الخريطةِ لنعرفَ السّبب، فمن غيرِ المجدي نقلُ البضائعِ عبرَ هذهِ المسافاتِ عن طريقِ البرّ حيثُ المياهُ قريبةٌ وتقدّمُ طرقاً أسهلَ وأسرع. تشيرُ باتريشيا كرونه إلى أنّهُ في روما الديوقليطيّة كانَ منَ الأرخصِ نقلُ القمحِ 1250 ميلاً عن طريقِ البحر أكثرَ من نقلهِ خمسينَ ميلاً عبرَ البرّ. المسافةُ من نجرانَ، اليمن في الجنوب، إلى غزّةَ في الشّمال كانت ما يقاربُ حوالي 1250 ميل. لماذا سيقومُ التجّارُ بنقلِ بضائعهم منَ الهندِ عن طريقِ البحر، ثمَّ إنزالِ

الحمولةِ في عَدِن، حيثُ سيتمُّ تحميلها على ظهورِ الجمالِ الأبطءِ والأكثرِ تكلفةً لتعبرَ بجهدٍ الصّحراءَ العربيّةَ القاحلةَ والعدائيّةَ إلى غزّة، في حينِ أنَّ بإمكانهم وببساطةٍ شديدة تركُ الحمولةِ على ظهرِ السفنِ والعبورُ بها من مضيقِ هرمز، ثمَّ دخولِ البحرِ الأحمرِ والوصولِ إلى غزّة بشكلٍ أسرعَ وأرخصَ ومريحٍ أكثر؟ هناكَ مشكلةٌ أخرى أيضاً، لو أنَّ لامينز درسَ مصادرهُ بشكلٍ أفضلَ وأعمق، لوجدَ أيضاً أنَّ التجارةَ اليونانيّةَ _ الرومانيّة قد انهارت خلالَ القرنِ الثّالثِ الميلادي، لذا وخلالَ فترةِ حياةِ محمّد لم يكن هناكَ أيُّ طريقٍ برّي، ولا أيّةُ أسواقٍ رومانيّةٍ تؤدّي إليها الطريق، ولوجدَ أيضاً أنَّ ما بقيَ منَ التجارة وقعَ تحتَ سيطرةِ الأثيوبيّينَ وليسَ العرب، وأنَّ مدينةَ أدوليس على السّاحلِ الأثيوبيِّ للبحرِ الأحمر كانت مركزَ الطريقِ التجاريِّ في تلكَ المنطقة وليسَ مكّة. والأهمُّ من ذلك، هل أمضى لامينز وقتاً كافياً في دراسةِ المصادرِ اليونانيّةِ المبكرة؟ لو فعل ذلك لوجدَ أنَّ الإغريقَ أو اليونانيّين الذينَ كانت تذهبُ البضائعُ التجاريّةُ إليهم لم يسمعوا مطلقاً عن مدينةٍ اسمها مكّة، لو كانت مكّة على هذهِ الدرجةِ منَ الأهمّيّة كما يزعمُ المسلمونَ وأغلبُ المستشرقينَ اليوم، فلا بدَّ أنّهُ سيلاحظُ وجودها تلكَ الشّعوبُ المثقّفةُ والمتطوّرة التي تذهبُ البضائعُ التجاريّةُ إليها، إلّا أنّنا لا نجدُ شيئاً. تشيرُ كرونه في عملها أنّهُ وردَ اسمُ مدينةِ الطّائفِ في المعاملاتِ والوثائقِ التجاريّةِ اليونانيّةِ (وهيَ مدينةٌ قريبةٌ من مكّة في وقتنا الحاضر)، ومدينةِ يثرب، بالإضافةِ إلى خيبرَ في الشّمال، دونَ ذكرِ أيِّ شيءٍ عن مكّة، وحتّى السّاسانيّونَ الفُرس، الذينَ توغّلوا في أراضٍ من شبهِ الجزيرةِ خلالَ الفترةِ ما بينَ 309 و570 للميلاد وردت في معاملاتهم ووثائقهم أسماءُ مدنٍ يثرب، تهامة، ولكن ليسَ مكّة، وهذهِ إشكاليّةٌ فعلاً. لو أنَّ المستشرقينَ اللاّحقينَ أتعبوا أنفسهم قليلاً ودرسوا المصادرَ التي اعتمدَ عليها لامينز وسلّطوا عليها ضوءَ البحثِ الدقيقِ والمسائلةِ الجادّة، لأدركوا أنّهُ منذُ أن أُلغِيَ خطُّ البرِّ التجاريِّ خلالَ القرنِ الميلاديِّ الأوّل، فمنَ المؤكّدِ أنّهُ لم يُستخدَم خلالَ القرنينِ الخامسِ أو السّادسِ الميلاديين، وكلُّ ما كُتِبَ من وثائقَ ومعاملاتٍ تتعلّقُ بمكّة لجرى تصحيحها قبلَ الآن بزمنٍ طويل.

أخيراً، مشكلةُ تحديدِ موقعِ مكّةَ في المصادرِ اللادينيّةِ المبكرة ليست مشكلةً فريدة، إذ أنَّ هناكَ بعضَ الحيرةِ والخلطِ ضمنَ المصادرِ التّراثيّةِ الإسلاميّةِ حولَ الموقعِ الأصليِّ الذي

ظهرت فيه مكّةُ بالضبط[1]. حسبَ دراسةٍ قامَ بها جي. فان إيس، على الحربين الأهليتين الأولى والثّانية، هناكَ عددٌ منَ النّاسِ ساروا منَ المدينةِ إلى العراق عن طريقِ مكّة، إلّا أنَّ مكّةَ تقعُ جنوبَ غربِ المدينة، أمّا العراقُ فتقعُ شمالَ شرقِ المدينة، لذا نجدُ أنَّ المقامَ والقِبلةَ في الإسلام، حسبَ هذهِ الأخبار كانا في وقتٍ ما نحوَ شمالِ المدينة، وهوَ اتّجاهٌ معاكسٌ ومخالفٌ تماماً لاتّجاهِ مكّةَ اليوم! ما زلنا أمامَ معضلة. إذا لم تكن مكّةُ ذلكَ المركزَ التجاريَّ العظيمَ المزعومَ من قِبَلِ المسلمين، إذا لم تكن معروفةً لأولئكَ الذينَ عاشوا وكتبوا من تلكَ الفترة، وإذا لم يكن باستطاعتنا تصنيفها على أنّها «مدينةٌ كاملة» خلالَ فترةِ حياةِ محمّد، فمنَ المؤكّدِ أنّها لم تكن مركزَ العالمِ الإسلاميِّ في ذلكَ الوقت، إذن، من أيِّ نوعٍ منَ المدنِ كانت؟... الجوابُ ليسَ منَ الصّعبِ تخمينه، فقد سبقَ وأجبنا عليه، منَ الواضحِ أنَّ أورشليمَ أو القدّس هيَ التي كانت مركزَ العالمِ الإسلاميِّ ومقامَ وقِبلةَ الهاجريّين، أو المغربيّين (تسميةٌ قديمةٌ كانت تطلقُ على العرب) حتّى حوالي عام 700 للميلاد. نقاشنا السّابقُ فيما يتعلّقُ بالهجرةِ والقِبلةِ عندَ اليهود كانت نحوَ الشّمال، منَ المحتملِ أنَّ فلسطينَ كانت مقصدَ الهجرة، التي كانت في الشّمالِ الغربيِّ للجزيرةِ العربيّةِ والتي كانَ الهاجريّونَ يتّجهونَ صوبها للصّلاة، وأنَّ عمليّةَ غزوها تمّت جنباً إلى جنب مع اليهود، أضِف إلى ذلك حقيقةً أخرى قد تساعدنا في استيعابِ الأمرِ بشكلٍ أوضح:

3. 5) قبّةُ الصخرة:

في قلبِ القدّسِ هناكَ هيكلٌ جليلٌ ومقدّس (حتّى يومنا هذا) يطلقُ عليهِ اسمُ قبّةِ الصخرة، بناها عبدُ الملكِ بنُ مروان عام 691 م. بأي حال، سنلاحظُ أنَّ قبّةَ الصخرةِ ليست مسجداً، كما أنّها ليست قِبلةً، فهيَ مبنيّةٌ كمثمّنٍ بثمانيةِ أعمدة، ممّا يدلُّ على أنّها كانت تستخدمُ للطّوافِ حولها، لذلكَ يبدو أنّها بُنيَت كمقام، وفي وقتنا الحاضر تعدُّ قبّةُ الصخرةِ أنّها ثالثُ أقدسِ مكانٍ في الإسلام، بعدَ مكّةَ والمدينة. يزعمُ المسلمونَ أنّها بُنيَت لتخليدِ ذكرى الليلةِ التي صعدَ فيها محمّدٌ إلى السّماءِ وتحدّثَ مع موسى والله فيما يتعلّقُ بعددِ الصّلواتِ المفروضةِ على المسلمين (وتعرفُ بليلةِ المعراج) مع أنَّ -حسبَ دراسةٍ على النقوشِ نفّذها كلٌّ من فان بيركيم ونيفو- النقوشَ ذاتَ التّواريخِ الأبكرِ المنقوشةَ

(1) راجع النقاشَ حولَ تطوّرِ موقعِ مكّةَ ضمنَ كتابِ كوك وكرونه: الهاجريّون.

على المبنى لا تذكرُ أيَّ شيءٍ عن حادثةِ المعراج، بل تتعلّقُ تلكَ النقوشُ باقتباساتٍ قرآنيّةٍ مثيرةٍ للجدل، إذ أنّها تستهدفُ المسيحيّينَ في المقامِ الأول. يسارعُ العديدُ منَ المسلمينَ للإشارةِ إلى أنَّ كلا السّورتين [الإسراء 17: 1] و[البقرة 2: 145-143]، اللّتينِ تتحدّثانِ عن «المكانِ المبارك» و«تغييرِ جهةِ القِبلة»، يمكنُ إيجادهما منقوشتينِ على ظهرِ القبّةِ والمدخلِ المتّجهِ نحوَ الجنوب. سيقومونَ بكلِّ ما في وسعهم لدراسةِ تاريخِ تلكَ النقوش، أمّا الذي سيجدونهُ هوَ أنَّ هذهِ النقوشَ ليست أصليّةً ومزيّفة، كما أنّها ليست عتيقةً بل جديدة، فقبّةُ الصخرةِ بأكملها أُعيدَ بنائها على يدِ الظاهرِ لإعزازِ دينِ الله عام 1022 م بسببِ هزّةٍ أرضيّةٍ حدثت عام 1016 م، ثمَّ أُعيدَ بناءُ ظهرِ القبّةِ عام 1318م. لكنَّ النقوشَ (السّورةُ السفلى 36 والسّورةُ العليا 17) لم تتمّ إضافتها حتّى عام 1876 على يدِ عبدِ الحميدِ الثّاني، الأبوابُ الحاليّةُ (حيثُ توجدُ الآية رقم 144 من سورةِ البقرة) لم يتمَّ وضعها حتّى عام 1545م، الثغرةُ الجنوبيّةُ حيثُ نُقِشَت الآيتانِ 145-143 من سورةِ البقرة لم تُبنَ حتّى عام 1817م على يدِ السلطانِ محمود. لذا، ما أن نقرأ تاريخَ القبّة، لا نجدُ آيةً من هاتينِ السّورتينِ الاتهاميَّتين تعودانِ إلى القبّةِ الأصليّةِ عندما بُنِيَت في عهدِ عبدِ الملكِ بنِ مروان عام 691م. النقوشُ السّابقةُ الأصليّةُ التي نتحدّثُ عنها، تشيرُ إلى المكانةِ والحالةِ المسيحيّةِ ليسوع، الإيمانِ بجميعِ الأنبياء، تلقّي محمّدٍ الوحي، واستعمالِ ألفاظٍ مثلَ «الإسلام» و«مسلم». يجبُ أن نلاحظَ أنّهُ حتّى تلكَ التّواريخُ المبكرة يمكنُ أن تنتابنا الشكوكُ حولها، وذلكَ مردّهُ إلى التصميمِ المختلفِ الذي أُضِيفَ إلى الأعمدةِ الداعمة، وهذا خبرٌ يوردهُ لنا الشّاعرُ والأديبُ الفارسيُّ ناصر خسرو[1] عام 1047 م. إذا كانَ الغرضُ من بناءِ القبّةِ تخليدَ هذا الحدثِ الهامِّ في تاريخِ حياةِ الرسول (حادثةُ المعراج)، فلماذا لا توجدُ أيّةُ إشارةٍ إلى هذهِ الحادثةِ في النقوشِ المبكرة؟ إذ لا يوجدُ في أيِّ مكانٍ من تلكَ النقوش إيُّ ذكرٍ لليلةِ صعودِ محمّدٍ إلى السّماء، على ظهرِ دابّةٍ مجنّحةٍ تسمّى البُراق، كما لا يوجدُ ذكرٌ للحدثِ الذي دارَ بينَ محمّدٍ وموسى أوّلاً، ثمَّ بينهُ وبينَ الله، ولا الصّلواتِ المفروضةَ الخمس، والتي كانت هيَ الغرضَ من هذهِ الرحلةِ

(1) Crone & Cook s Hagarism 1977:23, 173.

أبو حامد معين الدين زنكي بن ناصر خسرو، قبادياني [بالفارسيّة] (1004-1088) شاعرٌ وفيلسوفٌ إسماعيليّ، بالإضافةِ إلى أنّهُ كانَ باحثاً ورحّالةً ومن أعظمِ كتّابِ الأدبِ الفارسيّ، وُلِدَ في مدينةِ قباديان شرقَ خراسان.

المزعومة. كيفَ يمكننا تفسيرُ ذلك؟ هنالكَ تفسيرٌ محتمل، وهوَ أنَّ روايةَ المعراجِ ببساطة لم تحدث في ذلكَ الوقت، بل تمّت صياغتها وتنقيحها فيما بعد خلالَ الفترةِ العبّاسيّةِ (بعدَ عامِ 750م)، فليسَ منَ الصّعبِ فهمُ ذلكَ عندما ندركُ أنَّ فكرةَ الصّلواتِ الخمسةِ في الأصلِ تمَّ تلفيقها وحشرها فيما بعد. الإشارةُ الوحيدةُ التي وردت في القرآنِ إلى الصّلاة كانت في الآياتِ التّالية:{وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ} [هود 11: 114]{أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا * وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا} [الإسراء 17: 79-78]{فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى} [طه 20: 130]{فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ} [الروم 30: 18-17] مع أنَّ هناكَ بعضَ الشكِّ والارتباكِ فيما إذا كانت هذهِ الآياتُ تتحدّثُ عن الصّلاةِ بمعناها الحرفيّ، أم عن الحمدِ والتسبيح. ما نراهُ في هذهِ الإشارات أنَّ المطلوبَ ثلاثُ صلواتٍ فقط، ولا توجدُ أيّةُ إشارةٍ إلى خمسِ صلوات (ولو أنَّ العديدَ منَ المفسّرينَ والفقهاءِ المسلمين حاولوا جهدهم _من خلالِ اللفِّ والدورانِ وليِّ عنقِ الكلمات_ إضافةَ الصّلاتينِ المفقودتين إمّا في الصّباحِ أو في المساء) هذهِ الروايةُ عن المعراجِ منَ المفروضِ أنّها حدثت عندما كانَ محمّدٌ يعيشُ في المدينة (على الأغلبِ حوالي عام 624م).

ومع ذلك نجدُ أنفسنا ملزمينَ بالرجوعِ إلى مجاميعِ الأحاديثِ التي جُمِعَت وصُنّفَت بعدَ مضيِّ 250-200 سنة لنجدَ كيفَ أنَّ الصّلواتِ الخمسَ تمَّ اشتراطها، وماذا كانت تسمّى، إذا كانَ القرآنُ كلامَ الله، فلماذا لم يكن مشترطاً لهذا العددِ منَ الصّلواتِ التي فُرِضَت على المسلمين، إضافةً إلى ذلك، إذا كانت قبّةُ الصخرةِ قد بُنِيَت لتخليدِ هذا الحدثِ المعجزِ والهامِّ جدّاً، فلماذا لم تقل شيئاً عن هذا الحدثِ حتّى مضيِّ ألفِ عامٍ على حدوثه؟ منَ الواضحِ أنَّ هذا البناءَ كانَ مبنيّاً لأغراضٍ وأهدافٍ أخرى مغايرةٍ تماماً، وليسَ لتخليدِ ذكرى المعراج. حقيقةُ أنَّ مثلَ هذا البناءِ قد بُنِيَ أبكرَ بكثيرٍ منَ الحادثةِ المزعومة، تشيرُ إلى أنّهُ كانَ مقاماً ومركزاً للعالمِ الإسلاميِّ على الأقلِّ حتّى أواخرِ القرنِ السّابعِ الميلادي،

وليسَ مكّة. نستنتجُ ممّا قرأناهُ سابقاً عن نيّةِ محمّدٍ بأن ينفّذَ حقّهُ وحقَّ الهاجريّينَ بالولادةِ والاستقرارِ في أرضِ إبراهيم، أو فلسطين، منَ المعقولِ أن يقومَ عبدُ الملكِ بنُ مروان ببناءِ هذا الهيكلِ كنصبٍ تذكاريٍّ وفخريٍّ لهذا الحقّ، عندئذٍ ليسَ علينا أن نستغربَ أنّهُ عندما قامَ عبدُ الملكِ ببناءِ القبّةِ في المكانِ الذي أعلنَ فيهِ الرّحلةَ النبويّةَ لمحمّد، فإنّهُ قد بناهُ فوقَ معبدِ الصخرةِ نفسه. حسبَ التّراثِ الإسلاميّ، الخليفةُ سليمان، الذي حكمَ خلالَ الفترةِ ما بينَ 717-715م، ذهبَ إلى مكّةَ لأداءِ فريضةِ الحجّ، إلّا أنّهُ لم يكن راضياً للاستجابةِ التي لقيها هناك، لذا اختارَ أن يسيرَ على خطا عبدِ الملك؛ (أي أنّهُ سافرَ ليحجَّ إلى قبّةِ الصخرة)[1]، هذهِ الحقيقةُ لوحدها، حسب د. هاوتينغ من معهدِ الدراساتِ الإستشراقيّةِ والإفريقيّة، تدلُّ أنّهُ بقيَ هناكَ بعضُ الشكِّ والارتباكِ حولَ تحديدِ مكانِ المقام، واستمرَّ هذا الارتباكُ حتّى أوائلِ القرنِ التّاسع. يبدو أنَّ مكّةَ لم تأخذ حتّى عهدٍ قريبٍ دورَ المركزِ الدينيِّ الرئيسيِّ للعالمِ الإسلاميّ، لذا بإمكاننا أن نفهمَ لماذا قامَ الوليدُ الأوّلُ الذي حكمَ كخليفةٍ خلالَ الفترةِ ما بينَ 705 و715، حسبَ التّراثِ الإسلاميّ، بالكتابةِ لكافّةِ الأقاليمِ والمناطقِ آمراً بتدميرِ وتوسيعِ المساجدِ كافّة[2]. هل يعقلُ أنّهُ وخلالَ هذهِ الفترةِ شُرّعَت مكّةُ كقِبلةٍ مشتركةٍ لجميعِ المسلمين؟ إذا كانَ الأمرُ كذلك، فإنّهُ يشيرُ إلى تناقضٍ آخرَ مع القرآنِ الذي وضعَ مكّةَ كمركزٍ وقِبلةٍ للمسلمين، خلالَ فترةِ حياةِ محمّد منذُ 80 إلى 90 سنة قبلَ حادثةِ تدميرِ المساجدِ وتوسيعها[3]. وهذا ليسَ كلَّ شيء، إذ أنّنا نمتلكُ مخطوطةً ودليلاً أركيولوجيّاً آخر يبيّنُ الخلافاتِ والفروقاتِ مع ما نقرأهُ في القرآن.

6.3) محمّد:

كتاباتُ المؤرّخِ الأرمينيِّ التي تعودُ إلى عام 660م (أشرنا إليهِ سابقاً) تقدّمُ لنا أقدمَ خبرٍ مرويٍّ عن سيرةِ محمّد حتّى الآن، مؤكّدةً أنَّ محمّداً كانَ تاجراً وكانَ يتحدّثُ كثيراً

---

(1) تنبيه: لتفادي حدوثِ الخلطِ بينَ الإمامِ مالكِ بنِ أنس الذي، ولأنّهُ وُلِدَ عام 712م، فسيكونُ عندئذٍ في السنةِ الثّالثةِ من عمره.

(2) إشارةٌ لكتابِ العيونِ والحدائق. تحرير م. كويجي، وب. دي يونغ

Kitab al- uyun wa l-hada iq, edited by M. de Goeje and P. de Jong 1869: 4.

(3) راجع سورة البقرة 2: 144-150.

عن إبراهيم، ممّا يقدّمُ لنا دليلاً تاريخيّا مبكراً يثبتُ لنا وجودَ شخصٍ اسمهُ محمّد، إلّا أنَّ هذا المؤرّخَ لا يقولُ شيئاً عن نبوّةِ محمّدٍ الكليّةِ والعالميّة، بل يشيرُ أنّهُ كانَ مجرّدَ نبيٍّ محلّي،وحتّى الوثائقُ الإسلاميّةُ القديمة، حسبَ د. جون وانسبرو، لا تقولُ أيَّ شيءٍ عن رسالتهِ ونبوّتهِ العالميّة. كتابُ المغازي، الذي يشيرُ إليهِ وانسبرو هوَ عبارةٌ عن معاركِ النبيِّ وغزواته، وهذهِ الوثيقةُ من أقدمِ وأبكرِ الوثائقِ الإسلاميّةِ التي في متناولنا اليوم، لذا يجبُ أن تقدّمَ لنا أفضلَ لمحةٍ عن تلكَ الفترة، إلّا أنّها لا تخبرنا سوى القليلِ فيما يتعلّقُ بحياةِ محمّدٍ أو تعاليمه. في الواقع، لا توجدُ في أيّةِ وثيقةٍ من تلكَ الوثائقِ ذكرٌ لمحمّدٍ على أنّهُ نبيّ! فإذا _ كما تدّعيهِ المصادرُ التّراثيّةُ الإسلاميّةُ والقرآنُ نفسه_ كانَ يعرفُ محمّدٌ بأنّهُ خاتمُ الأنبياءِ كما جاءَ في سورةِ الأحزاب، آية رقم 40 {مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا}، عندئذٍ لماذا تبقى هذهِ الوثائقُ صامتةً، ولا تقولُ شيئاً عن هذا الأمرِ الغايةِ في الأهميّة؟النقوشُ الحجريّةُ التي درسها نيفولكي نعرفَ من كانَ محمّد، وما الذي قامَ به، يجبُ علينا أن نعودَ بالزمنِ إلى الفترةِ التي عاشَ فيها، والنظرَ إلى الدليلِ الذي كانَ موجوداً آنذاك، وما زالَ موجوداً حتّى الآن، لنرى ما الذي سيخبرنا بهِ فيما يتعلّقُ بهذهِ الشخصيّةِ المثيرةِ للجدل. وانسبرو، الذي أجرى أبحاثاً كثيرةً على التقاليدِ والمصادرِ التّاريخيّةِ والقرآن يرى أنّهُ، ولأنَّ المصادرَ الإسلاميّةَ تعتبرُ متأخرةً جدّاً، منذُ 150 عاماً على سيرةِ المغازي، بالإضافةِ إلى القرآنِ المبكر، منَ الأنسبِ اعتبارها غيرَ موثوقةٍ وغيرَ أصليّة. عندما ننظرُ إلى المصادرِ التّاريخيّةِ غيرِ الإسلاميّة، عندها فقط نجدُ صورةً أوضحَ وأكثرَ جلاءً عن هويّةِ محمّد والرجلِ الذي كان.

من أفضلِ المصادرِ غيرِ الإسلاميّةِ الموجودةِ في جزيرةِ العرب خلالَ القرنِ السّابعِ الميلادي هيَ تلكَ النقوشُ العربيّةُ المنقوشةُ على الصخورِ والمنتشرةُ في كافّةِ أرجاءِ الصّحراءِ السّوريّةِ الأردنيّة، وأجزاءٍ من شبهِ الجزيرةِ العربيّة، وبشكلٍ خاصّ صحراء النقب، والرّجلُ الذي قامَ بأغلبِ الأبحاثِ على هذهِ النقوشِ الحجريّةِ هوَ الباحثُ يهودا نيفو، منَ الجامعةِ العبريّةِ في القدّس. وسأشيرُ إلى بحثهِ الذي يحملُ العنوان: «نحوَ تاريخ ما قبلَ الإسلام»، والذي تمَّ نشرهُ عامَ 1994. وجد نيفو في النصوصِ الدينيّةِ العربيّة،

التي يعودُ تاريخها إلى القرنِ الأوّلِ ونصفِ القرن منَ الحكمِ العربي، بقايا عقيدةٍ توحيديّة، والحالُ، توصلُ إلى نتيجةٍ مفادها أنَّ هذهِ العقيدةَ ((ليست هيَ الإسلامَ قطعاً، بل [عقيدةً] تطوّرَ منها الإسلام)). وجدَ نيفو أيضاً أنّهُ ((ضمنَ كافّةِ المؤسّساتِ العربيّةِ الدينيّةِ خلالَ العهدِ السُفيانيِّ [661-684م] هناكَ غيابٌ تامٌّ لأيِّ إشارةٍ أو دليلٍ على محمّد)) في الواقع، لا وجودَ لذكرِ اسمِ محمّد ولا حتّى بأيِّ صيغةٍ إسميّةٍ محمّديّة؛ (أي أنّهُ رسولُ أو نبيُّ الله) في أيٍّ منَ النقوشِ التي يعودُ تاريخها إلى ما قبلِ عام 691م، وهذا حقيقيٌّ وواقع، سواءً أكانَ الغرضُ منَ النقوشِ دينيّاً، كالتلاواتِ والابتهالات، أو تذكاريّاً متضمّناً تأكيداً دينيّاً، كالكتابةِ المنقوشةِ على السدِّ بالقربِ من مدينةِ الطّائف، الذي بناهُ الخليفةُ معاوية عام 660 للميلاد. إنَّ حقيقةَ أنَّ اسمَ محمّدٍ غائبٌ وغيرُ مذكورٍ في كافّةِ النقوشِ المبكرة، وبشكلٍ خاصّ النقوشَ ذاتَ الطّابعِ الدينيّ، هوَ أمرٌ بالغُ الأهميّةِ والخطورة. الكثيرُ منَ مصادرِ التّراثِ الإسلاميّةِ المتأخرة؛ (أي السيرةُ والأحاديث، والتي يفترضُ أنّها أقدمُ المصادرِ الأدبيّةِ الإسلاميّةِ التي نمتلكها) جميعها تتألّفُ من رواياتٍ وأخبارٍ تخصُّ حياةَ النبيِّ بأدقِّ تفاصيلها، فهوَ المثالُ والقدوةُ التي يتّخذها جميعُ المسلمينَ أسوةً لهم. لماذا إذن لا نجدُ نفسَ الأخبارِ والرواياتِ عن محمّد ضمنَ هذهِ النقوشِ العربيّةِ المبكرةِ والمعاصرةِ للفترةِ التي عاشَ فيها، وهناكَ إشكاليّةٌ أكثرُ صعوبةً وإلحاحاً، لماذا ليسَ هناكَ أيُّ ذكرٍ أو إشارةٍ إليه؟ فلم يُعثَر على اسمهِ إلّا ضمنَ النقوشِ العربيّةِ التي ترجعُ في تاريخها إلى ما بعدَ عامِ 690م، إضافةً إلى ذلك، أوّلُ ظهورٍ لعبارةِ (محمّد رسول الله) كانت منقوشةً على عملةٍ ساسانيّةٍ عربيّةٍ زمنَ الحاكمِ خالد بن عبد الله عام 690م، وتمَّ صكّها في مدينةِ دمشق، والأهمُّ من ذلك، أنَّ الظهورَ الأوّلَ لما يُطلِقُ عليهِ نيفو تسميةَ «الاعترافِ الثلاثيِّ بالإيمان» والذي يحملُ معنى 1) التوحيد، عبارة، 2) محمّدٌ رسولُ الله، 3) والطبيعةِ البشريّةِ ليسوع «رسولُ اللهِ وعبده»، موجودةٌ في نقشِ عبدِ الملكِ بنِ مروان على قبّةِ الصخرةِ في القدس، يعودُ تاريخها إلى عام 691م! قبلَ هذهِ النقوش، لا نجدُ أيَّ ذكرٍ للاعترافِ الثلاثيِّ بالإيمان في أيِّ مكان، ويجبُ أن نلاحظَ أنَّ تاريخَ هذهِ النقوشِ متأخّرٌ جدّاً، على الأرجح تمّت إضافتها على يدِ الظاهرِ لإعزاز عندما أعادَ بناءَ النواقلِ الداخليّةِ والخارجيّةِ فوقَ مكانِ النقوش، وذلك عام 1022م. كقاعدةٍ عامّة، وبعدَ عام 691م،

وخلالَ كافّةِ أفرادِ السلالةِ المروانيّة؛ [أيّ حتّى عام 750م]، يظهرُ اسمُ محمّدٍ عادةً حينَ يتمُّ استعمالُ الصيغِ الدينيّةِ على العملاتِ مثلاً، الجدران، المعالم، والبروتوكولاتِ على ورقِ البرديّ. قد يقولُ البعضُ أنَّ سببَ هذهِ التّواريخِ المتأخرةِ على الأرجح هوَ حقيقةُ أنَّ أيّةَ أفكارٍ أو معتقداتٍ دينيّة تستغرقُ فترةً زمنيّةً معيّنةً لتخترقَ النقوشَ العربيّة. ومع ذلك، كما يقولُ نيفو، ورقةُ البرديِّ العربيّةُ الأولى، معاملةٌ مصريّة، والتي كانت بمثابةِ إيصالٍ لدفعِ الضرائب، يعودُ تاريخها لعامِ 642م، ومكتوبةٌ بكلا اللغتينِ اليونانيّةِ والعربيّة تبدأُ بالبسملة، إلّا أنّها لا تحملُ لا الطّابعَ المسيحيَّ ولا الإسلاميّ. المضمونُ الدينيُّ للنقوشِ الحجريّةِ لم يصبح معلناً إلّا بعدَ عامِ 661م، بأيِّ حال، مع أنّها تحملُ نصوصاً دينيّة، إلّا أنّها لا تذكرُ النبيَّ أو أيّةَ صيغةٍ محمّديّة. يقولُ نيفو: ((وهذا يعني أنَّ الاعترافَ الدينيَّ العربيَّ الرسميَّ لم يشتمل على اسمِ محمّد أو أيّةِ صيغةٍ محمّديّةٍ ضمنَ ذخيرتِهِ الفنيّةِ من مجموعاتِ العباراتِ التي كانت شائعةً في تلكَ الفترة))؛ أي بعدَ مضيِّ 60 عاماً أو أكثرَ على وفاةِ محمّد. تلكَ النقوشُ كانت تحتوي شكلاً أو صيغةً معيّنةً لعقيدةٍ توحيديّة، تنتمي إلى نوعٍ منَ الآدابِ المذهبيّةِ أو الطّائفيّةِ معَ العديدِ منَ المفاهيمِ اليهوديّةِ والمسيحيّةِ الممتزجةِ بها بأسلوبٍ أدبيٍّ خاصّ، إلّا أنّها لا تتضمّنُ أيّةَ خصائصَ محدّدةٍ يمكنُ أن تنسبَ لأيِّ ديانةٍ توحيديّةٍ بعينها[1]. أمرٌ آخرُ في غايةِ الأهميّة، تُظهرُ هذهِ النقوشُ أنّهُ عندما تمَّ إنتاجُ الصيغةِ المحمّديّة، خلالَ الفترةِ المروانيّة [بعدَ عام 684م] فقد تمَّ إنتاجها وتنفيذها فجأةً «وخلالَ ليلةٍ وضحاها». فجأةً أصبحت هذهِ الصيغةُ هيَ الصيغةَ الدينيّةَ الرّسميّةَ والوحيدةَ للدّولة، وجرى استخدامها بشكلٍ حصريٍّ ضمنَ المعاملاتِ والنقوشِ الرسميّة، كمعاملاتِ واتفاقيّاتِ ورقِ البرديّ، ومع ذلك، وحتّى عندما أصبحت النصوصُ المحمّديّةُ رسميّةً، لم تكن مقبولةً عندَ الأغلبيّةِ العامّةِ على الفور، فبعدَ سنواتٍ عديدةٍ من ظهورها في الإعلاناتِ والاتّفاقاتِ الحكوميّة، استمرَّ النّاسُ في تضمينِ حكاياتٍ وأساطيرَ غيرِ محمّديّةٍ في كتاباتهم ونقوشهم الشّخصيّة، بالإضافةِ إلى

(1) نيفو: وما يدعمُ هذا القولَ حقيقةُ وجودِ التحنّفِ في الجزيرةِ العربيّةِ قديماً، أو بقايا عقيدةٍ إبراهيميّةٍ توحيديّةٍ قديمة قبلَ ظهورِ الإسلامِ حتّى، ونلاحظُ أنَّ من أهمِّ مبادئهم وتعاليمهم رفضُ تعدّدِ الآلهةِ والقولُ بالتوحيد، تقديمُ الأضاحي، الاعتزال، والإحسانُ للفقراءِ والمساكين، ويشيرُ بعضُ الباحثينَ إلى أنَّ جدَّ محمّد «عبدَ المطّلب» كانَ منَ الأحناف. راجع كتاب هاوتينغ: فكرةُ الوثنيّةِ وظهورُ الإسلام، ترجمة إبراهيم جركس.

كتاباتِ المحكمةِ العليا الروتينيّة. ومن هنا، على سبيلِ المثال، وجدَ نيفو كاتباً معيّناً لم يكن يستخدمُ الصيغَ المحمّديّةَ في مراسلاتِهِ باللّغتينِ العربيّةِ واليونانيّة، مع أنّهُ كانَ يستخدمها في معاملاتِهِ على ورقِ البرديِّ التي تحملُ اسمهُ وعنوانه. في الواقع، وحسبما يوردهُ نيفو، لم يبدأ استخدامُ الصيغةِ المحمّديّةِ في النقوشِ الحجريّةِ العامّةِ في وسطِ صحراءِ النقب إلّا بعدَ حوالي ثلاثينَ عاماً (أو بعدَ جيلٍ كامل) من إنتاجِ عبدِ الملكِ لتلكَ الصّيغ، في فترةِ ما خلالَ فترةِ حكمِ الخليفةِ هشام (ما بين 724-743). وحتّى هذهِ النقوشُ مع أنّها تحملُ صيغاً محمّديّة، إلّا أنّها ليست إسلاميّة، فهوَ يرى أنَّ النصوصَ الإسلاميّةَ لم تظهر إلى الوجودِ إلّا في بدايةِ القرنِ التّاسعِ الميلادي؛ (أي حوالي عام 822م)، وهذا التّاريخُ يتصادفُ مع كتابةِ أوّلِ نسخةٍ منَ القرآن، بالإضافةِ إلى أوّلِ أخبارٍ وأحاديثَ مكتوبةٍ منَ التّراثِ الإسلاميّ. لذا يبدو منَ الواضحِ تماماً من هذهِ النقوشِ أنّها كانت خلالَ عصرِ السلالةِ المروانيّة (بعدَ عام 684م)، كما أنَّ محمّداً خلالَ فترةِ حياتِهِ لم يكن مرفوعاً لمرتبةِ نبيٍّ عالميّ، وحتّى حينذاك، الصّيغةُ المحمّديّةُ التي أُنتِجَت لم تكن مكافئةً للصّيغةِ التي نعرفها اليوم. للتوسّعِ في هذا الموضوع، وبشكلٍ خاصّ في التصنيفاتِ الستّةِ للفتراتِ الزّمنيّةِ التي تنتمي إليها النقوشُ الحجريّةُ، ومضمونها، أنصحُ بالرجوعِ إلى مقالةِ نيفو نفسها (صـ 111-112)

3. 7) «مسلمونَ» و«إسلام»:

وصلنا الآن إلى كلمَتَي «مسلم» و«إسلام»، فاتّباعُ محمّدٍ للخطِّ الإبراهيميّ يمكنُ أن يوضّحَ سببَ عدمِ ورودِ ذكرِ لقبِ «مسلم» حتّى السنواتِ الأخيرةِ للقرنِ السّابعِ الميلادي. في الواقع، الظهورُ المؤرّخُ الأبكرُ لهذهِ اللفظة لا يمكنُ إيجادهُ إلّا ضمنَ النقوشِ المحفورةِ على جدرانِ قبّةِ الصخرة التي نعرفُ أنّها بُنِيَت عام 691م؛ أي بعدَ ستّينَ عاماً من وفاةِ محمّد، قبلَ ذلكَ الوقت، كانَ يشارُ إلى العربِ بكلمةِ Magaritai، التي عُثِرَ عليها في ورقةِ برديٍّ يونانيّةٍ تعودُ إلى عام 642م. وبالحرفِ السُّريانيِّ عندَ الراهبِ إيشوعيب الثّالث بحدودِ عام 640م، كانت تطلقُ عليهم تسميةَ مهجريّينَ أو مهجريّة. إنَّ ظهورَ هذهِ الألفاظ أمرٌ ليسَ نادراً أو غريباً، لكن عُثِرَ عليها في أماكنَ بعيدةٍ كمصرَ والعراق، وهذا أمرٌ في غايةِ الأهمّيّة. اللفظُ العربيُّ المطابقُ هوَ «المهاجرون»، وهذا أمرٌ لهُ أهمّيّةٌ

جينيالوجيّة (علم الأنساب) بصفتهم أنّهم من سلالةِ إبراهيمَ وهاجر، وأهمّيّةٌ تاريخيّة، إذ أنّهم كانوا جزءاً منَ الهجرةِ، أو الخروج، والحديثُ السّابقُ عن الهجرةِ التي أشرنا إليها سابقاً أنّها كانت باتّجاهِ -حسبَ مصادرَ تاريخيّةٍ خارجيّة- فلسطينَ وليسَ باتّجاهِ المدينة. أثناسيوس عامَ 684م، يكتبُ باللغةِ السّريانيّةِ مستخدماً تسميةَ المهجريّةِ للإشارةِ إلى العرب. يعقوبُ الإيديسي عام 705م، يشيرُ إليهم بالماجريّين. وثيقةُ دوكترينا ياكوبي تشيرُ إليهم باسمِ «العربِ المسلمين Saracens»، لذا، وعلى النقيضِ لما وردَ في القرآن الذي يقولُ في سورةِ الأحزاب 33 الآية رقم 35 {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ}، يبدو أنَّ لفظةَ «مسلم» لم تكن مستخدمةً حتّى نهايةِ القرنِ السّابعِ الميلادي. إذن، من أينَ نشأت هذهِ التسمية؟ حسبما يوردهُ كرونه وكوك: إنَّ لفظةَ «إسلام» (واللفظةَ المتوافقةَ «مسلم») بمعنى «التسليم والخضوعِ لله» لفظةٌ مأخوذةٌ منَ اللّغةِ السّامرّائيّة. يؤكّدُ كلٌّ من كرونه وكوك أنَّ ((الفعلَ «أسلَمَ» لهُ شبيهٌ في اللّغةِ العبريّة، الآراميّةِ والسّريانيّة، لكن بما أنّهُ لا الأدبُ اليهوديُّ ولا المسيحيُّ يقدّمانِ دليلاً على سابقةٍ مقنعةٍ للاستخدامِ الإسلاميِّ لهذهِ اللفظة، فإنّنا نجدُ مطابقاتٍ موازيةً تماماً في نصِّ the Memar Marqah، وهوَ من أهمِّ النصوصِ السّامرّائيّةِ التي تعودُ لفترةٍ ما قبلَ الإسلام))، فهما يمضيانِ للقولِ أنَّ ((المعنى المنطقيَّ والسّياقَ المعقولَ للأصلِ للسّعيِّ وراءهُ هنا هوَ السّلام «وسياقُ صنعِ السلام». فإعادةُ تفسيرِ وتأويلِ هذا المفهوم من ناحيةِ الإطارِ المهيمنِ والسّائدِ للخضوعِ والاستسلام يمكن أن يبدو وبسهولةٍ أنَّ المقصدَ منهُ التمييزُ بينَ عهدِ الهاجريّينَ وذلكَ العهدِ عندَ اليهوديّة)) مع أنَّ القرآنَ يستخدمُ نفسَ اللفظة [سورة الأحزاب 33: 35] إلّا أنّهُ منَ الواضحِ _من خلالِ الوثائقِ والمعاملاتِ التي تعودُ إلى القرنِ السّابعِ الميلادي_ أنّها لم تكن معروفةً خلالَ فترةِ حياةِ محمّد، وهذا ما يزيدُ من قوّةِ الدليلِ على وجودِ عمليّةِ تطوّرٍ في النصِّ القرآنيّ.

3. 8) القرآن:

الآنَ وصلنا إلى القرآنِ نفسه. كما ذكرنا سابقاً، مرَّ القرآنُ بالعديدِ منَ المراحلِ التحوّليّةِ خلالَ السنواتِ المئةِ التي تلت موتَ النبيّ. لقد كشفنا الآنَ الغطاءَ عن عملاتٍ منقوشٍ عليها عباراتٌ قرآنيّةٌ مفترضة يعودُ تاريخها إلى عامِ 685م، تمَّ صكّها خلالَ فترةِ حكمِ

عبدِ الملكِ بنِ مروان. إضافةً إلى ذلك، بُنِيَ هيكلُ قبّةِ الصخرة على يدِ عبدِ الملكِ بنِ مروانَ في القدس عامَ 691م، ((وهذا يشهدُ على وجودِ موادٍ _تعودُ إلى نهايةِ القرنِ السّابعِ الميلادي_ يمكنُ التعرّفُ عليها على الفور أنّها قرآنيّة)) ومع ذلك، السؤالُ منَ القرآن عن كلٍّ منَ العملاتِ وقبّةِ الصخرة يختلفُ في تفاصيلهِ عمّا نجدهُ فيهِ اليوم. يؤكّدُ كلٌّ من فان بيركيم و غرومان _عالمِانِ اشتقاقيّانِ أجريا أبحاثاً ودراساتٍ موسّعةً على نقوشِ قبّةِ الصخرة_ أنَّ النقوشَ المبكرةَ تتضمّنُ على ((أشكالٍ لفظيّةٍ متباينة، انحرافاتٍ واسعة، بالإضافةِ إلى أخطاءٍ منَ النصِّ الموجودِ لدينا اليوم)) إذا كانت هذهِ النقوشُ مقتبسةً منَ القرآنِ نفسهِ، مع التبايناتِ التي تحتويها، إذن، كيفَ أمكنَ وأن تمّ تشريعُ وتقديسُ القرآنِ قبلَ هذا الوقت (القرنِ السّابعِ الميلادي)؟ هذا يوصلنا إلى نتيجةٍ مفادها أنَّ النصَّ القرآنيَّ قد تغيّرَ وتطوّرَ خلالَ عمليّةِ تدوينهِ وتنقيحهِ مع مرورِ الزمن (هذا إذا كانت تلكَ النقوشُ مأخوذةً فعلاً منَ القرآن) يبدو أيضاً أنَّ المصادرَ تشيرُ إلى أنَّ القرآنَ تمَّ جمعهُ وإعدادهُ بعُجالة (كما سبقَ وذكرنا خلالَ القسمِ السّابق، في النقدِ الداخليِّ للقرآن) وهذا ما أكّدهُ د. جون وانسبرو الذي يقولُ أنَّ: ((الكتابَ يفتقرُ بشدّةٍ إلى التركيبِ العام، غالباً ما يكونُ مبهماً وغيرَ مفهومٍ في اللّغةِ والمضمون، مملاً في ترابطِ موادهِ المتباينة، تاركاً المجالَ لتكرارِ آياتٍ كاملةٍ في نسخٍ مختلفة. على أساسِ هذهِ الفكرة يصبحُ منَ المعقولِ القولُ أنَّ هذا الكتابَ هوَ نتاجُ عمليّةِ تحريرٍ وتنقيحٍ مُعابةٍ ومتأخرةٍ لموادٍ من مصادرَ تراثيّةٍ وتاريخيّةٍ متعدّدة)) ترى كرونه وكوك أنّهُ وبسببِ وجودِ عيوبٍ وإهمالٍ في عمليّةِ التنقيح، فظهورُ القرآنِ لابدَّ أنّهُ كانَ حدثاً فجائيّاً. الإشارةُ الأبكرُ المستقاةُ من خارجِ المصادرِ التّراثيّةِ الإسلاميّة والتي تشيرُ إلى كتابٍ اسمهُ القرآن تحدثُ في منتصفِ القرنِ الثّامنِ الميلادي بينَ عربيٍّ وراهب، لكن لا أحدَ يعرفُ ما إذا كانَ مضمونهُ يختلفُ كثيراً عن مضمونِ القرآنِ الذي نقرأهُ اليوم. يستنتجُ كلٌّ من كرونه وكوك أنّهُ باستثناءِ هذهِ الإشارةِ الصغيرة ليسَ هناكَ أيُّ علامةٍ أو دليلٍ على وجودِ القرآن قبلَ نهايةِ القرنِ السّابعِ الميلادي. يمضي كلٌّ منَ كرونه وكوك في بحثهما للتأكيدِ أنّهُ وتحتَ إشرافِ حاكمِ العراق الحجّاجُ بنُ يوسفَ الثقفيّ عام 705م باتَ لدينا سياقٌ تاريخيٌّ منطقيٌّ بشأنِ الطريقةِ التي تمَّ فيها تحريرُ القرآن (أو مجموعُ الأدبِ المنحولِ الذي تمَّ الادّعاءُ فيما بعد بأنّهُ القرآن) وتنقيحهُ

على أنّهُ قرآن محمّد. في خبرٍ منسوبٍ إلى ليو Leo من قِبَلِ ليفوند Levond، يبدو أنّ الحاكم الحجّاج قد قامَ بجمعِ كافّةِ كتاباتِ الهاجريّينَ القديمة واستبدلها بأخرى ((حسبَ ذوقهِ الخاص، ثمّ وزّعها في مختلفِ أرجاءِ أمّته)) النتيجةُ الطبيعيّةُ هيَ أنّهُ خلالَ هذهِ الفترةِ بالذّات بدأ القرآنُ رحلةَ تطوّرهِ الخاصّة، على الأرجح بدأ في المرحلةِ التدوينيّة، حتّى تمّ تشريعهُ منذُ منتصفِ، وحتّى أواخرِ القرنِ الثّامنِ الميلادي ليصبحَ على الشّكل الذي بينَ أيدينا اليوم. جميعُ هذهِ المكتشفاتِ تعطينا سبباً جيّداً للشّكّ في أصالةِ القرآنِ وموثوقيّتهِ بصفتهِ كلامَ الله. يشيرُ علمُ الأركيولوجيا، بالإضافةِ إلى الدليلِ المتضمّنِ في الوثائقِ والمخطوطاتِ القديمة، أنّ معظمَ ما يحتويهِ القرآن لا يتطابقُ أو يتماثلُ مع البياناتِ التي حصلناها حتّى الآن. نستنتجُ منَ الموادِ المتراكمةِ منَ المصادرِ الخارجيّةِ في القرنينِ السّابعِ والثّامنِ الميلاديين ما يلي:

1) أنّ عمليّةَ الهجرةِ لم تكن إلى المدينة، بل إلى فلسطين.

2) أنّ القِبلةَ لم تكن نحوَ مكّةَ في بادئِ الأمر حتّى القرنِ الثّامن، بل نحوَ منطقةٍ تقعُ نحوَ الشّمالِ البعيد، وعلى الأرجحِ مدينةُ أورشليم/ القدّس.

3) أنّ اليهودَ كانوا على علاقةٍ طيّبةٍ وسلميّةٍ معَ العرب، على الأقلّ حتّى عام 640م.

4) أنّ مدينةَ القدّس ـوليست مكّةـ هيَ التي كانت تحتوي المقامَ الأصليَّ للإسلام، إذ أنّ مكّةَ لم تكن غيرَ معروفةٍ فحسب كمدينةٍ مزدهرةٍ حتّى نهايةِ القرنِ السّابعِ الميلادي، بل أنّها لم يكن لها طريقٌ تجاريٌّ للقوافلِ أصلاً.

5) أنّ قبّةَ الصخرةِ كانت المقامَ الأول.

6) أنّ محمّداً لم يكن يعدُّ كنبيٍّ عالميٍّ حتّى نهايةِ القرنِ السّابعِ الميلادي.

7) أنّ لفظتيّ «مسلم/ إسلام» لم تُستخدما حتّى نهايةِ القرنِ السّابع.

8) أنّ الصّلواتِ اليوميّةَ الخمس بالإضافةِ إلى فريضةِ الحجّ لم تُشرَّع إلّا بعدَ عام 717م.

9) أنّ أبكرَ مرحلةٍ سمعنا فيها عن القرآنِ تعودُ إلى منتصفِ القرنِ الثّامنِ الميلادي.

10) وأنَّ الكتاباتِ القرآنيّةَ المبكرة لا تتطابقُ مع النصِّ القرآنيِّ الحاليّ.

جميعُ هذهِ البياناتِ تتناقضُ وتتعارضُ مع القرآنِ الذي في متناولنا اليوم، وتعزّزُ الشّكوك أنَّ القرآنَ الحاليَّ هوَ ليسَ نفسَ القرآنِ الذي يُفتَرَضُ أنّهُ دُوِّنَ وجُمِعَ ثمَّ شُرِّعَ عام 650م تحتَ إشرافِ عثمان، كما يزعمُ المسلمون (هذا إذا كانَ موجوداً فعلاً في ذلكَ الوقت) ليسَ أمامنا سوى الافتراضِ أنَّ مراحلَ تطوريّةً كثيرةً طرأت على النصِّ القرآنيّ. في النهاية، الشيءُ الوحيدُ الذي يمكننا قولهُ هنا وبشكلٍ مؤكّد: هوَ أنَّ الوثائقَ والمخطوطاتِ التي نمتلكها الآن (من عامِ 790م وما بعد) متطابقةٌ ومتجانسةٌ مع تلكَ التي بينَ أيدينا اليوم، تمَّ تدوينها وكتابتها ليسَ بعدَ مضيِّ 16 سنةً على وفاةِ محمّد، بل بعدَ 160 سنةً على وفاته، وبهذا فإنَّ تاريخها لا يعودُ إلى 1400 سنةٍ كما هوَ متعارفٌ عليه، بل إلى 1200 سنة. كم هيَ مدهشةٌ ومذهلةٌ نتائجُ هذا التأكيد!!! هل يمكننا استخدامُ هذهِ المصادرِ غيرِ الإسلاميّة؟ طوالَ الوقتِ كانَ المؤرّخونَ الإسلاميّونَ المعاصرون يكافحونَ مع التّراثِ والتّاريخِ الإسلاميّ، إذ وفّروا لها الآدابَ غيرَ الإسلاميّةِ اليونانيّة، الأرمنيّة، العبريّة، الآراميّة، السُّريانيّة، والقبطيّةَ المجاورة، بعضها كانَ عرضةً للغزوِ العربيّ. إلى حدٍّ معيّنٍ تمَّ تحريرُ هذهِ المصادرِ وترجمتها خلالَ نهايةِ القرنِ التّاسعَ عشر (1800) وبدايةِ القرنِ العشرين، ومع ذلك، لم تتمَّ الاستفادةُ منها بشيء، وتُرِكَت عرضةً لتراكمِ الغبارِ على رفوفِ المكتباتِ منذُ ذلكَ الوقت، والسؤالُ الذي يجبُ أن نطرحهُ هوَ: لماذا؟ الجوابُ الذي يقدّمهُ المسلمونَ هوَ أنَّ هذهِ المصادرَ كانت معادية، وهذا صحيحٌ إلى حدٍّ ما، بأيِّ حال، وبالنظرِ إلى التوزيعِ الجغرافيِّ والاجتماعيِّ للمواقعِ التي نشأت فيها، فهيَ بالكادِ يمكنُ أن تكونَ قد أثارت المشاعرَ المعاديةَ للمسلمين بمثلِ هذهِ النتائجِ المماثلة، وهذا لأنَّ هناكَ اتّفاقاً بينَ شهودِ العيانِ المستقلّينَ والمعاصرينَ للعالمِ غيرِ الإسلاميّ، أنّهُ يجبُ اتّخاذُ شهادتهم في الحسبان. مهما كانت الطريقةُ التي نختارُ فيها فهمها، فهيَ لا تتركُ أيَّ مجالٍ للشّكِّ أنَّ القرآنَ كانَ نتيجةَ سلسلةٍ طويلةٍ من عمليّاتِ التنقيحِ والتطوير، وعلى الأرجحِ تمَّ تشريعهُ وإعلانهُ خلالَ بدايةِ الفترةِ العبّاسيّةِ وحتّى منتصفِ ونهايةِ القرنِ الثّامنِ الميلادي، في العالمِ الذي يُعرَفُ اليومَ بالعراقِ وإيران أو حولهما.

نتيجة:

إذن، ماذا نقولُ فيما يتعلّقُ بالقرآن، هل هوَ كلامُ اللهِ فعلاً؟ يجادلُ المسلمونَ أنّنا لن نفهمَ أصولَ ونشأةَ القرآنِ إلّا من خلالِ عيونِ التّراثِ والتقليدِ الإسلاميّين، والتي تخبرنا أنَّ اللهَ قد كشفَ حقيقتهُ من خلالِ القرآنِ الذي أُنزِلَ أو أُوحِيَ إلى محمّد، بأيِّ حال، هناكَ الكثيرُ منَ الشكوكِ حولَ هذهِ المزاعم، إذ أنَّ المصادرَ الأوّليّةَ للتّراثِ والتقاليدَ المتأخّرةَ ببساطة لم تكن موجودةً قبلَ القرنِ الثّامنِ الميلادي. في الواقع، المصادرُ الإسلاميّةُ التي نمتلكها تعودُ إلى تاريخ متأخرٍ نسبيّاً، تمَّ جمعها وتصنيفها بعدَ مرورِ حوالي 300-200 عام على وقوعِ الحادثة، وتعتمدُ في الأصلِ على التّراثِ الشفهيِّ الذي تمَّ تناقلهُ من خلالِ الرّواةِ الذينَ منَ الواضحِ أنَّ قصصهم لا يمكنُ تأكيدها فقط، بل يبدو أنّها انفجرت وانتشرت عندَ نهايةِ القرنِ الثّامنِ الميلادي بشكلٍ مفاجئ. وانسبرو يتّخذُ الموقفَ الذي يقولُ أنَّ القرآنَ تمَّ جمعهُ وتدوينهُ أبكرَ من تلكَ المصادر، وكانَ يستخدمُ كطابعِ أصالةٍ لتصديقِ المعتقداتِ والأفكارِ والتشريعاتِ اللاّحقةِ من قِبَلِ أولئكَ الذينَ شرّعوا وفرضوا الشّريعةَ الإسلاميّة. إذا كانَ وانسبرو محقّاً، عندها يمكننا أن نتساءلَ إذا ما كانَ محمّدٌ سيتعرّفُ حقّاً على القرآنِ الذي بينَ أيدينا اليوم، ومع ذلك، القرآنُ نفسهُ كانَ يعدُّ كمصدرٍ أساسيٍّ للإسلام، ومن أكثرِ المصادرِ أصالة، إلّا أنّهُ هوَ أيضاً يعاني من نفسِ المشاكلِ التي ذكرناها سابقاً، فعندما نفتحُ القرآنَ ونقرأه، فإنّنا نقفُ على الفورِ أمامَ صعوباتٍ وإشكالاتٍ بنيويّةٍ وأدبيّةٍ تعززُ الشّكوكَ حولَ أنَّ هذا الكتابَ هوَ كلمةُ اللهِ النهائيّةُ والمعصومة. كما أنّنا نقفُ أمامَ رواياتٍ وقصصٍ توراتيّةٍ منحولةٍ تندرجُ ضمنَ قائمةِ كتاباتِ القرنِ الثّاني المسيحيّةِ والتلموديّةِ الهرطقيّةِ والمنحولة. وفي حينِ أنّنا نتساءلُ كيفَ أنَّ هذهِ الوثائقَ والمستنداتِ الأبوكريفيّةِ ذاتَ الأصلِ البشريِّ وجدت طريقها إلى النصِّ الإلهيِّ المعصومِ والمقدّس، بالإضافةِ إلى الأخطاءِ العلميّةِ والميثاتِ التي وجدت طريقها إلى صفحاته، عندها نصطدمُ بجدارٍ منَ الشّكوك. يصبحُ منَ الواضحِ أنَّ هذهِ الإشكالاتِ تشيرُ بعيداً عن الأصلِ أو المصدرِ الإلهيِّ للقرآن، وتشيرُ نحوَ تفسيرٍ أكثرَ معقوليّةً ومنطقيّة، أنَّ القرآنَ ببساطة هوَ مجموعةٌ منَ المصادرِ المختلفةِ والمتباينةِ والمتفرّقةِ الملطوشةِ منَ الآدابِ المحيطة، قصصٌ ورواياتٌ محلّيّة، فولكلور، وتقاليدٌ شفهيّةٌ كانت

شائعةً ومنتشرةً خلالَ القرنينِ السّابعِ والثّامنِ الميلاديين، وبالمصادفةِ جرى تطعيمها على يدِ جامعي ومصنّفي العصرِ العبّاسيّ الجَهَلَة. المصادرُ غيرُ الإسلاميّةِ التي نمتلكها القادمةِ منَ المجتمعاتِ المحيطةِ والمتنوّعة أيضاً تؤكّدُ ما أوردناهُ من أدلّةٍ في الأعلى، فأغلبُ ما وجدناهُ ضمنَ هذهِ المصادرِ الخارجيّةِ العائدةِ إلى القرنينِ السّابعِ والثّامنِ الميلاديين يتناقضُ ويتعارضُ تماماً مع ما يخبرنا بهِ القرآنُ والمصادرُ التقليديّةُ والتّراثيّة، ممّا يدفعنا للشّكِّ بأصالةِ الأخيرةِ ومصداقيّتها. في النهاية ما زالَ هناكَ القليلُ لنقوله، منَ الواضحِ أنَّ المصادرَ الإسلاميّةَ مشكوكٌ فيها، في حينِ أنَّ المصادرَ غيرَ الإسلاميّةِ تشيرُ إلى ندرةٍ أو انعدامِ وجودِ أيِّ دليلٍ فعليٍّ على صحّةِ القرآن، بل أنَّ هناكَ بالفعل الكثيرَ منَ الموادِ المُقلقَلَةِ منَ المُتَعَذّرِ على المسلمينَ تأكيدها، والأمرُ الآن باتَ منوطاً بكلِّ مسلمٍ حينَ يمسكُ قرآنهُ ويعلنُ أنّهُ كلامُ الله، ونسخةٌ طبقُ الأصلِ عن اللّوحِ المحفوظ، أنْ يسألَ نفسهُ سؤالاً بسيطاً _ نفسُ السؤالِ الذي يطرحهُ المؤرّخونَ الآن _ ((أينَ الدليلُ على صحّةِ اعتقادكَ بأنَّ القرآنَ هوَ كلامُ الله؟..))

من هم مؤلفو القرآن

إبراهيم جركس

مقدّمة:

حسبَ الإسلام، إنَّ التشكيكَ بمقولةِ أنَّ القرآنَ نزلَ على رسولِ الله، وأنّهُ كلامُ اللهِ نفسهُ هوَ كفرٌ واضح، وقد يواجهُ المسلمُ الحكمَ بالموتِ ببساطة فقط لوجودِ بذرةِ الشكِّ في نفسِهِ حولَ أصالةِ القرآن، فالقرآنُ فوقَ كلِّ شيء، وليسَ هناكَ أيُّ شيءٍ بينَ خلقِ الله أكثرُ قداسةً منَ القرآن. خلالَ مرحلةِ البحثِ والتحقيقِ في كتبِ التّراث، نجدُ أنَّ هناكَ الكثيرَ منَ الأشخاصِ المشاركينَ في عمليّةِ تجميعِ وتدوينِ القرآن، وهم غيرُ معروفينَ بالنسبةِ لأغلبِ المسلمين في العالمِ الإسلاميّ، وهناكَ أدلّةٌ غزيرةٌ بينَ ثنايا صفحاتِ القرآنِ، والحديثِ، والسيرةِ التي تبطلُ الزّعمَ القائلَ أنَّ اللهَ قد خلقَ القرآن، وأنا أعتقد أنَّ جعلَ اللهِ هوَ مؤلّفَ القرآن هيَ الكذبةُ الأساسيّةُ التي فُرِضَت على الجنسِ البشريِّ لأكثرَ من ألفيّةٍ كاملة. وبإمكاننا أن نقولَ ونحنُ متأكّدينَ أنّهُ لم يكن محمّدٌ هوَ الوحيدَ الذي قامَ بتأليفِ القرآن. ففي الواقع، إنَّ الجزءَ الأكبرَ منَ القرآن مُلهَمٌ أو مكتوبٌ أو مفبرك على أيدي العديدِ منَ الأشخاصِ غيرِ محمّد، ومن أبرزهم:

- أمرؤ القيس: شاعرٌ عربيٌّ قديم توفّيَ قبلَ عدّةِ عقودٍ من ولادةِ محمّد.
- زيدبن عمرو بن نُفيل: قامَ بالارتدادِ عن الإسلام، ثمَّ بشّرَ للحنيفيّة.
- لبيد: شاعرٌ عربيّ.
- حسّان بن ثابت: الشّاعرُ الرّسميُّ لمحمّد.
- سلمان الفارسيّ: أحدُ أتباعِ محمّد المخلصينَ ومستشاريه.
- الرّاهب بَحيرا: راهبٌ نسطوريٌّ تابعٌ للكنيسةِ السّوريّة.

- جبر: جارٌ مسيحيٌّ لمحمّد.
- ابن قمئة: عبدٌ مسيحيّ.
- خديجةُ بنتُ خويلد: زوجةُ محمّدٍ الأولى.
- ورقةُ بنُ نوفل: ابن عمِّ خديجةَ زوجةِ محمّد.
- أُبيُّ بنُ كعب: أحدُ كتبةِ القرآن، كانَ مقرّباً جدّاً من محمّد.
- محمّدٌ نفسه، كما أنَّ هناكَ آخرينَ شاركوا في تأليفِ القرآنِ بشكلٍ مباشرٍ أو غيرِ مباشر:
- الصّابئة
- عائشة: الطفلةُ التي تزوّجها محمّد.
- عمرُ بنُ الخطّاب صديقُ محمّدٍ ورفيقُ دربِهِ والخليفةُ الثّاني بعدَ أبي بكر.
- عبدُ اللهِ بنُ سلاّم بنُ الحارث: كانَ يهودياً ثمَّ تحوّلَ إلى الإسلام.
- مخيريق: حاخامٌ يهوديٌّ سابقٌ تحوّلَ أيضاً إلى الإسلام. طبعاً، الأشخاصُ الذينَ وردت أسمائهم في القائمةِ هنا ليسوا هم الوحيدينَ الذينَ ساهموا في تأليفِ القرآن، بل قد يكونُ هناكَ الكثيرُ منَ الأفرادِ والفرقِ الأخرى المشاركينَ في بناءِ القرآن لم أذكرهم، لكنَّ القائمةَ المذكورةَ في الأعلى قد تكونُ كافيةً لتكوينِ نظرةٍ شاملةٍ حولَ المسألة.

في هذهِ الدراسة قمتُ بدراسةِ المصادرِ أعلاه ودورها في النصِّ القرآني. والآن، لفهمِ القرآنِ وكتّابهِ ومؤلّفيه، علينا قبلَ كلِّ شيء أن نفهمَ الخلفيّةَ الاجتماعيّةَ والثّقافيّةَ التي نشأَ فيها محمّد، رسولُ الله.

۞ الأصولُ الوثنيّةُ لمحمّد:

تلكَ حقيقةٌ لا تقبلُ الشّكَّ، أنَّ محمّداً قد وُلِدَ من أبوينِ وثنيّين، والدهُ عبدُ الله، ووالدتهُ آمنة كانا وثنيّين، وكانا يعبدانِ أصناماً متعدّدة، وطفولتهُ كانت (على الأرجح حتّى بلغَ سنَّ المراهقة) وثنيّةً بالكامل، وسيرى الكثيرُ منَ المسلمينَ اليوم صعوبةً بالغةً في تقبّلِ هذهِ الحقيقة. على كلِّ حال، أصلُ محمّدٍ الوثنيّ يؤكّدهُ هشامُ بنُ الكلبيّ في كتابهِ «الأصنام» ص 17، حيثُ ينقلُ لنا: ((وقد بلغنا أنَّ رسولَ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم ذكرها يوماً، فقال: لقد أهديتُ للعُزّى شاةً عفراءَ، وأنا على دينِ قومي)) [الأصنام، ص19] ونستنتجُ منَ التصريحِ أعلاه أنَّ محمّد يعترفُ بماضيهِ الوثنيّ _الدينِ الرّسميِّ لقريش. مبدئيّاً، مدحَ محمّدٌ الآلهةَ الرئيسيّةَ الثلاثة (الأصنام) للوثنيّين عندما وافقَ القرشيّينَ في موقفٍ معيّن بأنَّ هذهِ الآلهةَ كانت شفيعةً عندَ الله، وفي نفسِ الصفحةِ ينقلُ لنا الكلبي: واللاّتُ والعُزّى ومناةُ الثالثةُ الأخرى فإنّهنَّ الغرانيقُ العلا وإنَّ شفاعتهنَّ لتُرتجى [الأصنام، ص19] وكانَ يطلقُ على هذهِ الإلهاتِ الثلاثِ اسمَ «بناتِ الله» وكانَ يعتقدُ أنَّ لهنَّ شفاعةً عندَ الله، عندما أنزلَ اللهُ على محمّد الآياتِ التّاليةَ مصحّحاً:

{أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى * أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى * إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى} [النجم: 19- 23].

عندما بلغَ محمّدٌ سنَّ الرُّشد وبدأ بحضورِ الاجتماعِ السنويِّ للشّعراءِ العرب في سوقِ عُكاظ، أضحى شديدَ الإعجابِ والتأثّرِ بأفكارِ وفصاحةِ وشاعريّةِ وإنسانيّةِ وطريقةِ تفكيرِ العديدِ من أولئكَ الشّعراء. حيثُ أنّهُ في تلكَ الفترةِ بالذّات بدأ بالتشكيكِ بديانتهِ الوثنيّةِ والتبشيرِ بمفهومهِ الجديدِ عن الإلهِ الواحد، الخالق _وهذا المفهومُ مشابهٌ للمفهومِ اليهوديِّ والمسيحيِّ في ذلكَ الوقت. ومع ذلك، كانَ متحيّراً بشأنِ أيّ إلهٍ سيتّخذهُ ربّاً له، الله، الإله (إلهُ القمر، ويشيرُ إلى ذلكَ رمزُ الهلالِ الإسلاميِّ الموجودِ على قبابِ المساجد) حيثُ أنّهُ في ذلكَ الزمن كانَ هوَ إلهَ الوثنيّينَ الأعلى. عيبهم الوحيدُ كانَ أنّهم وبالإضافةِ إلى الله كانوا يعبدونه، كشفعاءَ عندَ الله، الأعظمُ والأعلى، آلهةٌ وإلهاتٌ أخرى مثل: هُبَل، اللاّت، العزّى، مناة... إلخ. لذلك، وأثناءَ بداياتِ تشكّلِ مفهومهِ عن الخالق، كانَ اللهُ

يخرجُ من حيّزِ عقله، بالإضافةِ إلى أنّهُ في ذلكَ الوقتِ بالذّات كانَ السّحرةُ والمشعوذونَ والعرّافون وحتّى عبدةُ الشّيطانِ يقسمونَ بالله. وهكذا، وجدَ محمّدٌ أنّهُ منَ المناسبِ جدّاً جعلُ (اللهِ) إلهاً له «إيلاه». خلالَ تلكَ الفترةِ الوثنيّة، كانَ أهلُ اليمنِ يعبدونَ إلهاً آخرَ كانوا يطلقونَ عليهِ اسمَ «الرّحمن»، وقد تبنّى محمّدٌ لفترةٍ معينة اسمَ «الرّحمنِ» اسماً لإلهه، في ذاتِ الوقت، كانَ الرّحمنُ أيضاً كلمةً يهوديّةً «رحمانة» التي كانت تُعتَمَدُ تسميةً للإلهِ خلالَ الحقبةِ التلموديّة [تاريخُ القرآن: تيودور نولدكه، ص 53] لقد اعتقدَ محمّدٌ بذكاء أنّهُ وباستعمالِ الكلمةِ «الرّحمن» سيكونُ قادراً على جذبِ الانتباهِ إلى عقيدتهِ الجديدة، كلاً منَ اليهودِ والوثنيّينَ في نفسِ الوقت. لاحظوا من فضلكم أنَّ اللهَ لم يُذكَر في أيِّ مكانٍ منَ القرآن أنَّ لهُ تسعةً وتسعينَ اسماً إضافياً، ومن ضمنهم «الرّحمن»، لذلك، عندما أعلنَ نفسهُ رسولاً للرّحمن، شعرَ المكيّونَ بدورهم أيضاً بالضّياعِ والارتباك، لم يكن المكيّونَ يعرفونَ أيَّ «رحمانٍ» آخرَ غيرَ الرّحمنِ في اليمامة (بعضُ الكتّابِ يقولونَ أنَّ الرّحمنَ كانَ في اليمن)، وللتحقّقِ من ادّعاءِ محمّد أرسلَ القرشيّونَ وفداً إلى يهودِ المدينة، حيثُ أنّهم اعتقدوا أنَّ الرّحمنَ كانَ فعلاً إلهاً في اليمنِ أو اليمامة. حيثُ يقولُ المؤرّخُ الإسلاميُّ ابنُ سعدٍ في طبقاته: ((بعثت قريشُ النضرَ بنَ الحارثِ بنِ علقمة وعقبة بن أبي معيط وغيرهما إلى يهودِ يثرب وقالوا لهم سلوهم عن محمّد فقدموا المدينةَ فقالوا أتيناكم لأمرٍ حدثَ فينا، منّا غلامٌ يتيمٌ حقير يقولُ قولاً عظيماً يزعمُ أنّهُ رسولُ الرّحمنِ ولا نعرفُ الرّحمنَ إلّا رحمانَ اليمامة، قالوا: صفوا لنا صفتهُ فوصفوا لهم، قالوا: فمن تبعهُ منكم، قالوا: سفلتنا فضحكَ حبرٌ منهم وقالَ، هذا النبيُّ الذي نجدُ نعتهُ ونجدُ قومهُ أشدَّ النّاسِ لهُ عداوة)) [الطبقات الكبرى، ابن سعد، ص 189– 190]عندما نقرأ، بعقلٍ غيرِ متحيّز، السّورَ الخمسينَ الأولى (حسبَ الترتيبِ الزّمنيّ) منَ القرآن نلاحظُ التشويشَ والارتباكَ الذي وقعَ فيهِ محمّدٌ بينَ الرَّبِّ، اللهِ، والرّحمن. لم يكن محمّدٌ متأكّداً أيّاً من هؤلاءِ الثلاثةِ سيتّخذهُ إلهاً لهُ. هنا سنعرضُ السّورَ الخمسينَ التي توضّحُ لنا نظرةَ محمّدٍ إلى الله: الرَّبُّ الواحد: القلم، الليل، الفجر، الشّرح، العاديات، الكوثر، الفيل، النّاس، القدر، قريش، القيامة (11 سورة)الرّحمن، الرَّبّ: الرّحمن، يس (سورتان)الرّحمن، الله، الرَّبّ: طه (سورة واحدة) اللهُ، الرَّبّ: المزّمّل، القدر، المدثّر، التكوير، الأعلى، النّجم، البروج، ق، ص، الأعراف،

الجنّ، الفُرقان، فاطر، الواقعة، الشُّعراء، النمل، القصص، الإسراء (18 سورة). وهذا يعرضُ تذبذبَ محمّدٍ وتشوّشهُ وجهلهُ المبدئيّ بأمورِ إلهِ (إيلاه). ويؤكّدُ القرآنُ أيضاً أنّهُ عندما بدأ بالتبشيرِ بإيمانهِ الجديد، كانَ محمّدُ ضائعاً، مرتبكاً ولم يكن يعرفُ الكثيرَ عن الأمورِ الدينيّة. حيثُ يقولُ القرآنُ هنا: كانَ محمّدُ ضالًّا، فهداهُ الله {وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى} [الضحى: 7] ويوردُ ابن كثير في شرحهِ تفسيراً غريباً لهذهِ الآية لا يتجاوزُ عن كونهِ مجرّدَ ميثةٍ أو حكايةٍ خياليّةٍ من خيالاتِ الأطفال، لكنّهُ يوردُ تفسيراً آخرَ على لسانِ قتادة ((وقالَ قتادةُ في قوله: (ألم يجدكَ يتيماً فآوى ووجدكَ ضالًّا فهدى ووجدكَ عائلاً فأغنى) قال: كانت هذهِ منازلَ رسولِ اللهِ قبلَ أن يبعثهُ اللهُ عزَّ وجل))؛ أي أنّهُ كان يتيماً فآواهُ جدّهُ ثمَّ عمّهُ من بعده، وكانَ ضالًّا؛ أي وثنيّاً على دينِ قومهِ حسبَ الاعتباراتِ الإسلاميّة، فهداهُ الرّبُّ إلى الإسلام. كانَ محمّدٌ في الماضي طائشاً {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ} [يوسف: 3]، وما يؤكّدُ الطّرحَ في الآيتينِ السّابقتين ما جاءَ في الآيةِ التّالية، وهذا إقرارٌ مباشرٌ منَ الرّبِّ بأنَّ محمّداً لم يكن يعرفُ الإيمانَ ولا الكتابَ وكانَ «ضالًّا» {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا} [الشورى: 52] إذن، كيفَ تعلّمَ محمّدٌ أُسُسَ وقواعدَ ديانتهِ الجديدة؟ اقرأ التّالي لتعرف.

۞ امرؤ القيس:

كانَ الشِّعرُ بالنسبةِ للعربِ القدماءِ شغفاً، فقد كانَ للشُّعراءِ مكانةٌ رفيعةٌ في المجتمع، كما أنَّ كلماتِ العديدِ منَ الشُّعراءِ البارعين كانت تعتبرُ في المرتبةِ الثّانيةِ بعدَ كلماتِ الله، ففي أرضٍ صحراويّةٍ، خاليةٍ منَ الترفيهِ وكافّةِ أساليبِ الرّخاءِ الطبيعيّ، كانَ العربُ القدماءُ يجدونَ العزاءَ، والسّلامَ، والهدوءَ، والعاطفةَ المهيجةَ للحرّبِ والانتقام من خلالِ كلماتِ شعرائهم، حيثُ أنَّ الشُّعراءَ كانوا بمثابةِ الغذاءِ العقليِّ والفكريِّ لأقوامهم. فقط سبعةٌ من هؤلاءِ الشُّعراء كانت قصائدهم تعلّقُ بشكلٍ دائمٍ على جدرانِ الكعبة، كانت تلكَ القصائدُ تعرفُ باسمِ «المعلّقات». وردَ في «قاموسِ الإسلام» [ص 460] أنَّ تلكَ القصائدَ كانت تعرفُ أيضاً باسمِ «المذهّبات»، لأنّها كانت مكتوبةً بماءِ الذهب، أمّا كتّابُ

تلكَ القصائد هم: زهير، طَرَفَة، امرؤُ القيس، عمرو بنُ كلثوم، الحارث، عنترة، ولبيد. ومن بينِ هؤلاءِ الشُّعراءِ الخالدين كانَ أشهرهم «امرؤُ القيس»، الذي يعدُّ «ملكَ» أو أسطورةَ الشّعرِ العربيِّ من دونِ منازع. كانَ امرؤُ القيسِ أميراً، كما أنَّ والدهُ كانَ ملكاً عشائريّاً عربيّاً، وبسببِ ولعهِ العاطفيِّ بالحبِّ والشّعر كانَ قد أرهقَ أباهُ وأتعبهُ، فطردهُ والدهُ من قصره، فيما بعد، عاشَ حياةَ عزلةٍ يرعىَ الغنمَ والخرافَ مكرّساً جُلَّ حياتهِ للشّعر، في النهاية، أصبحَ شاعراً جوّالاً يهيمُ على وجههِ وقضى حياةً كئيبةً عندما كادت قبيلتهُ أن تفنى في حربٍ عشائريّة. سافرَ في الأرجاءِ حتى وصلَ في النهايةِ إلى مدينةِ القسطنطينيّة، ويقالُ أنّهُ قُتِلَ على يدِ حاكمِ المدينة لأنّهُ أسرَ قلبَ أميرةٍ رومانيّةٍ بحبّهِ وشعرهِ وقصائده، ماتَ خلالَ الفترةِ ما بينَ عامي 530- 540 بعدَ الميلاد، قبلَ ولادةِ محمّد، أمّا قصائدهُ منقطعةُ النظير كانت تتردّدُ على شفاهِ جميعِ العرب، ومنَ المؤكّدِ أنَّ محمّداً قد حَفِظَ الكثيرَ من أعمالهِ الخالدة. ويقالُ أنَّ محمّداً قد مدحَ امرأ القيسِ وقالَ عنهُ أنّهُ أعظمُ الشُّعراءِ العرب. إذن، ليسَ هناكَ أدنى شكٍّ أنّهُ متأثّرٌ بأشعارِ امرئِ القيس ومتحمّسٌ على تقليدِ أشعارهِ في المراحلِ الأولى من عمليّةِ تأليفِ القرآن. يُدرجُ مؤرّخو القرآنِ عادةً سورةَ العلقِ كأوّلِ سورةٍ نزلت منَ اللهِ على محمّد، على أيّةِ حال، دراسةٌ منتظّمةٌ للقرآن قد تكشفُ أنَّ القضيّةَ ليست كذلك، في الحقيقة، وردَ في معجمِ الإسلام [ص 485] استشهادٌ بالمصادرِ الإسلاميّة، أنَّ الآياتِ المبكرة (قبلَ نزولِ الوحي الأوّلِ لسورةِ العلق) على الأرجحِ هوَ كالتّالي:السّورةُ رقم 99 (سورةُ الزلزلة) السّورةُ رقم 103 (سورةُ العصر) السّورةُ رقم 100 (سورةُ العاديات) السّورةُ رقم 1 (سورةُ الفاتحة) هذهِ السّورُ قصيرةٌ، ومغرقةٌ في روحانيّتها، وساحرة، وقد يكونُ منَ المفيدِ إلقاءُ نظرةٍ متفحّصةٍ على اثنتينِ من هذهِ السّورِ القصيرة:

■ سورةُ الزلزلة 99{إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (1) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (2) وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا (3) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (4) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا (5) يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (6) فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (8) }

■ سورة العصر 103{وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3)} قامَ سانت كلير تسدل كاتبُ المقالةِ الشهيرةِ [مصادر الإسلام، ص 235- 236] من خلالِ المقارنةِ بينَ فقرتينِ منَ المعلّقاتِ السّبع، فوجدَ تشابهاً وتماثلاً كبيراً مع آياتٍ في القرآن.{اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ} [القمر: 1]{وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى} [الضحى: 1- 2] ويقولُ تسدل معلّقاً على الآيةِ الأولى: ((قالَ المؤرّخونَ إنّهُ جرت العادةُ سابقاً بينَ العربِ أنّهُ إذا نبغَ بينهم رجلٌ فصيحٌ بليغ، وألّفَ قصيدةً بديعةً غرّاء علّقها على الكعبة، وأنَّ هذا هوَ سببُ تسميةِ «المعلّقاتِ السّبع» بهذا الاسم، لأنها عُلّقت على الكعبة... ومنَ الحكاياتِ المتداولةِ في عصرنا الحاضر أنّهُ لمّا كانت فاطمةُ بنتُ محمّد تتلو الآيةَ الأولى من سورةِ القمر سمعتها بنتُ امرئِ القيس، فقالت لها: هذهِ قطعةٌ من قصائدِ أبي، أخذها أبوكِ وادّعى أنَّ اللهَ أنزلها عليه)) [نسخة إلكترونيّة، ص12] لذلك، فالعلاقةُ بينَ امرئِ القيس وبعضِ الآياتِ القرآنيّةِ المبكرة واضحةٌ جدّاً، ويتابعُ تسدل في التعليقِ على هذهِ الصلة: ((منَ الواضحِ وجودُ مشابهةٍ بينَ هذهِ الأبياتِ وبينَ آياتِ القرآن، فإذا ثَبُتَ أنَّ هذهِ الأبياتَ هي لامرئِ القيسِ حقيقةً، فحينئذٍ يصعبُ على المسلمِ توضيحُ كيفيّةِ ورودها في القرآن، لأنّهُ يتعذّرُ على الإنسانِ أن يُصدّقَ أنَّ أبياتَ وثنيٍّ كانت مسطورةً في اللّوحِ المحفوظِ قبلَ إنشاءِ العالم. ولستُ أرى مخرجاً لعلماءِ الإسلامِ من هذا الإشكالِ إلّا أن يقيموا الدليلَ على أنّ امرأَ القيسِ هو الذي اقتبسَ هذهِ الآياتِ منَ القرآن، أو أنّها ليست من نظمِ امرئِ القيس الذي توفّيَ قبلَ محمّدٍ بثلاثينَ سنة)) [نفس المصدر، ص 13] في الواقع، إنَّ كلمةَ «الله» موجودةٌ بينَ أبياتِ المعلّقاتِ السّبعة، وضمنَ قصائدِ ديوانِ لبيد. لذا عندما يزعمُ المسلمونَ أنَّ القرآنَ هوَ كلامُ الله، هل يقصدونَ أنّهُ نسخةُ أبياتٍ شعريّةٍ من قصائدِ أمرئِ القيس؟ ينبغي علينا الآن أن نتعرّضَ بشكلٍ مختصر إلى مساهمةِ زيدِ بنِ عمرو بن نُفَيل في تدوينِ القرآن.

زيد بن عمرو بن نُفَيل:

خلالَ فترةِ حياةِ محمّد، كانت تتشكّلُ حركةٌ دينيّةٌ جديدةٌ لمواجهةِ الوثنيّة، بقيادةِ مجموعةٍ منَ المفكّرينَ الأحرار. رفضت هذهِ الجماعةُ آلهةَ الوثنيّة، ولتحقيقِ حاجتهم الروحيّة كانوا يبحثونَ عن ديانةٍ جديدة، كانوا يُعرَفونَ باسمِ «الحُنَفاء» أو «المتحنّفين».

وردَ في معجمِ الإسلام [ص 161- 162] أنَّ المعنى الأصليَّ لكلمةِ «الحنيف»: المنحرفُ أو الضَّالّ، بمعنى آخر؛ هوَ المرتدُّ عن دينهِ إلى دينٍ آخر، أمّا المعنى الآخر لكلمةِ «الحنيفيّة» فهوَ:

1) أيُّ أحدٍ متحمّسٍ للإسلام.

2) متشّددٍ في إيمانه.

3) أو على ملّةِ النبيِّ إبراهيم. يقول سانت كلير تسدل في كتابهِ «مصادرُ الإسلام»: ((وأصلُ كلمةِ «حنيف» في اللغةِ العبريّةِ والسُّريانيّة تعني: نجس أو مرتدّ؛ لأنَّ عَبَدَةَ الأصنامِ منَ العرب أطلقوا على زيدٍ وأصحابهِ لقبَ «حنفاء» ليصفوهم بالارتداد، لأنّهم تركوا ديانةَ أسلافهم عَبَدَةِ الأصنام)) [ص 70- 71] استعملَ محمّدٌ فيما بعد كلمةَ «حنيف» للدلالةِ أوّلاً على ديانةِ إبراهيم، ثمَّ ثانياً إلى أيِّ شخصٍ مخلصٍ لدينِ الإسلام، لذلكَ، منَ المفترضِ أن يكونَ المسلمونُ حنفاءً، وبشكلٍ أكثرَ دقّة، أتباعَ زيد في نفسِ المقالة وضمنَ نفسِ الصّفحةِ يقولُ تسدل: ((فاستحسنَ محمّدٌ والعربُ الحنفاءُ أن يختصّوا بهذا اللقب، وفسّروا هذا اللقبَ تفسيراً حسناً وصبغوهُ بمعنىً مناسب)) [نفس المصدر، ص 71] وحسبَ روايةِ ابنِ إسحاق [ص 99] أشهرُ هؤلاءِ الحُنفاءِ المرتدّينَ في مكّة خلالَ الفترةِ التي عاشَ فيها محمّد هم:

● ورقةُ بنُ نوفل: حيثُ أنّهُ أصبحَ فيما بعدُ مسيحيّاً.

● عبيدُ اللهِ بنُ جحش: أصبحَ مسيحيّاً بعدَ أن هاجرَ إلى الحبشة. كانت زوجتهُ أمُّ حبيبةٍ بنتُ أبي سفيان، وقد تزوّجها محمّدٌ فيما بعد.

● عثمانُ بنُ الحويرث: رحلَ فيما بعد إلى الإمبراطوريّةِ البيزنطيّة، وأصبحَ مسيحيّاً.

● زيدُ بنُ عمرو بن نُفيل: تركَ ديانتهُ الأصليّةَ الوثنيّة، ويقالُ أنّهُ عبدَ إلهَ إبراهيم. كانَ ورقة ابنَ عمِّ خديجة، زوجةِ محمّدٍ الأولى، ويقترحُ بعضُ الكتّابِ أنّهُ كانَ يهوديّاً قبلَ أن يعتنقَ المسيحيّة. عبيدُ اللهِ كانَ حفيدَ عبدِ المطّلب، وعثمانُ بنُ الحويرث كانَ لهُ موقعٌ عالٍ وهامّ في المحكمةِ البيرنطيّةِ في سوريا. فقط زيدُ بن عمرو بقيَ حنيفيّاً متشدّداً، وقد اعتادَ

على القول: «أنا أعبدُ ربَّ إبراهيم»، إلّا أنّهُ قد عاتبَ شعبهُ على ضلالهم وانحرافهم عن طريقِ الحقّ. [ابن إسحاق، ص 287] حسبما وردَ في مقالةٍ تسدل كانَ زيدٌ دائماً يتعبّدُ داخلَ غارٍ بالقربِ من مكّة، وليسَ هناكَ شكٌّ أنَّ محمّداً قد تأثّرَ بزيد، وأنّهُ قد أُعجِبَ بطريقتهِ حتّى أنّهُ كانَ يذهبُ إلى نفسِ الغار طلباً للهدوءِ والعزلةِ والعبادة (([أفادنا ابنُ هشام في سيرته ج2، ص80- 81 أنَّ خطّاباً (عمَ زيد) طردهُ من مكّةَ وألزمهُ أن يقيمَ على جبلِ حِراء أمامَ تلكَ المدينة، ولم يأذن لهُ بالدّخولِ إلى مكّة. وكذلكَ نستفيدُ من هذا الكتابِ أنَّ محمّداً كانَ معتاداً أن يقيمَ في غارِ جبلِ حِراء في صيفِ كلِّ سنةٍ للتحنّثِ حسبَ عادةِ العرب، فالأرجحُ أنّهُ كانَ يجتمعُ بزيدِ بن عمرو، لأنّهُ أحدُ أقربائه. وأقوالُ ابنِ إسحاق تؤيّدُ هذا القول، لأنّهُ قال أنّهُ لمّا كانَ محمّدٌ في ذاتِ هذا الغار ((جاءهُ جبريلُ بما جاءهُ من كرامةِ اللهِ وهوَ بحِراء في شهرِ رمضان... كانَ رسولُ اللهِ يجاورُ في حِراء من كلِّ سنةٍ شهراً))] [مصادر الإسلام، ص 70] وينقلُ لنا ابنُ إسحاق أنَّ زيداً بنَ عمرو عندما كانَ يقابلُ القِبلةَ كانَ يستعيذُ بالذي كانَ يستعيذُ بِهِ النبيُّ إبراهيم. [ابن إسحاق، ص 99- 100] كما أنَّ زيداً كانَ يمقتُ قتلَ الحيواناتِ من أجلِ تقديمِ الأضاحي للأصنام، وأدانَ الممارساتِ والطقوسَ الوثنيّةَ لوأدِ الإناثِ المولودات (وأظنُّ أنَّ عادةَ وأدِ البناتِ كانت عادةً نادرةً جدّاً، هذا إن لم تكن حالةً وحيدةً هي التي تمَّ ذكرها في القرآنِ والحديث، هذهِ الكتبُ تتحدّثُ عن تلكَ الممارساتِ الوثنيّةِ بشكلٍ مبهمٍ ومن دونِ أيِّ ذكرٍ محدّدٍ لعمليّةِ الوأد) ذاتَ مرّة رأت ابنةُ أبي بكر «أمينة» العجوزَ زيدَ بنَ عمرو داخلَ الكعبة، وينقلُ ابنُ إسحاق لنا ذلكَ الخبر ((هشام، عن أبيه، عن أسماء بنت أبي بكر رضيَ اللهُ عنهما قالت: رأيتُ زيدَ بن عمرو بن نُفيل قائماً، مسنداً ظهرهُ إلى الكعبة، يقول: يا معاشرَ قريش، واللهِ ما منكم على دينِ إبراهيمَ غيري، ثمَّ تابعَ يقول: يا الله، لو عرفتُ كيفَ تريدُ أن أعبدكَ فسأعبدك، لكنّي لا أعرف، ثمَّ تمدّدَ وأسندَ رأسهُ على راحتي يديه)) [ابن إسحاق، ص 99- 100] إنَّ السجلاّتِ التّاريخيّةَ لا تذكرُ بوضوحٍ ما الذي حدثَ لزيدِ بنِ عمرو بن نُفيل بالضّبط. على أيّةِ حال، كتبَ ابنُ إسحاق أنَّ والدَ الخليفةِ عمر، الخطّاب؛ (أي أنَّ عمرَ بنَ الخطّاب كانَ ابنَ عمِّ زيد) كانَ يضايقُ زيداً ويضطّهدهُ بشدّة، وفي النهايةِ مات مقتولاً، أمّا من الذي قتلَ زيد، فقد بقيَ ذلكَ لغزاً. ويعلّقُ هنا ابنُ إسحاق: ((أنَّ خطّاباً

طردهُ من مكّةَ وألزمهُ أن يُقيمَ على جبلِ حِراء أمامَ تلكَ المدينة، وكانَ زيد يزورُ مكّةَ سرّاً... ثمَّ غادر زيدٌ مكّةَ ساعياً وراءَ دينِ إبراهيم _حيثُ طافَ أرجاءَ سوريا، ثمَّ عادَ إلى مكّةَ لكنّهُ قُتِل)). [ابن إسحاق، ص 102] إذن كما رأينا في الأعلى، فبسببِ موقفهِ الثّابتِ على مبادئِ الحنيفيّة، وبسببِ تعليقاتهِ السّاخرةِ منَ الوثنيّة، قامت قريشُ بنفيهِ من مكّة وحُرِّمَ عليهِ البقاءُ فيها، كانَ شخصاً منبوذاً، مقاطَعاً ومزدرىً بشدّة من قبلِ القرشيّين، وجبَ عليهِ العيشُ في الغارِ في جبلِ حِراء، مقابلَ المدينة. محمّدٌ الذي كانَ شخصاً يائساً وكئيباً في ذلكَ الوقت، اعتادَ على زيارةِ زيدٍ في ذلكَ الغار، ونلاحظُ أنَّ ابنَ إسحاق نقلَ لنا أخبارَ محمّد وكيفَ أنَّ جبريلَ كانَ ينزلُ عليهِ في ذلكَ الغار، وعندما نضعُ في حسباننا حقيقةَ أنَّ محمّد قد اعترفَ أنَّ جبريلَ، في عدّةِ مناسبات، قابلَ محمّداً في شكلٍ بشريّ، ويبدو الأمرُ شبيهاً عندما كانَ محمّد يزورُ زيدَ بنَ عمرو ليتعلّمَ منهُ الدينَ الحنيفيَّ الجديد، وعلى الأرجحِ أنّهُ كانَ يظنُّ أنَّ زيداً ما هوَ إلّا الملكُ جبريلُ ذاته. كما أنّهُ منَ المرجّحِ أنَّ زيداً بنَ عمرو قد اهتمَّ بتعليمِ محمّدٍ كيفيّةَ القراءةِ والكتابة، وقصائدهُ _أو بالأحرى آياته_ التي أصبحت فيما بعد آياتٍ قرآنيّة. يذكرُ ابنُ إسحاقَ في سيرته [ص 105] أنَّ محمّداً اعتادَ الصّلاةَ في غارِ حِراء كلَّ سنةٍ ولمدّةِ شهرٍ كامل لممارسةِ «التحنّث»، وهوَ عبارةٌ عن طقسٍ وثنيّ (وذلكَ دليلٌ على خلفيّةِ محمّدٍ الوثنيّة). والتحنّثُ هوَ التبرّرُ أو الولاءُ الدينيّ، حسبَ لغةِ قريش. ويؤكّدُ البخاريُّ في صحيحهِ أنَّ محمّداً قد زارَ زيداً في معتزلهِ في غارِ حِراء، وأنّهُ قد عرضَ عليهِ لحماً من حيوانٍ تمَّ التضحيةُ بهِ للأصنام.((عن عبدِ اللهِ بن عمر رضيَ اللهُ عنهما: أنَّ النبيَّ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم لقيَ زيداً بنَ عمرو بن نُفَيل بأسفلِ بلدح، قبلَ أن ينزلَ على النبيِّ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم الوحي، فقدمتُ إلى النبيِّ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم سُفرة، فأبى أن يأكلَ منها، ثمَّ قالَ زيد: إنّي لستُ آكلاً ممّا تذبحونَ على أنصابكم، ولا آكلُ إلّا ما ذُكِرَ اسمُ اللهِ عليه، وأنَ زيداً بنَ عمرو كانَ يعيبُ على قريشٍ ذبائحهم، ويقول: الشّاةُ خلقها الله، وأنزلَ لها منَ السّماءِ الماء، وأنبتَ لها منَ الأرض، ثمَّ تذبحونها على غيرِ اسمِ الله، إنكاراً لذلك وإعظاماً له)) [صحيحُ البخاريّ، كتابُ فضائلِ الصحابة، بابُ حديثِ زيدِ بن عمرو بن نُفَيل، 3614]((عن ابنِ عمر: أنَّ زيداً بنَ عمرو بن نُفَيل خرجَ إلى الشّام، يسألُ عن الدينِ ويتّبعه، فلقيَ عالماً منَ اليهودِ فسألهُ عن دينهم، فقال: إنّي لعلّي أن

أدينَ بدينكم فأخبرني، فقال: لا تكونُ على ديننا، حتّى تأخذَ بنصيبكَ من غضبِ الله، قال زيد: ما أفرُّ إلّا من غضبِ الله، ولا أحملُ من غضبِ اللهِ شيئاً أبداً، وأنّى أستطيعهُ، فهل تدلّني على غيره؟ قال: ما أعلمهُ إلّا أن يكونَ حنيفاً، قالَ زيد: وما الحنيف؟ قال: دينُ إبراهيم، لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ولا يعبدُ إلّا الله، فخرجَ زيدٌ فلقيَ عالماً منَ النصارى فذكرَ مثلهُ، فقال: لن تكونَ على ديننا حتّى تأخذَ بنصيبكَ من لعنةِ الله، قال: ما أفرُّ إلّا من لعنةِ الله، ولا أحملُ من لعنةِ اللهِ، ولا من غضبهِ شيئاً أبداً، وأنّى أستطيع، فهل تدلّني على غيره؟ قال: ما أعلمهُ إلّا أن يكونَ حنيفاً، قال: وما الحنيف؟ قال: دينُ إبراهيم لم يكن يهودياً ولا نصرانياً، ولا يعبدُ إلّا الله، فلمّا رأى زيدٌ قولهم في إبراهيمَ عليهِ السّلام خرج، فلمّا برزَ رفعَ يديهِ، فقال: اللهمَّ إنّي أشهدُ أنّي على دينِ إبراهيم)) [السابق، 3615]((عن أسماءَ بنتِ أبي بكر رضيَ اللهُ عنهما قالت: رأيتُ زيدَ بنَ عمرو بن نُفيل قائماً، مسنداً ظهرهُ إلى الكعبة، يقول: يا معاشرَ قريش، واللهِ ما منكم على دينِ إبراهيمَ غيري، وكانَ يحيي الموءودةَ، يقولُ للرّجلِ إذا أرادَ أن يقتلَ ابنتهُ: لا تقتلها، أنا أكفيكها مؤونتها، فيأخذها، فإذا ترعرعت، قالَ لأبيها: إن شئتَ دفعتها إليك، وإن شئتَ كفيتكَ مؤونتها)) [السابق، 3616] الحديثُ الأوّلُ يخبرنا شيئاً عن وثنيّةِ محمّد، حيثُ أنّهُ في البدايةِ كانَ قد تناولَ لحمَ الضحيّةِ التي قدمها قومهُ الوثنيّونَ إلى الأصنام (ويؤكّدُ هذا الكلامَ هشامُ بنُ الكلبي) لكنَّ زيداً بنَ عمرو رفضَ وبعنادٍ أكلَ لحمِ أيِّ حيوانٍ تمّت التضحيةُ بهِ لأجلِ الأصنام، وقد تعلّمَ محمّدٌ من زيدٍ عادةَ الامتناعِ عن أكلِ لحومِ الأضاحي المقدّمةِ للأصنام (أو اللحمِ الحرام)، أمّا الأحاديثُ الباقية فهيَ تخالفُ بوضوحِ الحديثَ الأوّلَ حولَ مسألةِ تناولِ محمّدٍ للحمِ الحرام، على كلِّ حال، إذا أنعمنا النظرَ في هذهِ الأحاديث فسنلاحظُ مباشرةً أنَّ محمّداً قلّدَ زيداً في عادةِ اللحمِ الحلال، كما أنّهُ أخذَ من زيدٍ فكرةَ إلهه. وبعدَ كلِّ ذلك، هل بإمكاننا أن نتوصّلَ إلى نتيجةِ أنَّ فكرةَ الإسلام قد جاءت من عندِ زيد؟ في السيرةِ النبويّةِ لابنِ إسحاق [ص 102] نجدُ العديدَ منَ المقاطعِ الشّعريّةِ التي ألّفها زيد متشابهةً مع الكثيرِ منَ الآياتِ القرآنيّة، لذلك، أليسَ ذلكَ كافياً لنقولَ أنّهُ بعدَ حادثةِ القتلِ الغامضةِ والطّارئةِ والمبهمةِ التي راح ضحيّتها زيد، أنَّ محمّداً أخذَ عباءتهُ، فلسفتهُ، شعرهُ، حماسهُ لنشرِ الحنيفيّة؟ [سأفرد ملحقاً خاصّاً للأبياتِ الشّعريّةِ الخاصّةِ بزيد والآياتِ القرآنيّةِ التي

تماثلها] كتبَ ابنُ إسحاق في سيرته [طبقات ابن سعد، ج1، ص 185] أنّهُ عندما بدأ محمّد بنشرِ عقيدتهِ (الإسلام)، وقد سألَ في أحدِ الأيّام شخصاً ما عن معنى كلماتِ زيدِ بن عمرو، فأجابَ محمّد ((فقد رأيتهُ في الجنّةِ يسحبُ ذيولاً)) وهذا يؤكّدُ أنَّ محمّداً اعترفَ بفضلِ ومساهمةِ زيدٍ تجاهَ مفهومِ الإسلامِ عن الحنيفيّة. المقتطفاتُ التّالية هيَ من كتابِ «الطبقاتِ الكبرى» لابنِ سعد حيثُ نراهُ يثبتُ أنَّ محمّداً قد حصلَ على فكرةِ الإسلام من زيدِ بن عمرو [ج1، ص 185]((قالَ زيد بن عمرو بن نُفيل: شاممتُ النصرانيّةَ واليهوديّةَ فكرهتهما فكنتُ بالشّامِ وما والاه حتّى أتيتُ راهباً في صومعة فوقفتُ عليهِ فذكرتُ لهُ اغترابيَ عن قومي وكراهتي عبادةَ الأوثانِ واليهوديّةِ والنصرانيّة فقالَ لي: أراكَ تريدُ دينَ إبراهيمَ يا أخا أهلِ مكّة، إنّكَ لتطلبُ ديناً ما يؤخذُ اليومَ بهِ وهوَ دينُ أبيكَ إبراهيمَ كانَ حنيفاً لم يكن يهوديّاً ولا نصرانيّاً كانَ يصلّي ويسجدُ إلى هذا البيتِ الذي ببلادك، فالحق ببلدكَ فإنَّ نبيّاً يُبعَثُ من قومكَ في بلدك يأتي بدينِ إبراهيمَ بالحنيفيّة وهوَ أكرمُ الخلقِ على الله)) منَ الواضحِ جيّداً أنَّ زيداً قد كتبَ بعضَ السّورِ القرآنيّةِ بنفسه (على الأرجحِ حوالي ثلاثينَ سورة، دونَ تسلسلٍ تاريخيٍّ أو زمنيّ) ومن ضمنها تلكَ السّورُ التي تتناولُ حنيفيّةَ النبيِّ إبراهيم:{قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [البقرة: 135]{مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [آل عمران: 67]{فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [آل عمران: 95]{وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً} [النّساء: 125]{حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [الأنعام: 79]{مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [الأنعام: 161]{إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [النحل: 120]{وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [يونس: 105]{حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ} [الحج: 31]{مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ} [البيّنة: 5]{فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا} [الروم: 30] كما ذكرتُ سابقاً، زيدُ بن عمرو كانَ ضدَّ الشّعائرِ والطقوسِ والآلهةِ الوثنيّةِ قلباً وقالباً، كما أنّهُ عارضَ ممارساتها في وأدِ البنات. وقد ذكرَ القرآنُ هذهِ الممارساتِ النادرةِ التي كانَ يمارسها القرشيّونَ ضمنَ ثلاثِ آيات:{وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ} [النحل: 58] {وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا

كَبِيرًا} [الإسراء: 31]{وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ} [التكوير: 8- 9] منَ الواضحِ أنَّ الآياتِ الواردةَ في الأعلى قد استلهمها محمّدٌ بشكلٍ أو بآخر عن زيدِ بن عمرو بن نُفيل، والأرجحُ أنَّ زيداً كتبها بنفسِهِ أيضاً، فيما بعد، عندما ماتَ زيد، قامَ محمّدُ ببساطةٍ بوضعها في قرآنِهِ وزعمَ أنّها من عندِ الله... وتؤكّدُ الأمثلةُ السّابقة أنَّ محمّداً قد نسخَ قصصَ ومفاهيمَ وأسلوبَ زيدِ بن عمرو في تدوينِ القرآن.

لَبِيد:

كانَ لبيدُ شاعراً مخضرماً، وكانَ لهُ الأثرُ الكبيرُ على محمّدٍ الذي قدّرهُ حقَّ قدرِهِ وأُعجِبَ بِهِ جدّاً، وسنتعرّضُ هنا للكلامِ عن مساهمةِ لبيدٍ في تدوينِ القرآن. هوَ لبيدُ بنُ ربيعة بنُ مالك بنِ جعفرِ بن كلاب العامري، ويخبرنا معجمُ الإسلام [ص 282] أنَّ لبيداً قد تُوفّيَ في الكوفةِ بالعراق وكانَ عمرهُ قد بلغَ أكثرَ من 157عاماً. وكما قلنا سابقاً، كانَ لبيدُ أحدَ الشُّعراءِ السّبعةِ الخالدينَ الذينَ كتبوا المعلّقات، ويدّعي المؤرّخونَ الإسلاميّونَ أنَّ لبيداً قد اعتنقَ الإسلامَ عندما قرأ الآيةَ الأولى من سورةِ البقرة، حينَ رآها معلّقةً على جدارِ الكعبة، ويقالُ أنّهُ سحبَ معلّقتهُ واعتنقَ الإسلام، وهذا الادّعاءُ طبعاً لا يمكنُ أن يكونَ صحيحاً، حيثُ أنَّ الآيةَ الأولى من سورةِ البقرةِ تقول {ألم} هذهِ الرسالةُ الملغزةُ التي ادّعى محمّد أنّها نزلت إليهِ من عندِ الله ولا أحدَ يعرفُ ما القصدُ منها سوى الله، أمّا البيتُ الشّعريُّ الذي قالهُ لبيد فقد كان: ((ألا كلُّ شيءٍ، ما خلا اللهَ، باطلُ))، وقد قالَ محمّدٌ نفسَ الشيءِ للبيد_الشّاعرِ الحقيقيّ. حتّى ولو قبلنا فكرةَ أنَّ لبيداً أصبحَ مسلماً بعدَ أن قرأ آيةَ محمّد، عندها منَ الواضحِ أنَّ لبيداً كانَ بالطّبعِ هوَ الذي ساعدَ محمّداً في تأليفِ وبناءِ بعضِ آياتِ النصِّ القرآنيّ، التي أصبحت فيما بعد رسائلَ نزلت منَ اللهِ على نبيّه. تلكَ الآياتُ التي كتبها لبيدٌ بالنيابةِ عن محمّد كانت تلكَ الآياتِ التي تتعاملُ مع مسألةِ التقوى، الحثُّ على أعمالِ الخير، وبعضِ القصصِ و الطقوسِ والأساطيرِ العربيّة... إلخ. وفي الأحاديثِ نلاحظُ وجودَ أدلّةٍ وإشاراتٍ إلى لبيد، هنا بعضُ الأمثلة:

- صحيحُ البخاري: ((عن أبي هريرة؛ أنَّ رسولَ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ قال: ((أصدقُ كلمةٍ قالها الشّاعر، كلمةُ لبيد: * ألا كلُّ شيءٍ، ما خلا اللهَ، باطلُ * وكادَ أميّةَ

بنُ أبي الصّلتِ أن يُسلم)) [5، 58، 181]

● صحيحُ مسلم: ((عن أبي هريرة، عن النبيِّ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ قال: «أشعرُ كلمةٍ تكلّمت بها العربُ كلمةُ لبيد: ألا كلُّ شيءٍ ما خلا الله باطلُ»)) [28، 5604] أعتقدُ أنَّ محمّداً، في البداية، أرادَ أن يبلغَ الشُّهرةَ كشاعرٍ عن طريقِ تقليدِ أسلوبِ وألفاظِ وإيقاعاتِ شعراءِ عصرهِ المخضرمين، إلّا أنَّ أميّةَ حالت دونَ ذلك، وكانت عقبةً في طريقهِ الذي أرادهُ لنفسه، حتّى قابلَ زيدَ بنَ عمرو بن نُفيل والشّاعرَ لبيد _معلّماهُ ومرشداهُ اللّذانِ سيغيّرانِ مسارَ حياتهِ بالكامل. في البداية، وقبلَ أن يتزوّجَ من خديجة، منَ المحتملِ أنَّ محمّداً كانَ يحلمُ بأن يصبحَ شاعراً مخضرماً، وكانَ يكنُّ الكثيرَ منَ الإعجابِ والتقديرِ للشخصيّاتِ الثلاثةِ التي مرّت معنا، الشّاعرانِ امرؤُ القيسِ ولبيد، وزيدُ بن نُفيل ذو النزعةِ الإنسانيّةِ بلغةِ اليوم. وبعدَ زواجهِ بخديجة، قابلَ الكثيرَ منَ الشخصيّاتِ من معارفِ زوجته والتي كانَ لها اطّلاعاتٌ واسعةٌ على أمورٍ دينيّةٍ أخرى غيرِ الوثنيّة، وقد بدّلَ رأيه. الآن، بدأَ يفكّرُ بنظامٍ عقائديٍّ جديد. في الحقيقة، وردَ في القرآنِ أنَّ القرشيّينَ قد اعتقدوا أنَّ محمّداً كانَ يحاولُ أن يصبحَ شاعراً ويكتبَ قصائد، لكنَّ اللهَ أحبطَ اعتقاداتهم وظنونهم الخاطئة. هنا نوردُ بعضَ الآياتِ التي تثبتُ النّاحيةَ الشّاعريّةَ عندَ محمّد: {أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ} [الطّور: 30] اعتقدَ النّاسُ أنَّ محمّداً كانَ شاعراً حالماً، وأرادوهُ أن يقرأَ عليهم بعضَ الأبياتِ الشعريّةِ التي ألّفها، أو أن يريهم معجزةً منَ المعجزاتِ التي منَ المفترضِ أنَّ اللهَ قد أمدّهُ بها كما أمدَّ باقي الأنبياءِ من قبله: {بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ} [الأنبياء: 5] لم يكتب محمّدٌ أيَّ شِعر، فمعجزتهُ الوحيدةُ والواضحةُ هيَ القرآن: {وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ} [يس: 69] محمّدٌ ليسَ شاعراً مجنوناً، ما هوَ إلّا رسولٌ قد جاءَ بالحقِّ وليثبتَ رسالةَ الأنبياءِ الذينَ جاؤوا قبلهُ: {وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ * بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ} [الصّافّات: 36- 37] القرآنُ ليسَ كلامَ محمّد، ولا هوَ كلامُ كاهن:{ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُون * وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ} [الحاقّة 41- 42].

۞ حسّان بن ثابت:

كانَ حسّانُ بنُ ثابت شاعرَ محمّدٍ الرّسميّ، وقد ألّفَ ديواناً كاملاً، مختاراتٍ أدبيّةً وميثولوجيّةً منَ الشّعرِ العربيّ القديم، وعندما هاجرَ محمّدٌ إلى المدينة جعلَ من حسّانِ بنِ ثابت شاعرهُ الخاصّ، ومع ذلك، كانَ لحسّانَ خصائصهُ وميّزاتهُ الخاصّة، ومع أنّهُ كانَ الشّاعرَ الشخصيَّ لمحمّد، إلّا أنّهُ كانَ يُكِنُّ كرهاً عميقاً للمسلمين. في كتابِ «سيرةِ رسولِ الله» يقولُ البروفيسور ألفريد غيلايوم: ((لم يكن حسّانُ بنُ ثابت يحبُّ هذا التزايدَ المطّردَ في أعدادِ المسلمين، وكانَ يعتبرُ المسلمينَ المشرّدينَ كمصدرِ إزعاجٍ تامّ. لم يستضف أيّاً منَ المهاجرينَ في بيته، كما أنّهُ لم يؤاخِ أيّاً منهم)). على الأرجحِ أنّ حسّان كانَ شاعراً مأجوراً عندَ محمّد، وكان يتقاضى أجرهُ جرّاءَ إعدادِ قصائدِ حسبَ المواصفاتِ المحمّديّة، وهذا ما تؤكّدهُ الأحاديثُ التي نوردُ بعضها هنا.

● طلبَ محمّدٌ من حسّان أن يقرأَ الشّعرَ في المسجد ((عن سعيدِ بنِ المسيّب، عن أبي هريرة؛ أنَّ عمراً مرَّ بحسّانٍ وهوَ ينشدُ الشعرَ في المسجد، فلحظَ إليه، فقال: قد كنتُ أنشد، وفيهِ من هوَ خيرٌ منك، ثمّ التفتَ إلى أبي هريرة، فقال: أنشدكَ الله! أسمعتَ رسولَ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ يقول: «أجب عنّي، اللهمَّ! أيّدهُ بالرّوحِ القُدس»؟ قال: اللهمَّ! نعم)) [صحيح مسلم، كتابُ فضائلِ الصّحابة، بابُ فضائلِ حسّان بن ثابت، 2485] نستنتجُ من هذا الحديثِ بما لا يدعُ مجالاً للشّكّ أنَّ حسّاناً كانَ معتاداً على إلقاءِ الشّعرِ في المسجد، ألا يمكنُ أن تكونَ قصائدهُ إحدى الآياتِ القرآنيّة؟!!

● أمرَ محمّدٌ الشّاعرَ حسّان بهجاءِ المشركينَ والوثنيّينَ ((البراءُ بنُ عازب قال: سمعتُ رسولَ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ يقولُ لحسّانِ بنِ ثابت «اهجهم، أو هاجهم، وجبريلُ معك»)) [السابق، 2486] يؤكّدُ هذا الحديثُ أنَّ حسّاناً قد اعتادَ على إعدادِ قصائدِ حسبَ طلبِ محمّد ـ بنفسِ الطريقةِ التي أنزلَ بها اللهُ القرآنَ عن طريقِ جبريل.

● هجاءُ حسّانِ بنِ ثابت للمشركين ما عدا محمّد ((عن عائشةَ رضيَ اللهُ عنها قالت: استأذنَ حسّانُ بنُ ثابت رسولَ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم في هجاءِ المشركين، فقالَ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم: (فكيفَ بنسبي)، فقال حسّان: لأسلنّكَ منهم كما تُسلُّ الشّعرةُ

منَ العجين)) [صحيح البخاري، كتابُ الأدب، بابُ هجاءِ المشركين، 5798]...
((وعن هشامِ بنِ عروة، عن أبيهِ قال: ذهبتُ أسبُّ حسّانَ عندَ عائشة، فقالت: لا تسبّهُ، فإنّهُ كانَ ينافحُ عن رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم)) [السّابق] وهذا دليلٌ آخر على أنَّ حسّانَ بنَ ثابت كانَ شاعراً مأجوراً، حتّى أنّهُ لهُ مساهماتهُ في بناءِ النصِّ القرآنيّ.

● منحَ أبو طلحة أغلى ممتلكاتهِ لأقربائه. بمعنىً آخر؛ حسّانَ بنَ ثابت وأُبيَّ بنَ كعب: ((عن أنسٍ قال: لما نزلت {لن تنالوا البرَّ حتّى تنفقوا ممّا تحبّون} قالَ أبو طلحة: يا رسولَ الله، أرى ربّنا يسألنا من أموالنا فإنّي أشهدكَ أنّي قد جعلتُ أرضي بأريحاءِ له، فقالَ لهُ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم: «اجعلها في قرابتك» فقسمها بينَ حسّانِ بنِ ثابت وأُبيِّ بنِ كعب)) [صحيح مسلم، 5، 2186]. هكذا كانَ محمّدٌ يكافئُ حسّانَ بنَ ثابت جرّاءَ تأليفِ آياتٍ قرآنيّةٍ لمحمّد (من خلالِ أشعارهِ، وبمساعدةِ جبريل)

● بعد أن أُصيبَ حسّانُ بن ثابت بالعمى كانَ يقضي جُلَّ وقتهِ في منزلِ عائشة، كانت عائشةُ تقدّرهُ أيضاً، حيثُ أنّهُ كانَ معتاداً على كتابةِ نقدٍ هجائيٍّ بالنيابةِ عن محمّد: ((عن مسروق قال: دخلتُ على عائشةَ وعندها حسّانُ بنُ ثابت ينشدها شعراً، يُشبّبُ بأبياتٍ لهُ، فقال: حِصانٌ رِزانٌ ما تزنُّ بريبةٍ * وتصبحُ غرثى من لحومِ الغوافلِ، فقالت لهُ عائشة: لكنّكَ لستَ كذلك. قالَ مسروق فقلتُ لها: لِمَ تأذنينَ لهُ يدخلُ عليك؟ وقد قالَ الله: والذي تولّى كبرهُ منهم لهُ عذابٌ عظيم [24 /النّور /11]، فقالت: فأيُّ عذابٍ أشدُّ منَ العمى؟ إنّهُ كانَ ينافحُ، أو يهاجي عن رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليه)) [السّابق، 31، 6077]، وهكذا أنقذَ الشّاعرُ حسّان محمّداً وقرآنه.

● هنا نوردُ حديثاً آخرَ من صحيحِ مسلم يزعمُ أنَّ قصائدَ حسّانِ بنِ ثابت جاءت من مصدرٍ إلهيٍّ أو قدسيّ (روحُ القُدُس) كما أنّها تشبهُ بعضَ الآياتِ القرآنيّة: ((عن عائشة؛ أنَّ رسولَ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ قال «اهجو قريشاً، فإنّهُ أشدُّ عليهم من رشقٍ بالنبل» فأرسلَ إلى ابنِ رواحةَ فقال: «اهجهم» فهجاهم فلم يرضَ، فأرسلَ إلى كعبِ بنِ مالك، ثمَّ أرسلَ إلى حسّانِ بنِ ثابت، فلمّا دخلَ عليه، قالَ حسّان: قد آنَ لكم أن ترسلوا إلى هذا الأسدِ الضّاربِ بذنبه، ثمَّ أدلعَ لسانهُ فجعلَ يحرّكهُ، فقال: والذي بعثكَ بالحقِّ! لأفرينّهم بلساني فريَ الأديم، فقالَ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم «لا تعجل، فإنَّ أبا بكرٍ أعلمُ

قريشٍ بأنسابها، وإنَّ لي فيهم نسباً، حتى يلخِّصَ لكَ نسبي» فأتاهُ حسّان، ثمَّ رجعَ فقال: يا رسول الله! قد لخّصَ لي نسبك، والذي بعثكَ بالحقّ! لأسلَّنَّكَ منهم كما تُسَلُّ الشَّعرةُ منَ العجين، قالت عائشة: فسمعتُ رسولَ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم يقولُ لحسّان «إنَّ روحَ القُدُس لا يزالُ يؤيّدكَ، ما نافحتَ عن اللهِ ورسوله»، وقالت: سمعتُ رسولَ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ يقول «هجاهم حسّانٌ فشفى واشتفى»)). [فضائلُ الصّحابة، بابُ فضائلِ حسّانِ بنِ ثابت، 2490] وقالَ حسّان:هجوتَ محمّداً فأجبتُ عنهُ * وعندَ اللهِ في ذاكَ الجزاءُ هجوتَ محمّداً برّاً تقيّاً * رسولَ اللهِ شيمتهُ الوفاءُ فإنَّ أبي ووالدهُ وعرضي * لعرضِ محمّدٍ منكم وقاءُ ثكلتُ بنيّتي إن لم تروها * تثيرُ النقعَ من كنفي كداءُ يبارينَ الأعنّةَ مصعداتٍ * على أكتافها الأسَلُ الظّماءُ تظلُّ جيادنا متمطّراتٍ * تلطّمهنَّ بالخُمُرِ النساءُ فإن أعرضتمُ عنّا اعتمرنا * وكانَ الفتحُ وانكشفَ الغطاءُ وإلّا فاصبروا لضرابِ يومٍ * يعزُّ اللّهُ فيهِ من يشاءُ وقالَ اللهُ: قد أرسلتُ عبداً * يقولُ الحقَّ ليسَ بهِ خفاءُ وقالَ اللهُ: قد يسّرتُ جنداً * همُ الأنصارُ عرضتها اللقاءُ لنا في كلِّ يومٍ من معدٍّ * سبابٌ أو قتالٌ أو هجاءُ فمن يهجو رسولَ اللهِ منكم * ويمدحهُ وينصرهُ سواءُ وجبريلٌ رسولُ اللهِ فينا * وروحُ القُدسِ ليسَ لهُ كفاءُ كافأ محمّدٌ شاعرهُ المرتزق بإهدائهِ فتاةً شابّةً جميلة «سيرين»، أُهديَت لمحمّدٍ مع ماريّةَ القبطيّة من قِبَلِ حاكمِ الإسكندريّة. احتفظَ محمّدٌ بماريّةَ لنفسه، لأنّها كانت أجملَ من تلكَ الفتاةِ الأخرى، وتبرّعَ بسيرين لحسّانِ بنِ ثابت كمحظيّة. ونقرأُ في سيرةِ ابنِ إسحاق أنَّ ماريّةَ وسيرين كانتا أختين [ابن إسحاق، ص 652].

۞ سلمان الفارسي:

كانَ سلمانُ في الأصلِ زرادشتيّاً مخلصاً من أصفهان ببلادِ فارس، ثمَّ تحوّلَ إلى المسيحيّة، ثمَّ بيعَ كعبدٍ إلى بني قريظة، يهودِ المدينة، وعندما وصلَ محمّدٌ إلى المدينةِ قابلهُ سلمانُ هناك، وبعدَ حوالي ثلاثِ سنوات، وبمساعدةِ المسلمين نالَ حرّيّتهُ من سيّدهِ وتحوّلَ إلى الإسلام، حيثُ أصبحَ رفيقَ محمّدٍ الدّائم، وخلالَ معركةِ الأحزاب (الخندق) كانت فكرةُ حفرِ الخندقِ فكرتهُ في الأصل. كانَ مطّلعاً متعمّقاً في كتبِ الفرس (وبالأخصِّ الزرادشتيّين)، واليونانِ واليهود، وقد مدحهُ عليُّ بن أبي طالب وجعلهُ مقرّباً منهُ جدّاً. من دونِ شكّ،

استغلَّ محمّدٌ موهبةَ سلمانَ الاستثنائيّةِ بطريقةٍ ذكيّةٍ لوضعِ العديدِ منَ الآياتِ القرآنيّةِ التي تتناولُ مواضيعَ تاريخيّةً متعلّقةً بمصرَ القديمة، الإغريق، الرّومان، والفُرس. وبما أنَّ سلمانَ كانَ زرادشتيّاً سابقاً، فقد تعلّمَ محمّدٌ منهُ وبالتفصيلِ الكثيرَ من معتقداتهِ وطقوسه، ثمّ أدخلها في القرآن. حيثُ نلاحظُ أنَّ وصفَ محمّدٍ للجنّةِ والنّار يشبهانِ كثيراً الحكاياتِ الزرادشتيّة. لذا، فتلكَ الآياتُ التي تتحدّثُ عن العقابِ في الجحيم والجائزةِ في الجنّة هيَ من إلهامِ سلمانَ الفارسيّ. ومنَ الجديرِ بالملاحظة أنَّ سلمانَ أصبحَ عضواً مقرّباً جدّاً من عائلةِ محمّد، فعائشةُ تقولُ أنَّ محمّداً اعتادَ أن يقضي الكثيرَ منَ الوقتِ بصحبتهِ، وكانا يتناقشانِ في الكثيرِ منَ الأمورِ والقضايا الدينيّة، حتّى أنَّ عائشةَ ظنّت أنَّ سلمانَ سيقضي الليلَ مع محمّد. هؤلاءِ الذينَ قرأوا القرآنَ عن قربٍ وبتمعّن وعدّةَ مرّات سيُفاجئونَ بالطريقةِ التي أخذَ فيها محمّدٌ أوصافَ الجنّةِ والنّار، فهناكَ الكثيرُ منَ الآياتِ في القرآن التي تتعاملُ، مرّةً بعدَ مرّة، مع هذهِ المواضيعِ بالتحديد، على سبيلِ المثال، المكافئاتِ الحسّيّةَ والجسديّةَ للمؤمنينَ في الجنّة، والعقوباتِ السّاديّةَ والمقرفةَ للكافرينَ في الجحيم، حتّى أنَّ كلمةَ جهنّم هيَ كلمةٌ فارسيّة، تمَّ نقلها إلى القرآن دونَ أيِّ تغيير. ومعظمُ هذهِ الآيات، بلا أدنى شكّ، مُلهَمَةٌ من قِبَلِ سلمان، وأخيراً، تمّت كتابتها وتسجيلها على يدِ محمّدٍ وأتباعهِ ونسبها لنفسه، ثمَّ ادّعى أنّها جاءتهُ من عندِ اللهِ عن طريقِ الوحيِ جبريل. وأقتبسُ هنا بعضاً من تلكَ الآيات.

● الجنّةُ في القرآن:البقرة: 23. النّساء: 31. الأعراف: 42، 34، 44. التوبة: 72. الكهف: 31، 32. مريم: 62، 63. السجدة: 17. فاطر: 33. يس: 41– 50. الدُّخان: 55، 56. محمّد: 6. ق: 31. النّجم: 15. الواقعة: 11– 12. الحديد: 21. التحريم: 8. الإنسان: 12، 13، 18، 19،20، 21.

● الجحيمُ في القرآن:البقرة: 166. آل عمران: 151، 162. النّساء: 55– 56. الأنعام: 40. الأعراف: 38، 179. إبراهيم: 29. الحُجُر: 44. الإسراء: 8، 18، 97. الكهف: 102. الفرقان: 34. الصّافّات: 62، 64. الزّمر: 71. غافر: 46، 49، 50، 73. الزّخرف: 77. ق: 30. الواقعة: 93. الحاقّة: 35– 37. المعارج: 11– 16. الجنّ: 15. المدثّر: 27– 29. الإنسان: 7. النبأ: 24. حرصاً على الاختصارِ وعدمِ الإطالة لم أذكر هنا

المراجعَ والإشاراتِ التّاريخيّةَ في القرآن والتي استلهمها محمّدٌ من دونِ شكٍّ من سلمان. حاولوا الرجوعَ إلى القصصِ القرآنيّةِ والتمعّنَ فيها، وستجدونَ أنّها من صنعِ إنسان، ولا يمكنُ أن تكونَ من صنعِ إله.

الراهبُ بَحيرا

كانَ بحيرا راهباً مسيحيّاً نسطوريّاً عاشَ في الشّامِ بسوريا، وكانَ اسمهُ المسيحيُّ الأصليّ «سيرجيوس» أو «جورجيوس»، ويُعْتَقَدُ أنّهُ قد نُفِيَ منَ الكنيسةِ السّوريّةِ لأنّهُ أهانها. وليكفّرَ عن إساءتِهِ للكنيسة رحلَ في مهمّةٍ تبشيريّةٍ إلى جزيرةِ العرب، حيثُ قابلَ محمّداً في مكّة، وأصبحَ رفيقهُ ولا يفارقه، وكانَ لهُ الكثيرُ منَ المحادثاتِ السّرّيّةِ مع محمّد حيثُ كانَ يسردُ لهُ العديدَ منَ القصصِ والحقائقِ المسيحيّة. وهناكَ العديدُ منَ الآياتِ في القرآن المتعلّقةِ بالمسيحيّة قد تكونُ مأخوذةً عن بحيرا الكاهن. وببساطة قامَ محمّدٌ بإعادةِ صياغتها وكتابتها ووضعها في قرآنه. ويُعتقدُ أنَّ الآياتِ القرآنيّةَ التي تتكلّمُ عن ألواحِ داوّود مستلهمةٌ من بحيرا. ونوردها هنا كما جاءت في القرآن:{إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا} [النّساء: 163] {وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا} [الإسراء: 55]{وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ} [الأنبياء: 105] في الواقع، جاءَ في معجمِ الإسلام [ص 698] أنَّ آخرَ آيةٍ في الأعلى (الأنبياء: 105) مقتبسةٌ أو ملطوشةٌ بشكلٍ مباشر منَ «الزّبور xxxvii.29». هنا بعضُ الآياتِ التي منَ الممكنِ أن تكونَ مأخوذةً مباشرةً عن بحيرا: البقرة: 101، 113، 139. آل عمران: 23، 78. النّساء: 51، 111. المائدة: 14، 66. يونس: 94- 95. القصص: 53. العنكبوت: 46. الحديد: 27. ليسَ منَ الواضحِ السببُ الذي طُرِدَ بهِ بحيرا من كنيستهِ في سوريا. هل يمكنُ أن يكونَ أنّهُ كانت لديهِ أفكارهُ الهرطقيّةُ الخاصّةُ بشأنِ الديانةِ المسيحيّة، وخصوصاً الكنيسةَ النسطوريّة، أم أنّهُ تورّطَ بعملٍ إجراميٍّ ما؟ لا أحدَ يعلمُ السببَ الحقيقيّ. على كلِّ حال، كانَ لمحمّدٍ ثروةٌ معلوماتيّةٌ طائلةٌ حولَ المسيحيّة (مزيّفةٌ أو حقيقيّة) استمدّها من هذا الراهب، وهذا ما ساعدهُ ليخلقَ قرآناً

انتقائياً. منَ المهمُّ الملاحظةُ أنَّ القرآنَ نفسهُ يذكرُ أنَّ محمّداً كانَ في الواقع قد تعلّمَ على يدِ غريب، لكنَّ اللهَ قامَ بإنكارِ الحقيقةِ عن طريقِ الإشارةِ إلى أنَّ لغةَ محمّدٍ ولغةَ الغريبِ كانتا مختلفتينِ تماماً! وهذا غيرُ صحيحٍ على الإطلاق، ونلاحظُ أنَّ محمّداً خلالَ رحلتهِ إلى الشّامِ في سوريا قابلَ الراهبَ بحيرا، ولم يواجه أيّةَ صعوبةٍ في التواصلِ معه، وفي ختامِ هذهِ الفقرة أذكرُ الآيةَ التي تزعمُ أنَّ محمّداً قد تلقى علمهُ على يدِ شخصٍ غريب:{وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ} [النحل 103]

۞ جَبر: جارُ محمّدٍ المسيحيّ

يخبرنا معجمُ الإسلام [ص 223] أنَّ جبراً كانَ من «أهلِ الكتاب»، وكانَ مطّلعاً على كلِّ منَ التوراةِ والإنجيل، وكانَ محمّدٌ يستمعُ إليهِ وهوَ يقرأُ هذهِ الكتبَ عندما كانَ يمرُّ من أمامِ منزله. يمكنُ أن يكونَ محمّدٌ قد تعلّمَ من جبرِ العديدَ من هذهِ السّورِ والآياتِ المتعلّقةِ بالتقاليدِ والعاداتِ والمعتقداتِ المسيحيّةِ واليهوديّة، وعلى الأرجح، الآياتِ التي تتحدّثُ عن أساطيرِ داوُودَ والملكِ سليمان يمكنُ أن تكونَ مفبركةً على يدِ جبر. وبعضُ هذهِ الآياتِ أوردها هنا (وأنصحُ بالرجوعِ إلى القرآنِ للاطّلاعِ على كاملِ الآية):{وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ} [البقرة: 251]{وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا} [النساء: 163. الإسراء: 55] {وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ} [الأنبياء: 78- 79- 80- 105]{وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ * وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاس عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ * وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ} [النمل: 15- 16- 17]{وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ * أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [سبأ: 10- 11]{إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ * وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ} [ص: 18- 20]{فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ * يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاس بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ

اللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ} [ص: 25-26]

ابن قمئة: العبدُ المسيحيّ

كانَ ابنُ قمئة عبداً مسيحياً عاشَ حياتهُ في مكّة، وقد تعلّمَ محمّدٌ الكثيرَ عن الإنجيلِ المسيحيِّ المشكوكِ بصحّتِهِ (ككتابِ بارنابا) منَ ذاكَ العبد. فسورةُ مريم (سورة 19) بأكملها، وبالأخصِّ الآياتِ التي تصفُ عمليّةَ ولادةِ المسيحِ على الأرجح، أنّها مكتوبةٌ بيدِ ابنِ قُمئة؛ العبدِ المسيحيِّ لمحمّد. وأقتبسُ هنا من مقالةِ ألفونس مينغانا «رسالةُ القرآن» [ص 103]، الذي اعتمدَ بدورهِ على كتابِ الواقدي: ((ويقالُ أنَّ الواقديَّ وهوَ مؤرّخٌ قديم يقولُ أنَّ عبدَ اللهِ بنَ سعدِ بنَ أبي سرح، والعبدُ المسيحيُّ ابنُ قُمئة، غيّرا شيئاً ما في القرآن، وقد تراجعَ ابنُ أبي سرح وقال: كانَ العبدُ المسيحيُّ يلقّنهُ؛ (أي محمّد)، كنتُ أنا من يدوّنُ القرآنَ وقد غيّرتُ فيهِ أيَّ شيءٍ أريده)) لاحظوا رجاءً أنَّ عبدَ اللهِ بنَ سعدِ بنَ أبي سرح كانَ أحدَ كتبةِ الوحي المؤتمنينَ من قِبَلِ محمّد، وعندما هاجرَ محمّدٌ إلى المدينة كانَ بصحبتِهِ عبدُ الله، وحينما كانَ محمّدٌ يدخلُ في غيبوبةِ الوحي كانَ يُملي على عبدِ اللهِ بأن يكتبَ ما يُمليهِ عليهِ جبريل، وعندما كانَ عبدُ اللهِ يُجري على لثغِ محمّدٍ بعضَ التعديلات، لم يكن محمّدٌ يعترض. كما ويقالُ أنَّ عبدَ اللهِ بنَ سعد بن أبي سرح قد اعترفَ بلسانهِ أنّهُ قد حرّفَ بالقرآنِ أثناءَ تدوينهِ، فعندما كانَ محمّدٌ يُملي عليه « السميعُ العليم» كانَ عبدُ اللهِ يُحرّفها ويكتبها «العليمُ الحكيم»، وكانَ محمّدٌ يطلبُ من عبدِ الله أن يعيدَ على مسامعهِ قراءةَ ما دوّنهُ، وكانَ يقرأُ عليهِ عبدُ اللهِ ما كتبه، ولم يكتشف محمّدٌ التغيّراتِ التي كانَ يجريها عبدُ الله. وهنا أمثلةٌ عن آياتٍ أخذها محمّد{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ} [المؤمنون: 12- 14] عندما أدخلَ عبدُ اللهِ بعضَ التغييراتِ والتحويراتِ على الآيةِ السّابقة، وافقهُ محمّدٌ ولم يعترض أو يكتشف الأمرَ فوراً. وقادَ هذا عبدَ الله لأن يَشُكَّ في ادّعاءاتِ محمّدٍ ومزاعمهِ بأنّهُ يتلقّى رسالةً إلهيّةً منَ الله، فارتدَّ عن الإسلام وهاجرَ منَ المدينةِ إلى مكّة، ثمَّ ادّعى هوَ نفسهُ أنّهُ كتبَ بعضَ الآياتِ القرآنيّة، وأنّهُ قد

ألهمهُ اللهُ إيّاها. غضبَ محمّدٌ من عملِ عبدِ اللهِ وطلبَ المساعدةَ والنجدةَ منَ اللهِ، وقد أنزلَ اللهُ الآيةَ التّاليةَ التي تدينُ أيَّ شخصٍ يدّعي أنّهُ مُلهَمٌ منَ اللهِ غيرَ محمّد: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ} [الأنعام: 93] عندما احتلَّ محمّدٌ مكّةَ قامَ بطلبِ ثمانيةِ أو عشرةِ رجال، وأربعِ نساء حسبما وردَ في كتابِ طبقاتِ ابن سعد [ص 165] يجبُ قتلهم حتّى ولو تعلّقوا بأستارِ الكعبة، وكانَ عبدُ اللهِ واحداً منهم. حتّى أنَّ هناكَ بعضَ الأحاديثِ تؤكّدُ أنَّ هناكَ شخصاً مسيحيّاً ساهمَ في كتابةِ القرآن، وذلكَ الشّخصُ على الأرجحِ هوَ ابنُ قُمتة ((عن أنسٍ رضيَ اللهُ عنهُ قال: كانَ رجلاً نصرانيّاً فأسلم، وقرأَ البقرةَ وآلَ عمران، فكانَ يكتبُ للنبيِّ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم، فعادَ نصرانيّاً، فكانَ يقول: ما يدري محمّدٌ إلّا ما كتبتُ لهُ، فأماتهُ اللهُ فدفنوه، فأصبحَ وقد لفظتهُ الأرض، فقالوا: هذا فعلُ محمّدٍ وأصحابِهِ لمّا هربَ منهم، نبشوا عن صاحبنا فألقوهُ، فحفروا لهُ فأعمقوا، فأصبحَ وقد لفظتهُ الأرض، فقالوا: هذا فعلُ محمّدٍ وأصحابِهِ، نبشوا عن صاحبنا لمّا هربَ منهم فألقوه، فحفروا لهُ وأعمقوا لهُ في الأرضِ ما استطاعوا، فأصبحَ وقد لفظتهُ الأرض، فعلموا: أنّهُ ليسَ منَ النّاسِ فألقوه)) [صحيحُ البخاريّ، كتابُ المناقب، 3421]من هوَ هذا الشّخص، وما هيَ خلفيّته؟...!!!!!!!!!

۞ الصّابئة

يقولُ سانت كلير تسدل في كتابِهِ [مصادرُ الإسلام، ص 236- 237] أنَّ الصّابئةَ كانوا يقطنونَ سوريا [ويطلقُ عليهم أيضاً تسميةُ المندائيّين، وهيَ من أقدمِ الدياناتِ الموحّدة. كانت منتشرةً في بلادِ الرّافدين و فلسطينَ ما قبلَ المسيحيّة، وما يزالُ بعضٌ من أتباعها موجودينَ في العراق، كما يسمّونَ بالمندائيّينَ أو الصّابئةِ المندائيّين حيثُ اشتُقّت كلمةُ المندائيّين منَ الجذرِ (مِندا) والذي يعني بلغتهم المندائيّةِ المعرفةَ أو العلم]. وهم أتباعُ شيثٍ وإدريس. وكانوا يصومونَ ثلاثينَ يوماً كلَّ سنةٍ منَ المساءِ وحتّى طلوعِ الشّمس، حيثُ يقيمونَ أعياداً وصلواتٍ من أجلِ الموتى بلا كللٍ أو ملل، وبكلِّ بساطة قامَ محمّدٌ بنسخِ نظامهم الصّياميّ (وغيّرَ أسلوبَ الصّيامِ فجعلهُ من شروقِ الشّمسِ

حتّى غروبها) وأبقى على احتفالاتِ العيدِ والصّلواتِ من أجلِ الموتى بنفسِ الصّيغةِ التي كانت عليها في الأصلِ عندَ الصّابئة، لذلك فأحكامُ الصّيامِ التي وردت في سورةِ البقرة، الآيات 183– 187 مأخوذةٌ ومحرّفةٌ منَ الكتابِ المقدّسِ للصّابئة. ولنقارن تلكَ الآياتِ مع ما جاءَ في كتابهم المقدّس { صُومُوا الصَّوْمَ العَظِيْمَ وَلا تَقْطَعُوهُ إِلَى أَنْ تُغَادِرَ أَجْسَادَكُمْ، صُومُوا صَوْمَاً كَبِيْرَاً لا عَنْ مَأكَلِ وَمَشْرَبِ هَذِهِ الدُّنْيَا .. صُومُوا صَوْمَ العَقْلِ وَالقَلْبِ وَالضَمِيرِ} في الواقع، قامَ القرآنُ نفسهُ بالتأكيدِ على أنَّ نظامَ الصّيامِ هوَ نسخةٌ مأخوذةٌ عن عقيدةٍ سابقة، طبعاً، لكنّهُ بقيَ متحفّظاً بشأنِ ذكرِ وتحديدِ الكتابِ المقدّسِ الذي أخذَ منهُ محمّدٌ هذا الطقس. وهنا أوردُ الآيةَ التي تثبتُ أنَّ طقسَ الصّيامِ مأخوذٌ عن ديانةٍ سابقة: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة: 183]. كانَ للصّابئةِ كتابٌ مقدّسٌ يسمّى «كِنزا ربّا» [ويقالُ أنّهُ يطلقُ على كتابهم اسمُ صحفِ شيث]، وقد حدّدوا في اليومِ سبعَ صلواتٍ اختارَ منها محمّدٌ خمسةً حسبَ الأوقاتِ التي يقسمُ إليها اليوم، كما أنّهم كانوا يبجّلونَ الكعبة. [في الحقيقةِ كانوا يبجّلونَ الكثيرَ منَ الأنبياءِ مثل: آدم والد شيت «شيتل»، نوح وولدهِ سام، زكريّا وابنهِ يحيى وكانوا يطلقونَ عليهِ اسمَ يهيا إيهانا، والنبيَّ إبراهيم] ومنَ المرجّحِ أنَّ محمّداً كانَ قد عرفَ بعضَ الشيءِ عن كتابِ الصّابئةِ المقدّسِ منَ الراهبِ بحيرا المثقّفِ والمطّلع، وسلمانَ الفارسيَّ العارفِ بالديانات، لأنَّ كليهما كانَ قد قضى فترةً زمنيّةً طويلةً أثناءَ إقامتهما في سوريا، وكانا مطّلعينِ على المصادرِ والطقوسِ والشّعائرِ والمذاهبِ الدينيّةِ للصّائبةِ أو المندائيّين، وكلُّ ما في الأمر أنَّ محمّداً قامَ بدمجِ تلكَ الأفكارِ والشّعائرِ في القرآنِ وعبّرَ عنها ككلامٍ مُنَزّلٍ من عندِ الله. وردَ في معجمِ الإسلامِ عن الصّابئة [ص 551] أنّهم كانوا يعبدونَ النجومَ بشكلٍ سرّي لكنّهم كانوا يصرّحونَ على العلنِ بأنّهم مسيحيّونَ معمدانيّون. وتقولُ مصادرُ أُخرى أنّهم كانوا على دينِ صابئِ بنِ شيثِ بنِ آدم، أمّا البعضُ الآخر فيذهبُ إلى أنّهم كانوا على دينِ النبيِّ نوح. ويوردُ البعضُ أنَّ أصلَ تسميةِ صابئة مشتقّةٌ منَ الجذرِ (صبأ) والذي يعني باللغةِ المندائيّةِ اصطبغَ، تعمّدَ، غطَّ، أو غطسَ في الماء وهيَ من أهمِّ شعائرهم الدينيّة، وعلى الأرجحِ هذا هوَ المذهبُ الأدقّ حيثُ أنّهُ يتناسبُ مع معتقداتهم الدينيّة، أمّا قِبلتهم فقد كانت نحوَ الجنوب، من

حيثُ تهبُّ الريح. من دونِ شكّ، بعدَ أن اطّلعَ محمّدٌ على تعاليمِ وطقوسِ الصّابئة، كانَ قد تأثّرَ بعمقٍ بديانتهم ومعتقدهم وقامَ بدمجِ بعضِ طقوسهم وأفكارهم في الإسلام. قد اعتبرهم كمؤمنينَ حقيقيّينَ بالله. في الواقع، وردَ في معجمِ الإسلام [ص 551] بأنَّ العربَ كانوا يطلقونَ على محمّدٍ لقبَ «الصابئ» أو الذي ارتدَّ عن دينِ قريش، وقد أشارَ القرآنُ إليهم ثلاثَ مرّات:{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [البقرة: 62]{الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [المائدة: 69]{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} [الحج: 17] لاحظ أنَّ الآياتِ السّابقةَ تتضمنُ ذكرَ اليهود، المسيحيّين، إلى جانبِ الصّابئة، وبأنّهم جميعهم يؤمنونَ باللهِ واليومِ الآخر وسيدخلونَ الجنّة.

خديجة، ورقة، وعبيدُ الله

لم تتناول كتبُ السيرةِ المحمّديّةِ ديانةَ أو عقيدةَ خديجةَ بالتفصيل، زوجةِ محمّدٍ الأولى. على كلِّ حال، منَ الصّعبِ الجزمُ أنَّ خديجةَ كانت مشركةً 100 ٪، لكنّها على الأرجحِ كانت متأثّرةً بشكلٍ عميقٍ بابنِ عمّها ورقة بن نوفل الذي _كما سبقَ وقلنا_ كانَ يهوديّاً أوّلَ الأمر، ثمَّ اعتنقَ المسيحيّة، حيثُ أنّهُ أصبحَ مسيحيّاً مخلصاً، ويقالُ أنّهُ ترجمَ الإنجيلَ إلى اللّغةِ العربيّة، كما أنَّ معرفتهُ العميقةَ واطّلاعهُ الواسعَ على الديانةِ المسيحيّةِ السّائدة، بالإضافةِ إلى اليهوديّة، كانَ لهُ أثرهُ العميقُ على خديجةَ ومحمّد. لذلك فمنَ المعقولِ الاعتقادُ أنَّ خديجةَ أيضاً كانت مسيحيّة، على الأقلِّ داخليّاً. إلّا أنّنا لا نجدُ ولو إشارةً واحدةً في أيٍّ من كتبِ السيرةِ إلى أنَّ خديجةَ كانت تعبدُ أيّاً منَ الأصنامِ أو أنّها حضرت أيَّ طقسٍ دينيٍّ وثنيّ. وبدلاً من ذلك، نلاحظُ أنَّ محمّداً كانَ وثنيّاً عندما تزوّجَ من خديجة. كانت خديجةُ لمدّةِ 25 عاماً هيَ السندَ الوحيدَ لمحمّد عاطفيّاً وماديّاً. ومنَ المحتملِ أنَّ خديجةَ أثّرت على محمّدٍ وشجّعتهُ على تغييرِ دينهِ الوثنيِّ إلى المسيحيّة. وقد اعتادَ كلٌّ من ورقةَ وخديجة على مناقشةِ الكثيرِ منَ القضايا والمسائلِ المسيحيّةِ واليهوديّةِ

مع محمّد ممّا جعلهُ يفكّرُ ملياً ويعيدُ التفكيرَ بديانتهِ التي فُطِرَ عليها، الوثنيّة. وتخبرنا الأحاديثُ أنَّ ورقةَ اعتادَ على قراءةِ الإنجيلِ باللّغةِ العربيّةِ على مسامعِ محمّد، وهذا يؤكّدُ أنَّ الترجمةَ العربيّةَ للإنجيلِ كانت متوفّرةً أيّامَ محمّد: ((عن عائشة أنّها قالت: أوّلُ ما بدأ بهِ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ منَ الوحي الرؤيا الصّالحةَ في النوم، فكانَ لا يرى رؤيا إلّا جاءت مثلَ فَلَقِ الصُبح، ثمَّ حبّبَ إليهِ الخلاء، وكان يخلو بغارِ حِراء، فيتحنّثُ فيه – وهوَ التعبّد – الليالي ذواتِ العددِ قبلَ أن ينزعَ إلى أهلهِ، ويتزوّدَ لذلك، ثمَّ يرجعُ إلى خديجةَ فيتزوّدُ لمثلها، حتّى جاءهُ الحقُّ وهوَ في غارِ حِراء، فجاءهُ المَلَكُ فقال: اقرأ، قال: (ما أنا بقارئ) قال: (فأخذني فغطّني حتّى بلغَ منّي الجهد، ثمَّ أرسلني فقال: اقرأ، قلتُ ما أنا بقارئ، فأخذني فغطّني الثّانيةَ حتّى بلغَ منّي الجهد، ثمَّ أرسلني فقال: اقرأ، فقلتُ: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطّني الثّالثةَ، ثمَّ أرسلني فقال: {اقرأ باسمِ ربّكَ الذي خلق، خلقَ الإنسانَ من علق. اقرأ وربّكَ الأكرم}، فرجعَ بها رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم يرجفُ فؤادهُ، فدخلَ على خديجةَ بنتِ خويلد رضيَ اللهُ عنها فقال: (زمّلوني زمّلوني)، فزمّلوهُ حتّى ذهبَ عنهُ الرّوع، فقالَ لخديجة وأخبرها الخبر: (لقد خشيتُ على نفسي)، فقالت خديجة: كلاّ واللهِ ما يُخزيكَ اللهُ أبداً، إنّكَ لتصلُ الرحمَ، وتحملُ الكلَّ، وتُكسِبُ المعدوم، وتقري الضّيفَ، وتعينُ على نوائبِ الحقّ. فانطلقت بهِ خديجةُ حتّى أتت بهِ ورقةَ بنَ نوفل بنَ أسدِ بنَ عبدِ العزّى، ابنَ عمِّ خديجة، وكانَ امرأً تنصّرَ في الجاهليّة، وكانَ يكتبُ الكتابَ العبرانيَّ، فيكتبُ منَ الإنجيلِ بالعبرانيّةِ ما شاءَ اللهُ أن يكتب، وكانَ شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت لهُ خديجة: يا بنَ عمِّ، اسمع من ابنِ أخيكَ، فقالَ لهُ ورقة: يا بنَ أخي ماذا ترى؟ فأخبرهُ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ خبرَ ما رأى، فقالَ لهُ ورقة: هذا النّاموسُ الذي نزّلَ اللهُ بهِ على موسى، يا ليتني فيها جذع، ليتني أكونُ حيّاً إذ يُخرجكَ قومك، فقالَ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم: (أومخرجيَّ هم). قالَ: نعم، لم يأتِ رجلٌ قطُّ بمثلِ ما جئتَ بهِ إلّا عوديَ، وإن يدركني يومكَ أنصركَ نصراً مؤزّراً، ثمَّ لم ينشب ورقةَ أن تُوفّي، وفترَ الوحي)) [صحيحُ البخاري، كتابُ بدءِ الوحي، بابُ كيفَ كانَ بدءُ الوحي، 3212، 4670، 4672، 4674، 6581]((عن عائشة رضيَ اللهُ عنها أنّها قالت:..... ورقةُ بنِ نوفل بنِ أسدِ بنِ عبدِ العزّى بن قُصي، وهوَ ابنُ عمِّ خديجةَ أخي

أبيها، وكانَ امرأً تنصَّرَ في الجاهليّة، وكانَ يكتبُ الكتابَ العبرانيّ، فيكتبُ بالعربيّةِ منَ الإنجيلِ ما شاءَ اللهُ أن يكتب)) [البخاري، كتاب التعبير، 6581] لاحظ هنا أنَّ ورقةَ كانَ يكتبُ الإنجيلَ، حتّى أنّهُ كانت لهُ نسخةٌ مترجمةٌ خاصّةٌ به، كما أنّنا نلاحظُ أنَّ ورقةَ كانَ يعرفُ القراءةَ والكتابةَ باللّغةِ العبريّة. المعلوماتُ التي وردت في الأعلى لا تتركُ أيَّ مجالٍ للشّكِّ أنَّ ورقة، بالإضافةِ إلى خديجة كانا المساهمينِ الأكبرين في عمليّةِ بناءِ النصِّ القرآني، وخصوصاً الآياتِ التي تتعلّقُ بالديانتينِ: اليهوديّةِ والمسيحيّة، ثمَّ هناكَ عبيدُ الله، حفيدُ عبدِ المطّلب وابنُ عمِّ محمّدٍ نفسه، وبما أنَّ عبيدَ اللهِ كانَ حنيفيّاً، لابدَّ وأن يكونَ محمّدٌ قد تعلّمَ الكثيرَ منَ الأمورِ الجيّدةِ عن العقيدةِ الحنيفيّةِ منه. يزعمُ المؤرّخونَ الإسلاميّون أنَّ عُبيدَ اللهِ تحوّلَ إلى ديانةِ محمّدٍ وهاجرَ إلى أثيوبيا، ثمَّ تركَ الإسلامَ مرّةً أخرى واعتنقَ الديانةَ المسيحيّة وتوفّيَ في الحبشةِ وهوَ مسيحيّ. لذلكَ نحنُ نقفُ أمامَ مساهمٍ حنيفيٍّ – مسيحيٍّ آخر شاركَ في تأليفِ المادّةِ القرآنيّةِ هوَ عُبيد الله، وبعدَ وفاةِ كلٍّ منْ ورقةَ وخديجة وعُبيدِ الله قامَ محمّدٌ بإدخالِ كلِّ ما سمعهُ أو تعلّمهُ منهم. يجب ألّا ننسى هنا أن نذكرَ مُساهمَينِ آخرَين على نفسِ الدرجةِ منَ الأهمّيّةِ في بناءِ النصِّ القرآني. هما: عبدُ اللهِ بنُ سلاّم، وابنُ مخيريق، فحسبما وردَ في كتابِ الطبقاتِ لابنِ سعد [ص 239] أنَّ عبدَ اللهِ بنَ سلاّم بنَ الحارث كانَ يهوديّاً من بني قريظة تحوّلَ إلى الإسلامِ عندما وصلَ محمّدٌ إلى المدينة. مخيريق أيضاً كانَ حاخاماً يهوديّاً من بني ثعلبة، وقد تحوّلَ إلى الإسلام. كانَ عبدُ اللهِ بن سلاّم ضليعاً في التوراة، ومن دونِ شكٍّ كانت لهُ مساهماتهُ في القرآن وخصوصاً الموادَ المتعلّقةَ بالديانةِ اليهوديّة، القوانينِ اليهوديّة. هنا أوردُ بعضَ الموادِ منَ القرآن والتي قد نسخها محمّدٌ وتبنّاها منَ المسيحيّينَ، اليهود، الآراميّين، الهندوس، والمجوس.

- مفهومُ التيمّم الذي وردَ في سورةِ النّساء: 43 منسوخٌ منَ الكتابِ المقدّسِ اليهوديّ «التلمود».
- نفخُ الرّوحِ أو الحياةِ في الطّير جاءَ في الآيات: البقرة: 260، آل عمران: 49. المائدة: 110، وهيَ منقولةٌ عن كتبٍ قبطيّة.
- مفهومُ الحوريّاتِ الذي وردَ ذكرهُ في سورةِ الدُّخان: 54 تعلّمهُ محمّد من غرباءَ في

مكّة، وعلى الأرجح كانوا رهباناً آراميّين.

● هاروتَ وماروت الذينِ ذُكِرا في سورةِ البقرة: 102 هما اسمانِ علمانِ سريانيّان تعلّمهما محمّد من مصادرَ آراميّة.

● إنَّ فكرةَ أنَّ عرشَ اللهِ يقبعُ فوقَ الماء التي وردت في سورةِ هود: 7 فكرةٌ مقتبسةٌ عن التّراثِ اليهوديّ، وهيَ موجودةٌ بحرفيّتها في التوراة: سفرِ التكوين.

● فكرةُ «مالكٍ» خازنِ النّار الذي ذُكِرَ في الزُّخرف: 77 مقتبسةٌ عن التّراثِ اليهوديِّ أيضاً.

● السّماواتُ السّبعُ كما جاءَ ذكرها في السّور البقرة: 29، فُصِّلَت: 12 مأخوذةٌ عن كتابِ الهندوسِ المقدّسِ السنسكريتيّ.

● مريمُ التي وضعت مولودها تحتَ جذعِ الشّجرة [مريم: 23] هذهِ الفكرةُ مأخوذةٌ بحرفيّتها منَ الإنجيل.

● يسوعُ الصغيرُ يتكلّمُ في المهد [آل عمران: 46، مريم: 30، 31، 33] مأخوذةٌ منَ الإنجيلِ أيضاً.

● الآياتُ التي تصفُ الجنّةَ والجحيم (وهيَ آياتٌ كثيرةٌ ذكرناها من قبل) مأخوذةٌ منَ التّراثِ الهندوسيِّ والزرادشتيّ.

● يسوعُ لم يُصلَب، بل رفعهُ اللهُ إليه [آل عمران: 33، النّساء: 157- 158] منسوخةٌ من كتابِ بارنابا.

● أسطورةُ يوسف [سورةُ يوسف] مأخوذةٌ كلّها من كتابِ المدراشِ اليهوديّ.

● الملكُ سليمانُ وأساطيرهُ الخياليّة [الأنبياء: 78- 82، النمل: 17- 19، 22- 23] مأخوذةٌ كلّها من كتابِ الهاغاده اليهوديّ.

● اللّوحُ المحفوظ، وأنَّ القرآنَ مدوّنٌ عليهِ منذُ الأزل [الزُّخرف: 4، البروج: 21- 22] وهذا بالضّبطِ ما وردَ في التلمودِ من قولِ أنّهُ (التلمود) كانَ محفوظاً في ألواحٍ في السّماء.

● ملاكُ الموتِ: عزرائيل أو ملكُ الموت [الأنعام: 61. الأعراف: 37، السجدة: 11] مفهومٌ مأخوذٌ عن كتابِ التوراةِ وكتابِ المجوسِ المقدّس. ومع ذلك يؤكّدُ القرآنُ نفسهُ ويعناد ومن دونِ تعقّل أنَّ كفّارَ أو مشركي مكّةَ عرفوا أنَّ محمّداً قد نسخَ وأخذَ جُلَّ المادّةِ القرآنيّة من مصادرَ مختلفة، وخصوصاً منَ الكتاباتِ اليهوديّةِ المقدّسة، وهذا هوَ سببُ تحذيرِ اللهِ للمشركينَ بأن يتّهموا محمّداً بالتقليدِ أو النسخِ من مصادرَ أخرى. في الآيةِ التالية: {فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ} [القصص: 48] لمزيدٍ منَ الأمثلةِ عن الآياتِ المنتحلةِ في القرآن على يدِ محمّد بإمكانكَ _عزيزي القارئ_ أن تعودَ إلى ملحقِ المراجع. جارُ محمّد كانَ النضرَ بنَ الحارث أيضاً، وقد اعتادَ هوَ أيضاً أن يكتبَ قصائدَ شبيهةً بآياتِ القرآن. كما أنّهُ كانَ قاصّاً وروائياً بارعاً وخصوصاً للرّواياتِ والأساطيرِ الشعبيّةِ الميثولوجيّة. وعندما كانَ محمّدٌ يجمعُ النّاسَ يقصُّ عليهم قصصاً منَ القرآن، كانَ النضرُ بنُ الحارثِ يقولُ أنّهُ يعرفُ قصصاً أفضلَ من قصصِ محمّد. وبفضلِ قصصِ النضرِ وأسلوبهِ الرّوائيِّ الأخّاذ، رأى محمّدٌ أنَّ جمهورهُ بدأ يقلُّ تدريجيّاً. وقد عدَّ محمّدٌ تصرّفَ النضرِ بأنّهُ مقرفٌ ومهين، فانتقمَ منهُ بأن أخذهُ أسيراً في معركةِ بدر، ثمَّ قطعَ رأسهُ ليتخلّصَ منهُ مرّةً وإلى الأبد. هنا أسردُ بعضَ الآياتِ المنتقاةِ منَ القرآن والتي تخبرنا بأنَّ الوثنيّينَ أو المشركينَ كانوا مدركينَ تماماً أنَّ محمّداً كانَ يقصُّ عليهم قصصاً وأساطيرَ شعبيّةً قديمةً كانوا قد سمعوها من قبل، وقد صرّحوا بذلكَ وقالوا أنَّ محمّداً لم يسرد عليهم سوى قصصٍ وأساطيرِ الأوّلين. كلُّ ما فعلهُ هوَ أنّهُ انتقى ما كانَ قد سمعهُ من مصادرهِ وزعمَ أنَّ اللهَ قد أوحى عليهِ بها: {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} [الأنفال: 31] تخبرنا هذهِ الآيةُ أنَّ الكفّارَ أو المشركين يعتبرونَ القرآنَ مجرّدَ كتابٍ لأساطيرِ القدماء، {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} [النحل: 24] {نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} [المؤمنون: 83] المشركونَ وأسلافهم قد سمعوا هذهِ القصصَ والأساطيرَ من قبل، {وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا} [الفرقان: 5] {وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} [النمل: 68] نلاحظُ أنَّ المشركينَ

في هذهِ الآية يصرّونَ على أنَّ القرآنَ ما هوَ إلّا أساطيرُ الأوّلين.{وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} [الأحقاف: 17] {إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} [القلم: 15] يقولُ المشركونَ أنَّ قصصَ محمّد ما هيَ إلّا أساطيرُ الأوّلين.

۞ أُبيُّ بنُ كعب

كانَ أُبيُّ بنُ كعب السكرتيرَ والمرافقَ الرَّسميَّ لمحمّد، وهوَ أحدُ الستّةِ الذينَ قاموا بجمعِ القرآن، أمّا الخمسةُ الآخرون حسبما وردت أسماؤهم في طبقاتِ ابنِ سعد [ج1، ص 457] فهم: معاذُ بنُ جبل، أبو الدرداء، زيدُ بنُ ثابت، سعدُ بن عُبيد، أبو زيد. كانَ أُبيُّ بنُ كعب يعرفُ أيضاً «أبا المنذر»، وقد شَهِدَ بيعةَ العقبةِ الثّانية مع أنصارِ آخرينَ منَ المدينة، وكانَ أحدَ الأنصارِ الأوائلِ الذينَ دخلوا الإسلام، كانَ محمّدٌ يثقُ بهِ ثقةً كبيرة، وكانَ أُبيُّ منقذَهُ في الكثيرِ منَ المواقف. عندما كانَ محمّدٌ ينسى بعضَ الآياتِ القرآنيّةِ أو أنّهُ كانَ يبحثُ عن تفسيراتٍ وتبريراتٍ لبعضِ الآيات، فكانَ يطلبُ عونَ أُبيّ، هذا الاعتمادُ الكلّيُّ لمحمّد على أُبيّ يعكسُ لنا حقيقةَ أنَّ أُبيَّ بنَ كعب هوَ الكاتبُ الحقيقيُّ لإملاءاتِ محمّد، وأنّهُ كانَ يكتبُ كلَّ ما يحلو له، بالطبعِ بموافقةِ محمّد. بعدَ أن استقرَّ في المدينة، حيثُ كانت هناكَ جاليةٌ يهوديّةٌ مزدهرة، كانت لديهِ معرفةٌ عميقةٌ بالكتاباتِ اليهوديّةِ المقدّسةِ والقوانينِ اليهوديّة، وعلى الأرجح، أنّهُ كانَ الكاتبَ الفعليَّ لمعظمِ السّورِ المدنيّةِ التي لها علاقةٌ بالبنودِ القانونيّةِ والشّرعيّةِ الإسلاميّة، هذهِ السّورُ المدنيّةُ لا تتميّزُ بالطّابعِ الشّعريِّ الإيقاعيِّ الذي تتميّزُ بهِ معظمُ السّورِ المكّيّة، وسببُ ذلكَ أنَّ أُبيَّ بنَ كعب لم يكن شاعراً بمعنى الكلمة، بل سياسيّاً وكاتباً. في الواقع، قامَ بوضعِ نسختهِ الخاصّةِ منَ القرآنِ والتي رفضَ تسليمها عندما طلبَ عثمانُ بنُ عفّان في زمنِ خلافتهِ جمعَ جميعِ النسخِ الأخرى منَ القرآنِ وحرقها، باستثناءِ مصحفِ حفصة. أُبيُّ بنُ كعب وابنُ مسعود رفضا تسليمَ مصحفيهما، واحتفظَ كلٌّ منهما بنسختهِ في مكانٍ سرّي. يمكننا ملاحظةُ أنَّ العديدَ منَ السّورِ المدنيّةِ كتبها في الحقيقةِ أُبيُّ بنُ كعب وبمساعدةِ كتّابٍ آخرينَ لمحمّد، ومنَ الجديرِ بالملاحظةِ أيضاً، أنّهُ بالرّغمِ من أنّهُ يُزعَمُ أنَّ جبريلَ قد جاءَ بالآياتِ القرآنيّةِ كلّها

إلى محمّد، إلّا أنّ الأحاديثَ تفيدُ أنّ محمّداً لم يرهُ سوى مرّتين: ((عن مسروق قال: «كنتُ متّكئاً عندَ عائشة، فقالت: يا أبا عائشة، ثلاثٌ من تكلّمَ بواحدةٍ منهنّ فقد عظمَ الفريّةَ على الله: من زعمَ أنّ محمّداً رأى ربّهُ فقد أعظمَ الفريّةَ على الله، واللهُ يقول: {لا تدركهُ الأبصارُ وهوَ يدركُ الأبصارَ وهوَ اللطيفُ الخبير وما لبشرٍ أن يكلّمهُ الله إلّا وحياً أو من وراءِ حجاب} [الأنعام: 103] وكنتُ متّكئاً فجلستُ فقلت: يا أمّ المؤمنين، انظريني ولا تعجليني، أليسَ اللهُ تعالى يقول: {ولقد رآهُ نزلةً أخرى ولقد رآهُ بالأفقِ المبين}؟ قالت: أنا واللهِ أوّلُ من سألَ رسولَ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ عن هذا، قال: إنّما ذلكَ جبريل، ما رأيتهُ في الصّورةِ التي خُلِقَ فيها غيرَ هاتينِ المرّتين رأيتهُ منهبطاً منَ السّماءِ ساداً عظمَ خلقهِ ما بينَ السّماءِ والأرض، ومن زعمَ أنّ محمّداً كتمَ شيئاً ممّا أنزلَ اللهُ عليهِ فقد أعظمَ الفريّةَ على الله، يقولُ الله: {يا أيّها الرسولُ بلّغ ما أُنزلَ إليكَ من ربّك}، ومن زعمَ أنّهُ يعلمُ ما في غدٍ فقد أعظمَ الفريّةَ على الله، واللهُ يقول: {لا يعلمُ من في السّماواتِ والأرض الغيبَ إلّا الله}» هذا حديثٌ حسنٌ صحيح، ومسروقُ بنُ الأجدع يكنّى أبا عائشة)) [الترمذي، أبواب تفسيرات القرآن، 5063] طبعاً، هذا الحديثُ يبدو مربكاً ومتناقضاً في آنٍ معاً، إذا استدعينا إلى ذاكرتنا حديثاً آخرَ يزعمُ فيهِ محمّدٌ أنّ جبريلَ زارهُ عدّةَ مرّاتٍ بشكلٍ بشريّ، إذن، ما الذي يمنعهُ منَ القولِ أنّ جميعَ كتبةِ القرآن، ومن ضمنهم أُبيُّ بنُ كعب، كانوا في الواقع، هم جبريلَ المزعومَ بأشكالٍ مختلفة؟

۞ رجلٌ أعمى يصحّحُ القرآنَ وكلامَ الله

في النهاية، وكدليلٍ أخيرٍ على أنّ محمّداً غيّرَ وأضافَ وحذفَ آياتٍ منَ القرآن حسبما تطلّبتهُ المواقف أو حسبَ متطلّباتِ النّاس، والدليلُ هنا هيَ قصّةُ ابن أمّ مكتوم، الرّجلِ العجوزِ الأعمى من مكّة، حيثُ أنّهُ قد طلبَ من محمّدٍ تصحيحَ آيةٍ وتغييرها لإعفاءِ الأعمى من فريضةِ الجهاد. هذا الرجلُ الأعمى كانَ يستمعُ إلى قصصِ محمّدٍ ووصاياه وأرادَ أن يناقشَ معهُ بعضَ القضايا والمسائلِ المتعلّقةِ بالإسلام، على أيّةِ حال، تجاهلهُ محمّدٌ في بدايةِ الأمر، إلّا أنّهُ فيما بعد ندمَ على إهمالهِ للشّخصِ الأعمى، لذلكَ قامَ اللهُ بتقريعِ محمّدٍ ومعاتبتهِ في سورةِ «عبس» وهيَ السّورةُ رقم 80 في ترتيبِ القرآنِ الحاليّ، أمّا ترتيبها الزّمنيُّ الحقيقيّ فهوَ 24، أو «عَبَسَ»، ثمّ تحوّلَ ابنُ أمّ مكتوم إلى الإسلام،

وأصبحَ منَ الصّحابةِ المقرّبينَ لمحمّد، وعندما تحدّثَ محمّدٌ عن تفضيلِ أولئكَ الذينَ يشاركونَ في الجهادِ المقدّس، كانَ هذا الرّجلُ الأعمى ممانعاً للمشاركةِ في مثلِ هذا القتال وأرادَ استثناءً أو تبريراً يعفيهِ منَ القتال. وخلالَ فترةِ كتابةِ الآيةِ رقم 95 من سورةِ النّساء {لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا} نسيَ محمّدٌ أمرَ الرّجلِ الأعمى ولم يتذكّره، لذلكَ ذكّرهُ ابنُ أمّ مكتوم بحالتِهِ ووضعِهِ الصحّيّ، من فورِه، قامَ محمّدٌ بتغييرِ كلامه أو آيته، والحديثُ التّالي يوضّحُ لنا الطريقةَ التي غيّرَ فيها ابنُ أمّ مكتوم عقلَ محمّد. طلبَ محمّدٌ زيداً ليكتبَ الوحيَ الذي أُنزلَ عليه: ((عن زيدِ بنِ ثابت قال: كنتُ إلى جنبِ رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم فغشيَتهُ السكينة فوقعت فخذُ رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ على فخذي، فما وجدتُ ثقلَ شيءٍ أثقلَ من فخذِ رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم، ثمَّ سُرّيَ عنهُ فقال: «اكتُبْ» فكتبتُ في كتفٍ: {لا يستوي القاعدونَ منَ المؤمنينَ والمجاهدونَ في سبيلِ الله} إلى آخرِ الآية، فقامَ ابنُ أمّ مكتوم وكانَ رجلاً أعمى لمّا سمعَ فضيلةَ المجاهدينَ فقال: يا رسولَ الله، فكيفَ بمن لا يستطيعُ الجهادَ منَ المؤمنين؟ فلمّا قضى كلامهُ غَشِيَت رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم السكينةُ فوقعت فخذهُ على فخذي، ووجدتُ من ثقلها في المرّةِ الثّانية كما وجدتُ في المرّةِ الأولى، ثمَّ سُرّيَ عن رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ فقال: «اقرأ يا زيد» فقرأتُ {لا يستوي القاعدونَ منَ المؤمنين} فقالَ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم: {غيرَ أولي الضرر} الآيةُ كلّها، قالَ زيد: فأنزلها اللهُ وحدها فألحقتها، والذي نفسي بيدِهِ لكأنّي أنظرُ إلى ملحقها عندَ صدعٍ في كتف)) [أبو داؤود، كتاب الجهاد، 2507. البخاري 6، 60، 117] وهنا نفسُ الحادثةِ بتعبيرٍ آخر كما وردَ في صحيحِ البخاريُّ أيضاً، كتابُ فضائلِ القرآن ((عن البراءِ قال: لمّا نزلت: {لا يستوي القاعدونَ منَ المؤمنينَ والمجاهدونَ في سبيلِ الله} قالَ النبيُّ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم: (ادعُ لنا زيدا، وليجيء باللّوحِ والدّواةِ والكتف، أو: الكتفِ والدّواة)، ثمَّ قال: (اكتب: {لا يستوي القاعدون})، وخلفَ ظهرِ النبيُّ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم عمرو بنُ أمّ مكتومِ الأعمى، قال: يا رسولَ اللهِ فما تأمرني، فإنّي رجلٌ ضريرُ البصر؟ فنزلت

مكانها: {لا يستوي القاعدونَ منَ المؤمنينَ والمجاهدونَ في سبيلِ الله غيرَ أولي الضرر})) [4704]

طالما أنّنا تناولنا في المقالتينِ السّابقتينِ من سلسلةِ «من هم مؤلّفو القرآن» الأشخاصَ الذينَ شاركوا بشكلٍ مباشرٍ أو غيرِ مباشر في بناءِ وتدوينِ النصِّ القرآنيّ، فقد رأيتُ بأنّهُ منَ الجديرِ التطرّقُ إلى عدّةِ شخصيّاتٍ تاريخيّةٍ كانَ لها دورٌ كبيرٌ في عمليّةِ تطويرِ وتحويلِ النصِّ القرآنيّ، وحتّى الزيادةِ فيهِ وإنزالِ آياتٍ إضافيّة، وكأنّهم هم رسلُ اللهِ أيضاً _ بالإضافةِ إلى محمّد_ كعائشةَ وعمرَ بنِ الخطّاب مثلاً الذي جعلَ اللهُ يُنزلُ ثلاثَ آياتٍ في القرآنِ لم تخطر ببالهِ (الله) أو ببالِ نبيّه، هذا بالإضافةِ إلى ما أجرى من تغييراتٍ وخروقاتٍ في الشّريعةِ الإسلاميّة، بالنظرِ إلى أنّهُ الشّخصُ الثّاني الذي قامَ بإلغاءِ بعضِ الطقوسِ والشعائرِ بعدَ أبي بكر. كما أنَّ هناكَ شخصيّةً أخرى جديرةً بالذكرِ أيضاً، سنناقشها في الحلقةِ التّالية، متمثّلةً بعبدِ اللهِ بنَ أبي سرح الذي قامَ بتغييرِ مضمونِ النصِّ القرآنيِّ عدّةَ مرّات، ثمَّ ارتدَّ عن الإسلام، وطالبَ محمّدٌ برأسِهِ حتّى ولو تعلّقَ بأستارِ الكعبة، وسنتكلّمُ عنهُ لاحقاً. أمّا الشخصيّةُ الأخرى التي أريدُ التكلّمَ عنها هنا فهوَ [الحجّاجُ بنُ يوسفَ الثقفي] ومن لا يعرفُ من هوَ الحجّاج؟!!! الذي عملَ تعديلاتٍ عديدةً على النصِّ القرآنيِّ وحرّفهُ بما يتناسبُ ومصالحَ الدولةِ الأمويّة، وسنتكلّمُ عنهُ في الوقتِ المناسب.

۞ عائشة زوجةُ محمّدٍ الطفلة

كانت الطفلةُ عائشة من أحبِّ زوجاتِ محمّدٍ على قلبه، وقد تزوّجها عندما كانت طفلةً في السّادسةِ من عمرها، ومارسَ الجنْسَ معها عندما أصبحت بالكادِ في التّاسعةِ من عمرها. الشّبابُ، الحيويّةُ، الرّقّة، البراءةُ شبهُ الطفوليّة، والزّخمُ الطفوليّ، كانت المكوّناتِ والخصائصَ التي أخذت عقلَ محمّد والسّببَ في إعجابِهِ بسذاجةِ عائشة. وبصفتها عروساً ما زالت في مرحلةِ الطفولة، كانت عائشةُ معتمدةً بالكاملِ على نضجِ محمّد، وكأيِّ طفلةٍ أخرى بعمرها آمنت بكلِّ شيءٍ كانَ يُخبرها بهِ محمّد حولَ وحيهِ المقدّس. ادّعى محمّدٌ أنّهُ كانَ يتلقّى الوحيَ والإلهامَ منَ اللهِ عندما كانَ يقضي وقتهُ مع عائشة، لماذا لم يكن

جبريلُ ينزلُ عليهِ بالوحيِ عندما يقضي وقتهُ مع زوجاتهِ الأخريات؟ لم يُجِبْ على هذا السؤالِ سوى قلّةٍ قليلةٍ منَ المؤرّخينَ الإسلاميّين، والسّببُ الحقيقيُّ هوَ أنَّ جميعَ زوجاتِ محمّد _ باستثناءِ عائشة_ كنَّ كبيراتٍ في السنِّ وناضجات، ولهنَّ تجاربٌ كثيرةٌ في الحياةِ ومحنها، وبعضهنَّ كانَ لديهنَّ أولادٌ ناضجون، ولم يكن منَ السّهلِ على محمّدٍ أن يُقنِعَ هذهِ الحاشيةَ منَ النّساء بشأنِ اتّصالهِ باللهِ عن طريقِ جبريل، فهنَّ لن يصدّقنهُ بسهولة، ولن يقتنعنَ بقصصهِ المختلقة. كما أنّهُ على الأرجح أنهنَّ كنَّ مجبراتٍ على العيشِ في حريمهِ، ومع هذا، لم يتمكّنَّ، في أعماقِ عقولهنّ، أن يصدّقنَ الادّعاءاتِ الفارغةَ لمحمّد. لذا فإنَّ عائشةَ بسذاجتها الطفوليّةِ وبراءتها أصبحت مصدرَ الإلهامِ الإلهيِّ لمحمّد!. كانَ محمّدٌ ببساطة يتلاعبُ بعقلِ طفلةٍ بمختلفِ قصصٍ وروايات الأشباحِ والعفاريتِ والجنِّ والملائكةِ والشّياطينِ والشخصيّاتِ الأسطوريّةِ والخرافيّة، والحديثُ التّالي مقتبسٌ من كتابِ صحيحِ البخاريّ يؤكّدُ مذهبنا في أنَّ اللهَ كانَ يتواصلُ مع محمّد عندما يقضي وقتهُ مع عائشة: ((عن عائشةَ رضيَ اللهُ عنها: أنَّ نساءَ رسولِ الله صلّى اللهُ عليهِ وسلّم كنَّ حزبين: فحزبٌ فيهِ عائشةُ وحفصة وسودة، والحزبُ الآخر أمُّ سَلَمَة وسائرُ نساءِ رسولِ الله صلّى اللهُ عليهِ وسلّم، وكانَ المسلمونَ قد علموا حبَّ رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم عائشة، فإذا كانت عند أحدهم هديّةٌ، يريدُ أن يهديها إلى رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم أخّرها، حتّى إذا كانَ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم في بيتِ عائشة، بعثَ صاحبُ الهديّةِ إلى رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم في بيتِ عائشة، فكلّمَ حزبَ أمِّ سَلَمَة، فقلنَ لها: كلّمي رسولَ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم يكلّمُ النّاس، فيقول: من أرادَ أن يهدي رسولَ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ هديّةً، فليُهدها إليهِ حيثُ كانَ من بيوتِ نسائه، فكلّمتهُ أمُّ سَلَمَة بما قلنَ فلم يقل لها شيئاً، فسألنها، فقالت: ما قالَ لي شيئاً، فقلنَ لها: فكلّميهِ، قالت: فكلّمتهُ حينَ دارَ إليها أيضاً فلم يقل لها شيئاً، فسألنها فقالت: ما قالَ لي شيئاً، فقلنَ لها: كلّميهِ حتّى يكلّمكِ، فدارَ إليها فكلّمتهُ، فقالَ لها: (لا تؤذيني في عائشة، فإنَّ الوحيَ لم يأتني وأنا في ثوبِ امرأةٍ إلّا عائشة). قالت: فقالت: أتوبُ إلى اللهِ من أذاكَ يا رسولَ الله، ثمَّ إنّهنَّ دعونَ فاطمةَ بنتَ رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم، فأرسلت إلى رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ تقول: إنَّ نساءكَ ينشدنكَ اللهَ العدلَ في بنتِ أبي بكر،

فكلّمتهُ فقال: (يا بنيّة ألّا تحبّينَ ما أحبّ). قالت: بلى، فرجعت إليهنَّ فأخبرتهنّ، فقلنَ: ارجعي إليهِ فأبت أن ترجع، فأرسلنَ زينبَ بنتَ جحش، فأتتهُ فأغلظت، وقالت: إنَّ نساءكَ يُنشدنكَ اللهَ العدلَ في بنتِ بنِ أبي قُحافة، فرفعت صوتها حتّى تناولت عائشة وهيَ قاعدةٌ فسبّتها، حتّى إنَّ رسولَ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم لينظرُ إلى عائشةَ هل تكلّم، قال: فتكلّمت عائشةُ تردُّ على زينبَ حتّى أسكتتها، قالت: فنظرَ النبيُّ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ إلى عائشة، وقال: ((إنّها بنتُ أبي بكر)) [كتابُ الهبةِ وفضائلها، 2442] الوحيُ الإلهيُّ لا يأتي محمّداً إلّا وهوَ مع عائشة: ((حدّثنا هشام، عن أبيهِ قال: كان النّاس يتحرّونَ بهداياهم يومَ عائشة، قالت عائشة: فاجتمعَ صواحبي إلى أمِّ سَلَمَة، فقلنَ: يا أمَّ سَلَمَة، واللهِ إنَّ النّاسَ يتحرّونَ بهداياهم يومَ عائشة، وإنّا نريدُ الخيرَ كما تريدهُ عائشة، فمُري رسولَ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم أن يأمرَ النّاسَ: أن يهدوا إليهِ حيثما كان، أو حيثما دار، قالت: فذكرت ذلكَ أمُّ سَلَمَة للنبيِّ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم، قالت: فأعرضَ عنّي، فلمّا عادَ إليَّ ذكرتُ لهُ ذلكَ فأعرضَ عنّي، فلمّا كانَ في الثّالثةِ ذكرتُ لهُ فقال: ((يا أمَّ سَلَمَة لا تؤذيني في عائشة، فإنّهُ واللهِ ما نزلَ عليَّ الوحيُ وأنا في لحافِ امرأةٍ منكنَّ غيرها)) [البخاري، فضائلُ الصّحابة، 3564] محمّدٌ يخبرُ عائشةَ أنَّ جبريلَ يلقي عليها السّلام: ((أبو سَلَمَة بن عبدِ الرحمن عن عائشةَ زوجِ النبيِّ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ قال : قالَ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم : يا عائشة هذا جبريلُ يقرأُ عليكِ السّلام قالت وعليهِ السّلامُ ورحمةُ اللهِ وبركاته قالت وهوَ يرى مالا أرى)) [السابق، 57، 119] الحديثُ في الأعلى يخبرنا بوضوحٍ كيفَ أنَّ محمّداً استغلَّ سذاجةَ وبراءةَ الطفلةِ عائشة للادّعاءِ بأنّهُ يتلقّى الوحيَ الإلهيّ. في الواقع، قامَ محمّدٌ بفبركةِ بعضِ الأجزاءِ منَ القرآنِ بنفسهِ عندما كانَ يستلقي في حجرِ عائشة: ((عن عائشةَ قالت: كانَ النبيُّ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ يقرأُ القرآنَ ورأسهُ في حجري وأنا حائض)) [البخاري، كتابُ التوحيد، 7110] أمّا الحديثُ التّالي فيثبتُ أنَّ القرآنَ قد تمَّ التلاعبُ بهِ، وتحريفهُ: ((زيدُ بنُ ثابت رضيَ اللهُ عنهُ قال: نسختُ الصّحفَ في المصاحف، ففقدت آيةً من سورةِ الأحزاب، كنتُ أسمعُ رسولَ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم يقرأُ بها، فلم أجدها إلّا مع خُزيمةَ بنِ ثابتٍ الأنصاريّ، الذي جعلَ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم شهادتهُ شهادةَ رجلين، وهوَ قوله: {منَ المؤمنينَ رجالٌ

صدقوا ما عاهدوا اللهَ عليه})) [البخاري، كتابُ الجهادِ والسير، 2653، 3823، 4506، وانظر: 4402، 4702] الحديثُ السّابقُ الذكر يخبرنا أنّهُ قد تمّ تغييرُ بعضِ الآياتِ القرآنيّةِ ووضعُ إحداها مكانَ الأخرى، وأنّهُ قد تمّت عمليّةُ كتابةِ القرآنِ على يدِ أشخاصٍ بالإضافةِ إلى محمّد وكتّابهِ الرّسميّين. لاحظ أنَّ خُزيمةَ بنُ ثابتٍ الأنصاريّ كما وردَ ضمنَ هذا الحديث أنّهُ لم يكن من كتبةِ الوحيِ الرّسميّينَ والمكلّفينَ من قِبَلِ محمّد. الحديثُ التّالي يبيّنُ لنا الدورَ الحيويَّ الذي لعبتهُ عائشةُ في تدوينِ القرآن، أو على الأقلّ بعدَ أن ماتَ محمّد قامت بالتلاعبِ وبتغييرِ بعضِ الآياتِ القرآنيّة، ومثالُ ذلكَ ما فعلتهُ في سورةِ البقرة 238: ((عن أبي يونسَ مولى عائشة؛ أنّهُ قال: أمرتني عائشةُ أن أكتبَ لها مصحفاً، وقالت: إذا بلغتَ هذهِ الآيةَ فآذنّي: {حافظوا على الصّلواتِ والصّلاةِ الوسطى} [2/ البقرة/ الآية 238]. فلمّا بلغتها آذنتّها، فأملت عليَّ: حافظوا على الصّلواتِ والصّلاةِ الوسطى وصلاةِ العصر، وقوموا للهِ قانتين. قالت عائشة: سمعتها من رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم)) [مسلم، كتابُ المساجدِ ومواضعِ الصّلاة، 207] ونفهمُ من كتابِ صحيحِ البخاريّ أنَّ سورةَ البقرة وسورةَ النّساءِ قد تمَّ تأليفهما بحضورِ عائشةَ نفسها، كما أنّها تكشفُ في مكانٍ آخر أنَّ الآياتِ الأولى كانت تتناولُ موضوعَ الجنّةِ والنّار، وهذا يناقضُ ما قالهُ البعضُ منَ المؤرّخينَ المسلمين، أنَّ أوّلَ السّورِ كانت هيَ سورةَ «العَلَق»، كما أنَّ هذهِ الأحاديثَ تعلمنا أنّهُ كانَ هناكَ أكثرُ من نسخةٍ واحدةٍ منَ القرآن، واحتفظت عائشةُ بنسخةٍ خاصّةٍ بها كانت تختلفُ اختلافاً جذريّاً عن باقي النسخ، فهل منَ الممكنِ أن تكونَ عائشةُ قد أضافت أو حذفت بعضَ الآياتِ من نسختها منَ القرآن؟!! الحديثُ التّالي يبيّنُ كيفَ أنَّ بعضَ الآياتِ قد تغيّرت بشكلٍ ذكيٍّ لأغراضٍ خاصّة ((يوسفُ بنُ ماهكَ قال: إنّي عندَ عائشة أمِّ المؤمنين رضيَ اللهُ عنها إذ جاءها عراقيٌّ فقال: أيُّ الكفنِ خير؟ قالت: ويحكَ وما يضرّك. قال: يا أمَّ المؤمنين أريني مصحفك، قالت: لِمَ؟ قال: لعلّي أؤلّفُ القرآنَ عليه، فإنّهُ يُقرَأُ غيرَ مؤلّف، قالت: وما يضرّكَ أيّهُ قرأتَ قبل، إنّما نزلَ أوّلَ ما نزلَ منهُ سورةٌ منَ المفصّل، فيها ذكرُ الجنّةِ والنّار، حتّى إذا ثابَ النّاسُ إلى الإسلام نزلَ الحلالُ والحرام، ولو نزلَ أوّلُ شيءٍ: لا تشربوا الخمرَ، لقالوا: لا ندعُ الخمرَ أبداً، ولو نزلَ: لا تزنوا، لقالوا: لا ندعُ الزّنا أبداً، لقد نزلَ بمكّةَ على محمّدٍ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم وإنّي

لجاريةٌ ألعب: {بل السّاعةُ موعدهم والسّاعةُ أدهى وأمرّ} وما نزلت سورةُ البقرةِ والنّساء إلّا وأنا عندهُ، قال: فأخرجت لهُ المصحفَ، فأملت عليهِ آيَ السّورة)) [البخاري، كتابُ فضائلِ القرآن، بابُ تأليفِ القرآن، 4707] {إنَّ اللهَ وملائكتهُ يصلّونَ على النبيِّ يا أيّها الذينَ آمنوا صلّوا عليهِ وسلّموا تسليما} [سورة الأحزاب 56] أمّا قراءةُ هذهِ الآيةِ في مصحفِ أمِّ المؤمنينَ عائشة فقد وردت على النحوِ التّالي {إنَّ اللهَ وملائكتهُ يصلّونَ على النبيِّ والذينَ يصلّونَ الصفوفَ الأولى} [السجستاني: كتابُ المصاحف: مصحفُ عائشة زوجُ الرسول صلعم] كيفَ حدثَ هذا الفرقُ الجذريُّ وهذا الاختلافُ الصارخُ بينَ القراءتين، إذا سلّمنا أنَّ اللهَ يصلّي على النبيّ، فمن هم الذينَ يصلّونَ في الصفوفِ الأولى؟

⑤ محمّد بنُ عبدِ الله

لا نشكُّ أنَّ محمّداً قد كتبَ بنفسهِ عدّةَ آياتٍ قرآنيّة، وبالرّغم من أنّهُ كانَ إنساناً أمّيّاً لا يقرأُ ولا يكتب _كما جاءَ في القرآن_ كانَ لا بدَّ لهُ من أن يلجأَ إلى العديدِ منَ الكتّابِ ليسجّلوا أفكارهُ الخاصّة، فعندما يقرأُ أيُّ إنسانٍ في القرآن بحذرٍ وبصيرة فإنّهُ لن يفشلَ في اكتشافِ تلكَ الآياتِ التي منَ الواضحِ أنَّ محمّداً هوَ نفسهُ الذي يتحدّثُ في هذهِ الآياتِ وليسَ الله. هنا أوردُ بعضاً من تلكَ الآيات: {قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ} [الأنعام: 104]، فعبارةُ «وما أنا عليكم بحفيظ» منَ الواضحِ أنّها ليست كلامَ الله، بل وردَ هنا ضميرُ المتكلّم وهوَ محمّد{أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ} [الأنعام: 114]. العبارةُ «أفغيرَ اللهِ أبتغي» هيَ من دونِ أدنى شكّ كلامُ محمّدٍ نفسه، ولم ينطق بها الله. ومن الأمثلةِ التي تلفتُ الانتباهَ ما جاءَ في سورةِ الفاتحة، وهيَ تتألّفُ من سبعِ آيات، تدعى بالمثاني السّبع، حيثُ نلاحظُ أنَّ كلماتها لا يمكنُ أن تكونَ كلماتِ الله، فمنَ الواضحِ من محتواها أنّها كلماتُ محمّد، ذلكَ أنّها تتألّفُ من حمدٍ لله، وثناءٍ عليه، وتضرّعٍ لعونه، وما كانَ اللهُ ليقولَ لنفسهِ «الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، الرّحمنِ الرّحيم، مالكِ يومِ الدّين» ومثلُ هذهِ المشكلة ما كانت لتكونَ لو أنَّ سورةَ الفاتحةِ سُبِقَت بـ «قُل» على نحوِ ما نجدهُ في الكثيرِ منَ السّورِ كسورةِ الإخلاصِ، أو الفلقِ، أو النّاس، وهذا أكبرُ دليلٍ جاءَ في أمِّ القرآنِ «الفاتحة» أنَّ محمّداً

شاركَ في تأليفِ القرآن، وكيفَ تصرّفَ محمّدٌ عندما أرادَ النّاسُ معرفةَ كيفيّةِ نزولِ الوحيِ عليه؟ هناكَ حديثٌ من كتابِ صحيحِ البخاريّ يرينا كيفَ أنَّ عمرَ اعتادَ على أن يغطّي محمّداً بعباءةٍ، حيثُ كانَ محمّدٌ يغطُّ في النّومِ تحتها. بعضُ الأشخاصِ كانوا فضوليّينَ ومهتمّينَ بمعرفةِ ما الذي يحدثُ فعلاً، وكانوا يسترقونَ النظرَ عبرَ الغطاء، وهذا ما رأوه: ((أخبرنا صفوانُ بنُ يعلى بن أميّة، عن أبيه، أنَّ رجلاً أتى النبيَّ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم وهوَ بالجِعْرَانةِ وعليهِ أثرُ خَلُوق، أو قالَ صفرةٍ وعليهِ جُبّةٌ، فقال: يا رسولَ الله، كيفَ تأمرني أن أصنعَ في عمرتي؟ فأنزلَ اللهُ تباركَ وتعالى على النبيِّ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم الوحيَ فلمّا سُرِّيَ عنهُ قال: «أينَ السّائلُ عن العمرة؟» قال: «اغسل عنكَ أثرَ الخلوق» أو قال: «أثرَ الصُفرة» «واخلع الجُبّةَ عنك، واصنع في عمرتكَ ما صنعتَ في حجّتك»)) [أبو داوود، كتاب المناسك، 1819]((أخبرني عطاء: أنَّ صفوانَ بنَ يُعلى بن أميّةَ أخبره: أنَّ يُعلى كانَ يقول: ليتني أرى رسولَ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم حينَ ينزلُ عليهِ[الوحيُ أو جبريل]، فقالَ فبينا النبيُّ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ بالجعرانة، وعليهِ ثوبٌ قد أظلَّ بهِ، معهُ ناسٌ من أصحابهِ، إذ جاءهُ أعرابيٌّ عليهِ جُبّةٌ، متضمّخٌ بطيب، فقال: يا رسولَ الله، كيفَ ترى في رجلٍ أحرمَ بعمرةٍ في جُبّةٍ بعدما تضمّخَ بالطّيب؟ فأشارَ عمرٌ إلى يُعلى بيده: أن تعال، فجاءَ يُعلى فأدخلَ رأسهُ، فإذا النبيُّ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ محمرُّ الوجهِ، يغطُّ كذلكَ ساعةً، ثمَّ سُرِّيَ عنهُ، فقال: (أينَ الذي يسألني عن العمرةِ آنفاً)، فالتمسَ الرّجلَ فأُتِيَ بهِ، فقال: ((أمّا الطّيبُ الذي بكَ فاغسلهُ ثلاثَ مرّات، وأمّا الجُبّةُ فانزعها، ثمَّ اصنع في عمرتكَ كما تصنعُ في حجّك)) [البخاري، كتاب المغازي، 4074] ووردَ في صحيحِ مسلم، كتابِ الحجّ 1180((فنظرتُ إليهِ لهُ غطيط (قالَ وأحسبهُ قالَ) كغطيطِ البكر)) هكذا كانَ اللهُ يرسلُ الوحيَ لنبيّهِ، وهوَ يغطُّ في النّوم.

عمرُ بنُ الخطّاب

والآن الصّحابيُّ الجليلُ ورفيقُ الرسولِ وأحدُ المبشّرينَ بالجنّة الملقّبِ بالفاروق، والذي كانَ لهُ دورٌ كبيرٌ في عمليّةِ تشكيلِ النّواةِ الأولى للإسلام.

• مكانةُ عمرٍ وفضله ((إنَّ اللهَ جعلَ الحقَّ عندَ لسانِ عمرٍ وقلبِهِ)) [الترمذي، مناقبُ

رسولِ الله، 3765] ((لو كانَ نبيٌّ بعدي لكانَ عمرَ بنَ الخطّاب)) [السابق، 3769] مما لا شكَّ فيهِ أنَّ عمرَ بنَ الخطّاب كانَ أحدَ الصّحابةِ المقرّبينَ منَ النبيّ، ويعدُّ ثاني أكثرِ شخصيّةٍ لها تأثيرٌ كبيرٌ على مجرى الإسلام، والشّكلِ الذي انتهى إليه. وبإمكاننا أن نلاحظَ أنّهُ كانَ لهُ حظوةٌ كبيرةٌ عندَ محمّد، لدرجةِ أنّهُ قالَ أنَّ الحقّ عندَ لسانهِ وقلبه، ولدرجةٍ أبعدَ من ذلك، أنّهُ اعتبرهُ بمثابةِ النبيِّ بعده، لو كانَ هناكَ نبيّ. ويمكننا ملاحظةُ هذهِ الحظوةِ التي تمتّعَ بها عمر عندَ استقراءِ الأحاديثِ التّالية: ((عن جابرِ بنِ عبدِ الله رضيَ اللهُ عنهما قال: قالَ النبيُّ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم: (رأيتني دخلتُ الجنّة، فإذا أنا بالرُّميصاء، امرأةِ أبي طلحة، وسمعتُ خشفةً، فقلتُ: من هذا؟ فقالَ: هذا بلال، ورأيتُ قصراً بفنائهِ جارية، فقلتُ: لمن هذا؟ فقالوا: لعمر، فأردتُ أن أدخلهُ فأنظرَ إليه، فذكرتُ غيرتك)، فقالَ عمر: بأبي وأمّي يا رسولَ الله، أعليكَ أغار)) [صحيح البخاري، كتابُ فضائلِ الصّحابة، 3476، 4921، 6621] نلاحظُ هنا أنَّ محمّداً لم يجد قصرَ عمرٍ في الجنّة، بل أنّهُ لم يدخلهُ خشيةً من أن يثيرَ الغيرةَ في نفسِ عمر على قصرهِ الوهميّ، إلّا أنَّ عمراً يردُّ على النبيِّ بكلامٍ مبتذل ويقسمُ بأمّهِ وأبيهِ بأنّهُ لن يغارَ من نبيِّ الله، ونلاحظُ في هذهِ النسخةِ منَ الحديثِ بعضَ الشكِّ في نفسِ عمر، أو أنّهُ لم يصدّق هذا الكلامَ حرفيّاً. أمّا عندما يحدّثنا أبو هريرةَ بنفسِ الحديث فإنّهُ ينقلُ لنا نسخةً مغايرةً بعضَ الشيء، فتكونُ التّالية: ((أبا هريرة رضيَ اللهُ عنهُ قال: بينا نحنُ عندَ رسولِ الله صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ إذ قال: (بينا أنا نائمٌ رأيتني في الجنّة، فإذا امرأةٌ تتوضّأ إلى جانبِ قصر، فقلتُ: لمن هذا القصر، قالوا: لعمر، فذكرتُ غيرتهُ، فولّيتُ مدبراً)، فبكى عمرٌ وقال: أعليكَ أغارُ يا رسولَ الله)) [السابق، 3477، 3070] هنا نلاحظُ أنَّ النبيَّ أخبرَ الجمعَ بمنامهِ، وبأنّهُ رأى قصرَ عمرٍ في الجنّة، ولم يدخلهُ احتراماً لمشاعرِ عمر، بما أنّهُ يعرفُ غيرتهُ، فولّى النبيُّ مدبراً دونَ أن ينظرَ القصر، إلّا أنَّ الاختلافَ المثيرَ للانتباه هوَ موقفُ عمرٍ من هذا الخبرِ أمامَ الملأ، فنرى في نسخةِ أبي هريرة منَ الحديث أنَّ عمراً بكى وأخبرَ النبيَّ بأنّهُ ليسَ منَ الواردِ أن يغارَ منه، ونلاحظُ هنا علاماتِ التصديقِ والانفعال، حيثُ يصوّرُ لنا أبو هريرة عمراً على أنّهُ شخصيّةٌ منفعلة وعلى قدرٍ محدودٍ منَ الذّكاء، إذ أنَّ مشاعرهُ تأخذهُ كالأطفالِ الصّغارِ ويبكي عندما يسمعُ خبراً مفرحاً كهذا. في الحديثِ التّالي نلاحظُ كيفَ أنّهُ يُقرُّ بعبقريّةِ

عمر وذكائهِ وعلمه ((عن حمزةَ، عن أبيه: أنَّ رسولَ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ قال: (بينا أنا نائمٌ، شربتُ – يعني – اللبنَ حتّى أنظرَ إلى الريِّ يجري في ظُفري، أو في أظفاري، ثمَّ ناولتُ عمر)، فقالوا: يا رسولَ الله، فما أوّلتهُ؟ قالَ: (العلم))) [السابق، 3478] أمّا الحديثُ التّالي فهوَ حديثٌ مثيرٌ للانتباه: ((عن أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ قال: قالَ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم: (لقد كانَ فيما كانَ قبلكم منَ الأممِ ناسٌ محدّثون، فإن يكُ في أمّتي أحدٌ فإنّهُ عمر))) [السابق، 3486] في هذا الحديثِ نلاحظُ أنَّ النبيَّ يقولُ أنّهُ كانَ هناكَ قبلَ الإسلامِ أمم، وكانَ لهم أناسٌ يتحدّثونَ مثلَ الأنبياء، لكنّهم ليسوا أنبياء، وعمرُ بنُ الخطّاب هوَ ذاكَ المحدّثُ في أمّةِ محمّد، ونرى هنا أنَّ محمّداً صعّدَ من حكمةِ عمرِ بنِ الخطّاب حتّى ساواها بحكمتهِ وحكمةِ الأنبياء، وهوَ لا يختلفُ عنهم سوى أنّهُ لا يتمتّعُ بصفةِ النبوّة. سنرى في مقالاتٍ لاحقة مقدارَ الحكمةِ التي كانت لدى عمر، ولكن ما يهمّنا هنا، هل كانَ محمّدٌ يعتمدُ على رأيِ عمرٍ ويشاركهُ أفكارهُ، حتّى أنّهُ كانَ يستمدُّ منها، عندما كانت تواجههُ مسائلُ صعبةٌ مستصعبة؟ والحديثُ التّالي قد يساعدنا في استيضاحِ الفكرةِ هنا، واعتمادِ النبيِّ على آراءِ أصحابه، وخصوصاً عمرَ وأبا بكر ((أبو هريرة رضيَ اللهُ عنهُ يقول: قالَ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم: (بينما راعٍ في غنمهِ عدا الذّئبُ فأخذَ منها شاةً، فطلبها حتّى استنقذها، فالتفتَ إليهِ الذّئب، فقالَ لهُ: من لها يومَ السّبع، ليسَ لها راعٍ غيري)، فقالَ النّاس: سبحانَ الله، فقالَ النبيُّ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم: (فإنّي أؤمنُ بهِ وأبو بكرٍ وعمر)، ومن ثمَّ أبو بكرٍ وعمر)) [السابق، 3487، 2199] ما الحكمةُ هنا منَ التصريحِ بأنَّ إيمانهُ بهذهِ المسألة يتّفقُ مع إيمانِ أبي بكرٍ وعمرٍ بها، لماذا حشرها في هذهِ المسألة، هل هناكَ مسائلُ أخرى اتّفقَ معهما فيها، أليسَ النبيُّ هوَ الذي حجّتهُ ظاهرةٌ بائنة ولا تحتاجُ لشهادةِ أحد، إذن لماذا أبو بكرٍ وعمر؟! أمّا الحديثُ التّالي فلعلّهُ يجيبُ على تساؤلنا هنا، ويوضّحُ لنا الدورَ الذي لعبهُ عمر في نشأةِ وتطويرِ الإسلام ((عن أبي سعيدٍ الخدريّ رضيَ اللهُ عنهُ قال: سمعتُ رسولَ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ يقول: (بينا أنا نائم، رأيتُ النّاسَ عرضوا عليَّ وعليهم قُمُصٌ، فمنها ما يبلغُ الثّدي، ومنها ما يبلغُ دونَ ذلك، وعرضَ عليَّ عمرٌ وعليهِ قميصٌ اجترّهُ)، قالوا: فما أوّلتهُ يا رسولَ الله؟ قال: (الدّين))) [السابق، 3488] لماذا عمرٌ هوَ الذي قدّمَ القميصَ (أو الدّين)

كما أوّله النبيّ، هل هوَ مصدرُ الدّين، أم النبيُّ نفسه؟((ابنُ عبّاس يقول: وُضِعَ عمرٌ على سريرِه، فتكنّفهُ النّاسُ يدعونَ ويصلّونَ قبلَ أن يُرفَع، وأنا فيهم، فلم يرعني إلّا رجلٌ آخذٌ منكبي، فإذا عليُّ بن أبي طالب، فترحّمَ على عمرٍ وقال: ما خلّفتُ أحداً أحبَّ إليَّ أن ألقى الله بمثلِ عملِهِ منك، وايمُ الله، إن كنتُ لأظنُّ أن يجعلكَ اللهُ مع صاحبيك، وحسبت: إنّي كنتُ كثيراً أسمعُ النبيَّ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ يقول: (ذهبتُ أنا وأبو بكرٍ وعمر، ودخلتُ أنا وأبو بكرٍ وعمر، وخرجتُ أنا وأبو بكرٍ وعمر))) [السابق، 3482] نستشفُّ من هذا الحديثِ مدى الصّداقةِ والصحبةِ التي كانت تربطُ بينَ هذا الثلاثيّ، إذ أنَّ النبيَّ لم يكن ليفارقَ صاحبيّه، وكانوا معاً أغلبَ الأوقات، وخصوصاً تلكَ العلاقةَ التي ربطت بينَ النبيِّ وعمر ((عبدُ اللهِ بنُ هشام قال: كنّا مع النبيِّ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم، وهوَ آخذٌ بيدِ عمرَ بنِ الخطّاب)) [السابق، 3471] ما طبيعةُ هذهِ العلاقةِ التي كانت تربطُ النبيَّ بصاحبِهِ عمر، وهل كانت علاقةً صمّاءَ كالحائط، أم أنّها كانت علاقةَ تفاعلٍ وتبادلٍ للأفكارِ والأحاديث؟

● آراءٌ حولَ دورِ عمر في تدوينِ النصِّ القرآنيّ:

أوردَ الشّيخانِ في صحيحهما الحديثَ التّالي: ((عن عمرِ بنِ الخطّابِ قال: سمعتُ هشامَ بنَ حكيم بنَ حزام يقرأُ سورةَ الفرقانِ في حياةِ الرسول صلعم، فاستمعتُ لقراءته، فإذا هو يقرأها على حروفٍ كثيرة، لم يُقرِئنيها رسولُ اللهِ صلعم، فكدْتُ اساورهُ في الصّلاة، فانتظرتهُ حتّى سلّمَ فلببتهُ، فقلت: من أقرأكَ هذهِ السّورةَ التي سمعتكَ تقرأ؟ قال: أقرأنيها رسولُ اللهِ صلعم، فقلتُ له: كذبت، فوَ اللهِ إنَّ رسولَ اللهِ صلعم لهوَ أقرأني هذهِ السّورةَ التي سمعتك، فانطلقتُ بهِ إلى رسولِ اللهِ صلعم أقودهُ، فقلت: يا رسولَ الله، إنّي سمعتُ هذا يقرأُ سورةَ الفرقانِ على حروفٍ لم تُقرِئنيها، وإنّكَ أقرأتني سورةَ الفرقان، فقال: (يا هشامُ اقرأها)، فقرأها القراءةَ التي سمعتهُ، فقالَ رسولُ اللهِ صلعم: (هكذا أُنزِلَت)، ثمَّ قال: (اقرأ يا عمر)، فقرأتها التي أقرأنيها، فقالَ رسولُ اللهِ صلعم: (هكذا أُنزِلَت)، ثمَّ قالَ رسولُ اللهِ صلعم: (إنَّ القرآنَ أُنزِلَ على سبعةِ حروف، فاقرءوا ما تيسّرَ منه))) [صحيح البخاري، كتابُ فضائلِ الصّحابة، 4754. صحيحُ مسلم، كتابُ صلاةِ المسافرينَ وقصرها، 270] منَ المعلومِ تماماً _للقاصي والداني_ أنَّ عمرَ بنَ

الخطّاب كانَ لهُ الدورُ الكبيرُ في تأليفِ وترسيخِ النصِّ القرآنيّ، فما قالَ من رأيٍ إلّا ونزلت فيهِ آية، ومنَ المعلومِ أنّهُ اقترحَ على محمّدٍ نزولَ ثلاثِ آياتٍ على الأقلّ لم تكن لتخطرَ على بالِ محمّدٍ أو ربّه، إذ أنّهُ ما كانَ على عمرٍ إلّا أن يقترحَ ومحمّدٌ ينزّلُ الوحي. يوردُ السيوطيُّ في كتابهِ [تاريخُ الخلفاء] حديثاً أخرجهُ ابنُ مردويه ((عن مجاهدَ قال: كانَ عمرٌ يرى الرأيَ فينزلُ بهِ القرآن)) قالَ عمر: وافقتُ ربّي في ثلاث: في مقامِ إبراهيم، وفي الحجاب، وفي أسارى بدر)) [صحيح مسلم، كتابُ فضائلِ الصّحابة، 2399] أمّا ابنُ عساكر فينقلُ عن عليٍّ أنّهُ قال: ((إنَّ في القرآنِ لرأياً من رأيِ عمر..)) إلّا أنَّ هناكَ خبراً يلفتُ الانتباهَ إلى دورِ عمرٍ وأهمّيّةِ رأيهِ حتّى يردَ في القرآن إذ أخرجهُ ابنُ عمرٍ مرفوعاً ((ما قالَ النّاسُ في شيءٍ وقالَ فيهِ عمر، إلّا جاءَ القرآنُ بنحوِ ما قالَ عمر)) وهذا الخبرُ منَ الأهمّيّةِ أنّهُ يخبرنا عن مكانةِ عمرَ بالنسبةِ للنّاس إذ أنّهُ كانَ يعرفُ جيّداً حاجاتِ النّاسِ وأمانيهم، فما كانَ يراهُ متوافقاً معَ المنظومةِ الدينيّةِ الجديدة التي كانَ يلعبُ دوراً أساسيّاً في تأسيسها وترسيخها فإنّهُ يوافقُ عليهِ ويعرضهُ على محمّدٍ ليقولبهُ كنصٍّ قرآنيٍّ مُنزَل، وستتبيّنُ هذا الأمرَ من خلالِ ثلاثِ آياتٍ أوحاها «عمرٌ» لمحمّد وليسَ «جبريل» أخرجَ الشّيخانِ عن عمرَ أنّهُ قال: ((وافقتُ ربّي في ثلاث، قلتُ يا رسولَ اللهِ لو اتّخذنا مقامَ إبراهيم مصلّى، فنزلت، وقلتُ: يا رسولَ اللهِ يدخلُ على نسائكَ البرُّ والفاجرُ فلو أمرتهنَّ يتحجّبن، فنزلت آيةُ الحِجاب، واجتمعَ نساءُ النبيِّ في الغيرة، فقلتُ عسى ربّي أن يطلّقكنَّ وأن يبدلهُ أزواجاً خيراً منكن... فنزلت كذلك)) لنبدأ من عندِ الحادثةِ الأولى عندما يقترحُ عمرٌ على محمّد اتّخاذَ مقامِ إبراهيمَ كمصلّىً لهم، ولكن قيلَ أنَّ محمّداً رفضَ في بادئِ الأمر على أساسِ أنّهُ لم يُؤمر بذلك، لكن سرعانَ ما نزلت الآيةُ التي عُرِفَ بها عمر قبلَ محمّد {واتّخذوا من مقامِ إبراهيمَ مصلّى} [البقرة 125] [تفسيرُ الطّبريّ، تفسيرُ البغوي، ابنُ كثير] الحادثةُ الثّانيةُ هيَ عندما قدمَ محمّدٌ إلى المدينةِ فكانت نساؤهُ_ وغيرهنَّ منَ النساء_ يخرجنَ في الليلِ لقضاءِ حاجتهنَّ في العراء، وكانَ هناكَ رجالٌ يجلسونَ الليلَ للغزل: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} [الأحزاب 56] ويوردُ ابنُ كثير التفسيرَ التّالي ((قالَ السدّيُّ في قولهِ تعالى....كانَ ناسٌ من فُسّاقِ أهلِ المدينةِ يخرجونَ بالليلِ حينَ

يختلطُ الظلامُ إلى طرقِ المدينة يتعرّضونَ للنّساء، وكانت مساكنُ أهلِ المدينةِ ضيّقةً فإذا كانَ الليلُ خرجت النّساءُ إلى الطرقِ يقضينَ حاجتهنّ، فكانَ أولئكَ الفُسّاقُ يبتغونَ ذلكَ منهنّ، فإذا رأوا المرأةَ عليها جلبابٌ قالوا هذهِ حرّةٌ فكفّوا عنها، وإذا رأوا المرأةَ ليسَ عليها جلبابٌ قالوا هذهِ أمة فوثبوا عليها، وقالَ مجاهدٌ يتجلببنَ فيعلمُ أنّهنّ حرائر فلا يتعرّضُ لهنّ فاسقٌ بأذىً ولا ريبة)) ومن هنا نصلُ إلى الدورِ الذي لعبهُ عمر في فرضِ الحجاب إذ أنّ كتبَ التّراثِ توردُ لنا الخبرَ التّالي عن عمر أنّهُ هوَ الذي اقترحَ على محمّدٍ أن يفرضَ الحجابَ على نسائهِ، إلّا أنّ محمّداً قد رفضَ في البداية، لكنّ عمراً كانَ قد رأى سودةَ زوجةَ محمّدٍ وهيَ ذاهبةٌ ليلاً إلى صعيدٍ لقضاءِ الحاجة، فقالَ لها: «لقد عرفتكِ يا سودة»، فجاءَ الأمرُ بالحِجاب [تاريخُ عمر، 26] إلّا أنّ هناكَ روايةً تقول أنّ عمراً كانَ يشاركُ محمّداً وعائشةَ طعامهما، فلمست يدهُ يدَ عائشة، فقالَ عمر: «لو أطاعَ فيكنّ، ما رأتكنّ عين» ففرضَ الحِجاب. [تاريخُ عمر: 28-27، ابنُ أبي الحديدِ المعتزلي 6/231]

أمّا الحادثةُ الثّالثة فهيَ عندما نشبَ خلافٌ بينَ نساءِ النبيّ بسببِ الغيرة، فجاءَ عمرُ بنُ الخطّابِ وعاتبهنّ ثمّ هدّدهنّ عسى اللهُ يبدلهُ زوجاتٍ أفضلَ منهنّ، فنزلت الآية:{ عسى ربّهُ إن طلقكنّ أن يبدلهُ أزواجاً خيراً منكن} [سورة التحريم 5] يوردُ ابنُ كثير تفسيرهُ لهذهِ الآيةِ على النحوِ التّالي: ((وقالَ البخاري: حدّثنا عمرُ بنُ عون، حدّثنا هشيمٌ عن حميدٍ عن أنسٍ قال: قالَ عمر: اجتمعَ نساءُ النبيِّ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ في الغيرةِ عليه، فقلتُ لهنّ {عسى ربّهُ إن طلقكنّ أن يبدلهُ أزواجاً خيراً منكن} فنزلت هذهِ الآية، وقد تقدّمَ أنّهُ وافقَ القرآنَ في أماكن: منها في نزولِ الحِجاب، ومنها في أسارى بدر، ومنها قولهُ لو اتّخذتَ من مقامِ إبراهيمَ مصلّى، فأنزلَ اللهُ تعالى: {واتّخذوا من مقامِ إبراهيمَ مصلّى} وقالَ ابنُ أبي حاتم: حدّثنا أبي، حدّثنا الأنصاريّ، حدّثنا حميدٌ عن أنسٍ قال: قالَ عمرُ بنُ الخطّاب: بلغني شيءٌ كانَ بينَ أمّهاتِ المؤمنينَ وبينَ النبيِّ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم فاستقريتهنّ أقول: لتكفنّ عن رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم أو ليبدلنّهُ اللهُ أزواجاً خيراً منكن، حتّى أتيتُ على آخرِ أمّهاتِ المؤمنينَ فقالت: يا عمر أما في رسولِ اللهِ ما يعظُ نساءهُ حتّى تعظهنّ، فأمسكت فأنزلَ اللهُ عزّ وجلّ {عسى ربّهُ إن طلقكنّ أن يبدلهُ أزواجاً خيراً منكنّ مسلماتٍ مؤمناتٍ قانتاتٍ تائباتٍ عابداتٍ سائحاتٍ ثيّباتٍ وأبكاراً} وهذهِ المرأةُ

التي ردّتهُ عمّا كانَ فيهِ من وعظِ النّساء هيَ أمُّ سَلَمَة كما ثبتَ ذلكَ في صحيحِ البخاري.))
أمّا عن اختلافِ القراءاتِ بينَ ما يُسمّى بمصحفِ عمر _كما سمّاهُ السجستاني_ وبينَ القرآنِ الشّرعيِّ فحدِّث ولا حرج. بغضِّ النظرِ عن حقيقةِ أنَّ الفاتحةَ كانت سورةً من سورِ القرآن أم أنّها مجرّدُ ابتهالٍ ابتدعهُ محمّد ليبدأَ فيهِ القرآن، نلاحظُ أنَّ عمراً كانت يقرأُ فاتحةَ القرآنِ بشكلٍ مختلفٍ تماماً عن الشّكلِ الذي نقرأها عليهِ في القرآنِ الشّرعيِّ الموجودِ في يومنا هذا، فالسجستاني يوردُ في كتابهِ «المصاحف» قراءةَ عمر {صراطَ الذينَ أنعمتَ عليهم * غيرِ المغضوبِ عليهم * وغيرِ الضّالّين} أمّا في النسخةِ العثمانيّةِ منَ القرآن فهيَ تُقرأ {غيرِ المغضوبِ عليهم ولا الضّالّين} وقد سمعَ بعضُ الصّحابةِ عمراً وهوَ يقرأُ في صلاةِ الصُّبحِ سورةَ آلِ عمران {الم * اللهُ لا إلهَ إلّا هوَ الحيُّ القيّام} في حينِ أنّها جاءت في القرآنِ الحاليّ {الحيُّ القيّوم}{في جنّاتٍ يتساءلون * يا فلان * ما سَلَكَكَ في سَقَر} في حينِ أنّها جاءت في القرآنِ الحاليّ {في جنّاتٍ يتساءلون * عن المجرمينَ * ما سَلَكَكُم في سَقَر} [المدثّر 42-40] من هوَ هذا «الفلانُ» الذي قصدهُ عمرٌ في آيته، وكيفَ حدثَ الاختلافُ في القراءة، إذ أنَّ الفرقَ شاسعٌ بينَ صيغةِ المفردِ التي وردت في قراءةِ عمر، وصيغةِ الجمعِ التي وردت في مصحفِ عثمان، أينَ الحقيقة؟!!!! في الختام، منَ الواضحِ جيّداً كيفَ أنَّ عمراً كانَ يتصرّفُ بالقرآنِ كيفما يشاء، ويُنزِلُ فيهِ السّورَ التي يريدها ويشرّعها حسبَ رغبته، وما على محمّدٍ إلّا الاقتناعُ ثمَّ الامتثالُ لرغبةِ عمر، أمّا بالنسبةِ لقراءةِ عمرٍ المختلفةِ للقرآنِ تماماً عن قراءةِ غيره، فهذهِ الفكرةُ تعيدنا إلى الحديثِ الذي وردَ في أوّلِ الفقرة، إذ أنَّ محمّداً كانَ قد أقرأهُ قراءةً مختلفةً عن ذلكَ الرجلِ الذي قابلهُ عمر في المسجد ثمَّ استدعاهُ أمامَ محمّد، إلّا أنَّ «النبيَّ» لم يقدّم جواباً شافياً ومقنعاً _إذ حاولَ أن يجدَ لهذهِ السهوةِ تصريفةً من عندهِ_ لعمرِ الذي كانَ حادَّ الذّكاءِ ولا تفوتهُ مثلُ هذهِ الفائتة، إذ لا بدَّ وأنّهُ قد تساءلَ في سرّهِ: لماذا لم يخبرني محمّدٌ أنَّ هناكَ قراءةً أخرى لهذهِ الآيةِ عندما أقرأني إيّاها، بدلَ أن يضعني في مثلِ هذا الموقفِ الحرج؟!!! ولابدَّ أنَّ ذكاءَ عمرٍ قادهُ للاستنتاجِ أنَّ هذهِ الآياتِ القرآنيّةَ ليست سوى صناعةٍ بشريّةٍ من عقلِ محمّد _وسنرى في المقالةِ التّالية أنَّ هذهِ هيَ نفسُ النتيجةِ التي توصّلَ إليها عبدُ اللهِ بن أبي سرح _ لذلكَ فرضَ إرادتهُ على محمّد، وأقنعهُ بالآياتِ التي رآها أنّها مناسبةٌ لينزلها في

قرآنه، والبرهانُ على ما أخذنا هوَ الدورُ الذي لعبهُ عمر في إقناعِ محمّدٍ بضرورةِ وضعِ أذانٍ للمسلمينَ وضرورةِ الاستئذانِ قبلَ الدخولِ على بيوتِ المسلمين، وفرضِ صلاةِ التراويح [ابنُ هشام، 509-508/1، السيرةُ الحلبيّة 2/229، أخبارُ عمر، تفسيرُ الطّبري، تاريخُ عمر]

ملحق

قبلَ أن أتابعَ نقاشي في هذهِ الحلقةِ الجديدة، أريدُ فقط أن أردَّ على بعضِ المآخذِ والاتهاماتِ التي يُكيلها إليَّ بعضُ القرّاءِ الذينَ يعيشونَ في عالمٍ غيرِ عالمنا، ويقرؤونَ غيرَ ما نقرأ، ويعتقدونَ أنّهم يملكونَ زمامَ الحقيقة، ولا نملكها نحن. في مقالتي الماضية كتبَ الأخُ [الصّادق عبد الله] ـ بلغةٍ عربيّةٍ ركيكة وأخطاءٍ إملائيّة ـ في ردِّهِ على المقالِ ما يلي ((هل تحاورَ الأستاذُ المحترمُ مع العلماءِ المحترمينَ أنّهُ استقلَّ [استغلَّ] ضعفَ الثّقافةِ الدينيّةِ لروّادِ موقعٍ يساريٍّ ليسوّقَ لفكره، إنّي على استعدادٍ لتحدّيكَ حتّى تعرفَ حجمكَ الحقيقيَّ وحتّى أعالجكَ منَ الأخطاءِ المنهجيّةِ الصّارخةِ التي تقعُ فيها أيّها الأستاذ)) [انتهى] أقول: هذا الكلامُ الذي آتي بهِ هنا ليسَ من عندي وإنّما من كتبكم الصفراء، وهيَ معروفةٌ للقاصي والدّاني، إلّا أنَّ المشكلةَ الآن هيَ غيابُ القارئ، كما أنَّ المراجعَ التي عدتُ إليها واستشهدتُ منها هيَ التي تتكلّمُ عن نفسها، وبرأيي أنّهُ حتّى الآن لم يخرج عليها أيُّ باحثٍ «إسلاميٍّ» ببحثٍ يناهزُ تلكَ الأبحاثَ في جودتها وقيمتها العلميّة، أمّا عن ضعفِ الثّقافةِ الدينيّةِ لروّادِ هذا الموقعِ اليساريِّ الذي أريدُ أن أروِّجَ فكريَ فيه، فأنا أرى أنَّ روّادَ هذا الموقعِ يحملونَ ثقافةً دينيّةً أكبرَ وأقوى من أيِّ رجلِ دينٍ آخر، ويعرفونَ الدّينَ على حقيقته. افتح عينيكَ جيّداً وشاهد د. كامل النجار ود. وفاء سلطان وأحمد القاضي وسامي لبيب ونارت إسماعيل... وغيرهم الكثير. برأيي، هؤلاءِ الأساتذةُ يعرفونَ بدينكَ أكثرَ منك، وهم أعلمُ منكَ بمداخلِ ومتاهاتِ وتناقضاتِ ديانتك. وأنا بانتظارِ تحدّيك... ومقالاتكَ تقولُ عنكَ أنّكَ أنتَ من روّادِ هذا الموقعِ اليساريّ...

في الحلقاتِ الماضية كنتُ قد تناولتُ بعضَ الشخصيّاتِ الرئيسيّةَ التي كانَ لها أثرٌ حقيقيٌّ وجوهريٌّ في تكوينِ النصِّ القرآنيِّ وترسيخه، شخصيّاتٌ عايشت محمّداً وأقنعتهُ بإدخالِ نصوصٍ وتغييراتٍ على النصِّ القرآنيِّ حسبَ آرائها الخاصّة، كما أنّها كانَ لها

الدورُ الكبيرُ في تغييرِ النصِّ القرآنيِّ بعدَ وفاةِ نبيِّ الإسلام. وهذهِ المقالة قد خصّصتها للتحدّثِ عن شخصيّتينِ هامّتينِ جدّاً كانَ لهما أثرهما الواضحُ أيضاً على القرآن، أولى هذهِ الشخصيّات تتمثّلُ في الصّحابيِّ عبدِ اللهِ بنُ أبي سرح، أحدُ أهمِّ صحابةِ النبيِّ في المراحلِ الأولى، وأحدُ كتبةِ الوحيِ الذينَ كانوا يعدّونَ أنهم من «الثِقات»، كما أنّهُ قريبُ الخليفةِ الراشديِّ الثّالث ذي النّورين، وأحدُ المبشّرينَ بالجنّةِ عثمانُ بنُ عفّان، وأثرهُ على القرآنِ يكمنُ خلالَ فترةِ حياةِ محمّد.

عبدُ اللهِ بنُ أبي سرح

من هوَ عبدُ اللهِ بنُ أبي سرح، ما دورهُ في تدوينِ الوحي، ولماذا أمرَ محمّدٌ بقتلهِ حتّى ولو تعلّقَ بأستارِ الكعبة، علماً أنَّ هذا الأمرَ بالإعدامِ لم يصدر سوى بحقّهِ وحقِّ عدّةِ أشخاصٍ قلائل، ما الذي فعلهُ هذا العبدُ الله حتّى يستحقَّ مثلَ هذهِ العقوبة؟((ذكرَ الحاكم في المستدركِ على الصحيحين: « فأمّا عبدُ اللهِ بنُ سعدِ بنُ أبي سرح فإنَّ الأخبارَ الصحيحةَ ناطقةٌ بأنّهُ كانَ كاتباً لرسولِ اللهِ صلعم فظهرت خيانتهُ في الكتابةِ، فعزلهُ رسولُ اللهِ صلعم فارتدَّ عن الإسلام ولحقَ بأهلِ مكة.)) هوَ عبدُ اللهِ بنُ أبي سرح بنُ الحارثِ بنُ حبيبِ بنُ جذيمةَ العامريِّ، كانَ يعدُّ أحدَ الصّحابةِ الكبارِ والمقرّبينَ لمحمّد، بالإضافةِ إلى أنّهُ أخو عثمانَ بنِ عفّانَ بالرّضاعة وابنُ خالتهِ، أسلمَ قبلَ الفتح، وكانَ يكتبُ الوحيَ لمحمّد، ثمَّ ارتدَّ وهاجرَ إلى قريش، لكن ما سببُ ارتدادهِ ومهاجرتهِ وفضحهِ لمحمّد بعد أن كانَ من كبارِ الصّحابةِ ومن كتبةِ الوحي الثِقات؟؟!!!!... لعلّهُ منَ المتّفقِ عليه أنَّ عبدَ اللهِ من أكثرِ الشخصيّاتِ غموضاً في التّاريخ الإسلاميّ، إذ يقالُ أنّهُ افترى على اللهِ والنبيِّ وزادَ على القرآن!!!! حتّى أنَّ آيةً نزلت فيهِ تذمّهُ على ما فعل {ومن أظلمُ ممّن افترى على اللهِ كذباً أو قالَ أُوحِيَ إليَّ ولم يوحَ إليهِ شيءٌ ومن قالَ سأُنزلُ مثل ما أنزلَ الله} [الأنعام 93] المشكلةُ التي واجهها عبدُ اللهِ هيَ أنّهُ كانَ من كتبةِ الوحي، وعندما كانَ يطلبُ منهُ محمّدٌ تدوينَ الوحيِ المُنزّلِ عليه، حاولَ أن يغيّرهُ أكثرَ من مرّة ثمَّ يقرأ ما غيّرهُ على محمّدٍ، وكانَ الأمرُ إمّا أن ينطليَ على محمّدٍ ولا يشعرَ بالتغيير أو أنّهُ يوافقُ على التغييرِ ولا يعنيهِ الأمر((عن عِكرمةَ قوله:... نزلت [الآيةُ] في عبدِ اللهِ بنُ أبي سرح... كانَ يكتبُ للنبيِّ وكانَ فيما يملي (عزيزٌ حكيم) فيكتبُ (غفورٌ رحيم) ثمَّ يقرأُ

عليهِ كذا وكذا لمّا حوّلَ «غيّرَ» فيقولُ النبيُّ: نَعَمْ سواء، فرجعَ عن الإسلامِ ولحقَ بقريش، وقالَ لهم: لقد كانَ ينزلُ عليهِ عزيزٌ حكيم فأحوّلهُ ثمَّ أقولُ لمّا أكتب فيقولُ نعم سواء.))[1] ويقولُ الصّفديُّ في كتبهِ نقلاً عن ابنِ أبي سرح: ((إنّي كنتُ أصرفُ محمّداً حيثُ أريد - كانَ يملي عليَّ عزيزٌ حكيم؛ فأقولُ: أو عليمٌ حكيم؟! فيقولُ: كلٌّ صواب»))[2] ((عن السدّيِّ قال:... نزلت [الآيةُ] في عبدِ اللهِ بنُ أبي سرح اسلم وكانَ يكتبُ للنبيِّ فكانَ إذا أُملِيَ عليهِ سميعاً عليماً كتبَ هوَ: عليماً حكيماً، وإذا قالَ: عليماً حكيماً، كتبَ: سميعاً عليماً، فشكَّ وكفر.))[3] ولم يتوقّف الأمرُ هنا فقط، بل تعدّاهُ إلى أن يدّعي عبدُ الله بنُ أبي سرح أنّهُ يُنَزِّلُ عليهِ مثلما يُنَزِّلُ على محمّد، وينقلُ لنا الطّبريُّ هذهِ الحادثة ((قالَ [عبدُ الله]: إن كانَ محمّدٌ يُوحى إليهِ فقد أُوحِيَ إليَّ وإن كانَ اللهُ يُنزِلُ لهُ فقد أُنزِلتُ مثلما أنزلَ الله، قالَ محمّد: سميعاً عليماً فقلتُ أنا: عليماً حكيماً، فَلَحِقَ بالمشركين)) لكنَّ الطّبريَّ لا يتوقّفُ عند هذا الحدّ، بل يتابعُ سردَ الحادثةِ لنا بتفاصيلَ موسّعة إذ أنّهُ عندما ارتدَّ وفرَّ إلى المشركين ((فَلَحِقَ بالمشركين ووشى بعمّارَ وجبير عند ابنِ الحضرمي أو لبني عبدِ الدار فأخذوهم فعُذِّبوا حتّى كفروا [عمار وجبير]. وجُدِعَت أذنُ عمّارَ يومئذٍ فانطلقَ عمّارُ إلى النبيِّ فأخبرهُ بما لقيَ والذي أعطاهم منَ الكفرِ فأبى النبيُّ أن يتولّاه [نبيُّ الرّحمة!!!!!] فأنزلَ اللهُ في شأنِ ابنِ أبي سرح وعمّارَ وأصحابه {من كفرَ باللهِ من بعدِ إيمانهِ إلّا من أُكْرِهَ وقلبهُ مطمئِنٌّ بالإيمان ولكن من شرحَ بالكفرِ صدراً} فالذي أُكرِهَ عمّارُ وأصحابهُ والذي شرحَ بالكفرِ صدراً فهوَ ابنُ أبي سرح))[4] وينقلُ الواقديُّ لنا في كتابهِ (فتوح البلدان) عن البلاذريِّ حديثاً يؤكّدُ مذهبنا هذا إذ يقول ((وأوّلُ من كتبَ لهُ [لمحمّد] من قريش عبدُ اللهِ بنُ أبي سرح، ثمَّ ارتدَّ ورجعَ إلى مكّةَ وقالَ لقريش: أنا آتي بمثلِ ما يأتي محمّد، وكانَ يُملي عليهِ «الظالمين، فيكتب «الكافرين»، يُملي عليهِ «سميعٌ عليم» فيكتبُ «غفورٌ رحيم»، وأشباهَ ذلك، فأنزلَ اللهُ {ومن أظلمُ ممّن افترى..}، فلمّا كانَ يومُ فتحِ مكّة أمرَ رسولُ اللهِ بقتلهِ، فكلّمهُ فيهِ عثمانُ بنُ عفّانَ وقال: أخي من الرّضاع وقد أسلم، فأمرَ

(1) جامعُ البيانِ في تفسيرِ القرآن، الطّبري.
(2) الوافي، الواقدي، (2394).
(3) السّابق.
(4) السّابق.

رسولُ اللهِ بتركِهِ، وولّاهُ عثمانُ مصر))[1] ما المقصودُ هنا بعبارةِ (وأشباهَ ذلك)؟؟!! كم عددُ الأياتِ والكلماتِ التي غيّرها ابنُ أبي سرح أو بدّلَ بينها؟..... طبعاً: لا تعليق.
العقولُ «العظيمةُ» تفكّرُ بنفسِ الطريقة!!!! يخبرنا القرطبيُّ بدورِهِ روايةً مماثلةً عن سببِ ارتدادِ عبدِ اللهِ عن الإسلام، فيقولُ في تفسيرِهِ: أنَّ محمّداً طلبهُ في إحدى المرّاتِ ليكتبَ لهُ سورةً منَ القرآنِ تتناولُ طريقةَ خلقِ الإنسانِ في القرآن من سلالةٍ من طين، فلمّا أبدى عبدُ اللهِ إعجابهُ في طريقةِ خلقِ الإنسانِ قال: تباركَ اللهُ أحسنُ الخالقين» فأعجبت هذهِ العبارةُ محمّدَ كثيراً فقال: هكذا أُنزلَت عليَّ أيضاً، فلطشها وأدخلها في قرآنِهِ، الأمرُ الذي أثارَ ريبةَ ابنِ أبي سرحٍ وقال: لئن كانَ محمّدٌ صادقاً فقد أُوحِيَ إليَّ ما يُوحى إليهِ بالضّبط، أمّا إذا كانَ كاذباً فقد قلتُ كما قال ((وسببُ ذلكَ فيما ذكرَ المفسّرونَ أنّهُ لمّا نزلت الآيةُ التي في «المؤمنون»: «ولقد خلقنا الإنسانَ من سلالةٍ من طين» (المؤمنون:12) دعاهُ النبيُّ (ص) فأملاها عليهِ، فلمّا انتهى إلى قولِهِ «ثمَّ أنشأناهُ خلقاً آخر» (المؤمنون: 14) أُعجِبَ عبدُ اللهِ في تفصيلِ خلقِ الإنسانِ؛ فقال: «تباركَ اللهُ أحسنُ الخالقين» (المؤمنون: 14)، فقالَ رسولُ اللهِ (ص) : «وهكذا أُنزِلَت عليَّ»؛ فشكَّ عبدُ اللهِ حينئذٍ؛ وقال: لئن كانَ محمّدٌ صادقاً لقد أُوحِيَ إليَّ كما أُوحِيَ إليه، ولئن كانَ كاذباً لقد قلتُ كما قال، فارتدَّ عن الإسلامِ ولَحِقَ بالمشركين، فذلكَ قوله: «ومن قالَ سأُنزِلُ مثلما أنزلَ الله»))[2] وقالَ أيضاً ((إنَّ محمّداً يكتبُ بما شِئْتُ))[3] يخبرنا النيسابوريُّ في كتابِهِ عن السببِ في نزولِ الآيةِ السّابقة من سورةِ الأنعام ((قولهُ تعالى:{وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ ما أَنزَلَ الله} نزلت في عبدِ اللهِ بنِ سعدِ بنِ أبي سرح كانَ قد تكلّمَ بالإسلام، فدعاهُ رسولُ اللهِ صلعم ذاتَ يومٍ يكتبُ لهُ شيئاً فلمّا نزلت الآيةُ التي في المؤمنين {وَلَقَد خَلقنا الإنسـانَ مِن سُلاَلَة} أملاها عليهِ فلمّا انتهى إلى قولِهِ {ثمَّ أنشأناهُ خلقاً آخر} أُعجِبَ عبدُ اللهِ في تفصيلِ خلقِ الإنسانِ فقال « ابنُ أبي سرح» : تباركَ اللهُ أحسـنُ الخالقين، فقالَ رسولُ اللهِ صلعم هكذا أُنزِلَت عليَّ فشكَّ عبدُ اللهِ حينئذٍ وقال: لئن كانَ محمّدٌ صادقاً لقد أُوحِيَ إليَّ كما أُوحِيَ إليه، ولئن كانَ كاذباً لقد قلتُ كما قال وذلكَ قوله: {وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَمَا أَنزَلَ الله} وارتدَّ عن

(1) فتوحُ البلدان، البلاذريّ، صـ662.
(2) رواهُ الكلبيُّ عن ابنِ عبّاس (1341).
(3) أسبابُ النزولِ للواحديّ النيسابوريّ بابُ سورةِ الأنعام آية 93 . رواهُ ابنُ جريرٍ عن عكرمة.

الإسلام، وهذا قولُ ابنِ عبّاس في روايةِ الكلبي . اخبرنا عبدُ الرحمنِ بنُ عبدانَ قال : حدّثنا محمّدُ بنُ عبدِ اللهِ قال : حدّثني محمّدُ بنُ يعقوبَ الأمويُّ قال : حدّثنا أحمدُ بنُ عبدِ الجبّارِ قال: حدّثنا يونسُ بنُ بكيرٍ عن محمّدِ بنِ إسحاق قال : حدّثني شُرحبيلُ بنُ سعد قال : نزلت في عبدِ اللهِ بنِ سعدِ بنِ أبي سرح قال : سأُنزِلُ مثلما أنزلَ الله، وارتدَّ عن الإسلام، فلمّا دخلَ رسولُ اللهِ صلعم مكّةَ أتى بهِ عثمانُ رسولَ اللهِ عليهِ الصّلاةُ والسّلام فاستأمنَ له))[1] إذن، نحنُ أمامَ شخصيّةٍ ذكيّةٍ وفطنةٍ ومتلاعبة، إذ كيفَ أمكنَ لهذا الصّحابيِّ الكبيرِ الذي اتّبعَ محمّداً خلالَ مسيرتهِ المبكرة، أن تخطرَ على بالهِ فكرةُ أنَّ نبيَّ الإسلامِ يكذب، فلو أنَّ هذهِ الحادثةَ حدثت مع أحدٍ غيرهِ لعلّهُ كانَ قد اقتنعَ بما قالهُ محمّدٌ وسكت، أو أنّهُ حاولَ أن يبرّرَ ما حدثَ بنفسهِ لتعودَ الطمأنينةُ والثّقةُ إلى نفسه. ولنلاحظ أنَّ كلَّ هذهِ الحوادثِ قد حدثت عندما كانَ محمّدٌ هارباً من مكّة؛ أي قبلَ أن يدخلَ محمّدٌ مكّةَ منتصراً، إذ بإمكاننا التصوّرُ أنّهُ قد أحرجَ محمّداً، واعتقادي الخاصّ، أنّهُ لا بدَّ قد واجهَ الكثيرَ منَ الأسئلةِ والاستفساراتِ من قبلِ صحابتهِ _وإن بشكلٍ محترم، ودونَ تجاوزِ الحدود_ لكنَّ كتبَ الأخبارِ لم تنقل لنا ما جرى بالضّبطِ بعدَ ذلك، إذ أنَّ كتبَ السيرةِ لم تُكتب لتأريخِ مرحلةِ حياةِ محمّد، بل لتبجيلهِ، لهذا أمرَ محمّدٌ بقتلهِ ولو تعلّقَ بأستارِ الكعبة، وبذلكَ دخلَ عبدُ اللهِ بنُ أبي سرح في القائمةِ السّوداءِ للمطلوبينَ الأوائلِ من قِبَلِ محمّد جرّاءَ فعلتهِ هذه. لذلك، حينَ دخلَ محمّدٌ مكّةَ منتصراً على قريش، كانَ ابنُ أبي سرح أحدَ أربعةٍ أمرَ محمّدٌ بقتلهم ((صبابةٌ ولو وجدوا تحتَ أستارِ الكعبة، ففرَّ عبدُ اللهِ بنُ سعدٍ إلى عثمان – وكانَ أخاهُ منَ الرّضاعة، أرضعتهُ أمُّ عثمان – فغيّبهُ عثمانُ حتّى أتى بهِ رسولَ اللهِ (ص) بعدما اطمأنَّ أهلُ مكّةَ فأستأمنهُ لهُ، فصمتَ رسولُ اللهِ (ص) طويلاً؛ ثمَّ قال: نعم، فلمّا انصرفَ عثمانُ قالَ رسولُ اللهِ (ص) لمن حولهُ: ما صمتَ إلّا ليقوِّمَ إليهِ بعضكم فيضربَ عنقه! فقالَ رجلٌ منَ الأنصار: فهلاّ أومأتَ إليَّ يا رسولَ الله؟» فقالَ النبيُّ: «إنَّ الأنبياءَ لا تكونُ لهم خائنةُ الأعين»))[2] إذن؛ نلاحظُ أنَّ محمّداً لم ينسَ ما قامَ بهِ عبدُ الله وأمرَ بجلبهِ وقتلهِ حتّى وإن وجدوهُ مختبئاً تحتَ أستارِ الكعبة، لكنّهُ _عبد الله_ كانَ مختبئاً عندَ عثمان _أخيهِ بالرّضاعةِ وابنِ خالته_ فجاءَ عثمانُ على محمّدٍ

(1) العقدُ الفريد، 537.

(2) مختصر أبي الفداء، 97.

وطلبَ الأمانَ لابنِ خالتهِ، فصمتَ محمّدُ مطوّلاً، ثمَّ منحهُ الأمان. فانطلقَ عثمانُ لجلبهِ _عبد الله_، لكنَّ محمّداً كانَ يتمنّى شيئاً آخرَ لابنِ أبي سرح عندما يمثلُ أمامهُ، فالتفتَ لمن هم حولهُ وقال: لمَ أُطِل صمتي إلّا منتظراً أن يقومَ أحدكم ويضربَ عنقه، فردَّ أحدُ الأنصار: هلاّ أومأتَ إليَّ يا رسولَ اللهِ لأقطعنَّ رقبته؟ فأجابَ محمّد: إنَّ الأنبياءَ لا يقتلونَ بإيماءة. ((لمّا كانَ يومُ فتحِ مكّة أمّنَ رسولُ اللهِ صلعم النّاسَ إلّا أربعةَ نفرٍ وامرأتينِ وسمّاهم وابنُ أبي سرح فذكرَ الحديث قال: وأمّا ابنُ أبي سرح فإنّهُ اختبأ عندَ عثمانِ بنِ عفّان فلمّا دعا رسولُ اللهِ صلعم النّاسَ إلى البيعةِ جاءَ بهِ حتّى أوقفهُ على رسولِ اللهِ صلعم فقال : يا نبيَّ الله بايع عبدَ الله فرفعَ رأسهُ فنظرَ إليهِ ثلاثاً كلُّ ذلكَ يأبى فبايعهُ بعدَ ثلاث، ثمَّ أقبلَ على أصحابهِ فقال : أما كانَ فيكم رجلٌ رشيدٌ يقومُ إلى هذا حيثُ رآني كففتُ يدي عن بيعتهِ فيقتلهُ، فقالوا :ما ندري يا رسولَ اللهِ ما في نفسكَ ألّا أومأتَ إلينا بعينك، قال: إنّهُ لا ينبغي لنبيٍّ أن تكونَ لهُ خائنةُ الأعين))[1] وفي تاريخ اليعقوبيّ ((عبدُ اللهِ بنُ سعدِ بنُ أبي سرح العامريّ، وكانَ يكتبُ لرسولِ اللهِ فصارَ إلى مكّةَ فقال: أنا أقولُ كما يقولُ محمّد؛ واللهِ ما محمّدُ نبيٌّ وقد كانَ يقولُ لي: اكتب عزيزٌ حكيم، فأكتبُ لطيفٌ خبير، ولو كانَ نبيّاً لعلم، فآواهُ عثمان وكانَ أخاهُ منَ الرّضاع، وأتى بهِ إلى رسولِ الله، فجعلَ يكلّمهُ فيه ورسولُ اللهِ ساكت، ثمَّ قالَ لأصحابه: هلاّ قتلتموه! فقالوا: انتظرنا أن تومئ، فقال: إنَّ الأنبياءَ لا تقتلُ بالإيماء))[2] قالَ ابنُ حجرٍ في فتحِ الباري : ... ((عن ابنِ عبّاسٍ قال: كانَ عبدُ اللهِ بنُ سعدِ بنُ أبي سرح يكتبُ للنبيِّ صلعم، فأذلّهُ الشّيطانُ فلَحِقَ بالكفّارِ فأمرَ بهِ رسولُ اللهِ صلعم أن يُقتَل؛ يعني يومَ الفتح، فاستجارَ لهُ عثمانُ فأجارهُ النبيُّ صلعم))[3] نعم، كانَ محمّدٌ ينتظرُ من يتنخي منَ الصّحابةِ ويقومَ ليُجهزَ على هذا الرّجلِ الذي فضحهُ وأحرجهُ. لابدَّ أنّهُ حلُمَ بهذهِ اللحظةِ سنواتٍ طوالاً، وأعدَّ لها حتّى ينتقمَ من عبدِ اللهِ الذي أضافَ وغيّرَ الكثيرَ والكثيرَ في القرآنِ دونَ علمٍ من محمّد، ولنتذكّر أنَّ الأحداثَ السّابقةَ كانت تجري في الفترةِ التي سبقت فتحَ مكّة، إذ أنّهُ وبعدّهِ أحدَ كتّابِ الوحيِ لمحمّد وطوالَ الفترةِ المكيّة، فلا بدَّ أنّهُ قد تلاعبَ بما يناهزُ أو يعادلُ

(1) أخرجهُ في سننِ أبي داود، كتابُ الحدود، بابُ الحكمِ فيمن ارتدّ، 3461.

(2) تاريخُ اليعقوبيّ، بابُ فتحِ مكّة، جـ1، صـ59-60.

(3) الإصابةُ في تمييزِ الصّحابةِ لابنِ حجرِ العسقلاني، بابُ عبدُ اللهِ بن سعدِ بنُ أبي سرح بن الحارث.

ثلثيّ القرآنِ أو أكثر. يعقّبُ المقريزيُّ في كتابهِ فيقول: ((مرّةً يغيّرُ ويبدّلُ في القرآنِ ويقولُ لمحمّد فيردُّ محمّدٌ ردّاً عجيباً اكتب كلّهُ صواب !!! ومرّةً يأتي بالوحيِ قبلَ محمّدٍ فيردُّ محمّدٌ أكتبها فهكذا نزلت وأشباهُ ذلك؛ الآية لم تزل في القرآن، هل أشباهُ ذلكَ لم تزل في القرآن وهيَ من وحيِ عبدِ اللهِ بنِ سرح ولم تزل في قرآنِ محمّد .... كم أستمرَّ على هذا الحال؟ وانظر إلى ردِّ محمّدٍ وجوابهِ على ابنِ أبي سرح بأنَّ كلّهُ صواب. هل هذا هوَ ما في اللّوحِ المحفوظ، لماذا لم يحذّرهُ جبريل، أينَ العليمُ الخبيرُ عالمُ خفايا الصدورِ وما يخفيهِ المستقبل، كيفَ صحّحوا ما كتبهُ ابنُ أبي سرح بعدَ أن حفظتهُ أمّةُ الصدور، هل أخطأ عندما تركَ الإسلام، هل أخطأ عندما قالَ وتيقّنَ أنَّ محمّداً ليسَ بنبيٍّ بل كذّاب؟))[1] هل القرآنُ الذي يقرأهُ المسلمونَ الآن فيهِ نفسُ الآياتِ التي تلاعبَ بها عبدُ اللهِ بنُ أبي سرح، هل مرّت إلى عثمانَ كما هيَ دونَ أن يعرفَ أيّها أوحاها محمّد وأيّها أوحاها عبدُ الله، كيفَ كانَ لهم أن يعرفوا ذلك إذا كانَ قد خلطَ عبدُ الله «عبّاس بدبّاس»، وكيفَ قارنوا بينَ الآيات، وهل عرضوها على محمّدٍ ليصحّحها، أم أنّهُ هوَ نفسهُ لم يعد يتذكّر ما هيَ الكلماتُ التي أملاها على عبد الله....؟ أسئلةٌ كثيرةٌ ليس لها أيّةُ أجوبةٍ أو حلول، لأنَّ البحثَ في هذهِ المسألة تحيلُ للبحثِ عن أصالةِ القرآنِ وموثوقيّةِ كتبتهِ أجمعين، ودونَ استثناء، وهذا كلّهُ في غيابِ أيِّ نسخٍ أو قراءاتٍ أخرى بديلة يمكننا إجراءُ المقارنةِ معها، الأمرُ الذي من شأنهِ أن يزيلَ هالةَ القداسةِ عن القرآنِ وعن الكتبة، وحتّى عن نبيِّ الإسلامِ نفسه والعقلُ وليُّ التوفيق.

---

(1) قراءةٌ جديدةٌ في قرآنٍ قديم، دكتور المقريزي، ص38-39.

طبيعةُ الإله في الإسلام

فصل من كتابها الرائع «الإلهُ الذي يكره»

د. وفاء سلطان

قبلَ أن نشرعَ في كشفِ الغطاءِ عن طبيعةِ الهارِدِ الحقيقيّةِ، علينا أن ندرسَ الحاجةَ التي تخلقها في الأساس، علينا أن نستكشفَ، حتّى وإن بشكلٍ مختصر، الظروفَ البيئيّةَ المحيطةَ التي ساهمت في نشأتهِ، فعندما ننعمُ النظرَ في الظروفِ الاجتماعيّةِ، والسياسيّةِ، والاقتصاديّةِ للعربِ ما قبلَ الإسلام، والتي مهّدت الطريقَ لظهوره، عندها فقط يمكننا فهمُ الطبيعةِ الحقيقيّةِ للإلهِ في الإسلام.

كانَ النَّاسُ في تلكَ الحقبةِ ملفوفينَ بالخوف، الخوفُ من المجهول، فطبيعةُ الحياةِ الصّحراويّةِ القاحلة، التي جعلت من توقّعِ أيِّ خطوةٍ مستقبليّةٍ أمراً شبهَ مستحيل، جعلت النّاسَ يخافونَ الذي تخبّئُهُ لهم اللحظةُ القادمة. من بينِ جميعِ المشاعرِ والأحاسيسِ البشريّة، فإنَّ الخوفَ منَ المجهولِ من أقواها على الإطلاق، وأكثرها تدميراً للملكاتِ العقليّةِ والقدراتِ الفكريّة، فهؤلاءِ الذينَ يجرّبونَ هذا الشعورَ المدمّرَ والقويّ يشعرونَ بحاجةٍ ملحّةٍ وضروريّةٍ للأمان، وأنّهم غيرُ قادرينَ على العيشِ في لحظةِ الحاضر، لأنّهم خائفونَ جدّاً من مواجهةِ المجهولِ الذي يخافونه. في الصّحراءِ العربيّةِ لم يكن النَّاسُ يشعرونَ بالأمانِ والراحةِ والاطمئنانِ خلالَ يومهم، وكانَ الغزوُ هوَ الطريقةَ الوحيدةَ للبقاءِ على قيدِ الحياة، وكانت القوّةُ هيَ القانونَ الذي يحكمُ وسائلَ العيشِ هذه، ولذلك، كانت القبائلُ القويّةُ تغيرُ على القبائلِ الضعيفةِ وتغزوها وتسلبها. كانَ العربُ مشهورينَ بحصيلتهم اللّغويّةِ ومخزونهم اللفظيِّ وقدرتهم على التعبيرِ عن أنفسهم، وأيُّ قارئٍ أو مطّلعٍ على الشّعرِ والأدبِ العربيّين لتلكَ الفترة، واللّذينِ تولّدا ضمنَ ذلكَ الجوِّ المشحونِ بالخوفِ منَ المجهول، سيدركُ مدى عمقِ ذلكَ الخوفِ وتأثيرهُ المدمّرَ على إنتاجِ أبناءِ

تلكَ الحقبةِ وإبداعهم. جُلُّ ما كانوا يبرعونَ فيهِ هوَ مدحُ شجاعتهم والمفاخرةُ بجرأتهم، لكنَّ هذا المديحَ والافتخارَ لم يكونا أكثرَ من مجرّدِ آليّةٍ دفاعيّةٍ سيكولوجيّةٍ من ذلكَ النوعِ منَ الآليّاتِ التي تتطوّرُ في اللاوعي وتتغلّبُ على الخوفِ الذي كانَ يسيطرُ على العقلِ الواعي. عندما يكونُ الإنسانُ خوّافاً فإنّهُ يشحذُ سيفهُ، لذا فإنَّ سيوفَ العربِ كانت ذاتَ أهمّيّةٍ كبرى بالنسبةِ لهم، وكانوا يحرصونَ عليها، ويشحذونها ويداورونها بشكلٍ جيّد، كما أنّها كانت وفيرةً جدّاً، وفيرةً في كلا العالمين: واقعهم ومخيّلتهم، لدرجةِ أنّها باتت تسيطرُ على كافّةِ نواحي حياتهم. نشأ الإسلامُ ونما في قلبِ هذهِ البيئةِ المشحونةِ بالخوف، لقد ظهرَ كردّةِ فعلٍ طبيعيّةٍ تجاهَ الحاجةِ السيكولوجيّةِ الكامنةِ في نفوسِ سكّانِ الصّحراءِ العرب ـ الحاجةُ للبحثِ عن قوّةٍ عظمى أعظمَ وأقوى من ذلكَ الخوفِ الذي أصبحوا أسرى له، لذلكَ قاموا باختلاقِ ماردٍ، ألهمتهم إيّاهُ مخيّلتهم المليئةُ بالخوف، ماردٌ أكبرُ من جميعِ مخاوفهم وأعظمُ منها، ويمتلكُ القوّةَ اللازمةَ لتمكينهم من مواجهةِ مصادرِ مخاوفهم. لقد اسبغوا على هذا الماردِ قوّةً وسلطةً مطلقتينِ وسمحوا لهُ باستخدامهما للتغلّبِ على جميعِ مصادرِ مخاوفهم. لقد خلقوا هذا الماردَ، ثمَّ سمحوا لهُ بأن يخلقهم. نشأوا وهم يتشبّهونَ بهِ، ثمَّ اتّحدوا معهُ حتّى اندمجوا فيه، ولحمايةِ ماردهم وصونه، أحاطوهُ بسياجٍ حديديٍّ متين وهدّدوا بحزِّ رقبةِ كلِّ من تسوّلِ لهُ نفسهُ الاقترابَ منه، ولم يتمكّن أحدٌ منَ الاقترابِ منهُ منذُ ذلكَ الوقت، إذ إنَّ الثمنَ كانَ «الموت». يبدو أنَّ المردةَ كانَ لهم حضورٌ دائمٌ في كلِّ قصّةٍ سمعتها خلالَ فترةِ نشأتي. أتذكّرُ جيّداً عندما كنّا صغاراً وكنّا نتجمّعُ حولَ جدّتي كلَّ مساء، كانت غالباً ما تروي لنا حكايةً عن الفتاةِ الصّغيرةِ والجميلةِ التي عاشت لوحدها في كهفٍ في الصّحراءِ حيثُ كانَ يزورها ماردٌ مساءَ كلِّ يوم، وكانَ يخاطبها من خارجِ مدخلِ الكهف: ((أعطني يدكِ لأمصَّ دمها وإلّا كسرتها!))، وكانت الفتاةُ الصّغيرةُ تمدُّ لهُ يدها خارجَ الكهفِ حتّى يمصَّ الماردُ الدّمَ من يدها ويشبع، ثمَّ يتركها بحالها حتّى مساءِ اليومِ التّالي. منذُ اللحظةِ التي أفلتُّ فيها من بينِ مخالبِ ماردِ قريتي، لطالما سألتُ نفسي: لماذا كانت جدّتي مولعةً بتلكَ الحكايةِ لدرجةِ أنّها كانت تبدو بلا نهاية، فالماردُ يعودُ في كلِّ مساءٍ ليتغذّى على دمِ الفتاة. أعتقدُ أنَّ الماردَ كانَ يمثّلُ الحياةَ التي عاشتها جدّتي مع جدّي... أيمكنُ أن تكونَ تلكَ الفتاةُ الصّغيرةُ تمثيلاً رمزيّاً لجدّتي

في لاوعيها؟ ما زلتُ أتذكرُ الرّعبَ الذي تملّكني عندما سمعتُ القصّةَ لأوّلِ مرّة، وفي محاولةٍ للسيطرةِ على خوفي والتغلّبِ عليه، كنتُ أتخيّلُ والدي، أيضاً، مارداً ضخماً قادراً على حمايتي، وكانَ منَ المهمِّ بالنسبةِ إليّ أن أتصوّرهُ أقوى من الماردِ الذي في حكايةِ جدّتي، ومن أجلِ ضمانِ أنّهُ سيكونُ قادراً على حمايتي ورعايتي كانَ عليهِ أن يدخلَ غرفتي ويأخذَ يدي ويمصَّ الدّمَ منها. في عقليَ الواعي واللاواعي كنتُ قد خلقتُ مارداً آخر، أكبرَ منَ الماردِ الذي أخافني وأفزعني في قصّةِ جدّتي، وكلُّ ذلكَ فقط لكي أضمنَ سلامتي. لم يستطع سكّانُ الصّحراءِ منَ العرب التكيّفَ مع مخاوفهم إلّا من خلالِ اللجوءِ إلى هذهِ الآليّةِ الدفاعيّةِ السيكولوجيّةِ التي لجأتُ إليها أنا... استمرّوا في خلقِ ماردٍ أكبرَ وأقوى من مخاوفهم، وقادراً على قهرِ كلِّ مصدرٍ للخوف.

لقد أضفى سكّانُ الصَّحراءِ العربيّةِ على إلههم الجديد تسعةً وتسعينَ اسماً، أو صفةً، وكلُّ صفةٍ حميدةٍ قاموا باستعارتها من كتبِ الدياناتِ التي سبقت الإسلام، وذلكَ تأسيساً لسلطتهِ الإلهيّة، في حينِ أنَّ الصّفاتِ الأخرى كانوا قد أسبغوها عليهِ لتميزهِ وتفريقهِ عن غيرهِ منَ الآلهةِ الأخرى. إنَّ صفاتهُ الشّرّيرةَ والسيّئة لا نجدها في الآلهةِ الأخرى، في حينِ أنَّ الصّفاتِ الحميدةَ تتشابهُ كثيراً مع تلكَ التي كانت مضفاةً على جميعِ الآلهةِ التي سبقته. «الضّار» إحدى الصّفاتِ التي أطلقها المسلمونَ على إلههم، هل منَ المعقولِ أنَّ إلهاً يسبّبُ الضررَ والأذى؟... لكنَّ هذهِ الصّفةَ يضفيها المسلمونَ على إلههم ويفاخرونَ بها، تماماً كما يفاخرونَ في وصفهم إيّاهُ بـ«الرّحمن»، «الرّحيم»، «الصّبور»، «الشّكور»، أمّا الصفاتُ مثلَ «المهيمن»، «الجبّار»، «المذلّ»، «القهّار»، «المميت»، «الأعلى»، «المنتقم»، جميعُ هذهِ الصّفاتِ أضفاها المسلمونَ على ماردهم ودمجوها فيهِ في محاولةٍ منهم للاتّحادِ مع مثلهم الأعلى. كلّما دخلتُ في نقاشٍ مع أحدِ المسلمينَ المطّلعينَ حولَ شرعيّةِ وأخلاقيّةِ هذهِ الأسماءِ الحُسنى، لم أسمع منهم سوى الصّراخِ والصّياحِ اللّذينِ من شأنهما تحويلُ النقاشِ إلى شجارٍ وجدالٍ عقيمٍ وعبثيّ، إنّهم غيرُ قادرينَ على مواجهةِ سلبيّةِ هذهِ الأسماءِ إلّا عن طريقِ محاولةٍ بائسةٍ ويائسةٍ لتبريرها، لكنّهم عندما يفعلونَ ذلك، فإنّهم يزيدونَ الأمورَ سوءاً. إنَّ المسلمينَ يبرّرونَ إلصاقَ صفةِ «الضّارِ» بإلههم بالزّعمِ أنّهم يعتقدونَ بضرورةِ هذهِ الصّفةِ وتواجدها في الإله لزرعِ الخوفِ في قلوبِ النّاس ومنعهم من عصيانِ اللهِ

وأوامره، إنّهم يقولون: ((عندما يؤمنُ الإنسانُ بقدرةِ اللهِ على إنزالِ الضّررِ والحاقِ الأذى، فإنّهُ سيمتنعُ عن ارتكابِ المعاصي وانتهاكِ حرماتِ اللهِ وحدوده، وذلكَ ليتجنّبَ غضبَ اللهِ وضرره))- حاولتُ في إحدى المرّات تأسيسَ أرضيّةٍ مشتركةٍ حولَ هذهِ النقطةِ بالذّات مع قارئةٍ مسلمةٍ من لندن، خرّيجةٌ في جامعةِ أوكسفورد، حيثُ أجريتُ معها محادثةً طويلةً وبينَ أخذٍ وردٌ عن طريقِ البريدِ الإلكتروني. كتبت لي قائلةً في إحدى الرسائل: ((هل تنكرينَ أنَّ اللهَ قادرٌ على إلحاقِ الأذى وإنزالِ الضّرر، أليسَ في مقدورهِ تدميرُ الكونِ إن شاء؟))، ثمّ تابعت قائلةً: ((ما الخطأُ في امتلاكِ هذهِ القوّةِ التدميريّة، أليسَ ذلكَ ضروريّاً لمنعِ البشرِ من تخطّي حدودِ اللهِ وعصيانِ أوامره؟)) أجبتها قائلةً: ((الأبُ لديهِ القدرةُ لإيذاءِ ولدهِ ومعاقبتهِ عندما يعصيه ويتمرّدُ عليه، لكن هل يفعلُ ذلك، هل هذا أفضلُ أسلوبٍ لتربيةِ أولادنا وتعليمهم ألّا يتجاوزوا الحدودَ التي رسمناها لهم؟)) فأجابت خرّيجةُ أوكسفورد: ((لا مجالَ للمقارنةِ هنا! أمّا الفرقُ بينَ قدرةِ اللهِ وقدرةِ البشرِ أكبرُ بكثيرٍ منَ الفرقِ بينَ قدرةِ الوالدِ وولده)) أجبتها: ((لكن أليسَ منَ المفروضِ أن تتجاوزَ حكمةُ اللهِ ورحمتهُ وعطفهُ، حكمةَ الأبِ البشريِّ ورحمتهِ وعطفه؟)) إلّا أنَّ المحادثةَ قد تحوّلت إلى جدلٍ عقيمٍ وغيرِ مثمرٍ في النهاية، حيثُ لم يعد يسعني سوى قراءةِ الصُّراخِ والصِّياحِ والهياجِ في رسائلها، وشتائمُ وسبابُ خرّيجةِ أوكسفورد هذه عندما أرسلت إليَّ واصفةً إيّايَ بالكافرةِ الضّالّةِ والمرتدّة، وأستحقُّ الموت.

عندما تعلّمُ ولداً هذهِ الصّفاتِ وتخبرهُ بأنَّ اللهَ منتقمٌ، جبّار، ضارٌ، ومذلّ، وفي نفسِ الوقتِ تقولُ لهُ أنّهُ رحيمٌ، وعطوف، فما الذي تفعلهُ بهذا الولدِ عندئذٍ؟ لقد ساهمتَ في خلقِ شخصٍ منتقم، مستبدٌ، متجبّر، لكنّهُ رحيمٌ أيضاً، لكن ما الثّمن؟... الثّمنُ هوَ أنَّ النّاسَ يرونَ إلههم كمثلٍ أعلى لهم، ويسعونَ بكلِّ جهدهم بوعيٌ أو غير وعي للاندماجِ بهِ والاتّحادِ معهُ، فعندما نقنعهم بأنَّ إلههم انتقاميٌّ فإنّنا نبرّرُ لهم أن يصبحوا هم بدورهم انتقاميّينَ أيضاً.

هناكَ توقٌ كبيرٌ في الطبيعةِ البشريّةِ للاتّحادِ مع مثلها الأعلى، إذن، ماذا تعتقدونَ أنّهُ سيحدثُ عندما يكونُ ذلكَ المثلُ الأعلى هوَ اللهَ نفسهُ؟ يصبحُ النقاشُ مع المسلمينَ أكثرَ تعقيداً عندما يحاولونَ إقناعكَ بأنَّ إلههم رَحيمٌ، وعطوفٌ، وصبور. سألتُ مرّةً طبيباً

مسلماً متخصصاً في مجالِ الطبِّ النفسي: ((كيفَ تستطيعُ إقناعَ ولدكَ أنَّ اللهَ رحيمٌ ومنتقمٌ في آنٍ معاً،... أليسَ تعليمُ هذا النمطِ منَ الدروسِ الدينيّةِ للأولادِ ينطوي على تناقضٍ من شأنهِ أن يُحدِثَ شرخاً وانقساماً في شخصيّةِ الولد... ويجعلهُ يشعرُ أكثرَ بالضّياعِ والحيرةِ والارتباك؟)) أجابني قائلاً: ((كلاّ، أنا أعلّمهُ بأنَّ اللهَ رحيمٌ على المؤمنين وشديدٌ على الكفّار، لا أرى أيَّ تناقضٍ في ذلك)) سألتهُ مجدّداً: ((كيفَ تعلّمُ ولدكَ كيفيّةَ التمييزِ بينَ المؤمنِ والكافرِ حتّى يعرفَ كيفَ سيتعاملُ مع الآخرين؟)) قال: ((المؤمنُ هوَ الذي يؤمنُ باللهِ ونبيّهِ واليومِ الآخر وهكذا)) فسألته: ((إذن، عندما يخطفُ ابنكَ طائرةً مدنيّةً مليئةً بالركّاب، ويطيرُ بها نحوَ برج، ويقتلُ حوالي ثلاثةِ آلافِ كافر [وفي سبيلِ اللهِ وباسمه] هل سيكونُ بذلكَ قد ارتكبَ عملاً يتجاوزُ حدودَ ما قد يفعلهُ إلهُهُ ومثلهُ الأعلى، هل هذهِ هيَ الطريقةُ الأفضل للتمييزِ بينَ المؤمنينَ والكفّار؟)) انتهى النقاشُ على الفورِ بصيحاتٍ وصراخٍ تحوّلا سريعاً إلى جدالٍ عقيمٍ ولم ينتج عنهُ أيُّ فائدةٍ سوى اتهامي بالكفرِ والزّندقةِ والارتدادِ والتعاطفِ مع أعداءِ اللهِ ورسوله.

عندما يعيشُ الإنسانُ في بيئةٍ يحكمها المجهول ويجدُ صعوبةً بالغةً في توقّعِ ما سيحدثُ خلالَ اللحظةِ التّالية، عندئذٍ يكونُ ذلكَ الإنسانُ محاطاً بالخوفِ الذي سينتجُ عنهُ لاحقاً عجزٌ في الفعلِ والسلوك، وقد وُلِدَ الإسلامُ في قلبِ هذهِ البيئةِ كاستجابةٍ لهذا الخوف، في حينِ أنَّ النّاسَ في تلكَ البيئةِ كانوا يخافونَ منَ المجهول، حاربَ الإسلامُ ضدَّ أيِّ محاولةٍ لاستكشافِ أيِّ شيءٍ مجهولٍ وحظرهُ تماماً. لقد عالجَ الإسلامُ المشكلةَ عن طريقِ تجاهلِ مصدرِ الخوفِ وتجنّبِ التعاملِ معه، وليسَ عن طريقِ الاستعدادِ لهُ وتوقّعه. المسلمُ إنسانٌ خائفٌ ومرعوب، والطريقةُ الوحيدةُ التي يمكنهُ من خلالها التعاملُ مع خوفهِ ومصدرِ رعبهِ هيَ في أن يبتعدَ عن سببهِ [ولا ننسى المثلَ العربيَّ الشّائع: إبعِد عن الشرّ وغنّيلو]. أيُّ شيءٍ يشعرهُ بالارتيابِ والشّكِّ يخافُ منه، وأيُّ شيءٍ يخافُ منهُ، يتجنّبه. إنَّ تعليمهُ وتربيتهُ جعلا منهُ إنساناً يشتبهُ في كلِّ شيءٍ غيرِ مألوفٍ بالنسبةِ له، ونفسُ هذهِ التربيةِ قد حرمتهُ من قدرتهِ على استكشافِ الحقيقةِ حولَ الأمورِ التي يشتبهُ بها. كانَ المصدرُ الأساسيُّ للخوفِ في البيئةِ التي نشأ فيها الإسلامُ هوَ المجهول، وفي حينِ أنَّ كلَّ شيءٍ جديد هوَ ـ بالتعريف ـ شكلٌ من أشكالِ المجهول، رفضَ الإسلامُ الاقترابَ من

أيَّ شيءٍ جديد وانسحبَ إلى عالمهِ الخاصّ وكلِّ شيءٍ مألوفٍ فيه. إنَّ الإسلامَ، بتعاليمه، هوَ نمطٌ في التفكير، طريقةٌ في الحياة، وما زالَ أسيراً داخلَ سجنٍ لم تُفتَح أبوابهُ منذُ أكثرَ من أربعةَ عشرَ قرناً، إنّهُ يشبهُ رجلاً عاشَ في كوخٍ في قلبِ الغابة، فالكوخُ هوَ الإسلام، والغابةُ هيَ المجهول، ولتجنّبِ هذا الخوفِ منَ المجهول، قامَ الرّجلُ بإغلاقِ وسدِّ جميعِ المداخلِ والمخارجِ في الكوخ، وهوَ يرفضُ الخروجَ إلى الغابة. يتعاملُ المسلمونَ مع بقيّةِ العالمِ من حولهم بنفسِ الطريقةِ التي يتعاملُ بها الرّجلُ الذي يعيشُ في الكوخ، إنّهُ خائفٌ ومرعوبٌ منَ العالمِ المحيطِ به، وتربيتهُ لم تحثّهُ أو تدفعهُ لتزويدِ نفسهِ بالمهاراتِ الضروريّةِ لمواجهةِ قلقهِ وهواجسهِ واستكشافِ أعماقِ ذلكَ العالم، على العكسِ تماماً، لقد علّمتهُ تربيته، الخوفَ منَ محيطه، وأقنعتهُ بعدمِ وضعِ ثقتهِ بوسطهِ، وحذّرتهُ منَ المخاطرِ والشّرورِ التي يضمرها لهُ ذلكَ العالم.

إنَّ العلاقةَ بينَ الإسلامِ وأتباعهِ تقفُ في جهة، وباقي العالمِ المتمثّلِ بالأديانِ الأخرى، في جهةٍ ثانية، مازالت هناكَ علاقةٌ قائمةٌ على الخوف ويملأها الشّكُّ والريبةُ وعدمُ الثّقة. مازالت هذهِ العلاقةُ ـ إلى حدٍّ ما ـ تمثّلُ وتعكسُ العلاقةَ بينَ البدويِّ الصّحراويِّ وبيئتهِ الصّحراويّة، إنّها علاقةٌ قائمةٌ على الخوفِ وانعدامِ الثّقة، ولا توجدُ علاقةٌ تقومُ على الخوفِ وعدمِ الثّقةِ يمكنُ اعتبارها علاقةً سليمةً أو صحية، ولا يمكنُ ضمانُ حقوقِ الطرفينِ فيها. ولحمايةِ نفسهِ منَ العالمِ الخارجيِّ وتأثيراتهِ التي تهدّدُ وجودهُ وكيانه، جعلَ الإسلامُ نفسهُ منيعاً ضدَّ مؤثّراتِ ذلكَ العالم، لقد أحاطَ أتباعهُ بحاجزٍ منيعٍ وسجنهم في الداخل، لقد كافحَ ضدَّ أيِّ عمليّةِ تجديد، مشتبهاً بتناسبها وملائمتها وشرعيّتها. إنَّ علاقتهُ بالعالمِ الذي أحاطَ بهِ قد تمَّ تقييمها من قبلهِ من خلالِ العدائيّةِ بدلاً منَ التبادلِ والأخذِ والردِّ والتفاعل. لم يحدث أيُّ تغيّرٍ ملحوظٍ داخلَ الإسلام منذُ اللحظةِ التي جاءَ فيها إلى الوجود، والتغيّراتُ الوحيدةُ التي حدثت في الإسلامِ قد دخلت إليهِ من خارجِ حدودِ السُّلطةِ والمرجعيّةِ التي قامَ العالمُ الإسلاميُّ بفرضها على نفسه.

في بداياتِ السّتّينات، قامت إحدى العائلاتِ المسيحيّةِ التي تقطنُ حيّنا بشراءِ تلفزيون. ما زلتُ أذكرُ الطريقةَ التي تحدّثَ عنهم سكّانُ الحيِّ من خلالها، لقد اتّهموا ربَّ العائلةِ بالانحلالِ الأخلاقيّ، وكيفَ حاولوا الضّغطَ على العائلةِ لتركِ الحيِّ، خوفاً

على مصلحةِ وأخلاقِ أولادهم ومراهقيهم. كانَ انتشارُ التلفزيونِ في الحيِّ بطيئاً جداً، لكنّهُ كانَ محتوماً في النهاية. اليوم، لا أعتقدُ أنَّ هناكَ برنامجاً عربيّاً أو إسلاميّاً لا يستلذُّ شيخٌ سعوديٌّ بمشاهدته، كما أنَّ صحونَ الفضائيّاتِ التي تبثُّ مختلفَ البرامجِ من جميعِ أصقاعِ العالمِ قد اجتاحت قلعةَ الإسلامِ التي بناها حولَ نفسهِ وغزتها في النهاية، أمّا الإنترنت فلم يواجه تلكَ الصُّعوباتِ التي واجهها التلفزيون، كما أنَّ غزوهُ كانَ أكثرَ سرعةً وسلاسةً وأشدَّ تأثيراً. ولذلك فقد أدركَ أولئكَ المهتمّونَ في تغييرِ العالمِ الإسلاميِّ أنَّ بإمكانهم استخدامَ هذهِ الوسيلةِ لإحداثِ ذلكَ الانهيارِ غيرِ المتوقّعِ للجدارِ المنيعِ الذي يحيطُ بالإسلامِ خلالَ أقلَّ من عقدٍ منَ الزّمن. خلالَ أيِّ علاقةٍ تربطُ بينَ المسلمِ وغيرِ المسلم ستلاحظُ أنَّ المسلمَ يحافظُ على موقفهِ الدفاعيِّ _سواءٌ بشكلٍ طوعيٍّ أو عن ضرورة_ ومستعدٌّ دوماً للصّدامِ مع ما تخبّئهُ لهُ هذهِ العلاقةُ من مجهول. المسلمُ يفترضُ موقفهُ الدفاعيَّ بسببِ خوفهِ منَ الآخر وشكّهِ وارتيابهِ حولَ نوايا ذلكَ الآخرِ ومقاصده، مثلُ هكذا علاقة، بغضِّ النظرِ عن عمقها أو متانتها، لن تصلَ أبداً إلى المرحلةِ التي يمكنُ فيها للمسلمِ أن يثقَ بالآخرِ ويحبّه، سيوافقُ المسلمُ على تأسيسِ مثلِ هذهِ العلاقةِ في حالتينِ فقط: للترويجِ لمصالحهِ وأهدافهِ وغاياته، أو لإلحاقِ الضّررِ بأهدافِ وغاياتِ الآخر، وعندما تفرضُ هذهِ العلاقةُ نفسها على المسلم فإنّهُ سيبدي قدرةً هائلةً لتمويهِ مشاعرهِ وإخفاءها. كنتُ أدخلُ في جدالاتٍ ومشاذّاتٍ كلاميّةٍ مع بعضِ أصدقائي منَ المسلمينَ المغتربينَ هنا، وخصوصاً حولَ مواقفهم تجاهَ الأمريكيّينَ أو الثّقافةِ الأمريكيّة، وكنتُ أجدُ نفسي متفاجئةً حولَ آرائهم المخيفة، والتي تضمرُ ازدراءً واضحاً واستياءً كافيّين ليسَ فقط لتدميرِ برجيِّ التجارةِ العالميّين، بل أمريكا كلّها، لكن لو حدثَ وأن اقتربَ أحدُ أصدقائي منَ الأمريكيّين، وأنا كنتُ بصحبةِ ذلكَ الشّخصِ المستاء _فخلالَ أقلَّ من ثانيةٍ واحدة ستراهُ يتحوّلُ إلى شخصٍ أمريكيٍّ أكثرَ من أبراهام لينكولن نفسه. كنتُ أقودُ سيّارتي من لاجولا في سان دييغو إلى ريفر سايد بصحبةِ صديقتي العراقيّةِ «أمل» التي عاشت في هذا البلدِ فترةً لا تقلُّ عن ثلاثِ سنوات. هربت هيَ وعائلتها من بطشِ صدّام حسين وقمعهِ للشّيعةِ في جنوبِ العراق ولجئوا إلى السعوديّة، لكنَّ المملكةَ رفضت استقبالهم، فغادروا إلى أمريكا بعدَ أن وافقت السّفارةُ الأمريكيّةُ على

طلبِ الهجرة. عندَ مدخلِ طريقٍ جانبيٍّ ونحنُ في طريقنا إلى منزلها قابلنا مشرداً كانَ يقفُ على قارعةِ الطريقِ يتوسّلُ المارّةَ من أجلِ بعضِ النقود. نظرت صديقتي العراقيّةُ إليَّ وقالت بشكلٍ ساخرٍ: ((انظري إلى ذلكَ الشحّاذ... هذهِ هيَ أمريكا التي تحبّينها!)) أجبتها: ((عزيزتي، هل تعتقدينَ فعلاً أنَّ هذا كلُّ ما تملكهُ أمريكا لتقدّمهُ إلى العالم؟)) لم تكن هذهِ نقطةَ الخلافِ الوحيدةَ مع أمل حولَ مواقفنا تجاهَ أمريكا وثقافتها، لقد دخلنا مرّةً في نقاشٍ لم ينتهِ إلّا في اللحظةِ التي بلغنا فيها بابَ منزلها، ودّعتها وغادرتُ وأنا أهزُّ رأسي، غيرَ موافقةٍ على كلِّ الكلامِ الذي قالتهُ لي خلالَ نقاشي معها. سبقَ لي أن زرتُ العديدَ منَ البلدانِ الرّائعةِ لكنّني لم يسبق أن رأيتُ مناظرَ طبيعيّةً على امتدادِ الطريقِ أجملَ من تلكَ التي رأيتها على الطريقِ التي تربطُ ما بينَ لاجولا وريفر سايد بولايةِ كاليفورنيا، من ناحيةِ جمالِ المناظرِ الطبيعيّةِ المحيطةِ والتخطيطِ والتنظيمِ العاليّين، لكن عندما نظرت صديقتي أمل خارجَ نافذةِ السيّارةِ إلى تلكَ الجنّةِ التي تحيطُ بنا، لم ترَ سوى ذلكَ المتسوّلِ على قارعةِ الطريقِ يمثّلُ أمريكا. كانت أمل تخدعُ الآخرين، ولطالما تمنّيتُ أن يتمكّنَ الأمريكيّونَ الطيّبون من رؤيةِ ما أراهُ قبلَ فواتِ الأوان. كانت أمل موظّفةً في شركةٍ أمريكيّةٍ مشهورة، في إحدى المرّات، وخلالَ إحدى الحفلاتِ التي دُعيتُ إليها، قابلتُ رئيسةَ القسمِ الذي تعملُ فيهِ أمل، امرأةٌ أمريكيّةٌ مثقّفةٌ ومصقولةٌ بدرجةٍ عالية. وخلالَ محادثتنا الطويلةِ تطرّقنا لموضوعِ الهجرةِ والصّعوباتِ التي يواجهها المهاجرونَ عندما ينتقلونَ إلى موطنٍ جديد، وتفاجئتُ كثيراً عندما سمعتها تقول: ((ما أحبّهُ بشأنِ أمل هوَ حبّها لهذا البلد، واحترامها وتقديرها الكبيرين للقيمِ الأمريكيّة، وامتنانها لما قدّمهُ هذا البلدُ لها ولعائلتها)) هززتُ رأسي موافقة، في حينِ أنَّ هناكَ صوتاً صامتاً يهمسُ في داخلي ويقول: ((أيّها الأمريكيّونَ المساكين!... لو تعرفونَ رأيَ أملِ الحقيقيِّ بالولاياتِ المتّحدة! ستدركونَ عندئذٍ أنّكم تحفرونَ قبوركم بأيديكم أيّها السُذّج!))

إنَّ خوفَ المسلمينَ منَ العالمِ الخارجيِّ يعكسُ إلى حدٍّ معيّن خوفَ البدويِّ من البيئةِ الصّحراويّةِ التي كانت تحيطُ به؛ لقد كانَ _وما زالَ كذلك_ خوفاً منَ المجهول، ومن أجلِ التغلّبِ على الصّحراءِ والمجهول خلقَ لنفسهِ مارداً أكبرَ منَ مخاوفهِ على أملِ أن يكونَ ماردهُ قادراً على حمايتهِ منها، وليمنحهُ درجةً منَ الطمأنينةِ والأمان كانَ بأمسِّ

الحاجةِ إليهما، لكنّهُ عندما خلقَ ماردهُ كانَ كلُّ ما يفعلهُ في الحقيقة هوَ استبدالَ خوفهِ الأوّل بمصدرٍ آخرَ للخوفِ أكبرَ منه. كافّةُ الآياتِ القرآنيّةِ التي تصفُ الجنّة، تصوّرها على أنّها تحتوي أنهاراً تجري فيها؛ فالصّحراءُ كانت فقيرةً جدّاً بمياهها، كما أنَّ الموتَ عطشاً كانَ من أكبرِ الأخطارِ التي يخبّئها المجهول. إنَّ الوعدَ بأنّها لا تنضب كانَ بمثابةِ رسالةٍ تبعثُ على الشّعورِ بالاطمئنانِ والأمانِ والرفاهيةِ بالنسبةِ للبدويِّ المُثقلِ بالخوفِ منَ الموتِ عطشاً. الصّحراءُ فقيرةٌ بمحاصيلها، ولا تنتجُ سوى القليل، ولا تكادُ تقدّمُ شيئاً يذكرُ منَ الطّعامِ أو الغذاء، في حينِ أنَّ الإسلامَ وعدَ أتباعهُ بجنّاتٍ منَ النخيل، الأعناب، وغيرها منَ الفواكهِ الأخرى، إضافةً إلى ذلك، نلاحظُ أنَّ الفواكهَ والطّعامَ لا يتمُّ التركيزُ عليهما مثلما يتمُّ التركيزُ على الأنهار، لأنَّ الخوفَ منَ الموتِ جوعاً لم يكن بشدّةِ الخوفِ منَ الموتِ عطشاً. الجنّةُ في الإسلام ترتدي لباسَ الحاجةِ الموجودة؛ لقد ظهرت على شكلِ أنهارٍ وفاكهةٍ لتمنحَ شعوراً بالأمانِ والاطمئنانِ للبدويِّ الذي يخافُ منَ الموتِ جوعاً وعطشاً. الغزوُ، الذي تحدّثتُ عنهُ سابقاً، كانَ يشكّلُ مصدراً رئيسيّاً آخرَ للخوفِ منَ الموتِ والانقراض، لكن في نفسِ الوقت، كانَ الغزوُ هوَ الطريقةَ الوحيدةَ للبقاء؛ لقد حاربت القبائلُ بعضها الآخر في سعيها الحثيثِ وراءَ الماءِ والطّعام، فالبدويُّ لم يذق طعمَ الأمانِ والاستقرارِ للحظةٍ خلالَ حياتهِ كلّها. كتبُ التّاريخ العربيّ مليئةٌ بمشاهدِ الغزوات وكيفَ أنَّ القبائلَ كانت تسعى لإثارةِ خلافاتٍ تبرّرُ من خلالها قيامها بالاعتداءِ على بعضها الآخر، لذا فالغزوُ كانَ مصدرَ كلٍّ منَ الخوفِ والأمان في آنٍ معاً، كلُّ قبيلةٍ كانت تخافُ من أن تُغيرَ عليها قبيلةٌ أخرى وكانت تشعرُ بالأمانِ عندما تواتيها فرصةٌ سانحةٌ للإغارةِ على غيرها منَ القبائل. إنَّ تعرّضكَ للغزوِ يعني زيادةَ الفقرِ والحرمانِ بالنسبةِ للضحيّة، في حينِ أنَّ الغزوَ بالنسبةِ لأولئكَ القائمينَ بهِ يعني مصدراً للغنائمِ والجوائز، ثمَّ جاءَ الإسلامُ وحاولَ شرعنةَ عمليّاتِ الغزوِ والسّلب، مبرراً إيّاهُ لرسولهِ وأتباعه، ومحرّماً إيّاهُ على غيرهم. افتح أيَّ كتابٍ عن النبيِّ محمّد باللّغةِ العربيّة وأوّلُ شيءٍ ستقعُ عليهِ عيناكَ هوَ غزواتُ النبيِّ وسراياه، كلُّ غزوةٍ أو سريّةٍ من سراياه لها اسم، وتمَّ وصفها بشكلٍ مفصّلٍ ودقيق، والقارئُ المدركُ والمطّلع سيفهمُ وبسهولة أنَّ الهدفَ الأساسيَّ من وراءِ هذهِ الغزواتِ كانَ النهبَ واقتسامَ الغنائم. حاولَ الإسلامُ تبريرَ هذهِ

الغزواتِ بالنظرِ إليها على أنّها جهادٌ في سبيلِ الله، ومع ذلك، لم يَخفَ ذلكَ الهدفَ الأساسيَّ منها وهوَ: السَّبيُ والاغتنام، حتّى أنَّ القرآنَ يذكرُ الغنائمَ أكثرَ من مرّة، إنّهُ لا يحرّمها: بل على العكسِ تماماً، إنّهُ يبيحُ للنبيِّ أخذَ خُمسِها _ولكي لا يمتعضَ المسلمونَ من حجمِ حصّتِهِ منها_ يضافُ اسمُ اللهِ إلى جانبِ الرسول، وقد نزلت الآيةُ على النحوِ الآتي: {واعلموا إنّما غنمتم من شيءٍ فأنَّ للهِ خُمُسَهُ وللرّسولِ ولذي القربى واليتامى والمساكينِ وابنِ السبيلِ إن كنتم آمنتم باللهِ وما أنزلنا على عبدنا يومَ الفرقانِ يومَ التقى الجمعانِ واللهُ على كلِّ شيءٍ قدير} [الأنفال: 41] يقولُ القرطبيُّ في سياقِ تفسيرِهِ لهذهِ الآية {واعلموا إنّما غنمتم من شيءٍ}: ((واعلم أنَّ الاتّفاقَ حاصلٌ على أنَّ المرادَ بقولِهِ تعالى «غنمتم من شيءٍ» مالُ الكفّارِ إذا ظَفِرَ بِهِ المسلمونَ على وجهِ الغلبةِ والقهر... فالشيءُ الذي ينالهُ المسلمونَ من عدوّهم بالسَّعيِ وإيجافِ الخيلِ والرِّكاب يسمّى غنيمة... وإنَّ الغنيمةَ لرسولِ اللهِ صلعم، وليست مقسومةً بينَ القائمين... إنَّ ذلكَ للنبيّ يضعها حيثُ يشاء)) لم يكن محمّدٌ يرغبُ بأن يفتحَ أيَّ بابٍ للجدالِ والنقاشِ بينهُ وبينَ أتباعِهِ فيما يتعلّقُ بمسألةِ اقتسامِ الغنائم، واقترحَ أن يتمَّ اقتسامها بخمسةِ طرق، هوَ واللهُ يأخذانِ الخُمسَ لنفسيهما. لو أنَّ محمّداً قد اقترحَ بأنّهُ سيأخذُ الخُمسَ لوحدِهِ لجازفَ بافتعالِ احتجاجٍ واسعٍ ضدَّ قسمته، كيفَ يمكنُ لشخصٍ واحدٍ أن يأخذَ خُمسَ الغنائمِ لنفسه ويتركَ أربعةَ أخماسٍ لأتباعِهِ الذينَ يبلغونَ الآلاف، لكنّهُ عندما قال ((للهِ خُمُسُهُ وللرّسول))، حُلّت المشكلة، ووجدَ الآخرونَ صعوبةً بالغةً في الاعتراضِ على الأمر. إذا كانَ اللهُ الأعلى والأكبر قد وافقَ على مشاركةِ حصّتِهِ منَ الخُمسِ مع النبيّ، فما الدّاعي لعدمِ رضى البقيّةِ _مهما بلغت أعدادهم_ عن باقي الأخماسِ الأربعة؟ مرّةً أخرى، نجدُ أنَّ غريزةَ البقاءِ تلعبُ دوراً حاسماً في تعاليمِ الإسلامِ وقواعده، والتي ظهرت ضمنَ بيئةٍ تسودها ظلالُ المجهولِ حيثُ فرضَ الخوفُ منَ الموتِ جوعاً وعطشاً تهديداً دائماً على سكّانها.

هناكَ قولٌ آخرُ لمحمّد في سياقِ هذا الموضوع: ((من قتلَ قتيلاً فلهُ سلبهُ))؛ ومعنى هذا الحديث هوَ أنَّ المسلمَ عندما يقتلُ غيرَ مسلم، فإنَّ لهُ الحقَّ بأن يستولي على ممتلكاته. لقد سبّبَ هذا الحديثُ جدلاً واسعاً واختلافاً كبيراً في الرأيِ بينَ أوساطِ العلماءِ المسلمين، فقد تساءلَ البعضُ حولَ الكيفيّةِ التي يأخذُ فيها القاتلُ الغنيمةَ في حينِ أنَّ الآيةَ القرآنيّةَ

تأمرُ باقتسامها إلى خمسةِ أجزاء. في محاولةٍ لإيجادِ تسويةٍ بينَ وجهاتِ النظرِ المختلفة، اقترحَ البعضُ أنَّ الغنيمةَ إذا كانت صغيرة، فإنّها كانت تعودُ للقاتل، أمّا إذا كانت كبيرة، أو أنَّ هناكَ الكثيرَ منها، فإنّها كانت تقسمُ إلى خمسةِ أقسام، وهذا إن دلَّ على شيء فإنّهُ يدلُّ على أنَّ الصّراعَ من أجلِ البقاءِ كانَ مُستعراً. هنا في أمريكا، حينَ تُرتَكَبُ جريمة، فأوّلُ شيءٍ يبحثُ عنهُ المحقّقونَ هوَ الدّافعُ وراءَ ارتكابكَ للجريمة، فإن وجدوا أنَّ محفظةَ النقودِ الخاصّةَ بالضحيّةِ ما زالت في ثيابِ الضحيّة، وإذا كانَ كلُّ شيءٍ في منزلهِ حيثُ يجبُ أن يكون، دونَ أن يُمَسَّ شيءٌ أو يُسرَقَ شيء، عندها سيقولُ المحقّقون: ((مبدئيّاً، لم يكن الدافعُ وراءَ الجريمةِ هوَ السّرقة، لابدَّ أنَّ هناكَ دوافعَ أخرى))، لكن عندما يجدونَ نقصاً في ممتلكاته، عندها يتّخذُ المحقّقونَ لأنفسهم منحىً آخر، حيثُ أنَّ الدافعَ وراءَ الجريمةِ يختلفُ هذهِ المرّة، ويصبحُ بإمكانهم الافتراضُ بأنَّ السّرقةَ هيَ الدّافعُ الأساسيُّ وراءَ عمليّةِ القتل. في الوقتِ الذي يبرّرُ فيهِ المسلمونَ غزواتِ نبيّهم عن طريقِ القولِ أنّها كانت في سبيلِ الدفاعِ عن النّفس، لا أعتقدُ أنّهُ بإمكانهم تبريرُ السّرقةِ والغنائمِ التي كانَ يجنيها نبيّهم وأتباعهُ كنتيجةٍ لهذهِ الغزوات. فإذا هاجمكَ أحدٌ ما فجأةً من مكانٍ مظلم وحاولَ قتلك، لكنّكَ تدبّرتَ قتلهُ بدلاً من أن يقتلك، فبإمكانكَ في هذهِ الحالة تبريرُ قتلكَ لهُ كدفاعٍ عن النّفس، لكن إذا قمتَ بسرقةِ محفظةِ نقودهِ وكلِّ ما بحوزتهِ بعدَ أن قتلته، فهل ستكونُ قادراً على تبريرِ ذلكَ بقولك: ((قمتُ بسرقةِ محفظتهِ دفاعاً عن نفسي)) فإذا كنتَ تقولُ الحقيقةَ عندما قلتَ بأنّكَ قتلتهُ دفاعاً عن النّفس، فهل ستكونُ قادراً على قولِ الحقيقةِ عندما تقولُ أنّكَ سرقتَ محفظتهُ ونقودهُ دفاعاً عن النّفس، بعد أن قتلته؟

الغزواتُ التي قامَ بها محمّدٌ خلالَ فترةِ حياته تحتلُّ الجزءَ الأكبرَ من سيرته. وردَ في الجزءِ الثّاني من سيرةِ ابنِ هشامٍ النبويّة أنَّ محمّداً قامَ بسبعٍ وعشرينَ غزوةً خلالَ حياته، مع أنَّ بعضَ المؤرّخينَ المسلمينَ يعتقدونَ أنّها كانت أكثرَ من ذلك. أنا لستُ معنيّةً هنا بالموافقةِ على الأخبارِ والرّواياتِ التّاريخيّةِ لهذهِ الغزوات، لكن أيُّ شخصٍ لديهِ فرصةٌ للقراءةِ عنها منَ البدايةِ وحتّى النهايةِ سيقتنعُ بسهولةٍ أنَّ هناكَ سببينِ فقط لا ثالثَ لهما لهذهِ الغزوات؛ الأوّلُ والأهمُّ هوَ الاغتنامُ والسّبي، أمّا الثّاني فيتبعُ الأوّلَ بالضرورة، وهوَ إلحاقُ الضّررِ والأذى بالقبيلةِ ضحيّةِ هذهِ الغزواتِ هنا.

عندما ينصبُ السّارقُ فخّاً للضحيّة فإنّهُ سيكونُ متأكداً، خلالَ عمليّةِ السّرقة، من ضمانِ أنَّ الضحيّةَ لن تتمكّنَ من مقاومته. إنَّ الخوفَ منَ الموتِ جوعاً وعطشاً كانَ هوَ الدّافعَ الرئيسيَّ وراءَ الغزوات، أمّا إلحاقُ الضّررِ والأذى فكانَ هدفاً آخر، وقد تمَّ القيامُ بذلكَ لضمانِ أن يتمَّ حرمانُ العدوِّ من قدرتِهِ على المقاومةِ والصمود، لقد شرّعَ الإسلامُ هذهِ العمليّة، حلّلها، وبرّرها بمرسومٍ منَ المارِدِ الذي أسّسهُ من أجلِ التغلّبِ على خوفِهِ منَ البيئةِ التي تهدّدُ بقاءهُ ووجودهُ وكيانه. بالنسبةِ إليّ، إنَّ فهماً أعمقَ لحقيقةِ فكرِ المسلمينَ وسلوكهم واستيعابها لا يمكنُ إلّا من خلالِ تحقيقٍ فهمٍ عميقٍ لفلسفةِ الغزوِ هذه، والتي تجذّرت عميقاً في عقلِ المسلم. كانَ البدوُ يخافونَ منَ الغزوِ من جهة، واعتمدوا عليهِ كوسيلةٍ للبقاءِ من جهةٍ أخرى، ثمَّ جاءَ الإسلامُ وشرّعهُ، وما زالَ المسلمونَ وهم في القرنِ الحادي والعشرين يخافونَ من غزوِ الآخرينَ لهم ويعيشونَ كلَّ لحظةٍ من حياتهم وهم يستعدّونَ لغزوِ أحدٍ آخر، إنَّ فلسفةَ الغزوِ تحكمُ حياتهم وتسيطرُ على سلوكهم، علاقاتهم، وقراراتهم.

عندما هاجرتُ إلى أمريكا اكتشفتُ على الفورِ أنَّ السكّانَ المحليّينَ لم يكونوا مهرةً في الغزو، بينما المسلمونَ المغتربون لم يتخلّوا عن عاداتهم القديمة، بعدَ أن مضى على بقائي في الولاياتِ المتّحدةِ عدّةُ أسابيعَ فقط، اصطحبتني جارتي العربيّةُ إلى السوبرِ ماركت سعياً منها لتعريفي على المنطقةِ التي سكنت فيها. ذهبنا إلى سوقِ فونز، وما أن أصبحنا هناك حتّى بدأت جارتي بفتحِ كلِّ علبةٍ أو كيس، ثمَّ بدأت بعملِ ثقوبٍ في أغطيةِ الحليبِ الكرتونيّة، الجيل، والكريما، ثمَّ ثقبت عدداً منَ أكياسِ رقائقِ البطاطس ورُزَمِ المناديلِ الورقيّة، وعلبِ السباغيتي. صرختُ فيها مستنكرةً ما تقومُ به: ((دينا، ما الذي تفعلينه؟))((لعنةُ اللهِ عليهم، لقد سرقوا أرضنا!))((وهل تقومينَ بذلكَ كمحاولةٍ لاسترجاعها؟))((أنا أريدُ أن أؤذيهم! ما زلتِ جديدةً هنا، ألا تعلمينَ أنَّ مالكَ المتجرِ يهوديّ؟)) حدثَ ذلكَ منذُ أكثرَ من خمسةَ عشرَ عاماً عندما كنتُ ما أزالُ وافدةً جديدةً إلى هذا البلد، لكنّني اليومَ مقتنعةٌ تماماً وأكثرَ من قبل، أنَّ الزّمنَ لا يستطيعُ تغييرَ هذهِ العقليّة، وأنّهُ كلّما كانَ المسلمُ أكثرَ عجزاً عن التكيّفِ مع بيئتِهِ، كانَ يشعرُ بحاجةٍ أكبرَ للخروجِ إلى الغزو، إنّهُ مقتنعٌ بأنّهُ قد جاءَ إلى هذا البلدِ لنهبِهِ وتخريبِهِ وهدمه.

تقدّمُ بلديّةُ القريةِ التي نسكنُ فيها لكلِّ منزل ثلاثةَ أوعيةٍ للقمامة: واحدةٌ منها من أجلِ القمامةِ غيرِ القابلةِ للتكرير، وأخرى للزُّجاجِ والورقِ والمخلّفاتِ المعدنيّةِ القابلةِ للتكرير، والثّالثةُ لمخلّفاتِ الحدائق، وقد دُعِيتُ في إحدى الأيّامِ إلى حفلةِ غداءٍ في منزلِ صديقةٍ مسلمة، وعندما انتهت الحفلةُ بدأنا بتنظيفِ الطاولةِ وبدأت هيَ بجمعِ المخلّفاتِ ورميها في سلّةِ القمامة. سألتها وأنا متفاجئة: ((ألا توزّعينَ القمامةَ كلٌّ منها في سلّتها الخاصّة؟!)) أجابتني بعصبيّة: ((لعنهم الله! هل تتوقّعينَ منّي مساعدتهم في الحفاظِ على بيئتهم، هل تعرفينَ ما الذي فعلوهُ خلالَ حربيّ الخليجِ الأولى والثّانية؟ لقد سمّموا بيئةَ بلدي ولوّثوها بمخلّفاتهم. هل سمعتِ بالعاهراتِ الإسرائيليّاتِ الحاملاتِ لفيروسِ الإيدز اللواتي يُرسلنَ إلى مصرَ والأردن لنشرِ المرضِ هناك؟)) وفي محاولةٍ منّي لإغلاقِ هذهِ الأسطوانةِ المشروخةِ التي تعبتُ من سماعها، قلتُ لها: ((نعم، سمعت)) صديقتي تعرفُ أنّها ستعيشُ حياتها كلّها في هذا البلد، هيَ تعرفُ أنّهُ سيكونُ موطنَ أولادها وأحفادها وأحفادِ أحفادها، ومع ذلك يبدو أنّها لا تهتمُّ ولا تبالي ولو قليلاً بوضعِ بيئةِ موطنهم الجديد، فهيَ لم تأتِ إلى هنا إلّا لتخريبِ هذا البلد وإلحاقِ الأذى والضّررِ بأعدائها. إنَّ فكرةَ أو فلسفةَ الغزوِ تجذّرت عميقاً داخلَ عقلها وكانت عاملاً مساعداً في هجرتها إلى هذا البلد.

إنّها تعدُّ الرفاهيةَ والرّخاءَ اللّذينِ تعيشهما في هذا البلد، بمثابةِ غنيمةٍ حصلت عليها، أمّا بالنسبةِ لي، فهي ليست أكثرَ من مجرّدِ مسلمةٍ أخرى تحاولُ إلحاقَ الأذى بالآخرين. المسلمونَ يلبسونَ غزواً، يأكلونَ غزواً، يتحدّثونَ غزواً، ويقودونَ سيّاراتهم كالغزاة، ولرؤيةِ حقيقةِ ما أقولهُ على أرضِ الواقع ما عليكَ سوى ملاحظةِ مسلمٍ يخطبُ على المنبرِ بعدَ صلاةِ الجمعة في أيِّ مسجدٍ بأيِّ مكانٍ منَ العالم، لا تحتاجُ لأن تفهمَ اللغةَ التي يخطبُ بها: ما عليكَ سوى أن تنصتَ لصراخهِ وتراقبَ إشاراتهُ وحركاتهُ لتصبحَ مطّلعاً على فنِّ الغزو. لقد وُلِدتُ ونشأتُ في بلدةٍ صغيرةٍ كانت تتضمّنُ أربعةَ مساجد _ مسجدٌ في كلِّ ربعٍ منها_ حيثُ كانت الصّلواتُ العامّةُ تقامُ أيّامَ الجمعة. خلالَ يومِ الجمعة كانت تتوقّفُ جميعُ النشاطاتِ في البلدة. كانَ الرِّجالُ ينسحبونَ إلى المساجد، في حينِ أنَّ النساءَ كُنَّ يبقينَ في المنازلِ مع أطفالهنَّ ويتنصّتنَ على الطقوسِ من شرفاتِ المنازلِ ونوافذها، لم

يكن هناكَ أيُّ انسجامٍ أو وفاقٍ بينَ أصواتِ المآذنِ في المساجد. كلُّ إمامِ جامعٍ كانَ يؤذِّنُ بشكلٍ مزعجٍ، وكانت أصواتُ المآذنِ تصيبنا بالصّمم. كانَ منزلنا على مقربةٍ من أحدِ المساجد، قريبٌ جدّاً لدرجةِ أنّكَ كنتَ تشعرُ أنَّ المأذنةَ كانت معكَ في غرفةِ النّوم. كانت عائلتنا _ مثلَ الكثيرِ منَ العوائلِ الأخرى غيرنا _ عليها أن تتأقلمَ مع هذا التلوّثِ الصّوتيِّ المزعج. عندما أنظرُ إلى الوراءِ وأتذكّرُ تلكَ الأيّام، أعرفُ أنّي بدأتُ _ في سنٍّ مبكرةٍ جدّاً _ أرفضُ أن أسمحَ لأيِّ إنسانٍ أن يغزو عالمي ويتطفّلَ عليهِ من دونِ موافقتي. كانَ صوتُ المؤذّنِ يقتحمُ غرفةَ نومي في السّاعةِ الخامسةِ صباحاً وكنتُ أناضل _ حتّى وأنا في هذهِ السّنِّ المبكرة _ كيفَ ينبغي عليَّ أن أردّ، ما هوَ سببُ هياجي من هذا الغزوِ الصّباحيِّ المزعج؟

الإسلام قارورةٌ محكمةُ الإغلاق

د. وفاء سلطان

هذا هوَ الفصلُ التّاسعُ من كتابِ الدكتورة وفاء سلطان ((الإلهُ الذي يكره)) نرجو أن تستمتعوا بقراءته الإسلامُ قارورةٌ محكمةُ الإغلاق، وسُدادَتهُ لا تسمحُ بمرورِ الهواءِ للتهوية، ومن أجلِ حمايةِ نفسهِ وصيانةِ بقائهِ واستمراريّته، عَمِلَ نظامهُ الإيديولوجيُّ على سجنِ أتباعهِ داخلَ قبضةٍ حديديّة، وخلقَ علاقةً استبداديّةً-قمعيّةً بينَ الفردِ والمجتمع، فالفردُ لا يمتلكُ أيَّ نوعٍ منَ الحرّيّاتِ داخلَ المجتمع، ولا خصوصيّة، بل عليهِ الخضوعُ لمجتمعه، وبذلكَ فقد حُرِمَ من قدرتهِ على التعبيرِ عن رأيه، وخصوصاً عندما يكونُ رأيهُ مخالفاً للرأيِ السّائدِ في المجتمع. لقد حرمَ الإسلامُ أتباعهُ من أبسطِ أشكالِ الحرّيّة _حرّيّةِ التعبيرِ عن الذّات- وقتلَ فيهم الرّغبةَ بالتمتّعِ بهذهِ الحرّيّة، ومن أجلِ ضمانِ استمرارِ سيطرتهِ على أفرادِ المجتمع، فقد تدخّلَ في مختلفِ جوانبِ حياتهم وتفاصيلها، كبيرها وصغيرها، ونظّمها لهم بشكلٍ دقيقٍ ومحدّد. لقد نظّمَ للفردِ كلَّ نشاطاتهِ وكلَّ لحظاتِ حياته _لدرجةِ أنّهُ فرضَ عليهِ أن يضعَ رجلهُ اليسرى قبلَ اليمنى عندما يريدُ دخولَ المرحاض، [وهناكَ عادةٌ إسلاميّةٌ شائعة وهيَ أن تدخلَ أيَّ غرفةٍ برجلِ اليمين، باستثناءِ المرحاض فإنّكَ تدخلهُ برجلكَ اليسرى لأنّهُ يعتبرُ مكاناً دنساً وقذراً] إنَّ العلاقاتِ بينَ الأفرادِ داخلَ هذا المجتمع يتمُّ تنظيمها بهذا الشّكلِ لجعلِ كلِّ فردٍ فيهِ عبداً وسيّداً في نفسِ الوقت، فنرى الفردَ يتصرّفُ خلالَ علاقتهِ مع الأفرادِ الأضعفِ منهُ كسيّد، وعندما يكونُ الآخرُ هوَ الأقوى نراهُ وقد انقلبَ عبداً ذليلاً. إنَّ طبيعةَ العلاقةِ بينَ اللهِ والإنسانِ في الإسلام لا تختلفُ كثيراً عن العلاقةِ بينَ الحاكم وشعبه، بينَ الرّجلِ وزوجته، بينَ الأبِ وابنه، وبينَ السيّدِ والمسود. إنّها علاقةٌ تعسّفيّةٌ لا تسمحُ بتجاوزِ أيِّ حدٍّ منَ الحدودِ التي فرضتها السُّلطةُ العليا: المرأةُ ملكٌ للرّجل، الطفلُ ملكُ أبيه، العبدُ ملكُ سيّده، والعاملُ ملكُ مديرهِ ورئيسهِ في العمل... وجميعُ هؤلاءِ ملكُ الحاكم، الذي يحكمُ ويأمرُ بسلطةِ إلهيّة. طالما أنَّ العبدَ يستمرُّ في الاعترافِ بحقوقِ سيّدهِ ويرفضُ انتهاكَ حرمتها، فإنَّ

نظامَ التدرّجِ الاجتماعيِّ الاستبداديّ سيبقى قائماً وسيستمرُّ في وجودِهِ. جميعُ المؤسّساتِ الاجتماعيّةِ في المجتمعِ الإسلاميّ قائمةٌ على أساسِ العلاقاتِ التملّكيّةِ القمعيّةِ-الاستبداديّة. لقد كانَ المجتمعُ الإسلاميُّ مجتمعاً عبوديّاً منذُ نشأتِهِ الأولى، وبقيَ كذلكَ على حالِهِ حتّى يومنا هذا. لا يحتاجُ أيُّ ناشطٍ في مجالِ حقوقِ الإنسان سوى أن يُمضي فترةً زمنيّةً قصيرةً في أيِّ مجتمعٍ إسلاميٍّ ليقتنعَ بحقيقةِ ما أقوله، وإن قامَ بذلكَ فعلاً، فإنّهُ سيختبرُ بشكلٍ كاملٍ طبيعةَ العلاقاتِ التي تصنعُ نسيجَ ذلكَ المجتمع، وعندما نقارنُ علاقاتِ النّاسِ ببعضها ضمنَ المجتمعِ الإسلاميّ ـ وحتّى علاقةَ أيِّ فردٍ بفردٍ آخر ـ ستجدُ فيها السيّدَ والعبد.

ملاحظةٌ بسيطة ستمكّنكَ من ملاحظةِ ما الذي يحدثُ بالفعلِ بينَ الطرفين... يتبع....

إنَّ العقلَ البشريَّ مبرمجٌ على الشّعورِ بالدونيّةِ أو التفوّق، حسبَ حالةِ ووضعِ كلِّ إنسان، فعندما يلتقي شخصان، فإنَّ كلَّ طرفٍ منهما يدركُ بطريقةٍ لاشعوريّةٍ أيّهما الأقوى وأيّهما الأضعف، فالطَّرفُ الأضعفُ يرمي بكلِّ أوراقه، في حينِ أنَّ الطَّرفَ الأقوى يفرضُ سيطرتهُ ويبدأُ بفرضِ شروطِهِ. في المجتمعِ الإسلاميِّ لا نجدُ سوى القليلِ منَ العلاقاتِ التي تقومُ على الاحترامِ المتبادل، وخصوصاً على مستوى علاقاتِ الصَّداقةِ الشخصيّة، فكلُّ طرفٍ مدركٌ بشكلٍ جيّد نقاطَ ضعفِ الآخرِ ونقاطَ قوّته، عندما يلتقي إنسانانِ فإنَّ كلَّ واحدٍ منهما يدركُ من خلالِ عمليّةٍ حسابيّةٍ بسيطة أيّهما الأقوى، وكلُّ واحدٍ منهما سيميلُ إلى لعبِ دورِهِ الذي يبرعُ فيه، إمّا السيّد أو المَسود. حتّى أنّي لاحظتُ ذلكَ عندما راقبتُ سلوكَ النّاسِ وتصرّفهم في اللقاءاتِ الاجتماعيّة؛ فلانٌ التقى بفلان وفلانٌ التقى بفلان، كلُّ واحدٍ منهم يدركُ خلالَ اللحظاتِ الأولى منَ اللقاء نمطَ الشّخصِ الآخرِ وطبيعته، عائلته، صحّته وحالتِهِ النفسيّةِ والمادّيّة، بالإضافةِ إلى الطّائفةِ أو المذهبِ الذي ينتمي إليه. هذا اللقاءُ المبدئيُّ هوَ الذي يحدّدُ الطريقةَ التي سيتصرّفُ فيها أحدهما تجاهَ الآخر، ومهما كانَ الفارقُ والاختلافُ ضئيلاً بينَ الطَّرفين، فسيسودُ أحدهما في حينِ سيخضعُ الآخر، ومن دونِ إجراءاتٍ وسطيّة، وقد يكونُ الشّخصُ سيّداً في علاقة، وعبداً أو تابعاً في علاقةٍ أخرى. إنَّ قوّةَ الطَّرفِ الآخرِ في العلاقة هيَ التي تحدّدُ أيَّ الدورينِ سيلعب. كانَ أحدُ أقاربي يعملُ مساعداً لأحدِ الضُّبّاطِ الكبارِ في جهازِ

الاستخباراتِ السُّوريّة، وعندما ذهبتُ لأزورهُ في مكتبهِ كنتُ قادرةً على ملاحظةِ سلوكهِ مباشرةً، وخلالَ فترةٍ زمنيّةٍ قصيرة لا تتجاوزُ عدّةَ دقائق وجدتهُ يلعبُ دورَ القائدِ الأعلى أو السيِّدِ تارةً، والعبدِ أو التّابعِ الذليلِ تارةً أخرى، فعندما رنَّ هاتفهُ وعرفَ أنَّ الضّابطَ الأعلى منهُ رتبةً هوَ الذي كانَ يحدّثهُ على الهاتف، وقفَ باستعدادٍ وأشارَ إلى الأشخاصِ الموجودينَ في الغرفةِ بالسُّكوتِ والتزامِ الصّمت. بدأ العرقُ يتصبّبُ من جبينهِ وهوَ يقول: ((حاضر سيّدي، طلباتكَ أوامر... أنتَ تأمر ونحنُ ننفّذ... سأرسلُ أوامركَ وأعلمكَ بالمستجدّاتِ على الفور))، وعندما أغلقَ السمّاعةَ التفتَ إلى العنصرِ الواقفِ بالقربِ من بابِ مكتبهِ وصرخَ فيهِ قائلاً: ((اسمع يا بنَ القحبة، سأرسلكَ في مهمّةٍ عاجلة، وستسلّمُ الأوامر... وإن لم تفعل، سيكونُ يومكَ أسوداً!))، أجابَ العنصر: ((حاضر سيّدي... طلباتكَ أوامر!))، وفي الوقتِ الذي يتصوّرُ فيهِ أحدنا أنَّ هذهِ الحادثةَ قد تحدثُ داخلَ أيِّ مبنىً للاستخباراتِ في العالم، فهيَ في حقيقةِ الأمرِ تمثّلُ واقعَ الحالِ في المجتمعاتِ الإسلاميّة، فأيُّ إنسانٍ يطّلعُ على التّاريخِ الإسلاميِّ والمتعلّقِ بتاريخِ العرب سيدركُ طبيعةَ العلاقةِ القمعيّةِ الاستبداديّةِ بينَ أيِّ طرفينِ في ذلكَ المجتمع.

خلالَ الأشهرِ التي أعقبت احتلالَ الجيشِ الأمريكيِّ للعراق كنتُ أتابعُ الأخبارَ والتقاريرَ الإخباريّةَ والصّحفيّةَ عبرَ كلٍّ منَ الصّحافتينِ العربيّةِ والأمريكيّة، وفي إحدى التقاريرِ حولَ الوضعِ في العراق قرأتُ مقالةً في صحيفةِ اللوس أنجلوس تايمز أُوردَت فيها مقابلةٌ مع أحدِ الجنودِ الأمريكيّين حيثُ قال: ((أنا لا أفهمُ هؤلاءِ العراقيّينَ على الإطلاق، كانَ النّاسُ يأتونَ لملأ طلباتِ العمل، وكنتُ أفعلُ ما بوسعي لمساعدتهم على الوقوفِ في الدور، لكنّهم كانوا يخالفونَ وينتهكونَ الدورَ في كلِّ مرّة، ويبدؤونَ بالتدافعِ والفوضى واللامبالاةِ بالتعليماتِ والأوامر، لكن عندما كانَ يقتربُ جنديٌّ عراقيٌّ ويضربهم بعصاه، كانوا يقفونَ بالدورِ بشكلٍ مناسب، لا أفهمُ حقّاً الطريقةَ التي يفكّرونَ بها! اللّغةُ الوحيدةُ التي يفهمونها على الأرجح هيَ لغةُ القوّةِ والعصا!)) نعم بالتأكيد، فكلُّ تفاعلٍ بحاجةٍ إلى طرفٍ قويٍّ وآخرَ ضعيف لتنظيمِ العلاقة. عندما تتحدّثُ بهدوءٍ إلى مسلم، فإنّهُ يستجيبُ لكَ بوصفكَ شخصاً ضعيفاً. إنَّ القولَ الأمريكيَّ المأثور ((تكلّم بلطف... واحمل عصاً غليظة)) للأسفِ لا فائدةَ تُرجى منهُ عندَ التعاملِ مع المسلمين،

وسيكونُ منَ الأنسبِ القولُ _حتى نتمكّنَ من تغييرِ هذا النمطِ منَ التفكيرِ_ ((تكلّم بغلظة... واحمل عصاً غليظة))، وإلّا فإنّكَ ستكونُ الطرفَ الأضعفَ والخاسرَ الوحيد. لا يمكنُ للديمقراطيّةِ أن تنتشرَ في مجتمعاتٍ كهذه، حتّى يُعادَ تأهيلُ وتثقيفُ النّاسِ الذين يحيونَ وفقها، حيثُ أنّهم لن يكونوا ذوي فائدةٍ أو فعّاليّةٍ إلّا إذا كانوا يلعبونَ دورَ السيّدِ أو العبد. إنَّ البشرَ في هذهِ المجتمعات، الذينَ هم مستعدّونَ دوماً لافتراضِ أحدِ الأدوارِ أو الآخر، يجبُ أن يتعلّموا كيفَ يكونونَ فعّالِينَ كبشرٍ ودونَ استعبادِ أيِّ أحدٍ غيرهم، عليهم أن يتعلّموا أنَّ كلَّ طرفٍ يجبُ أن يحترمَ الطَّرفَ الآخر لكي تنشأ بينهما علاقةٌ مستقرّةٌ وراسخة، وعلى كلِّ فردٍ أن يعترفَ بحقوقِ الآخرِ ومسؤوليّاته، ويكفَّ عن انتهاكِ حقوقِ ذلكَ الآخر، وألّا يحاولَ التملّصَ منَ المسؤوليّاتِ والواجباتِ المتبادلة. ولكي يتمكّنَ محمّدٌ من فرضِ سيطرتِهِ وتعزيزِ سلطتِهِ زرعَ الشّكَّ والقلقَ في قلوبِ أتباعِهِ عن طريقِ الرَّبطِ بينَ طاعةِ اللهِ وطاعتِهِ هوَ، ثمَّ أضافَ طرفاً ثالثاً لهذا «الثنائيِّ المقدّس» الذي تمثّلَ في الحاكمِ الذي يتمُّ السّيطرةُ على القطيعِ البشريِّ من خلاله.

فَهِمَ محمّدٌ أنَّ الحاكمَ كانَ هوَ الرَّابطَ بينهُ وبينَ الشّعب، لذلكَ ركّزَ على ضرورةِ إطاعةِ الحاكمِ طاعةً عمياء من خلالِ حديثِه ((من أطاعني فقد أطاعَ الله، ومن عصاني فقد عصا الله... ومن أطاعَ أميري فقد أطاعني، ومن عصا أميري فقد عصاني))، وللتأكيدِ على ذلك، أنزلَ آيةً من قمّةِ الجبلِ جاءَ فيها {وأطيعوا اللهَ وأطيعوا الرسولَ وأولي الأمرِ منكم} [النّساء: 59]، و«أولي الأمر منكم» تعني حسبَ جميعِ التفاسيرِ والمصادرِ الإسلاميّةِ ((حكّامكم)).

ومن أجلِ ضمانِ طاعةِ المسلمينَ لحكّامهم طاعةً عمياءَ ودونَ تردّدٍ أو مُساءَلة، اخبرهم محمّدٌ في حديثِهِ ((أطيعوا وليَّ الأمرِ وإن جلدكم أو أخذ مالكم)) مخافةَ أن يثورَ بعضُ المسلمينَ ضدَّ الحكمِ المطلق، فقد برّرها بالقولِ في حديثٍ آخر ((سيليكم بعدُ ولاة، فيليكم البرُّ ببرّه والفاجرُ بفجوره، فاسمعوا لهم وأطيعوا في كلِّ ما وافقَ الحقَّ وصلّوا ورائهم، فإن أحسنوا فلكم ولهم، وإن أساؤوا فلكم وعليهم))، وفي حديثٍ آخر ((إذا حكمَ الحاكمُ ثمَّ اجتهدَ ثمَّ أصابَ فلهُ أجران، وإن حكمَ فاجتهدَ ثمَّ أخطأَ فلهُ أجر)).

كانَ محمّدٌ يحاولُ إقناعَ المسلمينَ بأنَّ الحاكمَ قد أمضى وقتاً في التشاورِ والتداول، ولم

يتوصّل إلى اتّخاذِ رأيهِ إلّا بعدَ تفكيرٍ عميقٍ ومتعقّل. قد يكونُ رأيهُ صحيحاً أو خاطئاً، لكنَّ اللهَ _ سواءً أكانَ رأيهُ صائباً أو خاطئاً _ سيكافئه، لأنّهُ اجتهدَ وتوصّلَ إلى رأيهِ استناداً على قناعةٍ راسخةٍ بأنّهُ يصبُّ في مصلحةِ المسلمين، وعندما يكونُ رأيهُ صائباً، فإنَّ اللهَ يكافئهُ بشكلٍ منصف، وعندما يخطئ، فإنّهُ يكافئهُ مرّةً واحدةً فقط. عندما قصفَ صدّام حسين الأكرادَ في شمالِ العراق بالقنابلِ الكيماويّةِ وأبادَ الشّيعةَ في الجنوب، فإنّهُ بذلكَ لم يرتكب جريمةً حسبَ عرفِ المسلمينَ وشريعتهم الدينيّة. فوفقَ الشّريعةِ الإسلاميّة، فإنّهُ _ بصفتهِ حاكماً _ قد أخطأ بقرارهِ عندما حرقَ البشرَ وأبادهم، وعقوبتهُ الوحيدةُ التي يستحقّها في ظلِّ الشّريعةِ المحمّديّةِ السّمحاء هيَ أنَّ اللهَ سيكافئهُ مرّةً واحدة. من ذا الذي سيعرفُ إذا ما كانَ قرارهُ خاطئاً أو مصيباً؟ ربّما كانَ قرارهُ يصبُّ في مصلحةِ الإسلام والمسلمين. لم يسبق في تاريخِ الإسلامِ أن قامَ رجلُ دينٍ مسلمٌ أو مُلاّ باستنكارِ جرائمِ الحاكمِ والاحتجاجِ أو الاعتراضِ على ممارساته، وذلكَ انطلاقاً من إيمانهِ الكلّيِّ بأنَّ طاعةَ الحاكمِ هيَ في المقابلِ طاعةٌ للهِ والرّسول، وقد يكونُ هناكَ استثناءٌ واحدٌ على الأقل: وهوَ أن يحتجَّ رجلُ دينٍ من طائفةٍ معيّنةٍ على أعمالِ وجرائمِ حاكمٍ ينتمي لطائفةٍ أخرى مختلفة. كيفَ يستطيعُ المسلمُ الإفلاتَ من قبضةِ هذا الحاكمِ عندما يكونُ مقتنعاً تماماً بضرورةِ إطاعته، كيفَ يمكنُ الاحتجاجُ على هذهِ الطّاعة، التي تمثّلُ طاعةَ اللهِ ورسوله؟... إنّهُ لا يستطيع... فالإسلامُ ببساطةٍ شديدة نظامٌ استبداديٌّ شموليّ، وكانَ كذلكَ منذُ نشأتهِ الأولى، وظلَّ كذلكَ حتّى يومنا هذا. هل هناكَ علاقةٌ تجسّدُ أبشعَ أشكالِ الاستعبادِ والرِّقِّ أكثرَ منَ العلاقةِ التي تربطُ بينَ الحاكمِ والمحكومينَ الذينَ تُجلَدُ ظهورهم بالسّياطِ وتُسرَقُ أموالهم، في حينِ أنّهم لا يملكونَ أدنى حقٍّ في الاعتراضِ أو الاحتجاجِ على هذا السلوك؟ إنَّ الحاكمَ يتصرّفُ وفقَ تفويضٍ إلهيّ. الولاياتُ المتّحدة لم تخلق دكتاتوريّاتٍ في العالمِ الإسلاميّ، لاشكَّ أنّها قد ساندت ودعمت بعضَ الأنظمةِ الاستبداديّةِ الإسلامويّة كنظامِ صدّام حسين، لكنّها لم تضعهُ أو تخلقه. لقد نشأ صدّام حسين في رحمِ الثّقافةِ الإسلاميّة، لقد نشأ بينَ أناسٍ مسلمين، هم الذينَ يخلقونَ رؤساؤهم وزعماؤهم حسبَ الشّريعةِ الإسلاميّةِ وحسبَ معاييرِ القائدِ الذي يحتاجونَ إليه. لا يمكنُ لأيِّ حاكمٍ في العالمِ أن يقمعَ شعبهُ إلّا إذا كانَ ذلكَ الشّعبُ مهيّأً ثقافيّاً، وتربويّاً، وعقليّاً، وسيكولوجيّاً

ليُقمَعَ ويُسْتَبَدَ بهِ. يبدأُ القمعُ في البيتِ المسلمِ في اللحظةِ التي يرى فيها الطفلُ النّور، وتستمرُّ عمليّةُ الاستيعابِ الثّقافيِّ خلالَ جميعِ مراحلِ حياتهِ حتّى يجدَ نفسهُ في مواجهةِ مع حاكمه، وعندئذٍ سيبدو مغموراً ونكرةً لدرجةِ العجزِ والشللِ التامّين.

الأولادُ في الإسلام هم مجرّدُ ملكيّةٍ، وليسوا مسؤوليّة، فالإسلامُ يحدّدُ العلاقةَ بينَ الطفلِ ووالديه، ويؤكّدُ على وجوبِ طاعتهما طاعةً عمياء. إنَّ علاقةَ الولدِ بأبيهِ تنعكسُ على علاقتهِ بكافّةِ البالغينَ من حوله، فهوَ يأخذُ علاقتهُ معهُ من بيتهِ إلى الشّارع، إلى المسجد، إلى مدرستهِ، وإلى جميعِ المؤسّساتِ في مجتمعهِ ويستخدمها لبناءِ علاقاتٍ مماثلة، حيثُ يعتبرُ نفسهُ ملزماً بإطاعةِ أيِّ شخصٍ أكبرَ منهُ في العمرِ أو أعلى منهُ مكانةً. الولدُ تراهُ قد أصبحَ عبداً لأستاذهِ، لجارهِ، ولأقربائه _وعندما يكبرُ نراهُ قد أصبحَ عبداً لرئيسهِ وكلِّ شخصيّةٍ ذاتِ سلطةٍ أعلى منهُ في محيطه. نراهُ يتقبّلُ عبوديّتهُ بشكلٍ واعٍ وغيرِ واعٍ، فهيَ تمثّلُ طاعتهُ للهِ ولرسولهِ ولأولياءِ أمره. الطفلُ يغادرُ البيتَ ويذهبُ للمدرسةِ مقموعاً ومحروماً من قدرتهِ على الاعتراضِ والاحتجاج، أن يقولَ «كلاّ»، إنّهُ يسمعُ في المدرسةِ ما كانَ يسمعهُ في المنزلِ بشكلٍ يوميّ: أنَّ اللهَ قد فوّضَ والديهِ وأولي الأمرِ ذوي السُّلطةِ عليه، ويجبُ عليهِ طاعتهم، وأن يتصرّفَ كما تعلّمَ أن يتصرّفَ في المنزل. كلُّ شيءٍ تعلّمهُ كانَ قد انغرسَ فيهِ بطريقةٍ عميقةٍ تمنعهُ من طرحِ أيِّ سؤالٍ يتضمّنُ تشكيكاً أو تهديداً لسلطةِ أولياءِ الأمرِ وشرعيّتها مهما كانَ ضئيلاً. الإسلامُ يهتمُّ كثيراً بمسؤوليّةِ الآباءِ عن سلوكِ أبنائهم، فقط عندما يتعلّقُ الأمرُ بالالتزاماتِ والواجباتِ الدينيّة، يقولُ محمّد في حديثٍ لهُ: ((مروا أولادكم بالصّلاةِ وهم أبناءُ سبعِ سنين واضربوهم عليها وهم أبناءُ عشرٍ وفرّقوا بينهم في المضاجع)).

نلاحظُ هنا إذن، مرّةً أخرى، العلاقةَ القمعيّةَ-الاستبداديّةَ تُظهرُ نفسها بينَ الإنسانِ واللهِ، حتّى إذا لم يُصَلِّ الإنسانُ للهِ رغبةً وطواعية، فإنّهُ سيُجبَرُ على ذلكَ رغماً عنه! كانَ لديَّ صديقٌ إيرانيٌّ يعيشُ في الولاياتِ المتّحدة، كانَ يعاني اكتئاباً حادّاً ومجموعةً منَ المشاكلِ النفسيّةِ التي يصعبُ ويطولُ علاجها، وفي إحدى المرّاتِ فاتحني بهذهِ المسائلِ وأخبرني: (((طفولتي تطاردني كالكابوس، عندما كنتُ ما أزالُ صبيّاً صغيراً في سنِّ السّابعة، كانَ يوقظني أبي من نومي في السّاعةِ الخامسةِ صباحاً لأداءِ صلاةِ الفجر، لم يكن

لدينا حمّامٌ آنذاك، وكانَ يجبرني على الذّهابِ معهُ إلى الخارجِ عندما تكونُ درجةُ الحرارةِ ما دونَ الصّفر للتوضّؤِ بماءِ بئرٍ قريبةٍ من منزلنا. أتذكّرُ في إحدى المرّاتِ بأنّي أنزلتُ يديَّ في دلوِ الماءِ الذي سحبتهُ منَ البئرِ المتجمّدةِ تقريباً، ثمّ هرعتُ إلى المنزلِ محاولاً إقناعَ والدي بأنّي قد اغتسلتُ وتوضّأت، لكنّهُ كانَ يراقبني منَ النّافذة. سحبَ حزامهُ الجلديَّ وضربني بهِ بلا رحمة، حتّى أمي كانت تبكي مُشيحةً ناظريها بعيداً عنّي، لأنّي كنتُ أصرخُ وأبكي بشدّةٍ منَ الألم)) تابعَ صديقي الإيرانيُّ قائلاً: ((أنا أكرهُ «الله» أكثرَ ممّا أكرهُ والدي، فأنا ووالدي ضحيّتانِ من ضحايا ذلكَ الإلهِ الذي يسمّونهُ «الله»)) صدّام حسين كانَ ضحيّةً لذلكَ الإلهِ أيضاً. هل كانَ لدى صدّام حسين أدنى شكٍّ بأنّهُ ظلُّ اللهِ ووكيلهُ وممثّلهُ هوَ ونبيّهُ على الأرض، ألم يكن على قناعةٍ راسخةٍ بأنَّ الأكرادَ والشّيعةَ يجبُ ذبحهم وإبادتهم لأنّهم لم يطيعوه، مع أنَّ اللهَ قد امرهم بطاعةِ وليّهم وحاكمهم، لماذا علينا محاكمةُ صدّام حسين قبلَ محاكمةِ ذلكَ الإله، لماذا يجبُ أن يعاني صدّامُ في السّجنِ في حينِ أنَّ ذلكَ الإلهَ يتمتّعُ بالحرّيّةِ وهوَ جالسٌ على عرشهِ على قمّةِ جبلِ القريةِ منتظراً الانقضاضَ على ضحيّتهِ التّالية؟ لقد اتّهمَ المسلمونَ الولاياتِ المتّحدةَ بأنّها هيَ التي تدعمُ الأنظمةَ الدكتاتوريّةَ في بلدانهم، ولم تسقط التّهمةُ عنها عندما أسقطت حكمَ صدّام حسين، إذ أنَّ أهدافَ سقوطِ هذا النظام لم تتحقّق، وبقيَ الشّعبُ العراقيُّ يرزحُ تحتَ ثقلِ هذا الكابوسِ الذي يُسمّى «الله»، الذي أمرهم بإطاعةِ حكّامهم طاعةً عمياء.

مخالفاتُ محمّد للقرآن

إبراهيم جركس

محمّدٌ كانَ أوّلَ مَن خالفَ القرآن:

الملاحظُ أنَّ جهاديّي اليوم (الإرهابيّونَ الانتحاريّون) يقتلونَ العديدَ منَ الأبرياءِ_منَ المسلمينَ وغيرِ المسلمين_ في جميعِ أرجاءِ العالمِ الإسلاميِّ بحجّةِ أنّهم يريدونَ إقامةَ شرعِ اللهِ وتأسيسَ دولةِ الخلافةِ الإسلاميّة. لكنَّ إقامةَ شرعِ اللهِ يعني فرضَ وتطبيقَ الشّرائعِ والأوامرِ والنواهي المذكورةِ في القرآن، كتابُ اللهِ المفترض، بالإضافةِ إلى غيرِهِ منَ الكتبِ الإسلاميّة، ككتبِ السُنّةِ والأحاديث. هؤلاءِ الجنودُ المتشدّدونَ لله يؤمنونَ بشدّةٍ بأنَّ القرآنَ هوَ كلامُ اللهِ النهائيُّ والمعصومُ والمنزلُ على نبيّهِ محمّد، ولا يمكنُ لهذا الأخيرِ أن ينتهكهُ أو يخالفَ أيَّ أمرٍ من أوامرِهِ ونواهيه، لكن كلُّ ذلكَ محضُ خداعٍ وأكاذيبٍ لفّقها رجالُ الدينِ الإسلاميّين وسَدَنَةُ الإسلامِ لخداعِ النّاس، فعندما ندرسُ سيرةَ محمّدٍ وحياتهُ بدقّةٍ وموضوعيّة، بالإضافةِ إلى أحاديثه، نجدُ الكثيرَ منَ الأمثلةِ حيثُ تجاوزَ محمّدٌ وبشكلٍ صارخٍ أوامرَ قرآنيّةً بيّنة، ولم يلقِ بالاً لها، والدارسُ لسيرةِ محمّد_بالإضافةِ إلى أيِّ مطّلعٍ أو قارئٍ عاديٍّ لها_ سيلاحظُ أنَّ الجنسَ كانَ جانباً مهمّاً جدّاً في حياةِ محمّد، فانغماسهُ الشديدُ والهوسيُّ بالجنسِ قد دفعهُ_في مناسباتٍ عديدة_ لمخالفةِ أوامرِ اللهِ في القرآن بطريقةٍ فاضحةٍ وصارخة، ولتبريرِ خرقهِ ومخالفتهِ للأوامرِ القرآنيّةِ التي كانَ قد صاغها سابقاً، كانَ يبتكرُ قصصاً ورواياتٍ يروي كيفَ أنَّ إلههُ كانَ قد استثناهُ من حكمهِ وقوانينه. وفي هذهِ المقالة سأكشفُ كمَّ الخداعِ والنّفاقِ الذي يصمُّ بهِ آذاننا رجالُ الدينِ الإسلاميّون ليلَ نهار زاعمينَ بوقاحةٍ أنَّ محمّداً لم ينتهك القرآنَ أو يخالف أيَّ أمرٍ من أوامرِهِ ونواهيه.

أمثلةٌ عن انتهاكاتِ محمّدٍ الصّارخة ومخالفاته الفاضحةِ للقرآن فيما يتعلّقُ بموضوعِ الجنس:

* محمّدٌ انتهكَ القاعدةَ القرآنيّةَ التي تنصُّ على تحريمِ ممارسةِ الجنْس/النّكاح أثناءَ الصّيام ماذا يقولُ القرآنُ عن موضوعِ ممارسةِ الجنْسِ أثناءَ الصّيام؟{أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ} [سورة البقرة 2: 187] كانَ في أوّلِ فرضِ الصّيام، يحرّمُ على المسلمينَ في الليل بعدَ النّوم الأكلُ والشُّربُ والجماع، فصَعُبَ ذلكَ على بعضهم، فخفّفَ محمّدٌ/ أو اللهُ ذلكَ إذ سمحَ لهم بممارسةِ كلِّ ذلكَ بعدَ الإفطارِ في الليل. يقول ابن كثير في تفسيرِهِ ((هذهِ رخصةٌ منَ اللهِ تعالى للمسلمين، ورفعٌ لما كانَ عليهِ الأمرُ في ابتداءِ الإسلام، فإنّهُ كانَ إذا أفطرَ أحدهم إنّما يحِلُّ لهُ الأكلُ والشُّربُ والجماعُ إلى صلاةِ العِشاء، أو ينامُ قبلَ ذلك، فمتى نامَ أو صلّى العِشاءَ حُرِّمَ عليهِ الطّعامُ والشّرابُ والجماعُ إلى الليلةِ القابلة، فوجدوا من ذلكَ مشقّةً كبيرة، والرّفثُ هنا هوَ الجماع... وحاصلهُ؛ أنَّ الرّجلَ والمرأةَ كلٌّ منهما يخالطُ الآخرَ ويماسّهُ ويضاجعه، فناسبَ أن يُرخَصَ لهم في المجامعةِ في ليلِ رمضان؛ لئلاّ يشقَّ ذلكَ عليهم ويحرجوا)) إذن؛ نستنتجُ من هذا أنَّ تناولَ الطّعامِ والشّرابِ وممارسةَ الجماعِ هوَ أمرٌ ممنوعٌ تماماً قبلَ الإفطار، أو خلالَ الصّيام، وهذا ما فعلهُ محمّدٌ خلالَ هذهِ الفترة؛ لقد نامَ مع عائشةَ أثناءَ الحيض، وقبّلها في فمها أثناءَ الصّيام وكانَ يغتسلُ من نفسِ الإناءِ بعدَ ممارسةِ الجنْس ((عن عائشةَ قالت: بينما أنا مع رسولِ اللهِ في الخميلةِ إذ حضتُ فانسللتُ فأخذتُ ثيابَ حيضتي فقالَ ما لكِ أنفستِ؟ قلت: نعم فدخلتُ معهُ في الخميلةِ وكانت هيَ ورسولُ اللهِ يغتسلانِ من إناءٍ واحدٍ وهوَ صائمٌ وكانَ يقبّلها)) [البخاري 1794] كما أنّهُ كانَ يمصُّ لسانها ((عن عائشةَ أنَّ رسولَ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم كانَ يقبّلها وهوَ صائمٌ ويمصُّ لسانها)) [فتح الباري 4/ 654] وكانَ محمّدٌ يقبّلُ زوجاتهِ ويعانقهنَّ ويمصُّ ألسنتهنَّ أثناءَ الصّيام ((عَنْ عَائِشَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ كَانَ إِذَا قَبَّلَ بَعْضَ نِسَائِهِ مَصَّ لسانهنّ)) [الكامل لابن عدي] باختصار، نحنُ أمامَ حالةِ مواربةٍ وتلاعبٍ قامَ بها محمّدٌ عندما اختلطَ بزوجاتهِ أثناءَ الصّيام، مع وجودِ أمرٍ نهيٍ بيّنٍ وواضحٍ يمنعُ ذلك، لكنّه لم يستطع احتمالَ الأمرِ حتّى الإفطار ثمَّ الانغماسِ في هوسه، بل أقدمَ على ذلكَ أثناءَ فترةِ الصّيام دونَ أن يلقي

بالأ لمسألةِ بطلانِ صيامه، أم أنّهُ رسولُ اللهِ محمّد أفضلُ الخلقِ حبيبُ الله، ويجوزُ لهُ ما لا يجوزُ لغيره؟!!

محمّدٌ خالفَ القاعدةَ القرآنيّةَ في (المَهر) وفي الفترةِ التي تقضيها المرأةُ المطلّقةُ أو الأرملةُ قبلَ زواجها مرّةً أخرى (العُدّة) عندما غزا محمّدٌ خيبر وسبى نسائها وقتلَ رجالها، كانت من بينِ السبايا صفيّةُ بنتُ حيي، فتاةٌ في مقتبلِ العمرِ رائعةُ الجمال ومتزوّجةٌ من ابنِ عمّها، وفي نفسِ يومِ الغزو قتلَ محمّدٌ زوجها وأباها، وتزوّجها من دونِ أن يدفعَ مهرها. إنَّ دفعَ المهرِ في الإسلامِ هوَ أمرٌ إجباريٌّ مفروضٌ في القرآن، ويجبُ على الرجلِ أن يدفعَ مهرَ المرأةِ عندما يتزوّجها. أوّلاً؛ سنرى كيفَ انتهكَ محمّدٌ قاعدةَ المَهرِ وخالفها، وقد وردت هذهِ القاعدةُ في القرآنِ على الشّكل التّالي:{وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً} [النساء4: 4] وقد وردَ في تفسيرِ ابن كثير في معرضِ تفسيرهِ لهذهِ الآية: ((عن ابنِ عبّاس: النِحلةُ: المَهر، وقالَ محمّدُ بنُ إسحاقَ عن الزُّهريِّ عن عروةَ عن عائشة: نِحلة: فريضة، وقالَ مقاتلُ وقتادةُ وابنُ جريّج: نِحلة، أي: فريضة. زادَ ابنُ جُريّج: مسمّاة، وقالَ ابنُ زيد: النِحلةُ في كلامِ العرب: الواجب، يقولُ: لا تنكحها إلّا بشيءٍ واجبٍ لها)) هذا يعني أنَّ دفعَ المَهرِ «واجبٌ» و«فريضة»، لكن ولكي يخفي محمّدٌ خداعهُ ومكره، فقد زعمَ أنَّ زواجهُ من صفيّةَ كانَ بحدِّ ذاتهِ شرفاً وإكراماً لها، أمّا صِداقها فكانَ في عتقها وجعلها زوجةً لهُ بدلَ أن تكونَ أمةً أو عبدةً أو مُلكَ يمين.((عن أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، «أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَقَامَ عَلَى صَفِيَّةَ بِنْتِ حُيَيٍّ بِطَرِيقِ خَيْبَرَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ حَتَّى أَعْرَسَ بِهَا، وَكَانَتْ فِيمَنْ ضُرِبَ عَلَيْهَا الحِجَابُ»)) . [صحيح البخاري 3915] ((عن أنسِ بنِ مالك قال: «أَقَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ خَيْبَرَ وَالمَدِينَةِ ثَلاَثَ لَيَالٍ يُبْنَى عَلَيْهِ بِصَفِيَّةَ، فَدَعَوْتُ المُسْلِمِينَ إِلَى وَلِيمَتِهِ وَمَا كَانَ فِيهَا مِنْ خُبْزٍ وَلاَ لَحْمٍ، وَمَا كَانَ فِيهَا إِلَّا أَنْ أَمَرَ بِلاَلًا بِالأَنْطَاعِ، فَبُسِطَتْ، فَأَلْقَى عَلَيْهَا التَّمْرَ وَالأَقِطَ وَالسَّمْنَ، فَقَالَ المُسْلِمُونَ: إِحْدَى أُمَّهَاتِ المُؤْمِنِينَ أَوْ مَا مَلَكَتْ يَمِينُهُ، قَالُوا: إِنْ حَجَبَهَا فَهِيَ إِحْدَى أُمَّهَاتِ المُؤْمِنِينَ، وَإِنْ لَمْ يَحْجُبْهَا فَهِيَ مِمَّا مَلَكَتْ يَمِينُهُ، فَلَمَّا ارْتَحَلَ وَطَّأَ لَهَا خَلْفَهُ وَمَدَّ الحِجَابَ»)) [صحيح البخاري 3916] والأنكى هنا هوَ المنيّةُ التي منّى بها رسولُ الرحمةِ محمّد صفيّةَ عندما أعتقها وجعلَ من عِتقها صِداقها؛ أي مهرها ((عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

أَعْتَقَ صَفِيَّةَ وَجَعَلَ عِتْقَهَا صَدَاقَهَا)) [البخاري 4721] وبذلك تهرّبَ من دفعِ مهرها. هناكَ معلوماتٌ أخرى حولَ هذا الزّواجِ الشهوانيّ الإجراميّ لفتاةٍ جميلةٍ في التّاسعةِ عشرَ من عمرها مع رجلٍ يكبرها بأكثرَ من أربعينَ عاماً يمكنُ الحصولُ عليها من كتبِ التّراثِ والسير، لاحظ عزيزي القارئ أنّهُ قبلَ وقوعها ضحيّةً بين يديْ محمّد، كانت صفيّةُ زوجةَ رجلٍ آخر، فقد ثبتَ في الصحيحينِ أنَّ ((اللهَ لمّا فتحَ خيبرَ على المسلمين، ذُكِرَ للنبيِّ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم جمالُ صفيّةَ بنتِ حيي، وقد قُتِلَ زوجها وكانت عروساً))، لكنَّ محمّداً كانَ قد قتلَ زوجَ هذهِ الفتاةِ ووالدها بعد أن أنزلَ بهما وبرجالِ خيبرَ مختلفَ صنوفِ العذاب، ثمَّ قطعَ رؤوسهم في النهاية. تخبرنا كتبُ التّراثِ أنَّ محمّداً كانَ قد اشترى صفيّةَ من دُحية الكلبيّ لقاءَ سبعةِ جمال ((عَنْ أَنَسٍ: « أَنَّ صَفِيَّةَ وَقَعَتْ فِي سَهْمِ دِحْيَةَ الْكَلْبِيِّ، فَاشْتَرَاهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِسَبْعَةِ أَرْؤُسٍ)) [سنن أبي داؤود] وفي نفسِ الليلةِ التي اشتراها فيها من دُحية أدخلها إلى خيمتهِ ومارسَ الجنْسَ معها. نلاحظُ هنا أنَّ محمّداً لم يحترم مشاعرها وحزنها وألمها على والدها من جهة وزوجها من جهة وألمَ نومها معَ قاتلِ أبيها وزوجها في فراشٍ واحد، كما أنَّ هناكَ نقطةً جوهريّةً وهيَ أنَّ محمّداً لم يحترم فترةَ العِدّةِ التي نصّها قرآنهُ، الذي منَ المفروضِ أنّهُ هوَ مبلّغهُ وهوَ المثَلُ الحيُّ عن كلِّ ما جاءَ فيه، فقد جاءَ في القرآنِ المحمّديّ {للذين يؤلّون من نسائهم تربّص أربعة أشهر...} [البقرة 2: 226] حيثُ وردَ في كتابِ «عللِ الشّرائع» تفسيرٌ لهذهِ الآية ((وأمّا المتوفّى عنها زوجها، فإنَّ اللهَ تعالى شرطَ للنّساءِ شرطاً فلم يحلّهنَّ فيهِ وفيما شُرِّطَ عليهنّ، بل شرّطَ عليهنَّ مثلَ ما شَرَّطَ لهنّ. فأمّا ما شُرِّطَ لهنّ فإنّهُ جعلَ لهنَّ في الإيلاءِ أربعةَ أشهرٍ لأنّهُ علمَ أنَّ ذلكَ غايةُ صبرِ النّساء...يعني؛ إذا توفّيَ عنها زوجها فأُوجِبَ عليها إذا أُصيبت بزوجها وتوفّيَ عنها مثلما أُوجِبَ عليها في حياتهِ إذا آلى منها، وعلمَ أنَّ غايةَ صبرِ المرأة أربعةَ أشهرٍ في تركِ الجماع فمن ثمَّ أوجبَ عليها ولها)) [عللُ الشّرائع: 2: 509] محمّدٌ لم يصبر هذهِ الفترة ولم يحترم العِدّة، ولم يحترم مشاعرَ صفيّةَ وألمها، ولإخفاءِ هذا الجانبِ السّقيمِ من شخصيّةِ محمّد، يعمدُ علماءُ المسلمينَ ومؤرّخيهم إلى الزّعمِ أنَّ محمّداً قد تزوّجَ صفيّةَ قبلَ دخولهِ بها ونكاحها، لكنّهم ينسونَ أو يتناسونَ حقيقةَ أنَّ محمّداً لم يصبر فترةَ العدّة قبلَ أن يدخلَ بصفيّة.

خالفَ محمّدٌ أمرَ إلهِهِ فيما يتعلّقُ بعددِ الزّوجاتِ للرّجل عندما تزوّجَ محمّدٌ زينبَ بنتَ جحش، زوجةُ ابنِهِ بالتبنّي، زيدِ بنِ حارث، لم يكن اللهُ راضياً تماماً بتوقِ محمّدٍ وشهيّتِهِ للفتياتِ الشّاباتِ، اليافعاتِ، والجميلات _سواءٌ كُنَّ عازباتٍ أو متزوّجات. المهمُّ، أنَّ اللهَ أرادَ في هذهِ المرّة أن يكبحَ جِماحَ محمّد، وأن يُفهِمَهُ بأنّهُ قد خرجَ عن السّيطرةِ وتجاوزَ جميعَ الحدود، وأنّهُ لا يمكنُ أن يسمحَ لهُ بأن يُراكِمَ عندهُ المزيدَ منَ الزّوجات، لقد سمحَ لهُ أن تكونَ زينبُ زوجتهُ الثّامنةَ أو التّاسعة، لكنّها يجبُ أن تكونَ الأخيرة. هنا في هذهِ الآية يحرّمُ اللهُ على محمّدٍ الزّواجَ من أيِّ امرأةٍ أخرى بعدَ زينبَ بنتِ جحش: {لَّا يَحِلُّ لَكَ (يا محمّد) النِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا} [سورة الأحزاب 33: 52] يقولُ ابنُ كثير في معرضِ تفسيرهِ لهذهِ الآية، ويوافقهُ أغلبُ الشرّاح كالطّبريّ والقرطبيّ وغيرهم، (()) [شرحُ ابنِ كثير] والآن دعونا نلقي نظرةً على قائمةِ النّساءِ اللواتي تواصلَ محمّدٌ معهنّ، سواءٌ تزوّجهُنَّ أو طلّقهنَّ أو تقدّمَ لخطبتهن، ومن ضمنها النّساءُ اللواتي مارسَ الجنسَ معهنّ. لقد استحضرتُ هذهِ القائمةَ من كتابِ الطّبريّ. لاحظ عزيزي القارئ أنَّ هذهِ القائمةَ تضمُّ أسماءَ نساءِ «النبيِّ» حسبَ الترتيبِ الزّمنيّ، وقد وضعت اسمَ زينبَ بنتِ جحش بينَ قوسين لأبيّنَ كم امرأةً تزوّجَ محمّدٌ بها بعدَ زينب، وذلك لكي أبيّنَ المدى الذي بلغهُ محمّدٌ في مخالفتهِ لأوامرِ القرآن _قرآنه، لقد جمعَ محمّدُ حوالي 13 زوجة، بالإضافةِ إلى الجواري ومُلكِ اليمين، حتّى عندما أمرهُ اللهُ أن يتوقّفَ عندَ حدٍّ معين فيما يتعلّقُ بزواجِهِ.

تزوج محمّد بـ 21 امرأة:

1- خديجة بنت خويلد

2- سوده بنتُ جمعة

3- عائشة بنتُ أبي بكر (تزوّجها في السّادسةِ من عمرها / فأخذها، ودخلَ بها وهيَ في التّاسعة/ بيدوفيليا)

4- حفصة بنت عمر (رأتهُ هوَ وجاريتها ماريّة في سريرها، فأصيبت بانهيارٍ عصبيٍّ وفضحتهُ يومها)

5- أم سَلَمَة

6- جويريّة

7- أمُّ حبيبة بنتُ أبي سفيان

8- ((زينب بنت جحش))

9- صفيّةُ بنتُ حُيَي

10- ميمونةُ بنتُ الحارث

11- فاطمةُ بنتُ الضحّاك

12- الشامة بنتُ عمرٍ الغفاريّة ((طلّقها محمّدٌ لأنّها شكّكت بنبوّتِهِ، وتقولُ المصادرُ الإسلاميّةُ أنّهُ أمرها بأن تخلعَ ثيابها، فرأى فيها بياضاً، فطلبَ منها أن تلحقَ بأهلها))

13- غزيّةُ بنتُ جُبير أو أم شُريك ((هيَ التي وهبت نفسها لمحمّدٍ وكانت جميلةً لكنّها كانت قد أسنّت؛ أي كبرت في العمر فقالتَ لمحمّد: أنّي قد وهبتُ نفسي لكَ أتصدّقُ بها عليك، فقبلها النبيّ، فقالت عائشة: ما في امرأةٍ تهبُ نفسها لرجلٍ بخير، قالت أمُّ شُريك: أنا تلك، فسمّاها اللهُ «مؤمنة»، فنزلت الآية {وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ} [الأحزاب 33: 50]))

14- عمرة بنت يزيد ((تزوّجها محمّد فلمّا سمعَ أنَّ بها برصاً لم يدخل بها وطلّقها))

15- أسماءُ بنتُ النعمان ((كانت من أجملِ نساءِ العرب، فقالت لها عائشة: إنّهُ يعجبهُ منَ المرأةِ إذا دخلَ عليها أن تقولَ أعوذُ باللهِ منك، فلمّا دخلَ عليها محمّدٌ وأرخى السّتار، قالت: أعوذُ باللهِ منك، فقالَ لها: الحقي بأهلك))

16- زينبُ بنتُ خزيمة، وتسمّى أيضاً بأمِّ المساكين.

17- الغاليةُ بنتُ الظبيان ((قالَ أبو عمر تزوّجها محمّدٌ وكانت عندهُ إلى ما شاءَ اللهُ ثمَّ طلّقها، أمّا عن سببِ طلاقهِ لها فيقالُ أنّها اختلست النظرَ عبرَ البابِ إلى النّاسِ

في المسجد، لذلكَ طلّقها محمّدٌ بعدَ أن دفعَ لها تعويضاً))

18- قتيلةُ بنتُ قيس ((لمّا استعاذت أسماءُ بنتُ النعمانِ من محمّد، خرجَ من عندها غاضباً، فقالَ لهُ الأشعثُ بنُ قيس: ألا أزوّجكَ من ليسَ دونها في الجمالِ والحسب؟ قالَ محمّد: من؟ قال: أختي قتيلة، فقال: قد تزوّجتها، لكنَّ محمّداً ماتَ قبلَ أن تصلَ إليه))

19- فاطمةُ بنتُ شُرَحبيل (ساره)

20- خولةُ بنتُ الهُذَيل ((ماتت وهيَ في الطريقِ قبلَ وصولها إليه))

21- ليلى بنتُ الخطيم ((وهبت نفسها لمحمّد، فقبلها، ثمَّ جاءتهُ فقالت: إنَّ اللهَ أحلَّ لكَ النساءَ، وأنا طويلةُ اللّسان، واستقالتهُ، فقالَ لها: قد أقلتك)) وقد ذكرَ الطّبريُّ أنَّ النّاسَ كانوا يقولونَ عن النبيِّ أنّهُ منكاحٌ ومحبٌّ للنساء.

قائمةٌ بأسماءِ النساءِ اللواتي وهبنَ أنفسهنَّ لمحمّد ولم يتزوّجهن:

1- أمُّ هانئٍ بنتُ أبي طالب، كانَ لديها ولد.

2- ضِباعة بنتُ عامر، وكانت سمينةً جدّاً ومسنّة

3- صفيّةُ بنتُ بُشامة، أصابها محمّدٌ في سبيٍ، فخيّرها، فاختارت زوجها

4- أمُّ حبيبةِ بنتُ العبّاس، احتضنها، لكنّها عندما بلغت مات، فتزوّجت غيرهُ.

5- جمرةُ بنتُ الحارث

6- خولةُ بنتُ حكيم

7- أمامةُ بنتُ حمزة

أمّا محظيّاتُ محمّدٍ فهنَّ:

1- ماريّا بنتُ شمعون (القبطيّة) أمُّ إبراهيم.

2- ريحانةُ بنتُ زيدِ القرظيّة

زيجاتُ محمّدٍ التي لم تتم:

1- مُلَيكَةُ بنتُ كعبٍ الليثيّ، وطلّقها محمّدٌ بعد أن استعاذت بهِ

2 بنتُ جندب النقطةُ المهمّةُ هنا هيَ آننا قد رأينا كيفَ أنَّ محمّداً قد تزوّجَ عِدّةَ نساءٍ بعدَ زينب، ولم يكتفِ عندَ هذا الحدّ، مع أنَّ القرآنَ الذي قالهُ هوَ لم يسمح إلّا بأربعِ زوجات {فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ} [النساء4: 3] بغضِّ النظرِ عن لا أخلاقيّةِ هذهِ الآية إلّا أنها تحدّدُ عددَ الزوجاتِ بأربعِ زوجاتٍ لا أكثر، ومع ذلك انتهكَ محمّدٌ هذهِ الآية وخالفها وتزوّجَ أكثرَ من أربعِ نساء، وما يجوزُ لهُ لا يجوزُ لغيرهِ!!!!...

محمّدٌ خالفَ القاعدةَ القرآنيّةَ التي تنصُّ على غضِّ البصرِ وعدمِ الاجتماعِ في مكانٍ واحدٍ مع نساءٍ أجنبيّات لاحظ عزيزي القارئ أنَّ أيَّ رجلٍ وأيّةَ امرأةٍ لا تربطُ بينهما علاقةٌ أو صلةُ قرابةٍ متينة (إلّا إذا كانا متزوّجين، أو تربطُ بينهما علاقةُ قرابةٍ من أمٍّ واحدة؛ أي أخٍ وأخت) لا يمكنُ أن يجتمعا لوحدهما ويختليا مع بعضهما تحتَ أيِّ ظرفٍ كان، وقد جاءَ هذا المنعُ الشديدُ في الآيةِ القرآنيّةِ التّالية:{قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ...} [النور 24: 30] يوردُ ابنُ كثير في معرضِ تفسيرهِ لهذهِ الآيةِ ما يلي ((هذا أمرٌ منَ اللهِ تعالى لعبادهِ المؤمنينَ أن يغضّوا من أبصارهم عمّا حُرِّمَ عليهم، فلا ينظروا إلّا إلى ما أباحَ لهم النظرَ إليه، وأن يغضّوا أبصارهم عن المحارم، فإن اتّفقَ أن وقعَ البصرُ على محرمٍ من غيرِ قصد، فليصرف بصرهُ عنهُ سريعاً، كما رواهُ مسلمٌ في صحيحهِ من حديثِ يونسَ بن عُبيدٍ عن عمرو بن سعيد عن أبي زرعة بن عمرو بن جرير، عن جدّهِ جرير بن عبد الله البجلي رضيَ اللهُ عنهُ قال: سألتُ النبيَّ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ عن نظرةِ الفُجأة، فأمرني أن أصرفَ بصري. وكذا رواهُ الإمامُ أحمد عن هشيمٍ عن يونسَ بنِ عُبيد به، ورواهُ أبو داودَ والترمذيُّ والنّسائيُّ من حديثهِ أيضاً. وقالَ الترمذيّ: حسنٌ صحيح، وفي روايةٍ لبعضهم فقال: « أطرق بصركَ » يعني؛ انظر إلى الأرض، والصرفُ أعمّ، فإنّهُ قد يكونُ إلى الأرض، وإلى جهةٍ أخرى، واللهُ أعلم)) وفي موقعِ تفسيرِ القرآنِ الكريم، وهوَ موقعٌ يحتوي تفسيراتٍ تعتبرُ عصريّةً إلى حدٍّ ما، ما يلي: ((أي؛ أرشد المؤمنين، وقل لهم: الذينَ معهم إيمانٌ، يمنعهم من وقوعِ ما يخلُّ بالإيمان: { يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ } عن

النظرِ إلى العوراتِ وإلى النّساءِ الأجنبيّات، وإلى المردانِ، الذينَ يخافُ بالنظرِ إليهم الفتنة، وإلى زينةِ الدنيا التي تفتن، وتُوقِعُ في المحذور)).

[المصدر: http://www.imadislam.com/tafsir/024_01.htm]

بمعنى؛ أنَّ على محمّدٍ أن يطلبَ منَ المؤمنينَ أن يخفضوا نظرهم ويغضّوها ويحفظوا عفّتهم، وهذا من شأنهِ تثبيتُ إيمانهم وتنقيةُ أنفسهم، وأنَّ اللهَ سيكافئهم على ذلكَ ويجزيهم... لكنَّ السؤالَ الجوهريَّ هنا: هل التزمَ محمّدٌ نفسهُ بهذهِ القاعدةِ وطبّقها على نفسه؟ دعونا نرى ما فعلهُ محمّد مع بعضِ النّساءِ العازباتِ اللواتي لا يحلّلونَ لهُ، واللاتي منَ المفترضِ أنّهُ كانَ عليهِ أن يغضَّ بصرهُ عنهنَّ أو يتزوّجهُنّ. أوّلُ امرأةٍ يحدثُ معها ذلك لم تكن سوى ابنةِ عمّهِ أمّ هانئ بنتُ أبي طالب، كانَ محمّدٌ قد وقعَ في غرامها سابقاً، ولكن ولأسبابٍ مجهولة لم يزوّجهُ إيّاها عمّهُ أبو طالب عندما طلبها منه، وبدلاً من ذلكَ تزوّجت رجلاً آخرَ كانَ يدينُ بالوثنيّة: هبيرة. لكنَّ علاقةَ محمّدٍ غيرَ الشّرعيّةِ بأمّ هانئ (والتي كانت تعرفُ أيضاً باسمِ هند، أو فاختة) استمرّت بعدَ ذلك، كانَ معتاداً على النّومِ في منزلها، عندما تكونُ لوحدها في المنزل!!!!!!!!!... حتّى قيلَ أنّهُ أُسريَ بمحمّدٍ من بيتها!!!... المهمّ، حدثت هذهِ الحادثةُ عندما رجعَ محمّدٌ من مهمّتهِ الفاشلةِ إلى الطّائف، بعدَ وفاةِ زوجتهِ الأولى خديجة، وعمّهِ أبو طالب، إذ أنّهُ لم يجرؤ على التقدّمِ لخطبتها إلّا بعدَ موتِ عمّه. أثناءَ وصولهِ إلى مكّة، التجأ إلى الكعبة، لكن بحلولِ الليل، وعندما كانَ الجميعُ نياماً، تسلّلَ إلى منزلِ أمّ هانئ، وقضى الليلَ عندها؟؟؟؟، وعندما لم يجدهُ النّاسُ عندَ الكعبةِ في صباحِ اليومِ التّالي، ذهبوا للبحثِ عنه، وعندما اكتشفوا مكانهُ في منزلِ أمّ هانئ، أُحرِجَ محمّدٌ بشدّة، وكذلكَ أمّ هانئ، ولإخفاءِ الحقيقةِ عن أعينِ النّاس، لفّقَ قصّةَ الإسراءِ والمعراجِ الخرافيّة، وأنّهُ أُسريَ بهِ على ظهرِ حمارٍ مجنّحٍ إلى القدّسِ ثمّ إلى السّماءِ من بيتها (وبالتحديد من سريرها)، ما جعلَ الكثيرَ منَ المسلمينَ الجددِ آنذاك يتركونَ الإسلامَ ويرجعونَ إلى دينهم، وهذا ما أحزنَ محمّدَ كثيراً وأخجلهُ، ودفعهُ نحوَ العزلة، لكن سرعانَ ما انتشرت هذهِ الفضيحةُ في جميعِ أرجاءِ المكان، وتناقلتها الألسن، ما دفعَ محمّداً للخروجِ من مكّةَ والاستقرارِ في المدينة، لكنَّ هذا الحبَّ العاصفَ لأمّ هانئ لم يخمد مع مرورِ الوقت، وبقيَ مشتعلاً. لاحقاً، عندما اشتدَّ عودُ محمّدٍ وقويَ

عسكرياً وغزا مكّة، ذهبَ إلى منزلِ أمّ هانئ وقضى الليلَ هناك، مصليّاً ومدردشاً معها. أمّا زوجها هبيرة، وبعدَ أن شهدَ سقوطَ مكّة فرَّ إلى نجران. إذن، أمُّ هانئ كانت مقيمةً في منزلها، منفصلةً عن زوجها الوثنيّ، وكانَ محمّدٌ معها يسلّيها، في خرقٍ واضحٍ وانتهاكٍ فاضحٍ لتعاليمِ القرآن [القصّةُ موجودةٌ في تاريخ الطّبريّ الجزءِ الثّالث، وابن هشام] لستُ بحاجةٍ لأيّ خَرِفٍ أو معتوهٍ أن ينكرَ هذهِ القصّةَ أو يطالبني بالمزيدِ منَ التوثيق، فالقصّةُ معروفةٌ للقاصي والدّاني ومن يردُّ منَ المسلمين إنّما يبتغي العميّةَ وتزيينَ الموضوع واللفّ والدوران. هنا أوردُ لكم حديثاً من صحيح البخاريِّ يبيّنُ لكم ما كانَ يفعلهُ محمّد مع النّساءِ العازباتِ، المطلّقاتِ والأرامل، الثريّاتِ منهنَّ والفقيرات، من أجلِ ممارسةِ الجنسِ معهنّ، وهذا خرقٌ واضحٌ لتعاليمِ القرآن. جُلِبَت امرأةٌ (الجونيّة) مصونةٌ ومحترمةٌ (أميرة) إلى محمّدٍ لتمارسَ الجنسَ معهُ ولم تكن مستعدّةً لتمنحَ نفسها لهُ، فغضبَ محمّدٌ كثيراً ورفعَ يدهُ ليضربها.((خرجنا مع النبيِّ (صلّى اللهُ عليهِ وسلّم) حتّى انطلقنا إلى حائط– أي بستانٍ أو حديقة– يقالُ لهُ الشّوط، حتّى انتهينا إلى حائطينِ فجلسنا بينهما فقالَ النبيُّ: اجلسوا هاهنا، ودخلَ وقد أُتِيَ بالجونيّةِ فأُنزِلَت في بيتٍ نخلٍ في بيتِ أميمةَ بنتِ النعمانِ بنِ شُراحيل ومعها دايتها حاضنةٌ لها، فلمّا دخلَ عليها النبيُّ (صلّى اللهُ عليهِ وسلّم) قال: هبي نفسكِ لي. قالت: وهل تهبُ الملكةُ نفسها للسّوقة، فأهوى بيدهِ عليها لتسكت فقالت: أعوذُ باللهِ منك)) [البخاريّ الجزء السّابع ص 53] هل نحنُ بحاجةٍ لقولِ المزيد...؟؟؟؟ لا بل كلُّ ما نحنُ بحاجةٍ لقولهِ هوَ أنَّ العقلَ وليُّ التوفيق.

[تعقيبٌ على قارئين]

كنتُ قد نشرتُ منذُ فترةٍ سلسلةً من أربعِ مقالاتٍ تناولت انتهاكاتِ محمّد وخروقاتهِ لكتابِ القرآن، وكانَ مذهبي في هذهِ المقالاتِ أنَّ محمّداً هوَ من صنعَ قرآنهُ وصاغهُ وألّفهُ، ثمَّ انتهكهُ هوَ، وليسَ أنَّ هناكَ إلهاً أنزلَ القرآنَ على محمّد، ثمَّ انتهكَ محمّدٌ أوامرَ ذلكَ الإلهِ وخرقها. إذن، القضيّةُ هيَ أنَّ محمّداً هوَ من شرّعَ وخالفَ تشريعاتهِ، وليسَ الله. جاءتني ردودٌ كثيرةٌ على هذهِ المقالاتِ المتنوّعة، وكنتُ أريدُ الاستفاضةَ فيها أكثرَ لولا ضيقُ وقتي وعملي في مجالِ الترجمة، لكن سنتطرّقُ إلى هذا الموضوعِ في مرّاتٍ قادمة وعسى أن يسعفني الوقتُ والحظُّ للتوسّعِ أكثرَ في تفاصيلِ هذهِ المسألة. المهمُّ أنّني هنا في هذا الجزءِ القصيرِ نسبيّاً أردتُ أن آخذَ نموذجينِ منَ الردودِ وأعقّبَ عليهما لتوضيحِ نقاطٍ كنتُ أريدُ التطرّقَ إليها، وقد وجدتُ الفرصةَ المناسبةَ لذلك، النموذجُ الأوّلُ يتمثّلُ في تعليقِ السيّدِ محسن المالكي الذي ذكرَ نقطةً في غايةِ الأهمّيّةِ في تعليقهِ تتعلّقُ بما قالهُ المفكّرُ محمّد حسنين هيكل عن محمّد وبشكلٍ خاصّ حولَ مسألةِ خرقهِ وانتهاكهِ للتشريعات، أمّا النموذجُ الآخر فيتمثّلُ في قارئٍ يعلّقُ تحتَ اسمِ مستعارٍ منَ المغرب (ناقد)، الذي وردَ تعليقهُ على المقالِ في موقعِ صوتِ العقل، وسأتناولُ مضمونَ ردّهِ لأجيبَ عليهِ وعلى كلامِ جميعِ المسلمينَ كونهُ يمثّلُ حالةً من هذا الفكرِ المأزوم. سأناقشُ أوّلاً ما قالهُ السيّدُ محسن المالكي في تعليقهِ حولَ مسألةِ مخالفةِ محمّدٍ للقرآنِ وانتهاكهِ له، يقولُ السيّدُ محسن في معرضِ تعليقهِ ما يلي: ((عندما طرحَ أغلبُ المستشرقينَ حقيقةً لا يمكنُ إنكارها ولا التغافلُ عنها أنَّ محمّداً لم يلتزم بما شرّعهُ هوَ في قرآنه... كانَ ردُّ محمّد حسنين هيكل في كتابهِ «حياة محمّد» لا يقلُّ قباحةً عن قباحةِ ما قامَ بهِ محمّدٌ نفسهُ، إذ برّرَ عدمَ التزامِ محمّدٍ بهذا التشريعِ بأنَّ العظماءَ في أيِّ مجتمعٍ هم فوقَ القوانينِ والتشريعاتِ التي يشرّعونها))[انتهى] أوّلاً، ألا نقرأُ هنا في كلامِ محمّد حسنين هيكل اعترافاً ولو ضمنيّاً ومتستّراً بأنَّ محمّداً قد خرقَ قرآنهُ وانتهكَ تعاليمهُ وتشريعاته؟ الأمرُ واضحٌ أخوتي ولا يحتاجُ إلى توضيحٍ أكثرَ من ذلك. النقطةُ الثّانيةُ تتعلّقُ بمقولةِ أنَّ العظماءَ والمشرّعينَ في

أيّ مجتمعٍ هم فوقَ القانونِ والتشريعات، وهذا كلامٌ فارغٌ لا أساسَ لهُ منَ الصحّة ولا من المعقوليّة، تخيّلوا أنّي مشرّعٌ أحرّمُ عليكم السّرقة، ثمَّ آتيها أنا نفسي وأبرّرها لكم بأنّي فوقَ القانونِ والتشريع، كلامٌ غيرُ منطقيٍّ على الإطلاق، وعبثيّ، وإلّا فلماذا التشريعُ من أساسهِ؟!!... ألا يُفترضُ بي أنا المشرّعُ أن أكونَ أوّلَ الملتزمينَ بتشريعاتي وقوانيني حتّى أكونَ مثلاً يُحتذى بهِ وأعطي مصداقيّةً لكلامي وقوانيني؟؟؟ هل يقبلُ العقلُ أن أشرّعَ لكم زواجَ أربعةِ نساءٍ فقط، وأتزوّجُ أنا عشرينَ امرأة، من منكم يقبلُ ذلك؟ لا أحد... لأنَّ ذلكَ منافٍ للعقلِ والمنطقِ والحسِّ السليم، وإلّا فلن أكونَ سوى منافق. ويحضرني هنا أبياتُ الشّاعرِ أبي الأسودِ الدؤلي ولا أراهُ إلّا وهوَ يوجّهُ كلامهُ لمحمّدٍ شخصيّاً: يا أيّها الرَّجلُ المُعَلِّمُ غَيْرَهُ *** هَلاَّ لِنَفْسِك كَانَ ذَا التَّعْلِيمُ تَصِفُ الدَّوَاءَ لِذِي السَّقَامِ وَذِي الضَّنَى *** كَيْمَا يَصِحَّ بِهِ وَأَنْتَ سَقِيمُ ابْدَأْ بِنَفْسِك فَانْهَهَا عَنْ غَيِّهَا *** فَإِذَا انْتَهَتْ عَنْهُ فَأَنْتَ حَكِيمُ فَهُنَاكَ تُعْذَرُ إنْ وَعَظْتَ وَيُقْتَدَى *** بِالْقَوْلِ مِنْك وَيَحصل التسليمُ لَا تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِيَ مِثْلَهُ *** عَارٌ عَلَيْك إذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ محمّدٌ كانَ يُفترضُ أنّهُ معلّم، ويعلّمُ أتباعهُ منظومةً معيّنةً منَ الأخلاق، وكانَ الأجدرُ بهِ أن يعلّمَ نفسهُ أوّلاً ويلتزمَ هوَ نفسهُ بتعاليمهِ قبلَ أن يمليها على أتباعهِ ويطالبهم بالالتزامِ بها. حاولَ تقديمَ دواءٍ زائفٍ لأتباعهِ ونسيَ أن يأخذهُ هوَ وهوَ السّقيمُ والمريضُ أكثرَ منهم، لم يبدأ بنفسهِ ولم ينهها عن غيّها، بل استسلمَ لرغباتهِ ومصالحهِ ولشهواتها الخاصّة، نهى عن أمورٍ وأتى هوَ بمثلها وأقبحِ منها، فيكفَ لهم إذن أن يقتدوا به، وأيُّ إنسانٍ عاقلٍ يقتدي بشخصٍ كهذا؟

النموذجُ الآخرُ هوَ أفضلُ صورةٍ للمسلمِ العاديِّ وغيرِ المتعلّمِ من جهة، أو المتعلّمِ والكذّابِ من جهةٍ أخرى. هذا الأخرقُ تجرأَ على الكلام، وتجرأَ على إضفاءِ لقبِ النّاقدِ على نفسهِ وهوَ أبعدُ ما يكونُ عن النّقدِ العلميِّ والموضوعيّ، وأقربُ ما يكونُ إلى الأسلوبِ القطيعيِّ الأخرقِ والفظّ، فتمخّضَ هذا الجبل، ولم يَنتُج عنهُ إلّا فأراً. يقولُ هذا النّاقدُ ((إلى الكاتب: بعدَ قراءتي للمقال لم أجدكَ ولو مرّة ذكرتَ الإحالةَ أو حتّى الشّاهدَ على ما تمَّ ذكرهُ حولَ أمِّ هانيءٍ والنبيّ، أو ما هيَ المراجعُ المعتمدة؟ حسبَ روايتكَ يا سيّدي خُيِّلَ إليَّ أنّكَ كنتَ بمكّةَ وتروي لنا القصّةَ كشاهدٍ ثرثار عفواً عيان... وما رويتهُ بإسنادٍ لا صحّةَ لهُ وهيَ كذبٌ بإجماعِ الباحثينَ والمتخصّصينَ في الشّأنِ الدينيِّ الإسلاميّ))

[انتهى] وأنا أردُّ عليهِ بالقول: يا من تطلبُ إحالةً أو مصدرَ الشّواهد، الكلُّ يعرفُ هذهِ القصصَ والرّواياتِ المخزية، ولكنّنا اعتدنا هذا الأسلوبَ منَ المسلمين، فأيُّ حادثةٍ ولو كانت معلومةً لم نذكر لها مصدراً يتّخذها أدعياءُ العلمِ أمثالكَ كمأخذٍ علينا، ما ذنبنا إذا لم تكونوا تقرؤونَ أنتم تاريخكم، أم أنَّ هذهِ محاولةٌ للتعميةِ والتجميلِ والإنكار. الباحثُ الموضوعيُّ والنّاقدُ المدقّق ما كانَ ليطالبني الأن بمصدرٍ أو إحالة، بل الأمرُ أسهلُ من ذلك، كلُّ ما عليك هوَ أن تضربَ على غوغل «معراجُ النبيِّ من بيتِ أمِّ هانئ» ولترى بنفسكَ أقوى المصادرِ وأصحّها، واختر من بينها ما شئت. أمّا إذا اكتشفتَ بأنّي قد لفّقت، عندئذٍ بإمكانكَ التحدّثُ والنّقد. ويقولُ هذا المدّعي أنَّ الأسانيدَ التي ذكرتها قد أُثبِتَ كذبها وبطلانها بإجماعِ الباحثينَ والمتخصّصينَ في الشّأنِ الدينيِّ الإسلاميّ، من هم هؤلاء، وإيُّ باحثينَ وعلماء؟ لم يذكر شيئاً، وإذا كانَ هذا صحيحاً، فلماذا تؤمنُ بوجودِ محمّدٍ أصلاً وهوَ المذكورُ في هذهِ الأسانيدِ والمجاميعِ الصِحاح؟ النقطةُ الثّانية، أنّي قد تعلّمتُ خلالَ دراستي لعلمِ النّفسِ وتخصّصي فيه أنَّ من يحاولُ إخفاءَ حقيقةٍ واضحة، والتسترَّ عليها وإنكارها، فهوَ في داخلهِ يفعلُ ذلكَ لأنّهُ يخجلُ منها في لا شعوره، هل هذهِ هيَ حالك، هل تخجلُ من أفعالِ نبيّك؟ حاولَ هذا المدّعي تكذيبي وعقرَ النّاقة، لكنّهُ لا يعلمُ أنَّ غسيلهُ منشورٌ أمامَ العالمين. في النهاية سأقولُ النتيجةَ التي توصّلتُ إليها في نهايةِ تلكَ السلسلةِ المكوّنةِ منَ المقالاتِ الأربعة، وهيَ أنّي بتُّ متيقّناً وعلى أتمِّ العلمِ واليقين بأنَّ المسلمينَ عامّةً ورجالِ دينهم وسدنتهِ خاصّةً سيحاولونَ التحايلَ والتلاعبَ واللفَّ والدوران، مستخدمينَ أسلوبَ التحايلِ والمنطقَ الأعوجَ لتفنيدِ هذهِ الأحاديثِ والأخبارِ التّاريخيّةِ التي ذكرتها في مقالي، في الوقتِ الذي سيستخدمونَ نفسَ المراجعِ والأسانيدِ خلالَ محاولتهم تفنيدَ مذهبي هنا. إنّهُ الفصامُ العقلي. الحقيقةُ هيَ أنّهُ بغضِّ النظرِ عمّا سيقولون، فالحقيقةُ خالدةٌ وساطعةٌ كسطوعِ الشّمس، والقارئُ الذّكيُّ والنبيهُ والعاقل لن يجدَ صعوبةً في التمييزِ ما بينَ الغثِّ والثمين، وتمييزِ الحقيقةِ منَ الزّيف. لقد انتهكَ محمّدٌ القرآنَ وبشكلٍ علنيٍّ وصارخ، دونَ أيِّ حسابٍ لمشاعرِ معاصريهِ ومنَ حوله، أو ما سيسجّلهُ التّاريخُ عنه.

القسم الثالث

كتاب لماذا لستُ مسلماً

ابن الورّاق

«كانت أهمُّ المراحلِ في التّاريخِ الإسلاميِّ تتميّزُ باحتواءِ التّأثيراتِ الخارجيّة.... فلم يدّعِ مؤسّسهُ أفكاراً جديدة، ولم يُثرِ المفاهيمَ السّابقةَ لهُ عن علاقةِ الإنسانِ بالخارقِ والمطلق.... كانت رسالةُ نبيِّ العربِ مؤلّفاً تخييريّاً منَ الأفكارِ والأحكامِ الدينيّة. كانت احتكاكاتهُ بعناصرَ يهوديّةٍ ومسيحيّةٍ وعناصرَ أخرى والتي أثّرت عليهِ بعمق هيَ التي اقترحت عليهِ الأفكار». 108

أغناس غولدزيهر

لم يكن محمّدٌ مفكّراً أصيلاً، فلم يَصُغ أيَّ مبادئَ أخلاقيّة، ولكنّهُ فقط استعارَ منَ المحيطِ الثّقافيِّ السّائد. لقد عُرِفَت الطبيعةُ الانتقائيّةُ للإسلام لفترةٍ طويلة، فحتّى محمّد عرفَ أنَّ الإسلامَ ليسَ ديناً جديداً، وأنَّ الكلامَ الموحى في القرآنِ كانَ مصدّقاً، وحسبَ النصوصِ السّابقةِ لهُ والموجودةِ فعلاً، لطالما ادّعى النبيُّ وجودَ علاقةٍ مع الأديانِ العظمى الأخرى لليهودِ والمسيحيّينَ وغيرهم، وقد اعترفَ المعلّقونَ المسلمون كالشهرستاني أنَّ النبيَّ نقلَ إلى الإسلامِ معتقداتٍ وممارساتِ العربِ المشركينَ أو الوثنيّين، خصوصاً إلى طقوسِ الحجِّ إلى مكّة، ومع ذلك يستمرُّ المسلمونَ عموماً في ادّعائهم أنَّ إيمانهم أتى مباشرةً منَ السّماء وأنَّ القرآنَ قد أُنزِلَ على يدِ الملاكِ جبريل منَ اللهِ نفسهِ على محمّد. يعدُّ القرآنُ أزليَّ التكوين، دُوِّنَ في السّماء، موجودٌ هناك كما هوَ في اللّوحِ المحفوظ (سورة البروج: 22، سورة الأنعام 19، سورة القدر) اللهُ هوَ مصدرُ الديانةِ الإسلاميّة – وأن تقولَ بوجودِ مصدرٍ إنسانيٍّ لأيِّ جزءٍ منها هوَ ليسَ فقط جحود ولكنّهُ أيضاً هُراء وبالتأكيدِ تطاولٌ على الذّاتِ الإلهيّة. لربّما يمتلكُ المسلمونَ ذلكَ الخوفَ الآتي منَ اللاوعي من أنّهُ إذا أمكننا إرجاعُ تعاليمِ القرآنِ إلى مصدرٍ بشريٍّ وأرضيٍّ بحت، فحينها سيتداعى كلُّ البناءِ الإسلاميّ، ولكن كما تعوّدَ رينان Renan أن يقول «الأديانُ حقائق، يجبُ أن تُناقَشَ كحقائق، وأن تتعرّضَ إلى قوانينِ النّقدِ التّاريخيّ»109 ولكي نُعيدَ صياغةَ العبارةِ 110،

نقول أنَّ الدراسةَ النّقديّةَ لمصادرِ القرآن ستعطي نتائجَ تاريخيّةً محدّدة، فقط عندما تتمُّ بروحٍ علمانيّةٍ ودنيويّةٍ صِرفة من قبلِ أناسٍ غيرِ متأثّرينَ بعلومِ الدِّينِ الإيمانيّة. حينها فقط سوفَ نستطيعُ الوصولَ ثانيةً إلى شخصيّةِ محمّدٍ التّاريخيّة، وحينها فقط سيمكنُ لحياتهِ الخارقةِ للعادة أن تدخلَ ضمنَ التّاريخِ الإنسانيِّ بمعنىً علمانيٍّ، لنا كلّنا، مسلمينَ وغيرَ مسلمين.

أعمالُ أغناس غولدزيهر وهنري كوربن Henri Corbin عن تأثيرِ الزرادشتيّةِ على الإسلام وأعمالُ جيجر Geiger وتوري Torrey وكاتش Katsch عن تأثيرِ اليهوديّةِ وعملُ ريتشارد بيل Richard Bell الطليعيّ عن تأثيرِ المسيحيّة، وأعمالُ ويلهاوسن Wellhausen ونولدكه Noldeke و هرغرونج Hurgronje و روبرتسون سمث Robertson Smith عن تأثيرِ الصّابئيّةِ وتأثيرِ المحيطِ في الجزيرةِ العربيّةِ في العصرِ الجاهلي، وعملُ آرثر جفري Arthur Jeffery عن المفرداتِ الأجنبيّةِ في القرآن، كلّها تجتمعُ لتجعلنا نتّفقُ مع استنتاجِ زويمر Zwemer أنَّ الإسلامَ « ليسَ اختراعاً، ولكنّهُ خلطة، ليسَ هنالكَ من جديدٍ فيها ما عدا عبقريّةَ محمّدٍ في مزجِ موادٍ قديمة ليكوّنَ وصفةً لعلاجِ كلِّ الآلامِ الإنسانيّةِ وليفرضها بواسطةِ السّيف»111 .

الوثنيّةُ العربيّة:

ليسَ هنالكَ من شكٍّ أنّهُ في فقراتٍ عديدةٍ منَ القرآن «يكسو الطّلاءُ الإسلاميُّ بصورةٍ رقيقةٍ وحلَ أرضيّةٍ وثنيّة» 112 فعلى سبيلِ المثال في سورةِ الفلق : «بسمِ اللهِ الرّحمنِ الرّحيم*قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ*مِن شَرِّ مَا خَلَقَ*وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ* وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ* وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ».

يدينُ الإسلامُ بالكثيرِ من تفاصيلهِ الخرافيّةِ إلى الديانةِ الوثنيّةِ العربيّة، وخصوصاً فيما يتعلّقُ بمناسكِ وطقوسِ الحجِّ إلى مكّة (راجع سورةَ البقرة:153 وسورةَ الحجّ: 28-30 وسورةَ المائدة-41 وسورةَ الحجّ 37)، ونستطيعُ أيضاً أن نجدَ بقايا للوثنيّةِ في أسماءِ بعضِ المعبوداتِ القديمة(سورة النّجم20-19 و سورة نوح 23-22)، وفي الخرافاتِ المتعلّقةِ بالجنِّ والقصصِ القديمةِ كقصّتيّ عادٍ وثمود.

حولَ الكعبةِ مرّةً واحدةً أخرى، وفي اليومِ السّابع، يقومُ (الحاجُّ) بالاستماعِ إلى خطبةٍ في المسجدِ الكبير، وفي اليومِ الثّامنِ ينتقلُ إلى مِنى حيثُ يقومُ بالفروضِ الإسلاميّةِ المعتادةِ ويبيتُ هناك، وفي اليومِ التّاسع، وبعدَ صلاةِ الفجر، ينتقلُ الحاجُّ إلى جبلِ عرفة حيثُ يقامُ منسكُ الوقوفِ بعرفة.

طبقاً للتقليدِ الإسلاميِّ التقى آدمُ وحوّاءُ هناكَ بعدَ هبوطهما منَ الجنّة، هناكَ يردّدُ الحاجُّ الصّلواتِ المعتادةَ ويستمعُ إلى خطبةٍ أخرى موضوعها عن التوبة، ثمَّ يفيضُ إلى مزدلفة، موضعٌ بينَ مِنى وعرفة، وهناكَ منَ المطلوبِ منهُ أن يقيمَ صلاةَ المغرب.

اليومُ التّالي وهوَ العاشر، هوَ يومُ الأضحية، ويُحتفلُ بهِ في أرجاءِ العالمِ الإسلاميِّ كعيدِ الأضحى؛ يؤدّي المتعبّدونَ صلواتهم مبكراً في الصّباحِ في مزدلفة، ثمَّ ينتقلونَ إلى مواضعِ الرَّجمِ الثّلاثةِ في مِنى، يرمي الحاجُّ سبعَ حصواتٍ على كلِّ موضعٍ من مواضعِ الرَّجم، ويسمّى الطقسُ رميَ الجمار، يرمي الحاجُّ عن بعدٍ لا يقلُّ عن خمسةَ عشرَ قدماً ويقولُ «بسمِ اللهِ العظيم أفعلُ هذا ويكرهُ لإبليسَ وخزيه» -كذا- (يكبّرُ فقط عندَ رمي الجمارِ وقد يُدعى إلى الله. المترجم) تُرمى بقيّةُ الجمراتِ في نفسِ اليوم، يعودُ الحاجُّ ويقومُ بالتضحيةِ بعنزةٍ أو حمَل، وبعدَ الوليمة، يحتفلُ الحاجُّ بطقسِ التحلّل، عندما يقومُ الكثيرُ منَ الحجيجِ بحلقِ رؤوسهم أو ببساطة يقومونَ بقصِّ بضعِ خُصَل.

يُضفي المسلمونَ صبغةً منطقيّةً لهذهِ الخرافاتِ العمليّةِ بوصفها رمزاً لمقاومةِ إبراهيمَ لإبليس، والذي حاولَ أن يمنعَ السّلفَ العظيمَ من أداءِ مهمّتهِ الإلهيّةِ في التضحيةِ بابنهِ الغالي إسماعيل؛ التضحيةُ بحملٍ أو عنزةٍ ببساطة تحيي ذكرى فداءِ أضحيةِ إبراهيمَ بكبش.

كيفَ أمكنَ لمقاومٍ للوثنيّة، وشخصٍ موحّدٍ لا يلينُ عن موقفهِ مثلَ محمّد أن يُدخِلَ كلَّ هذهِ الخرافاتِ الوثنيّةِ إلى قلبِ الإسلام؟ معظمُ المؤرّخينَ يوافقونَ على أنّهُ لو رفضَ اليهودُ والمسيحيّونَ موسى ويسوع وفضّلوا اتّباعَ محمّد على أنّهُ نبيٌّ يعلّمُ ديانةَ إبراهيمَ في مكّة عندما اعتبرَ محمّدٌ القدّسَ هيَ القِبلة، لكانت القدّسُ بدلاً من مكّة المدينةَ المقدّسةَ، ولكانت الصخرةُ القديمةُ وليست الكعبة موضعَ التوقيرِ المليءَ بالخرافة.

استقبلَ محمّدٌ أمراً منَ الله وهوَ محبطٌ من عنادِ اليهود، وهوَ يعرفُ أنَّ هنالكَ فرصةً

ضئيلةً كي يقبلوهُ كنبيّهم الجديد، يخبرهُ ذلكَ الأمرُ بتحويلِ القِبلةِ (سورة البقرة 144) منَ القدّسِ إلى الكعبةِ بمكّة، وقد عَلِمَ أنَّ هنالكَ فرصةً لا بأسَ بها في السيطرةِ مستقبلاً على مكّةَ بكلِّ متعلّقاتها التّاريخيّة.

في العامِ السّادسِ للهجرة، حاولَ محمّدٌ أن يدخلَ مكّةَ مع اتباعهِ لكنّهُ فَشِل، التقى المكّيّونَ والمدنيّونَ في الحديبيّةِ على حدودِ المنطقةِ المقدّسة، بعدَ الكثيرِ منَ المفاوضات، وافقَ المسلمونَ على العودةِ إلى المدينة، ولكنّهم أُعطوا الإذنَ بممارسةِ المنسكِ في مكّةَ في العامِ المُقبل. أتى محمّدٌ مع الكثيرِ من اتباعهِ إلى مكّةَ في العامِ السّابعِ للهجرة، وقامَ بالطّوافِ حولَ الكعبةِ مقبّلاً الحجرَ الأسّودَ كجزءٍ منَ الطقوس.

احتُلّت مكّةُ من قِبَلِ محمّدٍ واتباعهِ في العامِ اللاّحق، العامِ الثّامنُ للهجرة، وفي البداية انضمَّ المسلمونَ في موسمِ الحجِّ إلى غيرِ المؤمنينَ منَ العرب، ولكن دونَ وجودِ النبيِّ نفسهِ بينهم، ولكن، وبعدَ ذلكَ بقليل، أعلنَ وحيٌ منَ اللهِ أنَّ كلَّ الاتفاقيّاتِ بينَ المسلمينَ وغيرِ المؤمنين يجبُ أن تُنقَض، وأنّهُ لا أحدَ عدا المؤمنينَ الحقيقيّينَ يمكنهُ أن يصلَ إلى مكّةَ أو أن ينضمَّ إلى موسمِ الحجّ.

وأخيراً نقتبسُ من زويمر:

«في السنةِ العاشرةِ للهج: لآبائه، وأصبحت كلُّ تفصيلةٍ غيرُ قائمةٍ على دليلٍ من تفاصيلِ الفرضِ الذي أدّاه، مسألةٌ من صلبِ الإسلام، وكما يقولُ ويلهاوسن، كانت النتيجةُ «لدينا الآنَ محطّاتٌ لمسيرةٍ في طريقِ الآلام دونَ تأريخِ الآلام نفسه (في إشارةٍ إلى طقوسِ الحجِّ المسيحيّ في القدّس، المترجم) الممارساتُ الوثنيّةُ تُفسّرُ بواسطةِ اختراعِ أساطيرِ إسلاميّةٍ منسوبةٍ إلى شخصيّاتٍ كتابيّة، وكلُّ هذا هوَ خليطٌ غيرُ مفهومٍ منَ التقاليدِ الخياليّة»118.

الإسلامُ هوَ من ابتكارِ وسطِ وغربِ الجزيرةِ العربيّة، ولسوءِ الحظِّ فمعرفتنا بديانةِ العربِ الوثنيّينَ في تلكَ المناطقِ ضئيلة. اضطرَّ الباحثونَ بسببِ فقدانِ الدليلِ المنقوش للاعتمادِ على ابنِ الكلبيّ (توفّيَ عام 819 للميلاد) مؤلّفِ كتابِ الأصنام، حولَ أسماءِ الأعلامِ التي تحملُ اسماً لإله؛ بمعنى الأسماءِ التي تصفُ حاملها كعبدٍ أو هديّةٍ أو فضل..

إلخ، لهذا الإلهِ أو ذلك، ويدورُ الكتابُ أيضاً حولَ وصلاتٍ منَ الشّعرِ الجاهليّ وحولَ تلميحاتٍ مثيرةٍ للجدلِ في القرآن «وختاماً» نقتبسُ من نولدكه (ناقد للقرآن. المترجم)

«يجبُ أن نأخذَ بالحسبان الحقيقةَ القائلةَ أنَّ محمّداً أدخلَ إلى دينهِ عدداً منَ الممارساتِ والاعتقاداتِ الوثنيّة، مع تعديلٍ بسيطٍ أو دونَ أيِّ تعديل، وإنَّ بقايا الوثنيّةِ المختلفةِ أيضاً، والتي هيَ دخيلةٌ على الإسلامِ السُّنّيّ، قد احتُفِظَ بها من قِبَلِ العربِ إلى عصرنا هذا (نهايةُ القرنِ التّاسعَ عشر، المترجم) إنَّ منَ المسائلِ المعتادِ ملاحظتها أنَّ تبنّي إيمانٍ جديد، لا يحوّلُ بطريقةٍ كاملةٍ المعتقداتِ الشعبيّةَ، وأنَّ المفاهيمَ القديمة، متنكرةٌ بحملها مسمّياتٍ مختلفةً نوعاً ما، عادةً ما تبقى بتشريعٍ أو بلا تشريع منَ السُّلطاتِ الدينيّة»119

وممّا يمكنُ إضافتهُ أنَّ محمّداً ركّزَ في الحجِّ الإسلاميِّ بصورةٍ بارعة، عدّةَ طقوسٍ كانت قبلاً تتمُّ بصورةٍ مستقلّةٍ تماماً في مقاماتٍ مقدّسةٍ وأماكنَ أخرى.

كانَ المجتمعُ ما قبلَ الإسلاميِّ في الجزيرةِ العربيّةِ منظّماً حولَ القبيلة، وكانَ لكلِّ قبيلةٍ معبودها الرئيسيُّ الذي كانَ يُعبَدُ في مقامٍ ثابتٍ حتّى من قِبَلِ البدوِ المرتحلين. استقرَّ المعبودُ في صخرةٍ ولم تكن الصخرةُ بالضرورةِ منحوتةً في شكلٍ آدميّ، أحياناً كانت الصخرةُ المقدّسةُ تمثالاً، وأحياناً أخرى ببساطة جلموداً كبيراً أو صخرةً شكلها يشبهُ شكلَ إنسان، ومنَ الواضحِ أنَّ العربَ الوثنيّينَ تخيّلوا أنَّ كتلةَ الصخرِ التي تقومُ مقامَ الطوطم (صخرةٌ أو شجرةٌ أو جبلٌ هوَ محلُّ استقرارِ الإله) قد تخلّلتها الطّاقةُ الإلهيّة، وهكذا فهيَ مصدرٌ للتأثيرِ الإلهيّ.

أسماءُ التلّين: الصفا والمروة، يعنيانِ صخرة، بما معناه، وثن. كانَ الوثنيّونَ يركضونَ بينَ التلّينِ لكي يلمسوا ويقبّلوا إساف ونائلة، وقد وُضِعَت الأصنامُ هناكَ كوسيلةٍ لاجتلابِ الحظِّ والسَّعد.

الحجرُ الأسْودُ المقدّسُ وهُـبَـل:

لدينا الدليلُ على أنَّ الحجرَ الأسْودَ كانَ يُعبَدُ في مختلفِ أجزاءِ الجزيرةِ العربيّة، على سبيلِ المثال، يذكرُ كليمنضوس الإسكندرانيّ عام 190 للميلاد أنَّ« العربَ يعبدونَ حجراً» ملمّحاً إلى الحجرِ الأسْودِ لذي الشَّرى (ذو الشَّرى هوَ الإلهُ القوميُّ للأنباط) في

البتراء. ماكسيموس تيريوس Maximus Tyrius كتبَ في القرنِ الثّاني قائلاً: «سكّانُ العربيّةِ يتوجّهونَ بالعبادةِ إلى ما لا أعرفُ أيَّ إلهٍ هوَ، والذي يرمزونَ إليهِ بحجرٍ مكعّب»، وهوَ يلمّحُ إلى الكعبةِ التي تحتوي على الحجرِ الأسْود. قِدَمُ الحجرِ الأسْودِ الكبير مشهودٌ لهُ أيضاً من معرفتنا أنَّ الفُرسَ القُدامى يدّعونَ أن ماهاباد وخلفاءهُ تركوا الحجرَ الأسْودَ في الكعبة، بالإضافةِ إلى آثارٍ وصورٍ أخرى، وأنَّ الحجرَ يرمزُ إلى زُحَل.

في جوارِ مكّةَ توجدُ حجارةٌ مقدّسةٌ أخرى والتي كانت في البداية طواطم، «ولكنّها اكتسبت شخصيّةً محمّديّةً(إسلاميّة) سطحيّاً من خلالِ جعلها ذاتَ علاقةٍ بشخصيّةٍ مقدّسةٍ معيّنة»120

منَ المؤكّدِ أنَّ الحجرَ الأسْودَ نفسهُ، هوَ نيزكٌ وأنّهُ يدينُ بقدسيّتِهِ بلا شكٍّ إلى حقيقةِ أنّهُ سقطَ منَ « السّماء»، ومن سخريةِ القدر أنَّ المسلمينَ يقدّسونَ قطعةً منَ الحجرِ بكونها أُعطيَت لإسماعيلَ من قِبَلِ الملاكِ جبريل ليبني الكعبة، مع العلمِ أنَّ، ونقتبسُ من مارغوليوث Margoliouth: «الحجرَ مشكوكٌ بأصالته، وذلكَ أنَّ الحجرَ الأسْودَ قد رُفِعَ من مكانهِ على يدِ....القرامطةِ في القرنِ الرابعِ للهجرة، وأُعِيدَ من قبلهم بعدَ ذلكَ بعدّةِ سنين، ومن الممكنِ أن يشكَّ المرءُ إن كانَ الحجرُ الذي أعادوه، كانَ نفسَ الحجرِ الذي رفعوهُ من مكانه»121

كانَ هُبَل يُعبَدُ في مكّة، وكانَ الصّنمُ الذي يمثّلهُ مصنوعاً منَ العقيقِ الأحمر منتصباً داخلَ الكعبةِ فوقَ البئرِ الجافِّ الذي يُلقي فيهِ المرءُ تقدّماتٍ نذريّة، وممّا يحتملُ بشدّة أنّهُ كانَ لهُبَلٍ شكلٌ بشريّ. يقترحُ موقعُ انتصابِ هُبَل قربَ الحجرِ الأسْود أنَّ هنالكَ علاقةً بينَ الاثنين. يقترحُ ويلهاوسن أنَّ هُبَل كانَ في الأصلِ الحجرَ الأسْود والذي كما قد اشرنا، كانَ أقدمَ منَ الصّنم. يشيرُ ويلهاوسن أيضاً إلى أنَّ اللهَ يسمّى ربَّ الكعبةِ وربَّ منطقةِ مكّةَ في القرآن (إشارةً إلى ما جاءَ في القرآن «فليعبدوا ربَّ هذا البيت»، المترجم) قاومَ النبيُّ فروضَ العبادةِ المقدّمةِ في الكعبةِ إلى الإلهاتِ اللاّتِ ومناةِ والعُزّى، واللاتي أسماهنَّ أهلُ مكّةَ بناتِ الله، لكنَّ محمّداً امتنعَ عن مهاجمةِ عبادةِ هُبَل، لهذا يستنتجُ ويلهاوسن أنَّ هُبَلاً لم يكن غيرَ الله» إلهِ أهلِ مكّة، عندما هزمَ المكيّونَ النبيَّ قربَ المدينةِ قيل أنَّ قائدهم صاحَ « أعلوا هُبَل».

كانَ الطّوافُ بالمقاماتِ طقساً شائعاً جدّاً ويمارسُ في مناطقَ عديدة، وكانَ الحاجُّ خلالَ طوافهِ عادةً ما يقبّلُ أو يحتضنُ الصّنم. يعتقدُ السير ويليام مور أنَّ الطّوافَ سبعاً حولَ الكعبة « كانَ ربّما رمزاً لدورانِ الكواكبِ السيّارة»122(الشّمس، عطارد، الزُّهرة، القمر، المرّيخ، المشتري، زُحَل)، بينما يذهبُ زويمر بعيداً بقولهِ أنَّ الطّوافَ سبعاً حولَ الكعبة، ثلاثَ مرّاتٍ هرولةً وأربعَ مرّاتٍ مشياً كانت «تقليداً للكواكبِ الداخليّةِ والخارجيّة»123.

إنَّ منَ المؤكّدِ أنَّ العربَ «في فترةٍ متأخّرةٍ نسبيّاً قد عبدوا الشّمسَ والأجسامَ السّماويّةَ الأخرى»124. تظهرُ مجموعةُ الثُّريّا النجميّة، وهيَ التي منَ المفروضِ أن تُنزِلَ المطرَ، كمعبود. كانت هنالكَ أيضاً عبادةُ كوكبِ الزُّهرة والتي تكرّمُ كآلهةٍ عظيمةٍ تحتَ مُسمّى العُزّى.

نعرفُ منَ العددِ الكبيرِ منَ الأسماءِ التي تتعلّقُ بالآلهة أنَّ الشّمسَ كانت من ضمنِ المعبودات، الشّمسُ كانت تدخلُ في ألقابِ العديدِ منَ القبائل (كبني عبدِ شمس، المترجم) وتكرّمُ من خلالِ مقامٍ وصنم. يرى سنوك هرغرونج125 وجودَ أثرٍ لعبادةِ الشّمسِ في منسكِ الوقوفِ بعرفة.

تعرفُ أيضاً الإلهةُ اللاّتُ أحياناً بمعبودٍ شمسيّ، وكانَ الإلهُ ذو الرّيحِ على الأغلبِ إلهاً للشّمسِ المشرقة، ومنَ الواجبِ أن يكونَ المنسكُ الإسلاميُّ في الرّكضِ بينَ عرفةَ ومزدلفةَ وبينَ مزدلفةَ ومِنى تامّاً بعدَ غروبِ الشّمسِ وقبلَ شروقها. كانَ هذا تغيراً مقصوداً أُدخِلَ من قِبَلِ محمّد لكي يغطّي هذا الارتباطَ بطقسِ عبادةِ الشّمسِ الوثنيّ، والذي سنشاهدُ أهمّيّتهُ لاحقاً، وممّا يشهدُ لوجودِ عبادةٍ قمريّة هيَ أسماءُ الأعلامِ كهلال وقمر..الخ.

وقد اقترحَ هوتسما Houtsma 126 أنَّ الرَّجمَ الذي يتمُّ في مِنى كانَ في الأصلِ موجّهاً إلى عفريتِ الشّمس، وممّا يؤكّدُ إمكانيّةَ هذهِ الفكرة الحقيقةُ القائلةُ أنَّ الحجَّ كانَ في الأصلِ مرتبطاً بالاعتدالِ الخريفيِّ (اليومُ منَ السنةِ عندما يكونُ طولُ النّهارِ مثلَ طولِ الليل، المترجم)، فيُطرَدُ عفريتُ الشّمسِ و ينتهي حكمةُ الظّالمُ بحلولِ الصّيف، والذي

يتبعهُ عبادةُ إلهِ الرَّعدِ الذي يجلبُ الخصْبَ في مزدلفة.

كانت مزدلفةُ موضعاً لعبادةِ النّار، يشيرُ المؤرّخونَ المسلمون إلى هذا التلِّ كتلِّ النّارِ المقدّسة، كانَ إلهُ مزدلفةَ هوَ قُزَح (صاحبَ قوسِ قُزَح أو قوسِ الطّيف...الكلمةُ الوحيدةُ في العربيّةِ التي ما زالت تحملُ محتوىً وثنيّاً جاهليّاً، المترجم)، وكانَ إلهاً للرّعد، وكما يقولُ وينسنك: «النّارُ كانت توقدُ في الجبلِ المقدّسِ وتسمّى أيضاً قُزَح، وكانَ يقامُ هناكَ وقوف، وكانَ هذا الوقوفُ ذو شبهٍ عظيمٍ بذلكَ الذي على سيناء، وفي كلتا الحالين كانَ إلهُ الرّعدِ يظهرُ في النّار، وممّا يمكنُ احتمالُهُ أيضاً أنَّ العادةَ التقليديّةَ في إيجادِ أكبرِ قدرٍ منَ الضجيجِ والصّياحِ كانت في الأصلِ تعويذةً لجلبِ التعاطفِ ومخاطبةِ الرّعد.»127

لفريزر Frazer في كتابهِ المراوةُ الذهبيّة تفسيرٌ آخرُ لطقسِ رمي الجمار:

«كانَ الحافزُ لرمي الجمارِ أحياناً لدفعِ شرِّ روحٍ شريرة، وأحياناً للتخلّصِ من شرٍّ معين، وأحياناً كانت لجلبِ الخيرِ، وفي أحيانَ أخرى، وإذا كانَ بإمكاننا أن نتتبّعَ الرميَ إلى أصولهِ في ذهنِ الإنسانِ البدائيِّ، ربّما سنجدُ أنَّ كلَّ هذهِ التقاليدِ ترجعُ بشكلٍ أو بآخر إلى مبدأِ نقلِ الشرّ...... وهذا ربّما يفسّرُ طقسَ رمي الجمار في مكّة.. ربّما كانت الفكرةُ الأصليّةُ أنَّ الحاجَّ يطهِّرُ نفسهُ بواسطةِ نقلِ نجاستهم الرُّوحيّةِ إلى الأحجارِ التي كانوا يميلونَ عليها الحجارة.»128

وطبقاً إلى جوينبول Juynboll، كانَ للحجِّ في الأساسِ طبيعةٌ سحريّة.

«كانَ هدفهُ في الأزمنةِ المبكرةِ، هوَ استجلابَ سنةٍ جديدةٍ سعيدةٍ بمطرٍ غزيرٍ وسطوعٍ للشّمس ووفرةٍ في الخيراتِ وكثرةٍ في الماشيةِ والحبوب. كانت الكثيرُ منَ النذورِ تُحرَقُ في عرفاتَ ومزدلفة، ربّما لتحفيزِ الشّمسِ على السُّطوعِ في السّنةِ الجديدة، كانَ الماءُ يُصَبُّ على الأرضِ كتعويذةٍ ضدَّ الجفاف، وربّما كانَ رميُ الجمارِ في أماكنَ معيّنةٍ في مِنى وهوَ أثرٌ لوثنيّةٍ بدائيّةٍ في الأصل رمزاً للتخلّصِ من ذنوبِ السّنةِ السّابقة، وهكذا كانت نوعاً منَ التعاويذِ ضدَّ العقابِ الإلهيِّ والحظِّ السيّئ»129.

بصورةٍ مشابهة، يمكنُ أن تكونَ للإفاضةِ من عرفةَ إلى مزدلفة ومن مزدلفةَ إلى مِنى معنىً سحري، وربّما كانَ الاحتفالُ بالعيدِ عندَ نهايةِ كلِّ المناسكِ رمزاً للغزارةِ في الخيراتِ

المتوقّعةِ في نهايةِ السّنة، وكانت فروضُ الامتناعِ المختلفةِ على الحاجّ في الأساس وسيلةً لنقلِ الحاجّ إلى حالةٍ من الطّاقةِ السحريّة.

الكعبة:

كانَ الوثنُ على العمومِ يوضعُ في حرمٍ مقدّسٍ محدّدٍ بالصخور، وكانَ هذا النطاقُ المقدّسُ مجالاً لطلبِ الالتجاءِ للأحياءِ كلّها، وعادةً ما يجدُ المرءُ بئراً في هذا النطاقِ المقدّس، ونحنُ لا نعلمُ متى بُنيَت الكعبةُ أوّلاً، ولكنَّ اختيارَ الموضعِ يدينُ إلى وجودِ بئرِ زمزم، والتي توفّرُ الماءَ الثّمينَ للقوافلِ التي تمرُّ بمكّةَ في طريقها إلى اليمنِ أو إلى الشّام.

كانَ المؤمنونَ يُظهرونَ تكريمهم بتقدّماتٍ وأضحيات، وكانَ في داخلِ الكعبةِ بئرٌ جافّةٌ توضعُ فيهِ التقدّمات، والحاجُّ القادمُ لتكريمِ الوثن عادةً ما يحلقُ رأسهُ ضمنَ النطاقِ المقدّسِ أو الحرم، ومنَ الملاحظِ أنَّ كلَّ هذهِ المناسكِ موجودةٌ بشكلٍ أو بآخرَ في الإسلام.

طبقاً لما ذكرهُ المؤلّفونَ المسلمون، كانت الكعبةُ في البدايةِ مبنيّةً في السَّماء، حيثُ يوجدُ نموذجٌ لها لحدِّ الآن (يقصدُ البيتَ المعمور، المترجم)، وذلكَ بألفيْ سنةٍ قبلَ خلقِ الكون. شيّدَ آدمُ الكعبةَ على الأرض ولكنّها دُمِّرَت خلالَ الطوفان. عَلِمَ إبراهيمُ كيفَ يعيدُ بنائها، وقد ساعدَ إسماعيلُ إبراهيمَ في ذلك، وخلالَ بحثهِ عن حجرٍ ليعلّمَ موضعَ الزّاويةِ منَ البناء، قابلَ إسماعيلُ الملاكَ جبريل، والذي أعطاهُ الحجرَ الأسْود، والذي كانَ آنذاكَ أكثرَ بياضاً منَ اللّبن، وقد اسودَّ لونهُ فيها بعد من حملهِ لخطايا هؤلاءِ الذينَ يلمسونه، وهذا، بالطبع، هوَ تطويعٌ للأسطورةِ اليهوديّةِ عن وجودِ أورشليمَ الأرضيّة وأورشليمَ السَّماويّة (وهذا ما لاحظتهُ قبلَ أن اقرأ الكتاب، المترجم).

بالرّغمِ من كونِ موير وتوري مقتنعانِ بأنَّ المصدرَ الإبراهيميَّ للكعبةِ كانَ معتقداً شائعاً لفترةٍ طويلةٍ قبلَ عصرِ محمّد، إلّا أنَّ سنوك هرغرونج ولويس سبرنغر متّفقانِ على أنَّ الرَّبطَ بينَ إبراهيمَ والكعبة كانَ اختراعاً شخصيّاً لمحمّد، وقد خدمَ ذلكَ كوسيلةٍ لتحريرِ الإسلامِ منَ اليهوديّة، واستنتاجُ سبرنغر هوَ استنتاجٌ قاسٍ حيثُ يقول: «بهذهِ الكِذبة،... أعطى محمّدٌ للإسلام كلَّ ما يحتاجهُ الإنسان، والذي يُفرّقُ بينَ الديانةِ والفلسفة، لقد أعطاهُ قوميّةً وطقوساً وذكرياتٍ تاريخيّةً وأسراراً، مع ضمانٍ لدخولِ الجنّة، وفي نفسِ

الوقت سالباً منهُ وعيهُ ووعيَ الآخرين»130.

الله:

يدينُ الإسلامُ أيضاً بمصطلحِ «الله» إلى العربِ الوثنيّين، لدينا دليلٌ على أنَّ المصطلحَ دخلَ إلى أسماءِ أشخاصٍ عديدينَ في شمالِ الجزيرةِ العربيّةِ وعندَ الأنباط، وهوَ يتكرّرُ عندَ العربِ في الأزمنةِ اللاّحقة، وذلكَ في الأسماءِ المركّبةِ من أسماءِ آلهة وفي استخدامِ الاسمِ لمفرده. يقتبسُ ويلهاوسن أيضاً منَ الأدبِ الجاهليِّ حيثُ يُذكَرُ اللهَ كمعبودٍ عظيم، ولدينا أيضاً شهادةُ القرآنِ نفسهِ حيثُ هوَ الإلهُ المعروفُ بإنزالِ المطر وهوَ الخالقُ و نحوَ ذلك، كانت كلُّ جزيرةِ المكّيّين أنهم عبدوا آلهةً أخرى، وفيما بعد أُطلِقَ اسمُ الله فقط على الإلهِ الأعلى، «وعلى أيِّ حال منَ المهمِّ جدّاً تذكّرُ الحقيقةِ القائلةِ بأنَّ محمّداً لم يجد أنّهُ منَ الضروريِّ إدخالُ إلهٍ جديدٍ دفعةً واحدة، ولكنّهُ اقنعَ نفسهُ بتخليصِ اللهِ الوثنيِّ من شركائهِ معرّضاً إيّاهُ إلى نوعٍ منَ التطهيرِ العقائديّ.... لو لم يكن معتاداً منذُ صغرهِ على فكرةِ الله الإلهِ الفائق، بالتحديدِ إلهِ مكّةَ الفائق، لكانَ منَ المشكوكِ فيهِ أن يُقدِمَ على دعوةٍ إلى التوحيد.»131

اقتبسَ، أو بالأحرى احتفظَ، القرآنُ بالعاداتِ التّاليةِ منَ العربِ الوثنيّين؛ تعدّدُ الزّوجات، العبوديّة، الطلاقُ سهلُ الوقوعِ وقوانينُ اجتماعيّةٌ عامّةٌ أخرى، الختان، وطقوسُ التطهير. شاركَ كلٌّ من وينسنك ونولدكه و غولدزيهر في دراسةِ العناصرِ الأرواحيّة (الأرواحيّة: الاعتقادُ بأنَّ الأرواحَ المقدّسةَ تسكنُ في الجمادات، المترجم) في الطقوسِ المتعلّقةِ بالصّلاةِ الإسلاميّة132، ففي التحضيرِ للصّلواتِ الخمس، خصوصاً أثناءَ عمليّةِ الوضوء، الهدفُ هوَ تحريرُ المتعبّدِ من وجودِ أو تأثيرِ الأرواحِ الشريرة، ولا علاقةَ لهُ البتّة بمجرّدِ النقاءِ الجسدي، ومنَ الواضحِ من خلالِ معرفةِ عددٍ لا يُحصى منَ التقاليد أنَّ محمّداً نفسهُ روّجَ لعددٍ لا يُحصى منَ الاعتقاداتِ الخرافيّةِ فيما يتعلّقُ بالطُّهرِ منَ الشّياطين، وهوَ الموضوعُ الذي أخذهُ من وثنيّتهِ السّائدةِ في فترةِ شبابه. وطبقاً لإحدى التقاليد، فقد قالَ محمّد: «إذا استيقظَ أراه أحدكم من نومهِ فتوضّأ، فليستنثر ثلاثاً فإنَّ الشّيطانَ يبيتُ على خيشومهِ.» (يستنثر= يتمخط، رواهُ البخاريُّ والنّسائيُّ وأحمد

والرّوايةُ للبخاري، المترجم) وفي مناسبةٍ أخرى وعندما رأى محمّدٌ أنّ رجلاً قد تركَ بقعةً على قدمِهِ لم يمسسها الماء، أخبرَ الرّجلَ أن يعودَ فيتوضّأ بشكلٍ أفضلَ ثمّ وعظهُ قائلاً: «إذا توضّأ العبدُ المسلمُ أو المؤمن فغسلَ وجههُ خرجت من وجههِ كلُّ خطيئةٍ نظرَ إليها مع الماءِ أو مع آخرِ قطرِ الماء، فإذا غسلَ يديهِ خرجت من يديهِ كلُّ خطيئةٍ كانت بطشتها يداهُ مع الماء، فإذا غسلَ رجليهِ خرجت كلُّ خطيئةٍ مشتها رجلاهُ مع الماء أو مع آخرِ قطرِ الماء حتّى يخرجَ نقيّاً منَ الذنوب» (رواهُ مسلمٌ والترمذيّ وأحمد والدّارميّ والرّوايةُ لمسلم، المترجم)، وهذا القولُ يؤكّدُ ما يذهبُ إليهِ غولدزيهر: أنّهُ طبقاً للتصوّرِ السّاميّ (منَ الشّعوبِ السّاميّة، المترجم) فالماءُ يذهبُ حاملاً الشّياطين، وكانَ النبيُّ معتاداً على «غسلِ» قدميهِ بينما هوَ مرتدٍ لنعلينِ من خلالِ المسحِ بيديهِ خارجَ النعلينِ بكلِّ بساطة.

تقليديّاً، منَ المطلوبِ على المسلمِ أن يغطّي رأسهُ، خصوصاً مؤخّرةَ جمجمته، يعتقدُ وينسنك Wensinck أنّ المطلوبَ من هذا هوَ منعَ الأرواحِ الشريرةِ من دخولِ الجسم. العديدُ منَ الحركاتِ التعبيريّةِ والتحرّكات، وصوتِ المؤذّن، ورفعِ اليدين...الخ، قد عُرِّفت على أنّها ممارساتٌ أرواحيّةٌ في الأصل، وقد استُخدِمَت بصورةٍ متكرّرةٍ بدافعِ طردِ الأرواحِ الشّرّيرة.

الزرادشتيّة:

إنّ نظريّةَ تأثيرِ الزرادشتيّة (والتي تُسمّى أحياناً بالبارسيّة)(من بارسيّين، الجاليةُ الزرادشتيّةُ في الهند. المترجم) والتي هيَ من الدياناتِ العالميّةِ قد عُورِضَت (النظريّة) من قبلِ العديدِ من المختصّين ودُوفِعَ عنها بضراوةٍ من قبلِ آخرين. يصرّحُ ويدينغرين بلا تردّد:

«الأهمّيّةُ التّاريخيّةُ للدياناتِ الإيرانيّةِ تقعُ في الدورِ الكبيرِ الذي لعبتهُ في التطوّراتِ الإيرانيّةِ وفي التأثيرِ المهمّ للدياناتِ ذاتِ الطّابعِ الإيرانيّ على الغرب، خصوصاً الديانةَ اليهوديّةَ في عصرِ ما بعدَ السّبي، وعلى الدياناتِ السّرّيّةِ الهنلستيّة (المتأثّرةِ بالحضارةِ اليونانيّة، المترجم) مثلَ المثرائيّة (ممارسةِ عبادةِ مِثرا (إلهٌ فارسيٌّ) لدى الرّومان، العباداتُ السّرّيّةُ الأخرى تشملُ أيضاً عبادةَ إيزيس المصريّة وباخوس اليونانيّ، تسمّى سرّيّةً

لأنّها تتضمّنُ طقوساً سرّيّة، المترجم) والتأثيرَ على الغنوصيّةِ (ديانةٌ مسيحيّةٌ تعتقدُ أنَّ المادّةَ شرّ والرُّوحَ خير وإنَّ الخلاصَ يكونُ عن طريقِ معرفةِ الحكمة، المترجم) وعلى الإسلام، والذي نجدُ فيهِ أفكاراً إيرانيّةً في التشيّع، أهمُّ مذاهبِهِ في القرونِ الوسطى، وفي الأخرويّاتِ والأشراطِ الشّائعة (العقائدُ المتعلّقةُ بالأيّامِ الأخيرة)»133.

ويدنغرين Widengren وضّحَ التأثيرَ الزرادشتيَّ على العهدِ القديمِ خلالَ فترةِ السّبيِّ البابليِّ لليهودِ في كتابِهِ الأديانِ الإيرانيّة1965 (Die Religionen Irans).. ربّما كانَ مورتون سميث Morton Smith أوّلَ من أشارَ إلى التشابهاتِ المدهشةِ بينَ أشعياء الإصحاحات من 40–48 والتراتيلِ الزرادشتيّةِ المعروفةِ بـ الغاثا gatha (مؤلّفةٌ من قِبَلِ زرادشت نفسِهِ، المترجم)، خصوصاً الغاثا 44: 3–5، فالتلميحُ إلى أنَّ اللهَ خلقَ الضّياءَ والظّلام يظهرُ في المؤلّفين. وكانَ جون هينلز John Hinnels قد كتبَ عن «التخيُّلاتِ الزرادشتيّةِ عن المخلّصِ وتأثيرها على العهدِ الجديد»، وكيفَ أنَّ هذا التأثيرَ قد أتى منَ الاحتكاكاتِ بينَ اليهودِ والفرثيّين (المملكةُ الإيرانيّةُ خلالَ بضعةِ قرونٍ قبلَ وبعدَ الميلاد) وذلكَ في القرنِ الثّاني قبلَ الميلاد، وفي أواسطِ القرنِ الأوّلِ قبلَ الميلاد134.

لقد تأثّرَ الإسلامُ بصورةٍ مباشرةٍ بالديانةِ الإيرانيّة، ولكنَّ التأثيرَ غيرَ المباشرِ على الإسلام من قِبَلِ اليهوديّةِ والمسيحيّة، هوَ شيءٌ غيرُ مشكوكٍ فيه، ولهذهِ الأسباب، منَ المفيدِ أن نُتابعَ المسائلَ المتناظرةَ بينَ اليهوديّةِ والزرادشتيّة.

«يُشكّلُ أهورا مزدا، رَبُّ إيرانَ الأعلى، كُلّيُّ القدرة، كُلّيُّ الوجود، وأزليّاً ذو قدرةٍ خلّاقة، يمارسها بالخصوصِ من خلالِ سبينتا ماينيو – الرُّوحُ القُدُس -Spenta Mainyu-Holy Spirit (سبينتا ماينيو تعني بالفارسيّةِ القديمةِ حرفيّاً الرُّوحَ القُدُس، المترجم)، ويحكمُ العالمَ من خلالِ مؤسّسةٍ منَ الملائكةِ وكبارِ الملائكة، يُشكّلُ النظيرَ الأقربَ في العصورِ القديمةِ إلى يهوه، ولكنَّ قدرةَ أهورا مزدا معاقةٌ من قِبَلِ غريمِهِ أهريمان، والذي ستدمرُّ مملكتُهُ، كما ستدمرُّ مملكةُ الشّيطان، في نهايةِ العالم.... هنالكَ متناظراتٌ مدهشة... في تعاليمهما الأخرويّة، عقيدةُ تبديلِ العالمِ بعالمٍ جديد، عقيدةُ ملكوتٍ مثالي، قدومُ المسيح، قيامةُ الأموات. كلتا الديانتين... ديانتانِ موحىً بهما، في واحدةٍ منهما يوحي أهورا مزدا وينطقُ بأوامرِهِ إلى زرادشت على الجبلين المتقاربَينِ المقدّسَين، وفي الثّانيةِ يتقاربُ يهوه

مع موسى في سيناءَ بصورةٍ مُشابهة. أيضاً فقوانينُ الطَّهارةِ الزرادشتيّة، خصوصاً تلكَ التي تقامُ لإزالةِ النجاسةِ الحاصلةِ من ملامسةِ مادّةٍ ميّتةٍ أو غيرِ طاهرة، تُوضَّحُ في كتابِ فينديداد في الافيستاAvestan Vendidad (الكتبُ المقدَّسةُ الزرادشتيّة) بشكلٍ واسعٍ ومقاربٍ لما جاءَ في شريعةِ اللاويّين.....أيّامُ الخليقةِ الستّةِ في سفرِ التكوين تجدُ لها نظيراً في فتراتِ الخلقِ الستّةِ الموصوفةِ في الأسفارِ الزرادشتيّة. طبقاً لكلا الديانتين ينحدرُ الجنْسُ البشريُّ من زوجٍ واحد ويكونُ ماشيا (الرَّجل) وماشيانا-Mashya and Mashya-na الشخصيّتانِ الايرانيّتانِ المقابلتانِ لآدمَ وحواء. في الكتابِ المقدّس، يدمِّرُ طوفانٌ كلَّ البشريّةِ ماعدا شخصٍ بارٍّ واحدٍ مع عائلته، بينما يقضي شتاءٌ على سكّانِ الأرضِ ماعدا هؤلاءِ القاطنينَ في فارا vara (حمى) ييما Yima المبارك، وفي كلتا الحالتين تعمرُ الأرضُ ثانيةً بأفضلِ زوجينِ من كلِّ نوعٍ منَ المخلوقات، وبعدَ ذلكَ تقسمُ إلى ثلاثِ ممالك. أبناءُ خليفةِ ييما، وهوَ ثرايتاونا Thraetaona، الثلاثي إيريا Airya، سايريما Sairima و تورا Tura (إيرياه جدُّ الأيرانيّين وتورا هوَ جدُّ الأتراكِ والبدوِ شمالَ ايران وسايريما هوَ جدُّ القاطنينَ إلى الغربِ من إيران، المترجم) هم ورثةُ الأرضِ في المصدرِ الفارسيِّ كما أنَّ سامَ وحامَ ويافث هم ورثةُ الأرضِ في القصّةِ السّاميّة. تأثّرت اليهوديّةُ أيضاً بصورةٍ شديدةٍ بالزرادشتيّةِ فيما يتعلّقُ بنظرتها إلى عالمِ الملائكةِ وعالمِ الجنّ، وربّما كذلكَ فيما يتعلّقُ بعقيدةِ قيامةِ الأموات»135.

ربّما كانَ غولدزيهر أوّلَ متخصّصٍ معروفٍ بالدراساتِ الإسلاميّة، يأخذُ بجدّيّةٍ فكرةَ التأثيرِ المباشرِ للزرادشتيّةِ على الإسلام، ففي مقالتهِ يعتمدُ كثيراً على هذا الطرح136.

يشيرُ الانتصارُ الإسلاميُّ على الجيشِ الفارسيِّ السّاسانيِّ في معركةِ القادسيّة عام 636 بعدَ الميلاد إلى بدايةِ الاحتكاكِ بينَ الشعبين، وكانَ لهذا الاحتكاكِ ثقافةٌ راقيةٌ ذاتُ تأثيرٍ كبيرٍ على العربِ والإسلام، وكانَ مقدّراً للفُرسِ المؤمنينَ حديثاً أن يجلبوا للإسلامِ حِسّاً جديداً بالحياةِ الدينيّة.

عندما أُطيحَ بالسُّلالةِ الأمويّة، أوجدَ العبّاسيّونَ دولةً دينيّةً تحتَ تأثيرِ الأفكارِ الدينيّةِ-السياسيّةِ الفارسيّة، وفعلاً كانت ثورةُ أبي مسلم الخراساني والتي أتت بالعبّاسيّينَ إلى السُّلطةِ في الأصل حركةً فارسيّة، وقد قُدِّرَ للعبّاسيّينَ أن يتبنّوا العديدَ منَ التقاليدِ

السّاسانيّة، فقد أخذوا لقبَ ملكِ بلادِ فارس وذلكَ لمعرفتهم بالعلاقةِ بينَ مؤسّسةِ الخلافةِ ومفهومِ المُلكِ (بضمِّ الميم) الفارسيّ. كانت مملكتهم دولةً دينيّةً مؤسّساتيّة وكانوا هم رؤوسها الدينيّين، ومثلَ السّاسانيّين عدّوا أنفسهم أشخاصاً مقدّسين، كانت هنالكَ علاقةٌ حميمةٌ بينَ الحكومةِ والدّين ليسَ بشكلٍ علاقةٍ متبادلة، بل التحاماً تامّاً بينهما، كانت الحكومةُ والدينُ شيئاً واحداً، لذلكَ كانَ الدينُ حكومةً للشّعب.

إنَّ مفهومَ نيلِ الحسناتِ من خلالِ قراءةِ الأجزاءِ المختلفةِ منَ القرآن هوَ صدى للمعتقدِ الفارسيِّ في نيلِ البرِّ بقراءةِ الفينديدا الافيستيّ، وفي كلا المعتقدين تحرِّرُ قراءةُ الكتابِ المقدّسِ الإنسانَ منَ الإثمِ الذي يكتسبهُ في الدنيا، فهوَ ضروريٌّ حتّى لخلاصِ الرُّوح. المسلمونَ والزرادشتيّونَ كلّهم يقرءونَ كتابهم المقدّسَ بعدَ موتِ فردٍ من أفرادِ أسرتهم بعدّةِ أيّام، وكلا المُجتمَعَيْنِ يعارضانِ إبداءَ مظاهرِ الحزنِ والجزع بسببِ حالةِ الوفاة.

استعارت العقيدةُ الإسلاميّةُ الميزان، وهوَ أداةُ الوزنِ التي ستوزنُ عليها أعمالُ الإنسانِ منَ الفُرس (سورةُ الأنبياء: 47)، وتحتَ تأثيرِ الاعتقادِ بالميزان، يحسبُ المسلمونَ قيمةَ الأعمالِ الحسنةِ والسيّئة بوحداتِ الوزن، على سبيلِ المثال، يُروى أنَّ النبيَّ قالَ يوماً: «من صلّى على جنازةٍ فلهُ قيراط فإن شَهِدَ دفنها فلهُ قيراطان القيراطُ مثلُ أحد..» (رواهُ البخاريُّ وأحمد، والرّوايةُ للبخاريّ، المترجم)، الصّلاةُ في جماعةٍ لها قيمةُ خمسٍ وعشرينَ مرّةً قدرَ الصّلاةِ مفرداً.

طبقاً للمعلّقينَ المسلمين، سيحملُ الملاكُ جبريلُ في يومِ الحسابِ الميزانَ الذي توزنُ عليهِ الأعمالُ الحسنةُ والسيّئة، وسيكونُ أحدُ طرفَيِّ الميزانِ معلّقاً فوقَ الجنّةِ والآخرَ فوقَ النّار، وبصورةٍ مشابهةٍ، في الديانةِ الزرادشتيّة، وفي يومِ الحساب، سيقفُ ملاكانِ على الجسرِ بينَ النّعيمِ والهاوية، فاحصينَ كلَّ شخصٍ بينما هوَ يمرّ. أحدُ الملاكين، والذي يمثّلُ الغفرانَ الإلهيَّ، سيحملُ الميزانَ في يدهِ ليقيسَ أعمالَ البشر، فإن ثَقُلَت كفّةُ الأعمالِ الحسنةِ سيسمحُ للأشخاصِ بالدّخولِ إلى النّعيم، وبخلافهِ سيرمي الملاكُ الثّاني والذي يمثّلُ عدالةَ اللهِ بالأشخاصِ إلى الهاوية. عناصرُ أخرى في الأفكارِ الإسلاميّةِ عن الميزانِ تأتي من الفِرَقِ المسيحيّةِ الهرطقيّة (الفِرَقُ المسيحيّةُ التي تؤمنُ بعقائدَ مخالفةٍ للعقيدةِ

الكنسيّةِ المحميّةِ من قِبَلِ السُّلطةِ أو الكنيسةِ الملكيّة، المترجم) وهيَ جزءٌ من حديثنا المقبل.

التشريعُ الإسلاميُّ لوجودِ خمسِ صلواتٍ في اليوم لهُ مصدرٌ فارسيٌّ أيضاً؛ شرَعَ محمّدٌ نفسهُ في البدايةِ صلاتينِ فقط، ثمَّ، كما يذكرُ القرآن أُضيفَت ثالثة، مكوّنةً صلاةَ الفجر، صلاةَ العِشاء والصَّلاةَ الوسطى، والتي تقابلُ الصَّلواتِ اليهوديّةَ الشاخاريث والمِنكاه والأربيث، ولكنّهم عندَ اصطدامهم بالحماسِ الدينيِّ للزرادشتيّين، تبنّى المسلمونَ تقاليدهم غيرَ راغبين أن يُزايدَ عليهم في الإخلاص، ومن ثمَّ استمرَّ المسلمونَ بالتعبّدِ إلى الله خمسَ مرّاتٍ في اليوم، تقليداً للكاباتِ الخمسة five gabs (الصَّلواتِ الخمسةِ) للفرس(ربّما كانَ في هذا إشارةٌ إلى أنَّ إصرارَ الشّيعةِ على الصَّلاةِ ثلاثَ مرّاتٍ في اليوم مع اعترافهم بوجودِ خمسِ صلوات والترخيصَ بذلكَ في الضرورةِ عندَ بعضِ أهلِ السُّنّةِ، سببهُ أنَّ الصَّلواتِ كانت ثلاثاً فقط في عصرِ محمّد، المترجم).

فوقَ ذلك، وعلى تأثيرِ الأفكارِ الفارسيّةِ من خلالِ اليهوديّةِ والمسيحيّة، كيفَ تمكّنت الأفكارُ الفارسيّةُ منَ الدّخولِ إلى الجزيرةِ العربيّةِ في عصرِ ما قبلَ الإسلام؟ احتكَّ تجّارُ مكّةَ بصورةٍ مستمرّةٍ بالثّقافةِ الفارسيّة، كما أنّهُ منَ المعروفِ أنَّ عدّةَ شعراءِ عرب قد سافروا إلى مملكةِ الحيرةِ العربيّةِ على الفرات، والتي بقيت لفترةٍ طويلةٍ تحتَ تأثيرٍ فارسيّ وكما يقولُ جيفريJeffery: «كانت المركزَ الأوّلَ لتغلغلِ الثّقافةِ الفارسيّةِ بينَ العرب.»137 كتبَ شعراءٌ كالأعشى قصائدَ مليئةً بالكلماتِ الفارسيّة. يظهرُ عددٌ ضخمٌ منَ الكلماتِ الفارسيّةِ منَ اللّغةِ الفارسيّةِ الافستيّة (لغةِ الكتبِ المقدّسةِ الزرادشتيّة) والفارسيّةِ الوسطى (الفهلويّة) وتعابيرُ أخرى في العربيّة، بل أنَّ هنالكَ دليلاً على أنَّ بعضَ العربِ الوثنيّينَ قد تحوّلوا إلى الزرادشتيّة. الأثرُ الفارسيُّ محسوسٌ أيضاً في جنوبِ الجزيرةِ العربيّة، حيثُ مارسَ المسؤولونَ الفُرس الحكمَ باسمِ السّاسانيّين، وفوقَ كلِّ ذلك لدينا شهادةُ القرآنِ نفسه، والذي يشيرُ إلى الزرادشتيّينَ كمجوس ويضعهم في نفسِ خانةِ اليهودِ والصّابئينَ والمسيحيّينَ باعتبارهم مؤمنينَ بالله. (سورة الحج: 17) يخبرنا ابنُ هشام مؤلّفُ سيرةِ النبيِّ عن وجودِ شخصٍ يسمّى النضرَ بنَ الحارث والذي كانَ معتاداً على روايةِ قصصِ رستمَ العظيم وقصصِ إسفنديار (شخصيّاتٌ أسطوريّةٌ

فارسيّة) وملوكِ فارسَ للمكيّين، وكانَ يتفاخرُ دائماً بأنَّ قصصَ محمّدٍ ليست أفضلَ من قصصه، وكما يقولُ توري: «رأى النبيُّ مستمعيهِ ينصرفونَ عنه، وتركهُ ذلكَ راغباً في الثأرِ الذي نالهُ في معركةِ بدر، وذلكَ أنَّ الخصمَ المسلّي جدّاً دفعَ حياتهُ ثمناً للقصصِ بعدَ أن أُخِذَ أسيراً في المعركة» 138. وقد تعلمنا من ابنِ هشام أيضاً أنّهُ من بينِ صحابةِ محمّد كانَ هنالكَ شخصٌ فارسيٌّ يسمّى سلمان، والذي منَ الممكنِ أن يكونَ قد علّمَ محمّداً شيئاً من ديانةِ أسلافه.

من الممكنِ أن يكونَ محمّدٌ قد تأثّرَ بالزرادشتيّةِ في موقفهِ منَ السّبت، ومعارضتهِ للفكرةِ غيرِ المعقولةِ في أنَّ اللهَ احتاجَ أن يأخذَ قسطاً منَ الرّاحةِ بعدَ خلقِ العالمِ في ستّةِ أيّام. يأخذُ اللاّهوتيّونَ الزرادشتيّونَ موقفاً مشابهاً ضدَّ السّبتِ اليهوديّ، وبالنسبةِ لمحمّدٍ ولكلِّ المسلمين، الجمعةُ ليست يومَ سبت أو يوماً للرّاحة، ولكنّهُ يومٌ للاجتماعِ لممارسةِ شعيرةٍ أسبوعيّة، وطبقاً للتقاليد، عرجَ محمّدٌ إلى السّماواتِ حيثُ قابلَ الملاكُ جبريلَ وموسى وإبراهيمَ والآخرين، على ظهرِ دابّةٍ تُسمّى البُراق، وهوَ دابّةٌ بيضاءُ بجناحينِ بحجمٍ يتراوحُ بينَ حجمِ الحمارِ وحجمِ البغل. يقالُ أنَّ البُراقَ يماثلُ الثّورَ المجنّحَ الأشوريّ، ولكنَّ بلوخيت Blochet قد أظهرَ أنَّ المفهومَ الإسلاميَّ (عن البُراق) يدينُ بكلِّ شيءٍ للأفكارِ الفارسيّة. تفاصيلُ المعراجِ الفعليِّ إلى السّماءِ قد اقتُبِسَت منَ الأدبِ الزرادشتيّ. القصّةُ الإسلاميّةُ تقولُ التّالي: (محمّدٌ متحدّثاً)139

«... أتيتُ بدابّةٍ بيضاءَ دونَ البغلِ وفوقَ الحمارِ (البُراق) فانطلقتُ مع جبريلَ حتى أتينا السّماءَ الدُّنيا قيلَ من هذا قالَ جبريلُ قيلَ من معك قالَ محمّدٌ قيلَ وقد أُرسِلَ إليهِ قالَ نعم قيلَ مرحباً بهِ ولنعمَ المجيءِ جاء، فأتيتُ على آدمَ فسلّمتُ عليهِ فقالَ مرحباً بكَ من ابنٍ ونبيٍّ، فأتينا السّماءَ الثّانيةَ ...فأتيتُ على عيسى ويحيى ...فأتينا السّماءَ الثّالثة ..... فأتيتُ على يوسفَ .... فأتينا السّماءَ الرّابعة ..... فأتيتُ إدريسَ .... فأتينا السّماءَ الخامسةَ .... فأتينا على هارون ... فأتينا السّماءَ السّادسةَ ... فأتيتُ على موسى ... فلمّا جاوزتُ بكى قيلَ ما أبكاكَ قال يا رَبُّ هذا الغلامُ الذي بُعِثَ بعدي يدخلُ الجنّةَ من أمّتهِ أفضلَ ممّا يدخلُ من أمّتي، فأتينا السّماءَ السّابعة فأتيتُ على إبراهيمَ فسلّمتُ عليه .... ورُفِعَت لي سدرةُ المنتهى فإذا نبقها كأنّهُ قلالُ هجرٍ وورقها كأنّهُ آذانُ الفيول في أصلها أربعةُ أنهارٍ

نهرانِ باطنان ونهرانِ ظاهران فسألتُ جبريلَ فقال أمّا الباطنانِ ففي الجنّة وأمّا الظاهرانِ النيلُ والفرات...»، (رواه البخاري، المترجم)

الصّعودُ إلى السّماءِ أو المعراجُ بالعربيّة، يمكنُ أن يقارنَ مع القصّةِ الواردةِ في نصٍّ فهلويٍّ يسمّى أرتا فيراف(أو أرتاي) Arta (or Artay) Viraf والمكتوبُ قبلَ الإسلامِ بمئاتِ السنين140. شعرَ الكهنةُ الزرادشتيّونَ أنَّ إيمانهم بدأ بالزّوال، فأرسلوا أرتا فيراف إلى السّماءِ ليتعرّفَ على ما يجري هناك. صعدَ أرتا من سماءٍ إلى أخرى وفي النهايةِ عادَ إلى الأرضِ ليخبرَ شعبهُ عمّا رآه.

«كانَ أوّلُ تقدّمنا صعوداً نحوَ السّماءِ الدُّنيا،... وهناكَ رأينا ملاكَ المقدّسينَ يُطلقُ نوراً حارقاً، ساطعاً و شديداً، وسألتُ ساروش المقدّسَ و أزارَ الملاك: «ما هذا المكان، منْ هؤلاء؟» (تخبرنا القصّةُ لاحقاً أنَّ أرتا بصورةٍ مشابهةٍ صعدَ إلى السّماءِ الثّانيةِ فالثّالثة)....» مشرقاً من على عرشٍ مغشّى بالذهب، قادني كبيرُ الملائكةِ بَهمَن، حتّى قابلتُ أهورا مِزدا (ألهَ الخير، المترجم) مع جماعةٍ منَ الملائكةِ والقادةِ السّماويين، الكلُّ مزيّنونَ ببهاءٍ شديد حتّى إنّني لم أرَ مثلَ ذلكَ سابقاً. قالَ قائدي: هذا هوَ أهورا مِزدا. رغبتُ بالسّلام عليه، فقالَ إنّهُ مسرورٌ بالترحيبِ بي كقادمٍ منَ العالمِ الفاني إلى هذا المكانِ المضيءِ والنقيّ...وأخيراً، يقولُ أرتا، أخذني قائدي وملاكُ النّار، بعدَ أن أرياني الجنّةَ، إلى النّار، ومن ذلكَ المكانِ المظلمِ والمرعب، حملاني إلى الأعلى إلى بقعةٍ جميلةٍ حيثُ يوجدُ أهورا مِزدا والمجتمعونَ بهِ منَ الملائكة. رغبتُ بتحيّته، وبعدَ ذلكَ قالَ بلطف : يا أرتا فيراف، اذهب إلى العالمِ المادّي، لقد رأيتَ وعرفتَ أهورا مزدا، فإنّني أنا هوَ، ومن كانَ صادقاً وصالحاً فأنا أعرفهُ.»

نجدُ في التقليدِ الإسلاميّ أيضاً فكرةَ السّراطِ أو الطريق، أحياناً يعني بها الطريقةَ الصحيحةَ في الدِّين، ولكن غالباً ما يشيرُ هذا المصطلحُ إلى الجسرِ المارّ من فوقِ الهاويةِ النّاريّة، يوصفُ الجسرُ بأنّهُ «أدقُّ منَ الشّعرةِ وأحدُّ منَ السّيف» (من حديثٍ لمسلم، المترجم) وهوَ محاطٌ من كلِّ جانبٍ بالأشواكِ المعقوفة (في الأحاديث: كلاليبٌ مثلَ شوكِ السّعدان، المترجم) سيعبرُ عليهِ الصّالحونَ بسرعةِ البرق، ولكنَّ الأشرارَ سرعانَ ما يتعثّرونَ ويسقطونَ في نيرانِ الهاوية.

منَ الواضحِ أنَّ هذهِ الفكرةَ قد استُعيرَت منَ المنظومةِ الزرادشتيَّة؛ بعدَ الموت، يجبُ على نفسِ الميِّتِ أن تعبرَ فوقَ الجسرِ المجازيِّ (بالضم). تُشنوات بيريتو Chinvat Peretu وهوَ حادٌّ كالموسِ بالنسبةِ للأشرار، لذلكَ منَ المستحيلِ عبورهم عليه .

تتقاسمُ الأديانُ الإيرانيَّةُ والهنديَّةُ موروثاً مشتركاً، وذلكَ لأنَّ أسلافَ الهنودِ وأسلافَ الإيرانيّين كانوا يشكّلونَ يوماً ما شعباً واحداً الهندو إيرانيّين Indo- Iranians والذينَ بدورهم كانوا فرعاً من مجموعةٍ أكبرَ منَ الشُّعوب، الهندو أوروبيّين -Indo-Europe ans، لهذا ليسَ منَ المستغربِ أن نجدَ فكرةَ وجودِ جسرٍ (تشينوات بيريتو) في النصوصِ الهندوسيّةِ القديمة(على سبيلِ المثال ياجور فيدا (Yajur Veda . النظرةُ الإسلاميَّةُ الى الفردوسِ تشابهُ لهذا السَّببِ ما هوَ مذكورٌ في المصادرِ الهنديّةِ والفارسيّة. يصفُ النصُّ الزرادشتيُّ، هادوخت ناسك Hadhoxt Nask، مصيرَ النَّفسِ بعدَ الموت. تقضي نفسُ الإنسانِ الصّالحِ ثلاثَ ليالٍ قربَ الجنَّة، وفي نهايةِ الليلةِ الثَّالثة، تشاهدُ النَّفسُ دينها «داينا» (daena) (اسمُ الدِّينِ بالفارسيّة) في صورةِ فتاةٍ جميلةٍ، عذراءَ حلوة في عمرِ الخامسةِ عشر، قد نشأت جميلةً بفضلِ أعمالها الحسنة. هذهِ النظرةُ تشابهُ القصصَ الهندوسيَّةَ عن أبساراساس Apsarasas، موصوفةً ك «حوريّةٍ سماويّةٍ مغريةٍ تسكنُ في فردوسِ إندرا (آلهٌ هندوسيٌّ قديم، المترجم)»141 وعادةً ما يكنَّ راقصاتٍ للآلهة، ولكنّهنَّ يرحّبنَ بالأرواحِ الدَّاخلةِ إلى الفردوس. «هنَّ الجوائزُ في فردوسِ إندرا للأبطالِ الذينَ يسقطونَ في المعركة»142.

لهذا تشابهُ الحكايةُ الهندوسيَّةُ النظرةَ الإسلاميَّةَ عن الجنَّةِ في أوجهٍ عديدة، بمشاهدها الواضحةِ والشهوانيّةِ عن حورٍ وأبكار، تلكَ المشاهدُ التي روّعت المعلّقينَ المسيحيّينَ المبكرين. هؤلاءِ الجواري يُقدَّمنَ في الجنَّةِ أيضاً لمقاتلي المسلمينَ الذينَ يموتونَ من أجلِ قضايا إسلاميّة. بعضُ الكلماتِ المستخدمةِ في القرآنِ في وصفِ الجنّة هيَ ذاتُ أصولٍ فارسيّةٍ واضحة: إبريق، أرائك. إليكَ ما يقولهُ جيفري عن الموضوع: «إنّهُ لمنَ الواضحِ كما يبدو أنَّ كلمةَ « حور» بمفهومها كإشارةٍ إلى البشرةِ الفاتحة واستخدامها لوصفِ فتياتٍ فاتحاتِ البشرة، أُدخِلَت في استخدامِ عربِ الشّمالِ كاستعارةٍ منَ المجتمعاتِ المسيحيّة، ومن ثمَّ استخدمها محمّدٌ تحتَ تأثيرِ كلمةٍ إيرانيّةٍ في وصفِ جواري الجنَّة»143.

يصفُ نصٌّ فهلويٌّ (اللُّغةُ الفارسيَّةُ في إيران قبلَ دخولِ الإسلام) الفردوسَ بأنّها في كلِّ مكانٍ تشبهُ بستاناً في الربيع، فيهِ كلُّ أنواعِ الأزهارِ والأشجار، وهذا يذكّرنا بشدّةٍ بالنظرةِ الإسلاميّةِ إلى جنّةِ النَّعيم (سورةُ الواقعة: 39-12، الإنسان: 22-12، يونس: 10، الرَّحمن: 50) ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ... ذَوَاتَا أَفْنَانٍ..... فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ..... فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾

هنالكَ تشابهاتٌ مدهشةٌ بينَ المفهومِ الزرادشتيِّ عن رجلِ الدِّينِ بدائيُّ الطراز -ar chetypal والمفهومِ الإسلاميِّ الصوفيِّ خصوصاً عن الإنسانِ الكامل، كلا العقيدتين تتطلّبانِ وجودَ نيّةٍ للعبادة لكيما تكونَ العبادةُ مقبولة. كلاهما تضفيانِ أهمّيّةً خرافيّةً على بعضِ الأرقام : على سبيلِ المثالِ الرقم 33 يلعبُ دوراً مهمّاً في الطقوسِ الزرادشتيّة، وفي الإسلامِ يحملُ تسبيحَ الإنسانِ إلى السّماءِ ثلاثةٌ وثلاثونَ ملاكاً، كلّما يشارُ إلى ابتهالٍ مقدَّس نجدُ ذكرَ ثلاثةٍ وثلاثينَ تسبيحاً و ثلاثةٍ وثلاثينَ تحميداً و ثلاثةٍ وثلاثينَ تكبيراً وهكذا.

الجنُّ، العفاريتُ والكائناتُ الخفيّةُ الأخرى:

بالنظرِ إلى العناصرِ الخرافيّةِ الكبيرةِ في الإسلامِ والتي ذُكِرَت للتوّ، فمن حقّنا أن نتساءلَ كيفَ أمكنَ لفلاسفةِ القرنِ الثّامنَ عشر التوصّلُ إلى اعتبارِ الإسلامِ « ديناً منطقيّاً»، فلو أنّهم غاصوا أعمقَ في بحرِ الأفكارِ الإسلاميّةِ عن الجنِّ والعفاريتِ والأرواحِ الشّرِّيرة لكانوا أكثرَ حرجاً من سذاجتهم هم.

يقالُ أنَّ الإيمانَ بوجودِ الملائكةِ والعفاريتِ قد اقتُبِسَ من الفُرس(الكلمةُ الإسلاميّةُ عفريت هيَ ذاتُ مصدرٍ فهلويّ) فإن كانت الحالةُ كذلك « فإنّها مقتبسةٌ منذُ زمنٍ بعيدٍ من قِبَلِ العربِ الوثنيّين. عصرُ ما قبلَ الإسلامِ يحتوي على إشارةٍ غيرِ واضحةٍ إلى وجودِ طبقةٍ منَ الكائناتِ الخفيّة» موجودةٍ في كلِّ مكان، ولكن لا يشعرُ بها في أيِّ مكان» الجنّ: كلمةُ جنّ ربّما تعني مخبأ أو ظلام؛ الجنُّ هوَ تجسيدٌ لما هوَ « غيرُ معتادٍ في الطبيعة، أو ربّما الجوانبُ العدوانيّةُ وغيرُ المسيطرِ عليها منَ الطبيعة». في بلادِ العربِ الوثنيّةِ، كانوا يُعدُّونَ مصدراً للخوف، ومع قدومِ الإسلام فقط بدئوا في الظهورِ، أحياناً، ككائناتٍ

خبّرة أيضاً»

كانت الجنُّ بالنسبةِ للعربِ الوثنيّينَ غيرَ مرئيّين، ولكن كانَ بإمكانهم اتّخاذُ أشكالٍ متعدّدة، مثلَ الأفاعي والسحالي والعقارب. إذا دخلَ جنّيٌّ جسدَ إنسان، فسيؤدّي بهِ لأن يكونَ معتوهاً أو مستحوذاً. حافظَ محمّدٌ الناشئُ في أجواءِ الخرافةِ السّاذجةِ على الإيمانِ بالأرواح: «في الحقيقةِ ذهبَ النبيُّ بعيداً ليعترفَ بوجودِ الآلهةِ الوثنيّةِ، مصنّفاً إيّاها بينَ الشّياطين(سورةُ الصّافّات:158)، لهذا لم تبقَ هذهِ الخرافاتُ ثابتةً في الجزيرةِ العربيّةِ المسلمة، ولكنّها تطوّرت أكثر، وانتشرت في أرجاءِ العالمِ الإسلاميِّ الباقية، وعادةً ما ارتبطت بمفاهيمَ مشابهةٍ وأحياناً أكثرَ تعقيداً منتشرةٍ بينَ الشّعوبِ الأعجميّة.»

يعيدُ البروفيسور ماكدونالد Macdonald قصَّ كيفَ أنَّ حسّانَ بنَ ثابت الشّاعرَ والصديقَ المقرّبَ منَ الرّسول، بدأ بكتابةِ الشّعرِ تحتَ تأثيرِ جنّيّة.

«قابلَتهُ في أحدِ شوارعِ المدينةِ المنوّرة، فقفزت عليهِ وضغطتهُ على الأرضِ وأجبرتهُ أن ينطقَ بثلاثةِ أبياتٍ منَ الشّعر، وبعد ذلكَ أصبحَ شاعراً وكانَ شعرهُ يصدرُ تحتَ تأثيرٍ مباشرٍ من وحيِ الجنّ. أحالَ (الشّاعرُ) نفسهُ إلى إخوتهِ منَ الجنّ، والذينَ يحيكونَ لهُ كلماتٍ فنيّة، وأخبرَ النّاسَ كيفَ أنَّ أسطراً موزونةً منَ الشّعرِ قد أُنزِلَت عليهِ منَ الجنّة. الشيءُ المثيرُ للاهتمامِ هوَ أنَّ التعابيرَ التي استخدمها هيَ نفسُ تعابيرِ التنزيل، والذي هوَ الوحيُ في القرآن.»144

يشيرُ ماكدونالد إلى مناظراتٍ عجيبةٍ بينَ المصطلحاتِ المستخدمةِ في قصّةِ حسّانَ بنِ ثابت وقصّةِ الوحيِ الأوّلِ إلى محمّد:

«كما أنَّ حسّاناً رُمِيَ أرضاً من قِبَلِ روحٍ أنثويّة، وأُجبِرَ على النُّطقِ بأبياتٍ منَ الشّعر، كذلكَ كانَ النُّطقُ بأوّلِ كلماتِ النبوّةِ مستخرجةً غصباً من فمِ محمّد من قِبَلِ الملاكِ جبريل، كما يذهبُ التشابهُ لمدىً أبعد، فالملاكُ جبريلُ يوصفُ بأنّهُ رفيقُ محمّدٍ كما لو كانَ الجنّيَّ المرافقَ للشّاعر، كما أنَّ نفسَ الكلمةِ، نفثَ، تستخدمُ لوصفِ عملِ ساحرٍ أو جنّيٍّ يُلهِمُ شاعراً، أو جبريلَ يُنزِلُ الوحيَ على محمّد.»

إيمانُ محمّدٍ الداخليُّ بالجنّ نجدهُ في القرآن، والذي يحتوي ايحائاتٍ وإشاراتٍ عديدةً

إليهم: سورة 72 المسمّاةُ بصورةِ الجنّ، وسورةُ الأنعام: 100 حيثُ يُوبَّخُ (بفتح الباء) المكيّونَ لجعلِ الجنِّ رفاقاً لله، والأنعام: 128، حيثُ يقالُ أنَّ المكيّينَ قد قدّموا قرابينَ لهم، والصَّافَّات: 158، حيثُ يؤكّدُ المكيّونَ على وجودِ نسبٍ بينهم وبينَ الله، والرَّحمن: 15، حيثُ يقالُ أنَّ اللهَ خلقهم من نارٍ بلا دخان. هنالكَ الكثيرُ منَ الأدبيّاتِ حولَ المعتقداتِ المحيطةِ بالجنّ، ولأغراضنا الخاصّة، منَ الكافي أن ندركَ أنَّ هذهِ الخرافةَ قد أُقرّت في القرآن، وأنَّ الجنَّ معترفٌ بهم رسميّاً في القرآن، وكما يقولُ ماكدونالد، فإنَّ النتائجَ الكاملةَ لوجودهم قد حُسِبَت»، وضعهم الشّرعيُّ قد نُوقِشَ وثُبِّتَ على كلِّ المعايير، كما فُحِصَت العلاقةُ الممكنةُ بينهم وبينَ الجنْسِ البشريّ، خصوصاً فيما يتعلّقُ بمسائلِ الزَّواجِ والتملّك»145، ربّما كانَ ابنُ سينا أوّلَ فيلسوفٍ مسلمٍ يرفضُ وبصراحةٍ كلَّ احتماليّةٍ لوجودهم.

يعترفُ القرآنُ بخرافةٍ شائعةٍ أخرى في كلِّ أنحاءِ العالمِ الإسلاميّ، الإصابةُ بالعين (أو الحسد)، والتي كثيراً ما تعدُّ سبباً لسوءِ الحظّ (سورة الفَلق)، ويقالُ أنَّ محمّداً نفسهُ قد آمنَ بتأثيرها المؤذي، يروى أنَّ أسماءَ بنتَ عُميس قالت: «يا رسولَ الله إن وَلدَ جعفرٍ تسرعُ إليهم العين أفأسترقي لهم؟» فقال: «نعم، فإنّهُ لو كانَ شيءٌ سابقٌ القدرَ لسبقتهُ العين». (رواهُ الترمذيّ وابنُ ماجة والرِّوايةُ للترمذيّ، المترجم)

العارُ في الإسلام: نزعُ حجابِ الدموع...

ابنُ الورَّاق

نُشِرَت هذهِ المقالةُ في مجلّةِ Free Inquiry Magazine No 4. وهيَ مقالةٌ مقتبسةٌ من كتابِ ابنِ الورَّاق: لماذا لستُ مسلماً. [Ibn Warraq: Why I Am not a Muslim Prometheus Books 1995] الإسلامُ ضدَّ المرأةِ بشكلٍ متطرِّفٍ جدّاً.

الفكرُ الإسلاميُّ هوَ السَّببُ الرئيسيُّ في قمعِ النِّساءِ المسلمات، وما زالَ هوَ العقبةَ الرئيسيّةَ التي تعرقلُ مسيرةَ تطوُّرِ وتحسُّنِ أوضاعهنّ، فالإسلامُ يعدُّ النِّساءَ كائناتٍ ناقصةً وهابطةً من جميعِ النواحي: جسديّاً، فكريّاً، وأخلاقيّاً، هذهِ النَّظرةُ السلبيّةُ إلى المرأة قد تمَّ تقديسها في القرآن، وترسيخها عن طريقِ الأحاديث، وتخليدها عن طريقِ شروحاتِ وتفاسيرِ رجالِ الدِّين، حُماةِ العقيدةِ الإسلاميّةِ والجهل. والأفضلُ لهؤلاءِ المفكِّرين أن يهجروا هذا الجدلَ الدينيَّ، أن ينبذوا هذهِ النصوصَ المقدَّسةَ وأن يرموها، وأن يعودوا إلى أحكامِ العقل، والعقلِ فقط، عليهم أن يجعلوا مرجعيّتهم حقوقَ الإنسان، [أو وثيقةَ الإعلانِ العالميِّ لحقوقِ الإنسانِ التي أقرَّتها الجمعيّةُ العامّةُ للأممِ المتَّحدة في 10 كانون الأول/ ديسمبر عام 1948] والتي رُفِضَ التوقيعُ عليها في الكثيرِ منَ الدُّولِ الإسلاميّة، وألّا يعودوا في حجَّتهم إلى أيِّ مرجعيّةٍ دينيّة.

حقوقُ الإنسانِ هذه تقومُ على الحقوقِ الطبيعيّة، حيثُ أنَّ أيَّ إنسانٍ بالغٍ قادرٌ على الاختيار، إنَّ حقوقَ الإنسانِ هيَ حقوقُ جميعِ البشرِ لمجرَّدِ أنّهم بشر، حيثُ العقلُ أو الفكرُ الإنسانيُّ هوَ الحَكمُ النهائيُّ للحقوق - حقوقِ الإنسانِ، وحقوقِ النساء. لسوءِ الحظِّ، عمليّاً، في البلدانِ الإسلاميّةِ لا يمكنُ للإنسانِ أن يخرجَ عن إطارِ نظرةِ علماءِ الدِّينِ الضيِّقةِ والمتزمِّتةِ إلى العالم، لا يمكنُ للفردِ أن يتجاهلَ العلماءَ، أو الفقهاءَ الدينيّينَ الذينَ من خلالِ فتاويهم وقراراتهم يمسُّونَ المسائلَ الخاصَّةَ والعامّةَ التي تنظِّمُ حياةَ النَّاسِ في المجتمعِ الإسلاميّ، فهم ما زالوا حتّى الآن يملكونَ سلطاتٍ هائلةً يستغلُّونها في

تحريم أو تحليلِ كلِّ فعلٍ مهما كانَ ضئيلاً. أليسَ هذا هو سببُ التأثيرِ المستمرِّ حتّى الآن للملايين؟ ما زالَ القرآنُ حتّى الآن بالنسبةِ لجميعِ المسلمين ـوليسَ بالنسبةِ للمتطرِّفينَ منهم فحسب_ الكلامَ المُنزلَ منَ اللهِ والذي لا يدخلهُ الشَّكُّ، إنّهُ صالحٌ لكلِّ زمان ومكان، وأفكارهُ صحيحةٌ بشكلٍ مطلقٍ وبعيدةٌ عن كلِّ نقد، فأيُّ تساؤلٍ حولَ حقيقةِ القرآن يعني الشَّكَّ بكلامِ الله، ومن ثمَّ الهرطقة، فواجبُ المسلمِ هوَ الإيمانُ بما جاءَ فيه، والخضوعُ لأوامرهِ الإلهيّة. هناكَ العديدُ منَ العواملِ الأخرى التي تساهمُ في استمرارِ تأثيرِ العلماءِ على عقولِ النّاس، وأيُّ ديانةٍ تتطلَّبُ الخضوعَ التّامَ لأوامرها من دونِ أيِّ تساؤلٍ أو تفكير، ليست قادرةً على خلقِ بشرٍ قادرينَ على ممارسةِ الفكرِ النَّقديّ، بشرٍ قادرينَ على ممارسةِ التفكيرِ المستقلِّ والحرّ. ومثلُ هذا الموقفِ مناسبٌ جدّاً وملائم لنموِّ وتطوُّرِ طبقةٍ من رجالِ الدِّينِ الأقوياء، والذينَ يتحمَّلونَ مسؤوليّةَ الرُّكودِ الفكريِّ والثقافيِّ والاجتماعيِّ والاقتصاديِّ للكثيرِ منَ البلدان، فنسبةُ الأمِّيَّةِ مرتفعةٌ جدّاً في البلدانِ الإسلاميّة.

أمّا منَ النّاحيةِ التّاريخيّة، حيثُ لم يكن هناكَ أيُّ انفصالٍ بينَ الدِّينِ والدولة، فأيُّ نقدٍ موجّهٍ إلى أحدهما هوَ نقدٌ للآخر. حتماً، عندما نالت العديدُ منَ الدُّولِ الإسلاميّةِ استقلالها بعدَ الحرّبِ العالميّةِ الثّانية، رُبطَ الإسلامُ _لسوءِ الحظِّ_ بالنزعةِ القوميّة، وقد عنى ذلكَ أنَّ أيَّ نقدٍ للإسلام هوَ بمثابةِ خيانةٍ للدولةِ المستقلَّةِ حديثاً ـ كانَ يبدو بمثابةِ فعلٍ غيرِ وطنيّ، بل قد يُتَّهَمُ الفردُ بأنّهُ عميلٌ ويناصرُ الاستعمارَ والإمبرياليّة. لم تقدر أيُّ دولةٍ إسلاميّةٍ مستقلَّةٍ حديثاً على تطويرِ جوٍّ ديمقراطيٍّ مستقرّ، وقد كانَ المسلمونَ عُرضةً لشتّى أنواعِ الاضطّهادِ والقمعِ الممكنة، وفي ظلِّ هذهِ الظروف لم يكن منَ الممكنِ إقامةُ أيِّ نوعٍ منَ النَّقدِ السَّويِّ والصحّيِّ للمجتمع، لأنَّ الفكرَ النَّقديَّ والحرِّيَّة هما وجهانِ لعملةٍ واحدة، ولا يمكنُ التفريقُ بينهما. جميعُ هذهِ العواملِ التي مرّت معنا سابقاً تفسِّرُ لنا لماذا لم يتمَّ توجيهُ أيِّ نقدٍ موضوعيٍّ للإسلام بشكلٍ عام، وخصوصاً في قضيّةِ المرأة، ولماذا لم يتمَّ تناولهُ ومناقشتهُ وإخضاعهُ للتحليلِ العلميِّ والشَّكّيِّ الصّارم، لقد تمَّ القضاءُ على عنصرِ الإبداعِ في ظلِّ الإسلام، فأيُّ مشكلةٍ أصبحت تبدو وكأنّها مشكلةٌ دينيّةٌ أكثرَ من كونها مشكلةً اجتماعيّةً أو اقتصاديّة.

ضدَّ المرأةِ بشكلٍ متطرِّف:

أخذَ الإسلامُ أسطورةَ آدمَ وحوّاء عن العهدِ القديم، ثمَّ كيَّفها لتتلاءمَ مع قالبِهِ الخاصّ، فعمليّةُ خلقِ الجنْسِ البشريِّ من فردٍ وحيد قد وردت في السُّورِ التّالية:{يَا أَيُّهَا النَّاس اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً} [سورة النّساء 1] {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا} [سورة الأعراف 189] {خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا} [سورة الزّمر 6] من هذهِ المصادرِ المحدودةِ استنتجَ علماءُ الدِّينِ أنَّ الرَّجلَ كانَ هوَ النموذجَ الأصليَّ والكاملَ للخلق، وأنَّ جنسَ النّساءِ فقط خُلِقَ فيما بعد في المرحلةِ الثّانيةِ من أجلِ خدمةِ الرَّجلِ وإسعاده، وقد تطوَّرت الأسطورةُ أكثر لتدعمَ الفكرةَ القائلةَ أنَّ هناكَ ناحيةً ناقصةً في المرأة، أخيراً، مُنِحَت الأسطورةُ طابعاً مقدَّساً، حتّى أنَّ مجرّدَ النَّقدِ أو الشَّكِّ في صحّةِ هذهِ الأسطورةِ أصبحَ شكّاً في كلامِ اللهِ نفسه، وهوَ كلامٌ منيعٌ عن النَّقدِ ومطلق. أمّا الطريقةُ التي وصفَ بها محمّدٌ المرأة فتبيِّنها في الحديثِ الآتي: عن أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنه قال:قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلّم: (استوصوا بالنّساء، فإنَّ المرأةَ خُلِقَت من ضِلع، وإن اعوجَّ شيءٌ في الضلعِ أعلاه، فإن ذهبتَ تقيمهُ كسرتهُ، وإن تركتهُ لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنّساء [صحيح البخاري، كتابُ الأنبياء، 3153] عاقبَ الرَّبُّ آدمَ وحوّاءَ لأنّهما عصيا أوامره، ولكن لا يوجدُ أيُّ شيءٍ في الآياتِ يشيرُ إلى أنَّ حوّاءَ هيَ التي ضلَّلت آدمَ كما هوَ الأمرُ في كتابِ العهدِ القديم، ومع ذلك فالمفسِّرونَ المسلمونَ والفقهاء قاموا باختراعِ أسطورةِ آدمَ وحوّاءَ الفاتنةِ والغاوية حتّى أصبحت مع الزّمنِ جزءاً لا يتجزّأُ منَ التُّراثِ الإسلاميّ، حتّى أنَّ محمّداً نفسهُ يُروى عنهُ أنّهُ قال: لولا حوّاءُ لم تخُن أنثى زوجها [صحيح البخاري، كتابُ الأنبياء، 3152] كما أنَّ التُّراثَ الإسلاميَّ ينسبُ للمرأةِ صفاتٍ ونعوتاً مثلَ: المكرِ والتلاعبِ والغواية، ويستقي حجّتهُ منَ القرآن. المعلِّقونَ الإسلاميّونَ المعاصرون يفسِّرونَ آياتٍ محدَّدةً ليظهروا أنَّ المكرَ والغوايةَ والخيانة هيَ طبيعةٌ داخليّةٌ في المرأة، ليس فقط أنّها لا تريدُ أن تتغيّر، بل أنّها غيرُ قادرةٍ على التغيّر، فهيَ لا تملكُ خَياراً، وقد هاجمَ القرآنُ أتباعَ الدياناتِ الأنثويّةِ [المشركة]، حيثُ أنّهُ في هذهِ المناسبةِ قد انتهزَ الفرصةَ للتقليلِ من قدرِ النّساءِ أكثر.{إِنْ

يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا} [سورة النِّساء 117]{أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى، وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى، أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى، تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى } [سورة النَّجم 22-19]{إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى } [سورة النَّجم 27] وهناكَ آياتٌ أخرى في القرآنِ تظهرُ ميولاً ضدَّ النِّساء:{وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } [سورة البقرة 228] {وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى } [سورة البقرة 282] {يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ } [سورة النِّساء 11] {الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا } [سورة النِّساء 34] وهناكَ الكثيرُ والكثيرُ منَ الأحاديثِ التي شكّلت قاعدةً أو أساسَ الشَّريعةِ الإسلاميّة، والتي نتعرَّفُ من خلالها على الدَّورِ الذي تلعبهُ المرأةُ المسلمة؛ البقاءُ في المنزل، أن تكونَ رهنَ إشارةِ الرَّجلِ وأن تطيعهُ، وهذا واجبها الدينيّ، ولتضمنَ للرَّجلِ حياةً هادئة. ونوردُ هنا بعضَ الأمثلةِ عن هذهِ التقاليد:1) قالَ رسولُ الله: المرأةُ التي تموتُ وزوجها راضٍ عنها، فمصيرها الجنَّة2) قالَ النبيُّ: إذا باتت المرأةُ هاجرةً فراشَ زوجها باتت تلعنها الملائكة، قالَ ابنُ جعفر حتّى ترجع [مسند أحمد، مسند أبي هريرة]3) عن رسولِ اللهِ قال: ((ثلاثةٌ لا تُرفعُ صلاتهم فوقَ رؤوسهم شِبراً: رجلٌ أمَّ قوماً وهم لهُ كارهون، وامرأةٌ باتت وزوجها عليها ساخط، وأخوانِ متصارمان)) [مسند ابن ماجه، 971]4) قالَ رسولُ الله ((أيّما امرأةٍ وضعت ثيابها في غيرِ بيتِ زوجها، فقد هتكت سترَ ما بينها وبينَ الله)) [مسند ابن ماجه، 3750]5) قالَ رسولُ الله: لو أمرتُ أحداً لأمرتُ النِّساءَ أن يسجدنَ لأزواجهنَّ لما جعلَ اللهُ عليهنَّ من حقّهم [الدّارمي، 1463]6) قالَ أبو ذر: قالَ رسولُ الله: يقطعُ صلاةَ الرَّجلِ الحِمارُ والكلبُ الأسودُ والمرأة [مسند أبي داؤود، 702]7) قالَ

رسولُ الله: لن يُفلِحَ قومٌ ولّوا أمرهم امرأة.

[صحيح البخاري، كتاب الفتن، 6686] منَ المناسبِ أيضاً ذكرُ اقتباساتٍ أخرى من فقيهٍ إسلاميٍّ مشهور، وربّما يكونُ الأكثرَ اعتماداً من قِبَلِ المفكّرينَ الدينيّينَ المعاصرين، حتّى أنّهُ نالَ لقبَ حُجّةِ الإسلام «الغزالي 1058– 1111»، وهوَ الذي وصفهُ البروفيسور مونتغمري وات على أنّهُ الشّخصيّةُ الإسلاميّةُ الأهمُّ بعدَ محمّد. ويحدّدُ الغزالي في كتابهِ «إحياءُ علومِ الدّين» دورَ المرأةِ المسلمة، حيثُ يقول: ((أن تكونَ قاعدةً في قعرِ بيتها لازمةً لمغزلها لا يكثرُ صعودها واطّلاعها، قليلةَ الكلامِ لجيرانها لا تدخلُ عليهم إلّا في حالٍ يُوجِبُ الدخول، تحفظُ بعلها في غيبتِهِ وتطلبُ مسرّتهُ في جميعِ أمورها ولا تخونهُ في نفسها ومالهِ ولا تخرجُ من بيتها إلّا بإذنِهِ، فإن خرجت بإذنهِ فمختفيةً في هيئةٍ رثّةٍ تطلبُ المواضعَ الخاليةَ دونَ الشّوارعِ والأسواق، محترزةً من أن يسمعَ غريبٌ صوتها أو يعرفها بشخصها، لا تتعرّفُ إلى صديقِ بعلها في حاجتها، بل تتنكّرُ على من تظنُّ أنّهُ يعرفها أو تعرفهُ، همُّها صلاحُ شأنها وتدبيرُ بيتها مقبلةٌ على صلاتها وصيامها، وإذا استأذنَ صديقٌ لبعلها على الباب وليسَ البعلُ حاضراً لم تستفهم ولم تعاودهُ في الكلامِ غيرةً على نفسها وبعلها، وتكونَ قانعةً من زوجها بما رزقَ الله، وتقدّمُ حقّهُ على حقِّ نفسها وحقِّ سائرِ أقاربها، متنظّفةً في نفسها مستعدّةً في الأحوالِ كلّها للتمتّعِ بها إن شاء، مشفقةً على أولادها حافظةً للسّترِ عليهم قصيرةَ اللّسانِ عن سبِّ الأولادِ ومراجعةِ الزّوج)) [إحياءُ علومِ الدّين، البابُ الثّالثُ في آدابِ المعاشرةِ وما يجري في دوامِ النّكاحِ والنّظرِ فيما على الزّوجِ وفيما على الزّوجة]. هذهِ بعضُ الأقوالِ التي قيلت في العهدِ الذهبيِّ للنسويّةِ الإسلاميّة، وقد زعمَ رجالُ الدّينِ أنَّ ذلكَ خروجٌ عن التعاليمِ الإسلاميّةِ الحقيقيّة، وهوَ الذي قادَ إلى هذا الرّكودِ والتخلّفِ المُستشري في المجتمعاتِ الإسلاميّة. ولكنَّ الحقيقةَ تقولُ أنّهُ لم يكن هناكَ أيّةُ مدينةٍ إسلاميّةٍ مثاليّةٍ قط، فالحديثُ عن العصرِ الذهبيِّ ليسَ سوى محاولةٍ لتخليدِ وترسيخِ تأثيرِ رجالِ الدّينِ والملالي على عقولِ البشر، وعقيدتهم المليئةِ بالحقدِ والكراهيةِ والتي تنكرُ صفةَ البشريّةِ عن أكثرَ من نصفِ سكّانِ هذا الكوكب، وما هيَ سوى محاولاتٍ واهيةٍ لإعاقةِ عمليّةِ تحرُّرِ المرأةِ المسلمة.

أيّة حقوق؟

إنَّ التمييزَ وعدمَ المساواةِ بينَ الرِّجالِ والنِّساءِ في مسائلِ مثلَ تقديمِ الشَّهادةِ أو البرهان، قد قُدِّسَ في القرآنِ في الآيةِ 282 من سورةِ النِّساء، كيفَ يمكنُ للمدافعينَ عن الإسلام تبريرُ هذه الآية؟ فالكتَّابُ والكاتباتُ المسلمات يشيرونَ إلى الفروقِ النفسيّةِ المتجذِّرة عندَ الرِّجالِ والنِّساء، فالقرآنُ _ وبذلكَ اللهُ نفسه _ من خلالِ حكمتِهِ الرفيعةِ يعرفُ أنَّ المرأةَ حسَّاسةٌ، عاطفيّةٌ، هشَّةٌ، سهلةُ الانقياد، ومتأثِّرةٌ بتناغمها البيولوجيّ، تفتقرُ إلى ملكةِ الحكمِ والتفكير، وفوقَ كلِّ هذا فإنَّها تمتلكُ ذاكرةً مهزوزة، بمعنى آخر؛ المرأةُ ناقصةٌ منَ النَّاحيةِ السيكولوجيّة. وهذهِ الحُجَّةُ الخرقاءُ استُغِلَّت من قبلِ رجالِ الدِّين _ الرِّجال، وبشكلٍ مثيرٍ للحيرة، النِّساءُ على غرارِ أحمد جمال، والآنسة زهيّة قدّورة، والآنسة غادة الخرسا، والسيّدة مديحة خميس. وكما يشيرُ غسَّان آشا: إنَّ تفاهةَ حجَّتهم كانت واضحةً وضوحَ الشَّمس. عن طريقِ أخذِ شهادةِ فردينِ لا يتمتَّعانِ بالقدراتِ العقليّةِ الكاملة، فإنَّنا لا نحصلُ على شهادةِ شخصٍ كاملٍ يتمتَّعُ بقدرةٍ عقليّةٍ كاملة، وهذا هوَ علمُ الحِسابِ الإسلامي، من خلالِ المنطقِ نفسه، إذا كانت شهادةُ امرأتينِ تساوي شهادةَ رجلٍ واحد، عندئذٍ تكونُ شهادةُ أربعةِ نسوةٍ أفضلَ من شهادةِ رجلينِ اثنين، وفي هذهِ الحالة بإمكاننا الاستغناءُ عن شهادةِ الرِّجال، ولكن لا! فالقاعدةُ في الإسلامِ هيَ عدمُ قبولِ شهادةِ المرأةِ لوحدها في مسائلِ تخصُّ الرِّجالَ منَ النَّاحيةِ الدينيّة، ويروى عن النبيِّ أنّهُ لم يكن يقبلُ شهادةَ النِّساءِ في مسائلِ الزَّواج، الطلاق، والحدود. والحدودُ هيَ العقوباتُ التي حدّدها محمّدٌ في القرآنِ والحديث، مثل:

1) الزِّنا: حدُّهُ الرَّجمُ بالحجارةِ أو مئةُ جلدة.

2) الافتراءُ بالزِّنا على شخصٍ متزوِّج: حدُّهُ ثمانونَ جلدة.

3) الارتدادُ عن الدِّين: حدُّهُ الموت.

4) شربُ الخمر: حدُّهُ ثمانونَ جلدة.

5) السَّرقة: قطعُ اليدِ اليمنى.

6) النهبُ أو قطعُ الطريق: قطعُ الأيدي والأرجل.

7) النهبُ ثمّ القتل: الموتُ إمّا بالسَّيفِ أو الصَّلب.

يقولُ القرآنُ في قضيَّةِ الرَّمي بالزّنا والافتراء{ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [سورة النّور 4] طبعاً، القضاةُ المسلمونَ لن يقبلوا سوى شهادةِ أربعةِ رجالٍ شهود. هؤلاءِ الشُّهودُ يجبُ أن يعلنوا أنّهم رأوا فعلَ الاتّصالِ الجسديِّ الجنسيِّ بأمِّ أعينهم. ما إن يتمَّ تقديمُ اتّهامِ أحدٍ ما بالزّنا أو البغاء، فالمتّهمُ أو المتّهمةُ يعرّضانِ أنفسهما للعقوبةِ إذا لم يأتِ أو تأتِ بالأدلّةِ والبراهينِ الشّرعيّةِ اللاّزمة، كما أنّ الشُّهودَ هم في نفسِ الموقع*. أمّا إذا قامَ رجلٌ مهووسٌ ما باقتحامِ مسكنٍ للنّساءِ واغتصبهنّ، فهوَ لن يتعرَّضَ للعقوبةِ إذا لم يكن هناكَ شاهدٌ ذكر، طبعاً إنَّ صحيَّةَ الاغتصابِ ستتردَّدُ قبلَ أن تمْثُلَ أمامَ القانون وتقدِّمَ دعوى ضدَّ الفاعل، بما أنّها ستخاطرُ بأن تُحاكمَ وستكونُ فرصتها ضئيلةً جدّاً لتحصيلِ العدالة. ويعلّقُ على ذلكَ القاضي الباكستانيّ زعرور الحقّ «إذا كانَ كلامُ النّساءِ كافياً في مثلِ هذهِ الحالات، عندئذٍ سيكونُ جميعُ الرّجالِ في مشكلة». هذا الموقفُ الجائرُ مقزّزٌ ومثيرٌ للاشمئزاز، وذلكَ بالنسبةِ للقانونِ الإسلاميِّ هوَ إحدى الطرقِ في تفادي الفضائحِ الاجتماعيّةِ المتعلّقةِ بكافّةِ التّابوهاتِ والمحرّماتِ الجنسيّة.

جاءت إدانةُ النّساءِ بالزّنا بشكلٍ صريحٍ وحرفيٍّ أوّلاً في قولِ القرآن: { وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً } [سورة النّساء 15] على أيّةِ حال، توقّفَ العملُ حسبَ هذهِ الآية فيما بعد، واستُبدِلَت العقوبةُ حيثُ أصبحت الرَّجمَ بالحجارةِ ومئةَ جلدة، فعندما يُحكَمُ على رجلٍ زانٍ بالموتِ رجماً بالحجارة، يُؤخَذُ إلى مكانٍ قاحل، حيثُ يُرجَمُ أوّلاً على أيدي الشُّهود، ثمّ بعدَ ذلكَ يأتي دورُ القاضي، وأخيراً عامّةُ النّاس. أمّا عندما يُحكَمُ على امرأةٍ بالرَّجم، يتمُّ حفرُ حفرةٍ وتوضعُ فيها حتّى منتصفِ خصرها، ويبدو أنّ النبيَّ قد أمرَ بمثلِ هذا الإجراءِ بنفسه. ويمكنُ للرَّجلِ قتلُ زوجتهِ وعشيقها إذا أمسكَ بهما وهما يقومانِ بفعلِ الزّنا، في حالِ شكَّ الرَّجلُ بزوجتهِ أو إنكارِ شرعيّةِ نسله، فشهادتهُ تساوي شهادةَ أربعةِ رجال: { وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ، وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ

إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ، وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ، وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ، وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ } [سورة النور 6– 10].

بخلافِ ما يبدو عليهِ الأمر، هذا ليسَ مثالاً للعدلِ القرآنيِّ أو المساواةِ بينَ الرِّجالِ والنِّساء، طبعاً، المرأةُ تُفلِتُ من عقابِ الرَّجمِ حتّى الموت، إلّا أنّها تبقى منبوذةً وتفقدُ حقَّها في أن تكونَ مُصانة، مهما كانت نتيجةُ المحاكمة، كما أنَّ المرأةَ لا تملكُ الحقَّ في محاسبةِ زوجها في نفسِ المسألة، أخيراً، لكي يكونَ الزَّواجُ الإسلاميُّ نافذاً وشرعيّاً يجبُ أن يكونَ هناكَ عدَّةُ شهودٍ موجودين. فبالنسبةِ للقضاةِ المسلمين، يجبُ أن يكونَ هناكَ رجلانِ على الأقلّ، ولا تُقبَلُ شهادةُ امرأتينِ أو ثلاثٍ أو أربعٍ أو حتّى مئةَ امرأة. ومن ناحيةِ الميراث، يقولُ لنا القرآنُ أنَّ الأبناءَ الذُّكورَ يجبُ أن يرثوا ضعفيَّ حصَّةِ البنات: { لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللهِ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا، وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ } [سورةُ النِّساء 11– 12].

ولتبريرِ هذهِ اللامساواة، يعتمدُ الكتّابُ والمفكّرونَ المسلمون على حقيقةِ أنَّ المرأةَ تتلقّى مهرها ولها حقُّ الصِّيانةِ من زوجها، كما أنَّ القانونَ الإسلاميَّ لا يلزمُ الأمَّ بإعالةِ الأولاد، أمّا إذا صرفت أيَّ مبلغٍ منَ النقودِ على أطفالها، فإنَّ ذلكَ، بالنسبةِ لبوسكي «قابلٌ للاستردادِ من قبلِ زوجها إذ وكأنَّ ذلكَ من ضمنِ ثروتهِ الخاصَّة، كما هوَ حالُ أيِّ شخصٍ مُحسن، لذلكَ ليسَ هناكَ أيُّ نقطةٍ يجتمعُ عليها الزَّوجُ والزَّوجةُ في تحمُّلِ

أعباءِ العائلة، فهذهِ مسؤوليّةُ الزّوجِ لوحده، فليسَ هناكَ أيُّ مسائلَ ماليّةٍ بينهم». النقطةُ الأخيرةُ التي أشارَ إليها بوسكي تؤكّدُ وببساطةٍ السّماتِ السلبيّةَ للزّواجِ الإسلاميّ؛ أي الغيابَ الكاملَ لأيِّ فكرةٍ عن «التعاونِ» بينَ [الزّوجين Couples] كما يقولونَ في المسيحيّة. أمّا بالنسبةِ للمهر، فإنّهُ طبعاً تأكيدٌ على ادّعاءاتِ الرّجالِ على النّساءِ في مسائلِ الجنْسِ والطلاق، إضافةً إلى ذلك، في الواقع إنَّ المرأةَ لا تستخدمُ مالَ المَهرِ من أجلِ نفسها، فالعادةُ تتطلّبُ منَ المرأةِ إمّا أن تستخدمَ النقودَ لشراءِ فرشٍ وأثاثِ المنزلِ الجديد أو تعطيهِ لأبيها، ووفقَ أتباعِ المذهبِ المالكي، يمكنُ للمرأةِ أن تُلزمَ قانونياً باستخدامِ مالِ مَهرها من أجلِ شراءِ أثاثِ المنزل، هذا بالإضافةِ إلى أنَّ الشّريعةَ الإسلاميّةَ تُعطي الحقَّ للوصيِّ بإلغاءِ الزّواج _حتّى وإن كانت المرأةُ في السنِّ القانوني_ إذا كانَ يعتقدُ أنَّ المَهرَ ليس كافياً، لذلك فالمَهرُ، بدلاً من أن يكونَ علامةً على استقلالِ الأنثى، فإنّهُ يتحوّلُ إلى أن يكونَ رمزاً لخضوعها وتبعيّتها للرَّجل.

المرأةُ لها الحقُّ بأن تُصان، إلّا أنَّ ذلكَ يؤكّدُ وببساطةٍ اعتمادها الكاملَ على زوجها، وذلكَ بالإضافةِ إلى شعورها المرافقِ والدائمِ بعدمِ الأمان. وحسبَ رأيِ الفُقهاءِ المسلمين، فالزّوجُ ليسَ مُلزماً في ظلِّ الشّريعةِ الإسلاميّةِ بدفعِ تكاليفِ علاجها في حالاتِ المرض، فالاستقلالُ المادّيُّ للمرأة سيكونُ من دونِ شكٍّ الخُطوةَ الأولى لتحريرِ المرأةِ المسلمة، ومن غيرِ المفاجئِ أنَّ ذلكَ بدا كتهديدٍ للسُّلطةِ الذُّكوريّة. النّساءُ الآنَ ملزماتٌ بتحمُّلِ مسؤوليّةٍ مساويةٍ فيما يخصُّ مسألةَ الاعتناءِ بالأهل، فالمادّةُ 158 منَ القانونِ السّوريِّ تنصُّ على أنَّ الابنَ _ذكراً كانَ أم أنثى_ الذي يمتلكُ الوسائلَ الضروريّةَ ملزمٌ بالاعتناءِ بأبويهِ أو أبويها الفقيرين، إلّا أنَّ ولادةَ طفلةٍ أنثى عندَ المسلين ما زالَ يعدُّ حتّى الآن كارثةً في معظمِ الأحيان، فنظامُ التوريثِ الحاليُّ لا يفعلُ شيئاً سوى أنّهُ يزيدُ من معاناتها وتبعيّتها للرّجل، أمّا إذا كانت البنتُ طفلةً وحيدة فإنّها لن ترثَ سوى نصفَ ورثةِ والدها، أمّا النّصفُ الآخرُ فإنّهُ يذهبُ إلى الأعضاءِ الذُّكورِ من عائلةِ أبيها.

وإذا كانَ هناكَ بنتانِ أو ثلاثُ بنات، فإنهنَّ لن يرثنَ إلّا ثُلثيّ الميراث، وهذا ما يجعلُ الآباءَ والأمّهاتِ يفضّلنَ الأولادَ الذُّكورَ على البناتِ لكي يكونَ بإمكانهم تركُ جميعِ ممتلكاتهم أو ميراثهم لأولادهم. {وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ،

أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ } [سورة الزُّخرف 15- 16] هذا الوضعُ يكونُ عادةً أسوأ عندما تفقدُ المرأةُ زوجها، فهيَ لن تنالَ سوى ربعِ ميراثه، وإذا كانَ للمرحومِ أكثرُ من زوجةٍ واحدة، فجميعُ النِّسوةِ تبقينَ ملزماتٍ بأن يتشاركنَ بالرُّبعِ بينَ أنفسهنَّ أو ثمنِ الميراث.

إنَّ فقهاءَ الإسلامِ مجمعونَ على رأيهم بأنَّ الرِّجالَ متفوِّقونَ على النِّساءِ فيما يتعلَّقُ بقضيَّةِ قدراتهم وملكاتهم العقليَّة، معرفتهم، وسلطتهم الإشرافيَّة، وبما أنَّ الرَّجلَ هوَ الذي يتولَّى المسؤوليَّةَ الماديَّةَ في العائلة، فذلكَ يعني أنَّهُ منَ الطبيعيِّ أن يكونَ للرَّجلِ السُّلطةُ المطلقةُ على المرأة، وهؤلاءِ الفقهاءِ أنفسهم يهملونَ ويتناسونَ الظروفَ الاجتماعيَّةَ المتغيِّرة حيثُ أنَّ المرأةَ العصريَّةَ يمكنُ أن تشاركَ في مصروفاتِ المنزل، فإخضاعُ المرأةِ لسُلطةِ الرَّجل يبقى الأمرَ الإلهيَّ المقدَّس، وهوَ الأمرُ الطبيعيُّ كذلك، وما يزالُ المفكِّرونَ المسلمون يحصرونَ دورَ المرأةِ بالمنزل، فأن تتركَ المرأةُ منزلها فذلكَ مخالفٌ لإرادةِ الله، ومخالفٌ لمبادئِ الإسلام، فحبسُ المرأةِ في منزلها يعني أنَّها لن تتلقَّى أيَّ تجاربِ خلالَ حياتها وبذلكَ تبقى جاهلةً وتابعة. حسبَ أقوالِ علماءِ الدِّين، إنَّ الزَّوجَ يملكُ الحقَّ بإنزالِ العقابِ الجسديِّ على زوجتهِ إذا:

(1) رفضت تجميلَ نفسها من أجله.

(2) رفضت إشباعَ حاجاتهِ الجنسيَّةِ ساعةَ يشاء.

(3) غادرت المنزلَ من دونِ إذنهِ أو من دونِ سببٍ قاهرٍ أو قانوني.

(4) أو إذا تجاهلت وأهملت واجباتها الدينيَّة.

هناكَ آياتٌ في القرآنِ تجيزُ للرَّجلِ ضربَ زوجته: {وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا } [سورةُ النِّساء 34] وهناكَ عددٌ غيرُ قليلٍ منَ الأحاديثِ التي تتناقضُ مع هذهِ الآية، منها: عندما منعَ محمَّدٌ رجالهُ من ضربِ زوجاتهم، وفي هذهِ الحالة فإنَّ النبيَّ نفسهُ يعارضُ ما جاءَ في القرآن، القانونُ الإلهيُّ المُطلَق.

عيّناتٌ منَ التّاريخ: النّساءُ الباكستانيّات

عامَ 1977 قادَ الجنرالُ [محمّد] ضياءُ الحقّ انقلاباً في الباكستان سيطرَ عن طريقهِ على الحكمِ معلناً عن أنَّ عمليّةَ أسلمةِ البلاد، كانت تسيرُ بشكلٍ بطيءٍ جداً. لقد أصبحَ عندَ الملالي أخيراً رجلٌ جاهزٌ للاستماعِ إليهم. فرضَ ضياءُ الحقّ على البلادِ القوانينَ العرفيّة، رقابةً شديدةً على الصّحافة، وبدأَ بإنشاءِ دولةٍ دينيّةٍ قائمةٍ على قوانينَ لاهوتيّة، معتقداً أنَّ الباكستانَ يجبُ أن يعيشَ «روحَ الإسلام»، كانَ قد منعَ النّساءَ من ممارسةِ الألعابِ الرياضيّةِ والمشاركةِ في المسابقات، حتّى أنّهُ فرضَ الصّيامَ في شهرِ رمضان باستخدامِ السّلاح، كما أقرَّ بشكلٍ صريحٍ أنَّ هناكَ تناقضاً بينَ الإسلامِ والديمقراطيّة.

فرضَ ضياءُ الحقّ القوانينَ الإسلاميّةَ التي تقلّلُ من قيمةِ المرأة وتحقّرُها، وأكثرُ تلكَ القوانينِ جوراً هوَ «الزّنا والحدود»، أو الأنظمةُ التي تجيزُ العقوباتِ الإسلاميّةَ كقطعِ يدِ السّارق، ورجمِ البشرِ المتزوّجينَ الذينَ يتمُّ الإمساكُ بهم على فراشِ الخيانة، فمصطلحُ «زنا» يتضمّنُ البغاءَ، والاغتصابَ، وحتّى العُهرَ أو ممارسةَ الجنسِ من أجلِ المال. فالبغاءُ كانت عقوبتهُ القصوى هيَ الجلدُ مئة جلدةٍ على الملأ، والسّجنُ لمدّةِ عشرِ سنوات. منَ النّاحيةِ العمليّة، هذهِ القوانينُ تحمي الغاصبين، فبالنسبةِ للمرأةِ التي تمَّ اغتصابها غالباً ما تجدُ نفسها متّهمةً بتهمةِ البغاءِ أو الزّنا. فلإثباتِ حدوثِ فعلِ الزّنا، يجبُ أن يشهدَ أربعةُ رجالٍ مسلمينَ راشدين سمعتهم حسنة أنّهُ قد حدثَ فعلُ إيلاجٍ جنسيّ، إضافةً إلى ذلك، وبغرضِ الحفاظِ على الممارساتِ والعاداتِ الإسلاميّة، تقومُ هذهِ القوانينُ بتثمينِ شهادةِ الرّجالِ وتفضيلها على شهادةِ النّساء. فالتأثيرُ المشتركُ لهذهِ القوانين هوَ أنّهُ منَ المستحيلِ بالنسبةِ للمرأة أن تربحَ القضيّةَ ضدَّ الرّجلِ الذي اغتصبها ومعاقبتهِ قانونيّاً، وبدلَ ذلك تكونَ هيَ نفسها _الضحيّةُ الحقيقيّة_ متّهمةً بممارسةِ البغاءِ والزّنا، بينما يذهبُ المجرمُ في حالِ سبيله، أمّا إذا كانت نتيجةُ عمليّةِ الاغتصابِ أن حملت المرأة، فيتمُّ أخذُ ذلكَ على الفورِ بأنّهُ دليلٌ واعترافٌ على أنَّ المرأة قد ارتكبت المعصية، ومارست جريمةَ الزّنا، بدلَ الأخذِ في الحسبان أنّهُ قد تمَّ اغتصابها. وأوردُ هنا أمامكم بعضَ الحالاتِ من حياتنا الواقعيّة.

[Pakistan s women in Despair: Kurt Schork, Guardian Weekly, September 23. 1999]

• في قريةٍ تقعُ شمالَ إقليم البنجاب، امرأةٌ وابنتاها تمَّ تعريتهنَّ بالقوَّة، ثمَّ ضربهنَّ، واغتصابهنَّ أمامَ الملأ، لكنَّ الشُّرطةَ لم يبدر منها أيُّ ردةِ فعلٍ سوى أنّها أعلنت بأنّها ستلاحقُ القضيّة.

• فتاةٌ في الثّالثةَ عشرةَ من عمرها تمَّ اختطافها واغتصابها على يدِ «صديقٍ للعائلة»، وعندما عرضَ والدها القضيّةَ أمامَ العدالةِ ضدَّ الغاصب، تمَّ زجُّ الطفلةِ في السّجنِ بتهمةِ الزّنا. حاولَ الأبُ إخراجَ طفلتهِ منَ السّجنِ عن طريقِ رشوةِ رجالِ البوليس، إلّا أنَّ الطفلةَ المصدومةَ كانت حينها مضروبةً بشكلٍ وحشيٍّ لأنّها لوَّثت شرفَ العائلة.

• أرملةٌ في الخمسينَ من عمرها، أحمدي بيغوم، قرَّرت أن تمنحَ بعضَ الغُرفِ من منزلها في مدينةِ لاهور لشّابتّينِ منقّبتين، وعندما كانت تقودُ الفتاتينِ في بيتها لتريهما الغُرف، اقتحمَ رجالُ الشُّرطةِ منزلها واعتقلوا الفتاتينِ وابنَ أخِ الأرملة، والذي لم يكن يفعلُ شيئاً سوى أنّهُ موجودٌ هناك. لاحقاً بعدَ ظهرِ ذلكَ اليوم، ذهبت أحمدي بيغوم إلى مخفرِ الشُّرطةِ برفقةِ صهرها لتسألَ عن ابنِ أخيها وعن الفتاتين، إلّا أنَّ الشُّرطةَ أخبروها أنّهم سيعتقلونها هيَ أيضاً، فصادروا مجوهراتها وعاقبوها في غرفةٍ أخرى. وبينما هيَ تنتظر، دفعَ رجالُ الشُّرطةِ الفتاتينِ إلى الغُرفة، وهما عاريتانِ ومضروبتانِ وتنزفانِ بشدّة، ثمَّ بدئوا باغتصابهنَّ مجدَّداً أمامَ ناظريّ الأرملة، وعندما غطَّت الأرملةُ عينيها كي لا ترى هذا المشهدَ الرَّهيب، أجبرها رجالُ الشُّرطةِ على المشاهدةِ عن طريقِ إبعادِ يديها عن وجهها، وبعدَ معاناتها للعديدِ منَ الإهاناتِ الجنسيّة، تمَّ تجريدُ الأرملةِ من ملابسها، ثمَّ تناوبَ ضبّاطُ الشُّرطةِ على اغتصابها الواحدَ تلوَ الآخر، ثمَّ سحبوها إلى الخارجِ حيثُ تمَّ ضربها مجدّداً. أحدُ الضُّبّاطِ أقحمَ عصا الشُّرطةِ _ بعدَ أن دهنها بالفلفلِ الحارِّ _ في مستقيمها، ثمَّ فجّره. صرخت أحمدي من شدَّةِ الألمِ ثمَّ فقدت وعيها، لكنّها استيقظت فيما بعد لتجدَ نفسها في السّجنِ بتهمةِ الزّنا.

عُرِضَت قضيَّتها أمامَ محامٍ في مجالِ حقوقِ الإنسان، وقد تمَّ الإفراجُ عنها بكفالةٍ بعدَ

ثلاثةِ أشهرٍ قضتها في السِّجن، كما أنّهُ لم يتمَّ تبرئتها إلّا بعدَ ثلاثِ سنوات، وخلالَ هذا الوقت، قامَ صِهرها بتطليقِ ابنتها بسببِ العار [Price of honor : Jan Goodwin (Boston 1994) P 49 – 50] هل هذهِ قضيّةٌ منفردةٌ ومنعزلة؟ لسوءِ الحظِّ لا. حيثُ أعلنت لجنةُ حقوقِ الإنسانِ في الباكستان في تقريرها السنويِّ أنّهُ يتمُّ اغتصابُ امرأةٍ كلَّ ثلاثِ ساعات، وأنَّ واحداً أو اثنينِ منَ الضَّحايا هم من الأحداث، ووفقَ جمعيّةِ العملِ النسائيّة، وهيَ جمعيّةٌ حقوقيّةٌ نسويّة، أنَّ 72٪ منَ النِّساءِ الموقوفاتِ في مخافرِ الشُّرطةِ في الباكستان يتمُّ تعذيبهنَّ واضطهادهنَّ جسديّاً ونفسيّاً، إضافةً إلى ذلك أنَّ 75٪ منَ النِّساءِ الموجوداتِ في السُّجونِ هنَّ بتهمةِ «الزِّنا»، وأغلبُ أولئكَ النِّسوةِ يبقينَ داخلَ السُّجونِ لعدَّةِ أعوامٍ بانتظارِ المحاكمة. بمعنى آخر؛ يمكنُ تطبيقُ عقوبةِ الزِّنا من قبلِ أيِّ رجلٍ يريدُ التخلُّصَ من زوجتهِ، حيثُ سيتمُّ توقيفها بشكلٍ فوري، وستقبعُ في السِّجنِ مدَّةً طويلة وهيَ تنتظرُ صدورَ الحكم، ونلاحظُ أنّهُ قبلَ صدورِ هذهِ القوانينِ كانَ العددُ الكلّيُّ للنِّساءِ القابعاتِ في السُّجون لا يتجاوزُ 70 امرأة، أمّا العددُ الحاليُّ فهوَ أكثر من 3000. معظمُ هؤلاءِ النِّسوة تمَّ اتهامهنَّ بتهمةِ الزِّنا والحدود. [Schork، op. cit]

كانت الصَّحافةُ الغربيّةُ تعتقدُ أنَّ انتخابَ بنازير بوتو كرئيسةٍ للوزراءِ في الباكستان عام 1988 من شأنهِ أن يُحسِّنَ من وضعِ المرأة ليسَ في الباكستان فحسب، بل في كافّةِ أنحاءِ العالمِ الإسلاميّ، ففي ظلِّ الشَّريعةِ الإسلاميّة، لا يجوزُ للمرأةِ أن تكونَ على رأسِ حكومةِ بلدٍ إسلاميّ، وقد أصبحت الباكستانُ جمهوريّةً إسلاميّةً كما نصَّ الدستورُ الجديدُ لعام 1956، لقد تحدّت بنازير بوتو سلطةَ الملالي ورجالِ الدِّينِ... وانتصرت، لكنَّ حكومتها لم تدم لأكثرَ من 20 شهراً، خلال عهدِ موّاز شريف الذي كانَ رئيساً للوزراء لفترةٍ قصيرةٍ في أوائلِ التسعينات، يقالُ أنّهُ كانَ يُشجِّعُ الملالي ويساندهم في مواقفهم المعارضةِ لاستلامِ امرأةٍ سُدَّةَ الحُكمِ في دولةٍ إسلاميّة. تمّت إقالةُ حكومةِ بنازير بوتو بتهمةِ الفساد، وزُجَّ زوجها في السِّجنِ عام 1990.

هناكَ الكثيرُ منَ النِّساءِ المسلماتِ اللواتي كنَّ يقاسينَ الأمرّين قبلَ انتخابِ حكومةِ بوتو، ولم يتغيّر شيءٌ إطلاقاً. لقد أنشأت اللوبي الديني، الملالي، وهم أنفسهم الذينَ كانوا يصرُّونَ على أنّهُ لا يمكنُ لامرأةٍ أن تتولّى الحُكمَ في بلدٍ إسلامي، كما أنّها قد أجّلت أو

أعاقت أيَّ خطوةٍ إيجابيّةٍ لصالحِ المرأة. لقد أظهرت الباكستانُ الصّورةَ المتجهِّمةَ نفسها، باكستانُ هيَ إحدى الدُّولِ الأربعةِ في العالمِ التي يبلغُ فيها متوسّطُ عمرِ المرأةِ المتوقّع (51 سنة) أقلَّ من عمرِ الذَّكر (52 سنة)، فالمعدَّلُ الوسطيُّ لعمرِ الإناثِ في كافّةِ الدُّولِ الفقيرةِ يعادلُ (61 سنة). فهناكَ عددٌ كبيرٌ منَ النّساءِ الباكستانيّاتِ اللواتي يلقينَ حتوفهنَّ خلالَ فترةِ الحملِ أو الولادة، وهناكَ ستّةُ حالاتٍ ولادةٍ من أصلِ 1000 تُكتبُ لهنَّ فيها الحياة، فبغضِّ النّظرِ عن حقيقةِ أنَّ وسائلَ منعِ الحملِ لم تُحلَّل في البلادِ الإسلاميّة، إلّا أنّهُ في ظلِّ حكومةِ ضياء أعلنَ المكتبُ العقائديُّ الباكستاني أنَّ وسائلَ تحديدِ النسلِ مخالفةٌ لأصولِ الشّريعةِ الإسلاميّة. وقد أشارَ العديدُ منَ الملالي بأنَّ مسألةَ تحديدِ النسلِ ما هيَ إلّا مؤامرةٌ غربيّةٌ تستهدفُ الإسلامَ وتقويضَ أركانه. وكنتيجةٍ لذلك، إنَّ معدَّلَ خصوبةِ المرأةِ الواحدةِ في الباكستان حوالي 6،9. كما أنَّ الباكستانَ من ضمنِ الدُّولِ العشرِ الأخيرة على مستوى العالم من حيثُ ارتيادُ الإناثِ المدارسَ الابتدائيّة، بعضُ الإحصائيّاتِ تقول أنَّ معدَّلَ النّسوةِ المتعلّماتِ في المناطقِ الريفيّةِ يبلغُ 2٪ [Economist، March 5، 1994] وتقولُ مجلّةُ الاقتصاديّ Economist: «تقعُ الملامةُ كلُّ الملامةِ على عاتقِ الرئيسِ ضياءِ الحقّ ومحاولتهِ لإقامةِ دولةٍ إسلاميّة... لقد أرجعَ ضياءُ السّاعةَ إلى الخلف، فالقانونُ الذي أقرَّهُ عام 1984 على سبيلِ المثال لا يمنحُ المرأةَ سوى نصفِ ما يمنحهُ للرّجل» [Economist، January 13، 1990] طبعاً هناكَ جزءٌ كبيرٌ منَ الملامةِ يقعُ على عاتقِ المواقفِ التي غرسها الإسلام، والتي لطالما نظرت إلى المرأةِ على أنّها مخلوقٌ ناقص، فولادةُ طفلةٍ يعدُّ بمثابةِ مناسبةٍ للحداد، فهناكَ مئاتُ الأطفالِ البناتِ اللواتي يتمُّ التخلّي عنهنَّ كلَّ عامٍ في المجاري وحاوياتِ القمامةِ وعلى الأرصفة. وهناكَ منظّمةٌ تعملُ في كراتشي لإنقاذِ هؤلاءِ الأطفال جمعت أكثرَ من خمسمئةِ طفلٍ تمَّ التخلّي عنهم في شوارعِ كراتشي في سنةٍ واحدةٍ فقط، وأنَّ 99٪ منهم بنات. في خُطبتهِ عام 1944 قالَ جناح [محمّد علي جناح، مؤسّسُ دولةِ الباكستان] «لا يمكنُ لأمّةٍ أن ترتقيَ سلالمَ المجدِ إن لم يكن نسائها جنباً إلى جنبٍ مع رجالها، نحنُ ضحايا عاداتٍ وتقاليدَ سيّئةٍ وشرّيرة، فتلكَ جريمةٌ ضدَّ الإنسانيّةِ أن تكونَ نسائنا مسجوناتٍ داخلَ أربعةِ جدرانٍ كالمساجين»، لكن ليسَ منَ الضروريِّ أن نرحلَ وعلى وجوهنا ترتسمُ علاماتُ التجهُّمِ والتشاؤم، فالنّساءُ

الباكستانيّاتُ قد أظهرنَ أنفسهنَّ وأثبتنَ شجاعتهنَّ على كافّةِ الأصعدة، كما أنّهنَّ يحاربنَ أكثرَ وأكثر من أجلِ حقوقهنَّ بمساعدةِ جمعيّاتٍ إنسانيّةٍ تدعمُ المساواةَ بينَ الرّجالِ والنّساء كجمعيّةِ العملِ النسائيّة (WAF) وجمعيّةِ الحرْبِ ضدَّ الاغتصاب. تمَّ تأسيسُ جمعيّةِ WAF عام 1981 عندما خرجت النّساءُ إلى الشّوارعِ للمطالبةِ بحمايةِ حقوقهنَّ ضدَّ تشريعاتِ «الحدود»، ولإظهارِ تضامنهنَّ مع رجلٍ وامرأةٍ تمَّ الحكمُ عليهما بالموتِ رجماً بتهمةِ الزّنا، وفي عام 1983 قامت النّساءُ بتنظيمِ أوّلِ مظاهرةٍ نسائيّةٍ ضدَّ القوانينِ العرفيّةِ التي فرضها نظامُ ضياء على البلد.

تعقيبٌ منَ المترجم:

وردَ في كتابِ البدايةِ والنهايةِ لابن كثير بخصوصِ هذهِ القضيّةِ الرّوايةُ التّالية عن الصحابيِّ [الجليل] عمرِ بنِ الخطّاب، كما أنّها وردت في الكثيرِ من أمّهاتِ كتبِ التّراثِ الإسلاميّ، في روايةِ القاضي أحمد ينقلها لنا الإمامُ شرفُ الدِّينِ الموسويّ تحتَ عنوان: درؤهُ [المقصودُ هنا عمر] الحدَّ عن المغيرةِ بنِ شُعبة ((وذلكَ حيثُ فعلَ المُغيرة مع الإحصان، ما فعلَ من أمِّ جميلٍ بنتِ عمرو، امرأةٌ من قيس، وقد شَهِدَ عليهِ بذلكَ كلٌّ من أبي بكرةَ وهوَ معدودٌ من فضلاءِ الصّحابةِ وحملةِ الآثارِ النبويّة، ونافعُ بنُ الحارث وهوَ صحابيٌّ أيضاً، وشبلُ بنُ معبد. وكانت شهادةُ هؤلاءِ الثلاثةِ صريحةً، بأنّهم رأوا المغيرةَ بنَ شُعبة يولجهُ في أمِّ جميلٍ إيلاجَ الميلِ في المكحلة، لا يكنُّونَ ولا يحتشمون، ولمّا جاءَ الرّابعُ وهوَ زيادُ بنُ سميّةَ يشهد، أفهمهُ الخليفةُ رغبتهُ في ألّا يخزي المغيرة، ثمَّ سألهُ عمّا رآه فقال: رأيتُ مجلساً، وسمعتُ نَفَساً حثيثاً وانتهازاً ورأيتهُ مستبطنها، فقالَ عمر: أرأيتهُ يدخلهُ ويخرجهُ كالميلِ في المكحلة؟ فقالَ: لا، لكنّي رأيتهُ رافعاً رجليها فرأيتُ خصيتيهِ تتردّدُ إلى ما بينَ فخذيها، ورأيتُ حفزاً شديداً وسمعتُ نَفَساً عالياً، فقالَ عمر: أرأيتهُ يدخلهُ ويخرجهُ كالميلِ في المكحلة؟ فقالَ: لا، فقالَ عمر: الله أكبر، قم يا مغيرةَ إليهم فاضربهم، فقامَ يقيمُ الحدودَ على الثلاثة)) أمّا بالنسبةِ لأبي بكرةَ المسكين فإنّهُ قد نالَ عقابهُ((جلدهُ عمرٌ حدَّ القذفِ إذ لم تتمَّ الشّهادة، ثمَّ قالَ لهُ عمر: تُب تقبلُ شهادتك. فقالَ لهُ: إنّما تستتيبني لتقبلَ شهادتي؟!!. قالَ: أجل، فقال: لا جرمَ إنّي لا أشهدُ بينَ اثنينِ أبداً ما بقيتُ في الدنيا)) وروى ابنُ عيّينة عن.... عن سعيدِ بنِ المسيّب قال: شهدَ على المغيرةِ ثلاثةٌ

ونكلَ زياد فجلدَ عمرُ الثلاثةَ ثمَّ استتابهم فتابَ اثنانِ فجازت شهادتهما وأبى أبو بكرةَ أن يتوب.

1) النسخُ في الوحي، سيد القمني، ص 21.

2) البداية والنهاية، ابن كثير، جزء 7، ص 83- 84.

3) الاستيعابُ في تمييزِ الأصحاب، ابن عبد البر، باب الكنى، باب الباء.

4) النصُّ والاجتهاد، عبد الحسين شرف الدين الموسوي، ص 259.

الحُور العِين، وما أدراكَ ما الحُورُ العِين؟!...

ابن الورّاق

هناكَ الكثيرُ منَ المسلمينَ الذينَ يؤمنونَ أنَّ الشُّهداءَ سيتمتَّعونَ بجوائزَ حسِّيَّةٍ غنيَّةٍ عندَ دخولهم الجنَّة. هناكَ دراسةٌ جديدةٌ تشيرُ بأنَّهُ قد تخيبُ آمالهم. في آب/ أغسطس عام 2001 عرضت قناةٌ تلفزيونيَّةٌ أمريكيَّة CBS على الهواءِ مباشرةً مقابلةً مع أحدِ ناشطي حركةِ حماس: محمّد أبو وردة، الذي يقومُ بتجنيدِ الإرهابيِّينَ للقيامِ بعمليَّاتٍ تفجيرٍ انتحاريَّةٍ في إسرائيل. كانَ أبو وردة قد قالَ مقتبساً: «ثمَّ شرحتُ لهُ كيفَ أنَّ اللهَ سيكافئُ الشَّهيدَ لتقديمِ حياتهِ من أجلِ أرضه، فإن أصبحتَ شهيداً، فسيمنحكَ اللهُ 70 حوريَّةً عذراء، 70 زوجةً وحياةً أبديّة»، في الواقع كانَ وردة يضلِّلُ مجنَّديهِ حيثُ أنَّ المكافأةَ للشُّهداءِ في الجنَّةِ هيَ 72 عذراء، لكنّني أستبقُ الأمور، وأرجو المعذرة. منذُ هجمةِ الحادي عشرَ من سبتمبر/ أيلول، كرَّرت الأخبارُ الصَّحفيَّةُ قصَّةَ الانتحاريِّينَ الذينَ نفَّذوا تلكَ العمليَّةَ الإرهابيَّةَ ومكافأتهم في الفردوس، كما أنَّ الفقهاءَ المسلمينَ والمدافعينَ عن الإسلام في الغرب كرَّروا وأعادوا بأنَّ الانتحارَ محرَّمٌ في الإسلام. فالانتحارُ أو قتلُ النَّفسِ لم يحلِّلْهُ أو يسمح بهِ القرآن، إلّا أنّهُ تمَّ تحريمهُ بشكلٍ قاطعٍ في الحديثِ والسُّنَّة، حيثُ تقولُ المرويَّاتُ أنَّ الأحاديثَ والأفعالَ المنسوبةَ للنبيِّ عن طريقِ سلسلةٍ منَ الرُّواةِ والنَّاقلينَ الثِقات، وهيَ تتضمَّنُ جميعَ أفعالهِ التي قامَ بها خلالَ فترةِ حياتهِ والتي لم يحرِّمها، حتّى الأقوالُ والأفعالُ الأمريَّةُ لصحابته، لكنَّ المتحدِّثَ من حماس يستخدمُ كلمةَ «شهيد Martyr» بشكلٍ صحيحٍ ومناسب، ولم يستخدم كلمةَ «انتحاريّ Suicide Bomber». حيثُ أنَّ أولئكَ الذينَ ينسفونَ أنفسهم بشكلٍ يوميٍّ في إسرائيل وهؤلاءِ الذينَ ماتوا في أحداثِ الحادي عشرَ من أيلول ماتوا من أجلِ أقدسِ القضايا في الوجود، الجهاد، الذي يعدُّ واجباً دينيّاً إلزاميّاً، وردَ ذكرهُ في القرآنِ وفي الأحاديثِ كأساسٍ إلهيٍّ مقدَّس، وتمَّ فرضهُ من أجلِ نشرِ الإسلام، بينما الانتحارُ محرَّم، يتمُّ تمجيدُ الشَّهادةِ في سبيلِ اللهِ في كلِّ مكان، والترحيبُ بها، وتشجيعها: «والذي نفسي بيده، أحبُّ

كوني سأُقتَلُ في سبيلِ الله، ثمَّ أُبعَثَ إلى الحياةِ ثمَّ أموتَ بنفسِ الطريقة...». «عن أنسٍ قال : قالَ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم : ما من نفسٍ تموتُ فتدخلُ الجنّةَ فتودُّ أنّها رجعت إليكم ولها الدنيا وما فيها إلّا الشّهيدَ فإنّهُ ودَّ أنّهُ قُتِلَ كذا وكذا مرّةً لما رأى منَ الثّواب» [صحيح مسلم، الفصل 781- 782، استحقاقُ الجهرِ واستحقاقُ الشّهادة]

ماذا عنَ المكافئاتِ التي تنتظرُ الشّهداءَ في الجنّة؟ إنَّ الجنّةَ عندَ المسلمين توصفُ بشكلٍ تفصيليٍّ عام في القرآنِ والأحاديث، فعلى سبيلِ المثال، سورةُ الواقعة: 12- 40، سورةُ الرّحمن: 54- 56، سورةُ الإنسان: 12- 22، وقد وردَ في القرآنِ وصفٌ للجنّةِ في سورةِ الواقعة: 12- 39 وسأقتبسُ من ترجمةِ «إنجي داوود» طبعةُ دارِ «بينكوين» للقرآن {فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ * عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ * مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ * يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ * لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ * وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ * وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ * جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا * وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ * وَظِلٍّ مَمْدُودٍ * وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ * وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ * وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ * إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا * عُرُبًا أَتْرَابًا * لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ * ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ}.

«They shall recline on jewelled couches face to face, and there shall wait on them immortal youths with bowls and ewers and a cup of purest wine (that will neither pain their heads nor take away their reason); with fruits of their own choice and flesh of fowls that they relish. And theirs shall be the dark-eyed houris, chaste as hidden pearls: a guerdon for their deeds... We created the houris and made them virgins, loving companions for those on the right hand...»

على الإنسانِ أن يلاحظَ أنَّ أغلبَ الترجماتِ، حتّى من قِبَلِ المسلمينَ أنفسهم على غرارِ يوسف علي، يترجمونَ اللفظةَ العربيّةَ التي جاءت بصيغةِ الجمع [أبكارٌ] بكلمةِ

«عذارى»، كما قامت بذلكَ المعاجمُ الشهيرةُ كمعجمِ جون بينرايس. وأنا أؤكِّدُ هذهِ الحقيقةَ بما أنَّ هنالكَ الكثيرَ منَ المسلمينَ المتحاملينَ والمحرجين يدَّعونَ بأنَّ هناكَ إساءةً للترجمة، ويطالبونَ بأنَّهُ يجبُ استبدالُ كلمةِ «عذارى» بالملائكة. وفي سورةِ الرَّحمن: 72-74 حيثُ أنَّ داوودَ ترجمَ كلمةَ «حُور» إلى «عذارى Vergins» ويشيرُ سياقُ النصِّ إلى أنَّ كلمةَ «عذارى» في الترجمة هيَ الكلمةُ الأنسب: {حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ}

«Dark-eyed virgins sheltered in their tents (which of your Lord s blessings would you deny?) whom neither man nor jinnee will have touched before.»

ونلاحظُ أنَّ كلمةَ «حُور» قد وردت أربعَ مرَّاتٍ في القرآن، وهيَ غالباً ما تترجمُ بمعنى «الحوريَّاتِ ذواتِ العيونِ السُّود/ Maiden with dark eyes». بإمكاننا أن نلاحظَ هنا وجودَ نقطتينِ هامَّتينِ جِدّاً، أوّلاً، ليسَ هناكَ أيُّ ذكرٍ في أيِّ مكانٍ في القرآنِ عن العددِ الحقيقيِّ والفعليِّ للحوريَّاتِ الموجوداتِ في الجنَّة، وثانياً، الفتياتُ سودُ العيونِ متوفِّراتٌ لجميعِ المسلمين، وأنّهنَّ لسنَ مقتصراتٍ على الشُّهداءِ فحسب. أمّا كيفَ تحدَّدَ عددُ الحوريَّاتِ في الجنَّةِ باثنتينِ وسبعينَ حوريَّةً لكلِّ مسلم، فذلكَ نجدهُ في تراثِ الأحاديث، وبالتحديدِ في سُننِ الترمذيّ (تُوفِّيَ 892 للميلاد) حيثُ أنّهُ في كتابِ السُّننِ، الجزءِ الرَّابع، أبوابُ صفةِ الجنَّةِ عن رسولِ الله، البابُ الحادي والعشرون: بابُ ما جاءَ ما لأدنى أهلِ الجنَّةِ منَ الكرامة، حديث رقم 2687، قالَ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم: «أدنى أهلِ الجنَّةِ منزلةً الذي لهُ ثمانونَ ألفَ خادمٍ واثنتانِ وسبعونَ زوجةً تنصبُ لهُ قبَّةٌ من لؤلؤٍ وزبرجدٍ وياقوت كما بينَ الجابية [ضاحيةٌ في دمشق] إلى صنعاءَ [في اليمن]»، وقد وردَ نفسُ الحديثِ في تفسيرِ ابن كثير لسورةِ الرَّحمن، آية رقم 72. المدافعونَ المعاصرونَ عن الإسلام يحاولونَ إضفاءَ الطَّابعِ المادِّيِّ والإسقاطاتِ الجنسيَّةِ على هذهِ التفسيرات، ولكن، كما وردَ في موسوعةِ الإسلام Encyclopedia of Islam _ حتّى اللاَّهوتيّونَ الإسلاميّونَ المتشدّدون أمثالُ الغزالي (تُوفِّيَ عام 1111 للميلاد) والأشعري (تُوفِّيَ عام 935 للميلاد) «اقرُّوا بالمباهجِ الحسِّيَّةِ في الجنَّة»، كما أنَّ المباهجَ الحسِّيَّةَ والجسديَّةَ قد

وردت بشكلٍ مفصَّلٍ وتصويريٍّ في أعمالِ السيوطيّ (تُوفّيَ عام 1505 للميلاد)، وهوَ معلّقٌ وفقيهٌ إسلاميٌّ مشهورٌ ومعتبر، حيثُ يقول: «في كلِّ مرّةٍ ننامُ فيها مع حوريّةٍ نجدها قد عادت عذراءَ مرّةً ثانية، إضافةً إلى ذلك، إنَّ عضوَ المؤمنِ لا يلينُ أبداً.

فالانتصابُ حالةٌ أبديّة، أمّا الإحساسُ الذي ستشعرُ بهِ في كلِّ مرّةٍ تمارسُ فيها الحبَّ مع الحوريّةِ لذيذٌ جدّاً ومن خارجِ هذا العالم، وعندما تختبرهُ في هذا العالمِ ستشعرُ وكأنّكَ تغيبُ عن الوعي، وكلُّ مسلمٍ سيتزوَّجُ سبعينَ حوريّة، بالإضافةِ إلى زوجاتِهِ اللواتي كانَ قد تزوَّجهنَّ أثناءَ حياته، وجميعهنَّ لهنَّ فروجٌ مثيرةٌ للشهوة». إحدى الأسبابِ التي دفعت نيتشه لكي يكرهَ الديانةَ المسيحيّةَ كانت في أنّها «تجعلُ منَ الجنْسِ أمراً قبيحاً وبشعاً»، في حينِ أنَّ الإسلامَ، سيقولُ العديدُ منَ الأشخاص، كانَ يقومُ على الجنْس. ليسَ بمقدورِ أحدٍ أن يتخيَّلَ أيّاً من آباءِ الكنيسةِ وهم يكتبونَ بابتهاجٍ وسعادةٍ عن ممارسةِ الجنْسِ في الجنّةِ كما فعلَ السيوطيّ، باستثناءِ واحدٍ منهم وهوَ القدّيسُ أوغسطين قبلَ أن يدوِّنَ اعترافاته، ولكن عندما يقولُ أحدٌ ما أنَّ الإسلامَ قائمٌ على الجنْس، فإنّهُ بذلكَ يوجِّهُ إهانةً إلى جميعِ النّساءِ المسلمات، لأنَّ الجنْسَ لا يُنظرُ إليهِ إلّا من وجهةِ نظرِ الذُّكور، وهناكَ إقرارٌ للنّاحيةِ الجنْسيّةِ عندَ المرأةِ المسلمة، إلّا أنّها يُنظرُ إليها بعينِ الخوفِ والقلق، وبأنّها شيءٌ مخيفٌ ومن عملِ الشّيطان. أشارَ الفقهاءُ منذُ مدّةٍ طويلةٍ إلى أنَّ هذهِ الصُّورَ هيَ تصوُّراتٌ مرسومةٌ بكلِّ وضوح، وأنّها قد تكونُ مستلهمةً عن طريقِ فنِّ الرَّسم، وسواءٌ أكانَ محمّدٌ، أم غيرهُ هوَ المسؤولَ عن هذهِ الأوصاف، منَ الممكنِ أنّهُ قد شاهدَ الرُّسوماتِ أو الجداريّاتِ المسيحيّةَ التي تصوِّرُ حدائقَ الجنّة، ثمَّ فسَّرَ الشخصيّاتِ الملائكيّةَ الموجودةَ فيها على أنّها تشبهُ الشُّبّانَ الصِّغار [الولدان، الغلمان] والفتياتِ الشّابّاتِ الغضّات [الحُور العِين]. وهناكَ تأثيرٌ نصّيٌّ آخر أثّرَ على التصوُّراتِ الموجودةِ في القرآن وهوَ عملُ إفريم السّوريّ [306– 373 للميلاد].

تراتيلٌ عن الجنّة، مكتوبةٌ باللُّغةِ السُّريانيّة، وهيَ لهجةٌ آراميّةٌ ولغةُ المسيحيّةِ الشّرقيّة، بالإضافةِ إلى أنّها لغةٌ ساميّةٌ ووثيقةُ الصِّلةِ باللُّغتينِ العبريّةِ والعربيّة، وهذا بطبيعتهِ يقودُ إلى الكتابِ الأكثرِ امتيازاً وأهمّيّةً في مجالِ لغةِ القرآن، وإذا تمَّ إثباتُ صحّةِ ما جاءَ في الكتابِ في سياقهِ العام، ولعلَّهُ الكتابُ الأكثرُ أهمّيّةً الذي تمَّ وضعهُ في مجالِ الدراساتِ القرآنيّة.

كتابُ كريستوفر لوكسنبورغ: «Die Syro-Aramaische Lesart des Koran» وهوَ لم يكن متوفّراً إلّا في ألمانيا، إلّا أنّهُ ظهرَ إلى العالمِ منذُ سنةٍ تقريباً، وقد استُقبِلَ بحماسٍ شديد، وخصوصاً بينَ العلماءِ الذينَ يعرفونَ لغاتٍ سريانيّةً عديدةً في برينستون، ييل، برلين، بوتسدام، إيرلانغين، أكسين بورفينس، ومعهدِ الدراساتِ الشّرقيّةِ في بيروت. يحاولُ لوكسنبورغ في كتابهِ إظهارَ كيفَ أنَّ الكثيرَ منَ الغموضِ في القرآنِ ينجلي إذا قرأنا كلماتٍ معيّنةً بلهجةٍ سريانيّةٍ وليست عربيّة. لا يمكننا الدخولُ في التّفاصيلِ التقنيّةِ لمنهجهِ إلّا أنّهُ يسمحُ للوكسنبرغ ـ إلى الرُّعبِ المحتملِ لكلِّ الذُّكورِ المسلمينَ الذينَ يحلمونَ بالنِّعمةِ الجِنسيّةِ في الآخرةِ ـ باستحضارِ الحوريّاتِ ذواتِ العيونِ السُّود التي وعدَ بهنَّ اللهُ المؤمنينَ في سورةِ الدُّخان: 54، سورةِ الطُّور: 20، سورةِ الرَّحمن 72، وسورةِ الواقعة: 22. تحليلُ لوكسنبورغ الجديد يعتمدُ على تراتيلِ إفريم السُّوري، محاصيلُ «الزبيبِ الأبيض» منَ «الوضوحِ البلوريِّ» بدلاً من حوريّاتٍ عذراواتٍ ذواتِ عيونٍ كعيونِ الظِّباء، متوفّراتٍ عندَ الحاجة. ويصرِّحُ لوكسنبورغ أنَّ السِّياقَ يُظهِرُ بوضوحٍ أنَّ ذلكَ الذي يظهرُ في الصُّورة هوَ مجرَّدُ طعامٍ وشراب، وليسَ حُورَ عِينٍ أو حوريّاتٍ عذارى. في اللُّغةِ السُّريانيّة، كلمةُ «حُور» هيَ صِفَةٌ جمعيّةٌ مؤنّثةٌ تعني «أبيض»، مع الكلمةِ «زبيب» فإنّها تُفهَمُ فهماً ضمنيّاً، وبنفسِ الشَّكل، الولدانُ أو الغلمانُ المخلَّدونَ الذينَ يرتدونَ الأقراطَ والأساور إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً، الذينَ وردَ ذكرهم في سورةِ الإنسان: 19، ما هوَ إلّا خطأٌ أو سوءُ فهمٍ في قراءةِ التعبيرِ السُّريانيِّ الذي يعني «الزبيبَ المُبرَّد» أو الشَّرابَ الذي سيستمتعُ المرءُ عندَ شربهِ ويشعرُ باللذّةِ بعكسِ الشَّرابِ المغليِّ الذي توعَّدَ بهِ الرَّبُّ للكفّارِ والملعونين. بما أنّهُ لم يُنشَر كتابُ لوكسنبورغ إلّا مؤخّراً، علينا أن ننتظرَ تقييمهُ العلميَّ قبلَ أن نتمكَّنَ من إصدارِ حكمنا عليه، ولكن إذا صحَّت تحليلاتهُ، عندها سيكونُ الانتحاريُّونَ المفجِّرون، أو بمعنى آخر «الشُّهداء»، سيبذلونَ كلَّ ما لديهم لكي يهجروا ثقافةَ الموتِ التي تربُّوا عليها، وأن يركِّزوا جهودهم كي ينالوا 72 جاماً حقيقيّاً في هذا العالم، إلّا إذا كانوا يفضِّلونَ شرابَ الزبيبِ المُبرَّدِ الأبيض، وذلكَ حسبَ ذوقهم.
المرحلةُ المشتركةُ هيَ بديلٌ عن المرحلةِ المسيحيّةِ كأسلوبٍ أو منهجٍ في المواعدةِ التّاريخيّة، نُشِرَت هذهِ المقالةُ في مجلّةِ «The Guardian» بتاريخ 12 كانون الثّاني 2002.

الإسلامُ والإرهابُ الفكريّ...

ابنُ الورّاق

العمامات التي تمّ فرضها على العقلِ تنكرُ ولا تسمحُ بقيامِ أيِّ اشتباكٍ فكريٍّ أو نقديٍّ معَ الإسلام. عرَّفَ ألدوس هكسلي في إحدى المرّات الشّخصَ المفكّرَ بأنّهُ هوَ الذي وجدَ شيئاً ما في الحياةِ أهمَّ بكثيرٍ منَ الجنْس: تعريفٌ فكاهيٌّ وظريف، لكنّهُ غيرُ كافٍ، بما أنّهُ سيجعلُ جميعَ الرّجالِ المعنيِّينَ والنّساءِ الفاتراتِ مفكّرين. التعريفُ الأنسبُ سيكونُ بأنّهُ المفكّرُ الحرّ، ليسَ بمعنىً ضيّقٍ أو ذاكَ الشّخصُ الذي لن يتقبّلَ دوغمائيّةَ الديانةِ السّائدة، بل هوَ من منظورٍ أوسع الشّخصُ الذي يمتلكُ إرادةَ المعرفةِ والاستكشافِ والتقصّي، الذي تظهرُ عندهُ معالمُ الشّكِّ العقليِّ حولَ الأزياءِ الثقافيّةِ السّائدة، والذي لا يخافُ تطبيقَ مناهجِ الفكرِ النّقديِّ على أيِّ موضوع، فإذا كانَ المفكّرُ ملتزماً بحقّ ومخلصاً لفكرةِ الحقيقةِ والبحثِ الحرّ، عندها لا يمكنهُ أو لا يمكنها أن يوقفَ العقلَ المُتسائلَ على أعتابِ أيِّ دينٍ منَ الأديان، وليسَ الإسلامَ فقط، ورغمَ ذلك، هذا بالضّبطِ ما حدثَ في الإسلام، فتوجيهُ النّقدِ في مناخنا الفكريِّ الحاليِّ هوَ منَ التّابوهاتِ المحرّمة، وهناكَ الكثيرُ منَ الأسبابِ المختلفةِ في استمرارِ الكثيرينَ منَ المثقّفينَ والمفكّرين للتعاملِ مع الإسلامِ على أنّهُ منَ المحرّمات، ومن ضمنها:1) الإصلاحُ السياسيُّ يقودُ إلى إصلاحٍ إسلاميّ. 2) الخوفُ على الأقلّيّاتِ المسلمةِ في الغربِ منَ الضّررِ على أيدي العُنصريّينَ والرجعيّين. 3) دوافعُ اقتصاديّةٌ أو تجاريّة 4) مشاعرُ الذّنبِ التي تنتابُ مفكّري ما بعدَ الاستعمار (حيثُ أنَّ جميعَ مشاكلِ الكوكب تنسبُ إلى نوايا الغربِ الشرّيرة) 5) بسببِ الخوفِ الطبيعيّ، حيثُ أنَّ الخوفَ والقلقَ منَ الطبيعةِ الإنسانيّة. 6) والإرهابُ الفكريُّ للكتّاب، مثلُ إدوارد سعيد أنموذجاً. ارتكبَ إدوارد سعيد خطأً جسيماً وهوَ أنّهُ علّمَ جيلاً كاملاً منَ الشّبابِ العرب فنَّ الشفقةِ على النّفسِ ورثاءِ الذّات (لولا هؤلاءِ الصهاينة، والإمبرياليّينَ والمستعمرين، لو أنّهم تركونا وشأننا، لكنّا الآنَ عظماء، ولما كنّا مهانين، أو متخلّفين) لكنّهُ أفزعَ المفكّرينَ الأكاديميّينَ الغربيّينَ الضّعفاء، وحتّى الذينَ

يميلونَ نحوَ اليسار، بأنَّ أيَّ نقدٍ للإسلام سيُواجَهُ على أنَّهُ استشراق Orientalism، وبذلكَ فهوَ عاجز، ولكنَّ واجبَ المفكِّرينَ الرئيسيَّ هوَ قولُ الحقيقةِ وإعلانها أمامَ الملأ، إلّا أنَّ الحقيقةَ ليست هيَ الموضةَ الشّائعةَ في عصرِ ما بعدَ الحداثة، عندما انتقلت العدوى إلى المفكِّرينَ القارِّيِّينَ الإنغلو/أمريكيّين النصّابين بفكرةِ أنَّ المعرفةَ الموضوعيّةَ ليست فقط غيرَ مرغوبة، بل لا يمكنُ تحصيلها. أعتقدُ أنَّ هجرَ فكرةِ الحقيقةِ لا يؤدّي ذلكَ إلى الفاشيَّةِ السياسيّةِ فحسب، بل يمنعُ ويقضي على أيِّ نوعٍ من أنواعِ التساؤلِ والتقصّي الفكري، كما أنَّ التخلّي عن فكرةِ الحقيقة يعني أنّنا نبتعدُ عن الهدفِ الأساسيِّ من عمليّةِ اكتسابِ المعرفة، لكنَّ «الإنسان» _كما وصفهُ أرسطو، ميّالٌ بطبيعتهِ إلى أن يعرف. الحقيقةُ، العلمُ، التساؤلُ الفكريُّ، والتفكيرُ العقلانيُّ جميعها مترابطةٌ مع بعضها البعض بشكلٍ معقَّد، أمّا بالنسبةِ للنسبيّةِ Relativism ووليدتها غيرِ الشّرعيّة، تعدُّديّةِ الثّقافات Multiculturalism، لا تؤيّدُ عمليّةَ التقصّي النّقديِّ للإسلام.

وضعَ سعيدُ كتاباً حواريّاً «الاستشراق» (1978) وكانَ لهُ تأثيرٌ خبيثٌ وسامٌ ما زالَ يلبّدُ حتّى الآن كلَّ أقسامِ الدراساتِ الإسلاميّة، حيثُ أنَّ أيَّ نقاشٍ نقديٍّ يتناولُ الإسلام يمكنُ الحكمُ عليهِ مسبقاً، يرى سعيد أنَّ المستشرقينَ مشتركونَ في مؤامرةٍ شريرةٍ لتشويهِ سمعةِ الإسلام، لإبقاءِ أتباعهِ في حالةٍ منَ الخضوعِ التّام، وهم بمثابةِ تهديدٍ لمستقبلِ الإسلام، هؤلاءِ المستشرقونَ يسعونَ وراءَ معرفةِ الشّرقيّينَ لكي يسيطروا عليهم، وأغلبهم يعملونَ لصالحِ الإمبرياليّة. المشكلةُ أنَّ المفكِّرينَ الغربيّينَ قد امتصّوا أطروحةَ سعيدٍ بكاملها، بما أنّها تنسجمُ تماماً مع الكرهِ العميقِ للغربِ الكامنِ في دواخلهم، وتظهرُ هذهِ النزعةُ بشكلٍ متكرّرٍ في كتاباتِ سعيد، كما جاءَ في تعليقهِ في مجلّةِ Guardian بعدَ أحداثِ الحادي عشرَ من أيلول/ سبتمبر، التهرُّبُ والمراوغةُ الأخلاقيّةُ المدروسة، والقسوةُ الخبيثةُ والسيِّئةُ في مقالةِ سعيد، ورفضهُ إدانةَ تلكَ الهجماتِ الإرهابيّةِ على أمريكا وإظهارُ أيِّ نوعٍ منَ التعاطفِ مع الضحايا الأمريكان، تركَ طعماً سيّئاً في فمِ أيِّ شخصٍ لم تتصلّب أحاسيسهُ جرّاءَ التصويبِ السياسيِّ والإسلاميّ، وبالرّغمِ من كافّةِ الأدلّة، ما زالَ سعيدٌ [كُتِبَت هذهِ المقالة أثناءَ فترةِ حياةِ إدوارد سعيد] يجادلُ أنَّ السياسةَ الخارجيّةَ الأمريكيّةَ في الشّرقِ الأوسط وفي كلِّ مكانٍ آخر هيَ السّببُ الرئيسيُّ لتلكَ

المجيءات على أمريكا. في الوقتِ الحالي، البروفيسور والعالمُ جوزيف فان إس، والذي تعدُّ أعمالُهُ جوهريَّةً ومحوريَّةً في دراسةِ علمِ اللاّهوتِ الإسلاميّ، توقَّفَ عن أبحاثِهِ خوفاً من معارضةِ وإرهابِ الإسلامِ السُّنّي. غانتر لولينغ طُرِدَ من مهنتِهِ في جميعِ الجامعاتِ الألمانيّةِ لأنّهُ قدّمَ أطروحةً جذريّةً خطيرةً تنصُّ على أنَّ ثُلثَ القرآنِ كانَ موجوداً أصلاً قبلَ ظهورِهِ الإسلامي: تراتيلُ مسيحيّة، لذلكَ فهوَ ليسَ لهُ أيُّ علاقةٍ بمحمّد.

يقولُ أحدُ العربِ الألمانِ أنَّ الأكاديميّينَ الآنَ يرتدونَ «عماماتٍ على عقولهم»، ويقدِّمونَ «دراساتٍ إسلاميّةً» أكثرَ من كونهم يقدِّمونَ «دراساتٍ عن الإسلام». في الوقتِ الذي باتت فيهِ الدراساتُ النَّقديّةُ الإنجيليّةُ جدّاً متقدِّمةً منذُ القرنِ السّادسَ عشر عندما شرحَ سبينوزا أنَّ أسفارَ موسى الخمسة لا يمكنُ أن تكونَ مكتوبةً على يدِ موسى نفسِهِ، أمّا القرآنُ فهوَ مجهولٌ عمليّاً كوثيقةٍ إنسانيّةٍ قابلةٍ للتحليلِ باستخدامِ أدواتِ وتقنيّاتِ النَّقدِ التوراتيّ.

الحاجةُ الماسّةُ للنَّقدِ القرآنيِّ الموضوعيّ:

يدلُّ إصلاحُ الإسلامِ على التعديلاتِ والتكييفاتِ التي طرأت على ما هوَ بالأساسِ تركيبٌ أو بنيةٌ لاهوتيّة، وهوَ ـ إن تمَّ تطبيقُ الإصلاحات ـ سيؤدّي إلى الشيءِ اللاّهوتيِّ نفسِهِ الذي حكمَ المجتمع، ما نحنُ بحاجةٍ إليهِ فعلاً هوَ حركةُ استنارةٍ شاملةٍ في العالمِ الإسلاميّ، في الأوساطِ الإسلاميّةِ والفكرِ والإسلاميّ. حيثُ أنَّ التنويرَ يُظهِرُ الخطوةَ الأكثرَ إثارةً نحوَ علمنةٍ وعقلنةِ التّاريخِ الأوروبيّ، وكانَ لهُ التأثيرُ نفسهُ على أرجاءِ العالمِ كافّة. كانت عمليّةُ النهضةِ والإصلاحِ ناقصةً وغيرَ مكتملة، وبالمقابل، يكتبُ جوناثان إسرائيل في كتابه: التنويرُ الراديكاليّ «التنويرُ الأوروبيُّ والعالميُّ لم يُقدِم فقط على مهاجمةِ وقطعِ جذورِ الثّقافةِ الأوروبيّةِ التقليديّةِ في المقدَّساتِ والسِّحرِ والملكيّةِ والهرميّة، مُعلِماً جميعَ المؤسَّساتِ والأفكار، بل ـ ثقافياً وعمليّاً إلى حدٌّ ما ـ دمَّرَ بشكلٍ فعَّال شرعيّةَ النِّظامِ الملكيّ، والأرستقراطيّة، خضوعَ المرأةِ للرَّجل، السُّلطة الإكليروسيّة، والعبوديّة، ووضعَ بدلاً عنها مبادئَ العالميّة، المساواة، والديمقراطيّة».

يقولُ إسرائيل أيضاً: «في الواقع كانَ سبينوزا ومذهبهُ العمودَ الفقريَّ الفكريَّ

للتنويرِ الأوروبيِّ الراديكاليِّ في كلِّ مكان، وليسَ فقط في هولّندا، ألمانيا، فرنسا، إيطاليا، واسكندنافيا، بل أيضاً في بريطانيا وإيرلندا». والعملُ الذي كانَ لهُ الدورُ الرئيسُ أكثرَ من غيرِهِ في جلبِ هذهِ الثّورةِ العميقةِ في التّاريخِ الإنسانيِّ كانَ «رسالةَ سبينوزا في اللاّهوتِ والسياسة Tractatus Theologico-politicus» التي نُشِرَت بشكلٍ سرّيٍّ بدايةَ الأمر، ولكن بفضلِ شجاعةِ ناشرٍ ألمانيٍّ يُدعى جان ريفيرتز [1616– 1687] في مدينةِ أمستردام عام 1670. فقد كانَ الإنجيلُ بالنسبةِ لسبينوزا عملاً إنسانيّاً بحتاً ونصّاً دنيويّاً، فعلمُ اللاّهوتِ ليسَ مصدراً مستقلاً للحقيقة. النّقدُ القرآنيُّ من ناحيةٍ أخرى، تلكّأ جدّاً حتّى صارَ متخلّفاً، ولكن بالطّبعِ إنَّ المسلمينَ وغيرَ المسلمين لهم الحقُّ لفحصِ المصادرِ بطريقةٍ نقديَّة، والتدقيقِ في التّاريخ، وعقيدةِ الإسلام. فحقُّ النّقدِ هوَ الحقُّ الذي يستعملهُ المسلمونَ أثناءَ شجبهم المتكرّرِ للثّقافةِ الغربيّة، حتّى أنها تتّخذُ طابعاً عنصريّاً، استعماريّاً، أو إمبرياليّاً، وبأنّهُ تمّ توجيههُ ضدَّ الإسلامِ بتحريضٍ منَ الأوروبّيّين. فمن دونِ النّقدِ سيظلُّ الإسلامُ محميّاً وحصيناً داخلَ قلعتهِ القروسطيّةِ الدوغمائيّةِ المتعصّبة: غيرَ متسامح، استبداديٌّ، ومعظّم، وسيواصلُ بخنقِ الفكرِ الحرّ، وحقوقِ الإنسان، الفرديّة، الأصالة، والحقيقة، أمّا بالنسبةِ للمفكّرينَ الغربيِّينَ والباحثينَ الإسلاميّين فقد فشلوا فشلاً ذريعاً في واجباتهم كمفكّرين، لقد خانوا ندائهم من خلالِ تخلّيهم عن مقدراتهم النّقدويّةِ فيما يتعلّقُ بالإسلام. ختاماً، يجبُ على المفكّرينَ الغربيّين الدفاعُ بشراسةٍ عن حقّنا في فحصِ الإسلامِ وتسليطِ الضّوءِ عليه، لتفسيرِ عمليّةِ ظهورهِ وسقوطهِ من خلالِ الآليّاتِ الطبيعيّةِ للتّاريخِ البشريّ، ووفقَ المقاييسِ الموضوعيّةِ لعلمِ المنهجِ التّاريخيّ. تقومُ الديمقراطيّةُ بشكلٍ أساسيٍّ على الحرّيّةِ الفكريّةِ والنِقاشِ الحرّ، إنّها انحرافٌ لأجهزةِ الإعلامِ الغربيّةِ لرثاءِ قلّةِ الإصلاحاتِ الإسلاميّةِ والتجاهلِ المتعمّدِ والعنيدِ للكثيرِ منَ الأعمالِ ككتابِ أنور شيخ الإسلام: «الإمبرياليّةُ العربيّة»، أو «لماذا لستُ مسلماً»، لابن الورّاق». كيفَ يعتقدونَ أنَّ الإصلاحَ سيأتي إذا لم يكن عن طريقِ النّقدِ البنّاء؟ فإذا أخمدنا النِقاشَ والتساؤلَ العقلانيَّ للإسلام، ستكونُ النتيجةُ ظهورَ ذلكَ الشيءِ الذي تحاولُ الحكوماتُ تفاديهِ قدرَ المستطاع: التحزُّباتُ العنصريَّةُ والفتَّاكةُ القائمةُ على البغضاءِ والكره. وإذا كانَ هناكَ المزيدُ منَ الأعمالِ الإرهابيّة، عندها ستكونُ الزينوفوبيا [أو

الخوفُ الشديدُ منَ الآخرِ أو المغاير] غيرُ المبرَّرةِ هيَ الوسيلةَ الوحيدةَ المتوفِّرةَ للتعبيرِ عمّا يجولُ في النُّفوس، نحنُ أيضاً لا نستطيعُ السَّماحَ للمسلمينَ شخصيّاً أن يقرِّروا الشَّرائعَ التي «تحرِّضُ على الكراهيّةِ الدينيّة»، بما أنَّ أيَّ عمليّةِ نقدٍ شرعيٍّ للإسلام بعدَ ذلكَ سيتمُّ كبحها ككراهيةٍ دينيّة، فقط في النِّظامِ الديمقراطيِّ حيثُ حرِّيَّةُ التساؤلِ تصونُ عمليّةَ التقدُّمِ العلميّ، أمّا القوانينُ المحمولةُ بعُجالة فهيَ تخاطرُ بخنقِ الخيطِ الذَّهبيِّ للعقلانيّةِ التي تسودُ الحضارةَ الغربيّة.

حدُّ الرِّدّة وحقوقُ الإنسان...

ابن الورّاق

إنَّ فكرةَ الرِّدَّةِ بحدِّ ذاتها اختفت منَ الغربِ حيثُ أنَّ الشّخصَ الذي يتكلّمُ عن كونِهِ كاثوليكيّاً غيرَ ملتزمٍ أو غيرَ ممارسٍ للشّعائرِ والطقوسِ الدينيّة، ولا يعتبرُ مرتدّاً. بالتأكيدِ ليسَ هناكَ أيّةُ عقوباتٍ جزائيّةٍ للتحوُّلِ منَ المسيحيّةِ إلى أيِّ ديانةٍ أخرى، أمّا في الأقطارِ الإسلاميّة، من ناحيةٍ أخرى، فإنَّ المسألةَ مختلفةٌ تماماً.

القرآن:

منَ الواضحِ تماماً أنَّ القانونَ الإسلاميَّ يوجبُ قتلَ المرتدّ، فليسَ هناكَ جدالٌ حولَ هذهِ الأحكامِ بينَ المسلمينَ التقليديِّينَ أو الفُقهاءِ المحدثين، وينبغي علينا أن نعودَ إلى الدلائلِ والبراهينِ النصِّيّةِ من أجلِ ذلك، بعضُ الفُقهاءِ المعاصرينَ قالوا أنَّ القرآنَ قد توعَّدَ وهدَّدَ المرتدِّينَ بعذابٍ أليم، ولكنَّ ذلكَ في الحياةِ الأخرى، كما وردَ في الآيةِ التّالية: {مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [سورة النحل: 106]، وقد وردَ نفسُ الكلامِ في الآيةِ التّالية: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ} [آل عمران: 90- 91]. على أيّةِ حال، الآيةُ رقم 217 من سورةِ البقرة {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}، وقد فسّرَ هذهِ الآيةَ الإمامُ الشّافعيُّ [تُوفِّيَ عام 830 للميلاد] مؤسِّسُ أحدِ التيّاراتِ المتطرِّفةِ الأربعةِ للإسلامِ السُّنّي ليعني

أنَّ عقوبةَ الموتِ يجبُ أن تحدَّدَ للمرتدِّين، وقد وافقَ الثعالبيُّ طرحَ الشَّافعيِّ.

أمّا الرَّازي في تعليقِهِ على الآيةِ السَّابقةِ الذكر يقولُ بصراحةٍ أنَّ المرتدَّ يجبُ أن يُقتَل[1]. وبشكلٍ مشابه، تقولُ الآيةُ رقم 89 من سورةِ النِّساء {وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلاَ تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلاَ تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا}. يقولُ البيضاويُّ [تُوفِّيَ عام 1315– 16] في تعليقِهِ الاحتفاليِّ على القرآن، مفسِّراً هذهِ الآيةَ ليصبحَ معناها: «أيُّ شخصٍ ارتدَّ أو تراجعَ عن معتقداتِهِ، بشكلٍ ضمنيٍّ أو معلن، فخذوهُ واقتلوهُ حيثما وجدتموه، كأيِّ كافر، ابتعدوا عنهُ ولا تقربوهُ جملةً أو تفصيلاً، ولا تقبلوا شفاعتهُ أيّاً كان»[2]. أمّا ابنُ كثير في تفسيرِهِ على هذهِ الآية فإنَّهُ يقتبسُ منَ السَّعديِّ [تُوفِّيَ عام 754] حيثُ يقولُ أنَّهُ بما أنَّ الكفَّارَ أعلنوا عدمَ إيمانهم، فيجبُ قتلهم في الحال.[3] أبو الأعلى المودودي [1903– 1979] ومؤسِّسُ الجماعةِ الإسلاميَّة، كما أنَّهُ على الأرجح المفكِّرُ الإسلاميُّ المعاصرُ الأكثرُ تأثيراً خلالَ القرنِ العشرين، كانَ المسؤولَ عن عمليَّةِ الانبعاثِ الإسلاميِّ في العصرِ الحديث. كان قد دعا للعودةِ إلى القرآنِ والسُّنَّةِ الشَّريفة كطريقةٍ لإنعاشِ الإسلام وإعادتهِ إلى الحياة. في كتابهِ الذي تناولَ فيهِ موضوعَ الرِّدَّةِ في الإسلام، صرَّحَ المودوديُّ أنَّهُ حتّى القرآنُ يقرِّرُ عقوبةَ الموتِ للمرتدِّين. حيثُ أنَّهُ يشيرُ إلى السُّورةِ التَّالية: {فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ} [سورة التوبة: 11– 12].[4]

(1) S. Zwemer,The Law of Apostasy in Islam (New York ,1924), pp.34-35. See also al-Razi, al-Tafsir al-Kabir (Cairo ,1308 A.H.), Vol.2,lines 17-20.

(2) Zwemer ,op. cit. pp.33-34.

(3) Ibn Kathir, L Interpretation du Coran, trans.Fawzi Chaaban (Beirut, 1998),Vol. 2, p.128.

(4) Abul Ala Mawdudi , The Punishment of the Apostate according to Islamic Law, trans. Syed Silas Husain and Ernest Hahn (1994), available at http://www.answering-islam.org.

الحديث:

هنا يمكننا إيجادُ الكثيرِ منَ التُّراثِ والتقاليدِ التي تطالبُ بعقوبةِ الموتِ للمرتدِّين، عن ابنِ عبَّاس، عن النبيِّ أنَّهُ قال: «من بدَّلَ دينهُ اقتلوه»، أو «اقطعوا رأسه» (رواهُ ابنُ ماجه والنَّسائيُّ والإمامُ مالك والبخاريّ والترمذيّ وابن داوُد)[1]. والحجَّةُ الوحيدةُ كانت بالنسبةِ إلى طبيعةِ عقوبةِ الموت. ويعيدُ البُخاريُّ سردَ هذا التقليدِ المرعب: عن أنسٍ: أنَّ رهطاً من عُكَل، أو قال: عرينة، ولا أعلمهُ إلّا قال: من عُكَل، قدموا المدينةَ، فأمرَ لهم النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بلقاحٍ، وأمرهم أن يخرجوا فيشربوا من أبوالها وألبانها، فشربوا حتّى إذا برئوا قتلوا الرَّاعيَّ واستاقوا النَّعَم، فبلغَ النبيُّ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ غدوةً، فبعثَ الطلبَ في إثرهم، فما إن ارتفعَ النَّهارُ حتّى جيءَ بهم، فأمرَ بهم فقطعَ أيديهم وأرجلهم، وسملَ أعينهم، فألقوا بالحرَّةِ يستسقونَ فلا يُسقون[رواهُ البخاريّ، كتابُ المحاربينَ من أهلِ الكفرِ والرِّدَّة، بابُ سملِ النبيِّ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أعينَ المحاربين، 6420][2].

أمّا أبو داوُود فقد جمعَ الأقوالَ التَّاليةَ عن النبيِّ:عن عِكرمة: أنَّ عليّاً عليهِ السَّلامُ أحرقَ ناساً ارتدُّوا عن الإسلام، فبلغَ ذلكَ ابنَ عبَّاسٍ فقال: لم أكن لأحرقهم بالنَّار، إنَّ رسولَ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قال: «لا تعذِّبوا بعذابِ الله» وكنتَ قاتلهم بقولِ رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم، فإنَّ رسولَ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قال: «من بدَّلَ دينهُ فاقتلوه». [سنن أبي داوُود، كتابُ الحدود، بابُ الحُكمِ فيمن ارتدّ، 4351][3] بمعنى آخر؛ اقتلوا المرتدَّ (بالسَّيفِ) ولكن لا تحرقوهم، تلكَ هيَ طريقةُ اللهِ في معاقبةِ المخالفينَ في العالمِ الآخر. وهناكَ حديثٌ على لسانِ عائشة، قالَ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم: «لا يحِلُّ دمُ امرئٍ مسلمٍ يشهدُ أن لا إلهَ إلّا الله وأنَّ محمّداً رسولُ الله،

---

(1) Ibn Maja, Hudud, bab 2 ; al-Nisai , Tahrim al-Dam, bab 14 ; al-Tayalisi, no.2689; Malik, Aqdiya tr.15;al-Bukhari, Institabat al-murtadin, bab 2; al-Tirmidhi, Hudud, bab 25; Abu Dawud, Hudud, Bab 1; Ibn Hanbal i. 217, 282, 322.

(2) Al-Bukhari, Sahih, Trans.Ahmad Hasan (Delhi, 1987),Vol.8, pp.519-520.

(3) Abu Dawud, Sunan, Trans.Ahmad Hasan, Vol.3, Kitab al-Hudud, chap.1605, Punishment of an Apostate, Hadith No. 4337 (Delhi 1990), p.1212.

إلاّ بإحدى ثلاثٍ: رجلٌ زنى بعدَ إحصانٍ فإنّهُ يُرجَم، ورجلٌ خرجَ محارباً للهِ ورسولِهِ فإنّهُ يقتلُ أو يُصلَبُ أو يُنفى منَ الأرض، أو يقتلُ نفساً فيُقتَلُ بها» [رواهُ ابو داؤودَ في سننِهِ، والنّسائي][(1)] ولكن هل ينبغي أن يُمنَحَ المرتدُّ فرصةً أخيرةً لكي يتوب، ويعودَ إلى الإيمان؟... تختلفُ المرجعيّاتُ فيما بينها اختلافاً كبيراً، فقد وردَ في أحدِ المراجعِ أنَّ معاذَ رفضَ الجلوسَ حتّى يأتي أمامَ مرتدٌّ فيقتلهُ.

«قضاءُ الله تعالى ورسولِهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم»[(2)]

في ظلِّ الشّريعةِ الإسلاميّة، يجبُ أن يُقتَلَ المرتدُّ الذَّكر، طالما أنّهُ قد بلغَ سِنَّ الرُّشد، وأنّهُ بكاملِ قدراتِهِ العقليّة.

أمّا إذا كانَ المرتدُّ صبيّاً لم يبلغ بعد، فإنّهُ يسجنُ حتّى يبلغَ سِنَّ الرُّشد، وعندها إذا استمرَّ في رفضهِ للإسلام فينبغي أن يُقتل، أمّا السُّكارى والمختلّونَ عقليّاً فإنّهُ لا يتمُّ تحميلهم مسؤوليّةَ ارتدادهم. كما أنّهُ في حالِ تصرّفَ شخصٌ ما وارتدَّ عن إسلامهِ تحتَ القسرِ والإكراه، فإنّهُ لا يعدُّ مرتدّاً، ولا تُطلَّقُ منهُ زوجتهُ، ولا تصادرُ أراضيهِ وممتلكاته. حسبَ قوانينِ الحنفيّينَ والشّيعة، تسجنُ المرأةُ حتّى تتوبَ وتعودَ لاعتناقِ الإسلامِ مرّةً أخرى، ولكن وفقَ تعاليمِ ابنِ حنبل، والمالكيِّ والشّافعيّ، ينبغي أن تُقتَلَ أيضاً، أو أن تُخنَقَ حتّى الموت، أو تُحرَقَ، أو تُغرَقَ، أو تُخوزق، أو تُسلخَ حيّة، فالخليفةُ [العادلُ!!] عمرُ بنُ الخطّاب اعتادَ أن يربطهنَّ على عمودٍ ثمَّ يدفعُ بقضيبٍ حتّى يخترقَ قلوبهنّ، كما أنَّ السُّلطانَ بيبرس الثاني جعلَ من عمليّاتِ التعذيبِ هذهِ قانونيّة. المادّةُ رقم 18 من الإعلانِ العالميِّ لحقوقِ الإنسانِ الذي أقرّتهُ جمعيّةُ الأممِ المتّحدة عام 1948 تنصُّ على أنّهُ: «لكلِّ شخصٍ الحقُّ في حرّيّةِ التفكيرِ والضميرِ والدِّين، ويشملُ هذا الحقُّ حرّيّةَ تغييرِ ديانتهِ أو عقيدته، وحرّيّةَ الإعرابِ عنهما بالتعليمِ والممارسةِ وإقامةِ الشّعائرِ ومراعاتها

(1) al-Nisai, Tahrim al-Dam, bab 11; Qasama, Bab 13 ; Abu Dawud, Hudud, bab 1.

(2) Al-Bukhari, Maghazi bab 60; Istitabat al-Murtaddin, bab 2 ; Ahkam, bab 12; Muslim, Imara, tr. 15; Abu Dawud, Hudud, bab 1; Ibn Hanba,l, v. 231.

سواءٌ أكانَ ذلكَ سرّاً أم مع الجماعة»[1] إنَّ هذا البندَ الذي يضمنُ حرِّيَّةَ تغيير الفردِ لدينِهِ قد تمّت إضافتهُ بطلبٍ منَ المندوبِ اللبنانيِّ تشارلز ماليك والذي كانَ مسيحياً[2] كانَ لبنانُ قد استقبلَ الكثيرَ منَ النّاسِ الذينَ فرُّوا منَ اضطهادٍ وظلمِ دياناتهم، وبالتحديدِ لأنّهم غيَّروا عقائدهم، ولبنانُ خصوصاً اعترضَ على التشريعِ الإسلاميِّ المتعلِّقِ بمسألةِ الرِّدَّة، والكثيرُ منَ الدُّولِ الإسلاميّةِ عارضت بشدَّةٍ البندَ الذي يقرُّ بحقِّ الفردِ بتغييرِ ديانته، فالمندوبُ المصريُّ على سبيلِ المثال، قالَ أنّهُ «غالباً ما يغيّرُ الأفرادُ ديانتهم أو قناعتهم تحتَ التأثيراتِ الخارجيّةِ أو الظّاهريّةِ للأهدافِ غيرِ الموصى بها كالطّلاقِ مثلاً»... وقّعت لبنانُ على الوثيقةِ على يدِ مندوبها الذي طُرِدَ فيما بعدُ منها لأنّهُ غيرُ مسلم، وفي النهاية، قامت جميعُ الدُّولِ الإسلاميّةِ بالتوقيعِ على وثيقةِ حقوقِ الإنسان باستثناءِ المملكةِ العربيّةِ السّعوديّة. أثناءَ مناقشةِ المادّةِ رقم 18 عام 1966، أرادت كلٌّ من مصرَ والمملكةِ العربيّةِ السّعوديّةِ كبحَ البندِ الذي يضمنُ للفردِ حرِّيَّةَ تغييرِ دينه، أخيراً، تمَّ اقتراحُ حلٍّ مناسبٍ كتسويةٍ تبنّتهُ كلٌّ من دولتي البرازيلِ والفلبّين لاسترضاءِ الدُّولِ الإسلاميّة، وهكذا، «فحرِّيَّةُ الإنسانِ في تغييرِ دينِهِ ومعتقدِهِ» تغيَّرَ إلى «الحرِّيَّةِ في تبنّي أو اعتناقِ أيِّ دينٍ أو معتقدٍ منَ اختيارِهِ»[3] وبشكلٍ مشابهٍ عامَ 1981، خلالَ مناقشةِ الإعلانِ العالميِّ لحقوقِ الإنسان لإزالةِ جميعِ أنواعِ التعصُّبِ والتميزِ القائمةِ على الدِّينِ والمعتقدات... إيران، في ظلِّ النِّظامِ الجديد ذكرَت الجميعَ أنَّ عقوبةَ الارتدادِ في الإسلامِ هيَ الموت، المندوبُ العراقيُّ، المدعومُ من قِبَلِ سوريا، تكلَّمَ بالنيابةِ عن منظَّمةِ المؤتمرِ الإسلاميِّ الذي أعربَ عن تحفُّظِهِ تجاهَ أيِّ بندٍ أو شرطٍ يناقضُ الشَّريعةَ الإسلاميّة، بينما المندوبُ المصريُّ شعرَ بأنّهم كانَ يجبُ أن يحتاطوا من أن يتمَّ استغلالُ مثلِ هذا البندِ من أجلِ الأغراضِ السياسيّةِ للتدخُّلِ في شؤونِ البلدِ الدّاخليّة[4].

(1) Available online at the United Nations Website: http//:www.un.org/rights/50/decla.htm

(2) Sami A.Aldeeb Abu-Sahlieh , Le Delit d Apostasie Aujourd hui et ses Consequences en Droit Arabe et Musulman, Islamochristiana 20 (1994) : 93-116 ; A.E.Mayer, Islam and Human Rights (Boulder , 1991), p.164.

(3) Ibid.

(4) Ibid.

سماتُ أو إعلاناتُ حقوقِ الإنسانِ الإسلاميّةِ المختلفة، كالإعلانِ الإسلاميِّ العالميِّ لحقوقِ الإنسان (1981) مبهمةٌ أو مراوغةٌ بشكلٍ واضحٍ حولَ قضيّةِ حرّيّةِ الفردِ في تغييرِ دينه، بما أنَّ الإسلامَ نفسهُ يحرِّمُ بصراحةٍ الرِّدّةَ عن الدِّين ويعاقبُ مرتكبها بالموت، وكما قالت أليزابيث ماير: «إنَّ قلّةَ الدَّعمِ لمبدأِ الحرّيّةِ الدينيّةِ في مخطَّطِ حقوقِ الإنسانِ الإسلاميّة، إحدى أهمِّ العواملِ التي تميِّزهم عن اللائحةِ العالميّةِ لحقوقِ الإنسان، التي تتعاملُ مع الحرّيّةِ الدينيّةِ كحقٍّ غيرِ مؤهّل. فإحجامُ المؤلِّفينَ [المسلمين] عن التخلّي عن القانونِ الذي ينصُّ على إعدامِ الشّخصِ الذي يتساءلُ عن دينه، يكشفُ الفجوةَ الهائلةَ والشَّرخَ الضَّخمَ الذي تجدهُ بينَ مقدراتهم العقليّةِ والفلسفةِ الحديثةِ لحقوقِ الإنسان»[1] منَ الواضحِ أنَّ حقوقَ الإنسانِ العالميّةَ لا تحملُ طابعاً عالميّاً بما أنّها تقدِّمُ بالتحديدِ معياراً دينيّاً إسلاميّاً إلى المجالِ السياسيّ، بينما الإعلانُ العالميُّ لحقوقِ الإنسانِ المنصوصُ عام 1945 يضعُ حقوقَ الإنسانِ ضمنَ إطارٍ علمانيٍّ دنيويٍّ بالكامل، فحقوقُ الإنسانِ الإسلاميّةُ تقيِّدُ وتحدِّدُ حقوقَ الأفراد، وبخاصّةٍ النِّساء، غيرَ المسلمين وأولئكَ _المرتدِّين_ الذينَ لا يقبلونَ التزمُّتَ الإسلاميَّ الدينيّ، أمّا بالنسبةِ إلى دساتيرِ البلدانِ الإسلاميّةِ المختلفة، ففي الوقتِ الذي تضمنُ الكثيرُ منها حرّيّةَ الاعتقاد [مصر 1971، سوريا 1973، الأردن 1952] يتحدَّثُ البعضُ عن حرّيّةِ الضمير [الجزائر 1989]، والبعضُ عن حرّيّةِ الفكرِ والرأي [موريتانيا 1991]. البلدانُ الإسلاميّةُ باستثناءِ اثنينِ منها لا تعالجانِ مسألةَ الرِّدّةِ في قوانينهما الجزائيّة: وهما السُّودانُ وموريتانيا، ففي قانونِ العقوباتِ السُّودانيِّ الصَّادرِ عام 1991، مادّة 2، 126 نقرأ: «المتَّهمُ بالارتدادِ يستتابُ لفترةٍ تقرِّرها المحكمة، وإذا لم يرجع إلى دينِ الإسلامِ فيُقتل»، أمّا قانونُ العقوباتِ الموريتانيُّ لعام 1984، المادّة 306 نقرأ: «...جميعُ المسلمينَ المتَّهمينَ بالارتداد، سواءٌ بشكلٍ معلنٍ ومنطوقٍ أو بشكلٍ عمليّ، يجبُ أن يستتابوا خلالَ فترةِ ثلاثةِ أيّام، وإذا لم يتبِ المرتدُّ خلالَ هذهِ الفترة، فيحكمُ عليهِ بالموت، أمّا أموالهُ فتصيرُ لخزينةِ الدَّولةِ أو بيتِ مالِ المسلمين»، وتنطبقُ نفسُ الحالِ على النِّساء. يبدو أنَّ قانونَ العقوباتِ المغربيَّ هوَ الوحيدُ الذي ذكرَ هؤلاءِ الذينَ يحاولونَ تخريبَ عقيدةِ المسلم، أو أولئكَ الذينَ يحاولونَ

---

(1) A. E. Mayer, Islam and Human Rights, p. 187.

تحويلَ أحدِ المسلمين إلى ديانةٍ أخرى، وتتأرجحُ العقوبةُ ما بينَ الغرامةِ والسَّجنِ لمدّةٍ قد تتعدّى الثلاثَ سنوات[1] إنَّ غيابَ أيِّ ذكرٍ للارتدادِ في قوانينِ عقوباتٍ بعضِ البلدانِ الإسلاميّة لا يشيرُ إطلاقاً ولا بأيِّ شكلٍ منَ الأشكال إلى أنَّ المسلمَ يعدُّ حرّاً في تركِ دينهِ في ذلكَ البلد. في الواقع، تمَّ ملءُ الفجواتِ في قوانينِ العقوباتِ بالقوانينِ الإسلاميّة. تمَّ شنْقُ محمود محمّد طه بتهمةِ الارتدادِ عن الإسلام عام 1985، حتّى بالرَّغمِ من أنّهُ في ذلكَ الوقت لم يكن في القانونِ السُّودانيِّ لعام 1983 أيُّ ذكرٍ لمثلِ تلكَ الجريمة[2].

في بعضِ البلدان، ينطبقُ مصطلحُ «الرِّدّةِ أو الارتداد» على هؤلاءِ الذينَ ولدوا غيرَ مسلمين، لكنَّ أسلافهم كانوا يملكونَ النيّةَ للتحوُّلِ عن الإسلام. الطّائفةُ البهائيّةُ في إيران خلالَ السنواتِ الماضية تمَّ اتهامهم واضطِّهادهم لهذا السَّبب، وبنفسِ الشَّكل، كانت الطّائفةُ الأحمديّةُ في الباكستان مصنّفةً ضمنَ الطوائفِ غيرِ المسلمة، وكانت عُرضةً لجميعِ أنواعِ الظُّلمِ والاضطِّهاد... ونفسُ الكلام ينطبقُ أيضاً على بعضِ الطوائف: كالطّائفةِ العلويّةِ النُّصيريّة، والطّائفةِ الدُّرزيّة، والمرشديّة. وهناكَ الكثيرُ منَ الدلائلِ التي تشيرُ إلى أنَّ العديدَ منَ النِّساءِ المسلماتِ في العالمِ الإسلاميِّ تحوَّلنَ منَ الإسلام للهروبِ من وضعهم المتدنّي في المجتمعاتِ الإسلاميّة، أو لتفادي تطبيقِ قانونٍ جائرٍ وغيرِ مناسب، وخصوصاً قانونَ الشَّريعةِ الذي يحكمُ الطَّلاق[3] وعلماءُ الدِّينِ المسلمون مدركونَ جدّاً لرغبةِ النِّساءِ المسلماتِ لتفادي قوانينِ الشَّريعةِ بالتحوُّلِ عن الإسلام، لذلكَ قاموا باتّخاذِ إجراءاتٍ معيّنة، فعلى سبيلِ المثال، في الكويت في مذكّرةٍ توضيحيّةٍ ضمنَ نصِّ إصلاحِ قانون تقول: «أظهرت الشّكاوى أنَّ الشّيطانَ هوَ الذي يصنعُ جذورَ الرِّدّةِ التي تجذبُ المرأةَ المسلمة لكي تتمكّنَ من قطعِ العلاقةِ الزّوجيّةِ التي لا تسرُّها، ولهذا السَّبب، تمَّ تقريرُ أنَّ الارتدادَ لن يؤدّي إلى حلِّ الزَّواج وذلكَ بغرضِ إغلاقِ هذا البابِ الخطير»[4]. [راجع كتاب ابن الورّاق الهام: تركُ الإسلام: المرتدُّونَ يتكلّمون، دار بروميثيوس،

(1) Abu Sahlieh , Le Delit d Apostasie , p. 98.

(2) Sami A.Aldeeb Abu-Sahlieh , Les Musulmans face aux droits de l homme (Bachum, 2001) p. 110.

(3) A. E. Mayer , op. cit., p. 167.

(4) A. E. Mayer , op. cit., pp. 167-68.

2003]. إنَّ التُّهمَ مثلَ الارتداد، عدمِ الإيمان، الكفرُ والهرطقة، سواءً أكانت صحيحةً أم لا، لا تنسجمُ مع الكثيرِ من موادِ الإعلانِ العالميِّ لحقوقِ الإنسان UDHR 1948، والميثاقِ الدوليِّ الملزمِ قانونيّاً على الحقوقِ المدنيّةِ والسياسيّة 1966 [ICCPR] الذي وقّعت عليهِ 147 دولة. التصريحُ العامّ رقم 22 الذي تبنّتهُ لجنةُ حقوقِ الإنسانِ التّابعةِ لهيئةِ الأممِ المتّحدة في جلستها الثّامنةِ والأربعين عام 1993 [HRI/GEN/1/Rev6، of 22 May 2003 pp.155-56] يعلنُ (مقتبساً): «المادّة رقم 18 تحمي حقوقَ ومعتقداتِ المؤمن، وغيرِ المؤمنِ والملحد، بالإضافةِ إلى الحقِّ بعدَ التصريح بأيِّ معتقدٍ أو دين، فمصطلحُ «معتقد Belief» و«دين Religion» يمكنُ تفسيرهما بشكلٍ واسع»؛ أي أنَّ كلاً منهما يحتملُ تفسيراتٍ وتأويلاتٍ مطّاطة، فكيفَ لرجالِ الدِّينِ أن يقنعونا بأنَّ ديناً ما أو عقيدةً ما هيَ العقيدةُ المطلقةُ والصحيحةُ أبداً.

الدّينُ الذي يحملهُ الإسلامُ لليهوديّة

«الإسلامُ ليسَ أكثرَ من يهوديّةٍ زائدَ نبوّةِ محمّد». 146

أس.أم. زويمر

توجدُ لدينا شهادةُ المؤرّخينَ المسلمينَ أنفسهم على أنَّ اليهودَ لعبوا دوراً مهمّاً في الحياةِ الاجتماعيّةِ والتجاريّةِ للمدينة، فنحنُ نعلمُ بوجودِ قبائلِ بني قينقاع وبني قريظة وبني النضير، والذينَ كانوا أغنياءَ كفايةً ليمتلكوا الأراضي والمزارع، كانَ هنالكَ أيضاً العديدُ منَ الحرفيّينَ والمهنيّينَ والتجّارِ المهرةِ يعملونَ في المدينة. كانَ لليهودِ مجتمعاتٌ لا بأسَ بحجمها في مدنٍ أخرى في شمالِ الجزيرةِ العربيّةِ كخيبرَ وتيماءَ وفَدَك. يبدو أنَّ توري يعتقدُ أنّهُ كانَ هنالكَ يهودٌ في تيماءَ بصورةٍ مبكرةٍ قد تعودُ إلى القرنِ السّادسِ قبلَ الميلاد، وبالتأكيد، ومع بدءِ العصرِ المسيحيّ، كانت هنالكَ مستوطناتٌ يهوديّةٌ في تلكَ المنطقة، هجراتٌ أخرى تبعت ذلكَ بعدَ تدميرِ أورشليمَ في سنةِ سبعينَ للميلاد. لدينا الدليلُ على وجودِ مجتمعاتٍ يهوديّةٍ أسّسها التجّارُ في جنوبِ الجزيرةِ العربيّة، وقد مارسوا أيضاً تأثيراً مهمّاً، كما يؤكّدُ ذلكَ وجودُ أفكارٍ دينيّةٍ يهوديّةٍ في النقوشِ الدينيّةِ لجنوبِ الجزيرةِ العربيّة، كما يوجدُ تقليدٌ شهيرٌ يذكرُ أنَّ الملكَ الحميريَّ ذو نواس قد تحوّلَ إلى اليهوديّة.

«منَ الثّابتِ أنَّ الانطباعَ المتكوّنَ لدى قارئِ القرآنِ لأوّلِ مرّةٍ هوَ أنَّ محمّداً قد استلمَ مادّةَ إيمانهِ وشعائرهِ بصورةٍ رئيسيّةٍ من يهودِ الحجاز، ففي كلِّ صفحةٍ تقريباً نجدُ إمّا حلقةً من حلقاتِ التّاريخِ العبرانيِّ أو القصصِ الأسطوريّةِ اليهوديّةِ الأخرى أو تفاصيلَ لقوانينَ أو ممارساتٍ ربينيّةٍ (حاخاميّة) أو نقاشاتٍ للإثباتِ القطعيِّ بأنَّ الإسلامَ هوَ دينُ إبراهيمَ وموسى» - توري، الصفحة 2

يتّفقُ بعضُ الباحثينَ مثلَ نولدكه وويلهاوسن مع التقليدِ الإسلاميِّ القائلِ بأنَّ محمّداً كانَ أمّيّاً، بينما نجدُ أنَّ توري وسبرنجر Sprenger مقتنعانِ بأنّهُ كانَ قارئاً وكاتباً.

ومن غيرِ المحتمل، إذا أخذنا بالحسبان خلفيّةَ محمّدٍ الاجتماعيّة، أنّهُ لم يتسلَّم أيَّ قدرٍ منَ التعليم، فقد جاءَ من عائلةٍ محترمة، ومنَ الصَّعبِ أن يفكّرَ المرءُ أنَّ أرملةً ثريّةً منَ الممكنِ أن تطلبَ منهُ أن يعتني بأعمالها التجاريّةِ إن لم يكن بإمكانهِ القراءةُ أو الكتابة، إلا أنَّ محمّداً لم يرغب في أن يُنظَرَ إليهِ كرجلٍ تعلَّمَ منَ الكُتُب، لأنَّ ذلكَ يضعفُ من تأكيدِهِ على أنَّ الوحيَ الذي يأتيهِ قد قَدِمَ مباشرةً منَ السَّماءِ ومنَ الله.

أينَ وكيفَ حصَّلَ النبيُّ معارفهُ عن التّاريخِ والشَّريعةِ والتُّراثِ اليهوديّ؟ توجدُ فقرتانِ مهمّتانِ في القرآن تدلّانِ على إمكانيّةِ وجودِ معلّمٍ يهوديّ، ربّما حاخام، في سورةِ الفرقان: 4 و 7، يتّهمهُ الكفّارُ بأنّهُ يستمعُ إلى القصصِ القديمةِ مرويّةً من قِبَلِ شخصٍ آخر، لم ينفِ محمّدٌ وجودَ معلّمٍ بشريّ، ولكنّهُ يصرُّ على أنَّ وحيهُ إلهيّ، في سورةِ النحل: 103، يخبرهُ ملاكُ الوحيِ ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾، وقد حاولَ توري تبيانَ أنَّ هذا الملقّنَ كانَ يهوديّاً بابليّاً من جنوبِ بلادِ ما بينَ النهرين.

بالإضافةِ إلى تعلّمهِ من أشخاصٍ محدّدين، فمن زياراتهِ إلى أحياءِ اليهود، تعلّمَ محمّدٌ منَ الملاحظةِ المباشرة، الشّعائرَ والطقوسَ اليهوديّة، وعلى أيِّ حال، فقد تلقّى العربُ الذينَ احتكّوا بالمجتمعاتِ اليهوديّةِ معرفةً مسبقةً عن عاداتِ اليهودِ وقصصهم وأساطيرهم وممارساتهم، والكثيرُ من هذهِ الموادِ بالإمكانِ إيجادها في الشِّعرِ الجاهليّ.

منَ الثّابتِ من قراءةِ السُّورِ المبكرةِ النزول، أنَّ محمّداً كانَ شديدَ التأثّرِ باليهودِ ودينهم، وحاولَ بشدّةٍ أن يرضيهم من خلالِ تبنّي ممارساتهم (اختيارُ بيتِ المقدس قِبلةً للصلاةِ على سبيلِ المثال) وحاول أن يقنعهم أنّهُ كانَ يقومُ بعملٍ مكملٍ لتقاليدِ الأنبياءِ القُدامى.

بالاعتمادِ على كتابِ جيجر Geiger اليهوديّةُ والإسلام، قسَّمَ زويمر بصورٍ مرضيةٍ التأثيراتِ اليهوديّةَ على الإسلامِ بالشَّكلِ الآتي:

أ) الأفكارُ والمعتقدات:

1- الكلماتُ العبريّةُ الحاخاميّةُ (الدينيّةُ) في القرآن

2- النظرةُ العقائديّة

3-الشّرائعُ الأخلاقيّةُ والطقسيّة

4- النظرةُ إلى الحياة

ب) القصصُ والأساطير:

الكلماتُ العبريّةُ الحاخاميّةُ في القرآن. يذكرُ جيجر أربعَ عشرةَ كلمةً منَ العبريّةِ تمثّلُ أفكاراً يهوديّةً لا وجودَ لها بينَ العربِ الوثنيّين:

أ- التّابوت: النهاية (- وت) تبيّنُ أصلاً عبرانيّاً للكلمة، وذلكَ لأنّهُ لا توجدُ كلمةٌ عربيّةٌ صِرفة تنتهي بهذا الشّكل.

ب- التوراة: الوحيُ إلى اليهود

ت- جنّات عدن

ث- جهنّم (Gehinnom): (كلمةٌ مشتقّةٌ من وادي هنّوم(في أورشليم، المترجم) تفشّت فيهِ عبادةُ الأصنام، لذلكَ جاءت الكلمةُ لاحقاً لتعني الجحيم)

ج- أحبار: معلّمون

ح- درسَ (بالفتح): فعلٌ بمعنى أن تصلَ إلى المعنى العميقِ للنصِّ الدينيِّ بواسطةِ البحثِ الدقيقِ والمعتنى به.

خ- ربّاني: معلّم

د- سبت: يومُ راحة (شباث)

ذ- فرقان: تخليصٌ وغفران

ر- ماعون: ملجأ

ز- مثاني: إعادة

س- ملكوت: حكومة، حكمُ الله

منَ الواضحِ أنَّ محمّداً كانَ غيرَ قادرٍ على التعبيرِ عن بعضِ المفاهيمِ باللّغةِ العربيّةِ

الأم، وذلكَ لأنَّ القرآنَ يحتوي العديدَ والعديد منَ الكلماتِ الآراميّةِ والسّريانيّة، ممّا يؤكّدُ وجودَ استعاراتٍ بشكلٍ واسعٍ لكلماتٍ ومفاهيمَ معيّنة، مثل سوط ومدينة ومسجد (مكانُ عبادة) وسلطان وسُلّم ونبيّ.

وجهاتُ نظرٍ عقائديّةٌ رئيسيّةٌ في الإسلام قد استُعيرَت أيضاً منَ اليهوديّة، والتّالي من بينها هوَ الأهمّ:

وحدانيّةُ الله:

وحدانيّةُ الله، كما لاحظنا مسبقاً، ليست شيئاً جديداً في العربيّةِ الوثنيّة، ومع ذلك، فإنَّ التوحيدَ الذي لا تنازلاتِ فيهِ لليهوديّة كانَ الشيءَ الذي أثّرَ على محمّدٍ بشكلٍ عميق، وأدّى بهِ إلى أن يبشّرَ بوحدانيّةٍ صارمةٍ أيضاً.

الوحيُ المكتوب:

كانت الفكرةُ القائلةُ أنَّ اللهَ قادَ وساعدَ البشريّةَ من خلالِ وحيٍ مكتوبٍ من قِبَلِ أشخاصٍ مُلهمين ذاتَ أهمّيّةٍ بتأثيرها على تطوّرِ الرّسالةِ المحمّدية، فقد حرّكتْ الطريقةُ التي بيّنَ فيها اليهودُ المتعلّمونَ معرفتهم العميقةَ بأسفارهم المقدّسةِ بشدّة« يعرفونَ الكتابَ كما يعرفونَ أبناءهم» (سورة البقرة: 146، الأنعام: 20)، وقد صمّمَ أيضاً على امتلاكِ كتابٍ عربيٍّ يمكنُ من خلالهِ لأتباعهِ أن يتعلّموا فيهِ بذاتِ الرّوحِ والطريقة، لاحقاً، ذكرَ أنَّ القرآنَ نفسهُ هوَ نسخة، أصلها مكتوبٌ في لوحٍ محفوظٍ في السّماء (البروج: 22). هذهِ الفكرةُ هيَ صدىً لما هوَ مكتوبٌ في فرقي أبوث (كتابٌ دينيٌّ يهوديّ، المترجم) السطرُ السّادس، والذي يتحدّثُ أيضاً عن ألواحٍ سماويّةٍ للشّريعة.

الخَلق:

قصّةُ محمّدٍ عن الخَلق هيَ مؤسّسةٌ بشكلٍ واضحٍ على ما هوَ مكتوبٌ في سفرِ الخروج 20.11: «لَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُغُوبٍ»، وفي أمكنةٍ أخرى يتحدّثُ القرآنُ عن كونِ الأرضِ قد خُلِقَت في يومين (فُصِّلَت: 9-11).

سبعُ سماوات، سبعُ أرضين:

عادةً ما يشيرُ القرآنُ إلى وجودِ سبعِ سماوات (الإسراء: 44، المؤمنون: 86، الطلاق: 12، فُصِّلَت: 12) وهيَ فكرةٌ موجودةٌ في حجيجا 9: 2 (Chegiga) (كتابٌ دينيٌّ يهوديّ) يذكرُ القرآنُ أنَّ للجحيمِ سبعةَ أقسامٍ أو بوّابات (الحجر: 44)، نجدُ في كتابِ زوهر (كتابٌ صوفيٌّ يهوديّ) نفسَ الوصف، هذهِ الأفكارُ تعودُ إلى مصادرَ هنديّةٍ-إيرانيّةٍ قديمة لأنّهُ في كلا نصوصِ الديانتينِ الهندوسيّةِ والزرادشتيّة نجدُ الخلائقَ السَّبعةَ والسَّماواتِ السَّبع. في سورةِ هود: 7، نجدُ خبراً يقولُ أنَّ عرشَ اللهِ كانَ على الماء، قارن هذا مع تعليقِ (الحاخامِ) اليهوديِّ راشي على سفرِ التكوين 1: 2 : «العرشُ المجيدُ وقفَ في السَّماواتِ وتحرَّكَ على وجهِ المياه.» في سورةِ الزخرف: 77، نجدُ إشارةً إلى مالك باعتبارهِ خازنَ النَّارِ المشرفَ على تعذيبِ المبعدينَ من رحمةِ الله، بصورةٍ مشابهة يتحدّثُ اليهودُ عن أميرِ الجحيم، ويبدو أنَّ مالك هوَ تحريفٌ لاسمِ إلهِ النَّارِ العمّونيِّ (شعبٌ قديمٌ عاشَ فيما هوَ الآن الأردن/ عمّان. المترجم) مولك، المذكورُ في سفرِ الأحبار، وسفرِ الملوكِ الأوّل، وسفرِ إرميا.

في سورةِ الأعراف: 46 هنالكَ ذكرٌ لجدارٍ فصلٍ يسمّى الأعراف، والذي يفصلُ بينَ الجنّةِ والنَّار: «وعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْاْ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ » في المدراش واحدٌ منَ التفاسيرِ اليهوديّةِ للكتابِ المقدّسِ اليهوديّ) اليهوديِّ على سفرِ الجامعة (من أسفارِ الكتابِ المقدّسِ اليهوديّ) الإصحاح 7، العدد 14 نجدُ التّالي: «كم هنالكَ منَ المسافةِ بينهما؟ يقولُ الحاخامُ يوحنان أنَّ هنالكَ جداراً، الحاخامُ آحا يقولُ مسافة، بينما يقولُ معلّموهما أنّهما قريبانِ جدّاً من بعضهما بحيثُ أنَّ النَّاسَ تستطيعُ أن ترى من أحدِ المكانينِ إلى الآخر»، وثانياً نجدُ فقراتٍ مشابهةً في الكتاباتِ الزرادشتيّة: «المسافةُ هيَ فقط تلكَ التي تفصلُ بينَ الضِّياءِ والعتمة».

تخبرنا فقراتٌ محدّدةٌ منَ القرآنِ (سورُ الحجر: 17-18، الصَّافّات: 7-8، والملك: 5)) أنَّ الشَّيطانَ يسترقُ السَّمعَ فيُرجَمُ بالشُّهب، وبصورةٍ مشابهة نجدُ في الكتاباتِ اليهوديّةِ أنَّ الجيناي Genii «يستمعونَ من وراءِ السِّتار» ليحصلوا على معرفةٍ بالأمورِ المستقبليّة».

في سورةِ ق:30: « يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ» في الكتابِ

الحاخاميّ أوثيوث ديرابي أكيبا (Othioth Derabbi Akiba) 8.1، نجد «سوف يقولُ أميرُ الجحيمِ يوماً بعدَ يوم، أعطوني الطَّعامَ لكيما أشبع»

في سورةِ هود 40، المؤمنون: 27، يُذكَرُ عن الطُّوفانِ أنّه: «وفارَ التنُّور»، في أحدِ الأعمالِ اليهوديّةِ تُخبَرُ أنَّ شعبَ الطُّوفانِ عوقبوا بالماءِ المغليّ. عندَ الحديثِ عن صعوبةِ الحصولِ على الفردوس، يتحدّثُ الربينيّونَ عن دخولِ الفيلِ في عينِ الإبرة، بينما يذكرُ القرآنُ دخولَ الجملِ في عينِ الإبرة.

طبقاً للتلمود، ستشهدُ أضلعُ الإنسانِ بأنفسهم ضدّهُ (حجيجا 16، تانيث 11). يقولُ أحدُ المواضيع «أعضاءُ الإنسانِ بعينها سوفَ تشهدُ ضدّهُ، فقد قيلَ (في التوراة) «أنتَ شاهدي يقولُ الرّبّ» قارن هذا بسورةِ النُّور: 24:- « يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ»، انظر أيضاً يس: 65 و فُصّلت: 20.

قارن سورةَ الحجّ: 47:- «وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ» مع سفرِ المزامير90: 4: «فإنَّ ألفَ سنةٍ في عينيكَ كيومِ أمسِ العابر»، قارن سورةَ السجدة: 5 مع مشناه سنهدرين 96: 2.

جبلُ قاف:

يقولُ التقليد أنَّ عبدَ اللهِ بنَ سلاّم استفهمَ يوماً من محمّدٍ قائلاً: ما هيَ أعلى قمّةٍ في الأرض؟ فقال: هيَ جبلُ قاف! فقالَ: فما هوَ؟ فقال: من زمّردٍ أخضر «هذهِ القصّةُ هيَ نسخةٌ مغربلةٌ وغيرُ مفهومةٍ (من قبلِ محمّد) لنصٍّ في كتاب حاجيجا (كتابٌ دينيٌّ يهوديّ) حيثُ نجدُ التعليقَ التّالي على ورودِ كلمةِ ثوهو «thohu» في سفرِ التكوين 1: 2:- « ثوهو هوَ خطٌّ أخضر (قاف أو قاط) والذي يحيطُ بكلِّ العالم، ولهذا يكونُ الظّلام».

القوانينُ الأخلاقيّةُ والشّرعيّة:

هنالكَ بعضُ المواعظِ الأخلاقيّةِ التي استعارها محمّدٌ منَ التلمود.

على الأولادِ ألّا يطيعوا آبائهم عندما يكونُ أمرُ الأخيرينِ شرّيراً-يبحاموث6. قارن سورةَ العنكبوت: 8.

فيما يخصُّ الأكلَ والشُّربَ خلالَ صومِ رمضان تخبرنا سورةُ البقرة، 187: «وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ»، في مدراشِ براخوث (تفسيرٌ يهودي) نتعلّمُ أنَّ صلاةَ «شماع» (نصٌّ توراتيّ، «اسمع يا اسرائيل الرَّبُّ إلهكَ هوَ واحد ..الخ»، المترجم) يجبُ أن تقامَ « في الصَّباحِ عندما يمكنُ للمرءِ أن يُميّزَ خيطاً أزرقَ من خيطٍ أبيض» (كانَ المسلمونَ يميّزونَ الفجرَ باستخدامِ خيطٍ أبيض وآخرَ أسود أيضاً إلى أن «أُنزلَت» الكلمتانِ «منَ الفجر»...وذلكَ حسبَ الرِّوايةِ الإسلاميّة. المترجم).

تخبرنا السُّورةُ 4.46 أنّهُ لا يجبُ على المؤمنينَ أن يصلّوا وهم سُكارى أو جُنَب أو إن كانوا قد لامسوا النِّساء، كلُّ هذهِ الموانعِ نجدها في بيراخوث31: 2 و111: 4 (Berachoth) وأيروبين Erubin 64)) .

منَ الممكنِ أن تُقامَ الصَّلاةُ وقوفاً، مشياً أو حتّى خلالَ امتطاءِ الدّواب —بيروخوث 10. قارن السُّور:- البقرة: 239، آل عمران: 191، النِّساء: 101.

منَ الممكنِ تقصيرُ الصَّلواتِ في الحالاتِ الطّارئة، من غيرِ ارتكابِ خطيئة – مدراش بيراخوث 4.4، قارن سورة النِّساء: 102.

شعائرُ الوضوءِ الموصوفةُ في سورةِ المائدة: 6، منَ الممكنِ مقارنتها بالشّعائرِ المتطلّبِ القيامُ بها في بيراخوث 46.

طبقاً لسورةِ النِّساء: 43 والمائدة: 6، فعندَ نقصِ الماء، منَ الممكنِ التيمُّمُ بالتُّراب، يخبرنا التلمودُ أنّهُ» من ينظّفُ نفسهُ بالتُّراب فقد جاءَ بما فيهِ الكفاية» (بيراخوث 46).

لا يجبُ أن تكونَ الصَّلاةُ بصوتٍ عال، الإسراء: 110، بيراخوث 31.2 يشيرُ إلى نفسِ الشيء.

يُشرِّعُ القرآنُ (سورة البقرة: 228) فترةَ انتظارٍ لمدّةِ ثلاثةِ أشهرٍ قبلَ أن يمكنَ للمرأةِ الزَّواجُ ثانيةً، مشنا يبحاموث 4: 10 (Mishna Jabhamoth) أيضاً يضعُ ذاتَ التشريع.

درجةُ القرابةِ التي يمكنُ ضمنها أن يبقى الزَّواجُ شرعيّاً قد تبنّاها القرآن (سورة

النّساء: 23) كما يبدو من تلمودِ كيثوبوث 40: 1 (Talmud Kethuboth).

كلا الديانتينِ تصرُّ على أنَّ على المرأةِ أن تُرضِعَ ابنها لمدَّةِ عامين – قارن سورةَ لقمان: 14و سورةَ البقرة: 233 مع كيثوبوث 60: 1.

يجمعُ توري بعضاً منَ العقائدِ الأخرى التي اقتبسها محمّدٌ عن اليهوديّة.

«قيامُ الأمواتِ كلّهم، طيّبينَ وأشرار، هيَ فكرةٌ مألوفةٌ على الأقلِّ منذُ دانيال 12: 2، وهيَ دائماً عقيدةٌ مؤثّرةٌ بشدّة.

يومُ الحِساب، يومُ دينا ربّا (rabba (yom dina بالعبريّة (قارن هذا مع مصطلحِ يومِ الدّينِ القرآنيّ، المترجم)، عندما تفتحُ «الكتبُ»، ويؤتى بكلِّ امرئٍ إلى حسابه. المكافأةُ بنعيمٍ سماويّ، الجنّة، المعاقبةُ بالجحيم، بنارٍ أبديَّةٍ في جهنّم، هيَ أفكارٌ أغناها محمّدٌ من مخيّلتهِ بالطبع. عقيدةُ وجودِ الملائكةِ والأرواحِ الشرّيرة، بالتحديدِ نشاطاتِ إبليس، وبجبريلَ ملاكِ الوحي، منَ الواضحِ أنَّ محمّداً كانَ شديدَ التأثّرِ بالإصحاحِ الأوّلِ من سفرِ التكوين، وذلكَ بالنظرِ إلى المساحةِ التي أعطاها القرآنُ لخلقِ السّماءِ والأرضِ والإنسانِ وكلِّ كائناتِ الطبيعة 147.

القصصُ والأساطير:

كما يقولُ أيمانويل دوتش Emanuel Deutsch «ويبدو كما لو أنّهُ (محمّد) قد تنفّسَ تقريباً هواءَ اليهوديّةِ المعاصرةِ منذُ طفولته، تلكَ اليهوديّةُ التي نجدها مُصاغةً في التلمود (تعليقاتٌ وشروحٌ دينيّةٌ على الكتابِ المقدّسِ اليهوديّ، المترجم) والترجوم (ترجمةٌ لفظيّةٌ للكتابِ المقدّسِ اليهوديّ، المترجم) والمدراش (تعليقاتٌ وشروحٌ دينيّةٌ على الكتابِ المقدّسِ اليهوديِّ تتعلّقُ خصوصاً بالأساطيرِ اليهوديّةِ والكثيرِ ممّا لم يُذكَر في التلمود، المترجم)»

هذهِ الشخصيّاتُ الكتابيّةُ مذكورةٌ أيضاً في القرآن–كذا– (ليسَ كلّها بالاسم، كما أنَّ هنالكَ أسماءَ أخرى وردت بالاسم، المترجم):

هارون، هابيل، إبراهيم، آدم، قايين (قابيل)، داود، إيليّا (الياس)، أخنوخ (إدريس)،

عزرا (عزير)، جبرائيل (جبريل)، جوج (ياجوج)، جلياث (جالوت)، أسحق، إسماعيل، يعقوب، أيّوب، يونان (يونس)، يشوع (يوشع)، يوسف، قورح (قارون)، لوط، ماجوج، ميخائيل (ميكال)، موسى، نوح، فرعون، شاول(طالوت)، سليمان، تارح(آزر).

هذهِ الحوادثُ والقصصُ قد جاءت منَ العهدِ القديم (الأسفارُ المقدّسةُ منَ الكتابِ الذي يعترفُ به اليهودُ والمسيحيّونَ كلاهما)، ولكن؛ مع احتياجٍ غريبٍ إلى الدِّقّة وبخلطٍ كبيرٍ معَ الأساطيرِ التلموديّة؛ كما يقولُ قاموسُ الإسلام the Dictionary of Islam .

هارونُ يصنعُ عجلاً:- طه: 20

قابينُ (قابيل) وهابيل:- المائدة: 27

الملائكةُ تزورُ إبراهيم هود:- 70 والحجر: 51

إبراهيمُ مستعدٌّ للتضحيةِ بابنه:- الصّافّات: 102

سقوطُ (هبوط) آدم :- الأعراف: 24 و البقرة: 38

قورح (قارون) وشركاءه:- القصص: 76، العنكبوت: 39، غافر: 24

خلقُ العالم :- النحل: 3، الرَّعد: 3، فاطر: 12-1.

تسبيحُ داوودَ بحمدِ الله:- سبأ: 10.

الطُّوفان:- القمر: 9، الحاقّة: 11، هود: 42.

يعقوبُ يذهبُ إلى مصر:- يوسف: 100

يونانُ والسَّمكة (يونس والنون):- الأنعام: 86، يونس: 98، الصّافّات: 139، القلم: 48.

تاريخُ يُوسُف:- الأنعام: 84، يوسف، غافر: 34.

المنُّ والسلوى:- الأعراف: 160، طه: 80.

موسى يضربُ الحجر:- الأعراف: 160

تابوت (سفينة) نوح:- هود: 40.

فرعون:-البقرة: 49، يونس: 75، الزُّخرف: 46، غافر: 36.

قضاءُ سليمان:- الأنبياء: 78.

ملكةُ سبأ:- النمل: 29

منَ الواضحِ أنَّ محمّداً تمنّى أن يؤسِّسَ « ارتباطاً واضحاً وقويّاً بالأديانِ الكتابيّةِ السّابقة، وخصوصاً معَ الأسفارِ اليهوديّة»148، وبالرَّغمِ من كلِّ الأحداثِ والشخصيّاتِ التي اقتبسها محمّدٌ منَ العهدِ القديم، يتّفقُ معظمُ المختصّينَ أنّهُ من غيرِ الممكنِ أن يكونَ على معرفةٍ وثيقةٍ بمحتواه، وكما يقولُ أوبيرمان Obermann:

«أيُّ نوعٍ منَ الترجمة، وليسَ فقط النصَّ العبرانيَّ الأصليّ، كانَ منَ المؤكَّدِ لها أن تمنعَ الاختلافاتِ والتفاصيلَ غيرَ الدقيقةِ والأوهامَ الواضحةَ التي يقعُ فيها دائماً عندما يحتوي وحيهُ على معلوماتٍ منَ العهدِ القديم، أو على موادٍ منَ العهدِ الجديد، إلّا أنَّ الشيءَ المؤكَّدَ أنّهُ في حالاتٍ عديدةٍ وفي المواضعِ التي تظهرُ فيها عناصرُ كتابيّةٌ (منَ الكتابِ المقدّس) في وحي محمّدٍ بصورةٍ مفهومة خطأً أو مشوّهة، فإنَّ نفسَ إساءةِ التقديم (للمادّةِ الكتابيّة) يمكنُ إثباتُ تكرارِ وجودها في مصادرَ من عصرٍ لاحقٍ لعصرِ الكتابِ المقدّس، وذلكَ كتزويقٍ للنصِّ بصورةِ موادٍ وعظيّةٍ أو شرحيّةٍ تمتازُ بها أساليبُ معالجةِ نصوصِ الكتابِ المقدّسِ في المجامعِ اليهوديّةِ والكنائسِ المسيحيّة.»149

ولكن عندَ أخذِ محمّدٍ لعناصرَ منَ التلمودِ والمصادرِ اليهوديّةِ الأخرى فإنّهُ يُظهرُ القليلَ منَ الإبداع، وكما يقولُ توري:

«كلُّ شخصيّاتهِ متشابهة، وهم ينطقونَ بنفسِ البديهيّات، هوَ مولعٌ بالمحاوراتِ ذاتِ الطّابعِ الدرامي، ولكنّهُ يمتلكُ حِسّاً ضعيفاً بالمشهدِ أو الفعلِ الدرامي، عادةً ما يكونُ الرّابطُ المنطقيُّ بينَ الحلقاتِ المتابعةِ (منَ القصّةِ) مفقوداً، وأحياناً ضروريّاً، والنقاطُ المهمّةُ الضروريّةُ للفهمِ الواضحِ للقصّة عادةً ما تكونُ مهملة. هنالكَ أيضاً

العادةُ الرّاسخةُ (عندَ محمّد) في التكرارِ مع فقدانٍ خطيرٍ لحسِّ الدعابة....تبيّنُ سورةُ هود: 48-25حكايةً مطوّلةً لتجربةِ نوح... التي تحتوي القليلَ جدّاً منَ الأحداث، ولكنّها تتكوّنُ بصورةٍ أساسيّةٍ من نفسِ نوعيّةِ الخُطبِ الدينيّةِ المتكرّرةِ مراراً في القرآن بصورةٍ غيرِ ملهمةٍ ومملّةٍ على حدٍّ سواء، ونحنُ نجدُ لدينا الشّعورَ أنَّ أحدَ معاصري نوحٍ والذي وُوجِهَ بمسألةِ بقائهِ لأربعينَ يوماً وأربعينَ ليلةً في الفُلكِ قد يُفضِّلُ أن يُجرِّبَ حظَّهُ مع الطُّوفان!» 150 (أي أنَّ نوحاً مملٌّ لدرجةِ أنّكَ لا تريدُ أن تعاشرهُ كلَّ هذهِ الفترة، المترجم)

نجدُ أيضاً أنَّ محمّداً لديهِ فكرةٌ ضبابيّةٌ جدّاً عن تسلسلِ التّاريخِ اليهوديّ، هوَ يعرفُ أنَّ شاؤولَ (طالوت) وداودَ وسليمانَ كانوا لاحقينَ للآباء (أي آدم، نوح، إبراهيم، إسحق ويعقوب، المترجم)، ولكنّهُ لا يعرفُ تسلسلَ الأنبياءِ الآخرينَ ولا الزّمنَ الذي عاشوا فيه. كانَ لمحمّدٍ فكرةٌ غريبةٌ عن عِزرا (عزير) ولم يعرف في أيِّ خانةٍ يضعهُ.

«تركَ إيليّا (إلياس) وإليشع (إليسع) ويونان (يونس) وإدريس عائمينَ (في تسلسلِ التّاريخ)، بلا موضعٍ أمينٍ للاستراحة. لم يكن قد سمعَ أيَّ شيءٍ عن نسبِ يسوع (المنسوبِ إلى داود)، ولا عن نسبِ معاصريه (عدا عائلةِ يوحنّا المعمدان (يحيى))، ولا عن أيِّ تاريخٍ مسيحيّ (بلى! يوجدُ تلميحٌ إلى قصّةٍ وردت في سفرِ الأعمالِ المسيحيِّ في القرآن، المترجم)، لقد رُبِطَ موسى بيسوع، مؤمناً كما يبدو أنّهُ بعدَ الوحيِ إلى مُشرّعِ دينِ اليهود، سرعانَ ما تبعَ ذلكَ وحيٌ مشابهٌ أوجدَ المسيحيّينَ وكتابهم المقدّس، هذا يبدو واضحاً في تعريفهِ لمريمَ أمِّ يسوعٍ أنّها مريمُ أختُ موسى وهارون».

نقلَ محمّدٌ إلى زمنِ سليمانَ حدثاً وضعهُ الربينيّونَ في زمنِ نوح، تتضمّنُ التباساتٌ أخرى عندَ محمّد جعلهُ نوحاً يعيشُ لـ950 عاماً إلى وقتِ الطُّوفان (سورةُ العنكبوت: 14، بينما هذهِ هيَ في الحقيقةِ كلُّ فترةِ حياته(التكوين 9: 29) التبست الأمورُ على محمّدٍ أيضاً في مسألةِ عملِ حام (ابن نوح، المترجم) السيّءِ والذي طبقاً لسفرِ التكوين (9: 22) حدثَ بعدَ الطُّوفان. من غيرِ الواضحِ لماذا صُنِّفَت امرأةُ نوحٍ كغيرِ مؤمنة. يوجدُ في القرآنِ التباسٌ واضحٌ بينَ شخصيتيّ شاؤولَ (طالوت) وجدعونَ (سورةُ البقرة: 249 و القضاة 7: 5) (في سفرِ القضاة، القاضي جدعون الذي عاشَ قبلَ شاؤولَ (طالوت) ب

200 سنة، هوَ الذي قَبِلَ الجنودَ الذينَ يغترفونَ غَرفةً منَ الماء ورفضَ الآخرين، أو هو الذي ابتُلِيَ بنو إسرائيلَ في زمنهِ بنهر، المترجم).

خلقُ آدم:

في سورةِ البقرةِ (33-30) نقرأ:

30-إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ

31-وعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ

32-قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ

33-قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ

تعالَ لنتتبّعَ مصادرَ هذهِ الأسطورة:

عندما نوى اللهُ أن يَخلِقَ الإنسان، أستشارَ الملائكةَ قائلاً: «سوفَ نصنعُ إنساناً على صورتنا» (التكوين 1: 26) فقالوا له: ما هوَ الإنسانُ الذي تذكرهُ (قارن مع المزامير 8: 5)، ماذا ستكونُ ميزتهُ؟ فأجابهم: حكمتهُ تفوقُ حكمتكم، ثمَّ جلبَ أمامهم ماشيةً وحيواناتٍ وطيوراً، وسألهم عن أسمائهم، ولكنّهم لم يعرفوها، وبعد أن خلقَ الإنسانَ، جعلهم (الحيوانات) يمرّونَ من أمامه، وسألهُ عن أسمائهم فأجاب: «هذا هوَ الحِمار وهذا هوَ الحِصان وذلكَ الجمل»، ولكن ما اسمك؟» «بالنسبةِ لي سوفَ يكونُ اسمي آدمَ لأنّني خُلِقتُ من أديمِ الأرض» (مدراش ربّا شرحٌ على سفرِ الأحبار ضمنَ باراشاه (أو فاراشا) 19، و التكوين باراشاه 8، وسنهدرين 38).

(Midrash Rabbah on Leviticus, Parashah 19, and Genesis ,Parashah 8; and Sanhedrin 38.)

تعيدُ سورٌ أخرى ذكرَ أنَّ اللهَ أمرَ الملائكةَ أن تسجدَ لآدم (الأعراف: 18-11، الحجر: 43-28، الكهف: 50، طه: 116، الإسراء: 61) فأطاعوا في ما عدا الشَّيطان. هذا يتفقُ مع القصَّةِ الواردةِ في مدراش (تفسير) رابي موسى.

قايين (قابيل) وهابيل:

يعطي جيجر قصَّةَ قايين وهابيل مثالاً على ما يتقدهُ توري في أسلوبِ محمّدٍ القصصيّ حيثُ تُهمَلُ نقاطٌ مهمّةٌ في القصَّة. يشيرُ جيجر إلى أنَّ ما هوَ موجودٌ في القرآن هوَ قصَّةٌ غيرُ مترابطةٍ تماماً، وقد نصلُ إلى فهمٍ أوضحَ للصّورةِ إذا نظرنا إلى ما هوَ مكتوبٌ في مشنا سنهدرين4: 5 . مقتلُ هابيلَ في القرآن مستعارٌ منَ الكتابِ المقدَّس، إلّا أنَّ الحوارَ بينَ قايينَ وهابيل قبلَ أن يقتلهُ قايين مأخوذٌ من ترجومِ يوناثان، المعروفُ عموماً ب سودو يوناثان (أو كتابُ يوناثانَ المزيّف) pseudo-Jonathan . يذكرُ القرآنُ أنّهُ بعدَ جريمةِ القتلِ أرسلَ اللهُ غراباً فنبشَ الأرضَ ليُري قايينَ كيفَ يدفنُ هابيل.

33- فَبَعَثَ اللهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ

34 -مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً

الآية 34 لا علاقةَ لها بما قد حدثَ قبلَ ذلك (الآية 33)، تتوضّحُ الآيةُ فقط إذا نظرنا إلى مشنا سنهدرين 4: 5 :-

«وجدنا أنّهُ قد قيلَ في حالةِ قايينَ الذي قتلَ أخاه: «صوتُ دماءِ أخيكَ تصرخ» (عبارةٌ واردةٌ في التوراة، المترجم)، ولم تأتِ كلمةُ دمٍ بصورةِ المفرد ولكن دماء بالجمع؛ بمعنى دمهِ ودمِ ذريّته. خلقَ الإنسانَ ... مفرداً لكي يُعرفَ أنَّ بالنسبةِ لمن يقتلُ شخصاً واحداً يكونُ معلوماً أنّهُ قد ذبحَ أُمّةً بأسرها، لكن بالنسبةِ لمن أبقى على حياةِ شخصٍ واحد فسيحسبُ كما لو أنّهُ قد أبقى على حياةِ أمّةٍ بأسرها.»

الجزءُ المحذوفُ (في القرآن، والمحذوفُ هوَ التفسيرُ التلمودي، المترجم) يؤدّي وظيفةَ

الرّابطِ بينَ العبارتينِ في القرآن (أي لماذا من قتلَ نفساً بغيرِ حقٍ فكأنّما قتلَ النّاسَ جميعاً؟ الجواب: لأنَّ الآيةَ التوراتيّةَ تقول: صوتُ دماءِ أخيكَ؛ أي دمهِ ودمِ ذريّته، المترجم)، والذي لولاهُ تصبحُ العبارتانِ غيرَ مفهومتين (كما في القرآن، المترجم).

نوح:

أتى جزءٌ من قصَّةِ نوحٍ في القرآن بصورةٍ واضحةٍ من سفرِ التكوين، ولكنَّ جزءاً من تصويرِ شخصيّةِ نوح مستمدٌّ منَ المصادرِ الحاخاميّة (الأعراف: 59، يونس: 71، الحجّ: 42،... ...إلخ). الحواراتُ التي قامَ بها نوحٌ مع قومهِ بينما كانَ يقومُ ببناءِ الفُلكِ هيَ نفسها الموجودةُ في سنهدرين 108، وكلا الاثنين، القرآنُ والكتاباتُ الربينيّةُ تصرِّحُ أنَّ جيلَ الطُّوفانِ عُوقِبَ بالماءِ المغليِّ (إشارةٌ إلى عبارة« وفارَ التنُّور» الواردةِ في القرآن، المترجم) (روش هاشاناه 16: Rosh Hashanah 2 :16 و سنهدرين 108 قارن مع هود: 40 و المؤمنون: 27)

إبراهيمُ ينجو من نارِ النمرود:

توجدُ قصَّةُ إبراهيمَ مبعثرةً في سورِ القرآن، البقرة: 260، الأنعام: 74-84، الأنبياء: 51-72، مريم: 41-50، الشُّعراء: 69-89،العنكبوت: 61-25،الصَّافَّات: 83-113،الزُّخرف: 26-28، الممتحنة: 4...الخ. تدورُ التقاليدُ الإسلاميّةُ كثيراً في موضوعِ قصّةِ حياةِ السّلف (إبراهيم)، وقد بيّنَ جيجر وتسدلTisdall أيضاً كيفَ أنَّ مصدرَ القصصِ القرآنيّةِ والتقليديّةِ يوجدُ في المدراش ربّا (تفسيرٌ على الأسفارِ المقدّسةِ اليهوديّةِ (التوراة) يحتوي تفصيلاتٍ وأساطيرَ تسمّى الهاجادا مضافةً إلى القصصِ التوراتيّةِ الكتابيّة، المترجم) كلا المصدرينِ المدراشيُّ والإسلاميُّ يفترقانِ عن القصَّةِ الكتابيّة، في سفرِ التكوينِ نتعلَّمُ ببساطةٍ أنَّ النمرودَ كانَ حفيداً لحام وأنّهُ أسّسَ إمبراطوريّةً عظيمة. في القصّةِ الإسلاميّةِ والمدراشيّة، يعاقبُ إبراهيمُ لتحطيمهِ الأصنامَ المعبودةَ من قِبَلِ شعبِ النمرود، فيُرمى بهِ في النّار، إلّا أنّهُ يخرجُ سليماً، وطبقاً لتسدل151، كلُّ القصَّةِ هيَ مؤسَّسةٌ على فهمٍ خاطئٍ لسفرِ التكوين (من التوراة، المترجم) إصحاح 15 عدد 7: «أنا الرَّبُّ الذي أخرجكَ من أورِ الكلدانيّين». تعني أور باللُّغةِ البابليّةِ مدينة(لا تعني مدينة

ولكنّهُ اسمُ علمٍ لمدينةٍ قديمةٍ في بلادِ ما بينَ النهرين، المترجم)، وكانت أور الكلدانيّين بلدةَ إبراهيمَ الأمّ، لكنّ كلمةَ «أور Ur» في اللفظ تشابهُ بشدّةٍ الكلمةَ «أور Or» التي تعني ضياءً أو ناراً. وبعدَ سنواتٍ ترجمَ معلّقٌ يهوديٌّ هوَ يوناثان بن عزرا نفسَ العبارةِ من سفرِ التكوين ب» أنا الرّبُّ الذي خلّصكَ من فرنِ الكلدانيّينَ النّاري» عقدَ المترجمُ خطأهُ بإصرارهِ أنّ كلّ هذا حدثَ « في الزّمنِ الذي رمى فيهِ النمرودُ إبراهيمَ في فرنِ النّار، لأنّهُ لم يعبد الأصنام»، بالطبع، حتّى لو وجدَ هناكَ شخصٌ باسمِ النمرود، فليسَ منَ الممكنِ أن يكونَ معاصراً لإبراهيم لو قبلنا الواردَ في سفرِ التكوين.

يوسف:

مع أنّ قصّةَ السّلفِ العظيمِ (يوسف) مأخوذةٌ أساساً منَ الكتابِ المقدّس، إلّا أنّ توري152 Tory يبيّنُ أنّ هنالكَ تنافراً في الرّوايةِ القرآنيّةِ عن حياةِ يوسفَ في سورةِ يوسف، حيثُ السّورةُ بأسرها مكرّسةٌ لروايةِ قصّةِ السّلف، وأنّهُ فقط إن ملأنا العباراتِ الرّابطةَ المهملةَ بمقاطعَ منَ المدراش حينها فإنّ القصّةَ ستعطي معنىً ما (مدراش يلقوت Midrash Yalqut 146).

تحاولُ امرأةُ فوطيفار (امرأةُ العزيز) أن تقومَ بأغراءِ يوسف، والذي في البدايةِ يرفض، إلّا أنّهُ يصبحُ مستعداً للرضوخِ في النهاية عندما يرى رؤيا تردعهُ عمّا كانَ سيفعله. كالعادة، يتركنا القرآنُ في جهلٍ بطبيعةِ هذهِ الرؤيا، إلّا أنّهُ في سوتاه 36: 2 (كتابٌ دينيٌّ يهوديّ)، والذي أُخِذَت منهُ الرّواية، نعلمُ أنّهُ «قالَ الحاخامُ يوحنان: كلاهما نويا ارتكابَ الخطيئة، ماسكةً إيّاهُ من رداءهِ قالت لهُ: «أضطجع معي».. ثمّ ظهرَ لهُ شكلُ أبيهِ في الشبّاكِ يناديه: «يوسف! يوسف! أسماءُ إخوتكَ سوفَ تنقشُ في أحجارِ الأفود (حليةٌ مزيّنةٌ باثني عشرَ حجراً كريماً يرتديها رئيسُ كهنةِ الهيكلِ عندَ اليهود، ينقشُ اسمُ سبطٍ واحدٍ على كلّ حجر، المترجم)، واسمكَ أيضاً، أترغبُ في أن يُمحى؟»

تسلسلُ القصّةِ في القرآنِ لا يمكنُ فهمهُ تماماً دونَ الرجوعِ إلى المصادر، في هذهِ الحالة مدراش يلقوت. تستمرُّ القصّةُ بدعوةِ زوجةِ فوطيفار لكلّ النسوةِ اللاتي سخرنَ منها إلى وليمة، ليتمكنّ من رؤيةِ وسامتهِ بأنفسهنّ، وفي غمرةِ دهشتهنّ يُقطّعنَ أيديهن. لا

يعلمنا القرآنُ لماذا كنَّ يمسكنَ بسكاكين، إلّا أنّنا نتعلَّمُ من مشنا يلقوت أنَّ ذلكَ لكونهنَّ يتناولنَ الفاكهة.

نتعلَّمُ في القرآنِ أنَّ يعقوبَ يخبرُ أبنائهُ أن يدخلوا من أبوابٍ متعدّدة، بصورةٍ مشابهة، وفي المدراش ربّما تعليقاً على سفرِ التكوينِ (من التوراة) تحتَ براشاه 91 (Parashah)، يعقوبُ «يقولُ لهم: لا تدخلوا من بوّابةٍ واحدةٍ لا غيرها». يوافقُ توري على القصّة.

عندما يوجدُ الكأسُ في كيسِ بنيامين، يوصفُ أنّهُ لص، يقولُ أخوته: «إِنْ يَسرِقْ فَقَد سَرَقَ أخٌ لَهُ مِنْ قَبلُ». يستنفدُ المفسّرونَ ذكاءهم في محاولتهم تفسيرَ كيفَ أمكنَ لهم أن يتّهموا يوسفَ بالسّرقة، يسهلُ التفسيرُ من خلالِ المدراشِ الذي يشيرُ إلى نقطةٍ وهيَ أنَّ أمَّ بنيامينَ قد سرقت قبلهُ، مشيرينَ بالطّبعِ إلى الوقتِ الذي حملت فيهِ راحيل (زوجةُ يعقوبَ وأمُّ يوسفَ وبنيامين، سرقت أصنامَ أبيها وفرّت مع زوجها حسبَ القصّةِ التوراتيّة، المترجم) آلهةَ أبيها المنزليّة (سفر التكوين الإصحاح الحادي والثلاثون: 19-35).

يخبرنا القرآنُ ثانيةً أنَّ يعقوبَ عرفَ من خلالِ الوحيِ أنَّ ابنهُ يوسف كانَ ما يزالُ على قيدِ الحياة (سورة يوسف: 86) ولكن نتعلَّمُ في مدراشٍ يلقوت 143 من أينَ تلقّى المعلومة: «سألَ كافرٌ سيدنا (فقيهٌ يهودي)، هل يستمرُّ الميّتُ في العيش، لم يؤمن آبائكم بهذا، فهل ستؤمنونَ أنتم بهذا؟ عن يعقوبَ قيل، رفضَ أن يطمئنَّ، لو أنّهُ آمنَ بأنَّ الذينَ ماتوا هم في الحقيقةِ أحياء ألم يكن سيطمئنّ؟ ولكنّهُ (المعلم) أجابَ: أحمق!، لقد عَلِمَ بالرُّوحِ القُدُسِ أنّهُ مازالَ حيّاً حقّاً، ولا يحتاجُ النّاسُ أن يطمأنّوا بشأنِ شخصٍ حيّ.»

هود وموسى وآخرون:

تفاصيلُ السّلفِ هود، والذي عادةً ما يعرّفُ بالشخصيّةِ التوراتيّةِ عابر، هيَ مأخوذةٌ أيضاً من كتاباتٍ حاخاميّة (قارن سورة هود11: 50 والمشناة سنهدرين 10: 3) تكثرُ استعاراتٌ أخرى في القرآن عن قصّةِ موسى وفرعون. لنأخذ بعضَ الأمثلةِ العشوائيّة: في تعليقِ (الحاخام) راشي على سفرِ الخروج الإصحاح 15 العدد 27، يضيفُ المعلّقونَ اليهود أنَّ اثنتا عشرةَ عيناً وُجِدَت قربَ إيليم وأنَّ كلَّ الأسباطِ قد امتلكوا بئراً.

يتقلُ محمّدٌ العبارةَ ويعلنُ أنَّ اثنتا عشرَ عيناً نبعت منَ الصخرةِ التي ضربها موسى في ريفيديم. في أبودا ساره2 :Aboda Sarah 2، توجدُ لدينا القصَّةُ المدهشةُ عن تغطيةِ اللهِ للإسرائيليّينَ بجبلِ سيناء، وذلكَ بمناسبةِ إعطاءِ الشَّريعةِ (لموسى). يعطي القرآنُ النسخةَ التّاليةَ (من القصّة) (سورةُ الأعراف: 171) : «وَإِذ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّواْ أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» .

سليمانُ وسبأ:

يعطي القرآنُ قصَّةَ سليمانَ أكثرَ ممّا تستحقّ، خصوصاً قصَّةَ مقابلتِهِ لملكةِ سبأ، يشيرُ القرآنُ إلى حكمةِ سليمانَ بالتلميحِ إلى قدرتِهِ على التحدّثِ إلى الطيور، يحملُ المفسّرونَ اليهود نفسَ الرأي، نتعلّمُ في العديدِ منَ السُّورِ أنَّ الرِّياحَ والأرواحَ أطاعتهُ، وأنَّ الشَّياطينَ والطيورَ والوحوشَ كوّنت جزءاً من جيشِهِ (سورة الانبياء: 81 و النمل: 16 و سبأ: 12، ص: 37). في الترجومِ الثّاني لأستير، نقرأ: « شياطينٌ من مختلفِ الأنواع، وأرواحٌ شريرةٌ كانت خاضعةً له» يخبرنا محمّدٌ بالقصَّةِ التي تروي كيفَ أنَّ الشَّياطينَ ساعدت في بناءِ الهيكل (المحاريب)، وأنّها خُدِعَت (بضمِّ الخاء) بالاستمرارِ في البناء حتّى بعدَ وفاتِهِ (سليمان) السُّورة 34. هذا مقتبسٌ مباشرةً منَ اليهود (جتّين Gittin)68)).

الاسكندر الأكبر:

تتميّزُ سورةُ الكهفِ في القرآن باحتوائها على كلِّ أنواعِ الموادِ الخرافيّةِ والتي هيَ ليست منَ المصادرِ المعتادة، وهيَ العهدُ القديمُ والمؤلّفاتُ الحاخاميّةُ والتُّراثُ العربيّ، وقبل أن نتتبّعَ المصادر، نبدأُ بقصَّةِ موسى وغلامِهِ في بحثهما عن مجمعِ البحرينِ والمرويةُ في الآيات من 60 إلى 82.

عندما يصلانِ إلى هذا الموضع، يجدانِ تحتَ تأثيرِ وسوسةِ الشَّيطانِ أنّهم قد نسوا السَّمكةَ التي كانوا قد أخذوها معهم، وجدت السَّمكةُ لها طريقاً إلى الماءِ وسبحت بعيداً، وبينما هم ينظرونَ إلى السَّمكةِ إذ صادفوا عبداً من عبادِ الله، قالَ لهُ موسى أنّهُ سيتبعهُ إن علّمهُ طريقَ الصَّواب. وصلَ الاثنانِ إلى اتّفاق، إلّا أنَّ عبدَ اللهِ الصَّالحَ يخبرُ موسى منذُ البدءِ أنّهُ لن يتفهّمَ تصرّفاتِهِ، وأنّهُ يجبُ أن لا يطلبَ تفسيرات، ولذلكَ لن يستطيعَ

أن يصبرَ على رفقته. بدئوا برحلتهم، إلّا أنّهُ خلالَ الرحلة يقومُ عبدُ اللهِ بأعمالٍ ظاهرها مُشين، وهذا يسبّبُ بفقدانِ موسى لصبرهِ فلم يستطع أن يمتنعَ منَ السؤالِ عن تفسير، عندها يجيبُ عبدُ الله: «ألم أقل لكَ أنّكَ لن تستطيعَ معي صبرا». في النهاية يتركُ موسى، وبمغادرتهِ يعطيهِ تفسيراً لأعمالهِ والتي كانت لها أسبابٌ وجيهة.

تتبّعُ نولدكه وآخرون مصادرَ هذهِ القصّةِ إلى 1- ملحمةِ جلجامش، 2- سيرةِ الإسكندر، 3- أسطورةِ إيليّا مع الحاخامِ يشوع بن لاوي.

1- ملحمةُ جلجامش: تحكي هذهِ القصيدةُ البابليّةُ التي تعودُ إلى القرنِ الثّامنِ عشرَ قبلَ الميلاد القصّةَ البطوليّةَ لصديقينِ هما إنكيدو وجلجامش، وعندما يموتُ إنكيدو يقومُ جلجامش بالبحثِ عن الخلودِ لخوفهِ منَ الموتِ بادئاً بالبحثِ عن سلفهِ أوتنابشتم القاطنِ في مصبِّ النهرين، وذلكَ لكونِ جلجامش كانَ مدركاً أنَّ اوتنابشتم كانَ الفانيَ الوحيدَ الذي تمكّنَ من نيلِ الخلود. يخبرهُ سلفهُ بوجودِ عشبةٍ لها خاصّيّةُ إعادةِ الشّبابِ للشّيوخ، ولكنّها توجدُ في قعرِ البحرِ فقط. في اللحظةِ الأخيرة تقومُ أفعى بسرقةِ العشبةِ من جلجامش.

2- سيرةُ الاسكندر: يمكنُ إيجادُ المصدرِ المباشرِ لسيرةِ الإسكندر في الآدابِ السُّريانيّة. في قصّةِ الإسكندر الشّعريّةِ والتي كانَ مصدرها في الآخر هيَ سيرةَ الإسكندرِ لـ سودو كاليسثينيس(مؤرّخ)، والتي ربّما تعودُ إلى مئةِ سنةٍ قبلَ الميلاد. تحكي النسخةُ السُّريانيّةُ كيفَ أنَّ الإسكندرَ وطبّاخهُ الخاصّ اندرياس ذهبا بحثاً عن ينبوعِ الحياة. في إحدى المراحلِ كانَ اندرياس يقومُ بغسلِ سمكةٍ مملّحةٍ في ينبوع، جعلت الملامسةُ مع الماءِ السّمكةَ تعودُ إلى الحياةِ ثانيةً وتسبحُ بعيداً. يقفزُ اندرياس سعياً وراءَ السّمكة وبهذا يكتسبُ الخلود، وعندما يعلمُ الإسكندرُ لاحقاً بالقصّة، يفهمُ أنّهُ قد فقدَ توّاً إمكانيّةَ اكتشافِ الينبوعِ نفسهِ الذي كانَ يبحثُ عنه، ولسوءِ الحظّ يفشلانِ في العثورِ على الينبوعِ ثانيةً.

3- إيليّا والحاخام يشوع بن لاوي: تروي الأسطورةُ اليهوديّةُ كيفَ ذهبَ الحاخامُ يشوع بن لاوي في رحلةٍ مع إيليّا (الياس في القرآن، نبيٌّ إسرائيليّ، لم يمت بل انتقلَ إلى

العالمِ الآخرِ حيّاً حسبَ التقليدِ اليهوديّ، وهوَ مقابلٌ لشخصيّةِ الخضر، وربّما كانَ أصلَ الأسطورة، المترجم) وكما في حالةِ عبدِ اللهِ الصّالحِ في القرآن، يقومُ إيليّا باشتراطِ عددٍ منَ الشّروطِ المشابهة. وثانيةً يقومُ إيليّا بعملِ أشياءَ شنيعةٍ ظاهريّاً فيؤثّرُ هذا في الحاخامِ بنفسِ الطريقةِ التي تأثّرَ بها موسى.

يقومُ وينسنك Wensinck بجمعِ النتائجِ المترتّبةِ على مقارنةِ كلِّ المصادر.» عُرِفَت شخصيّةُ يشوع بن لاوي التي تعرّفَ بها محمّد من خلالِ اليهود والتي لا تظهرُ ثانيةً في الأساطيرِ الإسلاميّة، عُرِفَت ب يشوع بن نون (يوشع بن نون). هذا التعريفُ ربّما أدّى إلى ارتباكٍ بينَ معلّمِهِ إيليّا ومعلّمِ يشوع بن نون، موسى. لهذا، يمثّلُ موسى جلجامشَ والإسكندرَ في الجزءِ الأوّلِ منَ القصّة، ويمثّلُ إيليّا في الجزءِ الثّاني» 153.

ولنختم، يظهرُ الإسكندرُ نفسهُ في الآيات 83 إلى 98 كـ» ذي القرنين». نحنُ نعلمُ منَ النسخةِ السّريانيّةِ للأسطورة أنَّ الإسكندرَ سُمّيَ بذي القرنينِ لأنَّ الله» تسبّبَ بنموّ قرنينِ على رأسي، لكيما أدمّرَ ممالكَ العالمِ بهما». تذهبُ الحكايةُ الإسلاميّةُ إلى مزجِ قصّةِ يأجوج ومأجوج مع تلكَ التي للإسكندر (راجع التكوين 102 وحزقيال 38).

إقتباساتٌ أخرى:

عادةً ما يشيرُ محمّدٌ إلى اللهِ بكلمةِ «رَبّ»، وأحياناً «رَبَّ العالمين» (سورةُ الواقعة: 80، التكوير: 29، المطففين: 6) 154، نجدُ (بالمقابل) تعبيرَ رَبٌّ ها عالمين في الطقسيّاتِ اليهوديّةِ كما نجدهُ في القصصِ اليهوديّة، يتكلّمُ محمّدٌ عن اللهِ بصفتهِ «الرَّحمن» (الرَّحمن: 1، النبأ: 37) في فاتحةِ كلِّ سورة، ولكنّهُ يتكرّرُ في مواضعَ أخرى منَ القرآن لأكثرَ من خمسينَ مرّة، تقريباً كاسمٍ شخصيٍّ لله. يبدو أنَّ هذا المصطلحَ استُخدِمَ في الجزيرةِ العربيّةِ قبلَ الإسلام، فقد وُجِدَ في النقوشِ العربيّةِ الجنوبيّة. يشكُّ بيل Bell فيما إذا كانَ محمّدٌ قد اعتمدَ بصورةٍ مباشرةٍ على اليهوديّةِ وذلكَ لتبنّيهِ (المصطلح)، مع ذلك يشيرُ أويرمان إلى أنَّ «ها رحمن» (ها: هيَ أداةُ التعريفِ في العبرانيّة) تستخدمُ بكثرةٍ في الطقسيّاتِ اليهوديّةِ كذلك. يجمعُ جيفري وجهةَ نظرهِ هكذا: «حقيقةُ كونِ الكلمةِ قد وردت في الشّعرِ القديم وأنّهُ منَ المعروفِ أنّها قد استُخدِمَت مرتبطةً بأعمالِ الأنبياء، مسيلمةَ الذي من اليمامة

والأسودَ منَ اليمن الغريمينِ لمحمّد، كلُّ هذا يشيرُ إلى مصدرٍ مسيحيٍّ بدلاً من يهوديّ، مع أنَّ المسألةَ غيرُ مؤكّدة»155.

المسيحيّة:

«كانَ لديهِ فكرةٌ بسيطةٌ عن التعاليمِ المسيحيّة، وعن ماهيّةِ الكنيسةِ المسيحيّة، وكما أشارَ نولدكه منذُ زمنٍ لم يتمكّن إطلاقاً منَ الحصولِ على معرفةٍ عن كتبٍ بهذهِ الأشياء، فالإنسانُ الذي يقصُّ قصّةً بهذا الغباءِ عن الطقسِ المسيحيِّ الأساسيّ، كما جاءَ في سورةِ المائدة: 116 أحدِ أجزاءِ القرآنِ الأخرى، لا يمكنُ أن يكونَ على معرفةٍ كبيرةٍ بالكنيسةِ المسيحيّة»

ريتشارد بل 156:

كانت المسيحيّةُ متغلغلةً بشكلٍ واسعٍ في أرجاءِ الجزيرةِ العربيّةِ ساعةَ ولادةِ محمّد، ولكنّها كانت على الأغلبِ من النوعِ السُّريانيّ، سواءً أكانت يعقوبيّةً (على اسمِ يعقوبِ البرادعيِّ ناشرِ المذهبِ في سوريا، المذهبُ يؤمنُ بطبيعةٍ إلهيّةٍ فقط للمسيح، المترجم) أو نسطوريّة (على اسمِ نسطوريوس مؤسّسِ المذهب، المذهبُ يؤمنُ بأنَّ مريمَ لم تكن أمّاً لله، فالطبيعةُ الإلهيّةُ حلّت في المسيحِ بعدَ ولادته، المترجم). في الحيرة (مدينةٌ عربيّةٌ قبلَ إسلاميّةٍ مسيحيّة في العراق، كانت قاعدةً للمناذرة، أمارةٌ عربيّة، المترجم) كانَ العديدُ منَ العائلاتِ المسيحيّةِ مونوفيزيّة (تؤمنُ بطبيعةٍ واحدةٍ للمسيح، المترجم) نحنُ نعلمُ أنَّ اللّغةَ السُّريانيّةَ هيَ « المصدرُ الأكثرُ غزارةً للاستعاراتِ القرآنيّة»، وممّا لا شكَّ فيه أنَّ القسمَ الأكبرَ منَ التأثيرِ السُّريانيِّ على اللُّغةِ العربيّةِ قد أتى منَ اللُّغةِ السُّريانيّةِ المُستخدمةِ من قبلِ مسيحيِّ الحيرة. نشأ مجتمعٌ مسيحيٌّ آخر في جنوبِ الجزيرةِ العربيّةِ في نجران، العديدُ منَ القاطنينَ كانوا نساطرة، ولكنَّ قسماً لا بأسَ بهِ كانوا مونوفيزيّينَ مرتبطينَ بالكنيسةِ المونوفيزيّةِ في الحبشة. وفقاً للتقاليدِ الإسلاميّة، كانَ لمحمّدٍ نفسهُ ارتباطٌ شخصيٌّ بمسيحيِّ الكنيسةِ السُّريانيّة، نعلمُ منَ المصادرِ الإسلاميّةِ أنَّ محمّداً كانَ قد ذهبَ في شبابهِ في رحلاتٍ تجاريّةٍ إلى سوريا، وهناكَ حكايةٌ تروي كيفَ أنّهُ قد استمعَ في إحدى المرّاتِ لخطبةِ قِس (قِس بالكسر) بن ساعدة الإيادي، أخطبُ العرب، مسيحي،

المترجم)، وهوَ أسقفُ نجران، في سوقِ عكاظ (سوقٌ تنشدُ فيهِ أشعارُ العرب، المترجم) قربَ مكّة.

كانَ هنالكَ احتكاكٌ مع الحبشةِ لفترةٍ طويلةٍ من خلالِ التجارة، وكانَ جنوبُ الجزيرةِ العربيّةِ بالتأكيد تحتَ السيطرةِ الحبشيّةِ لفترةٍ منَ الزّمن قبلَ ولادةِ محمّد. نحنُ لدينا القصّةُ المعروفةُ عن مجموعةٍ منَ المكيّينَ الذينَ تحوّلوا إلى الإسلامِ ولجئوا إلى الحبشةِ لتجنّبِ الاضطّهاد. يؤرّخُ توري الاهتمامَ الجديدَ بالمسيحيّةِ الذي استيقظَ عندَ محمّدٍ منذُ هذا التّاريخ.

مع ذلك وعلى الرّغمِ من هذا المجهود، لم يتمكّن محمّدٌ من فهمِ عقيدةِ الثّالوث. والموجودُ في القرآنِ عن المسيحيّةِ مستقى من (عقائدِ) الفرقِ الهرطقيّةِ (الفرقُ المسيحيّةُ التي لا تتّبعُ المذهبَ السّائد، عادةً المذهبُ الملكيُّ الكاثوليكيُّ والأرثوذكسيّ، المترجم).

النوّامُ السّبعة:

نشأت أسطورةُ نُوّامِ أفسوس (مدينةٌ مسيحيّةٌ سابقاً، في تركيا حاليّاً، المترجم) السّبعةِ حوالي نهايةِ القرنِ الخامس، ومن ثمَّ سرعانَ ما انتشرت في أرجاءِ غربِ آسيا وأوروبّا، وربّما كانَ أوّلُ ظهورٍ لهذهِ القصّةِ كانَ في (أدبيّاتٍ) سريانيّةٍ يعقوب السروجي (رجلُ دينٍ وشاعرٌ سريانيّ.، المترجم)، أسقفٌ سريانيٌّ (452–521)، ومن ثمَّ تمَّ ترجمتها إلى اللاتينيّةِ من قِبَلِ غريغوريوس من تورس (540–590)، (De Gloria Martyrum 95 .1.i.c)، وكما يقولُ جيبّون (مؤرّخ غربي، المترجم): «قُدِّمَت هذهِ الأسطورةُ واسعةُ الانتشار، والتي منَ الممكنِ أنَّ محمّداً كانَ قد تعلّمها خلالَ ارتحالهِ بجِمَالِهِ إلى سوريا، قُدِّمَت كوحيٍ إلهيٍّ في القرآن» (سورة الكهف: 9–26)، تبدأُ الحكايةُ القرآنيّةُ كالتّالي: «أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا»، ووفقاً لهذهِ الحكاية، لجأ عددٌ منَ الفتيةِ المسيحيّينَ إلى كهفٍ في الجبال للتخلّصِ من اضطّهادِ الامبراطورِ داقيوس. وجدَ مُضطَهِدوهم مخبأهم فحبسوهم هناك، نجا الفتيةُ بشكلٍ عجائبيّ وظهروا ثانيةً بعدَ مئتي سنةٍ تقريباً. اختلفَ المفسّرونَ حولَ معنى كلمةِ «الرّقيم» لسنواتٍ عديدة. اقترحَ توري157 أنَّ هذا الاسمَ المثيرَ للفضول هوَ ببساطة، قراءةٌ خاطئةٌ للاسمِ داقيوس في

المخطوطةِ الآراميّة.

سوءُ فهمٍ لقصّةِ مريمَ وعقيدةِ الثّالوث:

في سورةِ (مريم: 28و 29) نقرأُ أنّهُ بعدَ ولادةِ يسوع، جاءَ النّاسُ إلى مريمَ وقالوا: «يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً * يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً »، وفي مكانٍ آخرَ تُسمّى مريمَ «ابنةَ عمران» (سورةُ التحريم: 12، آل عمران: 33)، وثانيةً: «لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيراً»، منَ الواضحِ أنَّ محمّداً قد التبسَ بينَ مريمَ أختِ موسى ومريمَ أمِّ يسوع، وقد استنفدَ المفسّرونَ جهدَهم لتفسيرِ هذا «الالتباسِ المدهشِ في المكانِ والزّمان».

نقرأُ في سورةِ مريم، أنَّ مريمَ أمَّ يسوع تتلقّى زيارةً من ملاكٍ يخبرها بأنّها ستنجبُ طفلاً بالرّغمِ من كونها عذراء، لكونِ هذا مشيئةَ الله، وتستمرُّ السُّورةُ بالقول:

«فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً*فَأَجَاءهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْياً مَّنسِيّاً*فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً*وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً*فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيّاً»

نستطيعُ أن نرى مباشرةً مصدرَ هذهِ القصّةِ في الكتابِ الابوكريفي (كتبٌ يدّعي انتسابها إلى مجموعةِ الأسفارِ المقدّسةِ من قبلِ بعضِ الفِرَق) المسمّى تاريخُ ولادةِ مريمَ وطفولةِ المخلّص، حيثُ يسألُ الطفلُ يسوع شجرةَ النّخلِ قائلاً: «أرسلي فروعكِ إلى هنا في الأسفل، لكيما تستطيعَ أمّي أن تأكلَ فاكهتكِ الطّازجة، فانحنت حالاً عندَ أقدامِ مريم......(ثمَّ يأمرُ يسوعُ الشجرةَ قائلاً):

فجّري الينبوعَ تحتك.....وحالاً تنتصبُ الشّجرةُ وتبدأُ بدفقِ الماءِ من جذورها، أمامها رائقاً وعذباً».

أجزاءٌ أخرى منَ القصّةِ القرآنيّة مأخوذةٌ من البروتيفانجيليوم Protevangelium من تأليفِ يوحنّا الأصغر James the less، المكتوبِ باليونانيّةِ الهلنستيّة، وكذلكَ من

التّاريخِ القبطيّ للعذراء.

يسوع:

في سورةِ النِّساء: 157 ينفي صلبَ المسيح: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾، البعضُ قد حدسَ أنَّ هذا كانَ اختراعاً لمحمّد، لكنّنا نعلمُ بأنَّ عدّةَ مذاهبَ هرطقيّةٍ كانت قد نَفَت الصَّلب، مثالٌ على ذلك الباسيليديّين، والذينَ يدّعونَ أنَّ سمعانَ القيروانيّ (شخصٌ يهوديٌّ من بُرقة أو قيريني في ليبيا صادفَ وجودهُ في أورشليم يومَ الصَّلب فأمرهُ الجنودُ الرُّومانُ أن يحملَ الصَّليبَ على عاتقهِ تخفيفاً عن يسوع، المترجم) قد صُلِبَ في محلِّ يسوع.

هنالكَ أيضاً حكاياتٌ مختلفةٌ عن يسوعَ يكلِّمُ النَّاسَ في المهد، وينفخُ نسمةَ الحياةِ في طيورٍ منَ الطِّين (سورة المائدة: 110) الخ، والتي أُخِذَت من مؤلّفٍ قبطيّ وهوَ أعمالُ القدّيسِ توما. في سورة المائدة(5) نجدُ أيضاً قصّةَ نزولِ المائدةِ منَ السّماء، والتي تعودُ في أصلها بلا شكّ إلى العشاءِ الذي شاركَ فيهِ يسوعُ تلاميذهُ في الليلةِ السَّابقةِ لوفاته.

الثّالوث:

تُذكَرُ العقيدةُ المسيحيّةُ في الثّالوثِ في ثلاثِ سور:

1- فَآمِنُواْ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ (سورة النِّساء: 171)

2- لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ ....مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ (سورة المائدة: 75)

3- وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللهِ (سورة المائدة: 116).

يشيرُ المفسّرُ الإسلاميُّ المعتبر البيضاويّ إلى أنَّ المسيحيّينَ جعلوا الثّالوثَ مكوّناً منَ الله، عيسى (يسوع) و مريم، ومنَ الواضحِ أنَّ هذهِ كانت وجهةَ نظرِ محمّد. (الثّالوثُ المسيحيُّ مكوّنٌ من شخصيّاتٍ ثلاث الله: الآب، والابن والرُّوح القُدُس، المترجم)

الميزان:

كما شاهدنا سابقاً، أتت الفكرةُ الإسلاميّةُ عن الميزانِ من بلادِ فارس، وهيَ فكرةُ الكفّتينِ اللّتينِ ستوزنُ عليهما أعمالُ الإنسانِ يومَ الحساب، ولكنَّ عناصرَ أخرى (للفكرة) أتت بكلِّ تأكيد من مؤلّفٍ هرطوقيٍّ وهوَ« شهادةُ إبراهيم»، والذي يُحتَمَلُ أنّهُ يعودُ إلى القرنِ الثّاني الميلادي، وهذا العملُ بدورهِ قد جاءَ بمعظمِ أفكارهِ من كتابِ الأمواتِ المصريّ (كتابٌ مصريٌّ مقدّس يروي رحلةَ الإنسانِ في العالمِ الآخر بعدَ موته، المترجم)

لقد رأينا مسبقاً كيفَ أنَّ معراجَ النبيِّ يعتمدُ بشكلٍ كبيرٍ على النصِّ الفهلويّ، ولكن ثانيةً، عناصرُ كبيرةٌ (في القصّةِ مأخوذةٌ من « شهادةِ إبراهيم»، ففي هذا العملِ الابوكريفيّ يُؤخَذُ الأبُ (أبراهيمَ9 إلى السَّماءِ بواسطةِ كبيرِ الملائكةِ ميخائيل و يُريهِ (بالضم) رؤيا لطريقينِ يؤدّيانِ إلى النّعيمِ الأخرويِّ والنّار:

«نظرَ إبراهيمُ أيضاً إلى بوّابتين، إحداهما عريضةٌ مثلَ الدربِ الذي تؤدّي إليه والأخرى ضيّقةٌ مثلَ الدربِ الآخر، وخارجَ البوّابتينِ شاهدا رجلاً (آدمَ) جالساً على عرشٍ ذهبيٍّ، بمظهرٍ مهيبٍ كأنّهُ الرَّبّ، رأيا جوعاً منَ الأرواحِ تُقادُ من قِبَلِ الملائكةِ خلالَ البوّابةِ العريضة، ولكنَّ قليلاً منَ الأرواحِ اقتيدت من قِبَلِ الملائكةِ خلالَ البوّابةِ الضيّقة، وعندما رأى..‏ ..... الرَّجلُ العظيمُ أنَّ القليلَ دخلوا منَ البوَّابةِ الضيّقة والكثيرَ منَ البوَّابةِ العريضة، شدَّ شعرَ رأسهِ وارتمى على الأرضِ هاوياً من عرشهِ باكياً ومنتحباً، ولكنّهُ عندما رأى العديدَ منَ الأرواحِ تدخلُ من خلالِ البوَّابةِ الضيّقة، نهضَ عن الأرض، وبفرحٍ وابتهاجٍ جلسَ ثانيةً على العرش.

وفقاً للمؤلّفِ الإسلاميِّ «مشكاةِ المصابيح»، نتعلّمُ أنَّ محمّداً في رحلتهِ إلى السَّماءِ شاهدَ آدم: «رجلٌ قاعدٌ على يمينهِ أسودةٌ وعلى يسارهِ أسودة إذا نظرَ قِبَلَ يمينهِ ضحكَ، وإذا نظرَ قِبَلَ يسارهِ بكى، فقال: مرحباً بالنبيِّ الصّالحِ والابنِ الصّالح، قلتُ لجبريلَ من هذا، قال: هذا آدمُ وهذهِ الأسودةُ عن يمينهِ وشمالهِ نسلُ بنيه فأهلُ اليمينِ منهم أهلُ الجنّةِ والأسودةُ التي على شمالهِ أهلُ النّار، فإذا نظرَ عن يمينهِ ضحكَ وإذا نظرَ قِبَلَ شمالهِ

بكى.» (رواهُ البخاريُّ ومسلمُ والنّسائيُّ والتِرمذيُّ وأحمد، والكلامُ للبخاري. المترجم)

عينُ الإبرة:

في سورةِ الأعراف: 40 نتعلّمُ أنّهُ: «إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ»، وهذا صدىً مدهشٌ لما جاءَ في إنجيلِ متّى19: 24 «فإنَّ مرورَ جملٍ في ثقبِ إبرةٍ أسهلُ من دخولِ غنيٍّ إلى ملكوتِ الله» (انظر مرقص 10: 25 ولوقا 18: 25)

الصّابئون:

العديدُ منَ المختصّين، مثلِ موير Muir على سبيلِ المثال، قد اقترحوا أنَّ محمّداً ومعاصريهِ في قلبِ الجزيرةِ العربيّةِ في القرنِ السّابع، لا بدَّ لهم من أن يكونوا قد تأثّروا بالصّابئين. هنالكَ معضلةٌ في هذهِ المسألة، وذلكَ أنَّ المصطلحَ يشيرُ إلى فرقتينِ دينيتينِ مختلفتين. وفقاً لكارا دي فو Carra de Vaux في الموسوعةِ الإسلاميّةِ Encyclopedia of Islam، الطبعةِ الأولى، يشيرُ القرآنُ إلى الصّابئينَ كأهلِ كتاب بالإضافةِ إلى اليهودِ والمسيحيّين، ممّا يشيرُ إلى أنّهُ عنى بذلكَ المندائيّين (طائفةٌ دينيّةٌ ما زالت تمارسُ طقوسها في العراق، يعتقدونَ بفسادِ المادّةِ ونقاءِ الرُّوح، وأنَّ الخلاصَ لا ينالهُ إلّا الخاصّةُ من أهلِ المعرفة، لهم طقوسٌ تعتمدُ على التعميدِ بالماء، ويعتقدونَ أنّهم يتّبعونَ تعاليمَ يحيى-يوحنّا المعمدان. المترجم) كانَ المندائيّونَ طائفةً يهوديّةً-مسيحيّةً مارست التعميد، وربّما نشأت في شرقِ الأردنِ في القرنِ الأوّلِ بعدَ الميلاد، أو في القرنِ الثّاني بعدَ الميلاد، إلّا أنَّ بعضَ الباحثينَ كـ «بل» وتوري يعتقدونَ أنّهُ منَ المستبعدِ أن يكونَ محمّدٌ قد عنى المندائيّينَ بقولِهِ صابئين.

المجموعةُ الثّانيةُ المقصودةُ بهذا المصطلح هم طائفةُ صابئةِ حرّانَ الوثنيّة، والذينَ عبدوا النجومَ واعترفوا بوجودِ أرواحٍ نجميّة، ومن بينِ تلكَ الأرواحِ نجدُ مدبّري الكواكبِ السّبعةِ والتي تعتبرُ هياكلهم. ووفقاً للشهرستاني (فيلسوفٌ إسلاميٌّ لهُ كتابُ المللِ والنِحَلِ في الأديانِ والمذاهبِ المختلفةِ وعقائدها، المترجم)، عبدَ بعضُ الصّابئينَ النجومُ المسمّاةَ هياكل بصورةٍ مباشرة، وعَبَدَت المجموعةُ الأخرى أصناماً مصنوعةً باليد

تمثّل النجوم، وذلكَ في هياكلَ مبنيّةٍ بيدِ الإنسان. فإذا سلّمنا أنّ الصّابئينَ قد أثّروا في محمّد نستطيعُ أن نلاحظَ كثرةَ ورودِ الإقسامِ بالنجومِ والكواكبِ في القرآن (سورة الواقعة: 75 «فلا أُقسِمُ بمواقعِ النجوم»، السُّورةُ 53 بعنوان «النَّجم» الآيةُ الأولى تقول: «والنَّجمُ إذا هوى») ربّما قد أثّرَ الصّابئونَ في الطقوسِ والشّعائرِ للمكيّينَ الوثنيّينَ كما نعرفهم، على سبيلِ المثال، منَ المحتملِ أن يكونَ احتفاظُ أهلِ مكّةَ بـ 360 وثناً في الكعبة، وشعيرةُ الطّوافِ حولَ الكعبةِ عدّةَ مرّات رموزٌ لحركةِ الكواكبِ السّبعة، كما يقترحُ موير.

المصادر:

108 .Goldziher (2), pp. 4-5.

109 .Quoted by Anatole France in "The Unrisen Dawn," London, ,1929 pp. 110-11.

110 .Renan (1), p. 352.

111 .Zwemer (1), p. 24.

112 .Quoted by Jeffery (1), p. I.

113 .Quoted by Dashti, p. 94.

114 .Quoted by Dashti, p. I.

115 .Quoted by Zwemer (3), p. 150.

116 .Zwemer (3), p. 148.

117 .Ibid., p. 150.

118 .Ibid., p. 157.

119 .Noldeke (1) in ERE VOL I, p. 659.

120 .Noldeke (1) in ERE VOL I; p. 665.

121 .Margoliouth (3) in MW vol. 20, p. 241.

122 .Muir (1), p. xci.

123 .Zwemer (3), p. 158.

124 .Noldeke (1) in ERE Vol I, p. 660.

125 .Zwemer (3), p. 159.

126 .Ibid., p. 160.

127 .Ibid., p. 159.

128 .Ibid., p. 161.

129 .Juynboll art. Pilgrimage in ERE.

130 .Quoted by Bousquet in afterword to Hurgronje (3), p. 287.

131 .Noldeke (1) in ERE, Vol, I, p. 664.

132 .Zwemer (4) in MW, Vol,8 , p. 359.

133 .Widengren art. Iranian Religions in EB, p. 867.

134 .Hinnels in Numen 16:161-85 1969.

135 .Article "Zoroastrianism," in JE, pp. 695-97.

136 .Goldziher (3), pp. 163-86.

137 .Jeffery (1), p. 14.

138 .Torrey, p. 106.

139 .Tisdal1, p. 78.

140 .Tisdal1, p. 80.

141 .Stutley, p. 16.

142 .Dowson, p. 20.

143 .Jeffery (1), p. 120.

144 .Quoted by Zwemer (3), pp. 126-27.

145 .Macdonald in EII article "Djinn."

146 .Zwemer (1), p. 17.

147 .Torrey, p. 60.

148 .Torrey, p. 105.

149 .Quoted by Obermann, p. 94.

150 .Torrey, p. 108.

151 .Tisdall, p. 23.

152 .Torrey, p. 109ff.

153 .Wensinck art. AL Khadir in EIL.

154 .Obermann, p. 100.

155 .Jeffery (1), p. 141.

156 .Bell, p. 136.

157 .Torrey, pp. 46-47.

أصولُ القرآن: بحثٌ في تاريخِ الدراساتِ القرآنيّةِ الاستشراقيّة

ابن الوراق

مقدّمة:

إنَّ الصّورةَ النمطيّةَ عن المجاهدِ المسلمِ الذي يحملُ السَّيفَ في يدٍ والقرآنَ في يدٍ أخرى لا يمكنُ أن تكونَ واقعيّةً إلّا إذا كانَ المجاهدُ أعسراً، لأنّهُ لا يمكنُ ولا يجبُ على مسلمٍ مخلصٍ أن يلمسَ القرآنَ بشمالِهِ المخصَّصةِ للأعمالِ النجسة. يقدّسُ جميعُ المسلمينَ القرآنَ تقديساً يقاربُ درجةَ الـ bibliolatery والتخريف. يشيرُ كليوم فيقول: «إنّهُ قدسُ الأقداسِ، لا يجبُ أن يكونَ موضعهُ تحتَ الكتبِ الأخرى، بل أعلاها دوماً، ولا يجبُ على أيِّ شخصٍ أن يشربَ أو يأكلَ شيئاً عندما يُتلى، وعليهِ أن يصغي بصمت. إنّهُ حِرزٌ ضدَّ المرضِ والكوارث.»

إنَّ القرآنَ يثيرُ مشاعرَ أخرى عندَ بعضِ الغربيّين، بالنسبةِ لـ كيبون كانَ القرآنُ «أدبَ خرافةٍ عاطفيَّ المحتوى وغيرَ متماسك،» أمّا بالنسبةِ لـ كارلايل فقد كانَ «غباءً غيرَ مستندٍ إلى شيء،» بينما هو ذا ما يعتقدهُ العالمُ الألمانيُّ سالمون رَيناخ: «من وجهةِ نظرٍ أدبيّة، ليسَ للقرآنِ الكثيرُ ممّا يمكنُ أن يُمتَدَحَ عليه، فالأسلوبُ الخِطابيُّ والتكرارُ والصبيانيّةُ وانعدامُ المنطقِ وتماسكِ النصّ تواجهُ القارئَ غيرَ المستعدِّ حيثما توجّه، إنَّ منَ المهينِ للفكرِ البشريِّ التفكيرُ في أنَّ هذا العملَ الأدبيَّ البسيطَ كانَ موضعَ تعليقاتٍ لا حصرَ لها، وأنَّ ملايينَ منَ البشرِ ما يزالونَ يهدرونَ أوقاتهم في تناوله.»

منَ الضروريِّ لنا في دراسةِ القرآنِ أن نميّزَ بينَ الصّيغةِ التّاريخيّةِ والميولِ الدينيّة، نحنُ هنا مهتمّونَ فقط بالحقائقِ المسلَّمِ بها من خلالِ عمليّةٍ منَ التقصّي العقلانيِّ بفحصٍ علميٍّ للمسألة. كتبَ العالمُ بالإسلاميّاتِ آرثر جفري في عام 1937 فقال: «إنَّ التقصّي النّقديَّ لنصِّ القرآنِ هوَ شكلٌ ما يزالُ في مهدهِ من أشكالِ الدراسة،» وفي عام 1977 لاحظَ جون وانسبرو أنّهُ «كوثيقةٍ قابلةٍ للتحليل بواسطةِ الوسائلِ والطرقِ المستخدمةِ في نقدِ

الكتابِ المقدّس يعدُّ [القرآنُ] مجهولاً تماماً.» مع حلولِ عام 1990، بعدَ أكثرَ من خمسينَ عاماً على تشكّي جفري، لا نزالُ في نفسِ الموقفِ المُشينِ الذي وصفهُ أندرو ريبين قائلاً: لطالما صادفتُ أشخاصاً بدأوا بدراسةِ القرآن متسلّحينَ بالخلفيّةِ في الدراسةِ التّاريخيّةِ للكتابِ المقدّسِ العبرانيّ أو المسيحيّةِ المبكرة، والذينَ كانوا متفاجئينَ من ضحالةِ الفكرِ النّقديّ الذي يظهرُ في كتبٍ منهجيّةٍ هيَ مقدّماتٌ لدراسةِ الإسلام، إنَّ الإشارةَ إلى أنَّ الإسلامَ قد وُلِدَ في فترةِ «نورِ التّاريخِ الجليّ» لا تزالُ معتمدةً من قِبَلِ العديدِ من كتّابِ مثلِ هذهِ الكتب، وبينما تعتبرُ الحاجةُ الى الإصلاحِ ما بينَ التقاليدِ التّاريخيّةِ المختلفةِ معترفاً بها عموماً، إلّا أنَّ هذا عموماً لا يشكّلُ معضلةً بالنسبةِ للمؤلّفين، أكثرَ منَ اضطرارهم إلى تحديدِ «ما يبدو معقولاً» في موقفٍ معيّن. بالنسبةِ لطلاّبٍ على معرفةٍ بالوسائلِ كنقدِ المصادر، التأليفاتِ الشفهيّةِ الصيغويّة، التحليلِ الأدبيّ ودراسةِ الهيكليّةِ الأدبيّة، والتي توظّفُ كلّها بشكلٍ معتادٍ تماماً في دراسةِ اليهوديّةِ والإسلام، فإنَّ دراسةً تأريخيّةً ساذجةً مثلَ هذه تقترحُ كما يبدو أنَّ الدخولَ في دراسةِ الإسلام يُمارسُ بإخلاصٍ أكاديميٍّ أقلَّ منَ المطلوب. إنَّ الأسئلةَ التي يأملُ أيٌّ تحقيقٍ نقديٌّ للقرآن إجابتها هيَ:

1-كيفَ أتى لنا القرآن؟ أي جمعُ القرآنِ ونقله

2-متى كُتِبَ، ومن كَتَبَه؟

3-ما هيَ مصادرُ القرآن، أينَ تمَّ أخذُ القصصِ والأساطيرِ والمبادئِ التي تكثرُ في القرآن؟

4- ما هوَ القرآن؟ بما أنّهُ لم يكن هنالكَ إطلاقاً نصٌّ قرآنيٌّ مقبولٌ من غيرِ اختلافات، فإنّنا نحتاجُ لتقريرِ أصالته.

سأبدأُ بالرّوايةِ التقليديّةِ المقبولةِ بدرجاتٍ مختلفة من قِبَلِ معظمِ العلماءِ المختصّينَ الغربيّين، ومن ثمَّ انتقلَ إلى آراءِ مجموعةٍ صغيرة ولكنّها مهولة، مؤثّرة، ونامية منَ العلماءِ المختصّينَ المتأثّرينَ بعملِ جون وانسبرو.

طبقاً للرّوايةِ التقليديّة، أُوحِيَ بالقرآنِ لمحمّد، من قِبَلِ ملاكٍ عادةً، بشكلٍ تدريجيٍّ على فترةٍ دامت لسنواتٍ حتّى وفاتهِ في عامِ 632 بعدَ الميلاد، من غيرِ الواضحِ كم منَ

القرآنِ تمّت كتابتهُ ساعةَ تُوفّيَ محمّد، إلّا أنَّ منَ المحتملِ أنّهُ لم يكن هنالكَ مخطوطةٌ واحدةٌ جمعَ فيها النبيُّ بنفسهِ الوحيَ بأكمله، مع ذلك، هنالكَ تقاليدٌ تصفُ كيفَ أنَّ النبيَّ قامَ بإملاءِ هذا الجزءِ منَ القرآنِ أو ذاكَ على كتّابهِ.

الجمعُ تحتَ إشرافِ أبي بكر:

منذُ هذهِ اللحظة تبدو الرّوايةُ التقليديّةُ أكثرَ وأكثرَ تعقيداً، في الحقيقةِ لا يوجدُ تقليدٌ واحد، بل تقاليدُ عديدةٌ غيرُ منسجمة، طبقاً لأحدِ التقاليد، حدثَ خلالَ خلافةِ أبي بكرَ القصيرة (634-632 بعدَ الميلاد) أنَّ قلقَ عمر، الذي كانَ لهُ هوَ نفسهُ أن يخلفَ أبا بكرٍ في عام 634، من حقيقةِ أنَّ العديدَ منَ المسلمينَ الذينَ كانوا يحفظونَ القرآنَ غيباً قد قُتِلوا في معركةِ اليمامة في وسطِ الجزيرةِ العربيّة. كانَ هنالكَ خطرٌ حقيقيٌّ من أنَّ أجزاءً منَ القرآنِ ستضيعُ إلى الأبد إن لم يُجمَعَ القرآنُ قبلَ أن يُقتلَ المزيدُ ممّن يحفظُ هذا الجزءَ من القرآنِ أو ذاك، أعطى أبو بكرٍ الإذنَ لاحقاً لمثلِ هذا المشروع، وطلبَ من زيدِ بنِ ثابت، كاتبِ النبيِّ الأسبق، أن يقومَ بهذهِ المهمّةِ المهولة، فباشرَ زيدٌ في جمعِ القرآنِ من «قطعِ البرديّ، والحجارةِ المسطَّحة، وسعفِ النخيل، وألواحِ كتفِ الحيواناتِ وأضلاعها، وقطعِ الجلدِ وألواحِ الخشب، بالإضافةِ إلى جمعِ ما يحفظهُ الرِّجالُ عن ظهرِ قلب»، ثمَّ أنَّ زيداً نسخَ ما جمعهُ على رقائقَ أو أوراقٍ نباتيّة (صُحوف)، وما إن اكتملَ حتّى سُلّمَ القرآنُ إلى أبي بكر، ومن بعدِ وفاتهِ إلى عمر، ومن بعدِ وفاتهِ انتقلَ إلى ابنةِ عمر حفصة.

إلّا أنَّ هنالكَ أشكالاً أخرى لهذا التقليد، يقترحُ بعضها أنَّ أبا بكرٍ كانَ صاحبَ فكرةِ الجمع، وفي أشكالٍ أخرى يُعزى الفضلُ لعليٍّ، رابعِ الخلفاء ومؤسّسِ الشّيعة، كما تستبعدُ أشكالٌ أخرى للتقليد أبا بكرٍ تماماً، بالإضافةِ إلى ذلك، تُطرحُ للنّقاشِ فكرةُ أنَّ مهمَّةً عسيرةً مثلَ هذه لا يمكنُ تنفيذها في غضونِ عامين. من غيرِ المحتملِ أنَّ من ماتَ في معركةِ اليمامة، وهم من حديثي العهدِ بالإسلام، كانوا يحفظونَ أيَّ قدرٍ منَ القرآنِ عن ظهرِ قلب، إلّا أنّهُ ما يعدُّ أهمَّ نقطةٍ تؤدّي إلى رفضنا تقليدَ جمعِ القرآنِ لأوّلِ مرّةٍ بإشرافِ أبي بكر هوَ أنّهُ ما إن تمَّ الجمعُ حتّى عُدَّ مُلكاً خاصّاً بحفصة، لا نصّاً مقدّساً مرجعيّاً رسميّاً. بكلماتٍ أخرى، نجدُ أنّهُ لا تُمنحُ أيُّ مرجعيّةٍ لقرآنِ أبي بكر. لقد اقتُرحَ أنَّ القصّةَ

بأسرها اختُلِقَت لانتزاعِ فضلِ الجمعِ الرَّسميِّ الأوّلِ للقرآن من عثمان الخليفةِ الثّالث، الذي كانَ مبغوضاً للغاية. اقترحَ آخرونَ أنّها اختُلِقَت «لإعادةِ تاريخِ جمعِ القرآنِ على فترةٍ هيَ أقربُ ما تكونُ لوفاةِ محمّد.

الجمعُ تحتَ إشرافِ عثمان:

طبقاً للتقليد، نُفِّذت الخطوةُ التّاليةُ تحتَ إشرافِ عثمان (656-644)، طلبَ أحدُ قادةِ عثمانَ منَ الخليفةِ أن يُقدِمَ على خطوةٍ كهذه لأنَّ خلافاتٍ عميقةً نشأت بينَ أجنادِ جيشِهِ القادمينَ من أمصارٍ مختلفة بخصوصِ القراءةِ الصحيحةِ للقرآن. اختارَ عثمانُ زيدَ بنَ ثابت لتهيئةِ النصِّ الرَّسميّ، فقامَ زيدٌ، بمساعدةِ ثلاثةِ أعضاءٍ من عوائلِ مكّةَ الشَّريفة، بتنقيحِ القرآنِ بعنايةٍ من خلالِ مقارنةِ نسختِهِ هوَ بالصُّحفِ التي في حوزةِ حفصة، ابنةِ عمر، أمّا في حالةِ وجودِ صعوبةٍ في القراءة، فقد كانَ زيدٌ يتبعُ لهجةَ قريش، قبيلةِ النبيّ، كما كانَ قد وُجِّه، أُرسِلَت نسخُ الصِّيغةِ الجديدةِ، التي منَ المفترضِ أن تكونَ قد أُكمِلَت بينَ عامي 650 و656 عامَ وفاةِ عثمان، إلى الكوفةِ والبصرةِ ودمشق وربّما مكّة، وأُبقِيَت واحدةٌ في المدينةِ بالطّبع، وأُمِرَ بإتلافِ الصِّيغِ الأخرى.

إنَّ صيغةَ سردِ الحوادثِ هذه مفتوحةُ البابِ للنَّقدِ أيضاً، فاللُّغةُ العربيّةُ التي كُتِبَ بها القرآنُ ليست بلهجة، ويختلفُ عددُ الأفرادِ الذينَ عملوا كأعضاءٍ في اللجنةِ برفقةِ زيد في بعضِ الرِّوايات، وبعضها يضمُّ أسماءً لأشخاصٍ كانوا أعداءً لعثمان، واسمَ شخصٍ منَ المعروفِ أنّهُ قد ماتَ قبلَ هذهِ الأحداث! إنَّ الوجهَ الثّاني منَ القصّةِ هذه، لا يذكرُ مشاركةَ زيدٍ في جمعِ القرآنِ الذي ناقشناهُ في الوجهِ الأوّل.

إن غضضنا النظرَ عن وانسبرو wansbrough وتلاميذه، الذينَ سنتطرّقُ إلى عملهم بعدَ حين، يبدو أنَّ معظمَ العلماءِ المختصّينَ المعاصرين موافقونَ على أنَّ تأسيسَ نصِّ القرآنَ تمَّ بإشرافِ عثمانَ بينَ عامي 650 و656 بالرَّغمِ من كلِّ الانتقاداتِ المذكورةِ أعلاه. إنّهم يقبلونَ بشكلٍ أو بآخر الرِّوايةَ التقليديّةَ للاجمعِ العثماني،» كما يبدو لي، من دونِ إعطاءِ سببٍ قويٍ واحدٍ لقبولِ التقليدِ الثّاني هذا، ونبذِ التقليدِ الأوّل الذي يتحدّثُ عن الجمعِ تحتَ إشرافِ أبي بكر. إنَّ هنالكَ فجوةً واسعةً في طروحاتهم، هذا أو أنّهم لا

يطرحونَ أيَّ قضيّةٍ للنقاشِ على الإطلاق. على سبيلِ المثال بعدَ أن يُعدِّدَ تشارلز آدمز الصعوباتِ التي يواجهها المرءُ مع روايةِ الجمعِ العثماني، يستنتجُ فجأةً وبابتعادٍ مذهلٍ عن المنطقِ أنّهُ: «بالرّغمِ من مشاكلِ الرّوايةِ التقليديّة، لا يمكنُ مناقشةُ أهميّةِ النصِّ المرجعيِّ الذي أُعِدَّ بإشرافِ عثمان،» بالرّغمِ من أنّهُ لم يُثبَت لحدِّ الآن أنَّ القرآنَ كما نعرفهُ قد أُعِدَّ بإشرافٍ من عثمان، لقد افتُرِضَ ببساطةٍ منذُ القدم أنَّ القرآنَ قد اتّخذَ شكلهُ النهائيَّ على يدِ عثمان، وأنَّ كلَّ ما علينا هوَ تفسيرُ معضلاتِ ذلك. والحقيقةُ هيَ أنّنا نستطيعُ أن نُسخِّرَ نفسَ الحُججِ التي استخدمناها في إبطالِ قصّةِ جمعِ أبي بكر وذلكَ لإبطالِ قصّةِ الجمعِ العثماني؛ أي أنَّ بإمكاننا أن نقولَ بأنَّ قصّةَ عثمانَ قد اختُرِعَت من قبلِ أعداءِ أبي بكرٍ وأصحابِ عثمان، من الإمكانِ القولُ بأنَّ الجدليّاتِ السياسيّةَ قد لعبت دوراً في اختراعِ هذهِ القصّةِ الأخيرةِ أيضاً، كما أنَّ القصّةَ عن عثمانَ تتركُ أسئلةً مربكةً كثيرة من غيرِ إجابة. ما كانت تلكَ الصُّحفُ التي في حوزةِ حفصة، وإن كانت صيغة أبي بكرٍ مزيّفةً فمن أينَ أتت بها حفصة، وما هيَ هذهِ الصِّيَغُ التي كانت تطوفُ في الأمصارِ كما يبدو، متى اكتملَ جمعُ هذهِ النصوص، ومن قبلِ من، أيمكنُ حقّاً أن تكونَ لنا الخيرةُ فنختارُ، بإرادتنا من بينِ الأشكالِ المختلفة، ومن بينِ التقاليدِ المتضاربة؟ ليسَ لدينا سببٌ مقنعٌ لقبولِ قصّةِ الجمعِ العثمانيِّ بدلاً من قصّةِ جمعِ أبي بكر، فعلى أيِّ حال كلتا القصّتينِ مستقاتانِ من مصادرَ واحدة، كلُّها متأخرةٌ بشكلٍ كبير، ومتحيّزةٌ لدرجةِ التعصّب، وكلُّها تلفيقاتٌ متأخرةٌ كما سنرى لاحقاً.

إلّا أنّني أواجهُ بمعضلاتٍ أوّليّةٍ بشكلٍ أعمقَ إن أردتُ قبولَ أيٍّ من هذهِ الرّواياتِ الرّسميّة، تلكَ المعضلاتُ تتعلّقُ بقيمتها الاعتباريّة. عندَ الإصغاءِ إلى هذهِ الرّوايات، تثورُ في إحساسي اعتراضاتٌ لا يبدو أنَّ أحداً قد طرحها من قبل، أوّلاً: إنَّ كلَّ هذهِ القصصِ تلقي بعبءٍ هائلٍ على ذكرياتِ المسلمينَ الأوائل، لقد اضطرَّ الفقهاءُ حقّاً إلى تضخيمِ حجمِ الذاكرةِ الخصبةِ التي يمتازُ بها العرب. لم يكن بإمكانِ محمّدٍ أن يقرأَ أو أن يكتبَ طبقاً لبعضِ التقاليد، لذلكَ يعتمدُ كلُّ شيءٍ على حفظهِ التّامِّ لما قد أوحى اللهُ بهِ لهُ من خلالِ ملائكته، إنَّ بعضَ القصصِ في القرآن طويلةٌ للغاية، على سبيلِ المثال، تستحوذُ قصّةُ يوسفَ على سورةٍ كاملةٍ من مائةٍ واحدى عشرةَ آية، أعلينا أن نعتقدَ بأنَّ محمّداً قد

تذكّرها كما أوحيت لهُ بالضبط، بشكلٍ مشابه، يقالُ أنَّ صحابةَ النبيِّ قد حفظوا الكثيرَ ممّا أُوحِيَ إليه، ألا يمكنُ لذاكرتهم أن تخونهم؟ إنَّ من عادةِ التقاليدِ الشفهيّةِ أن تتغيّرَ على مرِّ الزّمن، فلا يمكنُ الاعتمادُ عليها لتشكيلِ تاريخٍ موثوقٍ بهِ وعلميّ، يبدو أنّنا نفترضُ بأنَّ صحابةَ النبيِّ قد سمعوهُ وفهموهُ بشكلٍ تامّ.

صيغٌ مختلفة، آياتٌ ناقصة، آياتٌ مضافة:

يرى المسلمونَ، بلا استثناء، أنَّ القرآنَ الذي بحوزتنا يُعزى في نصِّهِ وعددِ سورهِ وترتيبها إلى عملِ الهيئةِ التي عيّنها عثمان، يخبرنا التقليدُ الإسلاميُّ أيضاً أنَّ قرآنَ عثمان يحتوي على كلِّ الوحي الذي تسلّمهُ المجتمعُ الإسلاميُّ محفوظاً بإخلاصٍ ودونَ أيِّ اختلافٍ من أيِّ نوع، وأنَّ قبولَ القرآنِ العثمانيِّ يكادُ أن يكونَ عالميّاً منذُ لحظةِ توزيعه. إنَّ الموقفَ الإسلاميَّ التقليديَّ تحرّكهُ عواملُ عقائديّةٌ ولا يمكنُ إسنادهُ بدليلٍ تاريخيّ.

يقولُ تشارلز آدمز: «بينما يلتزمُ أكثرُ المسلمينَ المعاصرينَ بموقفٍ محافظٍ لا يلين، إلّا أنَّ العلماءَ المسلمينَ في سنواتِ الإسلامِ المبكرة كانوا أكثرَ مرونةً بكثير، فقد كانوا مدركينَ بأنَّ أجزاءً منَ القرآنِ قد فُقِدَت أو حُرِّفَت، وأنَّ هنالكَ آلافَ الصِّيغِ بحيثُ يصبحُ من غيرِ الممكنِ التحدُّثُ عن «القرآن.» على سبيلِ المثال يقتبسُ السيوطي (ت 1505)، أحدُ أشهرِ مفسِّري القرآن وأكثرهم احتراماً، قولَ عمرَ بنِ الخطّاب-كذا- (الصَّوابُ ابنُ عمر): «ليقولنَّ أحدكم قد أخذتُ القرآنَ كلّهُ وما يدريهِ ما كلّهُ قد ذهبَ قرآنٌ كثير، ولكن ليقل قد أخذتُ منهُ ما ظهر» (السيوطي، الإتقانُ في علومِ القرآن، ج3، ص72)). قالت عائشة زوجُ محمّدٍ المفضّلة، طبقاً للتقليدِ الذي رواهُ السيوطيُّ أيضاً: «كانت سورةُ الأحزابِ تُقرأُ في زمنِ النبيِّ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم مائتي آية، فلمّا كتبَ عثمانُ المصاحفَ لم نُقدِّر منها إلّا ما هوَ الآن»

يذكرُ السيوطيُّ أيضاً هذهِ القصّةَ عن أُبيِّ بنِ كعب أحدُ أهمِّ أصحابِ محمّد: سألَ هذا الصَّحابيُّ الشَّهيرُ واحداً منَ المسلمين: «أينَ تعدُّ سورةَ الأحزاب؟ قلت: اثنتينِ وسبعينَ آيةً أو ثلاثةً وسبعينَ آية، قال: إن كانت لتعدلَ سورةَ البقرة، وإن كنّا لنقرأُ فيها آيةَ الرَّجم. قلت: وما آيةُ الرَّجمِ، قال: إذا زنا الشَّيخُ والشَّيخةُ فارجموهما البتّةَ نِكالاً منَ

اللهِ واللهُ عزيزٌ حكيم»، كما لوحظَ سابقاً، وبما أنّهُ لم توجد وثيقةٌ واحدةٌ تضمُّ الوحيَ كلَّه، فقد حاولَ العديدُ من أتباعِ محمّدٍ بعدَ وفاتهِ في عام 632 بعدَ الميلاد أن يجمعوا كلَّ ما يعرفونهُ منَ الآياتِ الموحى بها ويدونونها بشكلِ كتابٍ مخطوط، وسرعانَ ما أصبحَ لدينا مخطوطاتٌ لفقهاءِ عدّة كابنِ مسعود وأُبيّ بنِ كعب وعليّ وأبي بكر والأسود وآخرون (ذكرَ جفري في الفصلِ السّادسِ من كتابهِ خمسَ عشرةَ مخطوطةً أوّليّة، والعديدَ منَ المخطوطاتِ الثّانويّة)، بانتشارِ الإسلام، أصبحَ لدينا نتيجةً لذلك، الذي يعرفُ بمخطوطاتِ عواصمِ الأمصارِ في مراكزَ كمكّةَ والمدينةِ ودمشقَ والكوفة والبصرة كما رأينا سابقاً، «حاولَ عثمانُ أن يجلبَ النِّظامَ لهذا الموقفِ الفوضويّ من خلالِ استحداثِ مرجعيّةِ المخطوطةِ المدنيّةِ التي تمَّ إرسالُ نُسخٍ منها إلى عواصمِ الأمصارِ كلّها، مع أوامرَ بإتلافِ جميعِ المخطوطاتِ الأخرى.

كانَ منَ المفترضِ بمخطوطةِ عثمانَ أن تكونَ مرجعاً للنصِّ المكتوبِ بحروفٍ ساكنة، إلّا أنّنا نجدُ أنَّ العديدَ منَ التقاليدِ المختلفةِ لهذا النصِّ المكتوبِ بالحروفِ السّاكنة قد عاشت لتصلَ إلى القرنِ الرّابعِ الهجري، ما زادَ في المعضلةِ حقيقةُ أنَّ النصَّ المكتوبَ بحروفٍ ساكنة كانَ غيرَ منقّط؛ بمعنى أنَّ النقطَ الضروريّةَ لتمييزِ حرفِ «ب» عن «ت» وعن «ث» كانت غيرَ موجودة، وكانت أحرفٌ عديدةٌ أخرى (حرفا «ف» و «ق.» وحروف «ج» و «ح» و «خ» وحرفا «ص» و «ض»، وحرفا «ر» و «ز»، وحرفا «س» و «ش»، وحرفا «ظ» و «ط») لا يمكنُ التمييزُ بينها؛ بمعنى أنَّ القرآنَ كانَ مكتوباً بنمطِ كتابةٍ فيهِ إشكال scripta defective. كنتيجةٍ لذلك، كانَ منَ الممكنِ وجودُ قراءاتٍ مختلفةٍ طبقاً للطريقةِ التي يُنقَّطُ بها النصّ.

إنَّ أحرفَ العلّةِ تمثّلُ مشكلةً أسوأ، في الأصل، لم يكن لدى العربِ إشاراتٌ تمثّلُ أصواتَ العلّةِ القصيرة، فالخطُّ العربيُّ مكوّنٌ من أحرفٍ صحيحة، وبالرَّغمِ من أنَّ أصواتَ العلّةِ القصيرةَ منَ الممكنِ حذفها، إلّا أنَّ منَ الممكنِ تمثيلها أيضاً من خلالِ إشاراتٍ إملائيّةٍ توضعُ فوقَ الحروفِ أو تحتها، وعددها ثلاثُ إشارات، تتّخذُ شكلَ خطٍّ قصيرٍ مائلٍ قليلاً أو شكلَ فارزة. بعدَ تثبيتهم لأحرفِ العلّة، كانَ ما يزالُ أمامَ المسلمينَ أن يقرّروا أيَّ أحرفِ علّةٍ سيضيفونها، وأدّى استخدامُ أصواتِ علّةٍ مختلفة بالتأكيدِ إلى

قراءاتٍ مختلفة، لم يتمَّ إتقانُ نمطِ كتابةٍ جليٍّ يكوِّنُ نصّاً مبيّناً لأصواتِ العلَّةِ ومنقّطاً بشكلٍ كامل إلّا مع حلولِ القرنِ التّاسعِ الميلادي.

أدّت المشاكلُ المتعلّقةُ بأسلوبِ الكتابةِ ذي الإشكال بشكلٍ حتميٍّ إلى ظهورِ مراكزَ عديدةٍ ذاتِ تقاليدَ مختلفةٍ بخصوصِ كيفيّةِ تنقيطِ النصِّ وقراءةِ حروفِ علّته، بالرَّغمِ من أمرِ عثمانَ بإتلافِ كلِّ النصوصِ الأخرى عدا نصِّهِ، إلّا أنَّ منَ الواضحِ أنَّ الصِّيَغَ القديمةَ قد بقيت. كما يقولُ تشارلز آدمز: «يجبُ التأكيدُ على أنّهُ بدلاً من وجودِ نصٍّ واحدٍ تداولهُ النّاسُ دونَ تحويرٍ منذُ أيّامِ هيئةِ عثمان، فإنَّ آلافَ القراءاتِ المختلفةِ لآياتٍ معيّنةٍ كانت معروفةً في القرونِ الثلاثِ الهجريّةِ الأولى، وأقولُ هذا حرفيّاً، لقد أثّرت هذهِ الأشكالُ المختلفةُ بالمخطوطةِ العثمانيّةِ نفسها، جاعلةً منَ الصّعبِ معرفةَ ما هوَ الصحيحُ ممّا يمكنُ أن يكونَ صحيحاً.»

فضّلَ بعضُ المسلمينَ مخطوطاتٍ أخرى غيرَ المخطوطةِ العثمانيّة، كأن تكونَ مخطوطةَ ابنِ مسعود، أو أُبيَّ بنِ كعب أو أبي موسى، في النهاية، وتحتَ تأثيرِ العالمِ القرآنيِّ الكبيرِ ابنِ مجاهد (ت935)، تمَّ تثبيتُ شكلٍ مرجعيٍّ لنظامٍ واحدٍ منَ الأحرفِ الصحيحة، كما وُضِعَ حدٌّ للتنوّعاتِ في لفظِ أحرفِ العلَّةِ المُستَخدمةِ في النصّ، ممّا أدّى إلى قبولِ سبعِ قراءات، إلّا أنَّ عالماً آخرَ قَبِلَ عشرةَ قراءات، وقَبِلَ آخرونَ أربعَ عشرةَ قراءة، بل أنَّ قراءاتِ ابنِ مجاهدٍ السَّبعةَ نفسها قدّمت أربعَ عشرةَ إمكانيّة، بما أنَّ كلَّ واحدةٍ منَ السَّبعةِ كانت تؤخذُ عن راويَينِ مختلفين، وهكذا أصبحَ لدينا:

1- قراءتا ورش وقالون عن نافعِ المدنيّ
2- قراءتا البزّي وقُنبَل عن ابن كثير المدنيّ
3- قراءتا هشام وابنِ ذكوان عن ابنِ عامرِ الدمشقيّ
4- قراءتا الدرّيّ والسوسيّ عن أبي عمروٍ البصريّ
5- قراءتا حفصٍ وأبي بكرٍ عن عاصمِ الكوفيّ
6- قراءتا خلفٍ وخلدٍ عن حمزةَ الكوفيّ

7-قراءتا الدرّيّ وأبي الحارث عن الكسائيّ الكوفيّ

في النهاية سادت ثلاثُ قراءاتٍ هيَ قراءةُ ورش (ت 812) عن نافعٍ المدنيّ، وقراءةُ حفص (ت805) عن عاصمٍ الكوفيّ، وقراءةَ الدّرّيّ (ت860) عن عمروٍ البصريّ. يبدو أنَّ صيغتينِ من هذهِ الصّيغ تُستخدمُ في الإسلامِ الحديث: تلكَ التي لحفصٍ عن عاصمٍ الكوفي، والتي أُعطِيَت نوعاً منَ الرّسميّةِ من خلالِ تبنّيها في النسخةِ المصريّةِ منَ القرآن في عام 1924، وتلكَ التي لورشٍ عن نافع، والمستخدمةِ في أجزاءٍ من إفريقيا لا تشملُ مصر.

كما يذكّرنا تشارلز آدمز: منَ المهمِّ نوعاً ما استدعاءُ الانتباهِ إلى مصدرٍ محتملٍ لسوءِ الفهمِ بشأنِ الصّيغِ المختلفةِ منَ القرآن، إنَّ ال(صيغ) السّبعة تُشير إلى نصوصٍ مكتوبةٍ وشفهيّةٍ حقيقيّة، إلى صيغٍ متمايزةٍ منَ الآياتِ القرآنيّة، والتي برغمِ أنَّ اختلافاتها قد لا تكونُ كبيرة، إلّا أنّها جوهريّةٌ برغمِ ذلك، وذلكَ لأنَّ وجودَ قراءاتٍ مختلفةٍ للقرآنِ بحدِّ عينه مضادٌّ للموقفِ العقائديِّ تجاهَ الكتابِ المقدّسِ الإسلاميِّ الذي يفقههُ العديدُ منَ المسلمينَ المعاصرين، إنَّ من غيرِ النّادرِ أن تسمعَ في سياقِ أدبيّاتِ الدّفاعِ عن الإسلام أنَّ ال(صيغ) السّبعةَ هيَ أشكالُ تلاوة، والحقيقةُ هيَ أنَّ طريقةَ وأسلوبَ التلاوةِ هوَ مسألةٌ مختلفةٌ تماماً. يشيرُ كليوم أيضاً إلى الاختلافاتِ بينَ الصّيغِ إلى أنّها «ليست تافهةً من حيثُ القيمةِ دوماً.» على سبيلِ المثال، تقولُ آخرُ آيتين في سورةِ البروج: (21) فهُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ (22) فِي لَوْحٍ مَحْفُوظ، إنَّ المقطعَ الأخيرَ (ظ) مشكوكٌ فيه، فلو أنَّ (محفوظ) كانت مجرورة (ظٍ)، فإنَّ الآيةَ ستعني أنَّ القرآنَ المجيدَ «موجودٌ» في لوحٍ «صفته» محفوظ، وفي هذا إشارةٌ إلى عقيدةِ المسلمينَ المتعلّقةِ باللّوحِ المحفوظ، أمّا إن كانت (محفوظ) مرفوعةً (ظٌ) سيكونُ لدينا أنّهُ قرآنٌ مجيدٌ محفوظٌ في لوح. هنالكَ عباراتٌ أخرى بمشاكلَ مشابهة تتعلّقُ بالتشريعاتِ الاجتماعيّة.

إن وافقنا على أنَّ هنالكَ حذفاً فلم لا تكون هنالكَ إضافة؟ إنَّ التشكيكَ في أصالةِ العديدِ منَ الآياتِ في القرآن مسألةٌ قد طُرِحَت من قبلِ المسلمينَ أنفسهم، لقد وجدَ العديدُ منَ الخوارجِ، الذينَ كانوا من أتباعِ عليٍّ في فجرِ تاريخِ الإسلام، أنَّ السُّورةَ التي تروي قصّةَ يوسفَ مهينة، وأنّها قصّةٌ غراميّةٌ لا تنتمي إلى القرآن. يشكُّ هرشفيلد في أصالةِ الآياتِ التي يظهرُ فيها اسمُ محمّد، فهنالكَ أمرٌ مثيرٌ للشّكِّ نوعاً ما في مثلِ هذا الاسمِ الذي يعني

كثيرَ الحمد، والذي يحملهُ النبيّ، إنَّ الاسمَ لم يكن اسماً شائعاً بالتأكيد، إلّا أنَّ اسمَ النبيِّ يظهرُ في وثائقَ تمَّ الاعترافُ بأصالتها، كميثاقِ المدينة.

يعتقدُ معظمُ الباحثينَ بأنَّ هنالكَ مواداً مقحمةً في القرآن، يمكنُ أن تُعدَّ هذهِ الموادُ المقحمةُ حواشٍ على كلماتٍ نادرةٍ معيّنة بحاجةٍ إلى تفسير، أمّا الموادُ المقحمةُ الأشدُّ خطورةً فهيَ تلكَ التي لها صفةٌ عقائديّةٌ أو سياسيّة، والتي يبدو أنّها أضيفت لتبريرِ ترفيعِ عثمانَ إلى منصبِ الخلافةِ على حسابِ عليّ. هنالكَ أيضاً آياتٌ قد أضيفت رغبةً في الحصولِ على سجعة، أو لربطِ فقرتينِ قصيرتين لا ترابطَ بينهما.

يمرُّ بل وواط Bell and Watt بعنايةٍ عبرَ العديدِ منَ التعديلاتِ والتنقيحات، ويشيرانِ إلى عدمِ تطابقِ أسلوبِ القرآن، كدليلٍ على حدوثِ الكثيرِ والكثيرِ منَ التغييراتِ في القرآن: هنالكَ منَ الطّابعِ الخامِ للعملِ الشيءُ الكثير، وهذا كما يُدّعى، دليلٌ أساسيٌّ على التنقيح، بالإضافةِ إلى النقاطِ المشارِ إليها أعلاه-السَّجعاتُ المخفيّةُ، وعباراتُ السَّجعِ غيرُ الدّاخلةِ في نسيجِ الفقرة-هنالكَ التغييراتُ المفاجئةُ التّالية في السَّجع : تكرارُ نفسِ كلمةِ السَّجعِ أو العبارةِ المسجوعةِ لربطِ آيتين، إقحامُ موضوعٍ خارجيٍّ في فقرةٍ تبدو متناسقةً دونه، معاملةٌ مختلفةٌ لنفسِ الموضوعِ في آيتينِ متجاورتينِ مع تكرارِ الكلماتِ والعبارات، انقطاعٌ في التركيبِ النحويِّ ممّا يرفعُ من درجةِ إشكالِ التفسير، تغيّرٌ مفاجئٌ في طولِ الآية، تغيّرٌ مفاجئٌ في الموقفِ الدراميّ مع تغيّرٍ في الضمائرِ من مفردٍ إلى جمع، ومنَ المخاطبِ إلى الغائب، وهكذا، تجاورُ عبارتينِ تبدوانِ متناقضتين، تجاورُ فقرتينِ من تاريخٍ مختلف مع إقحامِ عبارةٍ fare لآياتٍ مبكرة. في الكثيرِ منَ الحالات يكونُ للعباراتِ تكملاتٌ تتبعُ بعضها في النصِّ نفسه. النوعُ الثّاني منَ التبديلاتِ يمتازُ بانفصامٍ عن المعنى وانفصامٍ في البناءِ النحوي، بما أنَّ الارتباطَ لا يكونُ مع ما يتبعُ منَ الكلامِ مباشرةً، بل مع ما يكونُ على بعدِ بضعةِ كلماتٍ قبلَ ذلك. لقد انتقدَ الكنديُّ المسيحيّ (لا يجبُ الخلطُ بينهُ وبينَ الفيلسوفِ العربيِّ المسلم) الذي كانَ يكتبُ حوالي العام 830 بعدَ الميلاد، القرآنَ بطريقةٍ مشابهة. إنَّ نتيجةَ كلِّ هذا (العمليّةِ التي ظهرَ بواسطتها القرآن) متروكةٌ لكَ يا من تقرأُ النصوصَ القرآنيّةَ المقدّسة وترى كيفَ أنَّ التواريخَ تتقافزُ فيما بينها في كتابكَ وتتمازج، وهذا دليلٌ على أنَّ أيادٍ عديدةً قد عملت عليه، وتسبّبت في حصولِ تعارضات، من خلالِ

إضافتهم ما كانوا يرغبونَ في إضافتِهِ، واقتطاعِ ما كانوا لا يرغبونَ فيه، أهكذا حالُ وحيٍ نزلَ منَ السَّماء؟

الشَّكُّ في المصادر:

إنَّ الرِّواياتِ التقليديّةَ عن حياةِ محمّدٍ وقصّةَ مبدأِ الإسلامِ ونشوئه، ومن ضمنها تأليفُ القرآنِ وجمعه، معتمدةٌ كليّاً على مصادرَ إسلاميّة، وبالأخصِّ على سيرٍ إسلاميّةٍ عن محمّد، وعلى الحديث، بما معناهُ التقليدُ الإسلاميّ.

تُوفِّيَ النبيُّ محمّد عام 632 بعدَ الميلاد، إنَّ أقدمَ مؤلَّفٍ بحوزتنا يذكرُ قصَّةَ حياتِهِ قد كُتِبَ من قبلِ ابنِ إسحاق عام 750 للميلاد؛ بمعنىً آخر، بعدَ مائةٍ وعشرينَ عاماً من وفاةِ محمّد، إنَّ مسألةَ الأصالةِ تصبحُ أكثرَ دقّة، لأنَّ الصِّيغةَ الأصليّةَ لعملِ ابنِ إسحاق قد فُقِدَت وهيَ متوفرةٌ جزئيّاً في إعادةِ كتابةٍ على يدِ ابن هشام المتوفّى عام 834 للميلاد؛ أي بعدَ مائتي عامٍ من وفاةِ النبيّ.

إنَّ الحديثَ هوَ مجموعةٌ منَ الأقوالِ والأفعالِ المنسوبةِ إلى النبيّ، وهيَ تُسنَدُ عبرَ سلسلةٍ منَ الشَّاهدينَ الثِّقات (أيُّ سلسلةٌ معيّنةٌ منَ الناقلينَ إسناداً)، تتضمَّنُ هذهِ الأحاديثُ قصَّةَ «إنزالِ» القرآنِ على أجزاء، وأقوالَ صحابةِ النبيّ. يقالُ أنَّ هنالكَ ستَّةَ مجموعاتٍ منَ السُّننِ المقبولةِ عندَ المسلمينَ السُّنّة، وهيَ بالاسمِ مجموعاتُ البخاريِّ ومسلم وابنِ ماجة وابنِ داودَ والترمذيِّ والنَّسائيّ. ثانيةً، نقولُ أنَّ منَ المهمِّ ملاحظةُ أنَّ جميعَ هذهِ المصادرِ متأخّرةٌ بالفعلِ جدّاً، لقد تُوفِّيَ البخاريُّ بعدَ وفاةِ النبيِّ بـ 238 عاماً، بينما تُوفِّيَ النَّسائيُّ بعدَ 280 عاماً من ذلك!.

إنَّ التقليدَ التَّاريخيَّ وذلكَ المتعلّقَ بسيرةِ محمّدٍ والأعوامِ الأولى للإسلام قد تمَّ إخضاعهُ لفحصٍ عميقٍ في نهايةِ القرنِ التَّاسعِ عشر، إلى ذلكَ الحين، كانَ المختصُّونَ من ذوي العنايةِ مدركينَ للعناصرِ الأسطوريّةِ والعقائديّةِ المُتَضَمَّنةِ في هذهِ التقاليد، وأنَّ هنالكَ تقاليدَ نشأت بدوافعَ حزبيّةٍ وابتغت «أن تُعطي مظهرَ أساسٍ تاريخيٍّ لمصالحَ معيّنةٍ لأفرادٍ محدّدينَ أو لعوائل»، إلّا أنّهُ كانَ منَ المعتقدِ أنَّ بعدَ شيءٍ منَ الغربلة ما يزالُ هناكَ ما يكفي ليمكّننا من تكوينِ خطوطٍ عامّةٍ لحياةِ محمّد تكونُ أكثرَ وضوحاً من تلكَ التي لأيِّ مؤسّسٍ آخرَ

لديانةٍ عالميّة.» لقد حطّمَ هذا التهيّؤُ كلاًّ من ويلهاوسن Wellhausen، وكايتاني Caetani، ولامنز Lammens الذينَ «استَدعَوا لمسائلةِ المعلومةِ تلوَ المعلومة من بينِ ما يقدّمهُ التقليدُ الإسلاميُّ من معلومات.»

قسّمَ ويلهاوسن التقاليدَ التّاريخيّةَ القديمةَ الموجودةَ في مؤلفاتِ القرنينِ التّاسعِ والعاشر إلى قسمين: الأوّل، تقليدٌ بدائيٌّ أصيل، قد تمَّ تدوينهُ بلا شكٍّ في نهايةِ القرنِ الثّامن، والثّاني، صيغةٌ مناظرةٌ تمَّ تزييفها عمداً لإبطالِ التقليدِ الأوّل. كانت الصِّيغةُ الثّانيةُ مليئةً بالتخيُّلاتِ المتحيّزة، ومنَ الممكنِ إيجادها في عملِ مؤرّخينَ من أمثالِ سيفِ بنِ عُمر (أنظر أعلاه)، يشكُّ الأميرُ كايتاني والأبُ لامنز حتّى في المعلوماتِ التي تمَّ قبولها هنا باعتبارها «موضوعيّة.» كانَ كاتبوا سيرةِ محمّد بعيدينَ كلَّ البعدِ عن عصره، فلا نتوقّعُ أن تكونَ بحوزتهم معلومةٌ صحيحةٌ أو انطباعاتٌ صحيحة، إنَّ المعلوماتِ مستندةٌ على تخيُّلاتٍ متحيّزة، بالإضافةِ إلى ذلك، لم يكن هدفهم معرفةَ هذهِ الأمورِ كما حدثت بالفعل، بل لعكسِ صورةٍ مثاليّةٍ للماضي، كما منَ الواجبِ أن تكون. «على قماشِ الآياتِ القرآنيّةِ الخالي منَ الزّينة، طرّزَ كُتّابُ التقاليدِ بشجاعةٍ فائقةٍ مشاهدَ تلائمُ رغباتِ ومثاليّاتِ جماعاتهم الخاصّة أو، إن رغبنا في استعمالِ تعبيرِ لامنز، ملئوا الفراغاتِ بعمليّةٍ منَ القولبةِ ممّا يسمحُ للمتفحِّصِ النّاقدِ بأن يتعرَّفَ على مصدرِ كلِّ صورة.»

بكلماتِ لويس، «لقد وصلَ لامنز بالأمرِ لحدِّ رفضهِ السيرةَ بأسرها باعتبارها ليست أكثرَ من تفاسيرَ ضمنيّةٍ ومتحيّزةٍ لفقراتٍ قليلةٍ في القرآن تحتوي شيئاً منَ السيرة، تمَّ ابتكارها وإحكامها من قِبَلِ الأجيالِ المؤمنةِ اللاّحقة.

لقد اضطرَّ حتّى المختصُّونَ الرّافضونَ لتشكيكِ كايتاني ولامنز للاعترافِ بـ«أنّنا نعرفُ القليلَ جدّاً عن حياةِ محمّدٍ قبلَ ظهورهِ كرسولٍ لله، أمّا إن قارنّا ذلكَ بحجمِ السيرةِ الأسطوريّةِ التي يحفظها لنا المؤمنون، فإنّنا لا نعرفُ شيئاً.»

إنَّ آراءَ كايتاني الإيجابيِّ ولامنز اليسوعيّ لم تُنسَ إطلاقاً، بل قد تسلّمتها مجموعةٌ منَ المختصّينَ السوفييت بالإسلاميّات، فتقدّموا بها لتكوينِ استنتاجاتٍ قصوى ولكن منطقيّة، بدورهم تناولَ آراءَ المختصّينَ السوفييت في عام 1970 كلٌّ من كوك Cook

وكرونه Crone وتلاميذٌ آخرونَ لوانسبرو Wansbrough.

ما قامَ بهِ كلٌّ من كايتاني ولامنز من أجلِ السيرةِ التّاريخيّة، قامَ بمثلِهِ كلٌّ من إكناس Ignas وغولدزيهر Goldziher من أجلِ دراسةِ الحديث. كانَ لكولدزيهر تأثيرٌ هائلٌ في مجالِ الدراساتِ الإسلاميّة، وليسَ منَ المبالغةِ القولُ بأنّهُ، برفقةِ هِركرنيج Huegronje ونولدِكه Noldeke، أحدُ الآباءِ المؤسِّسينَ لدراسةِ الإسلامِ الحديثة. إنَّ كلَّ ما قد كتبهُ بينَ عاميّ 1870 و1920 ما يزالُ يُدرَّسُ بمواظبةٍ في الجامعاتِ في أرجاءِ العالم. في بحثِهِ الكلاسيكيِّ «حولَ تطوّرِ الحديث،» بيّنَ كولدزيهر «أنَّ عدداً كبيراً منَ الأحاديثِ المقبولةِ حتّى في أكثرِ المجموعاتِ الإسلاميّةِ تدقيقاً هيَ أحاديثٌ مزوّرةٌ صيغت فيما بينَ نهايتيّ القرنينِ الثّامنِ والتّاسع، وأنّهُ نتيجةً لذلك، فإنَّ الأسانيدَ الدقيقةَ التي تدعمها خياليّةٌ محضة.

بعدَ مواجهتهم بطروحاتِ كولدزيهر الموثّقةِ بشكلٍ لا يقبلُ النقض، بدا الفزعُ يستولي على المؤرّخين، وبدأوا يستنبطونَ طرقاً لإبعادِ التشكيكِ عن طريقهم، كأن يقترحوا، على سبيلِ المثال، مميّزاتٍ تفصلُ ما بينَ السُننِ الشّرعيّةِ والتقاليدِ التّاريخيّة، إلّا أنّهُ، وكما يقولُ همفري Humprey، فإنَّ الحديثَ والتقاليدَ التّاريخيّةَ متشابهةٌ جدّاً، بالإضافةِ إلى ذلك، فإنَّ العديدَ من علماءِ القرنينِ الثّامنِ والتّاسعِ الميلاديين قد اشتغلوا على كلا النوعينِ منَ النصوص. « ختامُ الكلام أنّهُ إن كانَ هنالكَ شكٌّ في إسنادِ الحديث، كذلكَ يجبُ أن يُشكَّ في الإسنادِ المرتبطِ بالأخبارِ التّاريخيّة.»

كما يكتبُ كولدزيهر نفسه: «إنَّ التعرّفَ عن قربٍ على الحجمِ الهائلِ للأحاديثِ أمرٌ يثيرُ الارتياب،» ويعتبرُ أنَّ القسمَ الأعظمَ منَ الأحاديثِ هيَ «نتاجُ التطوُّرِ الدِّينيِّ والتّاريخيِّ والاجتماعيِّ للإسلام خلالَ القرنينِ الأوّلين»، إنَّ الحديثَ لا ينفعُ أن يكونَ قاعدةً لاستخراجِ تاريخٍ بطريقةٍ علميّة، ولا يفيدُ إلّا أن يكونَ «انعكاساً لميولِ» المجتمعِ الإسلاميِّ المبكر.

أحتاجُ هنا لإقحامِ استطرادٍ تاريخيّ، إن كنّا نشاءُ أن يكونَ لنا فهمٌ صحيحٌ لما يطرحهُ كولدزيهر. بعدَ وفاةِ النبيّ، خلفهُ أربعةٌ من أصحابِهِ كقادةٍ للمجتمعِ الإسلاميّ، كانَ آخرُ الأربعةِ هوَ عليُّ بنُ عمِّ النبيِّ وصهرهُ، لم يتمكّن عليٌّ من فرضِ سلطتِهِ على الشّامِ التي كانَ

معاويةُ والٍ عليها والذي تبنّى شعارَ «الثأرِ لعثمان» في حربِهِ ضدَّ علي (كانَ معاويةُ وعثمانُ منَ الأقارب، وينتسبانِ إلى بني أميّةَ المكيّين)، تلاقت القوّتانِ في معركةٍ غيرِ حاسمةٍ عندَ صفّين، بعدَ مقتلِ عليٍّ في عام 661، أصبحَ معاويةُ أوّلَ خليفةٍ بينَ خلفاءِ السلالةِ المعروفةِ بالأمويّين، والتي استمرّت حتّى عام 750 للميلاد. أُطِيحَ بالأمويّينَ على أيدي العبّاسيّينَ الذينَ دام حكمهم في العراق، وفي بغداد، حتّى القرنِ الثّالثَ عشر.

خلالَ السنواتِ الأولى لحكمِ الأسرةِ الأمويّة، كانَ العديدُ منَ المسلمينَ جاهلينَ تماماً بما يتعلّقُ بالطقوسِ والعقائدِ الدينيّة، كانَ لدى الحكّامِ أنفسهم حماسٌ دينيٌّ قليل، وكانوا يكرهونَ الأتقياءَ والمتقشّفينَ عادةً. كانت النتيجةُ هيَ نهوضَ مجموعةٍ منَ الرّجالِ الأتقياءِ الذينَ قاموا بلا حياءٍ باستحداثِ سُننٍ لأجلِ خيرِ المجتمع، ومن ثمَّ يقومونَ بنسبها إلى مرجعيّةِ النبيّ. لقد عارضوا الأمويّينَ الفَسَقَة، إلّا أنّهم لم يجرؤوا على إظهارِ ذلكَ علناً، لذلكَ قاموا باستنباطِ تقاليدَ أخرى مكرّسةٍ للثناءِ على آلِ النبيّ، وبذلكَ حالفوا بشكلٍ غيرِ مباشرٍ شيعةَ علي. بصياغةِ كولدزيهر : «لم تكن السُّلطةُ نفسها خاملة، فلو أنّها ترغبُ في أن يُعترفَ برأيٍ ما فيتمُّ إسكاتُ معارضةِ دائرةِ الأتقياء، فإنَّ عليها هيَ أيضاً أن تعرفَ كيفيّةَ اكتشافِ حديثٍ يلائمُ غرضها، لقد اضطرّوا إلى فِعلِ ما فعلهُ خصومهم، فيخترعونَ بدورهم أحاديث، وهذا بالفعلِ ما قد فعلوه.» ويستمرُّ كولدزيهر قائلاً: «إنَّ التأثيرَ الحكوميَّ على اختراعِ ونشرِ وكتمِ السُننِ قد بدأ مبكراً. يمثّلُ هذا الإيعازُ إلى المغيرةِ الوالي المطيعِ من قبلِ معاويةَ روحَ الأمويّين: «لا تملَّ من إهانةِ عليٍّ وشتمهِ والدعاءِ بالرّحمةِ لعثمان، وسبِّ أصحابِ عليّ، وإبعادهم والكفِّ عن سماعهم (أي إلى ما يذكرونهُ وينشرونهُ منَ الأحاديث)، مادحاً بالمقابلِ آلَ عثمان مقرّباً إيّاهم إليكَ ومصغياً لهم» إنَّ هذا تشجيعٌ رسميٌّ لتبنّي ظهورِ وانتشارِ الأحاديثِ الموجّهةِ ضدَّ عليّ ولكبحِ وكبتِ الأحاديثِ المفضّلةِ لعليّ. لم يتردّد الأمويّونَ وشيعتهم في نشرِ أكاذيبَ متحيّزةٍ بصيغةٍ دينيّةٍ مقدّسة، ولم يكن يهمّهم إلّا إيجادُ مرجعيّاتٍ تقيّةٍ مستعدّةٍ للتغطيةِ على مثلِ هذهِ الأكاذيبِ بمرجعيّتها غيرِ المشكوكِ فيها. لم يكن هنالكَ شحٌّ في مثلِ هذهِ المرجعيّات. كانت الأحاديثُ معرّضةً للاختلاقِ حتّى من أجلِ أتفهِ التفاصيلِ الطقسيّة، لقد تضمّنَ التحيُّزُ حتّى كبتَ مقولاتٍ مادحةٍ للسلالةِ المنافسةِ أو الحزبِ المنافس. تحتَ حكمِ العبّاسيّين، تضاعفَ وضعُ الأحاديثِ كثيراً،

بغرضٍ واضحٍ هوَ إثباتُ أنّهم أحقُّ بالسُّلطةِ منَ العلويّين. على سبيلِ المثال جُعِلَ الرسولُ يقول بأنَّ أبا طالب أبا عليٍّ يجلسُ في أعماقِ الجحيم: «لعلَّ شفاعتي تنفعهُ يومَ القيامةِ حتّى ينتقلَ إلى بركةٍ منَ النّارِ لا تصلُ إلّا إلى كاحليهِ ولكنّها لا تكفي للوصولِ إلى دماغه»، بالطّبع، قوبلَ هذا من قِبَلِ فقهاءِ العلويّينَ من خلالِ اختلاقِ تقاليدَ عديدةٍ تختصُّ بالثناءِ على أبي طالب، كلّها أقوالٌ للنبيّ. يوضّحُ كولدزيهر أنّهُ فيما بينَ الأحزابِ المعارضة: «كانَ الاستخدامُ المؤذي لتقاليدَ متحيّزةٍ في الحقيقة أكثرَ شيوعاً من ذلكَ الذي للحزبِ الحاكم.»

في النهاية، حصلَ القصّاصونَ على مكسبٍ لا بأسَ بهِ من خلالِ استعراضِ الأحاديثِ التي احتضنتها الجماهيرُ السّاذجةُ بتلهّف. لم يَرعوِ القصّاصونَ عن فعلِ شيءٍ لجذبِ الجموعِ لهم. «لقد هوى تداولُ الأحاديثِ إلى مستوى مهنةٍ يوميّة. لقد زادت الرَّحلاتُ (بحثاً عن الأحاديث) في جشعِ من نجحَ في الادّعاءِ بأنّهم مصدرٌ للأحاديث، ومع الزيادةِ في الطلب نشأت رغبةٌ أكبرُ فأكبر في طلبِ الدفعِ مقابلَ الأحاديثِ التي يتمُّ توفيرها.

كانَ العديدُ منَ المسلمين مدركينَ بالطّبعِ أنَّ الأحاديثَ الموضوعةَ تكثُر، ولكن، حتّى المجموعاتُ السِّتَّةُ الأصيلةُ للأحاديثِ التي ألّفها البخاريُّ وآخرون، لم تكن متشدّدةً كما كانَ يؤمل، كانَ لدى السِّتّةِ صفاتٌ مختلفةٌ يجبُ أن يمتازَ بها الحديثُ لتضمينهِ ليعدَّ صحيحاً أو مرفوضاً، كانَ البعضُ متحرّراً نوعاً ما في اختياراته، وكانَ البعضُ اعتباطيّينَ نوعاً ما، بالإضافةِ إلى ذلك، كانَ هنالكَ مشكلةُ أصالةِ النصوصِ التي كتبها هؤلاءِ الجامعون. على سبيلِ المثال، كانَ هنالكَ في مرحلةٍ ما اثنا عشرَ نصّاً مختلفاً لكتابِ البخاري، بجانبِ هذهِ الصِّيَغِ المتباينة، كانَ هنالكَ تحريفاتٌ متعمّدة. كما يحذّرنا كولدزيهر: «منَ الخطإِ الاعتقادُ بأنَّ السُّلطةَ المرجعيّةَ للاثنين (مجموعتا البخاري ومسلم) هيَ ناتجةٌ عن الصحّةِ التي لا نقاشَ فيها لمحتوياتها، وأنّها نتيجةٌ لتحرّياتٍ علميّة»، حتّى أنَّ ناقداً منَ القرنِ العاشر قد أشارَ إلى ضعفِ مائتي حديثٍ يتضمّنهما عملا مسلمٍ والبخاريّ.

عودةٌ إلى الجزءِ الأوّلِ منَ الموضوع

بعدَ مرورِ ستّينَ عاماً، تابعَ طروحاتِ كولدزيهر مختصٌّ عظيمٌ آخر بالإسلام هوَ جوزيف شاخت Joseph Schacht، الذي تعدُّ أعمالهُ عن الشّريعةِ الإسلاميّةِ أدبيّاتٍ

كلاسيكيّةً في مجالِ الدراساتِ الإسلاميّة، كانت استنتاجاتُ شاخت أكثرَ راديكاليّةً وتشويشاً للمعلومات، ولمّا تخفُت مضامينُ هذهِ الاستنتاجاتِ بعد.

يلخّصُ همفري أطروحةَ شاخت بما يلي: (1) أنَّ الإسنادَ الذي يمرُّ عبرَ سلسلةٍ منَ الناقلينَ وصولاً إلى النبيِّ لم يبدأ بالاستعمالِ إلّا حوالي الفترةِ التي قامت فيها الثّورةُ العبّاسيّة؛ أي في منتصفِ القرنِ الثّامن، (2) ممّا يثيرُ السُّخريةَ أنّهُ كلّما كانَ الإسنادُ أكثرَ إحكاماً وصحّةً كما يبدو، كانَ أكثرَ احتمالاً لأن يكونَ زائفاً. عموماً، اقترحَ شاخت أنّهُ: «لا حديثَ موجودٌ بالفعل يمكنُ نسبةُ بوثوقٍ إلى النبيّ، بالرّغمِ من أنَّ بعضَ هذهِ الأحاديثِ قد تستقي من تعاليمه، وبالرّغمِ من أنّهُ [أي شاخت] قد كرّسَ صفحاتٍ قليلةً لدراسةِ الأخبارِ التّاريخيّةِ عن فترةِ الخلافةِ المبكرة، إلّا أنّهُ أكّدَ بوضوحٍ على أنَّ نفسَ الضّوابطِ يجبُ أن تطبّقَ عليها.»

لقد دعمت طروحاتُ شاخت قائمةٌ بالغةُ الطولِ منَ المراجعِ لا يمكنُ غضُّ النظرِ عنها بسهولة. هذهِ هيَ الطريقةُ التي لخّصَ بها شاخت أطروحته: منَ المسلَّمِ بهِ عموماً أنَّ تقييمَ التقاليدِ الذي يمارسهُ الفقهاءُ المحمّديّون غيرُ كافٍ وأنّهُ، بغضِّ النّظرِ عن كمِّ الرّواياتِ المزوَّرةِ التي قد أُبعِدَت من خلاله، فإنَّ المجموعَ الكاملَ للرّواياتِ الكلاسيكيِّ نفسهُ يحتوي على سُننٍ لا يمكنُ أن تكونَ أصيلة. لقد فشلت كلُّ الجهودِ المبذولةِ لاستخلاصِ أساسٍ أصيلٍ من هذا الكمِّ المتناقضِ عادةً عن طريقِ «الحدسِ التّاريخيّ»....

لم يُبدِ كولدزيهر «تحفّظهُ المشبعَ بالشّكّ» فيما يتعلّقُ بالتقاليدِ الموجودةِ حتّى في المجاميعِ الكلاسيكيّةِ (أي مجاميعِ البخاريِّ ومسلم إلخ) فحسب، بل بيّنَ بوضوحٍ أنَّ الغالبيّةَ العُظمى منَ السُّننِ المأخوذةِ عن النبيِّ هيَ وثائقٌ لا تنتمي إلى الزّمنِ الذي يُدّعى أنّها تنتمي إليه، بل إلى المراحلِ المتلاحقةِ منَ التطوُّرِ في العقائد، خلالَ القرونِ الإسلاميّةِ الأولى. أصبحَ هذا الاكتشافُ العبقريُّ حجرَ أساسٍ لكلِّ التحرّياتِ الجادّة...

إنَّ هذا الكتابَ (أي كتابَ شاخت) سيؤكّدُ استنتاجاتِ كولدزيهر، بل ويذهبُ إلى ما هوَ أبعدُ ممّا ذهبتُ في المسائلِ التّالية: (1) لم يُتَداول الكثيرُ الكثيرُ منَ السُّننِ في المجاميعِ الكلاسيكيّةِ والمجاميعِ الأخرى، إلّا بعدَ زمنِ الشّافعيّ (كانَ الشّافعيُّ مؤسِّسَ المدرسةِ الفقهيّةِ المهمّةِ للغاية والتي تحملُ اسمهُ، وقد تُوفّيَ في عام 820 للميلاد)، (2) نشأت أوّلُ

كتلةٍ منَ السُنن النبويّةِ الشَّرعيّةِ في منتصفِ القرنِ الهجريِّ الثّاني (أي الثّامن للميلاد)، في مقابلِ تقاليدِ أقدمَ بقليلٍ مرويّةً عن صحابتِهِ وعن حججٍ آخرين، وفي مقابلِ التقليدِ الحيِّ للمدارسِ الشَّرعيّةِ القديمةِ أيضاً (3) لقد مرّت التقاليدُ الآتيةُ منَ الصَّحابةِ ومنَ المراجعِ الأخرى بعمليّةِ النموِّ نفسها، ويجبُ النَّظرُ إليها بنفسِ الضَّوءِ الذي يُنظرُ بهِ إلى السُننِ المرويّةِ عن النبيِّ (4) إنَّ دراسةَ الإسنادِ تظهرُ ميلاً للنموِّ بالاتجاهِ المعاكس، وللادّعاءِ بعدلٍ أكثرَ وأكثرَ تماماً حتّى يصلَ الإسنادُ إلى النبيِّ (5) إنَّ الدليلَ على صحّةِ السُننِ الشَّرعيّةِ لا يعيدنا إلّا إلى حوالي العام 100 للهجرة (أي 714 للميلاد)...يثبتُ شاخت على سبيلِ المثال أنَّ سُنّةً ما لم تكن موجودةً في وقتٍ معيّنٍ من خلالِ إظهارِ أنّها لم تكن مستخدمةً كحجّةٍ فقهيّةٍ في نقاشٍ كانَ ليجعلَ الإشارةَ إليها ضروريّة. بالنسبةِ لشاخت، يجبُ النَّظرُ إلى كلِّ روايةٍ شرعيّةٍ مأخوذةٍ عن النبيِّ على أنّها روايةٌ مزيّفةٌ وتعبيرٌ موضوعٌ عن عقيدةٍ فقهيّةٍ صيغت في زمنٍ لاحق: «سوفَ لن نجدَ أيَّ روايةٍ شرعيّةٍ مرويّةً عن النبيِّ يمكنُ أن تُعدَّ أصيلةً بشكلٍ مؤكّد.»

لقد صيغت السُننُ في إطارٍ جدليٍّ لغرضٍ دحضِ عقيدةٍ أو شعيرةٍ مخالفة، يسمّي شاخت هذهِ السُننَ «السُننَ المضادّة.» في مثلِ هذا الجوِّ الجدليِّ عادةً ما تنسبُ العقائدُ إلى مرجعيّاتٍ عليا: «أصبحت المرويّاتُ عن التّابعينَ مرويّاتٍ عن الصَّحابة، وأصبحت المرويّاتُ عن الصَّحابةِ مرويّاتٍ عن النبيِّ.» لقد تمَّ اختلاقُ تفاصيلٍ عن حياةِ النبيِّ لإسنادِ عقائدٍ شرعيّة.

ثمَّ أنَّ شاخت انتقدَ الإسنادَ الذي «عادةً ما كانَ يركَّبُ بإهمال. كانَ يمكنُ اختيارُ أيِّ ممثّلٍ نموذجيٍّ عن الجماعةِ التي تريدُ أن تنسبَ عقيدتها إلى مرجعيّةٍ قديمةٍ بعشوائيّةٍ وأن يوضعَ في السَّند، لذلكَ نجدُ عدداً منَ الأسماءِ البديلةِ في أسانيدَ كانت لتصبحَ متطابقةً لولا ذلك.»

«لقد بيّنَ (شاخت) أنَّ بداياتِ فقهِ الشَّريعةِ الإسلاميّةِ لا يمكنُ أن يرقى إلى ما هوَ أقربُ إلى وفاةِ النبيِّ من حوالي القرن.» لم يُستقَ فقهُ الشَّريعةِ الإسلاميّةِ منَ القرآنِ مباشرةً، بل تطوَّرَ عن ممارساتٍ شعبيّةٍ وإداريّةٍ وُجِدَت تحتَ ظلِّ الأمويّين، وهذهِ «الممارساتُ كانت مفترقةً عن نوايا القرآنِ بل وحتّى منطوقه.» لقد أُدخِلَت القواعدُ الشَّرعيّةُ المشتقّةُ منَ القرآنِ في الشَّريعةِ الإسلاميّةِ في مرحلةٍ ثانية.

اقتنعت مجموعةٌ منَ المختصّينَ بمعقوليّةِ تحليلِ شاخت، وانطلقوا لاستخلاصِ مضامينِ طروحاتِ شاخت. كانَ أوّلُ هؤلاءِ المختصّين جون وانسبرو الذي بيّنَ، في كتابينِ مهمّينِ، وصعبينِ للغاية برغمِ ذلك، هما دراساتٌ قرآنيّة: وسائلُ وطرقٌ لتفسيرِ النصوصِ المقدّسة (1977) والمناخُ السّائدُ بينَ الفِرَق: محتوى وتأليفُ تاريخِ خلاصٍ إسلامي (1978)، كيفَ أنَّ القرآنَ والحديثَ نميا نتيجةً لخلافاتٍ بينَ الفِرَق خلالَ فترةٍ طويلةٍ ربّما امتدَّت لقرنين، ومن ثمَّ تمَّ إرجاعهما إلى نقطةِ أصلٍ عربيّةٍ مختلقة. لقد طرحَ أيضاً أنَّ الإسلامَ لم يظهر للوجودِ إلّا تحتَ تأثيرِ اليهوديّةِ الربينيّة (أي الملتزمةِ بالشّريعةِ الشفهيّةِ وأراءِ الرابيّين أو الحاخاماتِ اليهود، المترجم) فيقولُ «أنَّ العقيدةَ الإسلاميّةَ عموماً وحتّى شخصيّةَ محمّد قد تمّت صياغتها في قالبٍ يهوديٍّ ربينيّ.» «انطلاقاً من هذهِ الاستنتاجات، يستطيعُ المناخُ السّائدُ بينَ الفِرَقِ تحليلَ المدوّناتِ التّاريخيّةِ الإسلاميّةِ المبكرة، أو بالأحرى الخرافاتِ التفسيريّةِ المؤسّسةِ لهذهِ المدوّناتِ التّاريخيّة، ليبيّنَ أنّها مظاهرُ متأخّرةٌ لـ «تاريخِ خلاصٍ» منَ العهدِ القديم ؛» (أي أنَّ التّاريخَ الإسلاميَّ المبكرَ هوَ اختلاقٌ مؤسَّسٌ على قصصِ خلاصِ الشّعبِ اليهوديِّ المذكورةِ في العهدِ القديم كتابهم المقدّس، المترجم)

مبتعداً عمّا يشاعُ من أنَّ نصَّ القرآنِ النهائيَّ قد ثبتَ في القرنِ السّابع، يبيّنُ وانسبرو أنَّ هذا النصَّ النهائيَّ لمّا يكن قد تحقّقَ مع حلولِ القرنِ التّاسع، وإنَّ وجودَ مصدرٍ للقرآنِ في شبهِ الجزيرةِ العربيّةِ أمرٌ غيرُ محتمل، فالعربُ قد صاغوا عقيدتهم بعد أن بدئوا بالاحتكاكِ باليهوديّةِ الربينيّةِ خارجَ الحجاز (منتصفَ الجزيرةِ العربيّة-كذا-' وتضمُّ مكّةَ والمدينة) «إنَّ التلميحاتِ القرآنيّةَ تفترضُ مسبقاً معرفةً وثيقةً بالموادِ القصصيّةِ الموجودةِ في النصوصِ المقدّسةِ اليهوديّةِ-المسيحيّة، والتي قد تمّت الإشارةُ لها أكثرَ من إعادةِ صياغتها....لو أخذنا سويّةً كمَّ الإشاراتِ إلى المصادر، وعمليّةَ التوظيفِ المتكرّرةَ بشكلٍ آلي للمصطلحاتِ المتداولةِ البلاغيّةِ الطّابع، والطّرازَ الأدبيَّ الجدليَّ البحت، فإنّنا نجدها تشيرُ إلى جوٍّ طائفيٍّ بشدّةٍ يتمُّ فيهِ إدخالُ مجموعةٍ منَ الكتاباتِ المقدّسةِ المعروفةِ في خدمةِ عقيدةٍ غيرِ معروفةٍ إلى حدِّ ذلكَ الوقت.» يقولُ وانسبرو في موضعٍ آخر: «إنَّ التحدّي لإنتاجِ كتابٍ مقدّسٍ (أو جزءٍ من كتابٍ مقدّس) مطابقٍ أو متفوّقٍ، والمذكورِ خمسَ مرّاتٍ في القرآن لا يمكنُ تفسيرهُ إلّا في نطاقِ جدلٍ مع اليهود.»

إنَّ مختصّينَ مبكرينَ كـ توري Torrey تبيّنوا الاقتباساتِ الحقيقيةَ عن الأدبِ الربينيِّ الموجودِ في القرآن، قد أسرعوا في استنتاجاتهم بخصوصِ الجاليةِ اليهوديّةِ في الحجاز (أي الجزيرةِ العربيّةِ المركزيّة-كذا-)، إلّا أنَّ الأمرَ كما يقولُ وانسبرو هوَ «أنَّ الإشاراتِ في الأدبِ الربينيِّ إلى الجزيرةِ العربيّةِ هيَ ذاتُ قيمةٍ متدنّيةٍ بشكلٍ لافت لأغراضِ إعادةِ كتابةِ التّاريخ، وخصوصاً الإشاراتِ إلى الحجازِ في القرنينِ السّادسِ والسّابع.»

لتأثرهم الشّديدِ بالرّواياتِ الربينيّة، اتّخذَ المجتمعُ الإسلاميُّ المبكرُ موسى مثالاً، فظهرت صورةُ محمّد، ولكن بالتدريج واستجابةً لاحتياجاتِ مجتمعٍ متديّن، كانَ هذا المجتمعُ متحمّساً لإثباتِ أحقّيّةِ محمّدٍ بأن يكونَ نبيّاً على نمطِ موسى، أصبحَ معنى هذا أنّهُ يجبُ أن يكونَ هنالكَ كتابٌ مقدّس، يكونُ شاهداً على نبوّته.

تغيرٌ آخرُ تدريجيّ، كانَ ظهورُ فكرةِ أنَّ الإسلامَ قد ظهرَ في الجزيرةِ العربيّة، لأجلِ هذا الغرض، طُوِّرَ بإحكامِ مفهومِ لغةٍ مقدّسةٍ هيَ العربيّة، قيلَ بأنَّ القرآنَ قد أوحى بهِ اللهُ بلسانٍ عربيٍّ مبين، ممّا يثيرُ الاهتمامَ أنَّ القرنَ التّاسعَ شَهِدَ أيضاً أوّلَ مجموعةٍ منَ الشّعرِ الجاهليّ: «إنَّ الأسلوبَ الذي تمَّ بهِ التلاعبُ بهذهِ الموادِ الأدبيّةِ من قبلِ جامعيها لغرضِ دعمِ أيِّ طرحٍ يشاؤونهُ لا يبدو أنّهُ قد أُخفيَ بشكلٍ ناجح، «لذلكَ تمكّنَ اللُّغويّونَ من إرجاعِ قصيدةٍ منسوبةٍ للنّابغةِ الجعديّ، وهوَ شاعرٌ جاهليّ، إلى تاريخٍ مبكرٍ لغرضِ «إيجادِ نصٍّ يعودُ إلى ما قبلَ الإسلام يثبتُ تركيباً لغويّاً قرآنيّاً شائعاً.» إنَّ هدفَ اللجوءِ إلى مرجعيّةِ الشّعرِ الجاهليّ كانَ ذا وجهين: أوّلاً، لمنحِ كتابهم المقدّسِ صفةَ المرجعِ القديم؛ أي لإرجاعِ هذا النصِّ المقدّسِ إلى فترةٍ أقدم، وهكذا مقدّس صفةُ المرجعِ القديم، وبهذا إعطاءَ نصّهم أصالةً أكبر، نصّهم هذا الذي في الحقيقةِ قد اختُلِقَ لاحقاً في القرنِ التّاسع، هوَ وكلُّ التقاليدِ الزّائفة، ثانياً، يعطي اللجوءُ إلى الشّعرِ الجاهليِّ نكهةً عربيّةً خاصّة، وموقعاً عربيّاً لديانتهم من حيثُ المكانِ والزّمان، وهوَ شيءٌ يميّزهُ عن اليهوديّةِ والمسيحيّة. إنَّ الرّواياتِ التفسيريّةَ مختلقةٌ أيضاً ولم يكن لها إلّا هدفٌ واحد.

لإظهارِ الأصولِ الحجازيّةِ للإسلام، يقدّمُ وانسبرو بعضَ الأدلّةِ غيرِ المباشرةِ لكي يبيّنَ أنَّ القرآنَ لم يتّخذ أيَّ صيغةٍ محدّدةٍ قبلَ القرنِ التّاسع: تدلُّ دراساتُ شاخت عن التطوّرِ المبكرِ للفقهِ الشّرعيِّ في المجتمع أنَّ الشّريعةَ الإسلاميّة، فيما عدا بعضِ الاستثناءات، لم

تُشتَقّ ممّا يحتويه القرآن. منَ الممكنِ أن نضيفَ أنَّ هذهِ الاستثناءاتِ القليلةَ لا تكادُ أن تكونَ دليلاً على وجودِ النصِّ القرآنيّ القانونيّ، وقد لاحظَ أيضاً أنّهُ حتّى في المواضعِ التي يُدّعى أنَّ الفقهَ قد استقى منَ النصِّ القرآنيّ المقدّس، فإنَّ هذا ليسَ منَ الضروريّ أن يكونَ دليلاً على الوجودِ المبكرِ للمصدرِ القرآنيّ. إنَّ اشتقاقَ الشّريعةِ منَ النصِّ المقدّس...كانَ ظاهرةً من ظواهرِ القرنِ التّاسع...إنَّ دليلاً غيرَ مباشرٍ ومشابهٍ لما ذكرنا نجدهُ في غيابِ أيِّ إشارةٍ إلى القرآنِ في «الفقهِ الأكبر» ... وهوَ وثيقةٌ تعودُ إلى منتصفِ القرنِ الثّامن، كانت بياناً للعقيدةِ الإسلاميّةِ موجّهاً ضدَّ الفِرَقِ المخالفة، لذلكَ يمثّلُ الفقهُ الأكبرُ وجهاتِ نظرِ الفرقةِ النّاجيةِ فيما يتعلّقُ بالمسائلِ العقائديّةِ المهمّةِ آنذاك، من غيرِ المعقولِ ألّا تتمَّ الإشارةُ إلى القرآنِ لو كانَ موجوداً بالفعل.

يُخضعُ وانسبرو القرآنَ إلى عمليّةِ تحليلٍ محسوبةٍ لغرضِ إثباتِ أنّهُ لا يمكنُ أن يكونَ قد أخرجهُ عن قصدٍ رجالٌ قليلون، بل «أنّهُ نتاجٌ لتطوُّرٍ فعّالٍ عن تقاليدَ مستقلّةٍ في الأصلِ خلالَ فترةٍ طويلةٍ منَ النقل.»

كانَ من شأنِ وانسبرو أن يقضي على فكرةِ أنَّ القرآنَ هوَ الأملُ الوحيدُ في إيجادِ معلوماتٍ أصيلةٍ تتعلّقُ بالنبيّ، وهيَ فكرةٌ لخّصها جفريJeffery قائلاً، «إنَّ الملحوظةَ التي يتكرّرُ ذكرها في هذا النّقدِ العميق هيَ «عودةٌ إلى القرآن» فالرّواياتُ عديمةُ الجدوى فعلاً كأساسٍ لسيرةٍ نقديّة. برجوعنا إلى القرآنِ وحدهُ يمكنُ أن يقالَ بأنّنا نقفُ على أساسٍ صلب.

لقد سلكت مجموعةٌ منَ العلماءِ الدّارسينَ المتأثّرين، طريقاً أكثرَ راديكاليّة، لقد قاموا برفضِ الصّيغةِ الإسلاميّةِ للتّاريخِ الإسلاميِّ المبكرِ برمّتها. اعتبرَ مايكل كوكMi-chael cook وباتريشيا كرونه Patricia Crone ومارتن هندزMartin Hinds في مؤلّفاتهم التي كانوا يكتبونها بينَ عامي 1977 و1987 أنَّ الصّيغةَ الإسلاميّةَ الثّابتةَ للتّاريخِ الإسلاميِّ حتّى زمنِ عبدِ الملك على الأقلّ (685-705) اختلاقاً متأخّراً، وقاموا بإعادةِ صياغةِ الفتحِ العربيِّ وتكوينِ الخلافةِ عادّينَ إيّاها حركةً لعربِ الجزيرةِ العربيّةِ أوحت بها مسيانيّةٌ يهوديّة رغبةً منها في استعادةِ أرضِ الميعاد. ضمنَ هذا التفسير، يكونُ الإسلامُ قد ظهرَ كديانةٍ وثقافةٍ مستقلّتين خلالَ عمليّةِ صراعٍ طويلةٍ لنيلِ الهويّة قامت بينَ شعوبٍ يائسةٍ جمعها الفاتحونَ سويّةً: كاليعاقبةِ السّريان والنساطرةِ والآراميّينَ في

العراق، والأقباطِ والبهودِ و(أخيراً) عربِ الجزيرة. لم تعد الرِّوايةُ التقليديّةُ عن حياةِ محمّدٍ وظهورِ الإسلامِ مقبولةً عندَ كوك وكرونه وهندز، يبيّنُ كوك في النبذةِ القصيرةِ والبليغةِ في آن عن محمّدٍ ضمنَ سلسلةِ أسيادِ الماضي الأوكسفورديّين Oxford Past Masters الأسبابَ التي قادتهُ لرفضِ تقاليدِ السيرة: كانَ العزوُ الباطلُ شائعاً بينَ علماءِ القرنِ الثّامن، وكانَ ابنُ إسحقَ ومعاصروهُ يستقونَ من تقليدٍ شفهيٍّ. على أيِّ حال، لا تعدُّ أيٌّ من هذهِ المقترحاتِ عشوائيّةً كما تبدو، فلدينا أسبابٌ لأن نعتقدَ بأنَّ كثيراً منَ السُّنَنِ المتعلّقةِ بمسائلِ العقيدةِ والشّريعة قد جُهِّزَت بأسانيدَ مزيّفةٍ من قبلِ من وضعوها قيدَ التداول، وفي نفسِ الوقت، لدينا الكثيرُ منَ الأدلّةِ على وجودِ خلافٍ في القرنِ الثّامنِ حولَ إن كانَ تدوينُ التقليدِ الشفهيِّ مقبولاً. منَ الواضحِ أنَّ ما تتضمَّنُهُ هذهِ النظرةُ حولَ موثوقيّةِ مصادرنا هيَ مضامينُ سلبيّةٌ نوعاً ما. إن كنّا لا نستطيعُ الوثوقَ في سلسلةِ الثِّقات، فلن يبقى في استطاعتنا أن ندَّعي بأنّنا نعرفُ بأنَّ ما بينَ أيدينا هي رواياتٌ متناقلةٌ من قبلِ نَقَلةٍ مستقلِّينَ عن بعضهم البعض، فإن كانت المعرفةُ بحياةِ محمّدٍ قد تمَّ تناقلها شفهيّاً طوالَ قرنٍ قبلَ أن يتمَّ تدوينها، فإنَّ منَ الممكنِ أن تكونَ المادّةُ المتناقلةُ قد خضعت لتعديلاتٍ مهمّةٍ خلالَ ذلك، ثمَّ يتوجَّهُ كوك نحوَ المصادرِ غيرِ الإسلاميّة: كاليونانيّةِ والسُّريانيّةِ والأرمنيّة، هنا تظهرُ صورةٌ غيرُ متوقّعةٍ إطلاقاً، فبالرَّغمِ من أنّهُ من غيرِ المشكوكِ فيهِ أنَّ شخصاً باسمِ محمّد قد وُجِدَ فعلاً، وأنّهُ لم يكن تاجراً، وأنَّ شيئاً مهمّاً قد حدثَ في عام 622، وأنَّ إبراهيمَ كانَ شخصاً محوريّاً في تعاليمه، إلّا أنّهُ لا توجدُ أيُّ إشارةٍ إلى أنَّ داخلَ الجزيرةِ العربيّةِ كانَ مشهداً لحياةِ محمّد، فلا إشارةَ إلى مكّة، ولم يظهر القرآنُ حتّى السنواتِ الأخيرةِ منَ القرنِ السّابع. يظهرُ من هذا الدليلِ أيضاً أنَّ المسلمينَ صلّوا باتّجاهٍ أبعدَ بكثيرٍ باتّجاهِ الشّمالِ من مكّة، لذلكَ لا يمكنُ أن يكونَ حرمهم المقدّسُ موجوداً في مكّة. «بشكلٍ مساوٍ، عندما تظهرُ أوّلُ الاقتباساتِ القرآنيّةِ على العملِ والنقوش إبّانَ نهايةِ القرنِ السّابع، فإنّها تُبدي اختلافاً عن النصِّ القانونيّ، إنَّ هذهِ الاقتباساتِ تافهةٌ من حيثُ الكمّ، إلّا أنَّ حقيقةَ أنّها تظهرُ في سياقاتٍ رسميّةٍ كهذه (عملاتٌ نقديّةٌ ونقوش) لا تتوافقُ والإشارةِ إلى أنَّ النصَّ قد ثُبِّت.

إنَّ أوّلَ نصٍّ يونانيٍّ يذكرُ أنَّ محمّداً كانَ حيّاً في عام 634؛ أي بعدَ سنتينِ من تاريخ

وفاتِهِ حسبَ التقليدِ الإسلاميّ، وبينها تتحدَّثُ الرِّوايةُ الإسلاميَّةُ عن قطيعةٍ بينَ محمَّدٍ واليهود، تختلفُ الصِّيغةُ الأرمنيَّةُ للرِّواية بشكلٍ يثيرُ الصدمة: إنَّ كاتبَ الدوريَّاتِ التَّاريخيَّةِ الأرمنيَّ يكتبُ عن العامِ 660، فيذكرُ أنَّ محمَّداً قد أسَّسَ مجتمعاً يتألَّفُ منَ الإسماعيليّينَ (أي العرب) ومنَ اليهود، يكونُ أساسهُ النسبَ الإبراهيميّ، ثمَّ أنَّ هذانِ الحليفانِ انطلقا لفتحِ فلسطين. إنَّ أقدمَ المصادرِ اليونانيَّةِ تذكرُ بعاطفيَّةٍ أنَّ محمَّداً الذي ظهرَ بينَ السرسنيّين (أي العرب) قد أُعلِنَ أنَّهُ مجيءٌ للمسيّا (اليهودي)، ويتكلَّمُ عن اليهودِ الذينَ يختلطونَ بالسرسنيّين. لا يمكننا أن نغضَّ الطَّرفَ عن الدليلِ معتبرينَ إيّاهُ نتاجاً لكبرياءٍ مسيحيّة، وذلكَ لأنَّهُ يجدُ سنداً لهُ في العملِ الرؤيويِّ الأخرويِّ العبرانيّ (وثيقةٌ منَ القرنِ الثّامن، تتضمَّنُ عملاً رؤيويّاً أخرويّاً أقدم، يبدو أنَّهُ متزامنٌ مع الفتوحاتِ (الإسلاميّة)). يضعُ المؤرِّخُ الأرمنيُّ تاريخَ الانفصالِ عن اليهودِ بعدَ فتحِ العربِ للقدسِ مباشرةً، بالرَّغمِ من أنَّ فلسطينَ تلعبُ بالفعلِ دوراً من نوعٍ ما في التقاليدِ الإسلاميّة، إلّا أنَّها كانت قد نزلت رتبةً بالفعلِ لصالحِ مكّة في السنةِ الثّانيةِ للهجرة، عندما غيّرَ محمّدٌ قِبلةَ الصَّلاةِ للمسلمينَ من بيتِ المقدسِ إلى مكّة، منذُ ذلكَ الحينِ أصبحت مكّةُ هيَ التي تحتلُّ الموضعَ المركزيَّ لنشاطاته، إلّا أنَّ فلسطينَ في المصادرِ غيرِ الإسلاميّةِ هيَ محلُّ اهتمامِ الحركة، وهيَ التي توفِّرُ الحافزَ الدينيَّ لفتحها. يقدِّمُ مدوِّنُ الأحداثِ الأرمنيُّ تفسيراً آخرَ لهذا الرَّبط: أخبرَ محمّدٌ العربَ بأنَّهم، باعتبارهم سليلي إبراهيمَ عبرَ إسماعيل، لهم الحقُّ بالمطالبةِ بالأرضِ التي وعدَ اللهُ بإعطائها لإبراهيمَ وذريّته. إنَّ ديانةَ إبراهيمَ هيَ في الحقيقةِ مركزيّةٌ في الرِّوايةِ الأرمنيّةِ عن دعوةِ محمّد، كمركزيّتها في المصادرِ الإسلاميّة، إلّا أنَّ هذهِ الرِّوايةَ تمنحُ مشاهدَ جغرافيّةً مختلفة. إن كانت المصادرُ الخارجيّةُ صحيحةً إلى أيِّ درجة حولَ مثلِ هذهِ النقاط، يتبعُ ذلكَ أنَّ التقليدَ (الإسلاميَّ) مضلِّلٌ بشكلٍ جدّيٍّ حولَ جوانبَ مهمَّةٍ من حياةِ محمّد، وأنَّهُ حتّى اعتبارِ أنَّ القرآنَ رسالتهُ هي محلُّ شكّ. في ضوءِ ما قد قُبِلَ أعلاه حولَ طبيعةِ المصادرِ الإسلاميّة، فيبدو لي أنَّ استنتاجاً مثلَ هذا هوَ استنتاجٌ شرعيّ، ولكن منَ العدلِ أن نُضيفَ أنّهُ لا يسارعُ عادةً في الاستنتاج. يشيرُ كوك إلى مشابهةِ معتقداتٍ وممارساتٍ إسلاميّةٍ بتلكَ التي للسّامريّين (ستتمُّ مناقشةُ ذلكَ أدناه). يشيرُ كوك أيضاً إلى أنَّ الفكرةَ الأساسيّةَ التي طوّرها محمّدٌ عن ديانةِ إبراهيمَ كانت موجودةً بالفعلِ في العملِ الأبوكريفيِّ

المسمّى كتابُ اليوابيل (الذي يرجعُ بتأريخِهِ إلى 140-100ق.م)، والذي ربّما أثّرَ في صياغةِ الأفكارِ الإسلاميّة. لدينا الدليلُ الذي يقدِّمهُ سوزومينوس Sozomenus وهوَ كاتبٌ مسيحيٌّ منَ القرنِ الخامس قامَ «بإعادةِ بناءِ ديانةٍ توحيديّةٍ إسماعيليّةٍ بدائيّةٍ مطابقةٍ لتلكَ التي امتلكها العبرانيّونَ حتّى أيّامِ موسى، ثمَّ أنّهُ يستمرُّ فيطرحُ انطلاقاً من موقفِهِ أنَّ منَ الضروريِّ أن تكونَ شرائعُ إسماعيلَ قد فَسُدَت بمرورِ الزّمن وبتأثيرِ الجيرانِ الوثنيّين.»

يستمرُّ سوزمونوس في حديثِهِ فيصفُ كيفَ أنَّ قبائلَ عربيّةً محدَّدةً التزمت بالأحكامِ اليهوديّةِ بعدَ سماعِها بأصلِها الإسماعيليِّ منَ اليهود. ثانيةً، نقولُ بأنّهُ ربّما كانَ هنالكَ تأثيرٌ على المجتمعِ الإسلاميِّ من قِبَلِ هذا المصدر، يشيرُ كوك إلى التشابهِ بينَ قصّةِ موسى (أي الخروجِ وغيرِها من الأحداث) والهجرةِ الإسلاميّة. في المسيانيّةِ (الإيمانُ بمجيءِ المسيّا؛ أي المسيحِ المنتظر من قبلِ اليهود) اليهوديّة «يُنظرُ إلى سيرةِ المسيّا باعتبارِها إعادةَ تمثيلٍ لسيرةِ موسى. كانَ منَ الأحداثِ الرئيسيّةِ في دراما الخروجِ هذه، أو الهروبِ منَ الاضطهادِ إلى الصّحراء، حيثُ سيقودُ المسيّا حرباً مقدّسةً ليفتحَ فلسطين. نظراً إلى وجودِ دليلٍ مبكرٍ يربطُ بينَ محمّدٍ واليهودِ واليهوديّةِ المسيانيّةِ في ذلك الوقت عندما ابتدأ فتحُ فلسطين، فإنَّ منَ الطبيعيِّ أنْ يرى في الأدبِ الرؤيويِّ اليهوديِّ نقطةَ انطلاقٍ لأفكارِهِ السياسيّة.»

لقد بيَّنَ كوك وباتريشيا كرونه هذهِ الأفكارَ في عملِهم المنعشِ ثقافيّاً والمعنون بالـ الهاجريّة: صناعةُ العالمِ الإسلاميِّ Hagarism: the Making of the Islamic World" (1977). لسوءِ الحظِّ تبنّى الكاتبانِ الأسلوبَ الصّعبَ نوعاً ما لـ «أستاذهم» وانسبرو، والذي قد ينفِّرُ الجميعَ عدا القرّاءِ الأكثرِ إخلاصاً، كما يقولُ همفري Hum-phrey، «إنَّ طرحهما يُقدِّمُ من خلالِ نظمٍ مربكةٍ وصارمةٍ منَ التلميحاتِ والتشبيهاتِ والتناظرات.» إنَّ الملخَّصَ المذكورَ أعلاه عن استنتاجاتِ كوك حولَ محمّد ستعينُ القارئَ غيرَ المختصِّ على استيعابٍ أفضل لطروحاتِ كوك وكرونه (منَ الآن فصاعداً ك ك) في الهاجريّة.

منَ الملائمِ البدءُ بتفسيرِ لاستخدامِ (ك ك) المتكرّرِ لمصطلحِ «هاجر» و«الهاجريّة» و«الهاجريّ.» بما أنَّ جزءاً من أطروحتِهما تقولُ بأنَّ الإسلامَ قد ظهرَ في وقتٍ أكثرَ تأخّراً ممّا كانَ يُعتقدُ سابقاً، بعدَ الاحتكاكاتِ الأولى بالحضاراتِ الأقدمِ في فلسطينَ والشّرقِ

الأدنى والشَّرقِ الأوسط، فإنَّ من غيرِ الملائمِ استخدامَ مصطلحاتِ (ك ك) «مسلم،» و«إسلاميّ،» و«إسلام» لوصفِ العربِ المبكرينَ وعقيدتهم. يبدو منَ المحتملِ أنَّ المجتمعَ العربيَّ المبكر، وهوَ مستغرقٌ في عمليّةِ تطويرِ هويَّتِهِ الدينيّةِ الخاصَّة، لم يدعُ نفسهُ «مسلماً،» من جانبٍ آخر، تشيرُ الوثائقُ اليونانيّةُ والسُّريانيّةُ إلى هذا المجتمع بكلمتي «ماغاريتاي Magaritai،» و«مَهْغري (أو مَهغرايي)» على التوالي. المَهغرايي هم سليلو إبراهيمَ من هاجر، ومن هنا جاءَ مصطلحُ «الهاجريّة»، إلّا أنَّ هنالكَ بُعداً آخرَ لهذا المصطلح، لأنَّ المصطلحَ العربيَّ المقابلَ هوَ «المهاجرين»، المهاجرونَ هم أولئكَ الذينَ لعبوا دوراً في الهجرةِ إلى أرضِ الميعاد، في هذا الجناسِ تقعُ الهوِّيَّةُ الأقدمُ للإيمانِ الذي في نهايةِ الوقتِ أصبحَ الإسلام.

اعتماداً على مصادرَ غيرِ إسلاميّةٍ كانت مهملةً قبلَ ذلك، يعطي (ك ك) روايةً جديدةً لظهورِ الإسلام، روايةً لا يقبلها أيُّ مسلمٍ باعترافهم، إنَّ المصادرَ الإسلاميّةَ متأخّرةٌ للغاية، ولا توجدُ أسسٌ خارجيّةٌ تدفعنا لقبولِ التقليدِ الإسلاميّ. يبدأُ (ك ك) بنصٍّ يونانيٍّ (يُعزى إلى الفترةِ 636–634)، وفيهِ يبدو محورُ رسالةِ النبيِّ مسيانيّةً يهوديّة. هنالكَ دليلٌ على أنَّ اليهودَ أنفسهم، بعيدونَ كلَّ البعدِ عن أن يكونوا أعداءَ المسلمين كما تقولُ الرِّوايةُ التقليديّة، قد رحّبوا بالفتحِ العربيِّ وفسَّروهُ بمفهومٍ مسيانيّ. إنَّ الدليلَ على «علاقةٍ يهوديّةٍ عربيّةٍ حميمة قد كَمُلَ من خلالِ وجودِ دلائلَ على عدوانيّةٍ واضحةٍ تجاهَ المسيحيّة.» تُناقِضُ حوليّةٌ أرمنيّةٌ كُتِبَت في ستّيناتِ القرنِ السّابع الإصرارَ الإسلاميَّ التقليديَّ على أنَّ مكّةَ كانت المركزَ الدينيَّ للعربِ في زمنِ الفتح، وهيَ تشيرُ، عكسَ ذلك، إلى التوجُّهِ الفلسطينيِّ للحركة. تعيننا نفسُ الحوليّةِ على فهمِ الطريقةِ التي «وفَّرَ بها النبيُّ تبريراً منطقيّاً لتدخُّلِ العربِ في تحقيقِ مسيانيّةٍ يهوديّة. يتألَّفُ هذا التبريرُ من طلبِ ذي شعبتين للانحدارِ الإبراهيميِّ للعرب باعتبارهم إسماعيليّين: منحهم حقّاً بدافعِ النسبِ بالأرضِ المقدَّسةِ من جانب، ومن جانبٍ آخر تزويدهم بنسبٍ توحيديّ»، بشكلٍ مشابه، يمكننا أن نرى الهجرةَ ليسَ بعدِّها خروجاً من مكّةَ إلى المدينة (لأنّهُ لا يوجدُ مصدرٌ مبكرٌ يشهدُ بصحّةِ هذا الحدثِ تاريخيّاً)، بل بعدِّها هجرةَ للإسماعيليّينَ (العرب) منَ الجزيرةِ العربيّةِ إلى أرضِ الميعاد.

سرعانَ ما تشاحنَ العربُ مع اليهود، ولانَ جانبهم تجاهَ المسيحيّين، فقد كانَ المسيحيُّونَ يشكّلونَ تهديداً سياسيّاً أقلّ شأناً، إلّا أنّهُ لا تزالُ هنالكَ حاجةٌ لتطويرِ هويّةٍ دينيّةٍ إيجابيّة، هويّةٍ انطلقوا لصياغتها من خلالِ تشكيلِ ديانةٍ متكاملةٍ لإبراهيم، تتضمَّنُ العديدَ منَ الممارساتِ الوثنيّةِ ولكن تحتَ غطاءٍ إبراهيميّ، بالرَّغمِ من ذلك، كانت لا تزالُ تنقصهم الهيكليّاتُ الدينيّةُ الأساسيّةُ التي تمكّنهم منَ الوقوفِ بثباتٍ كمجتمعٍ دينيٍّ مستقلّ. هنا تأثّروا بشكلٍ هائلٍ بالسّامريّين.

إنَّ أصولَ السّامريّينَ غامضةٌ نوعاً ما، إنّهم إسرائيليُّونَ يسكنونَ وسطَ فلسطين، ويعدُّونَ عموماً منحدرينَ ممّن كانَ الملوكُ الأشوريُّونَ قد وطّنوهم في السّامرة، حوالي العام 722 ق.م. كانت عقيدةُ السّامريّينَ الإيمانيّةُ توحيداً يهوديّاً، إلّا أنّهم نبذوا التأثيرَ اليهوديَّ من خلالِ تطويرِ هويّتهم الدينيّةِ الخاصّة، بطريقةٍ مشابهةٍ نوعاً ما لما سيفعلهُ العربُ لاحقاً. تتضمَّنُ النصوصُ القانونيّةُ السّامريّةُ التوراةَ وحدها، وكانت تعدُّ المصدرَ والمرجعَ الوحيدَ للإيمانِ والعمل.

تعدُّ عبارةُ «لا إلهَ إلّا الواحد» لازمةً مستمرّةً في الليتورجيا (الطقسيّاتِ) السّامريّة، إنَّ فكرةَ وحدانيّةِ اللهِ وقداستِهِ المطلقةِ وصلاحه، هيَ فكرةٌ دائمةُ الذكرِ في أدبهم. يمكننا أن نلاحظَ مباشرةً شبهَ الصّيغةِ بشهادةِ الإيمانِ الإسلاميّة: «لا إلهَ إلّا الله»، كما أنَّ وحدانيّةَ اللهِ هيَ مبدأٌ أساسيٌّ في الإسلام، يمكننا إيجادُ الصّيغةِ الإسلاميّةِ «بسمِ الله» في النصوصِ الدينيّةِ السّامريّةِ كـ «بشم». يُعرَفُ الفصلُ الافتتاحيُّ في القرآنِ باسمِ الفاتحة. تبدأُ صلاةٌ سامريّةٌ يمكنُ اعتبارها شهادةَ أيمانٍ بهذهِ الكلمات: «عمَدتِي كَمِىَخا ألْ فَتَح رَحْمِىَكا»؛ أي «أقفُ أمامكَ عندَ بوّابةِ رحمتك»، إنَّ «فتح» هيَ «الفاتحة»؛ أي المدخلَ أو البوّابة.

كانَ كتابُ السّامريّينَ المقدَّسُ هوَ التوراة، الذي كانَ يضمُّ الوحيَ الأعلى للمشيئةِ الإلهيّة، وهكذا كانَ موقّراً بشكلٍ شديد. يبدو أنَّ محمّداً كانَ يعرفُ بأمرِ التوراةِ والمزاميرِ فحسب، ولا يُبدي أيَّ معرفةٍ بالكتاباتِ النبويّةِ والتّاريخيّة.

يُكِنُّ السّامريّونَ تقديراً كبيراً لموسى، لكونهِ النبيَّ الذي أُوحِيَ إليهِ بالشّريعة. بالنسبةِ للسّامريّين كانَ جبلُ جرزيم المركزَ الشّرعيَّ لعبادةِ يهوه، وكانَ مرتبطاً أيضاً بآدمَ وشيثٍ

ونوحاً وبضحيَّةِ إبراهيمَ إسحاق. كانَ توقُّعُ مجيءِ المسيّا عقيدةً إيمانيّةً أيضاً، وكانَ الاسمُ المُعطى للمسيّا هوَ «المعيدُ». يمكننا أن نلاحظَ أيضاً شبهَ ذلكَ بالإشارةِ الإسلاميّةِ إلى المهديّ.

يمكننا أن نُجدولَ التناظراتِ القريبةَ بينَ عقيدتيّ السّامريّينَ والمسلمين بهذا الشّكل:

موسى: محمّد

الخروج: الهجرة

التوراة: القرآن

جبل سيناء/جرزيم: جبل حِراء

شكيم: مكّة

تحتَ تأثيرِ السّامريّين، قامَ العربُ بوضعِ محمّدٍ في دورِ موسى معتبرينَ إيّاهُ قائداً للخروج (أو الهجرة)، وحاملاً لوحيٍ جديد (القرآن) ومتلقّياً إيّاهُ في جبلٍ مقدّسٍ ملائم (عربي) هوَ جبلُ حِراء، بقيَ عليهم بعدَ ذلكَ أن يؤلّفوا كتاباً مقدّساً. يشيرُ (ك ك) إلى التقليدِ الذي يقولُ بأنَّ القرآنَ كانَ كتباً عديدةً لم يُبقِ عثمانُ (الخليفةُ الثّالثُ بعدَ محمّد) إلّا كتاباً واحداً، ولدينا الشّهادةُ الإضافيّةُ للرّاهبِ المسيحيِّ الذي يفرّقُ بينَ القرآنِ وسورةِ البقرة باعتبارهما مصدرينِ للشّريعة. وثيقةٌ أخرى تخبرنا بأنَّ الحجّاجَ (714-661) حاكمَ العراق، قد جمعَ ثمَّ أتلفَ كلَّ الكتاباتِ التي دوَّنها المسلمونَ الأوائل، ثمَّ استنتجَ (ك ك)، متّبعينَ بذلكَ وانسبرو، أنَّ القرآنَ «يفتقرُ للهيكليّةِ العامّةِ بشكلٍ يثيرُ الصّدمة، وأنّهُ كثيراً ما يكونُ غامضاً وعبثيّاً في اللّغةِ وفي المحتوى كذلك، وأنّهُ روتينيٌّ في ربطهِ بينَ موادَ متباينة، وأنّهُ مستسلمٌ للتكرارِ في فقراتٍ بأكملها وذلكَ بصيغٍ متباينة، على هذا الأساس يمكنُ بشكلٍ معقولٍ ظاهريّاً أن تُطرَحَ فكرةٌ تقولُ أنَّ الكتابَ (القرآن) هوَ نتاجُ تنقيحٍ متأخّرٍ وغيرُ دقيقٍ لموادَ قد أتت من تقاليدَ عديدة.»

لقد رفضَ السّامريّونَ قدسيّةَ أورشليم، واستبدلوها بالحرمِ الإسرائيليِّ القديمِ في شكيم. وعندما انفصلَ المسلمونَ الأوائلُ عن أورشليم، وفّرت لهم شكيمُ نموذجاً ملائماً لخلقِ حرمٍ خاصٍّ بهم. إنَّ التناظرَ مهول، فكلا الحرمينِ يمثّلانِ هيكليّةً مزدوجةً تتكوَّنُ من مدينةٍ

مقدّسةٍ ترتبطُ بشكلٍ وثيقٍ بجبلٍ مقدّسٍ قريب، وفي كلتا الحالتين يكونُ الطقسُ الأساسيُّ هوَ الحجُّ منَ المدينةِ إلى الجبل، في كلتا الحالتين يكونُ الحرمُ قائماً على أسسٍ إبراهيميّة، فيجدُ العمودَ الذي قدّمَ عليهِ إبراهيمُ الذبيحةَ في شكيم مقابلاً لهُ في الرُّكنِ اليمانيِّ منَ الكعبةِ منَ الحرمِ المكّيّ. وأخيراً، يرتبطُ الحرمُ الحضريُّ في كلتا الحالتين بشكلٍ وثيقٍ بقبرِ السَّلفِ الملائم: يوسف (في مقابلِ يهوذا) في الحالةِ السّامريّة، وإسماعيلَ (في مقابلِ إسحاق) في الحالةِ المكيّة. يستمرُّ (ك ك) فيطرحانِ فكرةَ أنَّ المدينةَ التي نعرفها باسمِ مكّة في وسطِ الجزيرةِ العربيّةِ (الحجاز) لا يمكنُ أن تكونَ مسرحاً للأحداثِ الخطيرةِ المحبَّبةِ جدّاً في التقليدِ الإسلاميّ. بغضِّ النظرِ عن فقدانِ أيِّ إشارةٍ غيرِ إسلاميّةٍ مبكرةٍ إلى مكّة، فإنَّ لدينا الحقيقةَ المروِّعةَ التي تقولُ بأنَّ الجهةَ التي كانَ المسلمونَ الأوائلُ يصلُّونَ إليها (القِبلة) كانت شمالَ غربِ الجزيرةِ العربيّة. يأتينا الدليلُ منَ اتّجاهِ مساجدِ مبكرةٍ محدَّدة، والدليلِ المكتوبِ القادمِ من مصادرَ مسيحيّة؛ بكلماتٍ أخرى، اختيرت مكّةُ حرماً إسلاميّاً من قِبلِ المسلمينَ في وقتٍ متأخّرٍ جدّاً، لغرضِ نقلِ تاريخهم المبكرِ إلى الجزيرةِ العربيّة، لإكمالِ انفصالهم عن اليهوديّة، وتأسيسِ هويّتهم الدينيّةِ المستقلّةِ أخيراً.

في الجزءِ المتبقّي من كتابهم المذهل، ينطلقُ (ك ك) ليريانا كيفَ أنَّ الإسلامَ قد صهرَ في بوتقتهِ كلَّ التأثيراتِ الأجنبيّةِ التي خضعَ لها نتيجةً للفتوحاتِ السَّريعة، وكيفَ أنَّ الإسلامَ قد نالَ هويّتهُ الخاصّةَ من خلالِ الالتقاءِ بالحضاراتِ القديمةِ الأكبرِ سنّاً، وذلكَ من خلالِ احتكاكهِ باليهوديّةِ الربينيّة، والمسيحيّةِ (الشَّريعةِ الربينيّة، والفلسفةِ اليونانيّة، والأفلاطونيّةِ الحديثة، والقانونِ الرُّومانيّ، والفنِّ والعمارةِ البيزنطيّتين)، إلّا أنّهما أشارا أيضاً إلى أنَّ كلَّ هذا تحقّقَ بتكلفةٍ ثقافيّةٍ عظيمة: «بسرعة، دمَّرت الفتوحاتُ العربيّةُ إمبراطوريّةً وفصلت إلى الأبدِ مناطقَ واسعةً عن إمبراطوريّةٍ أخرى، كانَ هذا كارثةً مروِّعةً حلَّت بالدُّولِ المذكورة.»

في كتابها «عبيدٌ على خيول: تطوُّرُ الدولةِ الإسلاميّة» (1980) ترفضُ باتريشيا كرونه التقاليدَ الإسلاميّةَ بخصوصِ الخلافةِ المبكرة (حتّى ثمانينيّاتِ القرنِ السّابع) معتبرةً إيّاها قصصاً موضوعةً لا فائدةَ منها. في كتابها «التجارةُ المكّيّةُ وظهورُ الإسلام» (1987)، تطرحُ كرونه فكرتها القائلةَ بأنَّ العديدَ ممّا يسمّى بالأخبارِ التّاريخيّةِ هيَ في الحقيقةِ «تلفيقاتٌ

خياليّةٌ لفقراتٍ قرآنيّةٍ صعبةِ الفهم.» في عملها الأخير تبيّنُ كرونه بشكلٍ مقنعٍ كيفَ أنَّ القرآنَ» قد أنتجَ كميّاتٍ منَ المعلوماتِ الكاذبة.» إنَّ الأحداثَ التّاريخيّةَ العديدةَ التي منَ المفترضِ أنّها كانت سببَ نزولِ آياتٍ محدَّدة (على سبيلِ المثال، معركةُ بدر، أنظر أعلاه)، «تُعزى في بعضِ جوانبها على الأقلّ، وأحياناً في وجودها نفسِهِ، إلى القرآن». منَ الواضحِ أنَّ القصّاصينَ كانوا أوّلَ من اختلقوا مضموناً تاريخيّاً لآياتٍ قرآنيّةٍ معيّنة، إلّا أنَّ الكثيرَ من معلوماتهم متناقضة (على سبيلِ المثال، يقالُ لنا بأنّهُ لمّا كانت المدينةُ تمزّقها النّزاعات، عندما أتاها محمّدٌ لأوّلِ مرّة، وبالرَّغمِ من ذلك يُطلبُ منّا أن نصدِّقَ بأنَّ أهلَ المدينةِ قد توحّدوا تحتَ قيادةِ قائدٍ لا منافسَ لهُ هوَ ابنُ أبي سلول)، وكانَ هنالكَ ميلٌ «إلى أن تتقلّصَ رواياتٌ مستقلّةٌ إلى درجةِ صيغٍ مختلفةٍ لفكرةٍ عامّةٍ مشتركة» (على سبيلِ المثال، هنالكَ العددُ الكبيرُ منَ القصصِ الموجودةِ التي تدورُ حولَ فكرةِ «التقاءِ محمّدٍ بممثّلينَ عن دياناتٍ غيرِ إسلاميّةٍ عرفوا فيهِ نبيّاً مستقبليّاً»)، وأخيراً، كانَ هنالكَ ميلٌ لأن تنمو المعلومةُ كلّما ابتعدَ المرءُ في الزّمن عن الحدثِ الموصوف، على سبيلِ المثال، إن صادفَ أن ذكرَ قصّاصٌ غزوةً، فإنَّ التّالي سيخبركَ بالتّاريخِ الدقيقِ لهذهِ الغزوة، وسيزوّدكَ الثّالثُ بتفاصيلَ أكثرَ من ذلك. كانَ الواقديّ (ت 823)، والذي كتبَ بعدَ ابن إسحاق (ت 768) بسنوات، يعطي دوماً تواريخَ دقيقة، ومواقع، وأسماءَ لم يذكرها ابن إسحاق، وورواياتٍ عن السّببِ الذي أدّى إلى الحملة، ومعلوماتٍ منوّعةٍ تمنحُ الحدثَ لوناً خاصّاً، بالإضافةِ إلى أسبابٍ لعدمِ حدوثِ قتال، كما هيَ الحالُ عادةً. لا عجبَ أنَّ المختصّينَ مولعونَ بالواقديّ، أينَ بإمكاننا أن نجدَ مثلَ هذهِ المعلوماتِ الدقيقةِ بشكلٍ رائعٍ عن كلِّ ما يرغبُ المرءُ في معرفته؟ ولكن إن كانت هذهِ المعلوماتُ كلّها غيرَ معروفةٍ لابنِ إسحاق، فإنَّ قيمتها مشكوكٌ بها للغاية، وإن كانت معلوماتٌ كاذبةٌ قد تراكمت بمثلِ هذا المعدَّلِ في الجيلينِ الواقعينِ بينَ ابنِ إسحاقَ والواقديّ، فمنَ الصّعبِ أن نتجنّبَ الاستنتاجَ بأنَّ ما هوَ أكثرُ من ذلكَ يجبُ أن يكونَ قد تراكمَ خلالَ الأجيالِ الثلاثةِ الواقعةِ بينَ النبيِّ وابنِ إسحاق. منَ الواضحِ أنَّ هؤلاءِ المؤرِّخينَ المسلمينَ المبكرين قد استقوا من مَعينٍ مشتركٍ من موادٍ قد اختلقها القصّاصون.

تحرصُ كرونه على توبيخِ عددٍ معيَّنٍ منَ المؤرِّخين المعاصرينَ المحافظين، كواط Watt،

لكونهم متفائلينَ بشكلٍ غيرِ مبرَّر حولَ القيمةِ التّاريخيّةِ للمصادرِ الإسلاميّةِ التي تدورُ حولَ ظهورِ الإسلام. وسوفَ ننهي هذا الفصلَ حولَ المصادر باقتباسِ استنتاجِ كرونه بخصوصِ جميعِ هذهِ المصادرِ الإسلاميّة: «(تستندُ طريقةُ واط) إلى تقديرٍ في غيرِ موضعهِ لهذهِ المصادر، إنَّ المشكلةَ هيَ عينُ نقطةِ أصلِ التقليد، لا تحريفاتٍ هيّنةٌ دخلت لاحقاً، إنَّ القبولَ بحدوثِ تحريفاتٍ من عصبيّاتٍ مختلفةٍ ضمنَ الإسلامِ نفسه كتلكَ التي لمنطقةٍ معيّنةٍ أو قبيلة، أو فرقةٍ أو مدرسةٍ فقهيّةٍ لا يفعلُ شيئاً من شأنهِ تصحيحُ التحيُّزِ النّاشئِ من عصبيّةِ الإسلامِ نفسه. إنَّ التقليدَ بأسرهِ متحيّز، وهدفهُ تشكيلُ هِلگشختـه Heilges-chichte (لفظةٌ ألمانيّةٌ تعني دراما لم تُختتم بعد. المترجم) عربيّة، وقد شكَّلَ هذا التحيُّزُ الحقائقَ كما نعرفها اليوم، فلم تُضَف ببساطةٍ عباراتٌ متحيِّزةٌ بإمكاننا أن نميّزها.

نشأةُ الإسلام: دراسةٌ ديالكتيكيّة تاريخيّة-ماديّة

تنويه: ترجمةٌ للفصلِ التّاسع من كتابِ بول سيغيل «الودعاءُ والمحاربون»

وُلِدَ الإسلامُ في شبهِ الجزيرةِ العربيّةِ في القرنِ السّابعِ للميلاد، هذا الدِّينُ لهُ جذورٌ في مكّة، وهيَ حاضرةٌ هامّةٌ تقعُ على طريقٍ تجاريّةٍ حيويّة.

علاقةٌ معقّدةٌ كانت تربطُ بينَ سكّانِ المدينةِ والبدو، الذينَ ـ بما أنّ المراعي كانت نادرةً وشحيحةً في الصّحراء ـ كانوا يتنقّلونَ في جماعاتٍ من نقطةٍ إلى أخرى على ظهورِ الجمال، هذهِ الحيواناتُ كانت قادرةً على السّفرِ لمسافاتٍ طويلةٍ بقليلٍ منَ الطّعامِ والغذاء، الجمالُ الرّشيقةُ للبدوِ المحاربين تمكّنهم منَ الإغارةِ على طرقِ التّجارةِ واستجرارِ الحمايةِ من سكّانِ المدنِ على شكلِ ما بقيَ يُسمّى حتّى يومنا هذا باسم «خوّة» أو «ضريبةِ أخوّة»[1]، في نفسِ الوقت كانَ سكّانُ المدنِ يشترونَ قطعاناً، وكانوا يرسلونَ قطعانهم بشكلٍ جماعيٍّ للمراعي، ليرعاها البدو، الذينَ أصبحوا مدينينَ بشكلٍ تدريجيٍّ للتجّارِ الأغنياء، في المقابل، العائلاتُ البدويّةُ التي نمّت قدراً معيناً منَ الثّروةِ لديها، نقلت ملكيّتها إلى المدينة، التي كانَ يمارسُ زعماءُ القبائلِ منها، حكمهم على أفرادِ قبيلتهم التّائهينَ والمشتّتين.

نظريّاً، جميعُ أفرادِ القبيلةِ كانوا متساوين، وكانوا على مرتبةٍ مساويةٍ لزعماءِ القبيلة، الذينَ كانَ يتمُّ اختيارهم وترشيحهم من قِبَلِ أفرادِ القبيلة، لكن في زمنِ محمّد، كانَ المجتمعُ القبليُّ قد بدأ بالتفكّك، مع تأسيسِ الطبقةِ الأرستقراطيّةِ البدويّة، بدأ تصنيفُ القبائلِ الفرديّةِ أو القبائلِ التحتيّةِ بموجبِ قرابتها أو صلاتها مع طبقةِ النُبلاءِ أو الأرستقراطيّينَ الذينَ ينتمونَ إليها، إضافةً إلى ذلك، ليست جميعُ القبائلِ متشابهة، فالقبائلُ الصّغيرةُ كانت معتمدةً على القبائلِ الكبيرة، وفعلت فعلَ الحواجزِ في النّزاعاتِ العشائريّة[2].

---

(1) مكسيم رودنسون، محمد، صـ 12-13.

Maxime Rodinson, Muhammad (New York: Pantheon Books, 1980), pp.1213-.

(2) انظر: بريان تيرنر، ماركس ونهاية الاستشراق، صـ 51-52

إنَّ قوّةَ كلٍّ منَ المُدُنِ والقبائلِ البدويّةِ كانت مرتبطةً بالدُّولِ العظمى البعيدةِ والمتنافسةِ حولَ السَّيطرةِ على شبهِ الجزيرةِ العربيّة، كانت عمليّةُ الإنهاكِ المتبادلةُ بينَ الإمبراطوريَّتينِ الفارسيّةِ والبيزنطيّة خلالَ صراعهما مع بعضهما هيَ التي دفعت مكّةَ _مكانَ ولادةِ محمّد_ إلى مكانها المتقدّمِ كمركزٍ تجاريّ.

((بسقوطِ اليمن بوصفهِ القوّةَ الماليّةَ السّائدةَ في شبهِ الجزيرة، لابدَّ أنّهُ قد تمَّ النَّظرُ إلى الهجرةِ الشّماليّةِ للبدوِ وصعودِ مكّةَ كمركزٍ تجاريٍّ في سياقِ العلاقاتِ الدوليّةِ العالميّةِ وفي إطارِ العلاقاتِ بينَ المدينةِ والصَّحراء... فالحروبُ المطوَّلةُ بينَ الفُرسِ والبيزنطيّين قد جعلت من طرقِ التّجارةِ _بالإضافةِ إلى إضعافِ اقتصادِ كلٍّ منهما_ في منطقتي الخليجِ والبحرِ الأحمر طرقاً غيرَ آمنة، والنتيجةُ كانت أنَّ التّجارةَ السّاحليّةَ عبرَ مكّةَ ويثرب [التي سمّيت فيما بعد بالمدينة] أصبحت طريقاً تجاريّةً حيويّةً وفي منتهى الأهمّيّة. هذا التدفّقُ للثّروةِ إلى مكّة أدّى إلى تغيُّراتٍ أساسيّةٍ في بنيةِ الحياةِ الاجتماعيّةِ والسياسيّةِ والثقافيّة))[1].

هذهِ التغيُّراتُ أدّت إلى تقويضِ نزعةِ المساواةِ البدويّةِ إضافةً إلى غيرها منَ القيمِ البدويّةِ الأخرى، فالتّاجرُ الثريُّ قد يكونُ زعيماً للقبيلة لكنَّ ثروتهُ لم تأتِ منَ الغزواتِ والحملاتِ القبليّة، إنّما من مشاريعهِ واستثماراتهِ الخاصّة، لذلك، فهوَ لم يشعر بالالتزامِ التقليديِّ البدويِّ القديم بالعنايةِ بالفقراءِ من أفرادِ قبيلته، فأعمالهُ واستثماراتهُ كانت أولى من تضامنِ عشيرته.

التأثيرُ الاجتماعيُّ على نشأةِ الإسلام:

محمّدٌ، الذي بدأ حياتهُ كيتيمٍ في قبيلةٍ متفكّكة، أصبحَ تاجراً مزدهراً ميسورَ الحال بعدَ زواجه من امرأةٍ ثريّةٍ ذاتِ جاهٍ ونسب، أوّلُ أتباعِ محمّد كانوا يشاركونهُ وضعهُ الاجتماعيّ، أفضلُ وأبسطُ طريقةٍ لوصفِ عمومِ أتباعِ محمّد هوَ وصفُ المستشرقِ مونتغمري وات، يقول:

Bryan S. Turner, Marx and the End of Orientalism (London: George Allen & Unwin1978 ,), pp.51-2.

(1) بريان تيرنر، فيبر والإسلام: دراسة نقدية، صـ29

Bryan S. Turner, Weber and Islam: A Critical Study (London: Routledge & Kegan Paul, 1974), p.29.

((يمكنُ القولُ أنّهم كانوا في المرتبةِ الثّانيةِ مباشرةً تحتَ أعلى طبقةٍ في المجتمع.[طبقةِ التجّارِ القادة، الأثرياء، والأقوياءِ ذوي النفوذ...]... شبّانٍ كأشقّاءَ وأقرباءَ تجّارٍ أثرياء لابدَّ أنّهم هم بدورهم كانوا أثرياءَ أيضاً [لكنّهم ينقصهم النفوذُ الكافي ضمنَ عائلاتهم وعشائرهم]، في حينِ أنَّ رجالاً من عشائرَ أخرى، كأبي بكرٍ مثلاً، كانوا يكافحونَ من أجلِ المحافظةِ على مثلِ هذا الاستقلال وقد بقيَ لهم ذلك))[1].

القرآنُ يعكسُ نظرةَ محمّدٍ كتاجر، لكن كتاجرٍ نشأ يتيماً فقيراً ولم يكن ضمنَ دائرةِ التُّجّارِ العظماء، كما يقولُ مكسيم رودنسون، مستشهداً بدراسةِ تشارلز توري: ((مرصَّعٌ بتعابيرَ تجاريَّةٍ ماليّةٍ بشكلٍ عفوي)).

يكفي هنا أن نلخِّصَ وجهةَ نظرنا/ نظري عن اللاّهوتِ الفعليِّ للقرآن، حيثُ يتوصَّلُ إلى نتيجتِهِ النهائيّةِ ويعبّرُ عنها بكلماتِهِ ومصطلحاتِهِ الخاصّة: ((العلاقةُ المتبادلةُ بينَ اللهِ والإنسان هيَ ذاتُ طبيعةٍ ماديَّةٍ صارمة. اللهُ هوَ التّاجرُ المثاليّ... أنموذجُ التّاجرِ النزيه. الحياةُ عبارةٌ عن عملٍ، للربحِ أو للخسارة، فالإنسانُ الذي يفعلُ خيراً أو شرّاً، يكسبُ خيراً أو شرّاً، وينالُ جزاءَ ما عملت يداه، في هذهِ الحياة [الدنيا] حتّى بعضُ الديونِ مغفورة، إذ أنَّ اللهَ ليسَ بدائنٍ صارمٍ أو شديد، المسلمُ يأخذُ قرضاً منَ الله، يدفعُ مقدَّماً من أجلِ دخولِ الجنَّة، يبيعُ روحهُ له، وهيَ صفقةٌ قد تُثمر، الكافرُ قد باعَ الحقيقةَ الإلهيَّةَ بثمنٍ زهيد، وبذلكَ قد أفلس... في يومِ القيامةِ وفي موعدِ البعث، يصفّي اللهُ حسابهُ النهائيَّ مع جميعِ البشر))[2].

لذلك فالفردُ ذو قيمةٍ بذاتِهِ كفرد، بإمكانِهِ تحصيلُ خلاصِهِ الخاصّ، وليسَ بوصفِهِ مجرَّدَ عضوٍ في عشيرةٍ أو قبيلة، وتزدادُ قيمتُهُ الخاصَّةُ كلّما ازدادت ثروتُهُ التي حصّلها، هذا دينُ التُّجّار، واللهُ نفسهُ، انسجاماً مع الميلِ الذي يمتلكهُ الإنسانُ لتصويرِ إلهِهِ بصورته، هوَ

(1) مونتغومري واط، محمد: نبي وسياسي، صـ 39

W. Montgomery Watt, Muhammad: Prophet and Statesman (New York: Oxford University Press, 1980), p.39.

(2) مكسيم رودنسون، الإسلام والرأسمال، صـ 14

Maxime Rodinson, Islam and Capitalism, tr. Brian Pearce (London; Allen Lane, 1974), p.14.

التّاجرُ المثاليُّ المؤلّه، يتعاملُ بعدلٍ لكن بتعاطفٍ أيضاً، وليسَ كالتجّارِ الزُّعماءِ الذينَ تخلو قلوبهم منَ الرّحمة.

((تعقيب: هذا يتطابقُ مع الفكرةِ التي تردُ في القرآن أنَّ اللهَ يطالبُ بالخُمسِ منَ الغنائم، ومع الحديثِ المنقولِ عن محمّد أنَّ في التجارةِ بركة))

لهذا نرى أنَّ القرآنَ يعزِّي البشرَ ولا يحثُّهم على الاعتراضِ على الغُبنِ والظُّلمِ واللامساواة، لكنَّهُ يذمُّ الغنيَّ المتكبّرَ الذي لا يحيا حياةً معتدلة، ولا يشغلُ بالهُ سوى بتجميعِ الأموالِ والثّرواتِ دونَ أن يمنحَ شيئاً للفقراء.

{كَلاَّ بَل لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (17) وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (18) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا (19) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (20)} [سورة الفجر 20-17]

إنَّ فكرةَ ذمِّ الثريِّ الذي لا يحسنُ للفقراءِ إضافةً إلى غيرها من أعمدةِ الإسلام، جعلت منها فكرةً مناسبةً للبدوِ بعد أن أمسوا لأنفسهم مستوطناتٍ في واحاتِ المدينةِ واجتاحوا مكّة، والذينَ كانت قبائلهم السّائدةُ محكومةً من قِبَلِ تجّارٍ كبار ومرفوضينَ أصلاً من قِبَلِ النبيّ. الإسلامُ، الذي هوَ عبارةٌ عن «مزيجٍ مؤقّتٍ منَ المهاراتِ الحَضَريّةِ والزَّعامةِ مع القوّةِ البدويّة»[1]، استجابَ لمتطلّباتِ العربِ بشكلٍ عام، فالإمبراطوريّاتُ الكبرى كالإمبراطوريّتينِ الفارسيّةِ والبيزنطيّةِ كانتا تتلاعبانِ بالقبائل وتحرّضُ بعضها على بعضها الآخر من أجلِ مصالحها الخاصّة، واستخدمت المحاربينَ البدوَ كمرتزقةٍ لتعزيزِ نفوذهما في المنطقة. لعبَ الإسلامُ دوراً بوصفهِ قوّةً موحّدة كانت حامياً ضدَّ الهجماتِ القبليّةِ ضدَّ القوافلِ التجاريّة، ممّا أدّى إلى ازديادِ هذهِ القوّةِ وتعاظمها وتحويلَ هذهِ الطّاقةِ البدويّةِ الجّارفةِ نحوَ الخارج.

بعدَ وفاةِ محمّد، ثارَ زعماءُ القبائلِ البدويّةِ الذينَ كانوا تحتَ سيطرته، أولئكَ لم يكن عهدهم لهُ يساوي أيَّ شيء، وبعدَ وفاتهِ شعروا بأنّهم لم يعودوا ملزمينَ بالعهدِ الذي قطعوهُ على أنفسهم له، لكنّهم هُزموا مجدّداً على يدِ العُصبةِ المتشدّدةِ التي يتمتّعُ أعضائها بحماسةٍ دينيّةٍ متّقدةٍ للدِّينِ الجديد، ووحّدوا أنفسهم ضمنَ مجتمعٍ ذي معتقدٍ واحد وهدفٍ واحد.

(1) تيرنر، فيبر والإسلام، ص 35.

الإسلامُ والمبادئُ الأخلاقيّةُ القبليّةُ ودينُ العرب:

إنَّ دينَ البدو، على غرارِ دينِ الأسلافِ البدوِ القدماءِ للعبرانيّين، يتضمَّنُ الاعتقادَ بالآلهةِ المحليَّة، أرواحٌ تسكنُ أماكنَ مقدّسةً، وأشياءَ وثنيَّةً/أصناماً من أنواعٍ مختلفة، محمّدٌ، الذي تعرَّفَ على توحيدِ المسيحيِّينَ واليهود، ممثّلي حضاراتٍ متفوِّقةٍ على القبائلِ العربيّةِ المتنافسةِ والمتصارعةِ فيما بينها، علَّمَ أتباعهُ أنّهُ لا يوجدُ سوى إلهٍ واحد، وأنَّ هذا الإلهَ هوَ: «الله». الله، خالقُ السَّمواتِ والأرض، كانَ هوَ إلهَ الحرمِ المكّيِّ [الكعبة]، وكما جعلَ الإسرائيليُّونَ من إلههم القبليِّ يهوه إلهاً عالميّاً، كذلكَ فعلَ محمّدٌ وجعلَ من إلهِ «الله» إلهاً عالميّاً، لكنَّ الله، الواحدَ، إلهَ السَّمواتِ والأرض، كانت لديهِ علاقةٌ مميَّزةٌ ووطيدةٌ مع العرب، كما كانَ ليهوه علاقةٌ وطيدةٌ مع الإسرائيليِّين.

رفضَ محمّدٌ الآلهةَ والأصنامَ المحليَّةَ التي كانَ يعبدها العرب، لكنَّهُ لم يتخلَّص منها جميعها، تماماً كما كانَ اليهودُ يحتفظونَ بأوثانهم وأصنامهم داخلَ «تابوتِ العهد» المقدَّسِ بمعبدِ أورشليم والذي يفترضُ أنّهُ يحتوي ألواحَ موسى التي تلقَّاها من يهوه، كذلكَ ظلَّ أتباعُ محمّدٍ يكنُّونَ تبجيلاً للحجرِ الأسْود، وهوَ حجرٌ نيزكيٌّ على الأرجح، داخلَ الكعبةِ المكيّة، النبيُّ نفسهُ يقبّلهُ كلّما اقتربَ منهُ أو مرَّ بجانبه. أحدُ الأسبابِ التي جعلت من مكّةَ مركزاً تجاريّاً كانَ الحُجَّاجَ الذينَ يزورونَ الحرم، وعلى مدى أربعةِ شهورٍ في العام [الأشهرِ الحُرُم] كانَ يتوقَّفُ الثّأرُ في الصَّحراء ويمنعُ الأخذُ بهِ بينَ القبائل، وقد جعلَ محمّدٌ من حجِّ البيتِ جزءاً أساسيّاً من دينِ الإسلام، وعلى المؤمنِ أن يحجَّ إلى البيتِ ولو مرَّةً واحدةً في العمر.

لكنَّ الإسلامَ قد عدَّلَ قيمَ البدوِ وغيَّرها، فالثّأرُ يجبُ أن يُترَكَ إلى الله، الذي سيعاقبُ المذنبينَ والخطأةَ في الحياةِ الأخرى، وقد تمَّ وضعُ قواعدَ مختلفةٍ لتوزيعِ الحصصِ وكميَّاتِ الغنائمِ بينَ المؤمنين. في نفسِ الوقت، وضعَ الإسلامُ أُسسَ التعاونِ المتبادلِ وشكَّلَ جبهةً صلبةً ضدَّ الكفَّار. لا يجوزُ للمسلمِ أن يقتلَ مسلماً آخرَ ثأراً لقريبٍ لهُ كافر، ولا يجوزُ للمسلمينَ الصُّلحُ مع الأعداءِ منَ الكفَّارِ وقتَ الحرْب، قبلَ الإسلام كانَ هناكَ تحالفٌ بينَ العشائر، لكن مع مجيءِ الإسلامِ صارَ على النَّاسِ الشُّعورُ بالانتماءِ لمجتمعٍ أكبر قائمٍ على

أساسٍ اعتقادٍ دينيّ.

وأيضاً هناكَ الكرمُ المفرطُ لطبقةِ نُبلاء البدو، والتي كانت تعدُّ علامةً رفعةٍ وشرفٍ وكرمِ نفس، وعادةُ كرمِ الضِّيافةِ التي كانَ يُتَوَقَّعُ من أيِّ رجلِ قبيلةٍ تأديتها ثمَّ امتصاصها من قبلِ دائرةِ الصَّدقةِ المنظَّمةِ التي يديرها المجتمعُ الدينيّ. في فترةٍ مبكرةٍ جدّاً بدأ هذا المجتمعُ ببناءِ بنيةٍ سياسيّةٍ ضمنَ مجتمعٍ قبليٍّ خالٍ من أيِّ شكلٍ من أشكالِ الدَّولة، رأسُ هذهِ البنية _أوّلاً النبيُّ ثمَّ خلفاؤه_ كانَ إماماً وزعيماً دينيّاً ومرشداً أيضاً، كانت هناكَ سماتٌ وخصائصُ قبليّةٌ أساسيّةٌ مازالت باقيةً في هذهِ الدَّولةِ البدائيّةِ غيرِ النَّاضجة، حيثُ كانَ مدراءها ما يزالونَ قلّةً، كانَ الجهازُ القمعيُّ محدوداً، أمّا خزينةُ الدَّولةِ، التي كانت تُستخدمُ لتمويلِ الجيشِ أصلاً، كانت مفصولةً تماماً عن ثروةِ القائدِ أو الزَّعيمِ الخاصَّة.

الإسلام، اليهوديّة والمسيحيّة

كانَ الإسلامُ بجزئهِ الأكبر عمليّةَ تعريبٍ لعناصرَ منَ الديانتينِ اليهوديّةِ والمسيحيّة، فكما كانَ اليهودُ يعدُّونَ العهدَ القديمَ على أنّهُ كلامُ الرَّبّ، والمسيحيّونَ كانوا يعدُّونَ العهدَ الجديدَ على أنّهُ جزءٌ ثانٍ للعهدِ القديم، كذلكَ المسلمونَ عدُّوا القرآنَ على أنّهُ تسجيلٌ لكلامِ الله، كما أنزلهُ على النبيِّ محمّدٍ عن طريقِ الملاكِ جبريل. وزعموا أنَّ حقيقةَ أنَّ محمّداً، كانَ فعلاً هوَ رسولَ الله، «مثبتةٌ» من خلالِ حقيقةِ أنَّ مجيئهُ قد تمَّ التنبُّؤُ بهِ في الإنجيل، كالرَّسولِ بولص ومؤلِّفُ الرسائلِ إلى العبريّين قد «أثبتَ» بنفسِ الطريقةِ أنَّ يسوعاً كانَ هوَ المسيّا المنتظرَ منذُ زمنٍ طويل.

المسيحيُّونَ المتشدِّدونَ قبلَ عصرنا هذا كانوا يعدُّونَ محمّداً مجنوناً، إذ أنّهُ كانَ من قبيلِ الجنونِ والخَبَلِ القولُ أنّهُ كانَ رسولَ اللهِ وناقلَ كلامهِ بما أنَّ ذلكَ الكلامَ كانَ مسجَّلاً طوالَ الوقتِ في الكتابِ المقدَّس، أمّا المفكِّرونَ الغربيُّونَ المتنوِّرون، من جهةٍ أخرى، يميلونَ إلى الاعتقادِ بأنَّ الدِّينَ مؤامرةٌ محاكةٌ من قبلِ الطبقةِ العُليا، كانوا يعتبرونهُ دجّالاً وداهيةً استغلَّ جهلَ قومهِ وسذاجتهم وتلاعبَ بهم. بطبيعةِ الحال، على الأرجحِ أنّهُ _مع أنّهُ سمعَ عن قصدٍ ما كانَ يريدُ أن يسمعهُ عندما كانَ بحاجةٍ لاتّخاذِ قراراتٍ سريعةٍ وحاسمة_ كانَ يؤمنُ فعلاً بما تراءى لهُ وسمعهُ، واعتقدَ بأنّهُ رسالةٌ منَ السَّماء.

هلوساتهُ كانت من نفسِ نوعِ هلوساتِ القدّيسةِ تيريزا وغيرها منَ القدّيسينَ الموثّقينَ من قبلِ الكنيسةِ الكاثوليكيّةِ منَ الذينَ تواصلوا مع اللهِ بشكلٍ مباشر، كانوا يدخلونَ في حالاتٍ منَ الانعزالِ التّامِّ والتأمُّلِ الشديدِ والصّلاةِ ضمنَ كهفٍ في الصّحارى والهضابِ والتلالِ القاحلةِ خارجَ مكّة، وهيَ ممارسةٌ كانَ يقلّدُ فيها محمّدٌ _وغيرهُ منَ العربِ في ذلكَ الوقت_ الرُّهبانَ المسيحيِّينَ الزّاهدينَ في الصّحراء. ما رآهُ وسمعهُ في هذهِ الهلوساتِ كانَ _أمراً مجهولاً بالنسبةِ إليه_ وكانَ نتيجةَ وعيهِ الذي يعملُ على اجترارِ أفكارهِ وتأمُّلهِ في حالِ العرب وكلِّ ما انتقاهُ منَ المسيحيِّينَ واليهودِ في مكّة، وخلالَ رحلاتهِ التجاريّة.

لكنَّ محمّداً لم يكن فريداً، فكما أنَّ الأسينيّينَ كانوا يتحدَّثونَ عن الكثيرِ من تعاليمِ يسوع من قبله، كذلكَ كانَ المتنبِّئونَ منَ العربِ الذينَ سبقوا محمّد، وكما أنَّ هناكَ الكثيرَ منَ المخلِّصينَ المزعومينَ والمزيَّفينَ في زمنِ يسوع، كذلكَ في عهدِ محمّدٍ كانَ هناكَ العديدُ منَ الأنبياءِ بينَ العرب. أحدهم كانَ مَسلَمَةَ [الحنفي/ المدعوَّ زوراً مسيلمةَ الكذّاب] منَ اليمامة، وهوَ أيضاً كانَ قد تلقّى الوحيَ منَ اللهِ وسجّعهُ على غرارِ الآياتِ القرآنيّة، حتّى أنَّ آياتهِ داخلةٌ في القرآن، كما أنّهُ صاغَ صلواتٍ وطقوساً، وبشّرَ لإلهٍ اسمهُ «الرّحمن»، وهوَ الاسمُ الذي كانَ يطلقهُ عربُ الجنوبِ على الإلهِ اليهوديِّ-المسيحيّ. محمّدٌ أيضاً أطلقَ على إلههِ اسمَ «الرّحمن» في نفسِ الوقتِ الذي كانَ يقولُ فيه _كما قالَ اليهودُ والمسيحيّونَ عن إلههم_ أنَّ عدلهُ كانَ صارماً وشديداً. «الوحيُ» الذي تلقّاهُ محمّد لم يكن باختصارٍ مقتصراً عليهِ وحده، إنّما هناكَ آخرونَ كانوا يتحدَّثونَ بأفكارٍ مماثلة.

إبراهيمُ، حسبَ هذا الوحيِ المحمّديّ، كانَ الجدَّ الأكبرَ للعرب، الذينَ ينحدرُ نسلهم من ابنهِ إسماعيل، كما ينحدرُ نسلُ اليهودِ من ابنِ إبراهيمَ الآخر، إسحاق، كانَ إبراهيمُ نبيّاً، كيسوعَ، الذي رفضهُ اليهودُ ونبذوه، وقد أخطأوا في ذلك، كذلكَ أخطأَ المسيحيُّونَ عندما قالوا أنَّ يسوعاً هوَ ابنُ الله. فالقولُ عن اللهِ بأنَّ لهُ أولاداً يعني الإساءةَ لرفعةِ وجلالةِ اللهِ وألوهيّته، وإنزالهِ إلى مرتبةٍ أرضيّة، وحسبَ تعبيرِ القرآنِ ذاته {إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ} [النّساء: 171] أشارَ محمّدٌ إلى أنَّ مذهبَ الثّالوثِ عندَ المسيحيِّينَ كانَ يعني رفضَ وإنكارَ وحدانيّةِ الله، إضافةً إلى ذلك، كانَ يعدُّ أنَّ تقديسَ المسيحيِّينَ للآثارِ والأيقوناتِ والصُّلبان مجرَّدُ عبادةٍ للأوثان. في زعمهم بأنَّ لا إلهَ إلّا الله وحدهُ دونَ غيره،

كانَ يعتقدُ المسلمونَ أنّهم يرجعونَ إلى الحالةِ الطبيعيّةِ الأصليّةِ للدِّين، كما اعتقدَ غيرهم منَ المؤمنينَ بأديانٍ أخرى، في حالتهم، كانَ هذا الدِّينُ الطبيعيُّ الأصليُّ يتمثَّلُ في التَّوحيدِ المزعومِ لإبراهيمَ، الذي كانَ يُعتقَدُ أنَّ هناكَ علاقةً شخصيَّةً مميَّزةً تربطهُ مع العرب.

بأيّةِ حال، استعارَ الإسلامُ مفهومَ الجنَّة، النَّار، البعث، ويومِ الحِسابِ أو القيامةِ منَ المسيحيّة. تماماً كما صوَّرَ آباءُ الكنيسةِ المسيحيّةِ سكّانَ السَّماءِ منَ المؤمنين وهم ينظرونَ بسخريةٍ نحوَ الأسفلِ إلى الكفَّارِ الذينَ يتعذَّبونَ في النَّار، وهذا ما فعلهُ القرآنُ بالضَّبط في تصويرهِ للجنَّةِ والنَّار، وكلُّ واحدةٍ منها تمَّ صبغها بنكهةٍ عربيّة. ليسَ لدى الملعونينَ أن يطفئوا بهِ ظمأَ الصَّحراءِ سوى الماءِ المغليّ، أمّا الجنَّةُ من ناحيةٍ أخرى فهيَ أشبهُ ما تكونُ بواحةٍ مليئةٍ بالملذَّاتِ والمسرَّات، ينابيعٌ باردةٌ وأجماتٌ مظلّلةٌ بأشجارِ نخيلٍ وأشجارٍ مثمرةٍ من جميعِ الأنواع، حيثُ يجلسُ المؤمنون، يتّكئونَ على سجَّادٍ فاخر، ويتناولونَ أطايبَ الطَّعام. في هذهِ الجنانِ هناكَ حوريَّاتٌ عذراوات {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا (56) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا} [النِّساء: 57-56] {فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (56) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (57) كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (58)} [الرَّحمن 58-56]

يشيرُ علماءُ الإسلامِ المعاصرون أنَّ هذهِ الآياتِ لا علاقةَ لها بموضوعِ الجنْس، وينبغي تفسيرها بطريقةٍ مجازيّةٍ أو رمزيّة، تماماً كما يسعى المسيحيُّونَ المعاصرونَ الحداثيُّون لتفسيرِ تلكَ الآياتِ المحرجةِ بالنسبةِ لهم منَ الكتابِ المقدَّسِ بطريقةٍ مجازيّة، إنَّهم يتغافلونَ عن الآيةِ التي تتحدَّثُ عن العذارى المطهَّراتِ الصَّغيراتِ اللَّواتي لم يمسسهُنَّ أحدٌ «من قبلهم»؛ أي من قبلِ المؤمنين، فهذهِ الآيةُ تعني بالمعنى الحرفيِّ أنّهم سيمسُّونهنَّ ويمارسونَ معهنَّ الجنْس. وكما يشيرُ علماءُ القرآنِ منَ الغربيِّين، إنَّ الأحاديثَ والأخبار يفترضُ أنّها مُستقاةٌ من أتباعِ محمّدٍ وصحابتهِ المباشرين، هذهِ الأحاديثُ والأخبار تمَّ إدخالها في الإسلامِ والتعاملُ معها على أنّها تأتي في المرتبةِ الثَّانيةِ بعدَ القرآنِ مباشرةً من حيثُ مرجعيَّتها، وقد توصَّلَ الباحثونَ إلى أنَّهُ خلالَ العقودِ التي عقبت عهدَ محمّد كانت هذهِ الآيةُ تؤخذُ بمعناها الحرفيِّ الذي

يعني «الاستمتاعَ الجنّسيّ»:

((هناكَ إشاراتٌ [في الحديث] إلى قدراتِ الرِّجالِ المؤمنينَ الجنّسيّةِ المضاعفةِ للاستمتاعِ بالحُورِ العِينِ، وهُنَّ كثيراتٌ لكلِّ مؤمن، وتبيَّنُ لنا الأخبارُ بجلاء أنَّ «الحُورَ» قد خُلِقنَ خصّيصاً كجائزةٍ للرِّجالِ منَ المسلمينَ المؤمنينَ والملتزمينَ والمخلصينَ في إيمانهم بالله)).[1]

هذهِ الصُّورةُ عن الجنَّةِ، التي صدمت المسيحيِّين الذينَ يفضِّلونَ صورةَ الملائكةِ اللاجنسيِّينَ الذينَ يعزفونَ الأبواق، تعكسُ بصورةٍ كبيرةٍ نظرةَ البدوِ إلى الحياة، الذينَ امتُصَّت قيمهم واستُوعِبَت بصورةٍ معدَّلةٍ في الإسلام. الشُّعراءُ البدو، الذينَ كانوا يتغنُّونَ قائلين ((أنتَ إنسانٌ فانٍ، لذلك انعَم بالحياة))، كانوا يحتفونَ بالمتعِ الجنّسيّةِ مع نساءٍ كالظِّباء[2]، لكنَّ الصُّورةَ الإسلاميّةَ عن الجنَّةِ ترجعُ على الأرجح إلى ((توتُّرٍ قديمٍ ومتجذِّرٍ جدّاً في الديانتينِ اليهوديّةِ والمسيحيّة))[3] اللَّتانِ تعتبرانِ الملذّاتِ المتوفِّرةَ في الجنَّةِ أنَّها ملذَّاتٌ حسِّيَّة، وبالتحديدِ جنّسيّة. كانَ هذا التيّارُ الفكريُّ قويّاً جدّاً، كما أنَّ بعضَ علماءِ اللاّهوتِ منَ المسيحيّين أرادوا استيعابهُ وامتصاصهُ عن طريقِ السَّماحِ بالجنّسِ بعدَ الموت حتّى موعدِ يومِ القيامة، حيثُ بعدَ ذلكَ ستصبحُ جميعِ الملذَّاتِ والمسرَّاتِ روحيَّةً بحتة _وهوَ تقييدٌ غريبٌ على الجسدِ المتوحِّدِ ثانيةً مع الرُّوح.

المنظومةُ العقائديّةُ البدويّة تضمَّنت أيضاً فكرةَ القضاءِ والقدر، أو تقبُّلَ المصائبِ والمجاعاتِ والعواصفِ الرَّمليّةِ بوصفها جزءاً من قساوةِ الحياةِ المفروضةِ على البشريّة، ويمكنُ الإفلاتُ من هذهِ القساوةِ فقط عن طريقِ المتعِ العابرة. إنَّ فكرةَ أنَّ كلَّ شيءٍ كانَ مقرَّراً بشكلٍ مُسبق كانت مدخلةً إلى الإسلام، مع أنَّها تتعارضُ مع فكرةِ الإسلامِ على المسؤوليّةِ الأخلاقيّة، هذا المذهبُ الجبريُّ/ أو الترتيبُ المسبق أشبعَ المقاتلينَ المسلمينَ بالتأجُّجِ والثَّورانِ الدينيِّ لأولئكَ الذينَ لديهم علمُ اليقينِ بأنَّهم مختارونَ من قِبَلِ الرَّبّ.

(1) جاين آيدلمان سميث وإيفون يزبك حداد، الفهم الإسلامي للموت والبعث، صـ164

Jane Idleman Smith and Yvonne Yazbeck Haddad, The Islamic Understanding of Death and Resurrection (Albany: State University of New York Press, 1981), p.164.

(2) تيرنر، فيبر والإسلام، صـ35

(3) رودنسون، محمد، صـ244.

إنَّ طقوسَ الإسلامِ وشعائرهُ، بعيداً عن تلكَ الطقوسِ والشَّعائرِ ذاتِ الأصلِ المكّيّ، مأخوذةٌ عن المسيحيّةِ واليهوديّة، كانت الولاءاتُ الدينيّةُ تتمثّلُ في إسقاطِ نفسكَ على الأرضِ على ركبتيكَ والانحناءَ نحوَ الأسفلِ منَ الخصر بالطريقةِ التي كانَ يقومُ بها المسيحيُّونَ الشَّرقيّون. كانوا يفعلونَ ذلكَ في الصَّباحِ عندَ شروقِ الشَّمس وفي المساءِ عندَ غيابها، كما كانَ يفعلُ مسيحيُّو المذهبِ النسطوريّ، الذينَ طُردوا منَ القسطنطينيّةِ، ونشروا مذهبهم في بلادِ فارسَ وبلادِ العرب، ثمَّ تغيَّرت لاحقاً لتُصبحَ خمسَ أوقاتٍ إلزاميّةً في اليوم.

في البداية، كانَ يتمُّ تأديةُ الصَّلاةِ ووجوهُ المصلِّينَ متوجِّهةٌ نحوَ القدْس، تماماً كما كانَ يفعلُ اليهود، وقد تمَّ تبنِّي فكرةِ الصَّومِ في يومِ الكفَّارةِ عندَ اليهود، تمَّت تأديةُ صلواتٍ خاصَّةٍ يومَ الجمعة، في اليومِ الذي كانَ يحضِّرُ فيهِ اليهودُ للشابات في اليومِ التَّالي، ومع ذلك، كانَ محمّدٌ قد رفضَ فكرةَ الشاباتِ التوراتيّةِ بوصفها فكرةً سخيفةً أنَّ اللهَ العليَّ قد احتاجَ للرَّاحةِ بعدَ ستَّةِ أيَّامٍ منَ العملِ في خلقهِ للكون، ومع أنَّ محمّداً _على غرارِ المسيحيِّين_ كانَ قد اعتبرَ القيودَ الغذائيّةَ على اليهود هيَ عقابٌ منَ اللهِ على تجاوزاتهم وانتهاكاتهم، فقد تبنَّاها إلى حدٍّ ما، حيثُ أنّهُ حرَّمَ أكلَ لحمِ الخنزير، أمّا عادةُ الختانِ لدى اليهود فكانت عادةً شعائريّةً قديمة استمرَّت حتّى في الإسلام.

بعدَ أن تخلّى محمّدٌ عن بذلِ أيِّ جهدٍ لإقناعِ اليهودِ في الاعترافِ به كنبيٍّ على غرارِ إبراهيمَ وموسى (أدركَ يهودُ المدينةِ خطأَ إشاراتِ محمّدٍ واقتباساتهِ المشوَّهةَ منَ العهدِ القديم، إضافةً إلى ذلك، اعتبروهُ خطراً وتهديداً على هدفهم وسعيهم لتوسيعِ تأثيرهم السياسيّ)، فقد تخلّى عن الكثيرِ منَ العاداتِ والطقوسِ اليهوديّة، فبدلاً منَ الاتّجاهِ صوبَ القدْسِ أثناءَ تأديةِ الصَّلاة، أصبحَ المسلمونَ يتوجَّهونَ نحوَ مكّة، وبدلاً من انتظارِ يومِ الصِّيامِ اليهوديّ، باتوا الآنَ يصومونَ من مشرقِ الشَّمسِ إلى مغيبها خلالَ شهرِ رمضان، وهذا على الأرجحِ احتفالٌ بذكرى انتصارِ المسلمينَ على الجيْشِ المكّيِّ في هذا الشَّهر.

انتشارُ الإسلامِ وتوسّعه:

انتشرَ الإسلامُ في جميعِ أرجاءِ جزيرةِ العرب من خلالِ التفاوضِ السياسيِّ والدَّعوةِ إلى الدِّينِ الجديد، ومن خلالِ القوَّةِ العسكريّةِ والسَّلبِ والغنائم، لجأَ محمّدٌ لاستخدامِ

الأساليبِ المعتادةِ لزعماءِ القبائل، لكن أكثرَ من ذلك أنّهُ عرضَ سلطةَ الله، الذي أرجعَ جميعَ انتصاراتهِ إليهِ وبفضله، تماماً كما كانَ الإسرائيليُّونَ القدماء يرجعونَ انتصاراتهم إلى يهوه، ومع ذلك قدَّمَ فكرةَ أنَّ بلادَ العربِ الموحَّدة لم تعد مستعمرةً من قِبَلِ الغرباء، بل هيَ متَّحدةٌ من خلالِ ديانةٍ عربيَّةٍ واحدة، ألم يقل شاعرُ النبيِّ وكاتبهُ حسَّانُ بنُ ثابت لوفدٍ منَ القبائلِ قَدِمَ للتفاوضِ مع هذهِ القوَّةِ العربيَّةِ الجديدةِ الصَّاعدة: كونوا مسلمينَ وتوقَّفوا عن تقليدِ الغرباءِ في لباسهم[1].

الآن أدارَ المسلمونَ نظرهم نحوَ الأراضي الخصْبةِ والغنيَّةِ للهلالِ الخصيب، بلادِ ما بينَ النَّهرين، سوريا، ومصر، حيثُ كانَ بعضُ العربِ يقيمونَ مسبقاً، فالقحطُ والجفافُ المتزايدانِ في بلادهم بالإضافةِ إلى ندرةِ المراعي النَّاتجةِ عن رعايةِ البدوِ لحيواناتهم دفعتهم لمهاجمةِ تلكَ الشُّعوبِ من قبل، لكن من دونِ أن يُحرزوا أيَّ نجاح، لكن الآن باتوا يمتلكونَ القوَّةَ العسكريّةَ والموحَّدةَ بالدِّينِ الجديد.

((لم تكن الفتوحاتُ العربيَّةُ تجسيداً لأفكارٍ خرجَ بها قادةٌ وزعماءُ مسلمون، بل على العكس، القبائلُ العربيَّةُ الجوَّالةُ على حدودِ بابل بدأت بعمليّةِ الغزو، ثمَّ طلبت فيما بعد مساعدةَ زعماءِ المسلمينَ بالمدينة... ومع أنَّ الجوعَ والشُّحَّ والجشع كانت هيَ العواملَ الدَّافعة، فالدِّينُ الجديدُ كانَ بمثابةِ القوَّةِ الحاشدة))[2].

خلفَ هذهِ البلدان توسَّعَ الإسلامُ كقوَّةٍ مرصوصةٍ أُفلِتَت من عِقالها، وخلالَ قرنٍ بعدَ وفاةِ محمّد [632م] تمكَّنت من احتلالِ رقعةٍ واسعةٍ وشاسعةٍ منَ الأرض تمتدُّ من جبالِ الهيملايا إلى البيرينيه، وشكَّلوا إمبراطوريَّةً أكبرَ وأعظمَ بكثيرٍ منَ الإمبراطوريَّةِ الرُّومانيَّةِ وهيَ في أوجها. تمَّت السَّيطرةُ على مدنٍ عظيمةٍ كدمشق، القدّس، حلب، وأنطاكيا. مدينةُ الاسكندريّة، أقوى مدينةٍ تجاريَّةٍ في العالم، سقطت بعدَ حصارٍ دامَ حوالي عام كامل. وصلوا إلى حدودِ الصِّين، تمَّ ضمُّ شماليِّ إفريقيا إلى الإمبراطوريَّةِ الإسلاميّة، ووقعت إسبانيا في

(1) رودنسون، محمد، صـ 267.

(2) ي، آشتور، تاريخ اجتماعي واقتصادي لمنطقة الشرق الأوسط في العصور الوسطى، صـ11.

E. Ashtor, A Social and Economic History of the Near East in the Middle Ages (London: Collins, 1976), p.11.

قبضةِ المسلمين، أصبحت أوروبَّا مهدَّدةً، كما كانتَ طِوالَ قرون. لم يكن هناكَ شيءٌ أروعُ من هذهِ السلاسلِ منَ الانتصاراتِ المتواصلة.

كيفَ تمَّ تحقيقُ ذلك؟ كانَ التأجُّجُ والتَّشدُّدُ الدينيُّ عاملاً مهمّاً وحيويّاً في هذهِ الانتصارات، لكن خلفَ كلِّ ذلك كانَ هناكَ التفكُّكُ والتآكلُ الدَّاخليُّ للإمبراطوريَّاتِ المحيطةِ ممَّا جعلها تتساقطُ كثمارٍ متفسِّخة.

((لا داعيَ للاستغرابِ إذا تمَّ تمجيدُ العربِ بوصفهم منقذينَ ومخلِّصين من قبلِ الشُّعوبِ الأقدمِ والأعرقِ في العالمِ السَّاميِّ وسوريا وبلادِ الرَّافدين ومن قبلِ المصريِّين... فطوالَ عمرهم كانوا خاضعينَ لروما ثمَّ بيزنطة في الغرب، والإمبراطوريَّةِ السَّاسانيَّةِ-الفارسيَّةِ في الشَّرق. كانوا في حالةٍ دائمةٍ منَ الثَّورانِ والتمرُّد... وكانَ هذا الثَّورانُ مصبوغاً بصبغةٍ دينيَّةٍ وعلى أساسٍ اجتماعيّ))[1].

الديانةُ المسيحيَّةُ التي جلبتها الإمبراطوريَّةُ البيزنطيّةَ وفرضتها على هذهِ الشُّعوب، كانت تعجُّ بالكثيرِ منَ الهرطقاتِ والبِدَع، كما كانت الديانةُ الزرادشتيَّةُ التي جلبتها الإمبراطوريَّةُ الفارسيّة، فكرةُ الاستبدادِ والغطرسةِ الإمبرياليَّةِ ومقتِها التي كانَ يكنُّها العربُ البدو انتقلت إلى تلكَ الشُّعوبِ أيضاً، إضافةً إلى ذلك، المراكزُ الحضريّةُ في تلكَ البلدان كانت راغبةً للانحيازِ لأيِّ قوَّةٍ أخرى تعدهم بالحمايةِ منَ الحرّبِ والغزو.

عَمِلَت القوَّةُ الإسلاميّةُ على امتصاصِ هذهِ الشُّعوبِ وغيرها منَ الأقوامِ الأخرى في البداية بصفتها شعوباً خاضعة، ثمَّ قبلوها كشعوبٍ مسلمةٍ ولو نظريَّاً (لكن ليسَ فعليَّاً) لها نفسُ الحقوقِ والواجباتِ التي للمسلمينَ الأوائل، وهذا يتناسبُ مع استراتيجيَّةِ البدوِ في تقبُّلِ الأعراقِ والأقوامِ الأقلِّ شأناً والخاضعةِ كعملاء.

شجَّعت العاداتُ والتقاليدُ العربيّةُ على تبنِّي النَّاسِ من جميعِ الأعراقِ والقوميَّات، الذينَ أصبحوا عرباً بدورهم، تضخَّمت موجةُ الأسلمةِ ببطءٍ لتتحوَّلَ في النهايةِ إلى سيلٍ جارف. فُرس، سوريّين، مصريّين، بربر، قوطيين، إغريق وغيرهم منَ الأعراقِ والقوميَّاتِ الأخرى

(1) موريس لومبارد، العصر الذهبي للإسلام، صـ 3

Maurice Lombard, The Golden Age of Islam (New York: American Elsevier, 1975), p.3.

التي انضمّت إلى العرب، كانَ أفرادها يعدُّونَ عرباً وأصبحوا عرباً بالفعل، لكنَّ هناكَ أعداداً كبيرةً أصبحوا مسلمين(1).

ضمَّ الجَيْشُ الإسلاميُّ الغازي أفرادَ هذهِ الشُّعوبِ بينَ صفوفهِ كقوّاتٍ جديدةٍ مضت بدوافعها إلى أبعد. استولى السُّوريّونَ والمصريُّونَ على شمالِ إفريقيا، واستولى البربرُ في شمالِ إفريقيا على إسبانيا وصقلّية، وغزا الفُرسُ آسيا الوسطى، لذا انتشرَ الإسلامُ من مركزهِ في شبهِ الجزيرةِ العربيّة على شكلِ سلسلةٍ منَ الدوائرِ متَّحدةِ المركز، ومع انتشارهِ دخلت أقوامٌ جديدة وأصيبوا بحمَّى الجشعِ والسَّعيِّ وراءَ الغنائم.

بعكسِ النظرةِ الشَّائعةِ عن الإسلام في أوروبّا والولاياتِ المتَّحدة منذُ القرنِ التَّاسعَ عشر التي تقولُ عنهُ أنّهُ ديانةٌ متطرِّفةٌ ومتزمّتة وأنّهُ يجبرُ النَّاسَ على الإسلام بحدِّ السَّيف(2)، إلّا أنّهُ لم يكن هناكَ أيُّ اضطِّهادٍ أو تعسُّفٍ دينيٍّ خلالَ هذهِ الفترة(3)، وجدَ اليهودُ حياتهم أسهلَ في ظلِّ الحكمِ الإسلاميِّ أكثرَ ممَّا كانَ في ظلِّ الحكمِ المسيحيّ، حيثُ أنَّ المسلمينَ كانوا يتمتَّعونَ بتسامحِ الشُّعوبِ المتنوِّرةِ التي لم تكن تبالي إذا رغبت الشُّعوبُ الخاضعةُ بالتنعُّمِ في جهلها.

إلّا أنَّ الغزاةَ كانوا مصرِّينَ على شيءٍ واحدٍ فقط، أن تدفعَ الشُّعوبُ المقهورةُ ضريبةً

(1) رودنسون، محمد، 297.

(2) يشيرُ مكسيم رودنسون في كتابه (الماركسيّة والعالم الإسلامي) إلى أنَّ القرآنَ يقولُ فعلياً {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ} [سورة يونس: 99] ويقولُ أنَّ هذهِ السُّورةَ هيَ الآيةُ الوحيدةُ من نوعها، لكنّهُ يضيفُ أنَّ هناكَ آياتٍ متعارضة. في القرونِ اللاّحقة أصبحَ الإسلامُ أقلَّ مرونةً وطواعية، لكن في أواخرِ عام 1697 كتبَ الفيلسوفُ بيير بايل: ((هناكَ الأتراكُ الذينَ يتسامحونَ مع جميعِ الديانات مع أنَّ القرآنَ يأمرهم باضطِّهادِ الكفّارِ والمشركين، وهناكَ المسيحيّونَ الذينَ لا يقومونَ بأيِّ شيءٍ سوى ممارسةِ الاضطِّهادِ والتعسّف مع أنَّ الكتابَ المقدّسَ يحرّمُ الاضطِّهادَ والظلم)).

[Rodinson, Marxism and the Muslim World, p.316, n.19]

(3) برنارد لويس، العرب عبر التاريخ، ص140.

Bernard Lewis, The Arabs in History (London: Hutchinson's University Library, 1950), p.140.

المسيحيّونَ من جهةٍ أخرى كانوا يمارسونَ عادةَ التعميدِ الإجباري. والطريقةُ التي كانَ يفكِّرُ بها الكثيرون، يمكنُ ملاحظتها من خلالِ قصّةِ البحّارِ الأليزابيثي الذي _شَهِدَ على عمليّةِ تعميدٍ إجباريٍّ لمجموعةٍ منَ الأسرى المقيّدينَ الذينَ كانوا متّجهينَ نحوَ القِبلةِ للصّلاة_ مشيراً بسذاجة إلى أنَّ هؤلاءِ الحمقى المساكين لم يكونوا يعلمونَ أنّهم باتوا مسيحيّين.

خاصَّةً يجمعها نبلاؤهم ويسلِّمونها للجُباةِ المسلمين، وفي مقابلِ ذلك ((ضمنت السُّلطاتُ الدينيَّةُ... حرِّيَّةَ العبادةِ وحرِّيَّةَ الانخراطِ في النَّشاطاتِ الاقتصاديَّة))[1]، أمّا اعتناقُ الإسلام فكانَ كفيلاً بإعفاءِ الفردِ من هذهِ الضَّريبة ورفعِ مستواهُ ومكانتِهِ الاجتماعيَّين. والجديرُ بالملاحظةِ أنَّ المسلمينَ الأوائل كانوا بعيدينَ كلَّ البعدِ عن فرضِ الإسلامِ على الآخرين، حتّى أنَّ ((بعضَ المسيحيِّين، اليهود، أو المزدكيِّين [الزرادشتيِّين] الذينَ أرادوا اعتناقَ الإسلام قد جُلِدوا))[2]، بل كانَ غرضهم هوَ الحفاظَ على نقاوةِ _وعاداتِ_ الدِّين، لكنَّ العاداتِ العربيَّةَ وإدراكَ الحاجةِ إلى تقويةِ وتعزيزِ أساسِ الإمبراطوريَّةِ الجديدة حالَ دونَ استمرارِ هذهِ الحال، والاضطرارِ لتقبُّلِ العناصرِ الجديدةِ فيها.

أوجُ الحضارةِ الإسلاميَّة:

كما ساهمت الأقاليمُ والمناطقُ الهلينيَّةُ التَّابعةُ للإمبراطوريَّةِ الرُّومانيَّةِ في الحضارةِ الرُّومانيَّة، كذلكَ ساهمت الأجزاءُ المحرَّرةُ منَ الإمبراطوريَّةِ البيزنطيَّة، بتراثها وتاريخها اليونانيِّ القديمِ وعلومها وفلسفتها، في الحضارةِ الإسلاميَّة. ساهمت بلادُ فارسَ بنظامٍ سياسيٍّ أكثرَ تعقيداً وثيوقراطيَّة، أمّا الهندُ فقد ساهمت بمعارفها في مجالِ الطبِّ والرياضيَّات، وأخيراً، ساهمَ العربُ _الذينَ امتصُّوا تلكَ الحضاراتِ الرَّاقية ودمجوها معهم، وفي نفسِ الوقت تركوا بصمتهم عليها_ بنصيبهم في هذهِ الحضارة.

كانت الحضارةُ الإسلاميَّةُ أكثرَ الحضاراتِ تقدُّماً وثراءً في العالمِ في فترةِ العصورِ الوسطى، وخصوصاً من منتصفِ القرنِ الثَّامن حتّى منتصفِ القرنِ الحادي عشر، وقد بلغت أوجها على الأرجح خلالَ القرنِ التَّاسع. في المقابل، تراجعت الحضارةُ الأوروبيَّةُ وتخلَّفت تجارتها كثيراً، وبالمقارنةِ أيضاً بالرَّفاهيةِ الأسطوريَّةِ والبحبوحةِ التي تمتَّعت بها مدنُ «الشَّرق» كبغداد، القّاهرة، باليرمو، وقرطبة، كانت المدنُ الأوروبيَّةُ في العصورِ الوسطى صغيرةً ولا تقارنُ بقذارتها وتخلُّفها وعدمِ تنظيمها[3].

---

(1) لومبارد، ص4.

(2) رودنسون، محمد، ص 294.

(3) منَ المفيدِ بالنسبةِ للممثِّلينَ المتعلِّمين والمثقَّفين لحضارةٍ سائدة، متعاليةٍ ومتفوِّقةٍ في ثقافتها وكبريائها، أن يروا كيفَ كانَ يُنظَرُ إليهم عندما كانَ الوضعُ معكوساً عمّا هوَ عليهِ اليوم. يقولُ المؤرِّخُ والرَّحالةُ الكبيرُ منَ

كانت الإمبراطوريّةُ الإسلاميّةُ، حسبَ تعبيرِ الباحثِ بيري أندرسون، ((نظاماً تسلسليّاً واسعاً منَ المدنِ التي تفصلُ بينها قرىً وبلداتٌ ريفيّةٌ مهملةٌ أو وضيعة))[1]، أو حسبَ تعبيرِ ماوريس لومبارد، ((تنظيمٌ حضريٌّ رائع)) يتضمَّنُ ((سلسلةً منَ الجزرِ الحضريّةِ المرتبطةِ مع بعضها بطرقٍ تجاريّة))[2]، كانت الشّبكةُ الماليّةُ والتجاريّةُ على درجةٍ عاليةٍ منَ التعقيدِ لدرجةِ أنَّ رسالةَ ائتمانٍ مكتوبةً ببغداد كانَ يمكنُ صرفها في المغرب.

كانَ التنامي الهائلُ للمدنِ الكبرى قائماً على أساسِ احتكارِ وسائلِ التّجارةِ بينَ الشّرقِ الأقصى والغرب، لم يقم عربُ الصّحراءِ باستخدامِ وتطويرِ الطرقِ التجاريّةِ على اليابسة بل يُفترضُ أنّهم شقُّوا عُبابَ البحرِ بسرعةٍ مذهلة. لأوّلِ مرّةٍ منذُ العصرِ الهلينيّ رُبِطَ البحرُ المتوسّطُ بالمحيطِ الهنديِّ تجاريّاً كجزءٍ من نظامٍ ملاحي، وشقّت سفنُ المسلمينَ طريقها بينَ المحيطِ الأطلنطيِّ وبحرِ الصّين. والثّروةُ التي تمَّ تحصيلها من هذهِ الصّفقاتِ والتعاملاتِ التجاريّةِ شجّعت على نموِّ تجارةِ الموادِ والبضائع الفارهة (التوابل، المجوهرات، والحرير) بالإضافةِ إلى الصّناعاتِ النسيجيّة، الورق، والفخّاريّات.

خلالَ فترةِ الازدهارِ الثقافيّ، كانَ للفلسفةِ اليونانيّةِ تأثيرٌ بالغٌ وعميقٌ على الفكرِ الدينيِّ بينَ النُّخَبِ المثقّفة، الفيلسوفُ الشّهيرُ والطبيبُ الُّلمع ابن سينا، الذي اكتشفَ عمليّةَ انتشارِ الأمراضِ عن طريقِ مياهِ الشرب، والذي بقيَ كتابهُ «القانون» ((منارةً للطبِّ في أوروبّا لفترةٍ أطولَ بكثيرٍ من أيّةِ أعمالٍ أخرى))[3]، وهناكَ الفيلسوفُ والطبيبُ الشّهيرُ أيضاً ابن

القرنِ العاشرِ للميلاد المسعودي [Lewis, p.164] عن الشّعوبِ الأوروبيّةِ الغربيّةِ أنَّ ((أجسامهم ضخمة، طبيعتهم جلفة، عاداتهم فظّة، فهمهم بليد ولسانهم ثقيل... معتقداتهم الدينيّةُ لا أساسَ لها منَ الصّحّة... هؤلاءِ الأبعدُ منهم نحوَ الشّمال هم أكثرُ غباءً، وجلافةً وتوحّشاً)).

(1) بيري أندرسون، ميراث الدولة المطلقة، ص502.

Perry Anderson, Lineages of the Absolutist State (London: New Left Books, 1974), p. 502.

(2) لومبارد، ص10.

(3) وليام أوسيير، تطوّر الطب الحديث، ص98. مقتبساً عن فيليب حتّي «أمريكا والميراث العربي»، الميراث العربي.

William Osier, The Evolution of Modern Medicine (New Haven, 1922), p. 98, quoted by Philip K. Hitti, America and the Arab Heritage, The Arab Heritage,

رشد من بين العديد ((منَ الذينَ أدركوا أنَّ الحقيقةَ يمكنُ الوصولُ إليها من خلالِ الدراسةِ المتعقِّلَةِ والبحثِ الموضوعيِّ والفلسفة، وهذهِ الأمورُ يمكنُ أن يدركها النَّاسُ الأقلُّ تعقيداً عن طريقِ اللُّغةِ الرَّمزيَّةِ للدِّين))[1]، وكما تعلَّمَ المسيحيُّونَ المتعلِّمونَ كيفيَّةَ التعاملِ مع الكتابِ المقدَّس، كذلكَ فسَّرَ المسلمونَ القرآنَ بطريقةٍ «رمزيَّةٍ ومجازية» عندما وجدوا أنَّهُ يتعارضُ مع العقل.

بعضُ أفرادِ طبقةِ النُخبةِ المثقَّفين مضوا لأبعدَ من ذلكَ حتى، الرَّازي على سبيلِ المثال، أيضاً كانَ فيلسوفاً وطبيباً (كانَ أوّلَ من استخدمَ المرهمَ اللَّزجَ وخياطةَ الجروحِ باستخدامِ خيوطٍ من أمعاءِ الحيوانات) عارضَ مسألةَ المعجزاتِ والنبوَّة، ومع أنّهُ كانَ ربوبيّاً، إلَّا أنّهُ أكَّدَ أنَّ ((كلَّ السُّوءِ يأتي منَ العاداتِ والتقاليد، وأنَّ الدِّينَ كانَ سببَ الحروب وخصماً لدوداً للفلسفةِ والعلم. لقد آمنَ بتقدُّمِ العلمِ وتطوُّره، كما أنّهُ اعتبرَ كلاً من أفلاطون وأرسطو وأبقراط أعظمَ من جميعِ الكتبِ المقدَّسة))[2]. هناكَ عندَ هذهِ النقطة انهارت أرضيَّةُ الحلِّ الوسط للتوافقِ ما بينَ الدِّينِ والعلم، لقد تمَّ رفضُ مفهومِ القضاءِ والقدر وسلطةِ المرجعيَّاتِ وعصمةِ القرآن، هذا النَّمطُ منَ التفكيرِ كانَ غيرَ مقبولٍ إطلاقاً في أوروبَّا القرنِ العاشر.

كانَ الرَّازي وغيرهُ الكثيرون قادرينَ على ممارسةِ تفكيرهم النَّقديِّ بحرِّيَّة بفضلِ مكانتهم الاجتماعيَّةِ ودرجتهم الأكاديميَّة. ويقولُ رودنسون: ((جديرٌ بالذِّكرِ أنَّ الأشخاصَ الذينَ كتبوا تلكَ الأعمالَ الهرطقيَّةَ عن دينِ الإسلام ماتوا بسلامٍ وهم على أسرَّتهم، بل كانَ بعضهم يتمتَّعُ بمكانةٍ مرموقةٍ وعالية ويشغلُ مناصبَ حكوميّة، كما أنَّهم لعبوا دوراً هامَّاً بالرَّغمِ من أفكارهم الغريبةِ والمغايرةِ للتيَّار العام))[3].

تطوُّرُ الحضارةِ الإسلاميَّةِ وسقوطها:

بقدرِ ما بلغتهُ الثَّقافةُ الإسلاميَّةُ من عظمةٍ وازدهار، إلَّا أنَّ تطوُّرَ الحضارةِ الإسلاميَّةِ

---

ed. Nalub Amin Paris (Princeton University Press, 1946), p. 3.

(1) رودنسون، الماركسيَّة والعالم الإسلامي، ص64.

(2) السابق.

(3) السابق.

سرعانَ ما بلغَ نهايتهُ.

على الرَّغمِ منَ الازدهارِ الاقتصاديِّ المسعور خلالَ القرنينِ الثَّامنِ والتَّاسعِ الميلاديين، سُجِّلَت عِدَّةُ اختراعاتٍ إنتاجيَّةٍ في مجالِ الصِّناعة، وبعضُ التقدُّمِ التكنولوجيِّ الذي نتجَ عن دراساتٍ علميَّةٍ رائدة... حتّى أنَّ حجمَ وحُمّى النَّشاطِ التجاريِّ الذي يتجاوزُ أيَّ زخمٍ ناتجٍ عن وسائلِ الإنتاج يبدو أنّهُ قد أدّى إلى سلسلةٍ منَ التوتُّراتِ الاجتماعيَّةِ والسياسيَّةِ داخلَ دائرةِ الخلافة، فقد تماشى الفسادُ والتجنيدُ المأجورُ جنباً إلى جنب في الإدارةِ مع الاستغلالِ الماليِّ المجحفِ للفلاَّحين... وفي حينِ بدأ النِّظامُ الأمنيُّ الدَّاخليُّ للنِّظامِ الحَاكمِ بالتداعي، استولى الحرسُ الأتراكُ المحترفونَ على السُّلطةِ تدريجيّاً داخلَ الدائرةِ المركزيَّة، في حينِ أنَّ العسكرَ قامَ بصدِّ المدِّ المتَّسعِ للثَّوراتِ العرقيَّةِ باختلافِ أنواعها وانتماءاتها منَ الأسفل(1).

هذا الوضعُ الرَّاهنُ في القرنِ العاشر أطلقَ عمليَّةً طويلةَ الأمد، حيثُ سادت فيها موجاتٌ منَ التوسُّعِ متبوعةً بفتراتِ ركود، مع انتقالِ مركزِ القوَّةِ من مكانٍ لآخرَ ضمنَ العالمِ الإسلاميّ، تداعت القوَّةُ العسكريَّةُ الإسلاميَّةُ التي كانت لفترةٍ طويلةٍ أكبرَ وأعظمَ قوَّةٍ في العالم، وانهارت القوَّةُ الاقتصاديّة. الصدماتُ الكثيرةُ التي تلقَّتها الحضارةُ الإسلاميَّةُ خلالَ هذهِ العمليَّةِ الطويلة كانت اجتياحَ البدوِ التُّركمانِ لكلٍّ من بلادِ فارسَ والرَّافدين خلالَ منتصفِ القرنِ الحادي عشر، الحملاتُ الصليبيّة، وكانت ضربةً قاصمةً لمنطقةِ الشَّرقِ الأوسط خلالَ القرنِ الثَّاني عشر(2)، الرحلاتُ الاستكشافيَّةُ التي انطلقَ فيها الأوروبيُّونَ

---

(1) أندرسون، صـ509.

(2) كانت الحملاتُ الصليبيَّةُ هيَ المكافئَ الرسميَّ للجهادِ الإسلاميِّ (أو الحرْبِ المقدّسة)، كما أنّها فرضت نفسَ النوعِ منَ الغنائم، والتي كانت تعتبرُ بأنّها حصّةُ الرَّبّ. يقتبسُ لويس [صـ150-151] عن فولكر من كارترز، وهوَ مؤرِّخٌ للحملةِ الصليبيَّةِ الأولى: ((بالنسبةِ لهؤلاءِ الذينَ كانوا فقراءَ ومعدمين هناكَ [في أوروبّا] جعلهم الرَّبُّ أغنياءَ وفاحشي الثّراء هنا. هؤلاءِ الذينَ كانوا يمتلكونَ بضعةَ بنساتٍ هناك، أصبحت لديهم قطعٌ منَ الذهب لاتعدُّ ولا تحصى هنا... كلُّ ذلكَ بفضلِ الرَّبِّ وكرمه)). انظر أيضاً جون لامونت، الحملاتُ الصليبيَّةُ والجهاد، صـ196.

[John L. La Monte, Crusade and Jihad, The Arab Heritage, ed. Paris, p.196]:

«خلالَ القرنينِ الثّاني عشر والثّالث عشر، في زمنِ الحملاتِ الصليبيَّةِ والدّعوةِ للجهاد، كانَ الدّينُ... دافعاً قويّاً ومحفّزاً فعّالاً، لكنّهُ نادراً ما كانَ سبباً أساسيّاً أو الدّافعَ الأوّل». في الواقع، كانَ هوَ الدّافعَ الأوّلَ والسببَ الرئيسيَّ لشنِّ حملاتٍ صليبيَّةٍ ضدَّ الوثنيّين أو الدّعوةِ للجهادِ ضدَّ الكفّارِ والمشركين، حيثُ كانَ الوعدُ العظيمُ بنيلَ الغنائمِ والحظوةِ والفوزِ العظيمِ عندَ الله، ثمّ تحوّلَ جهادهم المقدّسُ ضدَّ إخوتهم من نفسِ

خلالَ القرنِ السَّادسَ عشر، والتي منحت أوروبَّا أفضليَّةَ الوصولِ إلى الشَّرق وتطويقَ العالمِ الإسلاميّ.

كانَ المجتمعُ الإسلاميُّ في الشَّرقِ الأوسط مجتمعاً قائماً على أساسِ جمعِ الأتاواتِ والضرائب، لكنَّهُ بالمقارنةِ مع الهندِ والصِّين لم يكن فيهِ سوى مقدارٍ ضئيلٍ منَ الفائض، وقد أطلقَ عليها الخليفةُ الأمين اسمَ «دفعِ الجزيةِ والمتاجرة»؛ أي أنَّ ازدهارهُ كانَ يعتمدُ على الفائضِ القادمِ منَ الخارج، أوّلاً عن طريقِ الغنائم، ثمَّ عن طريقِ احتكارهِ لطرقِ القوافلِ البعيدةِ وطويلةِ المسافة. وبفقدانِ هذا الاحتكار، تداعى المجتمعُ الإسلاميّ، مع أنَّ هذا التداعي كانَ متخفِّياً في البداية في زيِّ التوسُّعِ العسكريِّ المستمرّ.

غزا الأتراكُ والمغولُ وغيرهم منَ القبائلِ البدويَّةِ البربريَّة المناطقَ الحيويَّةَ في العالمِ الإسلاميّ، وأصبحوا أسيادَ حرب، اندمجوا في الإسلام، وأصبحوا جنوداً محمَّديِّينَ ضدَّ المسيحيّةِ أو الهندوسيّة، تضرَّرت الحياةُ الاقتصاديَّةُ في تلكَ المناطقِ الحيويّة، لكنَّ الإسلامَ في منتصفِ القرنِ السَّادسَ عشر كانَ قد سيطرَ على معظمِ أراضي البلقان حتّى هدَّدَ فيينّا. هذهِ الفتوحاتُ كلُّها لم تكن إلَّا تحضيراً لما سيكونُ منعطفاً تاريخيَّاً حادَّاً متمثِّلاً بخسارةِ هنغاريا في نهايةِ القرنِ السَّابع عشر للميلاد. لكن منذُ بدايةِ فترةِ الإمبراطوريَّاتِ الثلاثة (العثمانيّةِ في تركيا، الصفويّةِ في بلاد فارس، والمغوليّةِ في الهنّد)، 1500-1800، كانت هذهِ الدُّولُ الإسلاميّةُ عرضةً لكافَّةِ الضُّغوطِ الاقتصاديّةِ الأوروبيّة قبلَ انتصارِ الإمبرياليّةِ الأوروبيّةِ في القرنِ التَّاسعَ عشر.

وكنتيجةٍ للتجارةِ المتراجعة والعمليّةِ العَسكَريّةِ المتزايدةِ للمجتمعِ الإسلاميّ في القرنينِ الثَّاني عشر والثَّالثَ عشرَ الميلاديين، لم يعد بمقدورهِ تحمُّلُ سياسةِ التسامحِ التي تميَّزَ بها في القرونِ السَّابقة، تمَّ تأسيسُ مدارسٍ لترسيخِ التفسيرِ الرَّسميِّ للدِّين والقوانينِ القائمةِ على أساسه، وحُرِّمَت ممارسةُ البحثِ الفلسفيِّ واللاَّهوتيِّ الحرّ، وتمَّ بناءُ بنيةٍ دينيّةٍ هيراركيّةٍ أكثرَ تعقيداً وهرميَّة. علماءُ الدِّينِ الأوائلُ كانوا مؤيِّدينَ للعلمانيّةِ وفصلِ الدِّينِ عن السياسة مقابلَ اتِّفاقٍ بالتَّعاونِ المشتركِ بينَ الحكومةِ والعلماء [علماءٌ بالشَّريعةِ الإسلاميّة][1]، أمّا

الدِّين حيثُ دفعهم لإقامةِ تحالفاتٍ سيِّئة حتّى مع ألدِّ خصومهم الدينيّين من أجلِ هذا الصِّراع.

(1) أنوار سعيد، الإسلامُ وجدليَّةُ الوحدةِ الوطنيّةِ في الباكستان، اقتبست عنهُ إقبال أحمد، الإسلامُ والسياسة،

الآن فقد قدّمَ الإمامُ الغزاليّ، وهوَ بمثابةِ توما الأكويني في الإسلام، وخلفهُ ابنُ جمعة مذهبَ الضرورة، الذي نصَّ على أنَّ حتّى أسوأَ الحكّام هم أفضلُ منَ المجتمعِ المتمدِّن.

وكما الحالُ مع الأدبِ البراهميِّ في نفسِ الفترة، حلّت الخلاصةُ العلميّةُ محلَّ البحثِ الدؤوبِ عن معارفَ جديدة. روحُ البحثِ العلميِّ والتقصّي الفكريّ تمَّ تجديدها في بلاطِ بُناةِ الإمبراطوريّةِ الجديدة في القرنينِ الخامسَ عشر والسّادسَ عشرَ الميلاديين، لكنّها سرعانَ ما خمدت وانطفأت نارها.

أحياناً، وعلى غرارِ روحِ النّهضةِ الإيطاليّة، كانت تبرزُ هذهِ الرُّوحَ في بلاطِ السُّلطان محمّدٍ الفاتح [حكمَ ما بينَ 1451–1481]، والإمبراطور أكبر [المغوليّ الذي حكمَ ما بينَ 1556–1605]، لكنَّ السُّلطانَ سليمَ الشّرس [حكمَ ما بينَ 1512–1520] وسليمانَ المُشرِّع [حكمَ ما بينَ 1520–1566] أخذا على عاتقهما قمعَ كافّةِ الأفكارِ الخطيرةِ وجميعَ أشكالِ الفكرِ الحُرِّ ضمنَ الإمبراطوريّةِ العثمانيّة، وقد سعى الملكُ أورانزيب [الذي حكمَ ما بينَ 1658–1707] إلى اتّباعِ نفسِ السياسةِ في الهند. لكنَّ سليمانَ كانَ الأنجحَ بينهم حيثُ لم تنبت بذرةُ البحثِ الحُرِّ وروحِ الإبداع _التي ساهمت في ظهورِ عصرِ النّهضةِ والأدبِ والعلمِ المعاصرينِ في أوروبّا_ في أيِّ مكانٍ منَ الإمبراطوريّةِ العثمانيّة (أو في أيِّ دولةٍ إسلاميّةٍ في العالمِ حتّى عصرنا الحاليّ)[1].

المدافعونَ عن الإمبرياليّةِ يُرجعونَ فشلَ العالمِ الإسلاميِّ إلى تطوُّرٍ معيَّنٍ طرأَ على الرأسماليّةِ الإسلاميّةِ ممّا أدّى إلى حدوثِ عقمٍ فكريٍّ في الإسلام[2]، لكنَّ هذا العقمَ كانَ

الصّدمةُ الإسلاميّة، صـ16.

Anwar H. Syed, Islam and the Dialectic of National Solidarity in Pakistan, (New York: Praeger, 1983), ch.2, quoted by Eqbal Ahmad, Islam and Politics, The Islamic Impact, ed. Yvonne Yazbeck Haddad et al. (Syracuse University Press, 1984), p.16.

(1) وليام مكنيل، صعود الغرب: تاريخ المجتمع الإنساني، صـ632.

William H. McNeill, The Rise of the West: A History of the Human Community (University of Chicago Press, 1963), p.632.

(2) لدراسة الحجج المدافعة عن الإمبريالية بشكلٍ مستفيض أكثر اقرأ كتاب إدوارد سعيد، «الاستشراق» (Edward W. Said, Orientalism. New York: Pantheon Books, 1978) والمقالة المحرّرة حول

مجرَّدَ نتيجةٍ، وليسَ سبباً، فالإسلامُ قد أنتجَ ثقافةً تتجاوزُ بكثيرٍ الثَّقافةَ الأوروبيَّةَ التي كانت سائدةً في العصورِ المظلمةِ وسوقاً اقتصاديَّةً لم تتفوَّق عليها إلَّا السُّوقُ الرأسماليَّةُ الحديثة، طبعاً قدَّمت هذهِ الثَّقافةُ لأوروبَّا الأدواتِ اللأَّزمةَ لتطويرِ رأسماليَّةٍ خاصَّةٍ بها كالأعدادِ العربيّةِ، التي سهَّلت العمليَّاتِ الحسابيّة، ومن بينها استخدامُ النِّسَبِ المئويَّةِ لحسابِ الفوائد[1]، والمحاسبةُ مزدوجةُ القيود. وحقيقةُ أنَّ الحضارةَ العربيَّةَ في أوجها لم تتطوَّر إلى رأسماليّة، مردُّها إلى بنيتها كمجتمعٍ قائمٍ على دفعِ الزَّكاةِ [الضرائب] والتِّجارة، وليسَ إلى دينِ الإسلام.

كتاب إدوارد سعيد بقلم ستوارت شار، مستشرقون في خدمة الإمبريالية، العرق والطبقة، ص67–80 (Stuart Schaar, Orientalists in the Service of Imperialism, Race and Class, 21 (1979), 67-80).

(1) بيّنَ رودنسون في كتابِهِ الإسلامُ والرأسماليّة

(Islam and Capitalism, pp. 35-46 and 261, n.52)

أنَّ تحريمَ الإسلامِ للفائدةِ أو الرِّبا قد تمَّ إبطالهُ منذُ البداية، وأنّهُ كانت هناكَ حالاتُ تحريمٍ مماثلةٍ للفائدة عندَ اليهوديّةِ والمسيحيّة، وتمَّ إبطالهما أيضاً.

كتابُ «المائة» لمايكل هارت وخيانةُ الترجمة لأنيس منصور

لا زلتُ أذكرُ ذلكَ اليومَ الذي بدأتُ فيهِ بقراءةِ كتابِ مايكل هارت الرائع (الخَالدونَ المئة) الذي يسردُ فيهِ سِيَرَ ومآثرَ ـ وجرائمَ وفظائعَ ـ مئةِ شخصيَّةٍ عبرَ التَّاريخِ الإنسانيِّ كانَ لهم أثرٌ لا يُمحى على وجهِ التَّاريخِ، كانَ من بينهم الزَّعيمُ الرُّوحيُّ الفَذُّ والمُلهِم، والقائدُ السياسيُّ المحنَّكُ الذي لا يشقُّ لهُ غبار، والنبيُّ الذي غيَّرَ مَعالمَ الإنسانيَّة، ومن بينهم الطَّاغيةُ والمجرمُ والسفَّاحُ ومَن عُرِفَ بحبِّهِ للنِّساءِ والحرّب، ومن بينهم الموسيقارُ والمفكّرُ والمُحَرِّرُ والفيلسوف.

ما استوقفني فعلاً هوَ عنوانُ الكتابِ باللُّغةِ العربيّةِ ترجمةُ أنيس منصور، وهوَ الكاتبُ المعروفُ بقصصهِ الخياليّةِ وكتبهِ التي تبتعدُ تماماً عن العقل، فهوَ كاتبٌ متخصِّصٌ بقصصِ الأشباحِ والأرواح، والتجاربِ الخياليّةِ غيرِ العلميّة، باختصار، إنّهُ كاتبٌ منَ الدرجةِ الثَّالثةِ لنوعٍ معيَّنٍ منَ الأدبِ الذي يناسبُ العامَّةَ بقصصهِ المخيفةِ وحكاياتهِ عن تجاربِ الخروجِ منَ الجسد، والمشاعرِ عندَ النباتات، والتخاطرِ، والباراسيكولوجيا، فما الذي دفعَ هذا الكاتبَ لترجمةِ عملٍ كهذا.

أعود، ما استوقفني حقّاً هوَ عنوانُ الكتابِ بالعربيّة ((الخَالدونَ المائة: أعظمهم محمَّدٌ رسولُ الله))[2]، توزيعُ ونشْرُ المكتبِ المصريِّ الحديث، الغريبُ أنَّ المترجمَ لم يَذكر اسمَ مؤلِّفِ الكتابِ على الغلاف، بل كتبَ أنيس منصور فقط، وكأنَّهُ هوَ مؤلِّفُ الكتاب، ثمَّ لم يذكر عنوانَ المكتبِ أو تاريخَ النشرِ أو الطبعة أو حقوقَ النشر، وكأنَّهُ يحاولُ الإخفاءَ والتعتيم.

الأمرُ الذي أثارَ حفيظتي، وشكّي، أنَّ مؤلِّفَ الكتابِ مايكل هارت مؤلِّفٌ يهوديٌّ مشهور، ومنَ المحالِ أن يذكرَ محمَّداً ضمنَ عنوانهِ كأعظمِ شخصيَّةٍ في التَّاريخ، وهوَ اليهوديُّ المطَّلعُ على تاريخِ العالمِ ودياناتهِ ومذاهبه، ولم يخفَ عليهِ ـ بالتأكيد ـ أنَّ محمَّداً وصفَ اليهودَ بأنَّهم أحفادُ القِرَدةِ والخنازير، وإذا كانَ عليهِ أن يشيدَ بشخصيَّةٍ معيَّنةٍ ضمنَ

(2) الخالدون مائة أعظمهم محمد رسول الله، أنيس منصور، المكتب المصري الحديث.

العنوان، فالأجدرُ أن يُشيدَ بموسى، أو أيِّ شخصيَّةٍ أخرى من ملوكِ وأنبياءِ الإسرائيليِّينَ العبرانيِّين.

الأمرُ الذي دفعني في النهاية إلى الاطِّلاعِ على النُّسخةِ الإنكليزيَّةِ الأصليَّةِ منَ الكتاب لأقيسَ مصداقيَّةَ الترجمة، إذ أنَّ الكاتبَ ـ حسبَ النصِّ المُترجَم ـ بدا مَلَكيّاً أكثرَ منَ الملكِ نفسه؛ أي وكأنَّهُ يكتبُ كتابةً بيدٍ إسلاميَّة.

كما قلنا الكتابُ هوَ ترجمةٌ لكتابِ مايكل هارت 1978 (المائة) The 100: A Ranking of the Most Influential Persons in History، والترجمةُ الحقيقيَّةُ للعنوان هيَ «المئة: الترتيبُ للأشخاصِ الأكثرِ تأثيراً في التَّاريخ»، ونلاحظُ هنا أنَّ الكاتبَ لم يوردِ أيَّ ذكرٍ لمحمَّد، وإنَّما أضافها المترجمُ من عنده، وهذهِ أوَّلُ خيانةٍ يرتكبها هذا «المترجمُ» تجاهَ النصّ، وهذا يعكسُ الطَّابعَ الإسلاميَّ المتحيِّزَ لمترجمِ الكتاب، ليَطغى على الطَّابعِ الموضوعيّ، أو لنَقُل الموسوعيِّ المحايد، الذي حاولَ الكاتبُ الحفاظَ عليه، وأظنُّ أنَّهُ قامَ بتحريفِ عنوانِ الكتابِ بطريقةٍ تسترعي انتباهَ القارئِ العربيِّ المسلم كي يقتنيهِ وتزدادَ مبيعاتُ الكتابِ على حسابِ الحقيقة.

نلاحظُ أنَّ مؤلِّفَ الكتاب اختارَ مئةَ شخصيَّةٍ كانَ لها تأثيرٌ كبيرٌ في التَّاريخ، واختارَ على رأسِ قائمةِ الشخصيَّاتِ المئةِ المؤثِّرة اسمَ النبيِّ محمَّدٍ لما لهُ من تأثيرٍ على مسيرةِ التَّاريخ وأحداثِهِ ونتائجه، والمؤلِّفُ لديهِ مبرِّراتهُ التي تبرِّرُ سببَ اختيارهِ لشخصيَّةِ محمَّد كأوَّلِ شخصيَّةٍ يتحدَّثُ عنها، لكن ما أريدُ التنويهَ إليهِ هوَ كمُّ المعلوماتِ التي تلاعبَ بها المترجمُ وغيَّرها حسبَ مزاجِه، ولتتوافقَ مع عقيدتهِ كي يبدو محمّدٌ كأعظمِ عظماءِ التَّاريخ من ضمنِ اختياراتِ مايكل هارت لمئةِ شخصيَّة.

نقول: أنَّ العنوانَ الأصليَّ للكتاب لَم يتضمَّن كلمةَ «خالدون»، ولا اسمَ «محمَّد» حتّى ـ متبوعاً بالصَّلاةِ عليه ـ إذ أنَّ مؤلِّفَ الكتابِ لم يدرج في اختياراتهِ العظماءَ منَ الشخصيَّاتِ التَّاريخيَّة، بل اختارَ الأكثرَ تأثيراً في التَّاريخ حتّى لو كانوا من عُتاةِ المجرمينَ والسفَّاحينَ والطُّغاة، وهذا ما أوضحهُ في مقدِّمتهِ للكتابِ التي لَم يترجمها المترجم، إنَّما ألَّفَ ودبَّجَ مقدِّمةً مختلفةً تماماً عن مقدِّمةِ المؤلِّفِ وبعيدةً عن أغراضهِ، لتتوافقَ مع أغراضِ المترجمِ غيرِ النزيه.

يقولُ مايكل هارت في مقدِّمتِهِ الأصليّةِ وبكلِّ صراحةٍ ووضوح:

I must emphasize that this is a list of most influential persons in history, not a list of the greatest. For example, there is room in my list for an enormously influential, wicked, and heartless man like Stalin, but no place at all for the saintly Mother Cabrini.

((عليَّ أن أؤكِّدَ أنَّ هذهِ لائحةٌ لأكثرِ النَّاسِ تأثيراً في التَّاريخ وليست لائحةً للعظماء. مثلاً يوجدُ مكانٌ في لائحتي لرجلٍ مؤثِّرٍ بشكلٍ كبير، وشرِّير، ودونَ قلب مثلَ ستالين، ولا يوجدُ مكانٌ للقدِّيسةِ الأمِّ كابريني)).

هذا إن دَلَّ على شيءٍ فإنَّهُ يدلُّ على أنَّ المؤلِّفَ لا يتَّخذُ لنفسهِ معياراً معيَّناً على العظمة، وإنَّما يسردُ الشخصيَّاتِ التي مارست تأثيراً على التَّاريخِ الإنساني؛ سواءً أكانَ سيِّئاً كستالين وهتلر وجنكيز خان، أو حميداً كموزارت وبيتهوفن وغاندي. فالغايةُ من هذا الكتابِ هيَ تحديدُ أكثرِ الشخصيَّاتِ التَّاريخيَّةِ تأثيراً في المجتمعات وليسَ أعظمهم عملاً أو فكراً أو إنجازاً، حتّى لو كانت هذهِ الشخصيَّةُ منَ الأشرار. فستالين كانَ منَ الأشرارِ والمجرمينَ والسفَّاحين الذي أعدمَ عشراتِ الآلافِ من أتباعهِ وأصدقاءهِ وشعبه، وتسبَّبَ بمجاعةٍ في أوكرانيا راحَ ضحيَّتها أكثرَ من سبعةِ ملايينِ إنسان، لكنَّ المؤلِّفَ وضعهُ ضمنَ قائمةِ المئةِ شخصيَّةِ المؤثِّرةِ في التَّاريخ.

كتبَ المترجمُ أنيس منصور في مقدِّمةِ ترجمتهِ العربيَّةِ للكتابِ ما يلي:

"لا أدَّعي أنّي أضفتُ شيئاً إلى هذا الكتاب... وإنَّما حذفتُ بعضَ العباراتِ وبعضَ المصطلحاتِ العلميَّةِ الصَّعبة دونَ الإخلالِ بما أرادهُ المؤلِّف".

وهذا مخالفٌ للحقيقة، ففيهِ اعترافٌ ضمنيٌّ أنَّهُ تلاعبَ بالمصطلحاتِ وحذفَ وأضافَ تعبيراتٍ من عندهِ لتجميلِ صورةِ محمَّد الذي اختارهُ المؤلِّفُ على رأسِ قائمةِ المئةِ شخصيَّةَ المؤثِّرة، ولكنَّهُ لم يُفصِح عن أسبابِ الاختيارِ الحقيقيَّة، بل اعتبرهُ من أعظمِ الخالدينَ رغمَ أنَّ المؤلِّفَ لم يعتبرهُ منَ العظماء، بل منَ المؤثِّرينَ في التَّاريخ كما هوَ ستالين.

وفي نفسِ المقدِّمةِ يكتبُ أنيس منصور قائلاً:

((هذا كتابٌ «عَن» كتاب، أو «من» كتاب... وإن كنتُ لَم ألتزم بحرفيَّةِ كلِّ ما جاءَ فيه)) وهذا لعمري تناقضٌ صارخ، ففي التصريحِ الأوَّلِ يزعمُ أنَّهُ حافظَ قدرَ الإمكانِ على الكتاب، ولَم يحذف منهُ إلَّا بعضَ الفقراتِ والمصطلحاتِ العلميَّةِ الصَّعبة، ثمَّ في الفقرةِ التَّالية يعترفُ بتبجُّحٍ أنَّهُ لَم يلتزم حرفيَّاً بالكتاب... أيُّ خَبَلٍ وتخبُّطٍ هذا يا رجل!!!

ليسَ من حقِّ المترجمِ تغييرُ المصطلحاتِ وتبديلُ النصوصِ دونَ موافقةِ المؤلِّفِ نفسه، أضِف إلى أنَّهُ من غيرِ المسموحِ أن يمارسَ المترجمُ الرَّقابةَ الفكريَّةَ على النصوصِ وعلى عقولِ القرَّاء، بل عليهِ عَدَمُ خيانةِ النصِّ والفكرة، وتوصيلها بحقيقتها إلى القارئ، وإلَّا انعَدَمَت مهمَّتهُ كناقلٍ أمينٍ للنصّ، وباتَ ناحِلاً مزيِّفاً، ومشاركاً في نقلِ الكفر.

ما نستغربهُ بعدَ عدمِ ترجمتهِ لمقدِّمةِ المؤلِّفِ المحوريَّةِ التي توضِّحُ لنا الفكرةَ الأساسيَّةَ للكتاب، والتي لَم تُعجِب صديقنا المترجم، أنَّهُ دخلَ بفصلِ محمَّد، فالكتابُ يبدأُ بشخصيَّةِ محمَّدٍ بذكرِ اسمهِ وتاريخِ ميلادهِ ووفاته (Muhammad 570-632)، أمَّا ما يبدأُ بهِ أنيس منصور كتابهُ فبعنوانٍ تفخيميٍّ بعيدٍ كلَّ البعدِ عن مقاصدِ المؤلِّف (محمَّدٌ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم)، ثمَّ يتابعُ ترجمتهُ للنصِّ مرفقاً اسمَ محمَّدٍ بصيغِ التفخيم، وهذا يتعارضُ مع ما زعمهُ بأنَّهُ كتابٌ «عن» كتاب، أو أنَّهُ ينقلُ بتصرُّفٍ عن كتاب، بل هوَ يترجمُ، بخيانةٍ، ونيَّةٍ سيِّئة، عن سابقِ قصدٍ وإصرار.

كما سنرى في بدايةِ مقدِّمةِ الكاتبِ الذي يوردُ قولاً عن فولتير مفاده: ((إنَّ الذي يتحكَّمُ في عقولنا من خلالِ قوَّةِ الحقّ، لا الذي يستعبدها من خلالِ العُنف، هوَ من نَدينُ له بتعظيمنا)) وبحسبِ معيار فولتير هذا، باعتقادي، أنَّ محمَّداً وغيرهُ ليسوا جديرينَ بأن يكونوا ضمنَ قائمةِ العظماءِ الخالدين، وهوَ الذي قال: ((أمِرتُ أن أُقاتِلَ النَّاس حتَّى يشهدوا أن لا إلهَ إلَّا الله وأنَّ محمَّداً رسولُ الله... فإذا فعلوا ذلكَ عصموا منِّي دمائهم)).

ختاماً، ينبغي التنويهُ إلى عمليَّةِ تحريفٍ خطيرةٍ في المقدِّمة أبعَدَت الكتابَ عن مقاصدِ المؤلِّفِ بوقاحةٍ شديدة، إذ يقولُ المؤلِّفُ في مكانٍ منَ المقدِّمة:

A striking example of this is my ranking Muhammad higher than Jesus, in large part because of my belief that Muhammad had a much

greater personal Influence on the formulation of the Moslem religion than Jesus had on formulation of the Christian religion. This Does NOT Imply, of course, that I think Muhammad was a Greater man than Jesus.

((المثالُ اللافتُ للنَّظر هوَ ترتيبي لمحمَّدٍ في مرتبةٍ أعلى منَ المسيح، ذلكَ لاعتقادي أنَّ محمَّداً كانَ لهُ تأثيرٌ في تشكيلِ الديانةِ الإسلاميَّةِ أكثرَ منَ التأثيرِ الذي كانَ للمسيحِ في تشكيلِ الديانةِ المسيحيَّة، لكن هذا لا يعني أنَّني أعتقدُ أنَّ محمَّداً أعظمُ منَ المسيح))

يعتبرُ مايكل هارت أنَّ لمحمَّدٍ دورٌ مهمٌّ في التطوُّرِ الإسلاميِّ، لأنَّ محمَّداً هوَ كاتبُ القرآنِ الذي هوَ تجميعٌ لتصريحاتِ محمَّدٍ وأفكاره، اعتقدَ بأنَّها أوحِيَتْ إليهِ منَ الله... إذن؛ القرآنُ يمثِّلُ بشكلٍ قريب أفكارَ محمَّدٍ وتعاليمه، ونَفَسَ أحاديثِهِ الى حَدٍّ ما، وقد سُجِّلَت بعدَ وفاتِهِ بشكلٍ قريبٍ أو بعيدٍ عن الصحَّة بحسبِ قولِ مؤلِّفِ الكتاب.

Muhammad, However, was responsible for both the theology of Islam and its main ethical and moral principles. In addition, he played the key role in proselytizing the new faith, and in establishing the religious practices of Islam. Moreover, he is the author of the Moslem holy scripture, the Koran, a collection of Muhammad's statements that he believed had been divinely inspired. Most of these utterances were copied more or less faithfully during Muhammad's lifetime and were collected together in authoritative from not long after his death. The Koran, therefore, closely represents Muhammad's ideas and teachings and, to considerable extent, his exact words. No such detailed compilation of the teachings of the Christ has survived. Since the Koran is at least as important to Moslems as the Bible to the Christians, the influence of Muhammad through the medium of the Koran has been enormous. It is probable that the relative influence of Muhammad on Islam has been larger than the combined influence of Jesus Christ and St. Paul on Christianity. On the purely religious level, then, it seems likely that Muhammad has been

as influential in human history as Jesus.

((ومع ذلك، كانَ محمَّدُ مسؤولاً عن كلٍّ من لاهوتِ الإسلامِ ومبادئِهِ الأخلاقيَّةِ والتشريعيَّةِ الرئيسيَّة، بالإضافةِ إلى ذلك، لعبَ دوراً رئيسيّاً في التبشيرِ بالديانةِ الجديدة، وفي ترسيخِ الممارساتِ الدينيَّةِ للإسلام، إضافةً إلى ذلك، فهوَ مؤلِّفُ الكتابِ المقدَّسِ للمسلمين، القرآن، وهوَ مجموعةٌ من أقوالِ محمَّدَ التي يُعتَقَدُ أنَّها موحاةٌ منَ الله، نُسِخَت معظمُ هذهِ الأقوالِ بأمانةٍ إلى حدٍّ ما خلالَ حياةِ محمَّد، ثمَّ جُمِعَت معاً بشكلٍ موثوقٍ بعدَ وقتٍ قصيرٍ من وفاته، لذلك، يمثِّلُ القرآنُ عن كثب أفكارَ محمَّدٍ وتعاليمه، وإلى حَدٍّ كبير كلماتهُ الدقيقة، لم ينجُ مثلُ هذا التجميعِ المفصَّلِ لتعاليمِ المسيح، بما أنَّ القرآنَ لهُ على الأقلِّ أهمِّيَّةٌ بالنسبةِ للمسلمين مثلَ الكتابِ المقدَّسِ بالنسبةِ للمسيحيِّين، فإنَّ تأثيرَ محمَّدٍ من خلالِ القرآنِ كانَ هائلاً، منَ المحتملِ أنَّ التأثيرَ النسبيَّ لمحمَّد على الإسلام كانَ أكبرَ منَ التأثيرِ المشتركِ ليسوعِ المسيح والقدِّيس بولص على المسيحيَّة، على المستوى الدينيِّ البحت، إذن، يبدو منَ المرجَّحِ أنَّ محمَّداً كانَ لهُ نفسُ تأثيرِ يسوع في تاريخِ البشريَّة)).

أمَّا الترجمةُ العربيَّةُ لأنيس منصور فقد ترجمَ ما جاءَ أعلاهُ بعدَ أن تَلاعَبَ بالنصِّ الإنكليزيِّ وأضافَ في الكلماتِ والمعاني ما لم يذكرها المؤلِّفُ وكما يلي:

((إنَّ القرآنَ الكريمَ قد نَزَلَ عليهِ وحده، وفي القرآنِ الكريمِ قد وَجَدَ المسلمونَ كلَّ ما يحتاجونَ إليهِ في دنياهم وآخرتهم، والقرآنُ الكريمُ نَزَلَ على الرَّسولِ كاملاً، وسُجِّلَت آياتهُ وهوَ ما يزالُ حيّاً، وكانَ تسجيلاً في منتهى الدِّقة، فلم يتغيَّر منهُ حرفٌ واحد، وليسَ في المسيحيَّةِ شيءٌ مثلَ ذلك، فلا يوجدُ كتابٌ واحدٌ محكمٌ دقيقٌ لتعاليمِ المسيحيَّةِ يشبهُ القرآنَ الكريم، وكانَ للقرآنِ على النَّاسِ بالغُ الأثر، ولذلكَ كانَ أثرُ محمَّدٍ على الإسلامِ أكثرَ وأكملَ منَ الأثرِ الذي تركهُ عيسى على الديانةِ المسيحيَّة)).

لا يخفى هنا عن القارئِ اللبيبِ والموضوعيِّ والنزيه التلاعبُ بالترجمة، هل لاحظتم كم منَ الإضافاتِ والمدحِ أُضِيفَ على النصِّ الأصليِّ من قِبَلِ المترجمِ لم يقلها مؤلِّفُ الكتاب!!

الكاتبُ يقولُ هنا، وبشكلٍ صريح:

القرآنُ ليسَ من عندِ الله، بل كلامُ وأفكارُ محمَّد، وهوَ من كتبهُ... وأنَّ محمَّداً اعتقدَ أنَّهُ

كلامٌ موحى إليهِ منَ الله... وأنَّ تأثيرَ القرآنِ على النّاسِ كانَ أكبر، ولهذا فإنَّ تأثيرَ محمَّدٍ كانَ أكبرَ من تأثيرِ المسيحِ على أتباعهِ في أيّامِ حياةِ الاثنين، وليست عظمةُ محمَّدٍ هيَ أكبرَ من عظمةِ المسيح، بل المقارنةُ هيَ عن التأثيرِ في النّاسِ كلٌّ في زمانه.

أمّا المعيارُ الثّاني عندَ الكاتبِ لترتيبِ محمَّدٍ في قائمةِ المائة هوَ أنَّهُ كانَ زعيماً عسكريّاً سياسيّاً، على عكسِ يسوعَ الذي لم يستخدمْ العُنفَ، أو يشكِّلْ قوّةً عسكريّةً لنشرِ تعاليمه:

Furthermore, Muhammad (Unlike, Jesus) was a secular as well as a religious leader. In fact, as the driving force behind the Arab conquests, he may well rank as the most influential political leader of all time.

((إضافةً إلى ذلك، كانَ محمَّدٌ (على عكسِ يسوع) زعيماً دنيويّاً عداكَ عن كونهِ زعيماً دينيّاً، في الواقع، باعتبارهِ القوّةَ الدّافعةَ وراءَ الفتوحاتِ العربيّة، فقد يُصنَّفُ كزعيمٍ سياسيٍّ أكثرَ نفوذاً في كلِّ العصور)).

أمّا ترجمةُ أنيس المنصور الملتوية فهيَ على النّحوِ التّالي:

((ورغمَ ذلك فقد استطاعَ هؤلاءِ البدوُ المؤمنونَ باللهِ وكتابهِ ورسولهِ أن يقيموا إمبراطوريّةً واسعةً ممتدّةً من حدودِ الهندِ حتّى المحيطِ الأطلسي، وهيَ أعظمُ إمبراطوريّةٍ أُقيمَت في التّاريخ إلى اليوم، وفي كلِّ مرّةٍ تكتسحُ هذهِ القوّاتُ بلداً، فإنّها تنشرُ الإسلامَ بينَ النّاس)).

هذا الكلامُ كلُّهُ إضافاتٌ من تأليفِ المترجمِ غيرِ النزيه أنيس منصور، ولم يكن موجوداً في النصِّ الإنكليزيِّ للكتاب، بينما النصُّ الأصليُّ هوَ: [إنَّ الغُزاةَ البدوَ كانوا واقعينَ تحتَ إلهامِ وكلامِ محمَّد]، ولم يتطرّق المؤلِّفُ إلى الإيمانِ باللهِ ورسوله.

يتباهى كتّابُ الدِّعايةِ الإسلاميّةِ أنَّ محمَّداً كانَ الأوّلَ بينَ مائةٍ من عظماءِ التّاريخ، ولكنَّهم لا يقولونَ لماذا اختارهُ مايكل هارت الأوّلَ في قائمةِ المئةِ شخصيّة. هم لا يذكرونَ شيئاً عن تأثيرهِ السلبيِّ في أفكارِ النّاس بسببِ القوّةِ والبَطشِ لمن لم يؤمن به، ولم يقولوا عن التأثيرِ السلبيِّ لغزواتهِ في سَبيِ النّساءِ وسرقةِ ممتلكاتِ القبائلِ التي يغزوها، وتوزيعِ الغنائمِ منَ البشرِ والأموالِ على جنوده.

أكتفي بالتحليلِ عندَ هذا الحدِّ لأقدِّمَ لكم هنا الترجمةَ الكاملةَ لمقدِّمةِ الكاتبِ الأصليّةِ في النسخةِ الإنكليزيَّةِ التي أرادَ المترجم، ومن يقفُ وراءهُ طمسها، فهيَ كافيةٌ لإعطاءِ صورةٍ وافيةٍ ومفصَّلةٍ عن مضمونِ الكتابِ والطريقةِ التي صنَّفَ بها الكاتبُ شخصيَّاتِ الكتابِ ومبرِّراتهِ لذلك، لكن أريدُ التنويهَ في النهاية إلى ما قالهُ المترجمُ في نهايةِ مقدِّمتهِ المدبّجة:

((سوفَ تكونُ مفاجأةً للمؤلِّفِ أن أبعَثَ إليهِ بنسخةٍ من هذا الكتاب، وبذلكَ تكونُ المفاجأةُ الثّانية... أمّا المفاجأةُ الأولى فهيَ عندما أرسلتُ لهُ خطاباً أبدي إعجابي بعلمهِ وخلقهِ، وأستأذنهُ في نشرِ ما أستطيعُ من هذا الكتاب)).

أقول: أراهنُ أنَّ المترجِمَ تجرَّأَ على إرسالِ نسخةٍ مترجمةٍ من كتابهِ هذا إلى الكاتب، الذي لن يأذنَ لهُ بنشرِ هكذا عملٍ ممسوخٍ ومشوَّه، والدليلُ على كلامي، هذهِ الطبعةُ المشوَّهةُ والمعتَّمةُ التي نُشِرَ فيها الكتابُ دونَ أيِّ ذكرٍ لدارِ نشرٍ رسميَّة، أو ذكرِ عامِ النَّشرِ، أو الطبعةِ، أو حقوقِ الترجمة.

مقدّمةُ كتابَ المائة لمايكل هارت

يروي فولتير في كتابِهِ «رسائلُ في اللُّغةِ الإنجليزيَّة»، أنَّهُ أثناءَ إقامتِهِ في إنجلترا عام 1726، سمعَ بعضَ الرِّجالِ المتعلِّمينَ يتناقشونَ حولَ السؤال: من كانَ أعظمَ رجل: قيصر، أم الإسكندر، أم تيمورلنك، أم كرومويل؟ وأكَّدَ أحدُ المتحدِّثينَ أنَّ السِّير إسحاق نيوتن كانَ بلا شكٍّ أعظمَ رجلٍ على الإطلاق، وافقَ فولتير على هذا الحكم، قائلاً: «أنَّ الذي يتحكَّمُ في عقولنا من خلالِ قوَّةِ الحقّ، لا الذي يستعبدها من خلالِ العُنف، هوَ مَن ندينُ لهُ بتعظيمنا».

سواءٌ كانَ فولتير مقتنعاً حقّاً بأنَّ السِّير إسحاق نيوتن كانَ أعظمَ رجلٍ عاشَ على الإطلاق، أو كانَ يحاولُ ببساطةٍ توضيحَ وجهةِ نظرٍ فلسفيَّة، فإنَّ هذهِ الحكايةَ تثيرُ سؤالاً مثيراً للاهتمام: من بينِ بلايينِ البشرِ الذينَ سكنوا الأرض، أيُّ الأشخاصِ هم الأكثرُ تأثيراً على مسارِ التَّاريخ؟

يقدِّمُ هذا الكتابُ إجابتيَ الخاصَّةَ على هذا السؤال، قائمةُ المئةِ شخصٍ في التَّاريخ الذينَ أعتقدُ أنَّهم كانوا الأكثرَ تأثيراً. يجبُ أن أؤكِّدَ أنَّ هذهِ قائمةٌ بالأشخاصِ الأكثرِ تأثيراً في التَّاريخ، وليست قائمةً بالأعظم. فمثلاً يوجدُ مكانٌ في لائحتي لرجلٍ مؤثِّرٍ بشكلٍ كبيرٍ، وشرير، ودونَ قلب مثلَ ستالين، ولا يوجدُ مكانٌ للقدِّيسةِ الأمِّ كابريني.

يتعلَّقُ هذا الكتابُ فقط بمسألةِ من هُم الأشخاصُ المائةُ الذينَ كانَ لهم أكبرُ تأثيرٍ على التَّاريخ وعلى مسارِ العالم. لقد صنَّفتُ هؤلاءِ الأشخاصَ المائة حسبَ الأهمِّيَّة؛ أي وفقاً لمقدارِ التأثيرِ الإجماليِّ لكلٍّ منهم على تاريخِ البشريَّةِ وعلى الحياةِ اليوميَّةِ للبشرِ الآخرين، مثلُ هذهِ المجموعةِ منَ الأشخاصِ الاستثنائيِّين، سواءٌ أكانوا نُبلاءَ صالحين أم أدنياءَ أشرار، مشهورينَ أم غامضين، متكبِّرينَ أم متواضعين، لا يمكنُ إلَّا أن يكونوا مثيرينَ للاهتمام، فهم الأشخاصُ الذينَ شكَّلوا حياتنا وعالمنا.

قبلَ إنشاءِ مثلِ هذهِ القائمة، منَ الضروريِّ صياغةُ القواعدِ الأساسيَّةِ لمن هوَ مؤهَّلٌ

للإدراج فيها وعلى أيِّ أساس، القاعدةُ الأولى هيَ أنَّ الأشخاصَ الحقيقيِّينَ فقط هم المؤهَّلونَ للنَّظرِ في أمرهم، في الحقيقة يصعبُ أحياناً تطبيقُ هذهِ القاعدة؛ على سبيلِ المثال، هل كانَ الحكيمُ الصِّينيُّ لاو تزو موجوداً بالفعل، أم أنَّهُ مجرَّدُ شخصيَّةٍ أسطوريّة، ماذا عن هوميروس، ماذا عن إيسوب، المؤلِّفُ المفترَضُ لكتابِ «أمثالِ إيسوب» الشَّهير؟ في مثلِ هذهِ الحالات، حيثُ الحقائقُ غيرُ مؤكَّدة، اضطرِّرتُ للجوءِ إلى التَّخمينِ _ تخمينٌ متعلِّم، كما أعتقد_ بناءً على المعلوماتِ المتاحة.

كما يتمُّ هنا استبعادُ الأشخاصِ المجهولين، منَ الواضحِ أنَّ الشَّخصَ الذي اخترعَ العجلة _إذا كانت العجلةُ من اختراعِ شخصٍ واحد_ كانَ شخصيَّةً مؤثِّرةً للغاية، وربَّما أهمَّ بكثيرٍ من معظمِ الأشخاصِ المذكورينَ في هذا الكتاب، ومع ذلك، بموجبِ القواعدِ التي أفترضها، تمَّ استبعادُ هذا الفرد، إلى جانبِ مخترعِ الكتابة، وجميعِ المخترعينَ المجهولينَ الذينَ أسدوا خدماتٍ جليلةً للجنسِ البشريِّ منَ الاعتبار.

أثناءَ تأليفي لهذهِ القائمة، لم أختَر ببساطةِ الشخصيَّاتِ الأكثرَ شهرةً أو تألُّقاً في التَّاريخ، لا الشُّهرةُ ولا الموهبةُ ولا نبلُ الشخصيَّةِ هيَ نفسُ الشيءِ مثلَ التأثير، وهكذا، تمَّ حذفُ بنيامين فرانكلين، ومارتن لوثر كينغ جونيور، وبيب روث، وحتّى ليوناردو دافنشي من هذهِ القائمة -على الرَّغمِ من أنَّ البعضَ قد وجدوا مكاناً لهم بينَ إشاراتِ الشَّرفِ التي تلي المئة. من ناحيةٍ أخرى، لا يُمارسُ التأثيرُ دائماً بلطفٍ وإحسان، وبالتَّالي، فإنَّ عبقريّاً شرِّيراً مثلَ هتلر قد يفي بمعاييرِ التضمين.

نظراً لأنَّ التأثيرَ الذي يهمُّنا يجبُ أن يكونَ متوسِّطاً على مستوى العالمِ بأسره، فإنَّ أسماءَ العديدِ منَ الشخصيَّاتِ السياسيَّةِ البارزة التي كانَ تأثيرها محليّاً بشكلٍ أساسيٍّ غائباً، ومع ذلك، فإنَّ التأثيرَ الكبيرَ على بلدٍ مهمٍّ واحد يعادلُ تأثيراً أقلَّ سطوةً لكنَّهُ يؤثِّرُ على الأرضِ بأكملها، وهكذا، فإنَّ بُطرسَ الأكبرَ من روسيا، الذي امتدَّ تأثيرهُ بشكلٍ أساسيٍّ إلى بلدهِ، يظهرُ في قائمتي.

لم أقصر قائمتي على الأشخاصِ الذينَ أثّروا على الوضعِ الحاليِّ للبشريّة، تمَّ أخذُ التأثيرِ على الأجيالِ الماضيةِ في الحسبانِ على قدمِ المساواة.

ماذا عن المستقبل؟ عندَ تصنيفِ الرِّجالِ والنِّساءِ في هذا الكتاب، فكَّرتُ في التأثيرِ الذي قد تتركهُ إنجازاتهم على الأجيالِ والأحداثِ المستقبليَّة. نظراً لأنَّ معرفتنا بالمستقبلِ محدودةٌ للغاية، فمنَ الواضحِ أنَّني لا أستطيعُ تقديرَ التأثيرِ المستمرِّ مع أيِّ شيءٍ يقتربُ منَ اليقين، ومع ذلك، يبدو منَ الآمنِ التنبُّؤُ بأنَّ الكهرباءَ، على سبيلِ المثال، ستظلُّ مهمَّةً بعدَ 500 عام منَ الآن، وبالتَّالي فإنَّ مساهماتِ علماءِ مثلَ فاراداي وماكسويل ستستمرُّ في التأثيرِ على الحياةِ اليوميَّةِ لأحفادنا البعيدين.

في تحديدِ مكانِ وضعِ الفردِ بالضَّبط، أعطيتُ وزناً كبيراً لأهميَّةِ الحركةِ التَّاريخيَّةِ التي ساهمَ فيها، بشكلٍ عام، التطوُّراتُ التَّاريخيَّةُ الكبرى لا ترجعُ أبداً إلى تصرُّفاتِ شخصٍ واحدٍ فقط. نظراً لأنَّ هذا الكتابَ يهتمُّ بالتأثيرِ الفرديِّ والشَّخصيّ، فقد حاولتُ تقسيمَ الفضلِ لتطوُّرٍ معيَّنٍ بما يتناسبُ مع مساهمةِ كلِّ مشارك، لذلك، لا يُصنَّفُ الأفرادُ في نفسِ الترتيبِ مثلَ الأحداثِ أو الحركاتِ المهمَّةِ التي يرتبطونَ بها، في بعضِ الأحيان، يُصنَّفُ الشَّخصُ المسؤولُ بشكلٍ حصريٍّ عن حَدَثٍ أو حركةٍ مهمَّة، في مرتبةٍ أعلى منَ الشَّخصِ الذي لعبَ دوراً أقلَّ سيطرةً في حركةٍ أكثرَ أهميَّة.

المثالُ اللافتُ للنَّظر، هوَ ترتيبي لمحمَّدٍ في مرتبةٍ أعلى منَ المسيح، ذلكَ لاعتقادي أنَّ محمَّداً كانَ لهُ تأثيرٌ في تشكيلِ الديانةِ الإسلاميَّةِ أكثرَ من التأثيرِ الذي كانَ للمسيحِ في تشكيلِ الديانةِ المسيحيَّة، لكنَّ هذا لا يعني أنَّني أعتقدُ أنَّ محمّداً أعظمُ منَ المسيح.

هناكَ بعضُ التطوُّراتِ الهامَّةِ التي ساهمَ فيها عددٌ كبيرٌ منَ الأشخاص، ولكن لم يكن لأيِّ فردٍ فيها أهميَّةٌ عليا، وخيرُ مثالٍ على ذلك هوَ تطويرُ المتفجِّراتِ والأسلحةِ النَّاريَّة، هناكَ شيءٌ آخرُ هوَ حركةُ تحريرِ المرأة، وتطوُّرٌ آخر، هوَ صعودُ وتطوُّرُ الهندوسيَّة، على الرَّغمِ من أنَّ كلاً من هذهِ التطوُّراتِ لهُ أهميَّةٌ بالغة، إذا تمَّ توزيعُ الفَضلِ بينَ العديدِ منَ المساهمين، فلن يكونَ هناكَ شخصٌ واحدٌ مؤهَّلٌ لإدراجِ اسمهِ في هذهِ القائمة.

هل سيكونُ منَ المستحسنِ بعدَ ذلكَ اختيارُ فردٍ تمثيليٍّ لكلٍّ من هذهِ التطوُّرات، ومنحُ ذلكَ الشَّخصِ كلَّ الفضل؟ لا أعتقدُ ذلك، فبموجبِ هذا الإجراء، سيظهرُ الفيلسوفُ الهندوسيُّ سانكارا بالقربِ من أعلى القائمة كممثِّلٍ للهندوسيَّة، لكنَّ سانكارا نفسهُ ليسَ

معروفاً بشكلٍ خاص خارجَ الهند -ولا يتمتَّعُ بتأثيرٍ بارز، وبالمثل، منَ المثيرِ للدَّهشةِ أنَّ تصنيفَ ريتشارد غاتلينج، مخترعَ نموذجٍ مبكرٍ للمدفعِ الرَّشَّاش، أعلى من ألبرت أينشتاين، لمجرَّدِ أنَّ تطوُّرَ الأسلحةِ النَّاريَّةِ كانَ أكثرَ أهمِّيَّةً وتأثيراً من صياغةِ نظريَّةِ النسبيَّة، في جميعِ هذهِ الحالات، قرَّرتُ عدمَ محاولةِ اختيارِ «الأوَّلِ بينَ المتساوين»، اخترتُ كلَّ شخصٍ مدرجٍ في هذا الكتاب على أساسِ تأثيرهِ الفعليّ، وليسَ كممثِّلٍ لحركةٍ مهمَّة.

عندما قامَ شخصان، في تعاونٍ وثيق، بإنتاجِ ما هوَ أساساً إنجازٌ مشترك، تمَّ اعتمادُ قاعدةٍ خاصَّة، على سبيلِ المثال، عَمِلَ أورفيل وويلبر رايت معاً بشكلٍ وثيقٍ في اختراعِ الطَّائرةِ لدرجةِ أنَّهُ يكادُ يكونُ منَ المستحيلِ فصلُ مساهماتِها الفرديَّة، في هذهِ الحالة، يبدو من غيرِ المجدي محاولةُ التأكُّدِ من نسبةِ الفضلِ أو المساهمةِ المستحقَّةِ لكلِّ فرد، ثمَّ تخصيصُ مكانٍ منفصلٍ لكلِّ رجلٍ في القائمة، وبدلاً من ذلك، تمَّ التعاملُ مع الرَّجلينِ كتبويبٍ مشترك.

على غرارِ الأخوينِ رايت، يشتركُ كارل ماركس وفريدريك إنجلز، في فصلٍ واحد، على الرَّغمِ من أنَّهُ يحملُ فقط اسمَ ماركس، الذي أراهُ الأكثرَ أهمِّيَّةً منَ الاثنين. القليلُ منَ المساهمينَ المشتركينَ تعاملتُ معهم بنفسِ الطريقة، اسمحوا لي أن أؤكِّدَ أنَّ هذهِ القاعدةَ حولَ التبويبِ المشترك لا تنطبقُ على الأشخاصِ الذينَ يعملونَ فقط في نفسِ المجالِ العام، بل فقط على المتعاونينَ المقرَّبين.

هناكَ عاملٌ آخر، تمَّ اقتراحه، يجبُ مراعاتهُ عندَ تحديدِ مكانةِ الفردِ في هذهِ القائمة، بالنَّظرِ إلى الوراء، يمكننا أن نرى أنَّهُ لو لم يخترع غوليرمو ماركوني الرَّاديو، لكانَ شخصٌ آخرٌ قد فعلَ ذلكَ في غضونِ بضعِ سنوات، وبالمثل، يبدو منَ المحتملِ أنَّ المكسيكَ كانت ستحتلُّها إسبانيا حتّى لو لم يكن هيرناندو كورتيس موجوداً أصلاً، وأنَّ نظريَّةَ التطوُّرِ كانت ستُصاغُ من دونِ تشارلز داروين، لكنَّ ماركوني وكورتيس وداروين قاموا بتنفيذِ هذهِ الإنجازاتِ على التوالي، لذلكَ صُنِّفَ هؤلاءِ الرِّجالُ الثلاثةُ في هذهِ القائمةِ وفقاً لإنجازاتهم، وتمَّ تجاهلُ الحُجَّةِ القائلة: «كانَ يمكنُ لذلكَ أن يحدثَ على أيِّ حال».

من ناحيةٍ أخرى، كانَ عددٌ قليلٌ منَ الأشخاصِ النَّادرينَ مسؤولينَ عن أحداثٍ مهمَّةٍ لم تكن لتحدثَ من دونهم. عندَ تقييمِ وترتيبِ هؤلاءِ الأشخاص _وهم مجموعةٌ مختلطةٌ

بشكلٍ غريب تضمُّ أعضاؤها جنكيز خان، وبيتهوفن، ومحمَّد، وويليام الفاتح_ تمَّ منحُ إنجازاتهم الخاصَّةِ وزناً أكبر، لأنَّ هؤلاءِ الأفراد كانَ لهم تأثيرٌ شخصيٌّ بالمعنى العميقِ للكلمة.

من بينِ عشراتِ الملياراتِ منَ الأفرادِ الذينَ وُجِدوا في العالم، أُدرِجَ أقلُّ من واحدٍ من كلِّ مليون في قاموسِ السيرةِ الذَّاتيَّةِ الكبير، من بينِ العشرينَ ألفَ فردٍ الذينَ تستحقُّ إنجازاتهم ذكرها في قواميسِ السيرةِ الذَّاتيَّة، ضُمِّنَ حوالي نصفٍ بالمائة فقط في هذهِ القائمة، وبالتَّالي، فإنَّ كلَّ شخصٍ في هذهِ القائمةِ، في رأيي، هوَ واحدٌ من الشخصيَّاتِ التَّاريخيَّةِ المؤثِّرةِ حقّاً.

منَ الواضحِ أنَّ تأثيرَ المرأةِ على الشؤونِ الإنسانيَّة، وكذلكَ المساهماتِ التي قدَّمتها الإناثُ في الحضارةِ الإنسانيَّة، أكبرُ بكثيرٍ ممَّا يمكنُ أن تشيرَ إليهِ أعدادهنَّ في هذهِ القائمة، لكن منَ الطبيعيِّ أن تتكوَّنَ مجموعةٌ منَ الشخصيَّاتِ المؤثِّرةِ من إناثٍ يتمتَّعنَ بالموهبةِ والفرصةِ لممارسةِ تأثيرٍ كبير، فعبرَ التَّاريخ، حُرِمَت النِّساءُ عموماً من مثلِ هذهِ الفُرَص، وإشراكي لامرأتينِ فقط هوَ مجرَّدُ انعكاسٍ لتلكَ الحقيقةِ المؤسفة، لا أرى أيَّ فائدةٍ من محاولةِ التستُّرِ على الحقيقةِ البغيضةِ للتميز من خلالِ إضافةِ عددٍ قليلٍ منَ النِّساءِ إلى قائمتي. يعتمدُ هذا الكتابُ على ما حدثَ بالفعلِ في الماضي، ليسَ على ما كانَ يجبُ أن يحدث، أو على ما كانَ يمكنُ أن يحدثَ لو كانت المؤسَّساتُ البشريَّةُ أكثرَ إنصافاً، يمكنُ إبداءُ ملاحظاتٍ مماثلةٍ فيما يتعلَّقُ بمجموعاتٍ عرقيَّةٍ أو إثنيَّةٍ مختلفةٍ كانَ أعضاؤها محرومينَ في الماضي.

لقد شدَّدتُ على أنَّ التأثيرَ، كانَ المعيارَ الوحيدَ في تصنيفِ الأفرادِ في هذهِ الخلاصةِ الوافية، سيكونُ منَ الممكنِ، بالطَّبع، تكوينُ قوائم بـ «الأشخاصِ البارزين»، بناءً على معاييرَ أخرى، مثلَ الشُّهرةِ والهيبةِ والموهبةِ والتنوُّعِ ونُبلِ الشخصيَّة.

أنتَ، عزيزي القارئ، مدعوٌّ إلى التجربةِ من خلالِ تكوينِ قائمتكَ الخاصَّة_ سواءٌ كانت تتضمَّنُ أكثرَ الشخصيَّاتِ نفوذاً، أو أكثرَ الشخصيَّاتِ تميُّزاً، أو الشخصيَّاتِ الفريدةَ والفائقةَ في أيِّ مجالٍ معيَّن، لقد وجدتُ أنَّ إنشاءَ هذا الكتابِ على أكثرِ مائةِ شخصيَّةٍ مؤثِّرة أمراً رائعاً وممتعاً، وأنا على ثقةٍ من أنَّكَ ستستمتعُ أيضاً بالممارسةِ الفكريَّةِ لتجميعِ قائمتكَ أو قوائمكَ الخاصَّة. لن تتطابقَ قائمةُ الأسماءِ الخاصَّةُ بك_ ولا يلزمُ أن تتطابقَ مع قائمةِ الأسماءِ الخاصَّةِ

بي، قد تفضِّلُ التفكيرَ، على سبيلِ المثال، في أقوى مائةِ شخصٍ على الإطلاق، أو أكثرَ مائةِ شخصيَّةٍ كاريزميَّة، لكن إذا اخترتَ ترشيحَ الشخصيَّاتِ الأكثرِ نفوذاً وتأثيراً، آملُ أن تفتحَ هذهِ العمليَّةُ أمامكَ، كما فعلت بالنسبةِ لي، منظوراً جديداً للتَّاريخ.

THE 100

A RANKING OF THE MOST INFLUENTIAL PERSONS IN HISTORY

Michael H. Hart

A Citadel Press Book
Published by Carol Publishing Group

Carol Publishing Group Edition - 1993

A Citadel Press Book
Published by Carol Publishing Group
Citadel Press is a registered trademark of Carol Communications, Inc.

Editorial Offices: 600 Madison Avenue, New York, NY 10022
Sales & Distribution Offices: 120 Enterprise Avenue, Secaucus, NJ 07094
In Canada: Canadian Manda Group, P.O. Box 920, Station U, Toronto, Ontario, M8Z 5P9, Canada

Queries regarding rights and permissions should be addressed to:
Carol Publishing Group, 600 Madison Avenue, New York, NY 10022

Manufactured in the United States of America

Carol Publishing Group books are available at special discounts for bulk purchases, for sales promotions, fund raising, or educational purposes. Special editions can also be created to specifications. For details contact: Special Sales Department, Carol Publishing Group, 120 Enterprise Ave., Secaucus, NJ 07094

12 11 10 9 8 7 6 5 4 3 2

Library of Congress Cataloging-in-Publication Data

The 100: a ranking of the most influential persons in history / Michael H. Hart.—Rev. ed.
p. cm.
Originally published: New York: Hart Pub. Co., 1978.
ISBN 0-8065-1348-8: ISBN 0-8065-1350-0
1. Biography. I. Title. II. Title: One-hundred.
CT105.H32 1992
920.02—dc20 92-35426
CIP

INTRODUCTION

In his book *Letters on the English*, Voltaire relates that during his stay in England, in 1726, he overheard some learned men discussing the question: who was the greatest man—Caesar, Alexander, Tamerlane, or Cromwell? One speaker maintained that Sir Isaac Newton was beyond a doubt the greatest man. Voltaire agreed with this judgment, for: "It is to him who masters our minds by the force of truth, and not to those who enslave them by violence, that we owe our reverence."

Whether Voltaire was truly convinced that Sir Isaac Newton was the greatest man who ever lived or was simply trying to make a philosophical point, the anecdote raises an interesting question: of the billions of human beings who have populated the earth, which persons have most influenced the course of history?

This book presents my own answer to that question, my list of the 100 persons in history whom I believe to have been the most influential. I must emphasize that this is a list of the *most influential* persons in history, not a list of the *greatest*. For example, there is room in my list for an enormously influential, wicked, and heartless man like Stalin, but no place at all for the saintly Mother Cabrini.

This book is solely involved with the question of who were the 100 persons who had the greatest effect on history and on the course of the world. I have ranked these 100 persons in order of importance: that is, according to the total amount of influence that each of them had on human history and on the everyday lives of other human beings. Such a group of exceptional people, whether noble or reprehensible, famous or obscure, flamboyant or modest, cannot fail to be interesting; they are the people who have shaped our lives and formed our world.

What about the future? In ranking the men and women in this book, I considered the influence that their accomplishments may have on future generations and events. Since our knowledge of the future is severely limited, it is obvious I could not estimate continued influence with anything approaching certitude. Nevertheless, it seems safe to predict that electricity, for example, will still be important 500 years from now, and the contributions of such scientists as Faraday and Maxwell will therefore continue to affect the daily lives of our remote descendants.

In deciding exactly where to place an individual, I gave much weight to the importance of the historical movement to which he contributed. Generally speaking, major historical developments are never due to the actions of one person alone. Because this book is concerned with *individual, personal influence*, I have tried to divide the credit for a given development in proportion to each participant's contribution. Individuals, therefore, are not ranked in the same order as would be the important events or movements with which they are associated. Sometimes a person who is almost exclusively responsible for a significant event or movement has been ranked higher than one who played a less dominant role in a more important movement.

A striking example of this is my ranking Muhammad higher than Jesus, in large part because of my belief that Muhammad had a much greater personal influence on the formulation of the Moslem religion than Jesus had on the formulation of the Christian religion. This does not imply, of course, that I think Muhammad was a *greater* man than Jesus.

There are some important developments to which a large number of persons contributed, but in which no one individual was of overriding importance. A good illustration is the development of explosives and firearms; another is the women's liberation movement; still another is the rise and evolution of Hinduism. Although each of these developments is of major importance, if credit were apportioned among the many contributors, no one person would qualify for inclusion on this list.

Would it then be advisable to choose a representative individual for each of these developments, and to accord that person

all of the credit? I think not. Under such a procedure, the Hindu philosopher Sankara would appear near the top of the list as a representative of Hinduism. But Sankara himself is neither particularly famous—he is virtually unknown outside India—nor outstandingly influential. Similarly, it would strike me as frivolous to rank Richard Gatling, the inventor of an early model of machine gun, higher than Albert Einstein, purely on the grounds that the evolution of firearms was more important than the formulation of the theory of relativity. In all such cases, I have decided *not* to try to choose a "first among equals." Each person included in this book has been selected on the basis of his or her actual influence, rather than as a representative of an important movement.

Where two individuals, in close collaboration, have produced what is essentially a joint accomplishment, a special rule has been adopted. For example, Orville and Wilbur Wright worked so closely together in inventing the airplane that it is nearly impossible to separate their individual contributions. In this case, it seems pointless to attempt to ascertain the proportion of credit due to each man, and then to assign each man a separate place on the list. Instead, the two men have been treated as a joint entry.

Like the Wright brothers, Karl Marx and Friedrich Engels share a chapter, although it is headed only by the name of Marx, whom I consider the more important of the two. A few other joint contributors have been treated in the same fashion. Let me stress that this rule about joint entry does not apply to persons who merely worked in the same general field, but only to close collaborators.

There is one other factor, which it has been suggested, should be considered in determining an individual's place on this list. In retrospect, we can see that if Guglielmo Marconi had not invented the radio, some other person would have done so within a few years. Similarly, it seems likely that Mexico would have been conquered by Spain even had Hernando Cortés never existed, and that the theory of evolution would have been formulated without Charles Darwin. But these accomplishments

were *actually* carried out by Marconi, Cortés, and Darwin, respectively. These three men have therefore been ranked on this list in accordance with their achievements, and the argument that "It would have happened anyway" has been disregarded.

On the other hand, a few rare people were responsible for important events that might *never* have occurred without them. In assessing and ranking these people—an oddly-mixed group whose members include Genghis Khan, Beethoven, Muhammad, and William the Conqueror—their particular achievements have been assigned greater weight, because these individuals have been personally influential in the profoundest sense of the term.

Of the tens of billions of individuals who have inhabited the world, fewer than one in a million is listed in a large biographical dictionary. Of the perhaps twenty thousand individuals whose achievements have merited mention in biographical dictionaries, only about one-half of one percent are included on this list. Thus, every person on this list, in my opinion, is one of the truly monumental figures of history.

The influence of women on human affairs, as well as the contributions that females have made to human civilization, is obviously far greater than might be indicated by their numbers in this list. But a galaxy of influential figures will naturally be composed of individuals who had both the talent *and* the opportunity to exert a great influence. Throughout history, women have generally been denied such opportunities, and my inclusion of only two females is simply a reflection of that regrettable truth. I see no point in trying to cover up the disagreeable fact of discrimination by adding a few token women to my list. This book is based on what actually *did* occur in the past; not on what should have occurred, or on what might have occurred had human institutions been more equitable. Similar observations might be made concerning various racial or ethnic groups whose members have been disadvantaged in the past.

I have stressed that influence has been the sole criterion in ranking the individuals in this compendium. It would, of course,

be possible to construct lists of "outstanding persons," based on other criteria, such as fame, prestige, talent, versatility, and nobility of character.

You, the reader, are urged to experiment by composing your own list—whether it be of the most influential, or of the most outstanding, or of otherwise superlative personages in any particular field. I have found the creation of this book on the one hundred most influential figures both fascinating and entertaining, and I am confident that you, too, will enjoy the intellectual exercise of assembling your own list or lists. Your list of names will not and need not coincide with mine. You may prefer to ponder, for example, the one hundred most powerful individuals who ever lived, or the one hundred most charismatic characters. But should you choose to nominate the most *influential* figures, I hope the exercise will open up for you, as it did for me, a new perspective on history.

فهرس المحتويات

الإسلام بعيون غربية

JAY SMITH جاي سميث



أنجيليكا نويفرت ANGELIKA NEUWIRTH



يتضمن الكتاب أبحاث هامة منشورة في عدة كتب لنخبة من المستشرقين والباحثين في الشأن الإسلامي في الغرب. اخترناها بعناية للتعرف على صورتنا في ثقافة الآخر المختلف عن عالمنا العربي وماهي آخر الأبحاث التي وصلوا إليها.

TOBY LESTER توبي ليستر

